المنهج التربوي للسيرة النبوية

١٠

التربية السياسية

د. منير الغضبان

الجزء الأول

دار الوفاء


منتدى إقراء الثقافي

الطبعة الثانية

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع. - المنصورة

الإدارة :ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ ـ فاكس :٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠
المكتبة : أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠

E-Mail:DAR ELWAFA @ HOTMAIL . COM

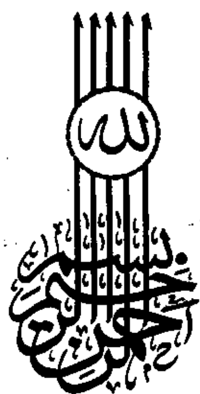
المنهج التربوي للسيرة النبوية

(١٠)

التربية السياسية

الجزء الأول

منير الغضبان



بين يدى البحث
التربية السياسية

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

نعنى بالتربية السياسية : كيف استطاع سيد الخلق محمد ﷺ أن يسوس هذه الأمة التى جاء قادتها وسادتها ليعلنوا إسلامهم فى المدينة؛ما بين إسلام حقيقى وإيمان راسخ ، وما بين إسلام سياسى حين آمن هؤلاء الزعماء أن محمدًا قوة لا تقاوم ولا مناص من الاستسلام له والمهادنة معه .

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) ﴾ [الحجرات] .

ونتعلم من خلال لقائه مع وفود العرب التى أطبقت على المدينة خلال العامين التاسع والعاشر ، فن التعامل مع هؤلاء الزعماء الذين يمثل كل واحد منهم دولة مستقلة بقوا قرونًا طويلة ، لهم استقلالهم الخالص وفى صراع دامٍ مستمرٍ مع جيرانهم من الزعماء .

لقد بقى العرب ما ينوف عن ألف عام وهم يتصارعون فيما بينهم ، وعجزوا أن يؤسسوا دولة يتجاوزون فيها عالم القبيلة ، ولا يخضعون إلا لقيمها فى الثأر وسفك الدماء ، فهو الدين الذى دانوا له ، وكما يقول المغيرة بن شعبة رضي الله عنه : ديننا أن يقتل بعضنا بعضا .

وفى هذا القتل أمجادهم وآثارهم ، وما سمى فى التاريخ بـ « أيام العرب » هو تاريخ هذا الصراع الدامى الذى عاشته العرب منذ أن وجدوا على الأرض .

رسول الله ﷺ وحده هو الذى عَلَّمَ البشرية فن التعامل مع القيادات والزعامات . ونحن ستتشرف فى التتلمذ على هذا الفن ، وندرس علم السياسة كاملاً من خلال هذه اللقاءات وهذه الوفود حيث نحى السيف جانبًا ، وأصبحت العبقرية السياسية هى التى تقود هذه الأمة ؛ التى لم تعرف البشرية أشرس منها عصبية واعتداءً وجاهلية واعتزازاً

بالقبلية التى حكمتها منذ أن وطئت الأرض .

لا ننكر أن هناك دولاً قامت فى أرض العرب ، لكن هذه الدول جميعًا إنما قامت فى ظل احتلال أجنبى ، وتحت راية دولة عظمى تخضع لها ، وتنفذ سياستها . وهذا ما قاله المثنى بن حارثة الشيبانى لرسول الله ﷺ يوم النقاة فى مكة ، وقبل قيام دولة الإسلام :

(قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش . . وإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب دون ما يلى أنهار كسرى فعلنا . فإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ، ألا نحدث حدثًا ، ولا نؤوى محدثًا . وإنى أرى هذا الأمر الذى تدعو إليه أنت ، هو مما تكرهه الملوك) (١) .

وكذلك كان جواب بكر بن وائل :

(فقال لهم : كيف العدو فيكم ؛ قالوا : كثير مثل الثرى . قال : فكيف المنعة ؟ قالوا : لا منعة ، جاورنا فارس فنحن لا نمنع منهم ولا نجير عليهم) (٢) .

وأما عند غسان فالأمر أدهى وأمر ، فهم الوحيدون الذين قتلوا رسولَ رسولِ الله ﷺ كما روى الواقدى عن شيوخه قال : (بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدى ثم أحد بنى لهب إلى ملك بصرى بكتاب . فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى ، فقال أين تريد ؟ قال :الشام . قال : لعلك من رسل محمد ؟ قال ، نعم ، أنا رسولُ رسولِ الله . فأمر به فأوثق رباطًا ، ثم قدمه فضرب عنقه صبرًا . ولم يقُتل لرسول الله ﷺ رسول غيره) (٣) .

ومن أجله كانت غزوة مؤتة ، واستطاع قيصر أن يجيش عرب الشمال جميعًا لحرب محمد ﷺ (ومضى المسلمون من المدينة فسمع العدو بمسيرهم عليهم قبل أن ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير . . . وخاف شرحبيل بن عمرو فتحصن وبعث أخًا له يقال له وبر بن عمرو (أى إلى قيصر) فسار المسلمون حتى نزلوا أرض معان من أرض الشام . فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام فى مائة ألف ، عليهم رجل من بلى يقال له مالك . . .) (٤) .

فعرب الشمال يأتمرون بأمر قيصر ، كما يأتمر عرب الحيرة والشرق بأمر كسرى .

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ١٥٧ .
(٢) المصدر السابق ٢ / ١٥٨ .
(٣) المغازى للواقدى ٢ / ٧٥٥ .
(٤) المصدر السابق ٢ / ٧٥٩ ، ٧٦٠ .

وفى اليمن حيث الدول العريقة فيها . إنما استعاد سيف بن ذى يزن ملكه بالسيف الفارسى كما يقول أمية بن الصلت فى أبياته :

ليطلب الوتر أمثال ابـــن ذى يزنٍ ... ريَّم فـــى البحـــر للأعداء أحوالا
ثم انثنى نحـــو كسرى بعد عاشرة ... مـــن السنين يهـــين النفس والمالا
لله درهم مـــن عصبة خـــرجوا ... ما إن رأى لهم فى الناس أمثالا
بيـــضًا مـــرازبة غُلْبًا أســـاورة ... أسدًا تربّب فى الغضبان أشبالا (١)

إلى آخر قصيدته .

لقد كان وجود هذه الأمة بوجود رسول الله ﷺ وكما قال لوفد شيبان يوم اعتذروا عن منعته لعزة الفرس : (« فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم وتستنكحوا نساءهم وتستعبدون أبناءهم أن تسبحوا الله ثلاثًا وثلاثين ، وتحمدوه ثلاثًا وثلاثين ، وتكبروه ثلاثًا وثلاثين » فقال له النعمان (بن شريك) : والله إن ذلك لك يا أخا قريش . . .) (٢) .

ومعركة ذى قار اليتيمة الوحيدة التى كانت بين الفرس والعرب قبل الإسلام وانتصر فيها العرب إنما هى من بركات المصطفى ﷺ .

فلم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً حتى خرج إلى أصحابه فقال لهم : «احمدوا الله كثيراً فقد ظفرت اليوم أبناء ربيعة بأهل فارس قتلوا ملوكهم ،واستباحوا عسكرهم ، وبى نصروا »، وكانت الوقعة بقراقر إلى جنب ذى قار ، وفيها يقول الأعشى :

فـــدى لبنى أهل ابن شيبان نـــاقتى ... وراكبها عـــند اللـــقاء وقلَّت
همـــوا ضربـــوا بالحنـــو حنو قراقرٍ ... مقدمة الهامـــرز حـــتى تولَّت
فثاروا وثـــرنا والمنيـــة بينـــنا ... وهاجـــت عـــلينا غمرة فتجلت

وتابع ابن كثير قوله :هذا حديث غريب جداً كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ومحاسن الأخلاق ، ومكارم الشيم وفصاحة العرب ،وقد ورد هذا من طريق أخرى وفيه: (أنهم لما تحاربوا هم وفارس والتقوا معهم بقراقر « مكان قريب من الفرات » جعلوا شعارهم اسم محمد ﷺ ، فنُصروا على فارس بذلك ،وقد دخلوا بعد ذلك فى الإسلام) (٣) .

هذا ، ولابد لنا من العودة إلى الماضى قليلاً لنعيش مع هذه التربية السياسية ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٥ ، ٦٦ .
(٢ ، ٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣/١٥٩.

والتى نرى فيها عظمة المصطفى ﷺ فى فن سياسة الأمم . وترويض القادة والعظماء فى الأرض . وذلك منذ أن دعا قادة قريش فى العام العاشر للبعثة إلى الإيمان بهذا الدين لتقاد البشرية بهم : « كلمة واحــدة تعطونيها ، تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » ، قال أبو جهل : هاتها وأبيك ، وعشر كلمات . قال : « تقولون لا إله إلا الله ، وتنبذون ما تعبدون من دونه » . وبلا إله إلا الله ، وبمحمد رسول الله قامت هذه الأمة ، ولن تقوم إلا بها إلى قيام الساعة .

المدن العربية فى الحجاز

أولاً : المدينة المنورة .

ثانيًا : مكة المكرمة .

ثالثًا : الطائف .

المدن العربية فى الحجاز

لقد كانت المدن العربية فى عهد رسول الله ﷺ والتى يُطلق عليها الحضر أو المدر ، وما غيرها هم من البدو الأعراب التى تسمى بالوبر .كانت هذه المدن ثلاثة فى الحجاز وهى :مكة المكرمة ، والمدينة ، والطائف . وكانت اليمامة فى نجد ، أما فى اليمن، فكانت المدينتان الكبيرتان فيها هما : صنعاء وعدن . وذلك كما ذكرهم ابن دريد فى جمهرته (أشعار العرب) وتحدث عن شعراء المدن العربية .

المدينة المنورة

لقد كانت يثرب هى المدينة الأولى التى اختارت الإسلام عقيدة وقدمت حياة شبابها ورجالها جهاداً فى سبيل الله ومثلت كتائب الأنصار التى ﭭ إلى قيام الساعة تاريخ الإسلام كله. فهو تاريخها وتاريخ المهاجرين الذين أقاموا هذا الصرح العظيم بقيادة المصطفى ﷺ والأجزاء السابقة التسعة تتحدث عن هذا الأمر .

زعيم النفاق : عبد الله بن أبى :

إننا سنقف ملياً مع الزعيم الذى قاد حركة النفاق خلال عشر سنوات ، فى عرض مقتضب ، وندخل هذه المدرسة السياسية التى استمرت هذا الزمن كله مع حزبه وقادة حزبه المنافقين . والقرآن الكريم ملىء بالحديث عن مواقفهم وتناقضاتهم وفضحهم ، ثم جعل باب التوبة والإيمان مفتوحاً دائماً أمامهم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (١٤٦)** ﴾[النساء].

لقد كانت عقدة الزعامة واستلابة الملك هى التى تحكم تصرفاته خلال حياته كلها ، ومات كافراً ولم يتمكن من التخلص منها ، ومن الحقد على الإسلام وعلى رسول الإسلام كذلك .

هذه هى نفسية عبد الله بن أبى عارية فى حديثه يوم المريسيع لأركان حزبه :

(فغضب ابن أبى غضباً شديداً ، وكان مما ظهر من كلامه ، وسُمع منه أن قال :

والله ما رأيت كاليوم مذلة . والله إن كنت كارهاً لوجهى هذا ، ولكن قومى

غلبونى ، قد فعلوها ، نافرونا وكاثرونا فى بلادنا وأنكروا مِنَّتَنَا . والله ما صرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفًا يهتف بما هتف به جهجاه (يا للمهاجرين) وأنا حاضر لا يكون لذلك منى غير والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل) .

ثم أقبل على من حضر من قومه فقال:(هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، فنزلوا منازلكم وآسيتموهم فى أموالكم حتى استغنوا ! أما والله لو أمسكتم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم ، ثم لم يرضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقُتلتم دونه ، فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا) (١) .

والذى يتبادر إلى الذهن مباشرة أن الحل هو القتل لهذا الكافر المرتد ، خاصة بعد أن جاء القرآن صريحاً بسورة كاملة تُصَدِّقُ الغلام زيد بن أرقم الذى نقل الحديث لرسول الله ﷺ ؛ هى سورة (المنافقون) وتذكر كل ما قاله .

وَمَثَّلَ هذا الرأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

(فقلت: يا رسول الله،ائذن لى أن أضرب عنق ابن أُبَى فى مقالته،فقال رسول الله ﷺ: أو كنت فاعلاً ؟قال: نعم،والذى بعثك بالحق :قال رسول الله ﷺ :إذًا لأُرعدت له آنُفُ بيثرب كثيرة:لو أمرتهم بقتله قتلوه (أى عندما يقتله عمر) قلت : يا رسول الله فمر محمد بن مسلمة فليقتله . قال : لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) (٢) .

وها هو رأى قيادة الأوس ممثلة بأسيد بن حضير رضوان الله عليه :

(ويقال لقبه أسيد بن حضير ـ قال ابن واقد : وهو الأثبت عندنا ـ قال : يا رسول الله،خرجت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فيها ؛ فقال رسول الله ﷺ : « أو لم يبلغكم ما قال صاحبكم ؟ » قال : أى صاحب يا رسول ؟ قال : « ابن أبى زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذل » ، قال :

فأنت يا رسول الله تخرجه إن شئت،فهو الأذل وأنت الأعز . والعزة لله ولك وللمؤمنين ثم قدَّم رأيه الذى يمثل اللين والحكمة مثل رأى رسول الله ﷺ ،ثم قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك . وإن قومه لينظمون له الخرز ،ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودى ،قد أرب بهم فيها لمعرفته بحاجتهم إليها

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٤١٦ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ٤١٨ .

ليتوجوه . فجاء الله بك على هذا الحديث . فما يرى إلا قد سلبته ملكه) (١) .

وبذلك حلَّل نفسيته كاملة . وأكد أن عقدة الزعامة ذبحته فى الدنيا والآخرة .

والنظرة الأعمق عند رسول الله ﷺ هو أنه يريد ذلك الجيل الشاب الذى يرث عبد الله بن أبى فهو محط نظره ، وهو الوارث لقيادة المدينة وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن عبد الله بن أبى . وهو الذى جاء إلى رسول الله ﷺ قائلاً :

(يا رسول الله . إن كنت تريد أن تقتل أبى فيما بلغك عنه فمرنى ، فوالله لأحملنَّ إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا . والله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبر بأبيه منى وما أكل طعامًا منذ كذا وكذا من الدهر ، ولا يشرب شرابًا إلا بيدى . وإنى لأخشى يا رسول الله أن تأمر غيرى بقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس . فأقتله فأدخل النار . وعفوك أفضل ومنُّك أعظم) .

وهى فرصة مواتية أن يتقدم ابن عبد الله بن أبى لقتل أبيه . وتخنق الفتنة فى مهدها . ويرتاح المسلمون من شره . لكن ما حال هذا القلب الكسير الذى قتل أباه . ولم لا يكون القتل المعنوى لابن أبى بانفضاض الناس عنه أمام عفو النبوة الأعظم ؟

قال رسول الله ﷺ : « يا عبد الله ، ما أردت قتله ، وما أمرت به . ولنحسننَّ صحبته ما كان بين أظهرنا » .

فقال عبد الله : يا رسول الله ، إن أبى كانت هذه البحرة قد اتسقوا عليه ليتوجوه عليهم ، فجاء الله بك ، فوضعه الله ورفعنا بك ، ومعه قوم يطيفون به ويذكرون أموراً قد غلب الله عليها) (٢) .

وتم القتل المعنوى للنفاق الذى يريده رسول الله ﷺ على يد ابنه :

قال : (ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى وادى العقيق تقدم عبد الله رضي الله عنه ابن عبد الله بن أبى ابن سلول ، وجعل يتصفح الركاب حتى مر أبوه فأناخ به ثم وطئ على يد راحلته ، فقال أبوه : ما تريد ما لكع . فقال : والله لا تدخل حتى تقر أنك الذليل ، وأن رسول الله ﷺ هو العزيز حتى يأذن لك رسول الله ﷺ لتعلم أيضًا الأعز من الأذل ، أنت أم رسول الله . فصار يقول : لأنا أذل من الصبيان ، لأنا أذل من النساء حتى جاء رسول الله ﷺ قال : خلِّ عن أبيك . فخلى عنه) (٣) .

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٤١٩ . (٢) المصدر السابق ٢ / ٤٢١ .

(٣) السيرة الحلبية لابن برهان الدين الحلبى ٢ / ٦٠٢ .

(وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ، حين بلغه ذلك من شأنهم :

« كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلته يوم قلت لى : اقتله . لأُرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » .

قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى) (١) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٩٣ .

زعيم مكة : أبو سفيان بن حرب

وهذا هو ختام الصراع بين أبى سفيان بن حرب زعيم مكة وبين رسول الله ﷺ والذى يتمثل بشخص أبى سفيان يوقع ميثاق الاستسلام والهزيمة . وقلبه يشع حبًا وتعظيمًا لخصمه محمد ﷺ . بعد أن كان ينز حقداً وضغينة . وندع الحديث للنصوص تتكلم بذلك :

(فلما نزل قريش مرّ الظهران قال العباس بن عبد المطلب ، فقلت : وا صباح قريش،والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأذنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر ، قال : فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، فخرجت عليها . قال : حتى جئت الأراك فقلت : لعلى أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة ، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة . قال: فوالله،إنى لأسير عليها ، وألتمس ما خرجت له . إذ سمعت كلام أبى سفيان بن حرب وبُديل بن ورقاء وهما يتراجعان . وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا . قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب . قال أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها قال : فعرفت صوته ؛ فقلت : يا أبا حنظلة . فعرف صوتى ، فقال : أبو الفضل ؟ قلت : نعم ؛ قال : ما لك ؟ فداك أبى وأمى ، قلت : ويحك يا أبا سفيان ،هذا رسول الله ﷺ فى الناس ، وا صباح قريش والله . قال : فما الحيلة ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك . فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله ﷺ فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر ، فقال :يا رسول الله،هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعنى فلأضرب عنقه قلت : يا رسول الله ، قد أجرته ، فقال رسول الله ﷺ : « اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فائتنى به » . قال : فذهبت به إلى رحلى فبات عندى . فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ . فلما رآه رسول الله ﷺ قال : «ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ » .

قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله ، لقد ظننت أن لو كان مع الله إلها غيره لقد أغنى غنى شيئًا بعد .

قال : « ويحك ، يا أبا سفيان : ألم يأن لك أنى رسول الله » .

قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئًا .

فقال له العباس : ويحك ، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك . قال : فشهد شهادة الحق . فأسلم .

قال العباس : قلت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئًا .

قال : « نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ :- «يا عباس ،احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها ». قال : فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادى حيث أمرنى رسول الله ﷺ .

قال : ومرت القبائل على راياتها . كلما مرت قبيلة قال : يا عباس ،من هذه ؟ فأقول: سُليم ،فيقول:ما لى ولسليم . ثم تمر القبيلة . فيقول : يا عباس ،من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة .

فيقول : ما لى ولمزينة . حتى نفدت القبائل . ما تمر من قبيلة إلا يسألنى عنها ، فإذا أخبرته بهم قال : ما لى ولبنى فلان ، حتى مر رسول الله ﷺ بكتيبته الخضراء - فيها المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم لا يُرى منهم إلا الحدق [1] من الحديد . فقال : سبحان الله ، يا عباس من هؤلاء ؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا . قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

قلت : النجاء [2] إلى قومك .

حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت :

اقتلوا الحميت [3] الدسم [4] الأحمس [5] ، قُبِّح من طليعة قوم .

قال : ويلكم لا تغرنكم هذه عن أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به . فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك . قال : ومن

(١) الحدق : العيون .
(٢) النجاء : السرعة .
(٣) الحميت : زق السمن .
(٤) الدسم : الكثير لونه .
(٥) الأحمس : شديد اللحم .

أغلق عليه بابه فهو آمن . ومن دخل المسجد فهو آمن .

فتفرق الناس إلى دورهم والمسجد) [1] .

هذا عن القائد العام أما القيادات الأخرى . فقد فرت بعد مقاومة يسيرة . درسناها فى مظانها من قبل ، وتمثل هذا الفرار بقول الشاعر :

إنك لـــو شهدت يـــوم الخندمة ... إذا فـــــر صفوان وفر عكـــرمة
وأبو يزيـــد [2] قائـــم كالموتمة ... واستقبلتهـــم بالسيوف المسلمـــة
يقطعـــن كـــل ساعـد وجمجمة ... ضربًا فلا يسمـــع إلا غمغمـــة
لهـــم نهـــيت خلفنا وهمهمة ... لم تنطـق فى اللوم أدنى كلمة [3]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤٠٢ ـ ٤٠٥ مقتطفات .

(٢) أبو يزيد : سهيل بن عمرو .

(٣) المصدر السابق ٢ / ٤٠٨ .

زعيما الطائف : عبد ياليل بن عمرو ، وعمرو بن أمية

وهذه مدينة الحجاز الثالثة الطائف. تعرض استسلامها لرسول الله ﷺ دون تعليق ، حيث أسهبنا فى الحديث عنه من قبل .

(حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس :أن عمرو بن أمية أخا بنى علاج . كان مهاجرًا لعبد ياليل بن عمرو ؛ الذى بينهما شىء ، وكان عمرو بن أمية من أدهى العرب فمشى إلى عبد ياليل بن عمرو . حتى دخل داره . ثم أرسل إليه أن عمرو بن أمية يقول لك : اخرج إلى .

فقال عبد ياليل للرسول: ويلك، أعمرو أرسلك إلى؟ قال :نعم ،وها هو ذا واقفًا فى دارك . فقال : إن هذا الشىء ما كنت أظنه ،لعمرو كان أمنع فى نفسه من ذلك .

فخرج إليه ، فلما رآه رحب به ، فقال له عمرو : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة . إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت . قد أسلمت العرب كلها . وليس لكم بحربهم طاقة ، فانظروا فى أمركم .

فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينها ، وقال بعضهم لبعض : أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع (١) . فأتمروا بينهم ، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً كما أرسلوا عروة ، فكلموا عبد ياليل (٢) بن عمرو بن عمير ، وكان سن عروة بن مسعود وعرضوا عليه ذلك ، فأبى أن يفعل ، وخشى أن يُصنع به إذا رجع كما صُنع بعروة (٣) .

فقال : لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالاً . فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف ، وثلاثة من بنى مالك . فيكونوا ستة . . . فخرج بهم عبد ياليل وهو ناب القوم وصاحب أمرهم .

---

(١) كان رسول الله ﷺ قد وجه مالك بن عوف النصرى إلى أن يقود حرب عصابات ضد ثقيف ، ومالك :هو قائد هوازن فى حربها ضد رسول الله ﷺ . أسلم بإعطائه ماله وأهله ومائة ناقة بعد الحرب .

(٢) عبد ياليل بن عمرو : هو الذى لقى رسول الله ﷺ فى الطائف قبل الهجرة وقال له : أنا أمرط ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك . ورده ردًا قبيحًا هو وأخواه حبيب بن عمرو ومسعود بن عمرو .

(٣) عروة بن مسعود هو زعيم ثقيف الذى أسلم . وجاء يدعو قومه إلى الإسلام فقتلوه واستشهد ودفن مع الصحابة .

فلما دنوا من المدينة . ونزلوا قناة ألفوا بها المغيرة بن شعبة يرعى فى نوبته ركاب أصحاب رسول الله ﷺ . . . فلما رآهم ترك الركاب عند الثقفيين . وخبر يشتد ليبشر رسول الله ﷺ بقدومهم . . . ثم خرج المغيرة إلى أصحابه ، فروَّح الظهر معهم ، وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية . ولما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة فى ناحية مسجده ، كما يزعمون ، فكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى اكتتبوا كتابهم . . . وكان خالد هو الذى كتب كتابهم بيده . وكانوا لا يطعمون طعامًا يأتيهم من عند رسول الله حتى يأكل منه خالد ، حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم . وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية ـ وهى اللات ـ لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم ، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم . حتى سألوا شهرًا واحدًا بعد مقدمهم ، فأبى عليهم أن يدعها شيئًا مسمى . وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يتسلَّموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم . ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام . فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة فيهدماها ، وقد كانوا سألوا مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة ـ وألا يكسروا أوثانهم بأيديهم . فقال رسول الله ﷺ :

أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة ، فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه ، فقالوا : يا محمد ، فسنؤتيكها وإن كانت دناءة) (١) .

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم أمَّر عليهم عثمان بن أبى العاص ، وكان من أحدثهم سنًا . وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام ، وتعلم القرآن . فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، إنى رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه فى الإسلام ، تعلم القرآن (٢) .

قال ابن إسحاق : فلما فرغوا من أمرهم ـ وتوجهوا إلى بلادهم راجعين . بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فى هدم الطاغية ، فخرجا مع القوم حتى إذا قدموا على الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يُقَدِّم أبا سفيان فأبى ذلك أبو سفيان عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك وأقام أبو سفيان بماله بذى الهدم ، فلما دخل المغيرة بن شعبة علاها يضربها بالمعول وقام قومه دونه ؛ بنو معتِّب ، خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب ، وخرج نساء ثقيف حُسَّرًا يبكين عليها ويقلن :

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥٣٨ ـ ٥٤٠ .   (٢) المصدر السابق ٢ / ٥٤٠ .

لتبكين دُفاع (1) أسلمها رضاع (2) لم يحسنوا المِصاع (3)

ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها الفأس : واهًا لك (4) . آهًا لك . فلما هدمها المغيرة . أخذ مالها وحليها ، أرسل إلى أبى سفيان بن حرب وحليها مجموع . ومالها من الذهب والجزع . وقال لأبى سفيان : إن رسول الله ﷺ أمرك أن تقضى عن عروة والأسود دينهما . فقضى عنهما) (5) .

وهكذا دانت مدن الحجاز العربية الثلاث للإسلام . وكانت آيات براءة تعلن السيطرة التامة للإسلام على الحجاز ؛ مدره ووبره بعد شهرين ونيف من تبوك . وفى حج العام التاسع للهجرة . وتمنع المشركين من الحج إلى البيت . ولا تقبل إلا الإسلام أو السيف .

---

(1) دفاع : لأنها كانت تدفع عنهم .
(2) الرضاع : اللئام .
(3) المصاع : المضاربة بالسيوف .
(4) واهًا لك : كلمة تعجب .
(5) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥٤١ ، ٥٤٢ .

نزول آيات (براءة) وتبليغها للناس

قال ابن إسحاق : وحدثنى حكيم بن حكيم بن عبَّاد بن حنيف عن أبى جعفر محمد بن على رضوان الله عليه أنه قال .

(لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ . وقد كان بعث أبا بكر الصديق ليقيم للناس الحج . قيل له : يا رسول الله ،لو بعثت بها إلى أبى بكر . فقال : لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى . ثم دعا على بن أبى طالب ـ رضوان الله عليه ـ فقال له : أخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذِّن فى الناس يوم الحج إذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد ، فهو له إلى مدته . فخرج على ـ رضوان الله عليه ـ على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر الصديق . فلما رآه أبو بكر بالطريق قال : أأمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية،حتى إذا كان يوم النحر، قام على بن أبى طالب رضي الله عنه فأذَّن فى الناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ فقال :

إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان . ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته . وأجَّل الناس أربعة أشهر يوم أذَّن فيهم . ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم . ثم لا عهد لمشرك ، ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة ، فهو إلى مدته . فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ،ولم يُطف بالبيت عريان . ثم قدما على رسول الله ﷺ . قال ابن إسحاق : فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام ، وأهل المدة إلى الأجل المسمى) (١) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥٤٦ .

أصل العرب

عدنان . ربيعة مضر الياس قيس

قحطان .

قضاعة .

أصل العرب

(جميع العرب يرجعون إلى ولد ثلاثة رجال : وهم عدنان وقحطان وقضاعة .

فعدنان : من ولد إسماعيل بلا شك فى ذلك . إلا أن تسمية الآباء بينه وبين إسماعيل قد جهلت جملة . وتكلم فى ذلك قوم بما لا يصح .

وأما قحطان : فمختلف فيه ولد من هو ؟ فقوم قالوا : هم من ولد إسماعيل عليه السلام وهذا باطل بلا شك ... وقد قيل: إن قحطان من ولد سام بن نوح والله أعلم ، وقيل : من ولد هود عليه السلام وهذا باطل أيضًا بيقين قول الله تعالى : ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا** ﴾ [هود : ٥٠] وقال تعالى: ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا ...** ﴾ [الحاقة :٦] إلى قوله تعالى : ﴿ **فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ⑧** ﴾ .

وأما قضاعة : فمختلف فيه : فقوم يقولون : هو قضاعة بن معد بن عدنان . وقوم يقولون : هو قضاعة بن مالك بن حمير ، فالله أعلم .

وأما الذين يسمونهم العرب والنسابون : (العَرَبَ العاربة كجرهم وقاطور وطسم وجديس وعاد وثمود وأيم وإرم وغيرهم فقد بادوا ، فليس على أديم الأرض أحد يصحح أنه منهم) [١] .

وانتهى العدنانيون إلى فرعين كبيرين ، من ولد نزار بن معد بن عدنان هما : ربيعة ومضر ، وفرعين صغيرين من ولد إياد وعك .

إلا أن الصحيح المحض الذى لا شك فيه ، أن قبائل مضر ، وقبائل ربيعة ابنى نزار ومن تناسل من إياد وعك ، فإنهم صرحاه ولد إسماعيل عليه السلام ، ولا يصح ذلك لغيرهم البتة [٢] .

وتكاد تكون مضر تملأ ساحة الحجاز ونجد فى قبائلها الكبرى والصغرى . عدا قبيلة طيئ فإنها يمنية . واليمامة وما بعدها حتى الساحل من ربيعة . وسيكون حديثنا ابتداءً عن مضر ، ثم عن ربيعة ، وبعدها ننتقل إلى قضاعة وقحطان . ونشهد سيد ولد آدم كيف يبنى هذه القيادات العربية جميعًا ويتعامل معها بنور الإسلام فيحييها بعد اندثار .

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٧ ، ٨ مقتطفات .

(٢) المصدر السابق ص ١٠ .

ولد عدنان

مضر وربيعة

وفرعا مضر هما : إلياس وقيس

بنو إلياس بن مضر :

أولا : قريش .

ثانيًا : أسد .

ثالثًا : تميم .

ولد عدنان

قال ابن حزم : (وهذه أسماء قبائل العرب واتصال أنسابها بعضها ببعض .

هذه قبائل خندف :

قريش وهم ولد النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار .

وسائر ولد كنانة [(١)] ينتمون إلى كنانة أبيهم ليسوا قريشًا .

بنو أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار .

بنو هذيل [(٢)] بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار .

وهذه قبائل طابخة بن إلياس بن مضر :

ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار .

الرباب [(٣)] ؛ وهم بنو تميم وبنو عدى وبنو ثور وبنو عقل بن عوف بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس .

مزينة [(٤)] ، وهم بنو عثمان وأوس ابنى عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس .

بنو تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر . . . وبطون صغار إخوة لتميم.

وخزاعة [(٥)] ، وهم بنو لحى بن عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر .

---

(١) كنانة : ولد كنانة بنين كثيرة لم يعقب منهم أحد إلا النضر . وقد ذكرنا نسب بنيه (قريش) وعبد مناة ، ومالك وملكان وحدال ، دارهم بعدن . وعمرو بن كنانة وهم قليل ودارهم بفلسطين ، ولد عبد مناة بن كنانة بكر بطن ضخم ، وعامر بطن ضخم ، ومرة بطن ضخم . فولد بكر بن عبد مناة ليث بطن ، والدئل بطن ، وضمرة بطن ، وهذه البطون جميعًا دخلت فى الإسلام مع الفتح أو قبله .

(٢) بنو هذيل بن مدركة: ولد هذيل بن مدركة سعد ولحيان. ولحيان هم الذين غدروا بسرية الرجيع بعد أحد . وأسلمت هذيل كلها قبل الفتح وهى قوم عبد الله بن مسعود الصحابى المشهور ﷺ .

(٣) الرباب : اشتهر منهم خزيمة بن عاصم الوافد على رسول الله ﷺ بإسلام عكل قومه . ووصيلة ابنة وائل ابن عمرو أول امرأة أسلمت من قومها وأتت النبى ﷺ .

(٤) مزينة : وهم ولد عمرو بن أد ؛ عثمان وأوس وأمهما مزينة بنت كلب ، ونسبوا إلى أمهم . وهم من أوائل من أسلم ، وأثنى عليهم رسول الله ﷺ . وقد دخلوا فى الإسلام فى السنة الخامسة للهجرة .

(٥) خزاعة : وهم حلفاء رسول الله ﷺ قبل الإسلام . وقد دخل معظمهم فى الإسلام بين الحديبية والفتح . فهذه القبائل إذن سبق ذكرها فى المرحلة السابقة .

وأسلم [1] ، وهم بنو أفصى بن عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر .

مضت خندف) .

(1) أسلم : وهم الذين قال فيهم رســول الله ﷺ : « أسلم سالمها الله » . وهي من المسلمين من الرعيل الأول .

أولا

قريش والمهاجرون والأنصار

قريش والمهاجرون والأنصار

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

فالميت هو وريث ظلمات الجاهلية والحفيظ عليها . والحى هو وليد نور هذا الدين .

فرع مضر الأول : إلياس بن مضر

أما أشهر قبائلها الكبرى فهى قريش أسد وتميم .

وأشهر قبائلها الصغرى : أسلم وغفار ومزينة .

ونشهد هذا التوزيع فى حديث نبوى أخرجه لنا مسلم عن عبد الرحمن بن أبى بكرة يحدث عن أبيه :

(أن الأقرع بن حابس - سيد بنى تميم - جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إنما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وأحسب جهينة . فقال رسول الله ﷺ :

« أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة وجهينة خيراً من بنى تميم وبنى عامر بن صعصعة وأسد وغطفان ، أخابوا وخسروا » ، فقال : نعم ، قال : « فوالذى نفسى بيده إنهم لأخير منهم » ليس فى حديث ابن أبى شيبة : محمد الذى شك) (١) .

وفى حديث آخر (عن شعبة حدثنى سيد بنى تميم محمد بن عبد الله بن أبى يعقوب الضبى بهذا الإسناد مثله وقال : « وجهينة » ولم يقل : أحسب) (٢) .

أما هذه القبائل الصغرى فقد انصهرت فى الكيان الإسلامى، وتخلصت من رواسب الجاهلية وشكلت الأمة المسلمة المنتسبة إلى رسول الله ﷺ وكان هذا قبل الفتح .

فهم جماهير المهاجرين والأنصار ، يؤكد هذا المعنى الحديث الذى أخرجه الإمام مسلم بسنده كذلك عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« قريش ، والأنصار ، ومزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وغفار ، وأشجع موالىَّ ليس لهم مولىً دون الله ورسوله » ، وقد استوفى الحديث عنهم فى الأجزاء السابقة

(١ ، ٢) صحيح مسلم ٤ / ١٩٣ ، ٢٥٢ .

وسينصب حديثنا فى هذا الجزء على هذه القبائل الكبرى ، وصيغة تعاملها مع الإسلام والوفود التى وفدت إلى النبى ﷺ منها ، عدا تميم وثقيف التى جرى الحديث عنها فى الجزء السابق إلا الوفود لبعض فروعها والتى تمت فى العام التاسع للهجرة . وبعد منصرف رسول الله ﷺ من تبوك .

ثانيًا

بنـــو أســـد

بنــو أسد

لابد أن نشير ابتداءً إلى أن فرعاً من أسد كان قد ترك قبيلته وأقام بمكة المكرمة . وكان من أوائل من انضم إلى دين الله عز وجل . واستجاب لدعوة نبيه ﷺ .

قال ابن إسحاق : ثم كان أول من قدمها (أى المدينة) من المهاجرين بعد أبى سلمة عامر بن ربيعة ، حليف بنى عدى بن كعب. ثم عبد الله بن جحش بن رئاب . . . ابن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة حليف بنى أمية بن عبد شمس ؛ احتمل بأهله وأخيه عبد بن جحش ـ وهو أبو أحمد . . . وكان شاعراً وكانت عنده الفرعة بنت أبى سفيان بن حرب . وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب ابن هاشم فغلّقت دار بنى جحش هجرة . . . وكان بنو غنم بن دودان أهل إسلام قد أوعبوا إلى المدينة مع رسول الله ﷺ هجرة رجالهم ونساؤهم: عبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد بن جحش، وعكاشة ابن محصن . وشجاع وعقبة ابنا وهب . وأربد بن حميرة . . . ومنقذ بن نباته . وسعيد بن رقيش ، ومحرز بن نضلة ، ويزيد بن رقيش ، وقيس بن جابر ، وعمرو بن محصن ، ومالك بن عمرو ، وصفوان بن عمرو ، وثقف بن عمرو ، وربيعة بن أكثم ، والزبير بن عبيد، وتمام بن عبيدة . وسخبرة بن عبيدة ، ومحمد بن عبد الله بن جحش .

ومن نسائهم زينب بنت جحش ، وأم حبيب بنت جحش ، وجذامة بنت جندل ، وأم قيس بنت محصن، وأم حبيب بنت ثمامة . وآمنة بنت رقيش ، وسخبرة بنت تميم ، وحمنة بنت جحش .

وقال أبو أحمد بن جحش وهو يذكر هجرة بنى أسد بن خزيمة من قومه إلى الله تعالى وإلى رسول الله ﷺ وإيعابهم فى ذلك حين دُعوا إلى الهجرة :

ولو حلفت بين الصفا أم أحمد ... ومروتهــا بالله برّت يمينهــا
فنحن الأولى كنا بها ثم لم نزل ... بمكة حتى عــاد غثًا ثمينهــا
بها خيّمت غنم بن دودان وابتنت ... وما إن غدت غنــم وخف قطينها
إلى الله نغــدو بين مثنى وواحد ... ودين رسول الله بالحق دينها (١)

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، مقتطفات ١ / ٤٧٠ ـ ٤٧٣ .

لقد بلغ عدد رجال بنى أسد من المهاجرين الأولين عشرين صحابيًا . فإذا كان السابقون الأولون من المهاجـرين مائتين فبنو غنم بن دودان بن أسد عشر المسلمين آنذاك . أما النساء فلعلهن خمس نساء المسلمات آنذاك . وهؤلاء انصهروا فى المجتمع الإسلامى ، بل كان رسول الله ﷺ يحسبهم من قريش للحلف . كما قال : « إن لكل قوم مادة وإن مادة قريش مواليهم » (١) .

وفد بنى أسد

وهم أول من قدم بعد الفتح حيث فات قيادتهم المشاركة فيه ؛ كما شارك سيد تميم الأقرع بن حابس ، وسيد غطفان عيينة بن حصن ، وسيد عامر علقمة بن علاثة .

فقد روى ابن سعد عن محمد بن كعب القرظى . وهشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه قالا : قدم عشرة رهط من بنى أسد بن خزيمة على رسول الله ﷺ فى أول سنة تسع فيهم حضرمى بن عامر ، وضرار بن الأزور ، ووابصة بن معبد ، وقتادة ابن القائف ، وسلمة بن حبيش ، وطليحة بن خويلد ، ونقادة بن عبد الله بن خلف . ورسول الله ﷺ فى المسجد مع أصحابه . فسلموا وقال متكلمهم : .

يا رسول الله ، إنا شهدنا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنك عبده ورسوله .

وقال حضرمى بن عامر : أتيناك نتدرع الليل البهيم فى سنة شهباء ، ولم تبعث إلينا بعثًا فنزلت فيهم : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ .

وروى النسائى والبزار وابن مردويه عن ابن عباس . . . وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه بسند حسن عن عبد الله بن أوفى .

قال الأولان : جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله، أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك العرب .وفى رواية : بنو فلان . فأنزل الله تعالى ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ [الحجرات : ١٧] .

هؤلاء العشرة ليسوا على مستوى واحد . وكثير منهم جاؤوا بنفسية الاستعلاء والمن على رسول الله ﷺ بأنهم آمنوا دون أن يبعث لهم أحدًا يدعوهم ، وبأنهم كفوا عن حرب رسول الله ﷺ ، وهى إشارة من طرف خفى إلى أنهم قادرون على حربه .

(١) مسند أحمد ٦ / ٢٣٩ .

وتولى القرآن الكريم الرد العنيف عليهم ، وفضح هذه النفسية بقوله عز وجل :

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [الحجرات] .

وختام هذه الآية بشيء بالتشكيك في إيمانهم دون أن يمس أحداً بعينه . فالصادق يعرف نفسه والكاذب يعرف نفسه ، ويكفي أن نعرف أن بين الوفد طليحة بن خويلد الأسدي الذي ادعى النبوة بعد وفاة رسول الله ﷺ .

وبينهم من طرف آخر . ضرار بن الأزور الذي كان فيما بعد من قادة الفتوح وكبار فرسان الإسلام . وحمل راية القتال ضد طليحة المتنبئ . وكما تروي كتب التراجم عنه أنه كان له ألف بعير برعاتها فترك جميع ذلك ومضى للجهاد في سبيل الله .

(وروى البغوي بسنده عن ضرار بن الأزور قال : أتيت النبي ﷺ فأنشدته :

خلعت القداح وعزف القيان ... والخمر تعلله وانتهالا
وكرِّي المحبَّر في غمرة ... وجهدي على المشركين القتالا
وقالت جميلة بَدَّدتنا ... وطرَّحْتَ أهلك شتى شمالا
فيا رب لا أُغْبَنَنْ صفقتي ... فقد بِعت أهلي ومالي بدالا

فقال النبي ﷺ : « ربح البيع ») (١) .

ومن خلال اللقاء مع هذا الوفد تبرز النفسية الأعرابية المتعجرفة في الحادثة التالية :

(قال ابن سعد : وكان معهم قوم من بني الزنية وهم بنو مالك بن ثعلبة بن دودان ابن أسد ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « أنتم بنو الرشدة » فقالوا : لا نكون مثل بني محوّلة ـ يعنون عبد الله بن غطفان) (٢) .

ولم يقبلوا تغيير اسمهم حتى لا يعيرهم العرب بذلك .

كما برزت من خلال هذه الوفادة . العالم الذي يعيشون فيه . وهو عالم السحر والتنجيم والحياة مع الجن والشياطين (ومما سألوا عنه رسول الله ﷺ يومئذ العيافة والكهانة وضرب الحصى . فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك كله . فقالوا :

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٢ / ٤ / ت ٤٢٦٧ .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦ / ٤٠٤ .

يا رسول الله ، هذه الأمور كنا نفعلها فى الجاهلية . أرأيت خصلة بقيت ؟

قال : وما هى ؟ قال ﷺ :

« الخط علمّه نبى من الأنبياء فمن صادف مثل علمه علم ») (١) .

وتوسم رسول الله ﷺ فى بعضهم الخير ، فأراد أن يتألفهم به . وليس هو سيدهم وهو نُقادة بن عبد الله الأسدى .

فقد روى ابن سعد عن رجال من بنى أسد ثم من بنى مالك بن مالك بن أسد (أن رسول الله ﷺ قال لنقُادة بن عبد الله :« يا نقادة ابغ لى ناقة حلبانة (٢) ركبانة (٣) ولا تولهها على ولد (٤) » فطلبها فى نعمة فلم يقدر عليها فوجدها عند ابن عم له يقال له سنان بن ظفير فأطلبه إياها . فساقها نُقادة إلى رسول الله ﷺ . فمسح ضرعها ودعا نقادة فحلبها حتى إذا أبقى فيها بقية من لبنها قال رسول الله ﷺ : « أى نقادة اترك دواعى اللبن (٥) » فشرب رسول الله ﷺ ، وسقى أصحابه من لبن تلك الناقة. وسقى نقادة سؤره وقال :

« اللهم بارك فيها من ناقة وفيمن منحها » قال نقادة : قلت : وفيمن جاء بها يا رسول الله ؟ قال : « وفيمن جاء بها ») (٦) .

لقد سقاه ﷺ سؤره . وحسن إسلامه ، وكان له صحبة وعصمه الله من الردة . وفى رواية أن الذى طلب منه ذلك رسول الله ﷺ هو ضرار بن الأزور . ولا يمنع أن يكون ذلك للرجلين فكلاهما كان ردءاً للإسلام وسبقًا له فيما بعد .

فعن شعيب عن سيف . . . عن عُمارة بن فلان الأسدى قال :

ارتد طليحة فى حياة رسول الله ﷺ ، فادعى النبوة . فوجّه النبىُّ ﷺ ضرار بن الأزور إلى عماله على بنى أسد ، وأمرهم بالقيام فى ذلك على كل من ارتد ، فأشجوا طليحة وأخافوه . ونزل المسلمون بواردان ، ونزل المشركون بسميراء . فما زال المسلمون فى نماء ، والمشركون فى نقصان ، حتى هم ضرار بالمسير إلى طليحة . فلم

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤٠٥ .
(٢) حلبانة : غزيرة تحلب .
(٣) ركبانة : ذلولة تركب .
(٤) لا تولهها على ولد : لا تفصلها عن ولدها .
(٥) دواعى اللبن : لبن قليل يبقى فى الضرع .
(٦) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٤٠٥ .

يبق أحدٌ إلا أخذه سلمًا إلا ضربة كان ضربها بالجراز فتباعته . فشاعت فى الناس ، فأُتى المسلمون وهم على ذلك . فخبر موت نبيهم ﷺ وقال ناس من الناس لتلك الضربة : إن السلاح لا يحبك فى طليحة فما أمسى فى ذلك اليوم حتى عرفوا النقصان . وارفض الناس إلى طليحة واستطار أمره .

فقد كانت الخطة النبوية أن يقاتل بمن أسلم وحسن إسلامه من ارتد . فلابد أن تكون عملية البناء والوفادة قد آتت أكلها وثمارها . وحتى يدرك المسلمون مسؤوليتهم فى الجهاد . كانت نقطة الانطلاق هى حرب المرتدين بالمسلمين الصادقين من القبيلة نفسها وكان هذا التوجيه النبوى هو الذى سار عليه أبو بكر رضي الله عنه .

فقد كان طليحة وضرار من قادة وفد أسد . وعندما تنبأ طليحة وارتد كان ضرار هو الذى بعثه رسول الله ﷺ ليقود الحرب ضد المرتدين . ولولا حدث وفاة النبى ﷺ لأمكن لضرار أن يأخذ طليحة ، لكنه القدر الذى أراد أن يكشف الناس جميعًا فى موقفهم من الإسلام . بين من أسلم طمعًا ومن أسلم يقينًا . حيث أرفض أصحاب المصالح عن ضرار رضي الله عنه. وانضم مع الفئة القليلة التى معه إلى جيش خالد رضي الله عنه للمعركة الفاصلة.

ثالثًا

بنــو تمـــيم

بنو تميم

ما هو موقع بنى تميم فى قبائل العرب ؟

أما قول شاعرهم جرير ، فلا يؤبه به كثير ؛ لأن كل عربى يفخر بقبيلته فى الحق والباطل ، وقول جرير يفخر على الشاعر النميرى :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

إنما نبحث عن تميم عند سيد البشرية ومعلمها ﷺ فهو يقول :

« إذا فاخرت ففاخر بقريش ، وإذا كاثرت فكاثر بتميم ، وإذا حاربت فحارب بقيس ألا إن وجوهها كنانة ، ولسانها أسد ، وفرسانها قيس » (١) .

ويشير هذا النص إلى كثرة عدد بنى تميم .

وكما يقول ابن حزم وهو يتحدث عنهم فى جمهرته : (وهؤلاء بنو تميم بن مر بن أد . وهم قاعدة من أكبر قواعد العرب) (٢) .

وحين يصنف قبائل العرب العظام العدنانية والقحطانية بعد إسقاط قريش من عدنان والأنصار من قحطان . وهم الذين لا يبلغ شأوهم أحد .

يقول : فإذا كان ذلك وجب أن ننظر قبائل هؤلاء بنظرائها من قبائل هؤلاء .

فوجدنا القبائل العظام من عدنان ثلاثًا ،وهم : تميم بن مر ، وعامر بن صعصعة ، وبكر بن وائل ، ووجدنا قبائل اليمن العظام ثلاثًا أيضًا وهى : الأزد بعد إسقاط الأنصار وملوكهم من كثرة ، ولخم ، وغسان . وحمير بعد إسقاط ملوكهم . ومذحج فتعارض كل قبيلة من هذه قبيلة من تلك) (٣) .

(وهم من جماجم العرب كما عند ابن الكلبى : كنانة ،وتميم،وغطفان . . .) (٤).

(وجُفَّان العرب هم : بكر وتميم) (٥) .

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير ٣ / ٢٨٩ .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٠٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٨٨ .

(٤ ، ٥) المصدر السابق ص ٤٨٧ .

ونعود إلى رسول الله ﷺ وهو يقدم تميمًا إلى الأمة المسلمة حتى قيام الساعة . فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : ذكرت القبائل عند رسول الله ﷺ . فسألوه عن بنى عامر . فقال: « جمل أزهر يأكل من أطراف الشجر » . وسألوه عن هوازن فقال : « زهرة تنبع ماءًا » . وسألوه عن بنى تميم فقال :

« ثُبتُ الأقدام ، رُجحُ الأحلام ، عظماء الهام ، أشد الناس على الدجال فى آخر الزمان ، وهضبة حمراء لا يضرها من ناوأها » [1] .

فهم ثُبتُ الأقدام فى المعارك ، صابرين على حين البأس . ولذلك امتد ذكرهم وثناؤهم إلى قيام الساعة أنهم أشد الناس على الدجال فى آخر الزمان .

وهم رُجحُ الأحلام . وحليم العرب الأحنف بن قيس الذى يضرب به المثل تميمى وبه يقول الشاعر من حيث مضرب المثل فى حلمه :

إقدام عمروٍ فى سماحة حاتمٍ   فى حلْمِ أحنف فى ذكاء إياس

وما تلقى الأحنف الحلم وتعلمه إلا من قيس بن عاصم سيد بنى تميم .

وهم عظماء الهام مثل الجبال الشم . لا تتزلزل أمام من يناوئها ويحاربها .

فعندما تنضم هذه الطاقة إلى الإسلام . كيف سيكون دورها فى الصراع مع الشرك والمشركين . ولم يمر الزمن بعيدًا حتى برز أبطال تميم قادة للفتوحات فى الأرض ؛ الأحنف بن قيس ، والقعقاع بن عمرو ، وأخيه عاصم بن عمرو . ولا ننسى أن المزنيين العظام ، وأنباء مقرن العظام الثمانية إنما هم جزء من تميم . فقد كانوا كما قال رسول الله ﷺ : « ثبت الأقدام ، رجح الأحلام ، عظماء الهام » ، وسيحققون موعود رسول الله ﷺ بهم : « أشد الناس على الدجال فى آخر الزمان » .

وشهد لهم رسول الله ﷺ أنهم من صريح ولد إسماعيل :

فعن عائشة رضي الله عنها أنه كان عليها رقبة من ولد إسماعيل ، فجاء سبى من خولان فأرادت أن تعتق منهم . فنهاها النبى ﷺ ، ثم جاء سبى من مضر من بنى العنبر [2] فأمرها النبى ﷺ أن تعتق منهم [3] .

ولهذا الموقع العظيم لهم فى العرب كان المسلمون يحرصون على انضمامهم إلى

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ، وقال فيه : رواه الطبرانى عن سلام بن صبيح . وثقه ابن حبان وبقية رجاله ثقات.
(٢) بنو العنبر : فرع من تميم .   (٣) أحمد والبزار ، ورجال أحمد رجال الصحيح .

الحظيرة الإسلامية وكانوا يتطلعون إلى ذلك .

فقد روى عكرمة عن رجل من أصحاب النبى ﷺ أن تميمًا ذكروا عند النبى ﷺ قالوا : أبطأ هذا الحى من تميم عن هذا الأمر . فنظر رسول الله ﷺ إلى مزينة فقال : « ما أبطأ قوم هؤلاء منهم » (١) فقال رجل : أبطأ هؤلاء القوم من بنى تميم صدقاتهم . فأقبلت نَعمٌ وحمر وسود لبنى تميم فقال ﷺ : « هؤلاء نَعم قومى » .

وقد فخر رسول الله ﷺ وسر بقدومهم ، وقال عنهم أنهم من قومه . وذلك أن قريشًا وتميمًا تنتميان إلى أم واحدة هى خندف .

(فولد إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان : عامر وهو مدركة ، وعمرو وهو طابخة وعمير وهو قمعة . أمهم خندف من قضاعة . فنسبوا إليها) (٢) .

فقريش من ولد مدركة بن إلياس ، وتميم من ولد طابخة بن إلياس ، وخزاعة من ولد قمعة بن إلياس . وقيس عيلان أخو مضر . (قال نصر بن سيار :

أنا ابن خِندِف تنمينى قبائلها للصالحات وعمى قيس عيلانا) (٣)

ونال رجل من بنى تميم عند النبى ﷺ فقال : « لا تقل لبنى تميم إلا خيرًا فإنهم أطول الناس رماحًا على الدجال » (٤) .

والشىء الثابت أنهم من أعرق الناس بداوة وإيغالاً فى الجفاء ، فهم الذين قدموا ـ كما ذكرنا من قبل ـ ونادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات . ووصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ④ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑤ ﴾ [الحجرات] .

فهم تبع لقادتهم إن قادوهم إلى الضلالة أو قادوهم إلى الهدى ، فهم محاربون أشداء ، مقاتلون شرسون . وعظمة النبى ﷺ أن تعامل مع وفدهم بالعقلية الجاهلية التى ينطلقون منها حين جاؤوا يفخرون بأمجادهم على لسان شاعرهم الزبرقان بن بدر ، وخطيبهم عطارد بن حاجب .

وقُهروا أمام التفوق الإسلامى فى الخطابة والشعر . فقال سيدهم الأقرع بن

(١) مر معنا أن وفد مزينة قدم مبكرًا فى السنة الخامسة للهجرة .

(٢ ، ٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٠ .

(٤) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح . الهيثمى .

حابس: « وأبى ، إن هذا الرجل لمؤتى له . لخطيبه أخطب من خطيبنا . ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا » .

فلما فرغ القوم أسلموا وجوزهم رسول الله ﷺ ، فأحسن جوائزهم) (١) والحديث المروى فى البخارى ومسلم عن سيد بنى تميم الأقرع بن حابس رضي الله عنه يبرز هذه الأعرابية والجفاء عندهم .

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قبل النبى ﷺ الحسن بن على رضي الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس . فقال الأقرع : إن لـــى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً . فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال : « من لا يرحم لا يرحم » (٢) .

وفى رواية نص فيها رسول الله ﷺ على جفائهم . كما ذكر القرطبى فى تفسير قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ... ﴾ قال :

(وروى أنهم وفدوا وقت الظهيرة ، ورســول الله ﷺ راقــد فجعـلوا ينادونه : يا محمد ، يا محمد أخرج إلينا ، فاستيقظ وخرج ، ونزلت . وسئل رسول الله ﷺ فقال : « هم جفاة بنى تميم ، لولا أنهم من أشد الناس قتالاً للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم » (٣) .

وحين يتألف رسول الله ﷺ قلوبهم ، ويحاربهم بسلاح الشعر والخطابة هو أولى بألف مرة من فتح معركة معهم ؛ تفنى الأجيال ولا تنتهى . فالعرب فى الجاهلية دينهم القتال والثأر . لا ينتهون من معركة إلا ويتابعون فى أخرى . فأين مقام العقيدة فى صفوفهم ؟ وأين يملكون العقل ليفكروا بمصيرهم ومعادهم ؟ ودم الثأر يغلى فى كل لحظة فى مراجلهم ، وحمية الجاهلية تعشعش فى صدورهم .

لقد كانت هدنة طيبة بين بنى تميم والإسلام . تمكنهم من فهم هذا الدين ، والدخول فيه . وإن كانت الزعامة قد شغلت زعماؤهم عن هذا الأمر ، فالجيل الجديد الذى دخل الإسلام ظاهريًا إليه على يد زعمائهم ، قادرون على استيعاب معانى هذه العقيدة ، والجهاد فى سبيلها ، والتخلص من نخوة الجاهلية وتعظمها فى الآباء .

وحيث إن وفد تميم قد قدم فى السنة الثامنة للهجرة . بعد غزوة عيينة بن حصن

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٤٤٣ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٦٢ .
(٢) متفق عليه وهو عند البخارى (ح ١١٦٢ ، ٥٩٩٧) .
(٣) تفسير القرطبى ١٦ / ٣١٠ .

لهم بجيش من الأعراب ، أخذ العديد من أبنائهم ونسائهم أسرى . جاء الوفد واستسلمت تميم للأمر الواقع . فمحمد رسول الله ﷺ سيد الحجاز بلا منازع . والمدن الثلاثة دانت له : مكة ، والمدينة ، والطائف ، ولا جدوى من خوض معركة معه . فكان هدف وفد تميم هو الاعتراف من زعامة الحجاز بزعامة تميم وأمجادها ، وتم لهم ذلك ، ودخلوا فى دين الله بعد أن هزموا فى الحرب الإعلامية التى خاضوها .

لكننا نجد بين الوفادات التى ذكرت فى العام التاسع للهجرة وفادة قيس بن عاصم ﷺ ، وهو الذى أسماه رسول الله ﷺ : « سيد الوبر » نعرض لها فى سياق الحديث عن وفود العام التاسع للهجرة .

وفود قيس بن عاصم

روى الطبرانى بسند جيد عن قيس بن عاصم ﷺ قال : قدمت على رسول الله ﷺ .فلما رآنى قال : « هذا سيد أهل الوبر » (١) . فلما نزلت آتيته فجعلت أحدثه . فقلت : يا رسول الله ، ما المال الذى ليس على فيه تبعة من ضيف ضافنى أو عيال كثروا على ؟ قال : « نعم المال الأربعون والأكثر الستون (٢) ، وويل لأصحاب المئين إلا من أعطى من رسلها (٣) ونجدتها (٤) . وأطرق فحلها ، وأفقر ظهرها (٥) ، ومنح غزيرتها (٦) ، ونحر سمينها (٧) ، وأطعم القانع (٨) والمعتر (٩) » قال : يا رسول الله ، ما أكرم هذه وأحسنها . إنه لا يحُلُّ بالوادى الذى أنا فيه لكثرة إبلى . فقال : « فكيف تصنع بالطروقة (١٠) ؟ » قال : قلت : تغدو الإبل ويغدو الناس ، فمن شاء أخذ برأس بعير فذهب به . قال :

« فكيف تصنع فى الإفقار (١١) ؟ » ، قال : إنى لأفقر الناب المدبرة . والضرع الصغير .قال : « فكيف تصنع فى المنيحة (١٢) » قال : إنى لأمنح كل سنة مائة . قال : « فمالك أحب إليك أم مال مواليك ؟ » ، قلت : لا بل مالى . قال :

« إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت ،

---

(١) سيد أهل الوبر : أى سيد البادية العربية .
(٢) الأربعون والستون هى أعداد الإبل .
(٣) الرسل : الرخاء والخصب .
(٤) النجدة : الشدة والجدب .
(٥) أفقر ظهرها : أعارها لمن يحتاجها .
(٦) منح غزيرتها : سقى لبنها للناس .
(٧) نحر سمينها : للضيوف والمحتاجين .
(٨) القانع : الذى يرضى باليسير .
(٩) المعتر : الذى يُلمُّ بك لتعطيه ولا يسأل .
(١٠) الطروقة : الذين يطرقونك ويضيفونك .
(١١) الإفقار : الإعارة .
(١٢) المنيحة : العطية .

وسائره لمواليك » فقلت : والله لئن بقيت لأقلن عددها) [1] .

ولاختلاف الروايات فى مقدمة المرتبة هل كان مع وفد تميم الأول ، أم قاد وفداً جديداً فى العام التاسع للهجرة أو جاء وحده ، نأخذ النص الذى رواه الطبرانى عن قيس نفسه رضي الله عنه .

وإذا جمعنا بينه وبين الحديث السابق عن إبطاء وفد تميم يمكن القول:إن رسول الله ﷺ كان ينتظر قدوم صدقاتهم حيث أعلنوا إسلامهم من قبل .وحسب الرواية السابقة فأقبلت نَعَم حمر وسود لبنى تميم ، فقال النبى ﷺ : « هؤلاء نعَم قومى » ولعل قيس ابن عاصم رضي الله عنه قد جاء كما فى الإصابة لابن حجر مع نعيم بن بدر وعمرو بن الأهتم قبل وفد بنى تميم [2] .وكان النبى ﷺ استبطأ قيس بن عاصم . فقال له عتبة [3] : ائذن لى أن أغزوه فأقتل رجاله وأسبى نساءه . فأعرض عنه ، وقدم قيس فقال النبى ﷺ : «هذا سيد أهل الوبر »، ثم تقدم فأسلم . فسأله النعـمان بن مقـرن (المزنى) فقال : يا رسول الله ، ائذن لى أن يكون منزله على .قال : «نعم ». فبينما هو يتعشى إذ قال أخو النعمان : بئسما قال عتبة . فقال له قيس : وما قال ؟ فأخبره . فغدا على النبى ﷺ فقال : أما لى سبيل إلى الرجوع ؟ قال : « لا » . قال : لو كان لى إلى الرجوع سبيل لأدخلت على عتبة ونسائه الذل .

وقضية الزعامة عند بنى تميم تمثل أخطر ما فى خبر إسلامهم . والتنافس بينهم كان على أشده فمن أجل زعامة بنى تميم كاد الخيران أن يهلكا وهما أبو بكر وعمر . (فعن ابن أبى مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبرهم أنه قدم ركب من بنى تميم على النبى ﷺ. فقال أبو بكر : أمِّر القعقاع بن معبد . وقال عمر : بل أمِّر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر ما أردت إلى ـ أو إلا ـ خلافى . فقال عمر : ما أردت خلافك . فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل فى ذلك ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ حتى انقضت الآية [4] .

وفـى رواية أخرى عند البخارى عن ابن أبى مليكة قال : كاد الخيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما،ورفعا أصواتهما عند النبى ﷺحين قدم عليه ركب بنى تميم. فأشار

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٦١٣ ، ٦١٤ .

(٢) المنطقى أن يكون قدومه بعد وفد بنى تميم لاستبطاء الرسول ﷺ إياه .

(٣) لا ندرى من هو عتبة هذا . والأصح أن يكون عيينة فهو الذى غزا بنى تميم .

(٤) صحيح البخارى ٩٥٢ (ح ٤٨٤٧) .

أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ، قال نافع : لا أحفظ اسمه فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافى . قال : ما أردت خلافك . فارتفعت أصواتهما فى ذلك . فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُم ﴾ الآية ، قال ابن الزبير : فما كان عمر رضي الله عنه يسمعُ رسول الله ﷺ حتى يستفهمه ولم يذكر عن أبيه (١) ـ يعنى أبا بكر .

(وقال أبو هريرة : لما نزلت : ﴿ لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُم ﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه : والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السرار) (٢) .

أما الأقرع بن حابس فقد كان أحرص الناس على الزعامة ، خاصة وقد حضر فتح مكة ورأى أنه بهذا الفتح يُدِلّ على رسول الله ﷺ . فقد روى أنه هو الذى نادى من وراء الحجرات : يا محمد أخرج إلينا .

فروى الإمام أحمد عن الأقرع بن حابس ، وابن جرير بسند جيد ، وأبو القاسم البغوى والطبرانى بسند صحيح والترمذى وحسّنه.عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال البراء : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ـ وقـــال : الأقرع إنه هو ـ أتى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد اخرج إلينا . فلم يجبه ، فقال : يا محمد إن حمدى لزين ، وإن ذمى لشين . فقال رسول الله ﷺ : « ذاك الله عز وجل » .

فكان الأقرع بن حابس هو مرشح عمر رضي الله عنه لزعامة تميم . ولم يجبه رسول الله لذلك . وكان مرشح الصديق لزعامة تميم . القعقاع بن معبد ، ولم يجبه رسول الله ﷺ لذلك .

وبرز زعيم ثالث هو الشاعر الزبرقان بن بدر . وأراد أن يأخذ من رسول الله ﷺ نصًا يثبت زعامته .

فقد روى البيهقى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جلس إلى رسول الله ﷺ قيس بن عاصم ، والزبرقان بن بدر . وعـــمرو بـن الأهتم التميميون . ففخر الزبرقان فقال : يا رسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم . والمجاب منهم آخذ لهم بحقوقهم . وأمنعهم من الظلم وهذا يعلم ذلك ، وأشار إلى عمرو بن الأهتم . .) (٣) .

لقد كان قيس بن عاصم جالسًا ولم ينطق بشىء ، وهو أحلم العرب ، وشهادة

(١) عن أبيه عن أبى بكر جده وأبى أمه أسماء . (٢) صحيح البخارى ٩٥١ (ح ٤٨٤٥) .
(٣) تفسير القرطبى ٨ / ١٦ / ٣٠٨ .

عمرو بن الأهتم للزبرقان بما ادعى يعنى رفعه فوق قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر وكل زعماء تميم . وعمرو كان من اللباقة والفصاحة بحيث لا يشهد هذه الشهادة . فلها مضاعفاتها وخطورتها على أجواء تميم كلها . فقال :

(فقال عمرو بن الأهتم : إنه لشديد العارضة ، مانع لجانبه ، مطاع فى أدانيه) . أى أقر له بالزعامة لفرع القبيلة الذى يسوده « مطاع فى أدانيه » أما الزعامة الكبرى فلم يقر له بها على بنى تميم . فغضب الزبرقان .

(وقال : والله يا رسول الله ، لقد علم منى غير ما قال ، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد ، فقال عمرو بن الأهتم: أنا أحسدك ، فو الله إنك للئيم الخال . حديث المال ، أحمق الولد . مبغض فى العشيرة) .

ثم التفت إلى رسول الله ﷺ فقال : (والله يا رسول الله ،لقد صدقت فيما قلت أولاً . وما كذبت فيما قلت آخراً ، ولكنى رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت . وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت ،ولقد صدقت فى الأولى والأخرى جميعًا » .

عندئذ أطلق رسول الله ﷺ كلمته الخالدة : التى مضت فى العربية إلى يوم القيامة « إن من البيان لسحراً » (١) .

ولم يقل رسول الله ﷺ للزبرقان شيئًا يشير إلى زعامته لبنى تميم . إن الشخصية الوحيدة التى أطلق رسول الله ﷺ ثناءه عليها من زعماء بنى تميم . ليس لزعامة تميم وحدها ، بل لزعامة البادية العربية كلها ، هى شخصية قيس بن عاصم رضي الله عنه . وقد ذكرها البخارى فى الأدب المفرد .

وعن الحسن البصرى عن قيس بن عاصم السعدى قال : (أتيت رسول الله ﷺ فقال : « هذا سيد أهل الوبر ») (٢) .

ولم نقل هذه لامرئ إلا له .

ولنشهد هذه المحادثة العظيمة بين سيد أهل الوبر قيس بن عاصم ،وبين سيد الثقلين، الإنس والجن ﷺ : (قدمت على رسول الله ﷺ فلما رآنى قال : « هذا سيد أهل الوبر » ، فلما نزلت أتيته فجعلت أحدثه ، فقلت : يا رسول الله ، ما المال الذى ليس علىَّ فيه تبعة من ضيف ضافنى أو عيال كثروا على ؟

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤٤٣ ، والبداية والنهاية ٥ / ٤٥ .
(٢) البخارى فى الأدب المفرد ص ٩٥٣ .

قال : « نعم المال الأربعون . والأكثر الستون ، وويل لأصحاب المئتين إلا من أعطى من رسلها ونجدتها ، وأطرق فحلها ، وأفقر ظهرها ، ومنح غزيرتها ، ونحر سمينها وأطعم القانع والمعتر » .

قال : يا رسول الله ، ما أكرم هذه وأحسنها إنه لا يُحَلُّ بالوادى الذى أنا فيه لكثرة إبلى . . .) لقد خاف ابتداؤه وفرجت أساريره ، وقرت عينه انتهاء فهو من أصحاب المئين وأكثر ولا سعة فى الوادى كله لغير إبله . لكنه وجد أنه يؤدى حق هذه الإبل تمامًا كما قال عليه الصلاة والسلام . فهو يعطى منها فى الشدة والجدب كما يعطى فى اليسر والرخاء ، وهى متروكة لطروق الفحل لا يردعه رادع عنها ، ولا يمنع أحدًا من استعارة جمل أو حتى أخذه . واللبن متاح لكل طارق . والإبل السمان جاهزات لضيافة كل طارق كذلك تنحر وتطعم له ،وهو يطعم الفقير القانع ، والسائل الكريم سواءً بسواء . لقد جن فرحًا بهذه المملكة الكبرى من الإبل التى يؤدى فيها حقها لله ولنفسه ، وليس عليه تبعة منها ، وأراد رسول الله ﷺ أن يختبره فى كل جزئية من هذه الجزئيات فالحقوق فيها كثيرة .

(فقال : « فكيف تصنع بالطروقة ؟ » قلت : تغدو الناس والإبل . فمن شاء أخذ برأس بعير فذهب به) .

وفى رواية : (يغدو الناس بحبالهم ، ولا يوزع [1] رجل من جمل يختطمه [2] ، فيمسك ما بدا له حتى يكون هو يرده .

« قال : كيف تصنع بالإفقار ؟ » ، قلت:إنى لأفقر الناب المدبرة والضرع الصغير) وفى رواية : « فكيف تصنع بالعطية ؟ » . قلت : أعطى البكر وأعطى الناب) أى بعير ويعطى الجمل الصغير والكبير .

قال : «فكيف تصنع فى المنيحة ؟ » قلت : إنى لأمنح كل سنة مائة) [3] .

فهو يهب مائة من الإبل كل عام هدايا لأصدقائه ،وصدقات للمحتاجين من قومه ، وأراد رسول الله ﷺ أن يخفف من غلواء هذا الثراء الطائل . ويخرج القلب من التعلق فيه فقال له : « فمالك أحب إليك أم مال مواليك ؟ » ،قلت : لا ، بل مالى . قال :

---

(١) يوزع : يُمنع .

(٢) من جمل يختطمه : يضع الحبل بعنقه ويمضى به .

(٣) من رواية البخارى فى الأدب المفرد ص ٩٥٣ .

« إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت ، وسائره لمواليك » .

فقد لفت نظره ﷺ إلى أن ما يعطيه من صدقات . وما يأكله من طعام ، وما يلبسه من وبر الإبل أو ثمنها، هو الذى له،وكل ما فى هذا الوادى دونه هو لورثته ومواليه .

فإنه وإن أدى حقَّ هذه الإبل للسنة سيموت ويتركها جميعًا لورثته ومواليه . وانتبه ﷺ لهذا المعنى الخالد،فأقسم ليخففن هذا العبء،ويكثر حصته من هذا المال .

فقلت : والله لئن بقيت لأقلن عددها) [1] . (قال الحسن البصرى رحمه الله راوى الحديث : ففعل والله) [2] . هذا أول لقاء بين سيد أهل الوبر ،وبين رسول الله ﷺ ، وهو الذى فاز بهذا اللقب دون غيره .

ومن هذه المحادثة كذلك ما رواه المفضل عن أبيه عن جده عن محمد بن إسحاق قال : قدم قيس بن عاصم التميمى على النبى ﷺ ، فقال يومًا وهو عنده :

أتدرى يا رسول الله من أول من رجز ؟ قال : « لا » . قال :

أبوك مضر كان يسوق بأهله ليلة . فضرب يد عبد له فصاح : وايداه . فاستوثقت الإبل ونزلت ،فرجز على ذلك،ثم قال:يا رسول الله أتدرى من أول صائحة صاحت ؟ قال : « لا » . قال : أمك خندف ؛ كانت معها ضرة فنحَّت عنها ابنا لها ليلاً ، فجاءت فلم تجده فكرهت أن تؤذيهم ، فاعتزلت فصاحت عليه . ثم قال :

يا رسول الله ، أتدرى من أول من علم بك من العرب ؟ قال : «لا» . قال : سفيان بن مجاشع الدارمى . وذلك أنه جنى جناية فى قومه ، فلحق بالشام ، فكان يأتى حبرًا بها ، وكان يحدثه ، فقال له : إن لك لغة ما هى بلغة أهل البلد . فقال : أجل أنا رجل من العرب . قال : من أيها ؟ قال : من مضر . قال له الراهب : ألا أبشرك . قال : بلى . قال : فوالله إن هذا الذى ينتظر خروجه من مضر . قال : وما اسمه ؟ قال : أنظر فى كتبى . فنظر ورجع إليه ، فقال : أسمه محمد . فرجع سفيان وولد له غلام فسماه محمداً . قال : فقالت عائشة : من هذا يا رسول الله ؟

قال : هذا سيد أهل الوبر ، قيس بن عاصم التميمى [3] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٦١٣ وقد أوردها عن الطبرانى بسند جيد وغيره .
(٢) الإصابة لابن حجر ٣ / ٢٥٣ .
(٣) جمهرة أشعار العرب ٥١ . شرح الأستاذ على قاعود ، ط .دار الكتب العلمية . هذا وقد أورد الواقدى فى المغازى ٣ / ١٠١١ حول حداء الإبل القصة نفسها لكن مع قوم من مضر لا مضر نفسه .

وقيس ورسول الله ﷺ من مضر ، وخندف أم تميم وقريش كما ذكرنا من قبل ، وبشائر النبوة كانت عنده قبل أن يصل إلى مكة من سفيان بن مجاشع الدارمى ، وسفيان يتمى إلى قبيلة تميم ، ويذكر أن محمد بن سفيان أحد الخمسة الذين سموا بهذا الاسم عند العرب قبل رسول الله ﷺ . طمعًا أن يكونوا هم النبى المنتظر .

شهدنا الحديث عن كرمه وجوده ، فماذا عن رجاحة عقله ؟

من رجاحة عقله أنه حرَّم الخمر على نفسه فى الجاهلية :

وكان قيس بن عاصم قد حرَّم على نفسه الخمر فى الجاهلية . وكان سبب ذلك أنه غمز عكنة ابنته وهو سكران ، وسب أبويها ، ورأى القمر فتكلم بشىء ، وأعطى الخَمَّارَ كثيراً من ماله ، فلما أفاق أُخبر بذلك . فحرمها على نفسه ، وقال فيها أشعاراً منها قوله :

رأيت الخمـــر صـــالحة وفيــــها ... خـــصال تفـــسد الرجـل الحليما
فـــلا والله أشربـــها صـــحيحًا ... ولا أشفى بـــها أبدًا سقيـــــما
ولا أعـــــطى بها ثمنًا حـــياتى ... ولا أدعـــــو لهـــا أبدًا نديـــا
فإن الخـــمر تفضــــح شاربيـــها ... وتُجنيهم بها الأمر العظيــــما (١)

هذا من رجاحة عقله ، فماذا عن حلمه ؟

لقد اعترف الأحنف بن قيس التميمى أحلم العرب الذى ضرب المثل به فى الذكاء فى الحلم بأنه تعلم الحلم من قيس بن عاصم :

(قيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمت الحلم . قال : من قيس بن عاصم رأيته يومًا محتبيًا فأتى برجل مكتوف وآخر مقتول فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك . فالتفت إلى ابن أخيه ، فقال : يا بن أخى بئسما فعلت . أثمت بربك ، وقطعت رحمك ، ورميت نفسك بسهمك ، ثم قال لابن آخر له : قم فوار أخاك ، وحل كتاف ابن عمك ، وسق إلى أمه مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة) (٢) .

وفى رواية : (فما حلَّ حبوته وقال : . . .) (٣) .

(١) الاستيعاب فى أسماء الأصحاب لابن عبد البر ، هامش الإصابة ٣ / ٢٣٣ .
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣ / ٢٥٣ . (٣) أنساب الأشراف للبلاذرى ١٢ / ٢٦٣ .

وهو أشهر العرب وأداً للبنات فى الجاهلية (١) .

ولعله فى هذا الحديث السابق مع رسول الله ﷺ ذكر ذلك :

(فقد أخرج ابن مندة بسنده عن النعمان بن بشير قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول ، وسئل عن هذه الآية : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ ﴾ [التكوير] فقال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى وأدت ثمانى بنات لى فى الجاهلية ، فقال : « اعتق عن كل واحدة منهن رقبة » . قال : إنى صاحب إبل ؟ فقال : « اهد إن شئت عن كل واحد منهن بدنة » .

فالأمر متروك له لأن الإسلام يجب ما قبله . فله الخيار فى ذلك .

وعندما أتيح له أن يزور الصديق فى المدينة ، جرى هذا الحديث الطريف بينه وبين الصديق على هدى حديث قيس مع رسول الله ﷺ .

فقد (ذكر الزبير فى الموفقيات عن عمه عن عبد الله بن مصعب قال : قال أبو بكر لقيس بن عاصم : ما حملك على أن وأدت . وكان أول من وأد . فقال : خشيت أن تخلف عليهن غير كفء . قال أى الصديق : فصف لنا نفسك ؟ قال : أما فى الجاهلية ، فما هممت بملامة ، ولا حمت على تهمة ، ولم أرَ إلا فى خيل مغيرة أو نادى عشيرة ، أو حامى جريرة . وأما فى الإسلام) .

وفتح الناس آذانهم ليسمعوا أمجاد قيس فى الإسلام ففوجئوا بقوله : (وأما فى الإسلام . فقد قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ۝٣٢ ﴾ [النجم] فأعجب به أبو بكر) (٢) .

وعند الإمام أحمد عن قيس بن عاصم (أنه أسلم فأمره النبى ﷺ أن يغتسل بماء وسدر) (٣) .

وها هو يقدم خبرته لبنيه عندما حضرته الوفاة فى خمس وصايا هى من أثمن ما توصى بها الأمة كلها :

(فلما حضره الموت جمع بنيه فقال : يا بنىَّ ، خذوا عنى ، فإنكم لن تأخذوا عن أحد هو أنصح لكم منى :

(١ ، ٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣ / ٢٥٣ .

(٣) أخرجه أحمد ٥ / ٦١ .

١ ـ لا تنوحوا على ؛ فإن رسول الله ﷺ لم ينح عليه . وقد سمعت النبى ﷺ ينهى عن النياحة .

٢ ـ وكفنونى فى ثيابى التى كنت أصلى فيها .

٣ ـ وسوِّدوا أكابركم ، فإنكم إذا سودتم أكابركم لم يزل لأبيكم فيكم خليفة . وإذا سودتم أصاغركم هان أكابركم على الناس ، وزهدوا فيكم .

٤ ـ وأصلحوا عيشكم فإن فيه غنىً عن طلب الناس .

٥ ـ وإياكم والمسألة فإنها آخر كسب المرء .

أما وصيته الخاصة فهى :

٦ ـ وإذا دفنتمونى فسووا على قبرى ، فإنه كان يكون شىء بينى وبين هذا الحى من بكر بن وائل خُماشات ، فلا آمن سفيهًا أن يأتى أمرًا يدخل عليكم عيبًا فى دينكم ؛ [1] .

وحق لعبدة بن الطيب أن يرثيه عند موته بأروع ما قيل فى المراثى ، فليست وفاته وفاة امرئ عادى ، بل بنيان قوم تهدم بوفاته :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما

تحية من أولَيْتهُ منك نعمة ... إذا زار عن سخط بلادك سلما

فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما) [2]

ورغم كل هذه العزة المشهورة عنه فى الجاهلية والإسلام لم يكن ليقر البغى أبدًا على أحد فعن أبى الحسن المدائنى قال : (كان قيس يقول لبنيه : إياكم والبغى ، فما بغى قوم قط إلا قلوا وذلوا) .

ويلغ من خوفه من البغى ما تذكره الرواية السابقة : (فكان الرجل من بنيه يلطمه بعض قومه . فينهى إخوته أن ينصروه) [3] . (وكان إسلام قيس حسنًا) .

ولخص مقومات السيادة ـ عندما سئل ـ بأربعة أمور عظام :

(وقيل له : بما سدت ؟ فقال :

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (٩٥٣) .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ١٢ / ٢٦٤ .

(٣) المصدر السابق ١٢ / ٢٦٥ .

ببذل القرى ، وترك المراء ، وكف الأذى ، ونصرة المولى) [١] .

ذو الخويصرة التميمى

وإذا كنا قد تحدثنا عن الجانب المضىء فى بنى تميم وشخصياتهم ، فهناك الجانب المظلم الذى يحمل كل مورثات الجاهلية باسم الإسلام ، والذى برز أول ما برز فى غزوة حنين ثم شكل تيار الخوارج فيما بعد . ننقل هذا الجانب كما ورد عند ابن إسحاق فى السيرة ، عن عبد الله بن عمرو قال : من جاء من بنى تميم يقال له ذو الخويصرة ، فوقف عليه وهو يعطى الناس. فقال: يا محمد ، قد رأيتُ ما صنعت هذا اليوم . فقال : «أجل فكيف رأيت ؟ » ، قال : لم أرك عدلت ، قال : فغضب النبى ﷺ ثم قال : «ويحك إذا لم يكن العدل عندى ، فعند من يكون » . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله،ألا أقتله ؟ فقال : « لا ، دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا كما يخرج السهم من الرمية ينظر فى النصل [٢] فلا يوجد شىء ، وينظر فى القدح [٣] فلا يوجد شىء ، ثم فى الفوق [٤] فلا يوجد شىء سبق الفرث [٥] والدم » .

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن على بن الحسين أبو جعفر بمثل حديث أبى عبيدة وسماه ذا الخويصرة [٦] .

« ... دعه فإن له أصحابًا . يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم [٧] ، يمرقون [٨] من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ينظر إلى النصل فلا يوجد شىء ، ثم ينظر إلى رصافه [٩] فلا يوجد فيه شىء ، ثم ينظر إلى نضيه [١٠] فلا يوجد منه شىء ، ثم ينظر إلى قذذه [١١] فلا يوجد منه شىء.آتيهم رجل أسود،إحدى عضديه مثل ثدى المرأة ، ومثل البضعة تدردر [١٢] ، يخرجون على حين فرقة من الناس » .

قال أبو سعيد : فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأنا معه ، فأمر بذلك الرجل فالتمسه فوجده . فأتى به حتى نظرت

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ١٢/ ٢٦٥ .
(٢) النصل : حديد السهم .
(٣) القدح : السهم .
(٤) الفوق : طرف السهم الذى يباشر الوتر .
(٥) الفرث : ما يوجد فى الكرش .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤٩٦ ، ٤٩٧ .
(٧) التراقى : العنق .
(٨) يمرقون : يخرجون .
(٩) الرصاف : مدخل النصل من السهم .
(١٠) النضى : القدح أو السهم بلا نصل ولا ريش .
(١١) القذُذ : ريش السهم .
(١٢) تدردر : تذهب وتجىء وتضطرب .

إليه على نعت رسول الله ﷺ الذى نعت » (١) .

وكما يخص الأحنف بن قيس رحمه الله تميمًا عند عمر رضي الله عنه :

(وحضر مجلس عمر ، فذكر عمر بنى تميم وقال فيهم ، فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين ، منهم الصالح ومنهم الطالح ، فقام الحتات المجاشعى ليتكلم ، فقال له عمر: اجلس فقد كفاكم سيدكم الأحنف) (٢) .

ومن الجانب المظلم جدًا مشاركة تميم فى الردة وانقلاب زعمائها على الإسلام ، وانضمامهم إلى سجاح بنت الحارث فى حربهم لله ورسوله ومشاركة كثير من قيادتهم مع الخوارج على أمير المؤمنين على بن أبى طالب ولكنهم ... « أطول الناس رماحًا على الدجال » .

وفود أعشى بنى مازن (٣)

روى عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند والشيرازى فى الألقاب عن نضلة ابن طريف : أن رجلاً منهم يقال له الأعشى واسمه عبد الله بن الأعور كانت عنده امرأة يقال لها معاذة . وخرج فى رجب يمير أهله . من هجر فهربت امرأته بعده ناشزًا عليه . فعاذت برجل منهم يقال له : مطرف بن بهصل المازنى فجعلها خلف ظهره ، فلما قدم لم يجدها فى بيته ، وأخبر أنها نشزت عليه وأنها عاذت بمطرِّف ابن بهصل . فأتاه فقال : يا بن عم ، أعندك امرأتى معاذة . فادفعها إلى . قال : ليست عندى ولو كانت عندى لم أدفعها إليك . قال : وكان مطرِّف أعز منه ، قال : فخرج الأعشى حتى آتى النبى ﷺ فعاذ به .

وروى عبد الله بن الإمام أحمد . وابن أبى خيثمة . والحسن بن سفيان ، وابن شاهين وأبو نُعيم عن الأعشى المازنى أنه قال :

أتيت نبى الله ﷺ فانشدته :

يا مالك الناس وديان العـــرب   إنى لقيت ذِربة مـن الذرب
غدوت أبغيها الطعام فـى رجب   فخلفتنى فى نـزاع وهـرب
أخلفت العهد ولطَّت بالذنـب   وهن شر غـالب لمن غُلب

(١) صحيح مسلم ٢/ ٧٤٤ / ١٠٦٣ .   (٢) انساب الأشراف للبلاذرى ١٢ / ٢٨٥ .
(٣) هو الأعشى المازنى من بنى مازن بن مالك بن عمرو بن تميم .

فكتب النبى ﷺ إلى مطرِّف : « انظر امرأة هذا معاذة فادفعها إليه » .

فأتاه كتاب النبى ﷺوسلم فقرئ عليه فقال: يا معاذة، هذا كتاب النبى ﷺ فيك، وأنا دافعك إليه . قالت: خذ لى العهد والميثاق وذمة النبى ﷺ ألا يعاقبنى فيما صنعت .

فأخذها ودفعها إليه فأنشد يقول :

لعمرك ما حبى معاذة بالذى ... يغيره الواشى ولا قِدَمُ العهد
ولا سوء ما جاءت به إذ أذلها ... غواة رجال إذ يناجونها بعدى) (1)

ذكرنا هذا الوافد على النبى ﷺ من بنى تميم لإيضاح العديد من النقاط أهمها :

١ ـ فى استسلام بنى تميم للنبى ﷺ ساد شعور لدى كل فرد من بنى تميم أن العرب جميعاً أتوا لمحمد ﷺ بعد أن دانت له تميم أعز العرب فابن الأعور رضي الله عنه يناجيه : يا مالك الناس وديان العرب ﷺ .

ولم نجد أحداً استغرب هذا النداء وأن العرب أعلنوا الولاء لسيدهم محمد ﷺ .

٢ ـ وحيث إن العرب كلها تدين لمحمد ﷺ بالولاء عامة، وتميم خاصة . فكل فرد من تميم لابد أن يخضع لهذا السيد العظيم ، ولهذا لم يلجأ إلى سادات بنى تميم على فضلهم وفيهم قيس بن عاصم التميمى؛ سيد أهل الوبر بتقليد رسول ﷺ له ذلك وإنما لجأ إلى السيد الأول الذى لا ينقض له قول ولا ترد له وساطة فمطرِّف ابن عمه أعز منه. فلابد أن يلجأ إلى أعز من الجميع فكان اللجوء إلى رسول الله .

٣ ـ ويعنى كذلك اللجوء إلى رسول الله ﷺ فى الصغير من الأمور والجليل منها وأن كل خصوصيات المسلم يمكن أن تعرض على النبى المصطفى . فهو عندهم أقرب من الأهل والمال والولد .

٤ ـ ولم يخطئ النبى ﷺ هذا المنهج من أمته، بل أقره واستجاب للأعشى وبعث إلى مطرف بن بهصلة أن يطلق معاذة لزوجها دون تلكؤ ،وبنو تميم اختلفت النظرة فى إسلامهم بين موقن بالإسلام والشهادتين . وبين مستسلم خوفًا من الحرب أو رغبة فى السيادة وفيهم نزل قول الله عز وجل : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) ﴾ [الحجرات] .

---

(1) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤١٨ . وهى فى المسند .

٥ ـ ونلقى التجاوب الكامل من مطرِّف بعد استعصائه . والتجاوب من معاذة بعد أن أمرها رسول الله ﷺ بالعودة إلى زوجها وبعد أن أخذت ميثاق حبيبها المصطفى ألا تؤذى من زوجها الذى نشزت منه .

٦ ـ ويطالعنا أخيراً ذلك الحب عند الأعشى لزوجه رغم كراهتها له فيقسم أن حبه لها لن يتغير مهما قدم العهد ومهما استجابت للأعداء ، فهو لا يحملها وزر ما وقع إنما يحمله للذين أغووها . فاستجابت لإغوائهم .

٧ ـ لقد دخل رسول الله ﷺ إلى كل بيت حتى فى بادية العرب . وأصبح الولاء له فوق الولاء للعشيرة والقبيلة . وصار فى خلد كل مسلم أن الذى يزيل الظلم . ويمنع الحيف . ويحقق العدل . هو محمد عليه الصلاة والسلام .

٨ ـ وأخيراً نشهد عظمة المصطفى ﷺ وهو يربى هذا الجيل . فيغشى همومه الفردية والاجتماعية ويعمل على غسل هذه الهموم . ولو كلَّفه وقته وجهده فهو كما وصفه ربه عز وجل : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة] .

أولاً : بنو عامر بن صعصعة

١ ـ الزعماء الكبار .

٢ ـ وفد بنى كلاب بن ربيعة بن عامر .

٣ ـ وفود بنى كعب بن ربيعة بن عامر .

٤ ـ وفد عامر بن ربيعة بن عامر .

٥ ـ وفد هلال بن عامر .

قيس عيلان بن مضر

أولاً : بنو عامر بن صعصعة .

ثانيًا : بنو غطفان .

ثالثًا : بنو سليم .

رابعًا : بنو سعد بن بكر ، وبنو باهلة ، وبنو محارب .

بنو عامر بن صعصعة

عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر .

بنو سواءة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . . . بن قيس عيلان ابن مضر .

وبنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . . . بن قيس عيلان ابن مضر .

وبنو نُمير بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . . . بن قيس عيلان ابن مضر .

وبنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . . . بن قيس عيلان بن مضر .

وبنو كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . . . بن قيس عيلان بن مضر .

وبنو عُقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . . . بن قيس عيلان بن مضر .

وبنو المريشى بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . . . بن قيس عيلان بن مضر .

وبنو قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . . . بن قيس عيلان بن مضر .

وبنو حيدة بن كعب بن ربيعة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . . . بن قيس عيلان بن مضر .

وبنو العجلان بن عبد الله بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . . . بن قيس عيلان بن مضر .

وبنو ربيعة البكاء ومعاوية ذى السهمين وعوف ذى المحجن بنى عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . . . بن قيس عيلان بن مضر .

١ ـ الزعماء الكبار

عن أشياخ من قومه قالوا : أتانا رسول الله ﷺ ، ونحن بسوق عكاظ فقال : «من القوم ؟ » قلنا : من بنى عامر بن صعصعة ؛ بنو كعب بن ربيعة ؟ فقال :

إنى رسول الله إليكم ، وأتيتكم لتمنعونى حتى أبلغ رسالة ربى ، ولا أكره أحدًا منكم على شيء ». قالوا : لا نؤمن بك وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك .

فأتاهم بيحرة بن فراش القشيرى ،فقال : من هذا الرجل الذى أراه عندكم أُنكِرهُ ؟ قالوا : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . قال : فما لكم وله ؟ قالوا : زعَم أنه رسول الله ، فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه . قال : ما رددتم عليه ؟ قالوا : بالرحب والسعة ، نخرجك إلى بلادنا ، ونمنعك مما نمنع منه أنفسنا) .

وحتى هذه المرحلة. فالأمر عادى .ومن طبيعة العرب أن يجيروا من استجار بهم ، وأشعارهم وتاريخهم تثبت هذه الأصالة العربية عندهم كما يقول شاعرهم :

لنا جبل يحتله من نجيره ... منيع يرد الطرف وهو كليل (١)

أو يقول شاعرهم :

فلو سئلت عـــنه تقدُّ بأســرها ... وقحطان أو باقى بقـــية جـــرهما
لقالوا هو الموفى بخضــرة جــاره ... وذمته يومًا إذا مـــا تذمـــا (٢)

لكن المرحلة الثانية كشفت لؤم سيدهم بيحرة بن فراس :

(فقال بيحرة : ما أعلم أحدًا من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشر من شيء ترجعون به . أتعمدون إلى رهيق قوم كذبوه وطردوه فتؤوه وتناصروه ، تنابذوا والعرب عن قوس واحدة ، قومه أعلم به ، فبئس الرأى رأيكم .

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : قم ، فالحق بقومك ، فوالله لولا أنك عند قومى لضربت عنقك .

هكذا يتطاول سفيه بنى عامر على سيد البشرية.فيغضى سيد البشرية عن سفاهته ،

---

(١) للفرزدق فى الفخر .

(٢) لحسان فى رثاء المطعم بن عدى .

ويقوم فيركب ناقته ، لكن السفيه الوغد لم يكفه ما تكلم به مع محمد ﷺ من الوقاحة والأذى (فقام رسول الله ﷺ إلى ناقته ليركبها ، فغمز الخبيث بيحرة شاكلتها فقمصت برسول الله ﷺ فألقته) .

وها هو السفيه الحاقد الغادر يكرع كأس بهذا المنظر للطريد من قومه .

وغضب الله تعالى لنبيه .

(وعند بنى عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن حوط كانت من النسوة اللاتى أسلمن بمكة ، جاءت زائرة إلى بنى عمها فقالت : يا لعامر ولا عامر لى ، أيصنع هذا برسول الله ﷺ ولا يمنعه أحد منكم) .

وبرز الخير المكظوم فى بنى عامر ليثأر لرسول الله ﷺ بعد تمادى بيحرة ووقاحته ، فقام ثلاثة نفر من بنى عمها إلى بيحرة واثنين أعاناه . فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجلد به الأرض ـ ثم جلس على صدره ، ثم علوا وجوههم لطمًا .

فقال رسول الله ﷺ :« اللهم بارك على هؤلاء » (الذين يثأرون لنبى الله) «والعن هؤلاء»(الذين آذوا رسول الله) ، فأسلم الثلاثة الذين نصروه ، وقتلوا شهداء وهم غطيف وغطفان ابنا سهل ، وعروة أو عزرة بن عبد الله وهلك الآخرون) (١) .

وكانت هذه الجولة الأولى مع بنى عامر التى طغى فيها الحقد الجاهلى ولؤم الجاهلية على صوت العقل وطيب المعدن وأصالة المحتد .

(فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم أدركته السن ـ حتى لا يقدر أن يوافى الموسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم . فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان فى موسمهم فقالوا :

جاءنا فتى من قريش،ثم أحد بنى عبد المطلب يزعم أنه نبى ،يدعونا إلى أن نمنعه، ونقوم معه،ونخرج به إلى بلادنا . فوضع الشيخ يده رأسه ثم قال : يا بنى عامر ،هل لها من تلاف ؟ هل لذنا يا من مطلب (٢) والذى نفسى بيده ما تقولها إسماعيلى قط كاذبًا ، وإنه لحق ، فأين رأيكم كان عنكم ؟) (٣) .

لقد كان رأيهم معهم ، وهدوا رشدهم ابتداءً ، ورحبوا برسول الله ﷺ ، وهموا

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٥٩١ وهى فى الدلائل لأبى نعيم ص٢٤٣ ، وسيرة ابن كثير ١/ ١٦٠ .
(٢) هل لذنا بها من مطلب أمثل يضرب لما فات وأصله من ذنا بى الطائر إذا أفلت من الحبالة .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢ / ٥٠ ، ٥١ .

بأخذه معهم إلى مضارب قبائلهم لكن الزعيم الغادر بيحرة بن فراس هو الذى أفسد الأمر ، وهو الذى نخس ناقة النبى ﷺ فألقاه عنها ، وانتقم الله تعالى منه بمن ثأر لرسول الله ﷺ من بنى عامر ، المعتدين بعدوهم وقوة شكيمتهم وكثرتهم بين العرب .

الجولة الثانية

وكانت الجولة الثانية وزعيم بنى عامر ؛ عامر بن الطفيل بعد أن أسن عمه أبو عامر ملاعب الأسنة ، الذى كانت السيادة له لبطولته فى حرب أعدائه . وكان أبو عامر ، عامر بن مالك . من معدن نفيس .

(وكانت رئاسة بنى عامر للأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة وهو الذى قاد قبيلته فى معارك مظفرة فى الجاهلية مثل يوم جبلة المشهور . . . ولما مات الأحوص آلت الرئاسة إلى ابن أخيه عامر بن مالك بن جعفر الذى لم يكن أقل شهرة ومكانة من عمه الأحوص . لكن أبا براء عامر بن مالك طال عمره فى الرئاسة لبنى عامر حتى اهتز . وهو الوقت الذى أخذ نجم عامر بن الطفيل ونجم علقمة بن علاثة كليهما فى الظهور . فكان كل واحد منهما يعتقد أنه أحق بها من الآخر . وقد أشار أبو عبيدة معمر بن المثنى إلى سبب المنافرة (بين عامر وعلقمة) حيث يقول :

حين اهتز عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، قال علقمة لعامر :أنا أحق بها منك (يعنى رئاسة القبيلة) لأن الأحوص بن جعفر كانت له ولم تكن لأبيك . فقال عامر : أنا أحق بها منك لأنى أفضل منك ، وزاد أبو هلال العسكرى فى هذه الرواية أن عامراً قال : أنا أفضل منك وهى لعمى ولم يمت ـ وعمه عامر بن مالك ، وكان قد اهتز وسقط) (١) .

ولنقف مع هؤلاء الزعماء الثلاثة ، ونرى علاقة كل منهم مع الإسلام :

عامر بن مالك (ملاعب الأسنة)

روى ابن إسحاق عن المغيرة بن عبد الرحمن . . . قال : قدم عامر بن مالك بن جعفر أبو براء وغيرهما بالأسنة العامرى على رسول الله ﷺ فأهدى له فرسين وراحلتين

(١) منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة وأثرها فى الشعر الجاهلى د . حمد الزايدى . جامعة أم القرى ١٤١٧ .

فقال رسول الله ﷺ : « لا أقبل هدية من مشرك » وفى رواية : « إنى نهيت عن زبد المشركين » وعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فلم يسلم ولم يُبعد وقال : يا محمد إنى أرى أمرك هذا حسنًا شريفًا وقومى خلفى فلو أنك بعثت معى نفرًا من أصحابك لرجوتُ أن يتبعوا أمرك ، فإنهم إن اتبعوك فما أعزَّ أمرك » . فقال رسول الله ﷺ : «إنى أخاف عليهم أهل نجد » فقال عامر : لا تخف إنى لهم جار أن يعرض لهم أحد من أهل نجد .

وخرج عامر بن مالك إلى ناحية نجد فأخبرهم أنه قد أجار أصحاب محمد ﷺ فلا تعرضوا لهم . وكان من الأنصار سبعون رجلاً شببة يسمون القراء . . . فبعثهم رسول الله ﷺ وبعث معهم كتابًا ، وأمر عليهم المنذر بن عمرو الساعدى (١) .

ها هى المحاولة الأولى التى فشلت فى الجولة الأولى من بيحرة بن فراس . بعد أن أخذوا بنو قشير رسول الله ﷺ وأنزلوه فى رحالهم ليأخذوه داعيًا إلى الله عز وجل يؤونه وينصرونه .ها هى المحاولة التى فشلت . تبدو بعد ثمانى سنوات تشرق من جديد لتفتح نجد ومغاليقها أمام المد الإسلامى،وها هو سيد بنى عامر ملاعب الأسنة يمضى إلى نجد ويعلم أهلها أنه أجار أصحاب محمد ﷺ فلا يعرض أحد لهم بسوء، وحين نضع الآمال العراض جانب بعضها البعض . نستعيد كلمة الوفد اليثربى الستة الذين أسلموا على يدى رسول الله ﷺ فى السنة العاشرة للبعثة يقولون لرسول الله ﷺ :

(إنا قد تركنا قومنا . ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم . فندعوهم إلى أمرك ، وتعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك) (٢) .

وكانت هذه الفقرة نقطة انطلاق دولة الإسلام فى المدينة .

فهل تكون كلمة أبى براء عامر بن مالك نقطة انطلاق دولة الإسلام فى نجد ؟

وإنى أرى أمرك هذا حسنًا شريفًا وقومى خلفى . فلو أنك بعثت نفرًا من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك فإنهم إن اتبعوك فما أعز أمرك .

إن بنى عامر بن صعصعة سادة نجدهم وراء أبى عامر بن مالك الذى فتح الضوء الأخضر للإسلام فى قومه . وتجاوب رسول الله ﷺ مع النداء ، بعد أن توثق من الإجارة واختار سبعين رجلاً من عيون أصحابه،هم من الدعاة المتفرغين للقرآن والجهاد؛ ليكونوا طلائع الإسلام العظيم فى هذا القطر العظيم .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٢٩١ ، ٢٩٢ ، وفى السيرة النبوة لابن هشام ٢ / ١٨٣ ، ١٨٤ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٤٢٩ .

لكن بيحرة بن فراس جديد أسوأ والأم منه بكثير . أجهض هذه المحاولة ، وأوقع بالمسلمين أعظم محنة فى تاريخهم تعدل محنة أحد وبينها وبين محنة أحد شهرين :

(وبعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل فى رجال من بنى عامر . . . ووثب عامر بن الطفيل فى رجال من بنى عامر على حرام فقتلوه . وفى رواية فتقدم فأمنوه ـ فبينما هو يحدثهم عن رسول الله ﷺ إذ أوما إلى رجل خلفه فطعنه فأنفذه . فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة . ثم قال بالدم هكذا ، فنضحه علـى وجهه . . . واستـصرخ عامـر بن الطفيل عليهم ببنى عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم وقالوا : لن نخفر جوار أبى براء ، وقد عقد لهم عقداً وجواراً .

فلما أبت بنو عامر أن تنفر مع عامر بن الطفيل استصـرخ عليهم قبائل من بنى سليم؛ عُصيَّة ورعل وذكوان ورِعب ، فنفروا معه ورأسوه عليهم .. فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم) (١) .

وعند البخارى فتعرضوا لهم وقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان. قالوا: اللهم بلغ عنا نبينا وفى لفظ إخواننا، إنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بذلك ،فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه فقال :« إن إخوانكم قد لقوا المشركين واقتطعوهم فلم يبق منهم أحد وإنهم قالوا : ربنا بلغ قومنا إنا قد رضينا عنك ورضيت عنا،وأنا رسولكم إليهم أنهم قد رضوا عنه ورضى عنهم » .. فدعى عليهم رسول الله ﷺ شهراً فى صلاة الغداة بعد القراءة وفى رواية بعد الركوع وفى رواية الإمام أحمد قال أنس: فما رأيت رسول الله ﷺ وجد على شيء وجده عليهم » (٢) .

أبو براء يثأر لغدر عامر ابن أخيه

ثم قال رسول الله ﷺ:«هذا عمل أبى براء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً » فبلغ ذلك أبا براء،فشق عليه إخفاء عامر بن الطفيل إياه،وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره،وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه يحرض بنى أبى براء على عامر بن الطفيل:

بـنى أم البنـين ألـم يرعكـم ... وأنتـم من ذوائب أهـل نجـد
تهكـم عـامرٍ بأبى بـراء ... ليخـفره ومـا خـطـأ لُعمـد

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ، مقتطفات ٢ / ٩٤ ، ٩٧ .
(٢) البخارى ٧٧٨ (ح ٤٠٩٣) .

ألا أبلغ ربيعة [1] ذا المساعى فما أحدثت فى الحدثان بعدى
أبوك أبو الحروب أبو براء وخالك [2] ماجد حكم بن سعد) [3]

وأقبل أبو براء سائراً وهو شيخ كبيرهم ، فبعث من البيص ابن أخيه لبيد بن ربيعة[4] لبيد بن ربيعة بهدية فرس، فرده النبى ﷺ وقال: لا أقبل هدية مشرك ، فقال لبيد : أما كنت أظن أن أحداً من مضر يرد هدية أبى براء،فقال النبى ﷺ : « لو قبلت هدية مشرك لقبلت هدية أبى البراء » .

قال : فإنه قد بعث يستشفيك من وجع به ـ وكانت به الدبيلة . فتناول النبى ﷺ وسلم جبوبه [5] من الأرض فتفل فيها ، ثم ناوله وقال : «دفها بماء ثم اسقها إياه» . ففعل فبرئ . ويقال : إنه بعث إليه بعكة من عسل فلم يزل يلعقها حتى برئ . فكان أبو براء يومئذ سائراً فى قومه،فمر بالبيص [6] فبعث ابنه ربيعة مع لبيد يحملان طعامًا ، فقال رسول الله ﷺ : « ما فعلت ذمة أبيك ؟ » قال ربيعة : نقضتها ضربة بسيف أو طعنة برمح ؟ فقال رسول الله ﷺ : «نعم» . . . . فيركب ربيعة فرسًا له . ويلحق عامراً وهو على جمل له . فطعنه بالرمح فأخطأ مقاتله . وتصايح الناس ، فقال عامر ابن الطفيل : إنها لم تضرنى ـ إنها لم تضرنى ، وقال : قضيت ذمة أبى البراء . وقال عامر بن الطفيل : قد عفوت عن عمى . هذا فعله .

وقال النبى ﷺ:« اللهم اهد بنى عامر واطلب خُفرتى من عامر بن الطفيل » [7] .

و (ذكر عمر بن شبة فى الصحابة له بإسناده عن مشيخة من بنى عامر قالوا : قدم على رسول الله ﷺ خمسة وعشرون رجلاً من بنى جعفر ، ومن بنى أبى بكر فيهم عامر بن مالك الجعفرى . فنظر إليهم وقال : «استعملت عليكم هذا ». وأشار إلى الضحاك بن سفيان الكلابى ، وقال لعامر بن مالك : «أنت على بنى جعفر » ،وقال للضحاك : « استوص به خيراً » . فهذا يدل على أنه وفد بعد ذلك مسلمًا .

ذكره خليفة والبغوى وابن البرقى والعسكرى وابن قانع والباوردى وابن شاهين

(١) ربيعة ذا المساعى : ابن أبى براء .
(٢) خالك حكم بن سعد : لأن أم البنين هى أم أبى البراء وحكم بن سعد .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ١٠٠ ، ١٠١ .
(٤) لبيد : هو الشاعر المشهور الذى يضرب به المثل : أشعر بن لبيد .
(٥) جبوبة من الأرض : مدرة .
(٦) البيص : منطقة بين ينبع والمدينة .
(٧) المغازى للواقدى ١ / ٣٥٠ ، ٣٥١ .

وابن السكن فى الصحابة ، وقال الدارقطنى : له صحبة) [1] .

وأول من لقبه ملاعب الأسنة درار بن عمر القيسي وذلك فى يوم السوبان وهو يوم من أيام العرب أغارت بنو عامر على بنى تميم وضبة ، ورئيس ضبة حسان بن وبرة ، فأسره يزيد بن الصعق فحسده عامر بن مالك فشد على درار بن عمرو القيسى فقال لولده :اغنه عنى،فطعنه فتحول عن سرجه إلى جنب الدابة ثم لحقه فقال لابنه الآخر : اغنه عنى ، ففعل مثل ذلك .

فقال درار : ما هذا إلا ملاعب الأسنة . فغلبت عليه .

فعامر بن مالك لو قدِّر له أن يكون فى أوج زعامته وقبل بلوغه سن الشيخوخة ، لقاد بنى عامر إلى الإسلام،لكنه أقبل ونجم زعامته فى أفول أمام زعامة عامر بن الطفيل. فاكتفى بعدها بإسلامه على الأرجح ، وقاد ابن أخيه لبيد الشاعر إلى الإسلام .

عامر بن الطفيل

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام] . فإذا كان عمرو بن هشام أبو جهل المدر ، فعامر بن الطفيل أبو جهل الوبر .

لقد شهدنا من قبل كيف افتتح زعامته بالغدر بأصحاب رسول الله ﷺ وقتل سبعين منهم . وشهدنا محاولة قتله من ابن عمه ربيعة بن عامر بن مالك وأدرك بخبثه ودهائه أن ثأره من ابن عمه ربيعة سوف يفنى بنى عامر ،فعفا عنه . ولقد شهد عقب هذه الجريمة آية كانت كفيلة أن تدخله فى الإسلام لكن حب الزعامة قاتله ، وشرط الإسلام عنده الاعتراف بزعامته على كل من حوله .

روى محمد بن عمر عن أبى الأسود عن عروة : أن عامر بن الطفيل قال لعمرو بن أمية : هل تعرف أصحابك ؟ (الذين قتلوا ببئر معونة) قال : نعم . قال : فطاف فى القتلى وجعل يسأله عن أنسابهم . فقال : هل تفقد منهم أحدًا ؟ قال : أفقد مولى : لأبى بكر يقال له : عامر بن فهيرة . فقال : كيف كان فيكم ؟ قال : قلت : كان من أفضلنا ومن أول أصحاب نبينا . فقال : ألا أخبرك خبره ؟ وأشار إلى رجل فقال : هذا

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢ / ٢٥٨ .

طعنه برمحه ثم انتزع رمحه ، فذهب بالرجل علواً فى السماء حتى ما أراه) (١) .

لقد رأى بأم عينيه صعود عامر بن فهيرة إلى السماء. ولم يدفعه ذلك إلى الإسلام . ولكن صمم إن قبل محمد تنازع السيادة بينهما بأن يكون لمحمد المدر وله زعامة الوبر (البادية) يمكن أن يسلم . فمضى وافداً إلى المدينة بعد أحد وأصحاب معونة بسنتين ولعل ذلك كان فى السنة الخامسة للهجرة .

وكان على استعداد أن يسلم لو اعترف رسول الله ﷺ له بهذه السيادة ، لكن رسول الله ﷺ قَبِلَ أن يعرِّض المدينة لغزو بنى عامر . وخطر احتلالها منهم . ولم يقبل أن يقر له بهذه الزعامة فعن مؤمل بن جميل قال :

أتى عامر بن الطفيل النبى ﷺ فقال له : « يا عامر أسلم »، قال : أُسلِمُ على أن الوبر لى ولك المدر ، قال : « لا » . ثم قال : « يا عامر أسلم » . قال : أسلم على أن الوبر لى ولك المدر . قال : فولى وهو يقول : والله يا محمد لأملأنها عليك خيلاً جُرْدًا ، ورجالاً مرداً ، أو لأربطن بكل نخلة فرسًا .

فقال النبى ﷺ : « اللهم اكفنى عامراً واهد قومه » .

فخرج حتى إذا كان بظاهر المدينة صادف امرأة يقال لها : سلولية . فنزل عن فرسه ونام فى بيتها . فأخذه غدة فى حلقه . فوثب على فرسه ، وأخذ رمحه . وأقبل يجول وهو يقول : غدة كغدة البكر . وموت فى بيت سلولية . فلم تزل تلك حاله حتى سقط عن فرسه ميتًا . والله أعلم) (٢) .

وفى رواية البخارى : (وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل ، خيِّر بين ثلاث خصال فقال : يكون لك أهل السهل ولى أهل المدر ، أو أكون خليفتك ، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف ؛ فطعن عامر فى بيت أم فلان ، فقال : غدة كغدة البكر - فى بيت امرأة من آل فلان ، ائتونى بفرسى ، فمات على ظهر فرسه) (٣) .

ولعل التوفيق بين النصوص يقتضى أن يكون لعامر بن الطفيل وفادتان على المدينة، هذه الوفادة الأولى فى السنة الخامسة للهجرة . وتشير تتمة هذه الرواية إلى أن سعد بن معاذ وأسيد بن حضير طرداه من حرة واقم . واستشهد سعد رضي الله عنه فى السنة الخامسة للهجرة بعد الخندق ،ففى حديث ابن عباس رضي الله عنهما : فلما خرج أرْبد وعامر من عند

---

(١) مغازى الواقدى ١ / ٢٧١ ،وسبل الهدى والرشاد ٦ / ٩٥ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥ / ٣٢١ . (٣) صحيح البخارى ٧٧٧ (ح ٤٠٩١) .

رسول الله ﷺ حتى إذا كان بحرة واقم نزلا . فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير فقالا :

أشخصا يا عدوى الله عز وجل لعنكما الله . فقال عامر :من هذا يا أربد ؟ قال : هذا أسيد بن الحضير فخرجا) فقد خرجا مطرودين من المدينة .

أما الوفادة الثانية فكانت بعد الحديبية بالتأكيد . وحيث أقبل الناس على الإسلام . وكان الجديد فى هذه الوفادة أن الوفد كان من ثلاثة . وأن هذا الوفد بيت الغدر برسول الله ﷺ وقتله . (قال ابن إسحاق : قدم على رسول الله ﷺ وفد بنى عامر . فيهم عامر بن الطفيل . وأربد بن قيس ، وجبار بن سلمى ، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم . فقدم عامر بن الطفيل عدو الله على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به ـ وقد قال لعامر بن الطفيل قومُه :

يا عامر ، إن الناس قد أسلموا فأسلم ، قال :

لقد كنت آليت ألا انتهى حتى تتبع العرب عقبى . أفأتبع عـقب هـــذا الفتى من قريش .

ثم قال لأربد : إذا قدمنا على الرجل فسأشغل عنك وجهه . فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف ، وفى حديث ابن عباس ﷺ : فإن الناس إذا قتلت محمداً لم تزد على أن تلتزم بالدية وتكره الحرب فسنعطيهم الدية . قال أربد : أفعل) .

لقد أدرك عامر بن الطفيل أن المدر والوبر سيدينان إلى محمد ﷺ ، وأن هذا الفتى من قريش ستدين له العرب ، فلم يعد من حلٍ لهذا الأمر إلا القضاء عليه . وإذا كان نظيره علقمة بن علاثة ينازعه زعامة بنى عامر . وعجز عن إزاحته من طريقه . ومضى فى قبائل العرب ينافره ، فما حكم لأحد منهما ، فهو لايخشى بأسه كما يخشى بأس محمد ﷺ . وحيث إن الغدر من شيمته . وأصبح يعيَّر بذلك . فلم يجد حرجًا أن يُبيت قتل رسول الله عليه الصلاة والسلام .

(فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيل : يا محمد خالّنى . قال : «لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » . قال :يا مـحمد خالّنى . وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به . فجعل أربد لا يحير شيئًا . فلما رأى عامر ما يصنع أربد قال : يا محمد خالّنى . قال : «لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له». فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال : أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً . فلما ولى قال

رسول الله ﷺ : « اللهم اكفنى عامر بن الطفيل ») .

وفى حديث ابن عباس رضي الله عنهما فقال عامر : ما تجعل لى يا محمد إن أسلمت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم » ، قال عامر : أتجعل لى الأمر من بعدك إن أسلمت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ليس ذلك لك ولا لقومك ، ولكن لك أعنة الخيل » قال: أنا الآن فى أعنة خيل نجد . أتجعل لى الوبر ولك المدر ؟ قال رسول الله ﷺ : « لا ». فلما قام عنه قال عامر : أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً . فقال رسول الله ﷺ : « يمنعك الله عز وجل » .

إنه حين عجز عن الفتك برسول الله ﷺ راح يساومه بأن يكون له الأمر من بعده أو تقتسم المدن والصحراء بين محمد وعامر . وعظمة سيد الخلق أنه مسؤول عن إقامة دولة الإيمان فى الأرض ، دولة الوحدانية ، دولة العبودية لله عز وجل ، وعامر يريد أن يقيم دولة الطاغوت فيرث الأرض ويحكم فيها بشريعته هو لا بشريعة الله . ومعاذ الله أن يقبل نبى الرحمة هذه المساومة من أكبر فرسان العرب وأبطالها . (فقد كان واحدًا من ثلاثة فرسان اتفقت كلمة أهل الجاهلية على أنهم أفرس أهل ذلك العصر . وقد عدَّ أبو عبيدة هؤلاء الثلاثة فقال : فارس قيس عامر بن الطفيل ، وفارس تميم عتيبة ابن الحارث بن شهاب صياد الفوارس ، وفارس ربيعة بسطام بن قيس) (١) .

وقد وقعت لعامر بهذه الشجاعة هيبة عظيمة عند فرسان الجاهلية . فكان عمرو بن معدى كرب يقول : ما أبالى أى ظعينة لقيت على ماء من أمواه معد ما لم يلقنى دونها حراها أو عبداها ، يعنى بالحرين عامر بن الطفيل . وعتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعى . والعبدان عنترة العبسى والسليك (٢) .

وحرص رسول الله ﷺ أن تضاف هذه الطاقة الضخمة إلى الإسلام كان حرصًا عظيمًا . فعرض عليه أن يعطيه أعنة الخيل . وتوظف خيل العرب لخدمة الإسلام . لكن طموحات عامر أبعد وأعمق . يريد لدولة بنى عامر بن صعصعة أن تحكم العرب بعد محمد بن عبد الله . وكان الرفض النبوى بينًا على هذا العرض .

إنه موقف النبوة الواحد . ورسول الله ﷺ أعزل لا أحد معه ولا قوة ولا سند

---

(١) منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة للدكتور حمد عبد الله الزايدى عن (الديباج لأبى عبيدة ص ١٥) .

(٢) المصدر نفسه عن خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٤٧٣ ، وديوان عامر ص ١٠ .

وهو لاجئ يفد إلى قبائل العرب يطلب النصرة ثم يرفضها إذا كانت مشروطة بزعامة بنى عامر بعده ، ويرفضها وقد دانت له العرب بعد الحديبية .

وبالمقابل موقف بنى عامر واحد فى الحالتين . التسلق على الإسلام للتحكم فى مصير العرب وهو ما شهدناه من موقف بيحرة بن فراس على رواية ابن إسحاق .

قال ابن إسحاق : وحدثنى الزهرى قال : إنه أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم يقال له بيحرة بن فراس - قال ابن هشام : فراس بن عبد الله بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة : والله لو أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب . ثم قال له :

(أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك . ثم أظهرك الله على من خالفك . أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : « الأمر لله يضعه حيث يشاء » . قال : فقال له :

أفتُهدف نحورنا للعرب دونك ، فإن أظهرك الله كان الأمر لغيرنا : لا حاجة لنا بأمرك . فأبوا عليه) [(١)] .

فبيحرة بن فراس سيد كعب بن ربيعة من بنى عامر يطالب أن يكون له الأمر من بعده [(٢)] . وبعد عشر سنين يخرج عامر بن الطفيل سيد كلاب بن ربيعة من بنى عامر يطالب أن يكون له الأمر من بعده .

ورفض رسول الله ﷺ الطلبين معًا بدون تردد . فدين الله لأنصاره . وحماته . لا لبنى عامر بن صعصعة . والذى يحمل راية هذا الدين لابد أن يكون خالصًا من حظوظ نفسه وقبيلته . لا عبدًا لأهوائه . وكان الأنصار هم الذين ادخرهم رسول الله ﷺ لهذا الفضل .

وقالوا : يا رسول الله ، ما لنا إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : «الجنة ». قالوا : رضينا بذلك لا نقيل ولا نستقيل) [(٣)] . ولم يعطهم صلوات الله تعالى عليه الحكم من بعده . وهم لم يطلبوه كذلك . وبهذه العظمة تقوم الدعوات .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢/ ٥٠ ، ط . دار الخير ، فهرست : معروف زريق .

(٢) وللجمع بين الروايتين ، عن بيحرة : أنه أخرج رسول الله ﷺ حين رضى قومه أن يمنعوه . فلعله قال قبل الأمر بإخراجه القول السابق ورفضه رسول الله ﷺ . فتستقيم الروايتان على ذلك .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢ / ٦٧ .

نهاية عامر بن الطفيل :

(فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد : ويلك يا أربد ، أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندى على نفسى منك . وايم الله لا أخافك بعد اليوم أبدًا . قال لا أبالك ، لا تعجل على . والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلت بينى وبين الرجل . حتى ما أرى غيرك أضربك بالسيف ؟

وخرجوا راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه فقتله الله فى بيت امرأة من بنى سلول فجعل يقول : يا بنى عامر ، أغدة كغدة البكر ؛ فى بيت امرأة من بنى سلول)سبحان الله . هكذا انتهى الفرعونان ؛ أبو جهل وعامر بن الطفيل . فأبو جهل وقد رأى كل المعجزات النبوية وأيقن فى قلبه بصدق محمد عليه الصلاة والسلام . لكن العنجهية الجاهلية والكبر دفعاه للإصرار على موقفه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة :هل أعمد من رجل قتلتموه ؟ أى قتلتم عميد قومه . ويجيب ابن مسعود والغيظ يأكل قلبه قبل أن يحز ابن مسعود رأسه : لقد ارتقيت مرتقىً صعبًا يا رويعى الغنم .

وهذا عامر بن الطفيل وقد شهد المعجزات النبوية ، شهد صعود جسد عامر بن فهيرة رضي الله عنه فى السماء وشهد عجز أربد ـ أشجع الناس ـ عن قتل رسول الله ﷺ . ولا يرى إلا عامرًا أمامه،ومع هذا كله تتحرك أمجاده والغيظ يأكل قلبه :يا بنى عامر ، أغدة كغدة البكر،وموت فى بيت سلولية.ولا يكتفى بهذا فكما فى الرواية الأخرى (زاد ابن عباس : ثم ركب فرسه فأحضرها وأخذ رمحه وأقبل يجول فلم تزل تلك حاله حتى سقط عن فرسه ميتًا . قال ابن إسحاق : ثم خرج أصحابه حين واروه) .

علقمة بن علاثة

وهو الزعيم الثانى الذى كان ينازع عامر بن الطفيل على زعامة بنى عامر . وقصة هذه المنافسة مضت فى كتب الأدب. وشارك فيها شعراء كبار كالأعشى ولبيد والحطيئة . وكان مما نافرا به بعضهما قول عامر لعلقمة : (والله لأنا أركب منك فى الحماة ، وأقتل منك للكماة . وخير منك للمولى والمولاة . فقال له علقمة : والله إنى لبر وإنك لفاجر ، وإنى لوفى وإنك لغادر ، ففيم تفاخرنى يا عامر ؟ فقال عامر : والله إنى لأنزل منك للقفرة . وأنحر منك للبكرة . وأطعم منك للهبرة ،وأطعن منك للثغرة . فقال

علقمة والله إنك لكليل البصر ، نكد النظر ، وثاب على جاراتك بالسحر) .

وحين عجزا عن إنهاء التنافس بينهما دعيا للمنافرة عند حكم خارجى (وقد رضى عامر وعلقمة فى بداية الأمر أن يكون الحكم بينهما رجلاً من قريش . وجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية، فلم يقل بينهما شيئًا وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما . وقال : أنتما كركبتى البعير الأدرم . قالا : فأينا اليمين ؟ قال : كلاكما يمين وأبى أن يقضى بينهما) ثم انتهت المنافرة إلى هرم بن قطبة الفزارى . ووعدهما أن يحكم بينهما بعد سنة .

فلما كان العام المقبل خرج عامر وعلقمة إلى هرم بن قطبة (وكان يوم خروجهما يومًا مشهوراً فى الجاهلية؛ حيث خرج عامر وعلقمة فى موكبين عظيمين على الخيل ، مجنبى الإبل ، عليهما السلاح . وكان موكب علقمة يتألف من أهله وذوى قرابته من بنى الأحوص الذين لم يتخلف منهم أحد معهم القباب والجزر والقدور ينحرون فى كل منزل ويطمعون ، ولم يكن عامر بأقل من صاحبه . فقد خرج هو الآخر فى موكب عظيم من بنى مالك بن جعفر وقال لرجلين من بنى عمه : أحصيا كل شىء مع علقمة من قبة أقدر أو لقحة ففعلا . وقال : يا بنى مالك ، إنها المقارعة عن أحسابكم فاشخصوا بمثل ما شخصوا به وكان للشعراء دور مميز فى هذا اليوم ؛حيث ثار مع عامر لبيد بن ربيعة والأعشى . ومع علقمة الحطيئة . وفتيان من بنى الأحوص . وهنا تلعب حكمة هرم المعهودة فى حل مثل هذه المعضلة حيث تذكر الرواية أنه أرسل إلى عامر فأتاه سراً لايعلم به علقمة . وقال : يا عامر ، كنت أرى لك رأيًا . وأن فيك خيراً . وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتنافر رجلاً لا تفخر أنت وقومك إلا بآبائه . فما الذى أنت به خير منه ؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم ألا تفضل علىَّ علقمة. فوالله لئن فعلت لا أفلح بعدها أبدًا . هذه ناصيتى فاجززها واحتكم فى مالى . فإن كنت لابد فاعلاً فسوِّ بينى وبينه . قال : انصرف ، وسوف أرى رأيى .

ويصنع هرم الصنيع نفسه مع علقمة حيث أرسل إلى علقمة سرًا لا يعلم به عامر فأتاه فقال : يا علقمة ،والله إن كنت لأحسب فيك خيراً ، وأن لك رأيًا . وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك. أتفاخر رجلاً هو ابن عمك فى النسب وأبوه أبوك. ومع هذا أعظم قومك غناءً . وأحمدهم لقاءً فما الذى أنت به خير منه ؛ فقال علقمة : أنشدك الله والرحم ألا تنصر علىَّ عامراً . اجزز ناصيتى ، واحتكم بمالى . وإن كنت لابد أن تفعل فسوِّ بينى وبينه . فقال : انصرف ، وسوف أرى رأيى .

وأصبح هرم وجلس فى مجلسه ، وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا فقام هرم فقال: يا بنى جعفر ، قد تحاكمتما عندى وأنتما كركبتى البعير الأدرم . تقعان إلى الأرض معًا . وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه وكلاكما سيد كريم) وبذلك جنَّب هرم بنى عامر حربًا ضروسًا تأكل فيهم الأخضر واليابس لو فضل أحد الزعيمين على الآخر (١) .

إسلام علقمة بن علاثة :

ومع وفاة عامر بن الطفيل غدا علقمة بن علاثة سيد بنى عامر غير منازع . ورأى ببصره الحاد ـ كما وصف نفسه ـ أن محمدًا لا يقاوم ، ولن يفتح حربًا بين محمد ﷺ وبنى عامر ، والعرب كلها مقبلة على محمد بن عبد الله بعد أن هادنه قومه وصالحوه . وبدأ الناس يقبلون أفواجًا على الإسلام . ولم يكن عنده طموحات منافسه عامر بن الطفيل ، ولا حقده ولا كبره . لكن هذا لا يعنى أن داء الزعامة لاينخر كل عظم من عظامه .

وقالوا : وقدم على رسول الله ﷺ علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب ، وهوذة بن خالد بن ربيعة وابنه . وكان عمر جالسًا إلى جنب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : أوسع لعلقمة ، فأوسع له ، فجلس إلى جنبه . فقص عليه رسول الله شرائع الإسلام وقرأ عليه قرآنًا فقال :

(يا محمد ، إن ربك لكريم ، وقد آمنت بك وبايعت على عكرمة بن خصفة أخى قيس . وأسلم هوذة وابنه وابن أخيه ، وبايع هوذة على عكرمة أيضًا) (٢) .

لقد أراد ﷺ كسب علقمة إلى الإسلام . ومن ورائه عامر بن صعصعة كلها . وقد استجاب الله دعاءه فى عامر بن الطفيل وأهلكه . ونجد هنا عظمة التربية النبوية ـ ولم يسلم بعد علقمة ـ فى تقريبه له ، واحتفائه به وهو على شركه ، حتى ليبعد عمر رضي الله عنه من جواره ويجلسه بينه وبين عمر تقريبًا إلى قلبه الصلة ، وفتحًا لهذه النفوس الجاسية ليتسلل لها الإسلام من خلال حسن المعاملة وكرم الوفادة . وبعد هذا الاحتفاء العظيم راح يحدثه عن شعائر الإسلام ويقرئه القرآن . لقد هيأ الجو النفسى المناسب للاستماع

(١) منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة وأثرها فى الشعر الجاهلى لـ . د . محمد عبد الله الزايدى بتصرف ٢٨ ـ ٣٢ عن الأغانى ١٥ / ٥٣ ـ ٥٦ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣١١ ط . دار الفكر .

إلى تعاليم هذا الدين وأحكامه . فلم يكن بد لعلقمة من قبول هذا الدين بنفس رضية سمحة : إن ربك لكريم ، وقد آمنت بك وبايعت على . . .) ولم يكتف بالمبايعة عن نفسه إنما بايع عن عكرمة بن خصفة أخى قيس . أحد زعماء بنى عامر . وأسلم هوذة وابنه وابن أخيه .

لقد تحققت دعوة رسول الله ﷺ « اللهم اهد بنى عامر» وتحققت دعوته: « واكفنى عامر بن الطفيل » من خلال هذا الدخول فى دين الله .

وكانت فرحة رسول الله ﷺ غامرة بإسلام سادة بنى عامر . فهو أكبر حدث بعد الحديبية . على مستوى القبائل وبلغ من فرحته ﷺ بذلك أن بعث الرسالة التالية لبنى خزاعة أكبر حلفائه يبشرهم بدخول علقمة بن علاثة فى الإسلام دون قيد أو شرط :

قالوا : وكتب رسول الله ﷺ إلى بديل وبُسر وسروات بنى عمرو (١) : « أما بعد فإنى لم آثم ما لكم (٢) ، ولم أضع فى جنبكم (٣) ، وإن أكرم أهل تهامة علىّ ، وأقربهم رحمًا منى أنتم ومن تبعكم من المطيبين (٤) .

أما بعد فإنى قد أخذت لمن هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسى ،ولو هاجر بأرضه إلا ساكن مكة إلا معتمراً أو حاجًا فإنى لم أضع فيكم منذ سالمت ، وإنكم غير خائفين من قبلى ولا محصرين . أما بعد: فإنه قد أسلم علقمة بن علاثة ، وابنا هوذة (٥) وهاجرا ، وبايعا على من تبعهم من عكرمة (٦) ، وإن بعضنا من بعضٍ فى الحلال والحرام ، وإنى والله ما كذبتم ، وليُجنبكم ربكم » (٧) .

فقد غير علقمة بن علاثة اتجاه السفينة ؛ سفينة بنى عامر من التوجه إلى حرب الإسلام كما كان يريد عامر بن الطفيل خصمه اللدود إلى التوجه إلى الإسلام . وأخذ معه قائدان آخران من بنى عامر ؛ هما خالد وعمرو ابنا خالد بن هوذة من بنى عمرو بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وهم من بطن آخر غير بطن علقمة .

---

(١) سروات بنى عمرو : هم سادة بنى عمرو بن خزاعة التى حالفت النبى ﷺ بعد فتح مكة .
(٢) لم آثم ما لكم : لم أضيع ما لكم من حق . (٣) لم أضع فى جنبكم : لم أقصر .
(٤) المطيبين: هم من فروع بعض قبائل قريش ؛وهم بنو هاشم وبنو زهرة وبنو الحارث بن فهر ، وتميم بن مرة ، وأسد بن عبد العزى .
(٥) ابنا هوذة : العداء وعمر ابنا خالد بن هوذة بن عامر بن صعصعة .
(٦) عكرمة بن خصفة بن قيس .
(٧) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٧٢ .

فعلقمة بن علاثة من بنى كلاب بن ربيعة . وابنا هوذة من بنى عمرو بن ربيعة .

وكان هذا التحول من أخطر التحولات فى التاريخ الإسلامى لم ينتبه له إلا القليل. وحين ندرك أن ما فقده المسلمون فى بئر معونة يعادل ما فقدوه فى أحد . وماذا ستكون النتائج لو غزت بنو عامر المدينة . لعرفنا قيمة هذا التغير . ويكفى دليلاً على أهميته : دعاء الرسول ﷺ وتضرعه أن يقيه هذا البلاء : « اللهم اكفنى عامر بن الطفيل . واهد بنى عامر وائت بهم » .

وفى رواية عن الأوزاعى قال ، قال يحيى : فمكث رسول الله ﷺ يدعو على عامر بن الطفيل ثلاثين صباحًا : « اللهم اكفنى عامر بن الطفيل بما شئت ، وابعث عليه داءًا يقتله » . فبعث عليه طاعونًا فى قتله . أما الشيطان الثانى الذى كان معه . والمكلف باغتيال رسول الله ﷺ أربد بن قيس فقد عبر عن حقده الدفين بقوله عندما سألوه عن محمد ﷺ : لقد دعانا إلى عبادة شىء لوددت أنه عندى فأرميه بالنبل هذه حتى أقتله . فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل يتبعه فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقته .

لم يكتف علقمة بإعلان إسلامه . فحين استُنفر لفتح مكة بعد عامين تقريبًا . كان من المشاركين فى الفتح . ولموقعه عند العرب . دخل رسول الله ﷺ مكة . ومعه هذه القيادات العربية . الأقرع بن حابس سيد بنى تميم . وعيينة بن حصن سيد بنى غطفان وعلقمة بن علاثة سيد بنى عامر . وحضر غزوة حنين وحصار الطائف وكان من أوائل المؤلفة قلوبهم وعلى رأسهم هو وابنا هوذة : فقد ذكر ابن هشام من أعطى مائة من الإبل من أفناء القبائل .

(ومن بنى قيس ثم من بنى عامر بن صعصعة ثم من بنى كلاب ربيعة بن عامر بن صعصعة : علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص . . . ولبيد بن ربيعة . . . ومن بنى عمرو بن ربيعة خالد بن هوذة بن ربيعة بن عمرو بن ربيعة ، وحرملة بن هوذة بن عمرو بن ربيعة . وهذه القيادات كلها فى بنى عامر) .

وتحرك وفد من بنى عامر فلحق بالجيش الإسلامى فى مكة عام الفتح . وشارك المسلمين فرحتهم وانتصاراتهم ، فعن عون بن أبى جحيفة السوائى عن أبيه قال : قدم وفد بنى عامر وكنت معهم إلى النبى ﷺ فوجدناه بالأبطح فى قبة حمراء فسلمنا عليه ، فقال : « من أنتم ؟ » قلنا : بنو عامر بن صعصعة . قال : « مرحبًا بكم أنتم منى وأنا

منكم ». وحضرت الصلاة ،فقام بلال فأذن ، وجعل يستدير فى أذانه . ثم أتى رسول الله ﷺ بإناء فيه ماء وتوضأ . وفضلت فضلة من وضوئه . فجعلنا لا نألو أن نتوضأ مما بقى من وضوئه . ثم أقام بلال الصلاة فصلى بنا رسول الله ﷺ ركعتين ،ثم حضرت العصر فقام بلال فأذن فجعل يستدير فى أذانه فصلى بنا رسول الله ﷺ ركعتين) (١) .

ويطالعنا فى هذا النص معنى جديد يتألف به رسول الله ﷺ بنى عامر بقوله : «مرحبًا بكم أنتم منى وأنا منكم » .

وهذا إكرام لهم ما فوقه إكرام ، وتحبب ما يعدله تحبب . وظهرت آثر هذه المعاملة النبوية العظيمة عليهم مباشرة . فقد حرصوا بهذا الحب العظيم . وبعد إسلامهم على يتوضؤوا من فضلة وضوء رسول الله ﷺ . وتشير هذه القصة من طرف آخر إلى حرص النبى ﷺ على تجاوز القيادات القبلية فى التعامل مع أبناء القبائل . بحيث يتمكن الإسلام من نفوس هؤلاء الأفراد ويتعايشون معه . ويتعاملون مع الإسلام مباشرة دون تلك القيادات فقد شهدوا الوضوء والأذان والإقامة وعاشوا هذه الأجواء ، وتنقطع عنا أخبار عقلمة بن علاثة حيث تبرز فى السنة التاسعة للهجرة بعد تبوك وبعد بعث رسول الله ﷺ عليًا رضي الله عنه إلى اليمن بعد رمضان . حيث صادف وجود أربعة من القيادات العربية فى المدينة .

فقد روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه : (أن عليًا كرَّم الله وجهه بعث إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذُهَيْبة فى أديم مقروظ لم تُحصَّل من ترابها . فقسَّمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر ؛ بين عيينة بن بدر ، وأقرع بن حابس ، وزيد الخيل ، وعلقمة بن علاثة) (٢) وتشير الأخبار كذلك إلى أن علقمة بن علاثة . ارتد بعد ذلك. ومضى إلى قيصر هو وابن عبد ياليل الثقفى الذى أسلم ثم ارتد كذلك . ومعـهم أبو عامر الفاسق (وكان قد خرج معه علقمة بن علاثة ، وكنانة بن عبد ياليل فلما مات اختصما فى ميراثه إلى قيصر صاحب الروم . فقال قيصر : يرث أهلُ المدرِ أهلَ المدرِ ، ويرث أهلُ الوبرِ أهلَ الوبرِ ، فورثه كنانة بن عبد ياليل بالمدر دون علقمة) (٣) .

الزعماء الثلاثة :

وحيث لم تكن شخصية علقمة بن علاثة مؤهلة لتقود بنى عامر إلى الإسلام بمقدار ما كانت حريصة على الزعامة فيهم . كان التوجيه النبوى منصبًا إلى الدخول إلى بنى

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣١١ .
(٢) البخارى ٦ / ٣٧٦ (٣٣٤٤) .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٧١ .

عامر عن غير طريق علقمة . من دون استشارته أو فتح جبهة معه . ولكن علقمة رأى مع اثنين من الزعماء أمثاله فرصة للخروج من ربقة الإسلام والخضوع له . حين لم يعد فى الساحة العربية إلا الإسلام ، ولا قدرة لهؤلاء الثلاثة على المواجهة . وبدأ نجم زعامتهم بالأفول رأوا فرصة الانسحاب من الساحة العربية كلها هو الطريق الوحيد أمامهم إن لم يختاروا الإسلام . وكان رفيقا دربه إلى القيصر هما :

كنانة بن عبد ياليل : سيد ثقيف والذى بقى مواجهًا للإسلام حتى آخر حياته . لكن قبيلته صممت على تجاوزه فمضى معها كى لا يفوته القطار . وشاهد أن أحد الشباب فى ثقيف ـ عثمان بن أبى العاص ـ هو معتمد النبوة فى قومه .

وعبد عمرو بن صيفى ـ أبو عامر الفاسق : وهو الذى غادر المدينة منذ لحظة وصول رسول الله إليها،وذلك حين تجاوزه قومه من الأوس . وانضموا للإسلام بزعامة الفتى سعد بن معاذ ومعه أسيد بن الحضير ،وبقى يتآمر على الإسلام من خلال القلاع المعادية له حتى سقطت جميع هذه القلاع . وترافق الثلاثة إلى قيصر ملك الروم .

أما أبو عامر فمات . وأما كنانة فلم يذكر التاريخ عنه من جديد وعلى الأغلب أنه قضى مرتدًا فى أرض الروم . لكن علقمة تجرَّع إهانة كبرى من قيصر حين حرمه ميراث أبى عامر الفاسق ، وأعطاه لصديقه كنانة .

وبدأ يراجع نفسه إذا كانت زعامته قد انتهت عند قيصر وعند محمد بن عبد الله ﷺ فهل يعود لمحمد ويعيش بين قومه ؟ غير أن هذه التساؤلات انتهت بوفاة رسول الله ﷺ . وترامت إليه أنباء الردة العربية فاقترب من الأرض العربية يتربص النتائج . وكانت على غير ما يهوى فقد عاد العرب ودانو للإسلام ثانية تحت راية الصديق . وراية عمر بعده . ولعل هذا الواقع من التجارب المريرة أزاح الران عن قلبه . فقدم تائبًا لله تعالى فى عهد عمر فتقبل عمر أوبته ، ثم أعطاه الثقة بعد دراسة واقعه وسلوكه فأرسله أميرًا على حوران . ولم يطل العهد به فمات هناك .

ونشير هنا إلى أن مغادرة علقمة لساحة بنى عامر أفقد بنى عامر زعيمًا موحدًا لهم. وراحت الزعامات تتوزع على بطون بنى عامر وفروعها المختلفة . وسنشهد الدخول الحقيقى لبنى عامر فى الإسلام بعد أن انزاح علقمة من طريقهم . وابتعد عن تمثيلهم من خلال الوفود الجديدة التى وفدت إلى المدينة المنورة عاصمة الإسلام والتفت بسيد الخلق تنهل من معينه دون وساطات .

الضحاك بن سفيان الكلابى :

ليس بين يدينا ذكر عن وقت إسلامه لكنه بالتأكيد قبل فتح مكة. قال ابن عبد البر : يكنى أبا سعيد ، معدود فى أهل المدينة كان ينزل باديتها . وبعث رسول الله ﷺ سرية وأمرّ عليهم الضحاك بن سفيان (١) . أما خبر هذه السرية فقال عنها الصالحى فى سبل الهدى والرشاد : (فى سرية الضحاك بن سفيان الكلابى رضي الله عنه إلى بنى كلاب . قال محمد بن عمرو بن سعد : سنة تسع ، وقال الحاكم : فى آخر سنة ثمان ، وقال محمد ابن عمر الأسلمى : فى صفر . وقال ابن سعد : فى ربيع الأول ، وجرى عليه فى المورد والإشارة . قالوا : بعث رسول الله ﷺ جيشًا إلى القُرطاء (٢) عليهم الضحاك بن سفيان الكلابى ومعهم الأصيد بن سلمة بن قُرط فلقوهم بالزُجِّ . زجِّ لاوة (٣) بنجد فدعوهم إلى الإسلام فأبوا فقاتلوهم فهزموهم ، فلحق الأصيد أباه سلمة .. وسلمة على فرسٍ له فى غدير بالزُج . فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان فسبَّه وسبَّ دينه . فضرب الأصيد عرقوبى فرس أبيه . فلما وقع الفرس على عرقوبيه ارتكز سلمة على رمحه فى الماء . ثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتل سلمة ولم يقتله ولده) (٤) .

فنحن أمام مجاهد من الرعيل الأول يضحك للموت ، ويضحى فى سبيل الله بأبيه إن اقتضى الأمر. وعلى هذا فإسلامه قبيل إسلام خالد وعمرو بن العاص فى سنة ثمان. ولا ندرى فقد يكون من أهل الحديبية .

وشهدنا فى هذه السرية عظمة الأصيد الذى هاجم أباه وضرب عرقوبى فرسه ؛ لأنه سب دينه . وتركه يقتل على يد أخٍ له . كما تطالعنا أول انتصارات الضحاك على عدوه ولعل هذه السرية أعطته بعدًا ضخما فى الشهرة العسكرية هيأته ليكون الحارس الخاص لرسـول الله ﷺ مثل المغيرة بن شعبة الثقفى (وكان من الشجعان يعد بمائة فارس) (٥) (وكان الضحاك بن سفيان الكلابى أحد الأبطال وكان يقوم على رأس رسول الله ، متوشحًا سيفه ، وكان يعد بمائة فارس وحده) (٦) .

وكان بروزه الثانى حين اختاره رسول الله ﷺ ليكون على رأس بنى سُليم . وعده بمائة فارس ليغدو بنو سليم ألفًا بعد أن كانوا تسعمائة . وذلك حين أمدوا الجيش

---

(١) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر / هامش الإصابة ٢ / ٢٠٧ .
(٢) القرطاء هم إخوة ثلاثة : قُرْط وقَريط وقُرَيط بطن من بنى بكر بن كلاب واسمه عبيد .
(٣) زُج لاوة : اسم موضع بنجد .
(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٣٢٩ .
(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢ / ٢٠٧ .
(٦) الاستيعاب بهامش الإصابة ٢ / ٢٠٧ .

الإسلامى الماضى لفتح مكة .

وذكر أبو عمر فى ترجمة الضحاك الكلابى: أن النبى ﷺ لما توجه إلى فتح مكة كان بنو سُلَيم تسعمائة فقال لهم رسول الله ﷺ : « هل لكم فى رجل يعدِل مائة يوفيكم ألفًا »، فوفَّاهم بالضحاك وكان رئيسهم وفيه يقول العباس بن مرداس السلمى :

إن الذين وفــوا بمـا عاهدتـــم جـــيش بعثت عليـهم الضـــحاكا
أمّرْتَهُ ذرب اللسان كـــأنــــه لمـــا تكشَّفت العـــدو يراكـــا
طـورًا يعانـــق باليديـــن وتـــارة يفرى الجماجـــم صـــارمًا بتاكا (١)

وهذا الوصف من شاعر سُلَيم له يبرز قوته المنبثقة من قوة إيمانه وعقيدته . ولم ينس أن يصفه فى قصيدة أخرى أثناء المعركة :

ويوم حنين حين سارت هـــوازن إلينا وضاقـت بالنـــفوس الأضالـــع
صبرنا مع الضحاك لا يستفـــزنا قراع الأعـــادى منهـــم والـــوقائع
أمام رسول الله يخـــفق فـــوقنا لواء كخُذْروف (٢) السحابة لامـــع
عشية ضحاك بن سفيان مُعْتَصٍ (٣) بسيف رسول الله والموت كانع (٤) (٥)

وآن الأوان بعد فتح مكة أن يمضى داعية إلى قومه بنى كلاب ،ولا يُبعد أن يكون هذا الأمر هو الذى غيَّر نفس علقمة بن علاثة ودفعه لضعف إيمانه على الردة . فهو لا يريد زعيمًا آخر بجواره . ورسول الله لن يضع مصير الدعوة إلى الإسلام بمزاج وأهواء علقمة . وتوظيف الأمر للأمجاد الشخصية . فقد أكرمه وأغدق عليه المال . كما أغدق على الزعامات العربية من المؤلفة قلوبهم . لكن جيل الدعوة هو الذى ينفذ إلى قلوب الأمة ويصابر عنها . كما صابر من قبل فى المعركة (ولما رجع النبى ﷺ من الجعرانة بعثه على بنى كلاب يجمع صدقاتهم) وكانت ضربة هى موقعه الثانى بعد المدينة ؛ ليؤدى واجبه داعية إلى الله عز وجل وحين نذكر أصحاب المئين من غنائم حنين فى الجعرانة نجد اسم ابن علاثة ولا نجد اسم الضحاك . فالضحاك لا يتألفه على دينه . فهو موكول إلى إسلامه . وأثمرت هذه الدعوة أينع الثمار . وجاء الوفد الجديد وفد بنى

(١) الإصابة لابن حجر ٢ / ٢٠٦ .
(٢) خذروف السحابة : طرفها وأراد به هنا : سرعة تحرك اللواء .
(٣) معتصٍ : ضَارب . (٤) الموت كانع : دانٍ قريب .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ٨٣ .

كلاب إلى المدينة عام تسع : ثلاثة عشر رجلاً . فيه من القيادات الكبرى القديمة . جبار ابن صخر . قاتل عامر بن فهيرة ، ولبيد شاعر عامر ، بل شاعر العرب . وبه يضرب المثل : أشعر من لبيد [1] .

(١) الإصابة لابن حجر ٢ / ٢٠٦ .

٢ ـ وفد بنى كلاب إليه ﷺ

روى ابن سعد فى الطبقات عن خارجة بن عبدالله بن كعب قال :

قدم وفد بنى كلاب فى سنة تسعٍ على رسول الله ﷺ وهم ثلاثة عشر رجلاً فيهم لبيد بن ربيعة ،وجبار بن سلمى فأنزلهم دار رملة بنت الحارث . وكان بين جبار وكعب ابن مالك خلة . فبلغ كعبًا قدومهم فرحَّب بهم وأهدى لجبار وأكرمه . وخرجوا مع كعب فدخلوا على رسول الله ﷺ فسلموا عليه بسلام الإسلام وقالوا : إن الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله ، وبسنتك التى أمرته ، وإنه دعانا إلى الله فاستجبنا لله ولرسوله ،وإنه أخذ الصدقة من أغنيائنا فردها على فقرائنا (١).

فنحن إذن أمام قائد عسكرى شهدناه فى فتح مكة وحنين كما شهد له شاعر سُلَيم وفارسها العباس بن مرداس ، وأمام داعية عظيم إلى الله عز وجل شهد له رجالات الإسلام من قومه فى بنى عامر (وإنه دعانا إلى الله عز وجل فاستجبنا لله ولرسوله) وأمام قائد سياسى مقيم لشرعة الله فى قومه (وإنه أخذ الصدقة من أغنيائنا فردها على فقرائنا ، وليمن بنو عامر وبنو كلاب بهذا الصحابى القائد العظيم .

آثار الجاهلية فى الإسلام ـ وفد رؤاس بن كلاب :

وإذا كنا مع علقمة الذى باع المجد بدينه لنجد الصورة المشرفة العظمى فى نظيره الضحاك بن سفيان ، فها نحن أمام نموذج ثالث تزعزع قليلاً واستجاب للجاهلية ثم أنقذه الله تعالى فشدَّ إيمانه بسرعة بينما تأخرت عودة علقمة للعقد الكبيرة من الزعامة التى تمتلك ذاته .

هذه الشخصية الوسط هى شخصية (عمرو بن مالك بن قيس بن بجيد بن رؤاس ابن كلاب بن ربيعة) أحد فروع بنى كلاب وهو الذى استجاشه حب الإسلام فغادر مرابع قومه ماضياً إلى المدينة ؛ليعلن إسلامه فيها ،فعن طارق بن علقمة الرؤاسى قال:

قدم رجل منا يقال له عمرو بن مالك بن رؤاس بن كلاب بن عامر بن صعصعة على النبى ﷺ فأسلم ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام فقالوا : حتى نصيب من بنى

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٠٠ .

عُقَيْل بن كعب مثل ما أصابوا منا) .

ولئن عجز عمرو عن إقناع قومه بالتخلى عن ذحول الجاهلية وثاراتها . وتحبيبهم بالإسلام فلا أقل من أن يعتزلهم فى ثأرهم هذا من بنى عُقيل . لكنه مضى معهم .

لكنه استحر لقبيلته ومضى معهم وقتل أحد فوارس بنى عُقيل بن كعب :

(وخرج معهم عمرو بن مالك فأصابوا فيهم ثم خرجوا يسوقون النعم . فأدركهم فارس من بنى عقيل يقال له ربيعة بن المنتفق بن عقيل وهو يقول :

أقسمت لا أطعن إلا فارسا إذا الكماة لبسوا القلانسا

قال أبو نفيع : نجوتم يا معشر الرَجَّالة سائر اليوم (لأنه أقسم ألا يطعن إلا الفوارس) فأدرك العقيلى رجلاً من بنى عُبيد بن رؤاس . . . فطعنه فى عضده فاختلها . فاعتنق المحرس فرسه وقال : يا آل رؤاس فقال ربيعة : رؤاس ،خيل أم أناس . وعطف على ربيعة عمرو بن مالك (المسلم الداعية) فطعنه فقتله ، قال : ثم رجعنا نسوق النعم ، وأقبل بنو عقيل فى طلبنا حتى انتهينا إلى تربة فقطع ما بيننا وبينهم وادى تربة . فجعلت بنو عقيل ينظرون إلينا ولا يصلون إلى شىء فمضينا .

قال عمرو بن مالك : فأُسقط فى يدَىَّ وقلت : قتلت رجلاً وقد أسلمت وبايعت النبى ﷺ فشددت يَدَىَّ فى غُلٍّ إلَى عنقى ثم خرجت أريد النبى ﷺ . وقد بلغه ذلك . فقال : « لئن أتانى لأضربن ما فوق الغُلِّ من يده » . فأطلقت يدى ثم أتيته فسلَّمتُ عليه فأعرض عنى . فأتيته عن يمينه فأعرض عنى . فأتيته عن يساره فأعرض عنى . فأتيته من قِبَلِ وجهه فقلت :

يا رسول الله ، إن الرب ليترضى فيرضى . فارض عنى رضى الله عنك . قال : «قد رضيت عنك ») (١) .

إنه الإنسان ولا تزال ذحول الجاهلية تحيط به من كل جانب ، يضعف أمام نزوة الجاهلية وسطوتها فى نفسه . وعوضًا عن أن يمضى داعيًا إلى الله عز وجل ، ومحذراً من ثارات الجاهلية ، انضم إلى قومه ولم يكتف بذلك بل قتل رجلاً من بنى عمه ؛ بنى عقيل بن كعب . فكلا القبيلتين من بنى عامر ، أحدهما من كلاب بن ربيعة وثانيهما من كعب بن ربيعة . وهذين القبيلين الشريفين هما اللذان عناهما الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا (٢)

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٢) لجرير فى هجاء الشاعر النميرى .

لقد أخطأ وأدرك خطيئته ، فلم يمض وراء إغواء الشيطان له ويرتد عن دين الله بعد جريمته فى الإسلام إنما تمثل به قول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)** ﴾ [الاعراف] وتمثل به قول الله عز وجل : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)** ﴾ [آل عمران] .

ومن أجل هذا جاء بالقيد فقيد به يديه إلى عنقه . ومضى إلى رسول الله ﷺ معلنًا توبته معترفًا بخطيئته. ولعظيم جرمه فقد بلغه أن رسول الله ﷺ لن يرضى عنه وسوف يقطع يديه إن جاء له: «لئن أتانى لأضربن ما فوق الغُلَّ من يده». وحتى لا يحنث رسول الله ﷺ بيمينه، وطمعًا فى عفو رسول الله ﷺ. ألقى الغل من يديه. وألقى نفسه بين يدى رسول الله ﷺ يرجوه أن يعفو عنه(فأطلقت يدى ثم أتيته فسلمت عليه فأعرض عنى) وليس من شيمته ﷺ أن يعرض عن أحد من خلق الله . لكن لابد أن يشعره بذنبه (فأتيته عن يمينه فأعرض عنى) وكانت هذه أقسى من الأولى ولا شك ، فهو قد يهلك إن لم يرضى عنه رسول الله ﷺ (فأتيته عن يساره فأعرض عنى) . ترى هل تأخذه العزة بالإثم . ويمضى مكابراً إلى قومه بعد هذا الإذلال بين يدى رسوله الحبيب . إن إيمانه أكبر وأعظم فى كيانه من نفسه الأمارة . فهو فى حال من القلق واللوم والجلد الذاتى الطاغى الذى دفعه للمحاولة الثالثة (فأتيته من قبل وجهه فقلت : يا رسول الله إن الرب ليترضى فيرضى فارضى عنى رضى الله عنك . قال : « قد رضيت عنك ») .

إنها التربية النبوية الخالدة بالإعراض فقط كانت كفيلة أن تغسل حوبة هذا الصحابى العظيم وتشعره بعظم ذنبه فلم يجد بدأ أن يقول لرسوله الحبيب : إن الرب ليتُرضى فيرضى . وكانت عبودية النبى ﷺ الخالصة فهو أعبد أهل الأرض لربه وأذلهم له وأنقاهم له ، وأيقن بصدق توبة صاحبه عمرو حين ألح عليه بالله أن يرضى عنه ودعا له : « رضى الله عنك » ، قال له ﷺ : « قد رضيت عنك » ، فليس الهدف من التربية هذه تحطيم نفسية هذا المسلم العظيم ، بل الهدف تحطيم التعالى بالجاهلية والتعظم بالذات ونزع فتيل هذه الجاهلية بصدق الإيمان ﴿ **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)** ﴾ [الفتح] .

فأولئك المنافقون : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ [المنافقون] أما هـؤلاء فقـد أشرق قلـبهم بنور الإسلام ﴿ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٠٢﴾ [التوبة] .

ونحن لسنا بحاجة فقط إلى الوقوف أمام النماذج العالية الفائقة فقط ، بل نحن بحاجة كذلك إلى الوقـوف مـع النماذج التى يتغالب فيها الخير والشر فيغلب الخير فيها بعد ذلك .

٣ ـ وفود بنى كعب بن ربيعة

بنو عقيل بن كعب بن ربيعة

ونستطيع أن نشهد نموذجين متقابلين لوفدين من بنى عقيل بن كعب ربيعة الذين سبق أن شهدنا حربهم مع بنى قومهم؛ رؤاس بن كلاب بن ربيعة، ونرى من خلال هذين النموذجين صورتي الأعراب المتقابلتين في القرآن الكريم : ﴿ **وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (٩٨) ﴾ [التوبة] ، ﴿ **وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٩٩) ﴾ [التوبة] .

الوفد الأول :

روى ابن سعد عن رجل من بنى عقيل عن أشياخ قومه قال : وقدمنا من بنى عقيل على رسول الله ﷺ ربيع بن معاوية بن خفاجة بن عمرو بن عقيل ، ومطرف بن عبد الله بن الأعلم بن عمرو بن ربيعة بن عقيل ، وأنس بن قيس بن المنتفق بن عامر ابن عقيل فبايعوا وأسلموا وبايعوه على من وراءهم من قومهم ، فأعطاهم النبى ﷺ العقيق ؛ عقيق بنى عقيل وهى أرض فيها عيون ونخل وكتب لهم كتابًا فى أديم أحمر :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى محمد رسول الله ﷺ ربيعًا ومطرفًا وأنسًا أعطاهم العقيق ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وسمعوا وأطاعوا. ولم يعطهم حقًا لمسلم ، لقد كان رسول الله ﷺ يوزع الأرض العربية التى كانت موضع النزاع بين القبائل . ويعطى فيها صكوكًا لأصحابها . دون أن يأكل حق الآخرين . وهى مرتبطة بثباتهم على دينهم ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، ومرتبطة بعدم الاعتداء على حقوق الآخرين لينهى حروبًا استمرت قرونًا فى النزاع على المياه والغزو من قبيلة لأخرى (١) .

ولا نشهد من هذا الوفد ما يبرز عنفوان الجاهلية ؛ لأنه من جيل الشباب الذى لم تنخر قيم الجاهلية بعد فى كيانه . مثل ما سنشهد من الوفد الثانى .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٠١ ، ٣٠٢ .

الوفد الثانى :

وقدم عليه أبو حرب بن خويلد بن عامر بن عقيل . فقرأ عليه رسول الله ﷺ ، فقال : أما وايم الله لقد لقيت الله أو لقيت من لقيه . وإنك لتقول قولاً لا نحسن مثله . ولكنى سوف أضرب بقداحى هذه على ما تدعونى إليه وعلى دينى الذى أنا عليه . وضرب بالقداح فخرج عليهم سهم الكفر . ثم أعاده فخرج عليه بثلاث مرات . فقال لرسول الله ﷺ : أبى هذا إلا ما ترى . . .) .

إنها العقلية الأعرابية العجيبة المعجونة عجنًا بالجاهلية . فهو مجرد سماعه للقرآن . ناداه نداء الفطرة من أعماقه وأقسم على هذا النداء :

وايم الله ، لقد لقيت الله أو لقيت من لقيه .

فهذا البيان من القرآن إنما هو من عند الله ، وإن كان الأعرابى لا يدرى ما الوحى ولا سمع به لكنه لم يشك أبدًا أن هذا كلام الله ، ولن يصل هذا الكلام إلا بلقاء الله أو لقاء من لقيه .

وأعلن إعلانه الثانى الذى تجلى من أعماق فطرته كذلك دون تلعثم أو تردد : (وإنك لتقول قولاً لا نحسن مثله) .

إنه مثل اعترافات الوليد بن المغيرة ، واعترافات عتبة بن ربيعة ، وهذا أبو حرب يظهر أنه من ذلك الجيل العاتى ؛ فأبو حرب من أعمام الفتيان الثلاثة ، فأحد الثلاثة أنس بن قيس بن المنتفق بن عامر بن عقيل ، أما أبو حرب فهو ابن خويلد بن عامر بن عقيل . وهذا يعنى أنه ابن أخى المنتفق ، فهو عم أنس .

لكن كيف يتعامل أبو حرب مع من لقى الله ، ومن علم أنه ينطق بكلام الله ، إنه لا يهتز وجدانه لهذا الأمر إنما يستشير قداحه ، فإن أشارت عليه باتباع رسول الله فعل ، وإن لم تشر عليه بذلك رفض وأبى، ولم يرد الله تعالى لخلقه الهداية عن هذا الطريق ؛ عن طريق الأزلام والحظوظ . إنما يريد الإسلام عن طريق العقل والفطرة فحين يلغى عقله ويستجيب لقداحه ، فهو عبد هذه القداح ، فكيف لو أسلم اليوم ، ثم جاءته غدًا بأن يدع هذا الدين فسوف يدعه وهى من رجس الشيطان .

ومع هذا فهو لم يقف متحيرًا بين نتائج قداحه ورسول الله ﷺ إنه أعطاها الألوهية بدلاً عن الله عز وجل، وأعطاها السلطة والحاكمية . قائلاً : أبى هذا إلا ما ترى ، فألغى عقله وألغى فطرته وعبد قداحه ، وكم هذا الإسلام عظيم فى تحرير هذه العقول

من خرافاتها وِشعوذاتها ، وكم كان رسول الله ﷺ يحرص على أن يتعامل مع هذا العقل وهذه الفطرة بعيدًا عن هذه الآلهة المدعاة ، ولو خسر إيمانًا بالطريقة الشركية فهو لا يريد هذا الإيمان .

ونتابع مع أبى حرب رحلته بعد أن غادر رسول الله ﷺ عائدًا إلى قومه .

(ثم رجع إلى أخيه عقال بن خويلد فقال له : قَلَّ خِيسُك . هل لك فى محمد بن عبد الله يدعو إلى دين الإسلام ويقرأ القرآن وقد أعطانى العقيق إن أنا أسلمت فقال له عقال : أنا والله أخطك أكثر مما يخطك محمد . ثم ركب فرسه وجر رمحه على أسفل العقيق فأخذ أسفله وما فيه من عين) .

ولعل عقالاً معذور ، فهو لم يسمع من كلام الله شيئًا ، إنما سمع أن محمدًا أعطى أخاه شيئًا من العقيق ، فلم يأبه لذلك وهو قادر على أن ينتزع العقيق ويقاتل عنه ، ويعطيه . إنه لم يعر اهتماما لمن لقى الله أو لقى من لقيه إنما أعطى اهتمامًا للأرض التى ستوزع على المسلمين ، أما نفسية أبى حـــرب فقـد شهدناها فى الموقف العجيب من أخيه ، وهو يقول له : ما أقل خيسك (خيرك) وراح يدعوه إلى الإسلام الذى رفضه (هل لك فى محمد بن عبد الله يدعو إلى دين الإسلام ويقرأ القرآن) فهو يريد منه أن يدخل فى هذا الدين ويتعرف عليه ، وهو لولا مشكلة قداحه لدخل فى دين الله ، وإذا لم يدخل فلم لا يدعو أخاه إلى الدخول فى هذا الدين إنه يعيد لنا صورة أبىً طالب وهو يدعو ولديه إلى الدخول مع رســـول الله ﷺ والإيمـــان به ، أما هو فعلى ملة عبد المطلب .

ورغم كل عنجهية عقال وأنه سوف يعطى لأخيه ما يعطى محمدًا ، قادته الظروف إلى المدينة والتقى برسول الله ﷺ .

(ثم إن عقالاً قدم على رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام وجعل يقول له : «أتشهد أن محمدًا رسول الله ؟ » ، فيقول : أشهد أن هبيرة بن النفاضة نعم الفارس يوم قرنى لبان . ثم قال : « أتشهد أن محمدًا رسول الله » . قال : أشهد أن الصريح تحت الرغوة ثم قال الثالثة : « أتشهد ؟ » ، فشهد وأسلم) .

فرسول الله ﷺ يدعوه إلى الشهادة بالرسالة ، وهو يشهد ببطولة ابن النفاضة الفارس المغوار يوم قرنى لبان ، ويخشى رسول الله ﷺ النار على هذه النفوس البائسة التى تعيش فى أمجاد الجاهلية كما تتصور فيعود له ثانيًا : «أتشهد أن محمدًا رسول الله» .

فيعود ليقول : أشهد أن الصريح تحت الرغوة وهى كناية عن ظهور الحق . كما يظهر صريح الحليب تحت رغوته . ثم يسأله رسول الله ﷺ الثالثة : « أتشهد أن محمداً رسول الله » . فيشهد فى الثالثة ويسلم .

ولم نسمع عن عقال وعن أبى حرب شيئًا غير هذه الحادثة . ونرجو الله أن يكونا أسلما ونجيا من النار .

الوفد الثالث : أبو رزين لقيط بن عامر بن المنتفق :

وهو يمثل الصورة المقابلة ولتلك الصورة التى تحمل دخن الجاهلية فى أروع إشراقة لتفاعل الإسلام مع النفسية العربية الصافية . وقد رويت لنا بأسانيد متصلة كأنما هى صورة تليفزيونية حية .

روى عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند والطبرانى عن لقيط بن عامر رضي الله عنه قال :

المشهد الأول :

(خرجت أنا وصاحبى نهيك بن عاصم (بن مالك بن المنتفق) حتى قدمنا على رسول الله ﷺ فوافيناه حين انصرف من صلاة الغداة (الصبح) فقام فى الناس خطيبًا فقال :

« يا أيها الناس الا إنى قد خبأت لكم صوتى منذ أربعة أيام لتسمعوا الآن . الا فهل من امرئ قد بعثه قومه ؟ فقالوا : أعلم لنا ما يقول رسول الله ﷺ ؟

الا ثم رجل لعلَّه ان يُلهيهُ حديث نفسه ، أو حديث صاحبه أو يلهيه خيال .

الا وإنى مسؤول هل بلغت الا اسمعوا تعيشوا ، الا اجلسوا » .

فجلس الناس وقمت أنا وصاحبى) .

لقد حدَّد الزمان الذى وصل فيه إلى رسول الله ﷺ : (قد انصرف من صلاة الغداة) وحدَّد مكان اللقاء فى المسجد . ونقل لنا أول حركة على المسرح . حيث قام رسول الله ﷺ وأعلن للمسلمين أنه لم يحدثهم منذ أربعة أيام إلى اليوم وها هو اليوم جاهز للتحدث إليهم . غير أن الوافدين من قبائلهم هم أولى بالحديث من الصحب المقيمين فى المدينة . فالوافدون من قبائلهم تنتظرهم قبائلهم لتسمع منهم أخبار الإسلام وأخبار رسول الله ﷺ . وها هو يدعو الوافدين إلى الكلام .

وحين لم يقم أحد عاد فأكد إلحاحه الحبيب صلوات الله عليه للأسئلة والاستفسارات للقادمين من كل حدب وصوب ، فيؤكد عليهم ألا يأخذهم اللهو والحديث مع أصحابهم عن الأسئلة ، وألا يأخذهم الحياء فيحدثوا أنفسهم بالكلام ويهموا به ثم يتراجعوا بعد ذلك أو يوجد منافق ضال . يود أن يصرف هؤلاء الرسل عن تأدية رسالتهم إلى أقوامهم . فلم يكتف المربى الأعظم ﷺ . بطلب الوافدين أن يتحدثوا ، بل ذكرهم وألح عليهم بذلك ، وحذَّرهم من التهاون فى مهمتهم . وليس الأمر والحديث خاصًا بالوافدين والرسل القادمين من بعيد . بل الحديث للجميع . وعليهم أن يجلسوا ليستمعوا لهذه الوفادات . « ألا اسمعوا تعيشوا . ألا اجلسوا » فجلسوا . وبدأت الحركة الثانية فى المشهد حين قام لقيط وصاحبه بعد أن هيأ رسول الله ﷺ لهما الجو المناسب للحديث .

المشهد الثانى :

(وقمت أنا وصاحبى حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره قلت : يا رسول الله ، ما عندك من علم الغيب ؟

فضحك فقال : « لعمر الله » وهز رأسه وعلم أنى ابتغى سقطه ، فقال :

« ضن ربك عز وجل بمفاتيح خمسة من الغيب لا يعلمهن إلا الله » وأشار بيده . فقلت : وما هى يا رسول الله ؟ قال : « علم المنية : قد علم متى منيْة أحدكم . وعِلم ما فى غدٍ ، وما أنت طاعم غدًا ولا تعلمه ، وعلمُ المنى حين يكون فى الرحم قد علمه ولا تعلمونه . وعِلمُ الغيث يشرف عليكم آزلين (١) مسنين (٢) . فيظل يضحك قد علم أن غوثكم قريب » قال لقيط : قلت : لن نعدم من ربٍ يضحك خيرًا يا رسول الله . قال : « وعلم يوم الساعة » قلت: يا رسول الله . إنى سائلك عن حاجتى فلا تعجلنى . قال: « سل عما شئت » قال: قلت: يا رسول الله ، علِّمنا مما لا يعلم الناس ومما تعلم . فإنا من قبيل لا يصدِّقون تصديقنا أحدًا من مذحج التى تدنو إلينا ، وخثعم التى توالينا، وعشيرتنا التى نحن منها) .

فلقيط ﷺ جزء من الحوار . وفى الوقت نفسه مصور بارع لكل اللقطات المطلوبة بحيث لا يدع لقطة تفوتنا من هذا المشهد الرائع. وكأنا به كما وصف نفسه وصاحبه يقفان ينتظران أن يقع بصر رسول الله ﷺ عليهما بعد أن جلس الناس ووقفا . وكان

(١) آزلين : من الأزل ، الشدة والضيق .　　(٢) مسنين : من السنة أى : الجدب .

السؤال المفاجئ مباشرة : ما عندك من علم الغيب ، فالكهانة فى المجتمع العربى هى مادة أرقى الجامعات العلمية فيه ، وخاصة فى البادية حيث لا وجود للنصرانية ولا لليهودية ويعرف صدق الكاهن من كذبه مما يقدِّمه من غيبيات ستقع ، وعلى ضوء هذه الغيبيات يحكم الناس عليه ، ترى هل رسول الله كاهن من هؤلاء الكهنة يتحدث عن الغيب ، ويضرب بالقداح ، ويخبر الناس عما يجرى فى المستقبل ؟ ! (فضحك .. وقال : « لعمر الله » وهز رأسه يعلم أنى أبتغى سقطه) .

فقد كان من عادة الكهان الكبار أن يخبِّئ لهم السائل خبيئة . ويسأله عنها فإن عرف ما خبأ له . فقد نجح فى الامتحان . وإن لم يعرف فقد سقط ورسب ، وهنا ينتقل لقيط رضي الله عنه إلى مهمته كمصور تليفزيونى وينقل لنا جانبين من الحبيب المصطفى ﷺ . الجانب الخارجى وجانب الأعماق .

(فضحك وقال:لعمر الله . وهز رأسه) هذا هو المظهر الخارجى عقب السؤال : ما عندك من علم الغيب (وعلم أنى أبتغى سقطه) وهذا هو الجانب الداخلى .حيث أدرك الرسول المصطفى ﷺ . ماذا يقصد هذان السائلان . ولهذا ضحك ابتداء . وعرف ما يريدان يبتغيان امتحانه فى صدقه حين يتحدث عن الغيب ، وعوضًا عن أن يوبخ رسول الله ﷺ السائلان على هذا التجاوز المخل بالأدب . مضى بهما مباشرة إلى نفى العلم بالغيب حتى عن رسول الله ﷺ . وكان أعظم درس فى العقيدة يتلقونه ويسمعونه فى حياتهما (عن مفاتيح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله) .

ولا ينسى لقيط مهمته التصويرية . فهو الأديب العملاق (وأشار بيده) أى إلى الخمس . حيث راح ﷺ يعدد هذه الخمس على أصابعه ليحفظها هؤلاء الأعرابيان واحدة واحدة ، فيعرضها ويشرحها فى التفصيل . فليس الحديث إذن عن خبيئة ولا عن معركة . ولا عن عفاف فتاة ولا عن تنافر بين زعيمين ، ولا عن إصلاح بين قبيلتين ، إن رسول الله تعالى يحدث مباشرة عن ربه . ويعلم الناس دينهم .

١ ـ « قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه » ، (وهى الأجل) .

٢ ـ « وعلم ما فى غدٍ ، وما أنت طاعم غداً ولا تعلمه » .

٣ ـ « وعلم المنى حين يكون فى الرحم قد علمه ولا تعلمونه » .

٤ ـ « وعلم الغيث ، يشرف عليكم آزلين مسنين ، فيظل يضحك قد علم أن غوثكم قريب » .

٥ ـ « وعلم يوم الساعة » .

ولا شىء يثير فضول الأعراب ويهيج مشاعرهم مثل الحديث عن الغيث فى هذه الصحراء القاحلة ، ولهذا خصها رسول الله ﷺ بوصف نفسى ووصف خارجى نقله لنا لقيط ـ الذى يلتقط كل شىء ـ فما أقرب اسمه من مسماه رضي الله عنه « ويشرف عليكم آزلين مسنين) حيث قد سيطر اليأس والغم والهم عليكم . تكادون تقنطون من رحمة الله . «وربكم يضحك . يعلم أن غوثكم قريب ». وكيف تنقلبون إنسانًا آخر غير ما كنتم عليه قبل العنت . وقد صور القرآن الكريم هذا الواقع الداخلى والخارجى فى أكثر من موقع ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الروم] .

« وربكم يضحك » ولم يدع لقيط رضي الله عنه هذه الصورة تمر حتى عن عرض ما فى أعماقه . وما فى مشاعره وما فى خلجات نفسه فقد عاهدنا أن ينقل لنا كل شىء فاستهوته هذه الصورة البلاغية « وربكم يضحك » فلم يتمالك أن يعبر عن سعادته بهذا الرب الذى يحب عباده . ويرأف بهم أن قال : لن نعدم من رب يضحك خيراً يا رسول الله .

المشهد الثالث :

(قلت : يا رسول الله ، إنى سائلك عن حاجتى فلا تُعجلنى . قال : « سل عما شئت » . قال : قلت : يا رسول الله ، علمنا مما لا يعلم الناس ومما تعلم . فإنا من قبيل لا يصدقون تصديقنا أحداً ؛ من مزجح التى تدنو إلينا وخثعم التى توالينا ، وعشيرتنا التى نحن منها .

قال رسول الله ﷺ : « ثم تلبثون ما لبثتم ثم يتوفى نبيكم ، ثم تبعث الصائحة فلعمر إلهك ، ما تدع على ظهرها من شىء إلا مات والملائكة الذين مع ربك . فيصبح ربك عز وجل ، يطوف فى الأرض قد خلت عليه البلاد ، فيرسل ربك السماء تهضب من تحت العرش . فلعمر إلهك ، ما تدع على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى تخلقه من قِبل رأسه فيستوى جالسًا فيقول ربك : مهيم ـ لما

كان فيه ـ فيقول : يا رب أمس اليوم ولعهده بالحياة يحسبه حديث عهد بأهله) .

نحن أمام أطول حوارية فى الحديث النبوى نستمتع بها بعد أن استأنس لقيط رضي الله عنه بحديث رسول الله ﷺ (إنى سائلك عن حاجتى فلا تعجلنى) ويخاف أن يقال له : انتهى وقتك فليأت غيرك . وأخذ أجمل إذن سمعته أذناه : « سل عما شئت » فقدَّم لنا هذا الفيلم الحى الرائع فى المسجد النبوى كأنما نشهده الساعة .

وإذا كان قد أخذ الحق أن يسأل عما يشاء . فليعد إلى طلبه الأول : يا رسول الله علمنا مما لا يعلم الناس ومما تعلم ، فهو أدرى بطبيعة قومه والقبائل التى تنتظر قدومه بفارغ الصبر ليحدثها عن رسول الله ﷺ ، فإذا كان هذا الرسول يتصل بالله فلابد أن يأتى بأمور لا يعلمها الخلق العاديون ليؤمن الناس بصدق رسالته . ولقيط وصاحبه ، موطن ثقة مذحج وخثعم وعُقيل بن كعب . لابد أن يمضوا بجديد إلى قومهم ، واختار رسول الله ﷺ الحديث عن اليوم الآخر ، عن القضية الكبرى التى يرفضها العقل الأعرابى : ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء] .

وانهالت البلاغة النبوية تعلم البشرية كلها إلى قيام الساعة . بعد أن أخذ أديبنا العظيم إذن الاستمرار فى الحديث والحوار :

« ثم تلبثون ما لبثتم ، ثم يتوفى نبيكم . . . » وهذه ليست سهلة . فهل يُتوفى رسول الله ﷺ مثل ما يتوفى البشر ألم تتزلزل الأمة لوفاته رغم أن القرآن قال لهم : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

« ثم تبعث الصائحة فلعمر إلهك ، ما تدع على ظهرها من شىء إلا مات والملائكة الذين مع ربك » .

وهذا المعنى قد ورد فى الكثير من الآيات القرآنية. وعاش الجيل السعيد فى ظلالها، واستمتع بتلاوة رسول الله ﷺ لها وتفسيره لها ، خلال السنين الطوال ، أما نحن الآن فمع وافد من البادية . هيأ الله تعالى له هذا اللقاء . وقد لا يتكرر . ومهمته عسيرة . فعليه أن يقابل ثلاث قبائل من أكبر قبائل العرب يدعوها إلى الإسلام ويمضى فى مضاربها ينقل لها ما سمعه من الرسول المرسل من عند خالق السموات والأرض .

ولهذا كان العرض النبوى من التبسيط والإيجاز ما يجعل المستمع قادرًا على حفظه والتقاط كل كلمة فيه ، فكيف إذا كان راويتنا العبقرى الأديب لقيط بن عامر ؟! إذن

سيأتى يوم على الأرض . وقد مات فيها كل من خلق وبرأ ،حتى الملائكة فى السموات العلا : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن] بعد أن تأتى الصائحة لتجعل : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرحمن] .

« فيصبح ربك يطوف فى الأرض قد خلت عليه البلاد . فيرسل ربك السماء تهضب [١] من تحت العرش فلعمر إلهك ، ما تدع على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى تخلقه من قبل رأسه فيستوى جالسًا فيقول ربك: مهيم - لما كان فيه - فيقول : يا رب أمس اليوم ولعهده بالحياة يحسبه حديث عهد بأهله » ألا ما أروع (كاف) الخطاب من رسول الله ﷺ إلى لقيط ،وهو يقص عليه قصة الموت والبلى ثم قصة الحشر والنشر، ويتجه له كل مرة « فيصبح ربك ، فيرسل ربك ، فلعمر إلهك» إنها مقابلة خاصة فاز بها لقيط ﷺ تنشر بماء الذهب والياقوت والزبرجد. وكأنما بحار الماء أمامنا الآن هادرة من تحت العرش مرسلة إلى كل مخلوق فى الوجود وتقف خلف رأسه ، وما أن تمس قبره - قتيلاً كان أو ميتًا - إلا بعثت الحياة فيه بأمر الله عز وجل . منظر من الوضوح والتصوير ، كأنما هو أمامنا الآن نشهده ، وتنبعث الحياة أمامنا بكل انفعالاتها وحيويتها. حتى ليتساءل كل قتيل وكل ميت ينفض غبار الموت عنه، فيسأله ربه . منذ متى ؟ ويتذكر كل حى فى هذه السموات والأرض ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ أمس فقط .

فقد تركنا أهلنا لساعات . ماذا جرى ؟ الله تعالى يسأل كل عبد من عباده : مهيم . ويجيب العبيد ربهم . أمس . ولايدرون أنه قد مر عليهم آلاف السنين أو مئاتها أو ما الله تعالى أدرى بها .

المشهد الرابع :

(فقلت : يا رسول الله ، فكيف يجمعنا بعد ما تمزقنا الرياح والبلى والسباع ؟ فقال: « أنبئك بمثل هذا فى آلاء الله،أشرفتَ على الأرض وهى مدرة [٢] بالية . فقلت : لا تحيا هذه أبدا ثم أرسل عليها ربك . فلم تلبث إلا أيامًا حتى أشرفتَ عليها وهى شربة واحدة [٣] . ولعمر إلهك، لهو أقدر على أن يجمعكم من الماء على أن يجمع نبات الأرض . فتخرجون من الأصواء [٤] ومن مصارعكم فتنظرون إليه وينظر إليكم » .

---

(١) تهضب : تمطر .　　(٢) مدرة : فاسدة بالية .

(٣) شَرَبَة واحدة : أراد أن الماء قد كثر فمن حيث أردت أن تشرب شربت .

(٤) الأصواء : القبور .

لك الله يا لقيط ما أجراك، ولكن ألم تأخذ الأمان . فسل عما شئت . إنه اقتنع وحبيبه يحدثه عن ربه ،لكن ما يفعل بالمئات أو الآلاف الذين ينتظرونه . مشهدنا الرابع حضوره صحابة رسول الله ﷺ فى المسجد النبوى وقد دعينا للمشاركة ، وهنا يتغير المشهد حيث تعرض الأرض اليابسة القاحلة ثم تتصاعد الغيوم من كل حدب وصوب ، وليس من تحت العرش كما فى المشهد السابق ، وتشرب الأرض العطشى . وتشرب وتروى وتبدأ العرائس تظهر من كل مكان ، لقد كان جريئًا فى السؤال . ولم تمنعه مهابة رسول رب السموات والأرض من أن يسأله كيف ؟ لا ندرى . هل تصنع السؤال ، أم سأله عن حقيقة ؟! لمحات وجهه توحى أنه يتصنع السؤال لأجل من ينتظرونه لكن سؤال الأديب طالب العلم ، وليس سؤال الوقاحة السافرة ؛ كما فعلها مشركو مكة . فهذا المجرم العاتى أُبَىٌّ بن خلف وقد أحضر عظمًا باليًا وما أن لقى رسول الله ﷺ حتى فتَّه ونفخه فى وجهه وقال فى وقاحته المعهودة : أفيبعث الله هذا بعد البلى ؟ وتكفل القرآن بالكريم بالرد عن رسوله أمام هذا الطاغية فقال : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾** ﴾ [يس] .

أما سؤال لقيط رضي الله عنه فقد سأله بعد أن تلجلج وتردد . هل يليق ومحدثه رسول رب العالمين يسأله هذا السؤال ؟ غير أن الإجازة التى أخذها شجعته أكثر « سل عما شئت » ومع ذلك يخاف أن يحرم لذه المناجاة مع حبيبه . وينظر فى كل لحظة أهو فى يقظة أم فى حلم ؟ أحقًا قد وصل المدينة . وها يفوز بهذا اللقاء العظيم مع رسوله القرشى محمد بن عبد الله : (فكيف تجمعنا بعدما تمزقنا الرياح والبلى والسباع .

وينظر الحبيب المصطفى ﷺ إلى هذا البدوى الأصيل النقى ، الذى لايدع شعورًا يحس به إلا ويعرضه بين يدى حبيبه ، فيقدم له هذا المشهد الأخاذ الرائع : « انبئك بمثل هذا فى آلاء الله ».المسلمون صامتون كأنما على رؤوسهم الطير ، وهم يتابعون هذا الحوار بشغف :

ـ يا رسول الله فكيف يجمعنا بعدما تمزقنا الرياح والبلى والسباع ؟

ـ « أنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله .أشرفت على الأرض وهى مذرة بالية . فقلت : لا تحيا هذه أبدًا .

مشهد قائم والأرض مذرة بالية ميتة . لا عشب ولا نبات إلا اللهب والرمل تسفيها

الرياح من كل مكان يستحيل أن تحيا هـذه الأرض ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر] ويقرب المثال الحى إلى ذهن العربى . وقد رآها ميتة لا حراك فيها ، وصاح : أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ ويتابع الحوار .

« ثـم أرسـل ربك عليها ، فلم تلبث إلا أيامًا حتى أشرفت عليها وهى شربة واحدة » .

نعم . نعم . نعم . لقد رأى هذا بأم عينيه وهو فى طريقه إلى رسول الله ﷺ . وتساءل قال : لا تحيا هذه أبدًا . ثم رأى الربيع يقبل . وتنقلب الأرض إلى بساط سندسى أخضر ،إى والله ،لقد شهد مئات المرات هذا المشهد أليس هو ابن البادية ؟! أليست حياته وحياة أهله وقبيلته وإبله مرتبطة بهذه المياه . بهذا الغيث الربانى الذى يأتى فيحيى الأرض بعد موتها ؟! وينفُذ الحوار إلى أعماقه هجمة واحدة . فيزلزل كيانه فتتبعثر ذرات قلبه فى إعصار هائل . ثم تعود لتترتب من جديد . وقد امتلأت إيمانًا ويقينًا باليوم الآخر حيث جاء هذا السؤال الاستنكارى الأخير على شكل جواب مثير . وعيون رسول الله شاخصة به ، تشرح له وتوضح وتفسر ، وتفصل ،بل وتقسم له .

ـ « ولعمر إلهك لهو أقدر أن يجمعكم من الماء على أن يجمع نبات الأرض » وما الفرق بين المشهدين ؟

ثم يعود به إلى المشهد السابق . يتغير المشهد بسرعة وتعود معالم المشهد السابق كما هى .

المشهد الخامس :

ـ «فتخرجون من الأصواء . ومن مصارعكم . فتنظرون إليه وينظر إليكم ».

تخرجون من قبوركم ، ومن مصارعكم . فماذا ترون . ترون الله رب العالمين . ماذا ؟! الله رب العالمين تنظرون إليه وينظر إليكم . شىء جديد لم يعهده طيلة حياته . فهو لا يكاد يصدق أنه يرى رسول رب العالمين . فكيف يمكن أن يرى رب العالمين وعاد القلق من جديد . والتساؤل من جديد فهو قد أيقن بقدرة الله على البعث . بعد أن شهد مشهد بعث الأرض . لكن النظر إلى رب العالمين . هذا عجيب . وتصور المشهد فى لحظة واحدة . البشر كلهم من لدن آدم من كل مكان . حتى قيام هذه الساعة . كيف ينظرون إلى ربهم ؟!

ها هو يخرج من المسجد ـ لو خرج ـ فيغيب عن ناظريه رسول رب العالمين . فكيف

يتسع عقله . إلى أن هذا الخلق كله والذى بعث من جديد ، من كل قبر ، ومن كل مصرع جميعهم يرون رب العالمين . فلم يتمالك أن سأل محدثه النبى محمداً عليه الصلاة والسلام .

قلت : يا رسول الله ، كيف ونحن ملء الأرض وهو عز وجل شخص واحد ينظر إلينا وننظر إليه) هل هو إنسان ضخم جداً جداً . ومع ذلك فكيف يراه الجميع وهو شخص واحد . هذه الأصنام بنات الله لو ازدحم مائة رجل عليها لغابت عن ناظريهم فكيف يكون الله .

أما المسلمون صحابة رسول الله فما أسعدهم بهذا الحوار كما يقول الناطق الرسمى باسمهم أنس ﷺ نهينا فى القرآن أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء كان يعجبنا أن نجد الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع .

قال : «أنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله عز وجل : الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونهما ويريانكم ساعة واحدة » وفعلاً فقد احترق الإشكال من رأسه . وما الشمس والقمر أمام رب الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس ، ومع ذلك فكل الناس فى كل مكان فى الأرض يرونهم . ولا يدع رسول الله ﷺ محدثه لحظة يفلت منه . فلكل سؤال جواب ، والبسمة لا تفارق ثغر رسول الله ﷺ . والأسئلة المفاجئة تنثال من هذا البدوى الذى يتفجر ذكاء وحيوية . ورسول الله ﷺ يسعد بأسئلته فهو خير رسول له إلى قبائل العرب فى الجنوب فى وعيه وحفظه وذكائه . رسول الله ﷺ يدع له الحرية الكاملة : «سل ما شئت ». إنى ما أعلم قطعة نقلت لنا من الحياة النبوية كما نقلت لنا هذه القطعة .

ويقسم رسول الله ﷺ لصاحبه لقيط . وكأنما الحديث موجه له وحده : « ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يراكم وترونه من أن ترونهما ويريانكم (الشمس والقمر) لا تضامون فى رؤيتهما » .

لله أنت يا لقيط . يا رسول البشرية إلى رسول الله ﷺ إننا ونحن فى القرن الحادى والعشرين نسمع مناجاتك ، ونسمع أسئلتك ونتلذذ بها كأنما هى ثمار شهية وفواكه كثيرة نأكل منها ، نتعلم ونستفيد ونستزيد ، لله أنت يا وافد بنى عامر . هل سقط الحجاب والتكليف نهائيًا بينك وبين رسول رب العالمين حتى تطرح سؤالك الثالث الأجرأ والأخطر وتهيئ الأذهان للمشهد الخامس بعد أن عرضت علينا الشمس والقمر

ورؤيتهما من الخلق كافة . وقد تغير المشهد السابق للحظات . مشهد البشر ينتشرون من الأصواء إلى رب العالمين ينظر إليهم وينظرون إليه .

المشهد الخامس :

قلت : يا رسول الله فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه ؟

قال : « تعرضون عليه بادية له صفحاتكم لا تخفى عليه منكم خافية . فيأخذ ربك عز وجل بيده غرفة من الماء قِبَلكُم . فلعمر إلهك ما تخطئ وجه أحد منكم منها قطرة ؛ فأما المسلم فتدع وجهه مثل الريطة البيضاء ، وأما الكافر فتنضحه (أو قال فتحطمه) بمثل الحمم الأسود » .

المشهد السادس :

« ثم ينصرف نبيكم ، ويتفرق على أثره الصالحون ، فتسلكون جسراً من النار ، فيطأ أحدكم الجمر ، فيقول : حِس ، فيقول ربك عز وجل : أو إنه . . . » .

المشهد السابع :

« فتطلعون على حوض نبيكم لا يظمأ والله ناهله قط ، فلعمر إلهك ما يبسط أحد منكم يده إلا وقع عليها قدح يطهره من الطوف والبول والأذى » .

المشهد الثامن :

« وتحبس الشمس والقمر فلا ترون منهما واحداً » .

ثلاثة مناظر متتالية للكون يشهد لقاء ربه مع خلقه ؛ حيث يعرض مشهد غرفة اليد من الماء وقد أصاب وجه كل مخلوق ولم يعد هذا يصعب على عقل سليط بعد أن تصور الشمس والقمر . وتحول البشر إلى فريقين ؛ فريق مسلم وجهه مثل الريطة البيضاء ، وفريق كافر وجهه كالحمم الأسود . بعد أن كانوا فى المشهد السابق سواء حفاة عراة غرلا . ويتلاحق بهذا المشهد المشهد السادس حيث يتحرك فريق المؤمنين إثر رسوله ﷺ يقودهم إلى الجنة على جسر من النار ، ويطأ على الجمر فيقولون : حس فيعدهم ربهم . أن قليلا وتصلون .

ثم يطلع علينا المشهد السابع وهو حوض النبى ﷺ والمؤمنون فى الوجود منذ آدم إلى قيام الساعة بعد الجهد والعرق والظمأ وقطع جسر النار . يتسابقون إلى الشرب من هذا الحوض . «لا عجب فما يبسط أحدكم يده إلا وقع عليها قدح . يشرب وينهل ويغسل وجهه فيطهره من الطوف والبول والأذى » ويغدو إنسانًا آخر . وتلوح علائم

المشهد الثامن حيث تحبس الشمس والقمر فيسارع لقيط ليسأل بلسان هذه المليارات كلها . فكيف يكون الحال ولا شمس ولا قمر ؟!

حيث يعود الحوار من جديد فى ساحة المسجد النبوى بين لقيط رضي الله عنه ورسوله الحبيب ونلاحظ أن صديقه عاصم لا يحير جوابًا فقد ترك الأسئلة كلها للقيط .

قلت : يا رسول الله ، فيم نبصر يومئذ ؟!

قال : « بمثل بصرك ساعتك هذه وذلك مع طلوع الشمس فى يوم أشرقته الأرض وواجهته الجبال » لقد نقل لنا أنه ابتدأ محادثاته مع النبى ﷺ عقب صلاة الفجر وكادت الشمس تشرق ولما تنته المحادثات بعد وهى معروضة بالبث الحى المباشر على خيرة خلق الله فى الأرض ؛ صحابة رسول الله ﷺ فى المسجد فكيف تضىء الدنيا ولا شمس ولا قمر وذلك قبل بزوغ الشمس ، فكذلك تضىء الدنيا ولا شمس ولا قمر بعد أن حبسا عند ربهما عز وجل .

وتتلاحق المشاهد بعدها فى حوار مستمر لا ينقطع وأهل الأرض جميعًا يسعدون بوافدهم لقيط من خلال العرض الشيق القادم .

المشهد التاسع :

- قلت : يا رسول الله فبم نجزى من سيئاتنا وحسناتنا ؟

- قال : « الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها إلا أن يعفو » .

المشهد العاشر :

- قلت : يا رسول الله ، فما الجنة وما النار ؟

- قال : « لعمر إلهك ، إن النار لها سبعة أبواب ما منها باب إلا يسير الراكب بينهما سبعين عامًا » .

المشهد الحادى عشر :

« وإن للجنة ثمانية أبواب ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عامًا » .

المشهد الثانى عشر :

قلت : يا رسول الله فعلام نطَّلع من الجنة ؟

- قال : « على أنهار من عسل مصفى ، وأنهار من خمر ما بها من صداع ولا ندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وفاكهة ، ولعمر إلهك

ما تعلمون ، وخير من مثله معه أزواج مطهرة » .

المشهد الثالث عشر :

قلت : يا رسول الله أو لنا فيها أزواج أو منهن صالحات ؟

قال : «المصلحات للصالحين تلذون بهن مثل لذاتكم فى الدنيا غير أنه لا توالد ».

المشهد الرابع عشر :

قال لقيط : أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه .

فلم يجبه النبى ﷺ .

المشهد الخامس عشر :

وتنتهى مشاهد اليوم الآخر والجنة والنار ليبقى المشهد الحى بين رسول الله ﷺ ومعه عاصم بن نهيك وهما أمام المسلمين وبين يدى رسول الله رب العالمين .

قلت : يا رسول الله علام أبايعك ؟

فبسط رسول الله ، يده وقال : «على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وزيال الشرك فلا تشرك بالله إلهًا غيره ».

ويضع لقيط يده بيد رسول الله ﷺ وكذلك عاصم .

المشهد السادس عشر :

قال : قلت : يا رسول الله ، وإن لنا ما بين المشرق والمغرب ؟

فقبض النبى ﷺ يده وظن أنى أشترط عليه شيئًا لا يعطينيه .

قال : قلت : نحل منها حيث شئنا ولا يجنى على امرئ إلا نفسه ؟

فبسط إلىَّ يده وقال : « ذلك لك تحل حيث شئت ولا يجزى عنك إلا نفسك » .

المشهد السابع عشر :

قال : فانصرفنا عنه . فقال :

« ها إن ذين ، ها إن ذين (مرتين) من أتقى الناس فى الأولى والآخرة» .

المشهد الثامن عشر :

حيث تدخل عناصر جديدة . فيقف أحد المشاهدين ؛كعب بن الخدَّاريَّة (فقال له كعب بن الخدَّاريَّة أحد بنى بكر بن كلاب بن ربيعة (بينما لقيط وعاصم من بنى المنتفق

ابن كعب بن ربيعة) : من هم يا رسول الله ؟

قال : « بنو المنتفق أهل ذلك منهم » .

المشهد التاسع عشر :

وها هو ﷺ يعود بعد أن انصرف عنه .

(فانصرفنا وأقبلت عليه فقلت : يا رسول الله ، هل لأحد ممن مضى خير فى جاهليتهم ؟) ويدخل عنصر جديد مثير يكهرب الجو ويتوتر المشهد .

« والله إن أباك المنتفق لفى النار » .

قال : فلكأنه وقع حسٌ بين جلدة وجهى ولحمه مما قال لأبى ، على رؤوس الناس.

ويطلع لنا عرضًا داخليًا نفسيًا آخر فيقول: فهممت أن أقول وأبوك يا رسول الله؟ ثم إذا الأخرى أجمل فقلت : يا رسول الله وأهلك ؟

المشهد العشرون :

حيث يعرض مشهد خارج الساحة ومهمة يؤديها لقيط .

قال : « وأهلى لعمر الله » .

أما المهمة والمشهد الذى نراه :

« حيث ما أتيت على عامرى أو قرشى أو دوسى فقل : أرسلنى إليك محمد فأبشر بما يسؤوك تجر على وجهك وبطنك فى النار » .

المشهد الحادى والعشرون ، المشهد الأخير :

قال : قلت : يا رسول الله ، وما فعل بهم ذلك ؟ وقد كانوا على عمل لا يحسنون إلا إياه وكانوا يحسبون أنهم مصلحون ؟

قال ﷺ : « ذلك بأن الله تعالى بعث فى آخر كل سبع أمم نبيًا . فمن عصى نبيه كان من الضالين ، ومن أطاع نبيه كان من المهتدين » .

ويسدل الستار .

أما توثيق الفيلم فكان :

رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند والطبرانى وقال الحافظ أبو الحسن

الهيثمى رحمه الله تعالى : أسانيدها متصلة ورجالها ثقات ، وإسناد الطبرانى مرسل عن عاصم بن لقيط . وقال فى زاد المعاد : هذا حديث كبير جليل تنادى جلالته وفخامته وعظمته على أنه خرج من مشكاة النبوة ، رواه أئمة السنة فى كتبهم وتلقوه بالقبول ، وقابلوه بالتسليم والانقياد ، ولم يطعن أحد منهم فيه ولا فى أحد من رواته ، وسرد ابن القيم من رواه من الأئمة . منهم البيهقى فى كتاب البعث) (١) .

ويفهم من النصوص أن لقيطًا ﵁ قد أطال الإقامة والاستضافة فى المدينة المنورة، أو وفد وفادة أخرى لكثرة ما روى لنا من أحاديث أخرى . وكان فعلاً من أتقى الناس ونقل رزح النبوة إلى قومه .

الفرع الثانى من كعب بن ربيعة : بنو قشير

وحيث أطبقت أحاديث لقيط ﵁ مضارب القبائل العربية هيجت هذه القبائل للوفادة على رسول الله ، فمضى وفد بنى قشير إلى المدينة ميممًا صوب النبى ﷺ .

الوفد الأول :

روى ابن سعد عن على بن محمد القرشى ورجل من بنى عقيل قالا :

وفد على رسول الله ﷺ نفر من بنى قشير ، فيهم ثور بن عزرة بن عبد الله بن سلمة بن قشير ،فأسلم فأقطعه رسول الله ﷺ قُطيعة وكتب له كتابًا ،ومنهم حيدة بن معاوية بن قشير ، وذلك قبل حجة الوداع وبعد حنين ،ومنهم قرة بن هبيرة بن سلمة الخير بن قشير فأسلم فأعطاه رسول الله ﷺ وكساه بردًا وأمره أن يتصدق على قومه - أى : يلى الصدقة فقال قرة حين رجع :

حباها رسول الله إذ نزلـت بـه ... وأمكنها مـن نائل غير منـفد
فأضحت بروض الخَضر وهـى حثيثة ... وقد أنجحـت حـاجاتُها من محمد
عليها فتىً لا يُرْدف الـذمَّ رحلهُ ... تروكٌ لأمـر العاجـز المـتردد

ولعل أهم رجالات الوفد هو قرة بن هبيرة الذى اختاره رسول الله ﷺ ليكون على صدقات قومه ، وذلك لما رأى من رجاحة عقله وعمق إيمانه .

فعن سعيد بن نشيط :أن قرة بن هبيرة العامرى قدم على رسول الله ﷺ فلما كان

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٦٢١ - ٦٢٤ .

فى حجة الوداع نظر إليه رسول الله ﷺ وهو على ناقة قصيرة فقال : « يا قرة » ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : « كيف قلت حين أتيتنى ؟ » ، قال :

قلت : يا رسول الله ، كانت لنا أرباب وربات من دون الله تعالى ندعوهم فلم يجيبونا ، ونسألهم فلم يعطونا فلما بعثك الله بالحق أتيناك وتركناهم وأجبناك .

فلما أدبر . قال رسول الله ﷺ : « أفلح من رزق لبًا » (١) .

وأهم ما فى هذا الحدث هو عظمة رسول الله ﷺ وهو يتذكر قرة من بين المائة ألف الذين كانوا معه فى حجة الوداع ، ويتذكره من بين الآلاف الذين وفدوا عليه . فيناديه باسمه :« يا قرة ». ويتذكر ما قاله يوم وفد عليه من بين الألوف المؤلفة التى وفدت عليه ويستعيده ثانية ذلك الكلام المحكم الذى لخص فيه خلع ربقة الجاهلية من عنقه واعتناقه لدين الله ،وذلك التعقيب النبوى الذى جاء جوابًا على حادثة . ومضى حكمة إلى أبد الدهر ترددها الأجيال بعد الأجيال .ولكل المسلمين فى الأرض . ليتعرفوا على دور العقل فى حياتهم فيؤدوه : « أفلح من رزق لبًا » . وكم كان وقع هذا التعقيب عظيمًا على نفسية قرة حين سمعه من فم رسول رب العالمين .

والذى تركه علماء السير من القصيدة المذكورة لقرة بن هبيرة رضي الله عنه هو أهم بكثير مما ذكروه فالأبيات الثلاثة التى وردت هى فخر لقرة بنفسه وإشارة إلى إكرام رسول الله ﷺ لناقته .

لقد ترك علماء السير لنا أعظم ما فى القصيدة وقد يكون من أعظم ما مدح به الرسول ﷺ إن لم يكن أعظمه ونجده فى كتب الأدب أكد وأوضح .

فقد روى ابن سلام فى كتابه السفر جمهرة أشعار العرب . ما يلى :

عن ابن إسحاق عن عبد الله بن الطفيل عن أبيه عن جده : أن قرة بن هبيرة بن عامر بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيع بن عامر بن صعصعة وفد على رسول الله ﷺ فبايعه وأسلم . فحياه وكساه بردين وحمله على فرس واستعمله على قومه فقال قرة يذكر ذلك ويذكر ناقته فى قصيدة له طويلة :

حباها رسول الله إذ نزلت به ... وأمكنها من نائل غير منفد
فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبر وأوفى ذمة من محمد
وأكسى لبرد الخال قبل ابتذاله ... وأعطى لرأس السابح المتجرد (٢)

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير الجزرى ٤ / ٢٠٤ .
(٢) جمهرة أشعار العرب لابن سلام ١/ ٥٠ .

فالأبيات الثلاثة المذكورة فى كتب السير تتحدث عن فخره بنفسه الذى يقول به أنه بعيد عن العجز والتردد وأنه تروك لما يذم به المرء :

عليها فتىً لا يردف الذم رحله   تروك لأمر العاجز المتردد

أما الأبيات هنا فتلقى إضاءة على الإعجاب العظيم والامتنان العميق من قرة لرسول الله ﷺ لما حباه به من فضل .ولما رفعه به من جاه فسلمه قيادة قومه وجباية صدقاتهم. فلم يتمالك أن يتحدث عن الوفاء والبر لسيد ولد آدم :

فما حملت من ناقة فوق رحلها   أبر وأوفى ذمة من محمد

ويتحدث عن الكرم والجود لسيد ولد آدم :

وأكسى لبرد الحال قبل ابتذاله   وأعطى لرأس السابح المتجرد

فكسوة البرد إشارة إلى البردين الجديدين الذين كساهما إياه رسول الله ﷺ . ورأس السابح المتجرد إشارة إلى الفرس السبوح التى وهبها له رسول الله ﷺ ، وهكذا غدا قرة رضي الله عنه قرة عيون المؤمنين فى الأرض يوم تهفو قلوبهم بذلك المديح الخالد الذى لا يبلى أبد الدهر ولا يبلغ شأوه أحد .

فما حملت من ناقة فوق رحلها   أبر وأوفى ذمة من محمد

الوفد الثانى : معاوية بن حيدة بن معاوية :

فقد وفد أبوه حيدة بن معاوية مع رجالات الوفد الأول . ولم يكن مميزاً بينهم ،أما معاوية فهو وريث أبيه فى المجد وله شأن نابه فى قومه غير أن الجدب فى الصحراء قد زعزع شيئًا من زعامته فلم يعد يملك الثروة الطائلة التى يوزعها فى قومه ،ولا زعامة بدون كرم وجود ، وحيث إن الجدب قد أتى على ثروته من النعم فكاد يفنيها كلها . فلم لا يفد على محمد سيد العرب فيعطيه الإبل الذلل السمان ويستعيد ثروته . ويمكن لزعامته فقد أعطى علقمة بن علاثة زعيم بنى كلاب بن ربيعة مائة من الإبل ، وانتشر فى مضارب البادية العربية كلها أن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفقر وما وُزع على زعماء القبائل العربية فى حنين هو أكبر دليل على ذلك ، وكلما همَّ أن يمضى إلى رسول الله ﷺ أحس برعب داخلى فى أعماقه ورهبة فى مواجهته وحين عاد الوفد وتحدثوا عن لقائهم مع رسول الله ﷺ وكيف كان سيماه التواضع والتباسط بينهم وبينه ، وليس كما هو الحال بين الوفد وكسرى بن هرمز أو قيصر الروم .

ثم عزم عزمته الأخيرة بعد أن كان بين شد وجذب ومضى إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وروى الإمام أحمد والبيهقى عن معاوية بن حيدة ﵁ قال : أتيت رسول الله ﷺ ، فلما دفعت إليه قال : « أما إنى سألت الله عز وجل أن يعيننى عليكم بالسنة فتُحفيكم [١] وبالرعب أن يجعله فى قلوبكم » لقد زلزل هذا الكلام كيان معاوية كله من اللحظة الأولى . فهو الرجل المعاند المصمم على رفض الإيمان بهذا الدين الجديد ،وهو الذى عضته السنة بنابها حتى لم يعد لديه ما يقيم أوده وهو البطل المغوار لكنه الممتلئ بالرعب بين يدى محمد ﷺ إنه عليم بمكونات شخصه ودوافعه وطموحاته وكوابحه فمن الذى أدرى محمداً بهذا الواقع ورسول الله ﷺ يؤكد أن ما به من سنة وجدب إنما هو بدعاء رسول الله ﷺ وأن ما به من رعب من المواجهة هو بدعائه كذلك . إنما كان يريد رسول الله ﷺ لهم الخير حتى يلتقوا به ويتعرفوا على هذا الدين الجديد .

وجد فى نفسه مندفعًا ليتحدث عن كل ما فى كيانه من مشاعر وأحاسيس بعد أن رأى هذه المشاعر والأحاسيس حيلته أمام رسول الله ﷺ ، كأنما هو الذى صاغها فى نفسه فقال : (أما إنى خلقت هكذا وهكذا ، أى لا أومن بك ولا أتبعك) .

فنحن أمام طراز فريد من الرجال يرى أنه قد جبل بفطرته على حرب هذا الدين وأهله : لا أومن بك ولا أتبعك .

وخاض المعركة النفسية وضرامها قبل أن يصل إلى محمد رسول الله ﷺ وراح باندفاعه يقول ـ كما قال له نبيه ورسوله :

فما زالت السنة تحفينى ،ومازال الرعب يرعب فى قلبى حتى وقفت بين يديك .

لقد آمن أن القوة المسيرة لهذا الوجود ـ الله تعالى ـ هى التى تؤيد محمداً ﷺ فهذا أمر مفروغ منه .

فما الذى يريده محمد ﷺ .

(. . . فبالله الذى أرسلك . . . بم بعثك الله عز وجل ؟

قال : « بعثنى بالإسلام » .

قال : وما الإسلام ؟

---

(١) تحفيكم : تستأصلكم .

قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله،وتقيموا الصلاة ، وتؤتوا الزكاة ، أخوان نصيران ، لا يقبل الله عز وجل من أحد توبة أشرك بعد إسلامه » .

قال : قلت : يا رسول الله ، ما حق زوج أحدِ منا عليه ؟

قال : « يطعمها إذا طعم ، ويكسوها إذا اكتسى ، ولا يضرب الوجه ، ولا يقبح ولاتُهجر إلا فى المبيت » .

وفى رواية : ما تقول فى نسائنا ؟

قال : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُم ﴾ [البقرة : ٢٢٣] .

قال : فينظر أحدنا إلى عورة أخيه .

قال : « لا » .

قال : فإذا تفرقنا .

قال : « فضم رسول الله ﷺ إحدى فخذيه على الأخرى » ثم قال :

« ها هنا تحشرون ، ها هنا تحشرون ، ها هنا تحشرون » ثلاثًا ـ يعنى الشام ـ «ركبانًا ومشاة وعلى وجوهكم موفون يوم القيامة سبعين أمة ، أنتم آخر الأمم وأكرمها على الله تعالى . وعلى أفواهكم الفدام (١) ، وأول ما يعرب عن أحدكم فخذه » (٢).

إننا حين ندرس التربية السياسية فى المنهج النبوى نقف عند نقاط علامة هى نقاط افتراق التعامل مع الزعماء والقادة . هذه النقاط هى التى تعلمنا عظمة النبى ﷺ فى فقه النفوس ، وقد تكون التفصيلات بعد ذلك متشابهة ،فهذا معاوية بن حيدة رضي الله عنه وقد وصف لنا وضعه النفسى من الرعب الذى كان يمتلكه قبيل القدوم على رسول الله ﷺ؛ الرعب من لقائه والرعب من عدم لقائه ، فهو لا يريد حربًا ضروسًا ، ولكنه يحس فى أعماقه بكره كبير للإسلام بشبيه ما وصفه به أربد شريك عامر بن الطفيل فى الإجرام حين سأله الناس فلما قدموا أتاهم قومهم فقالوا : ما وراءك يا أربد ؟ قال : لا شيء ، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندى الآن فارميه بالنبل حتى أقتله وهو الذى

---

(١) الفدام : ما يشد على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذى فيه ، والمعنى : أنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم فشبه ذلك بالفدام والفخذ هى أول من يتكلم من الجوارح .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٦٣٥ وهى عند البيهقى فى الدلائل ٥ / ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، وعند أحمد ٥ / ٣ .

شهد المعجزة بعينه حين عجز عن قتل محمد واغتياله وكيف كان عامر بن الطفيل يظهر أمامه كلما أراد قتل محمد ﷺ فكلاهما أربد ومعاوية من بنية واحدة ومن زعماء بنى عامر ،لكن أربد غلبه الحقد وتمنى لو قتل ابن عبد الله لما سيستلبه من مجد ،ومعاوية هزته كلمة اللقاء الأول واللحظة الأولى وهو يرتجف من الرعب فكانت بمثابة قنبلة فجرت كل أعماقه حين سمع محمداً ﷺ يتحدث عن الرعب الذى يملأ كيانه وعن السنة التى كادت تستأصله وقومه،وكيف أنه سيق سوقًا إلى محمد ﷺ ؛سيق بمهماز داخلى لا يتركه لحظة إلا ويدعوه إلى لقاء رسول الله ﷺ من حب الاطلاع من الحرص على إكرام محمد له. من الخوف من غزو محمد له ،من الواقع الخارجى الذى جعله يأكل التراب من الجوع .

هذا الواقع كله الذى عرضه رسول الله ﷺ من اللحظة الأولى هو الذى فجر كيانه ودفعه للإيمان بعد أن أعلن أنه مجبول ومصمم ـ خُلِق هكذا ـ لا يؤمن بمحمد وحتى حين تسوّل له نفسه أن يرتد بعد مغادرة المدينة فجاء الجواب : « فإن الله تعالى لا يقبل توبة أحد أشرك بعد إسلامه » ، إذ به ينقلب إلى جندى مؤمن متلهف لفهم دينه لفهم حياته حق الزوج ، حق المرأة ، حدود العورة وهى جزئيات تشى بأنه يخشى أن تنتهى المقابلة ، فيريد أن يسأل عن كل شيء ، عن كل ما يخطر على باله ليزداد لحظات من عمره فى لقائه مع المصطفى ﷺ . إن أوتار نفسه التى كانت نشازًا تعزف على لحن الحرب والجبن والجوع ، قد أعيد ترتيبها فأصبحت كلها تنطلق من مهماز الإيمان بالله الواحد والإيمان برسول رب العالمين الذى بين يديه . فلم لا يطيل لقاءه مع من يلتقى مع رب العالمين أو يوحى إليه من قبله ،وأدرك رسول الله ﷺ نموذج لقيط الثانى (ولقيط ومعاوية من شباب بنى كعب بن ربيعة) فراح يعطيه من علمه ويحدثه عن اليوم الآخر ما لم يحدث لقيطًا به. فيحدد المحشر ،ويتحدث عن البشرية كلها ، وقد عزت أمة محمد ﷺ على رأس هذه الأمم وأرشدها وعن لحظات اللقاء مع رب العالمين حيث ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⁽٢٠⁾ ﴾ [فصلت] .

والكلمات الانسيابية التى انطلقت من معاوية رضي الله عنه تبرز فى رواية البيهقى أوضح :

(أفبا الله الذى أرسلك ، أهو أرسلك بما تقول ؟

قال : « نعم » . قال : وهو أمرك بما تأمر ؟ قال : « نعم » .

فهو يكتفى الآن بأن يأخذ الكليات كلها،ويكفيه جواب نعم بعد أن استحلفه بالله، أين هو الآن من ذلك الإنسان المصمم على رفض هذا الدين وحربه .

كما توضح لنا الرواية غامضا من رواية أحمد فى الحديث عن العورة :

قال : أفينظر أحدنا إلى عورة أخيه إذا اجتمعا ؟ قال : «لا» . قال : فإذا تفرقا ؟

فضم رسول الله ﷺ إحدى فخذيه على الأخرى (كناية عن رفض النظر ومنعه) ثم قال : « الله أحق أن تستحيوا » (١) .

فالحياء من الله عز وجل سيان رآه أخوه أم لم يره فالأصل كف البصر عن العورات فى مجتمع يتساهل فى هذه الأمور وخاصة فى البادية ؛ حيث لا لباس إلا ذلك الثوب أو الرداء والإزار القصير الممزق . فلابد لهذا المجتمع البدوى أن يتحضر فى لباسه وحشمته وستر عوراته .

وفى الرواية الأخرى الأوضح،قلت:يا رسول الله :عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك ». قال : أرأيت إن كان القوم بعضهم فى بعض ؟ قال : «إن استطعت ألا يراها أحد فلا يراها » ، قلت : أرأيت إن كان أحدنا خاليًا ؟ قال : « فالله تبارك وتعالى أحق أن يستحى من الناس » (٢) .

وفى رواية حكيم بن معاوية عن أبيه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعى هذه ألا آتيك ، أرانا عفان ـ وطبّق كفيه ـ فبالذى بعثك بالحق ما الذى بعثك به ؟ قال : « الإسلام » . قال : وما الإسلام ؟ قال : « أن يسلم قلبك لله تعالى ، وأن توجه وجهك إلى الله تعالى وتصلى الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة » (٣) .

والملاحظ من الأحاديث التى رواها رضي الله عنه أنه أطال المكث فى المدينة وسمع من رسول الله ﷺ لكثرة الأحاديث الأخرى التى يرويها . وكان ابنه حكيم وحفيده بهز يكثران من الرواية عنه .

لقد اتجه معاوية رضي الله عنه إلى بؤرة النور فى الأرض واستسلم طائعا لله قلبه كما علمه رسول الله ﷺ وتوجه بوجهه لله وحده فهو يسأل عن كل شىء ليس كالجندى فى ساحة المعركة ،بل كالعاشق الولهان بين يدى حبيبه الذى ملأ عليه كيانه ووجوده ليصبح معلمًا لنا فيما نقله لنا عن المصطفى ﷺ وهو الذى ينقل لنا حسب توجيهات دينه كل ما تعلمه منه:« ما لى أمسك بحجزكم عن النار . ألا إن ربى عز وجل داعىَّ . وإنه سائلى هل بلغتُ عباده وإنى قائل:ربى إنى قد بلغتهم:فليبلغ الشاهد منكم الغائب » (٤) . فقد أبلغ عشيرته وأبلغ ابنه وأبلغنا اليوم كذلك .

(١) مسند الإمام أحمد .
(٢) المصدر السابق (٢٠٢٩٦) .
(٣) المصدر السابق (٢٠٢٧١) .
(٤) المصدر السابق (٢٠٣٠١) .

الفرع الثالث من بنى كعب بن ربيعة : بنو جعدة

١ ـ الرقاد بن عمرو :

(قال : أخبرنا هشام بن محمد عن رجل من بنى عُقيل قال : وفد إلى رسول الله ﷺ الرقّاد بن عمرو بن ربيعة بن جعدة بن كعب . وأعطاه رسول الله ﷺ بالفلج ضيعة وكتب له كتابًا وهو عندهم) (١) .

٢ ـ النابغة الجعدى :

ويحسن الوقوف عنده فهو علم من أعلام العرب ومن شعرائهم الكبار . ومن سادات الجاهلية والإسلام . وهذه ترجمته من ابن الأثير :

(النابغة الجعدى وقد اختلف فى اسمه فقيل : قيس بن عبد الله ، وقيل: عبد الله ابن قيس . . . واختلف فى نسبه ،والذى ذكرناه أشهر ما فيه ،وإنما قيل له النابغة ؛ لأنه قال الشعر فى الجاهلية . ثم أقام مدة نحو ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فيه فقاله فسمى النابغة وطال عمره فى الجاهلية والإسلام وهو أسن من النابغة الذبيانى . . . قيل: عاش مائة وثمانين عامًا . وقال ابن قتيبة : عاش النابغة الجعدى مائتين وأربعين سنة وهذا لا يبعد ؛ لأنه أنشد عمر بن الخطاب :

ثلاثة أهلين أفنيتهم وكان الإله هو المستآسا

فقال له عمر : كم لبثت مع كل أهل ؟ قال : ستين سنة . فذلك مائة وثمانون سنة ثم عاش بعد ذلك إلى أيام ابن الزبير . وإلى أن هاجى أوس بن مغراء وليلى الأخيلية وكان يذكر فى الجاهلية دين إبراهيم والحنفية ويصوم ويستغفر وله قصيدة أولها :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

وفيها ضروب من دلائل التوحيد والإقرار بالبعث والجزاء والجنة والنار . وقيل : إن هذا الشعر لأمية بن أبى الصلت . وقد صححه يونس بن حبيب وحماد الراوية ومحمد بن سلام وعلى بن سليمان الأخفش للنابغة الجعدى . وفد على النبى ﷺ فأسلم وأنشده قصيدته الرائية وفيها :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ونتلو كتابًا كالمجرّة نيِّرا

---

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير الجزرى ٥ / ٢ ، ٣ .

وكان شاعراً محسنًا إلا أنه كان ردىء الهجاء لا يزال يغلبه من يهاجيه وهو أشعر منهم .

وكأننا فى المدينة بين يدى رسول الله ﷺ وقد كانت الجلبة والفسوضاء لوصول نابغة بنى جعدة حيث جاء من قلب الصحراء العربية ؛ ليبايع رسول الله ﷺ على الإسلام . ونشهد سيد الخلق وحفاوته البالغة بهذا الشاعر العربى الذى أطبقت سمعته الآفاق فيكرمه رسول الله ﷺ فى المسجد والمسلمون قد علقت أبصارهم به . وحسان ابن ثابت على رأس المحتفين به فهو نابغة العرب ومضى ينشد بين يدى رسول الله ﷺ قصيدته الرائية وهى أشهر قصائده . إننا حين نراجع القصيدة نجدها من أصول القصائد العربية فقد بلغت أبياتها ثمانية وسبعين بيتًا . وذلك لأن النابغة قد جعلها سِفْرًا لأمجاد قومه بنى عامر بن صعصعة ولحروب عامر مع جميع جيرانها والقيادات التى هزموها والانتصارات التى حققتها عامر على جيرانها جميعًا إضافة إلى قرابة ثلاثين بيتًا فى وصف ناقته فى الصحراء ، وما يشهده فى رحلته فى هذه الصحراء .

ونقف مع مطلع القصيدة التى يشير فيها إلى رحلة عمره الطويلة مع الحكم التى استقاها من هذه الرحلة :

خليلى عــوجا ســاعة وتهجــرا ... ولوما على مــا أحدث الدهر أو ذرا
ولا تجـــزعا إن الحــياة ذميـمــة ... فخفا لروعــات الحــوادث أوقِرا
وإن جـــــاء أمـــر لا تطيقان دفعه ... فلا تجزعـا ممــا قــضى الله واصبرا
ألـــم تريـــا أن الملامــــة نفعُها ... قليل إذا ما الشىء ولــى وأدبــرا
تهيج البكـــاء والندامـــــة ثـــم لا ... تُغيِّر شيئًا غــير مــا كـــان قُدِّرا

إننا نجد وهج الإيمان والحنيفية السمحاء فى شعره منذ بدايته والإيمان بالقضاء والقدر والصبر على مقادير الله تخرج من مشكاة واحدة ؛مشكاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وولده محمد بن عبد الله ﷺ ولهذا رأى أن يضيف هذا البيت فى موقعه الملائم أو أنه صاغ هذه القصيدة ليهديها لرسول الله ﷺ وينشدها إياه لا ندرى فتضن كتب الأدب عن تحديد هذا التاريخ وكذلك كتب السير .

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتابًا كالمجرة نيِّرا

ثم يعرض بين يدى رسوله الحبيب جولاته الكبرى فى محافل التاريخ العربى :

خليلــى قد لاقيت مالــم تلاقــيا ... وسَيَّرتُ فى الأحياء مــا لــم تُسَيَّرا
تذكرت والذكــرى تهيج لذى الهوى ... ومـــن حــاجة المحزون أن يتذكـرا

ويعرض أمجاد العرب عند الغساسنة والمناذرة وملوك اليمن الذين وفد عليهم منذ عشرات السنين . فماذا تذكر ؟

ندامايِ عـند المنـذر بـن محرِّقٍ أرى اليوم منهم ظاهر الأرض تعفرا
كهـولا وشبانًا كـأن وجوهـهم دنانير مما شيـف فـى أرض قيصرا
وما زلت أسعـى بـين بابٍ وداره بنجران حتـى خـفت أن أتنصـرا
لـدى ملك من آل خـفية خـاله وجداه من آل امرئ القيس أزهرا

وبعد جولته فى الصحراء مع ناقته يفتح صفحات تاريخ قومه ورسول الله ﷺ مصغٍ له يسمع كل إبداعه وكل زلله . حين كان يعاقر الخمر ويعيش مع القينات . وهذه صفحة جاهليته كلها يعرضها بين يدى إمام المربين وحكيم الوجود صلوات الله عليه ؛ من حروب عامر مع قضاعة وكندة وكنانة وتميم وأسد وجعفر وشيبان ويصل بالحرب ذروتها حين يقول :

وننكر يوم الـروع ألـوان خـيلنا من الطعن حتى تحسب الجون أشقرا
ونحـن أناس لانعـّود خـيلنا إذا ما التقينا أن تحـيد وتنـفرا
وما كـان معـروفًا لنا أن نردها صـحاحًا ولا مستنكرًا أن تُعـقَّرا
بلغنا السما مجدًا وجـودًا وسؤددًا وإنا لنرجو فـوق ذلك مظهـرا

وأمام هذا الفخر الذى تجاوز السماء يسأل رسول الله ﷺ الشاعر العظيم النابغة ليكفكف شيئًا من غلوائه وفخره فى جاهليته . يسأله عليه الصلاة والسلام .

« أين المظهر يا أبا ليلى ؟ ».

ويلتف النابغة إلى إمام النبيين أمامه وهو بين يديه ، وهو الموقن بالحشر والبعث والجنة والنار على ديانة إبراهيم عليه الصلاة والسلام يذوب حياءً ويذوب حبًا ويذوب تعظيمًا لمحمد ﷺ .

فيجيبه إجابته الخالدة : إلى الجنة بك يا رسول الله . قال : «نعم إن شاء الله ».

ويتابع بعدها هجاءه للأزد وبين ثنايا هذه الهجاء يردد حكمته التى يرددها فم الزمن فيقول :

ولا خير فى حلم إذا لـم يكـن له بوادر تحمى صـفوه أن يكـدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكـن له حليم إذا ما أورد الأمـر أصـدرا

ويسر عليه الصلاة والسلام من هذه البلاغة العربية ومن هذا البيان الساحر ومن هذه الحكمة فى الشعر .

فيقول له :

« أجدت لا يفضض الله فاك . أجدت لا يفضض الله فاك » .

ولم يكن النابغة يدرى أن هذه الدعوة التى نالته قد ألبسته نضارة الفم إلى أن أصابه البلى (فبنو جعدة يزعمون أنه إذا سقطت له سن نبت مكانها أخرى ، وغيرهم يزعم أنه عاش ثلاثمائة عام ولم تسقط له سن حتى مات) (١) .

ونترك عرض هذه القصة للنابغة رضي الله عنه كما وردت عنه بسند صحيح عن يعلى بن الأشدق قال : سمعت النابغة يقول :

أنشدت رسول الله ﷺ :

بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال : «أين المظهر يا أبا ليلى ». قلت الجنة . قال : « أجل إن شاء الله » .

ثم قلت :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال النبى ﷺ : « أجدت لا يفضض الله فاك » (مرتين) (٢) .

ولم يزل يرد على الخلفاء بعد النبى ﷺ وكان شاعراً محسنًا .

واختيار رسول الله ﷺ هذين البيتين ليدعو فيهما للنابغة يبرز لنا كيفية بناء النبى ﷺ لأمته . فالأخلاق الجاهلية التى تعتز بها العرب كالشجاعة والحلم ما كان منها منسجمًا مع قيم الإسلام ومبادئه يثنى عليها رسول الله ﷺ وتتعلم الأمة من هذا الثناء أن الإسلام قد أجاز هذا الخلق وشجعه وحث عليه ، ومن جهة أخرى فيبقى النبغاء والفصحاء والحكماء فى الجاهلية حين يعددون المآثر ويطلقون الحكم ويستمع لهم رسول الله ﷺ يبقون فى موقع الصدارة من أمتهم بينما نرى رسول الله ﷺ حين يعقب على قول النابغة :

---

(١) جمهرة أشعار العرب لابن سلام ص ٤٩ .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٥ / ٣ .

بلغنا السما مجداً وجوداً وسؤدداً وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

« أين المظهر يا أبا ليلى ؟ » يود أن يخفف من غلواء هذا الفخر . فيوجهه نحو الإسلام والالتزام به . ويدرك النابغة الهدف النبوى فيجيب بعظمة الجاهلى الذى اعتنق الإسلام وفقهه : إلى الجنة بك يا رسول الله . ويصبغ شعره بصبغة الإسلام ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

٤ ـ وفد عامر بن ربيعة

الفرع الثالث من ربيعة بن عامر : عامر بن ربيعة :

فى غزوة هوازن . كان دريد بن الصمة شيخ بنى جشم من هوازن وسيدها وأعظم فرسانها قد ناءت به السنون فحملوه ليتيمنوا برأيه وخبرته . فراح يسأل عن البطون التى جاءت إلى المعركة لتقاتل مع هوازن فإلى هوازن تنتمى عامر بن صعصعة فى النهاية وهوازن أصلها . وسأل :

(ما فعلت كعب وكلاب ؟ (ابنى ربيعة) قالوا : لم يشهدها منهم أحد . قال :

غاب الحد والجد ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب . فمن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر وعوف ابن عامر (ابن ربيعة) قال :

ذانك الجذعان من عامر لا ينفعان ولا يضران) [١] .

بنو ربيعة البكاء بن عامر بن ربيعة :

وهو أحد الفروع الأربعة من عـامر بن ربيعة فالفرع الرابع كليب بن ربيعة لا وزن له . وفى رأى دريد بن الصمة أن عمرو بن عامر وعوف بن عامر لا ينفعان ولا يضران . فلنشهد وفد ربيعة البكاء بن عامر بن ربيعة .

(قال ابن سعد : أخبر محمد بن عمر الأسلمى بسنده قال : وفد من بنى البكاء على رسول الله ﷺ سنة تسع ثلاثة نفر ؛ معاوية بن ثور بن عباد بن البكاء وهو يومئذ ابن مائة سنة ومعه ابن يقال له بشر . والفُجيع بن عبد الله بن جندح بن البكاء . ومعهم عبد عمر والبكائى وهو الأصم . فأمر لهم رسول الله ﷺ بمنزل وضيافة وأجازهم ورجعوا إلى قومهم) .

وبهذا النص يبقى خبر الوفد قائما لا ندرى منه شيئًا غير أننا إذا تتبعنا جزئياته بعد ذلك نجد لكل واحد من هؤلاء الثلاثة قصة .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ٦٣ (غزوة حنين) .

بشر بن معاوية بن ثور :

وقال معاوية بن ثور للنبى ﷺ : إننى أتبرك بك وقد كبرت وهذا ابنى بَرٌّ بى فامسح وجهه ، فمسح رسول الله ﷺ وجه بشر بن معاوية وأعطاه أعنز عُفُرًا . وبرَّك عليهم قال الجعد (بن بشر) : فالسنة ربما أصابت بنى البكاء ولا تصيبهم . وقال محمد ابن بشر بن معاوية :

وأبى الذى مسح الرسول برأسه ودعا له بالخير والبركات
أعطاه أحمد إذا أتاه أعنزًا عفرًا [1] نواجل السن باللجبات
يملأن وفد الحى كل عشية ويعوذاك الملاءة بالغدوات
بوركن من منح وبورك مانحًا وعليه منى ما حييت صلاتى) [2]

الفجيع بن عبد الله بن حندج :

(أخبرنا هشام بن السائب الكلبى قال :

كتب رسول الله ﷺ للفجيع كتابًا :

من محمد النبى للفجيع ومن تبعه وأسلم وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وأعطى الله ورسوله ، وأعطى من المغانم خمس الله ، ونصر النبى وأصحابه ، وأشهد على إسلامه .

عبد عمرو البكائى :

قال هشام : وسمى رسول الله ﷺ عبد عمرو الأصم عبد الرحمن وكتب له بمائة الذى أسلم عليه ذى القصة . وكان عبد الرحمن من أصحاب الظلة ـ يعنى الصفَّة ـ صفَّة المسجد) [3] .

* * *

ثلاثة أفراد من بنى البكاء حملوا مسؤولية قومهم وإقامة دولة الإسلام فيهم . أما رئيس هذه الدولة فهو الفجيع الذى أخذ كتابًا من رسول الله ﷺ له ولمن أسلم وأقام الصلاة وآتى الزكاة وأعطى رسول الله وأعطى ما منَّ من الغنائم خمس الغنائم ونصح

(١) أعنز عفر : بياض ليس بالناصع .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢ / ٣٠٤ .
(٣) المصدر السابق ٢ / ٣٠٤، ٣٠٥ .

النبى وأصحابه .

أما الأصم الرجل الثانى عبد الرحمن ، فقد أقام فى مسجد النبى ﷺ يتلقى العلم وينهل منه ويتدرب على الجهاد والفروسية ثم يعود لقومه بما علمه الله إياه ليفقههم فى دين الله وغدا من أهل الصفة الذين يعيشون على الكفاف ويفرغون العلم والجهاد فى سبيل الله ، وغدا اسمه عبد الرحمن بعد ذلك حيث سلخ الجاهلية عنه ، فاستقبل عالما جديدًا فخرج ومضى يخرج قومه من الظلمات إلى النور بينما كان بشر بن معاوية هو الذى مسح رسول الله ﷺ على رأسه ، ويتبرك القوم به وأعطاه الأعنز العفر التى غدت سمانا ملأى ، يشهد الناس من خلالها صلة هذا الدين بالسماء من خلال هذه المعجزة الحسية التى يشهدها أبناء القبيلة وكل من يفد إليها من العرب يقص عليهم قصة ذلك اللقاء الخالد ومضى شرفًا له إلى قيام الساعة حتى يأتى ولده لينتسب فلا ينتسب إلى كعب وكلاب وعامر ليتشرف عند العرب بذلك بل ينتسب بقوله :

وأبى الذى مسح الرسول برأسه　　　ودعا له بالخير والبركات

حتى ليفتخر بالعنزات التى أعطاه إياها :

أعطاه أحمـــد إذ أتاه أعـــنزًا　　　عـــفرًا نواجل السن باللـــجبات
يمـــلأن وفـــد الحـــى كـل عشية　　　ويعـــود ذاك الملء بالغـــــدوات
بوركن مـن منح وبـــورك مـــانحًا　　　وعليه منى مـــا حييت صـــــلاتى

فكم تغيرت قيم العرب فى الفخر والشرف بعد أمثال هذه الوفادات .

فقبل هذه الوفادة كانت أمجاد بنى عامر الكبرى قتل زهير بن جذيمة العبسى الذى جعل نفسه ربًا عليهم وكان على محمد بن بشر بن معاوية بن ثور بن عبادة بن البكاء أن يفخر بأن عمه حندج بن البكاء وشارك فى قتل زهير بن جذيمة العبسى ، وأن من أعمامه عرف ذو المحجن وعمر وفارس الضحياء ، ومن أجداده معاوية ذو السهمين ؛ لأنه كان يأخذ سهمه من غزوات بنى عامر كلها أقام أو غزا لكن بعد أن جاء الإسلام ونهى عن الفخر بالآباء والفخر بثارات الجاهلية غدا أعظم أمجاد هذا الفتى أن يكون جده معاوية هو الذى وفد على رسول الله ﷺ وأن يكون أبوه بشر هو الذى مسح رسول الله ﷺ على رأسه .

لقد غدت الأمجاد فى الإسلام هى مدى الاقتراب من رسول الإسلام محمد ﷺ ومدى صحبته ومدى الاتصال به فهو الفخر الذى ما بعده فخر .

« إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . كلكم لآدم وآدم من تـراب ليس لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » وتلا :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (١) [الحجرات : ١٣] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ٤٣ .

٥ ـ وفد هلال بن عامر

الوفود السابقة كلها لأخيه ربيعة بن عامر بن صعصعة أما هنا فهو الفرع الثانى من بنى عامر بن صعصعة بنو هلال بن عامر بن صعصعة . ولئن كان الفرع الأول قد غلب ذكره وانتشر صيته فى الجاهلية لكن بنى هلال فى الإسلام بلغوا شأوا أنسى الناس ذكر بنى عامر ووصلوا إلى أقصى الأراضى الإسلامية ، وأقاموا بالأندلس ، وكان تاريخهم حافلاً بالحروب والغزوات والكثرة العددية وحتى جيلنا المعاصر كان آباؤنا يملكون الثقافة الوحيدة ويتغنون بها وهى ما يسمونه (تغريبة بنى هلال) ودخلت فى الأدب الشعبى بجوار أمجاد عنترة العبسى . كان هناك أبو زيد الهلالى . . . لكن أعظم أمجاد بنى هلال على الإطلاق هو تشرفهم برسول الله ﷺ فلم يذكر فى تاريخ النبوة أن رسول الله ﷺ تزوج امرأتين من قبيلة واحدة إلا من قريش وبنى هلال فأمهات المؤمنين زينب بنت خزيمة هلالية ، ميمونة بنت الحارث هلالية وهو شرف لا ينافسهم فيه أحد إلا قريش (عائشة وحفصة) ورضى الله عن أمهات المؤمنين .

فزينب ﵂ من ولد عبد مناف بن هلال . وميمونة بنت الحارث من ولد عبد الله ابن هلال . أما خبر وفدهم فكان (قالوا : وفد زياد بن عبد الله بن مالك على النبى ﷺ فلما دخل المدينة توجه إلى منزل ميمونة بنت الحارث زوج النبى ﷺ وكانت خالة زياد ، أمه عزّة بنت الحارث وهو يومئذ شاب فدخل النبى ﷺ وهو عندها فلما رآه رسول الله ﷺ غضب فرجع فقالت : يا رسول الله ، هذا ابن أختى . فدخل إليها ثم خرج حتى أتى المسجد ومعه زياد . فصلى الظهر . ثم أدنى زياداً فدعا له ووضع يده على رأسه ثم حدرها على طرف أنفه ، فقالت بنو هلال : ما زلنا نعرف البركة فى وجه زياد وقال الشاعر لعلى بن زياد :

يا بن الذى مسح النبى بـــرأسه ودعـــا له بالخـــير عـــند المسجد
أعنى زياداً لا أريـــــــد ســـواءه من غائر أو مـــتهم أو منجـــد
مازال ذاك النور فـــى عـــرنيـــنه حـــتى تبوأ بيته فـــى الملـــحد

وروى ابن سعد عن على بن محمد القرشى قال : وقالوا : وقدم على رسول الله ﷺ نفر من بنى هلال فيهم عبد عوف أصرم بن عمرو. فسأله عن اسمه فخبره . فقال:

« أنت عبد الله » . فأسلم ، ومنهم قبيصة بن المخارق قال : يا رسول الله إنى حملت عن قومى حمالة فأعنى فيها : قال : « هى لك فى الصدقة إذا جاءت » .

وروى مسلم عن قبيصة بن مخارق الهلالى رضي الله عنه قال :

تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها فقال : « أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها » ثم قال :

« يا قبيصة ، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة ، رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش - أو قال سدادًا من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذى الحجى من قومه : لقد أصابت فلانًا فاقة فحلت له المسألة ، وما سواهن يا قبيصة سحتًا يأكلها صاحبها سحتًا » .

ويود رسول الله ﷺ أن ينتزع معالم الوثنية من كل شيء ، فكل اسم يحمل عبودية لصنم يتغير مباشرة ليكون عبدًا لله أو أى اسم من أسمائه الحسنى ، وغالبًا ما يكون عبد الله أو عبد الرحمن حتى الأسماء التى تتصل بعبودية الجن أو الشياطين تمحى وتحل محلها أسماء إسلامية .

وما أبدع أن يلقى رسول الله ﷺ ابن حميه زياد ويتعرف عليه بعد أن انكر وجوده عند زوجه ميمونة رضي الله عنها ، وعندما عرف قرابته أدناه ومسح على رأسه ووجهه وأعطاه قبسة من نوره ﷺ ، فأصبح يشع جمالاً وبهاءً بتلك المسة النورانية ، ويستمر النور من العلم بفجر ظلمات الجاهلية فقبيصة بن مخارق تحمل ديونًا عن غارمين فله حق من بيت مال المسلمين ليفى هذه الحمالة ويستمر دينه وحتى لا تستمرئ النفس الحرام باسم الحمالة كما يفعل معظم زعماء الجاهلية فيجمعون المال حلالاً أو حرامًا ليتصدقوا به . وتمضى الشعراء بالحديث عن أمجادهم وضمهم إلى أجواد العرب ، جاء الإسلام فأصّل المسألة كما حدثنا عضو الوفد قبيصة بن مخارق رضي الله عنه حين أحلها لفقير يشهد أولو الحجى بفقره أو رجل تحمل حمالة فأصلح بين حبيبين أو رجلين ، ودفع من حُرِّ ماله فى ذلك الإصلاح ، وذلك ليبقى وازع الخير حيا فى نفوس الناس ، أو رجل جاءت جائحة فاحتاجت ماله من غصب أو حرق أو سرق فعوِّض على ماله ودون ذلك سحت يأكله المرء وكل لحم نبت من السحت فالنار أولى به .

لقد كان يقال لأم ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها أكرم عجوزٍ أصهارًا فى الأرض .

فأصهارها الوليد بن المغيرة والعباس بن عبد المطلب وحمزة بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب ومحمد رسول الله ﷺ وجعفر بن أبى طالب ، وجاء هؤلاء الأصهار من الأخوات الأربع أم الفضل بنت الحارث وميمونة بنت الحارث الهلاليتان وأسماء بنت عميس زوج جعفر ثم زوج أبى بكر ثم زوج على رضوان الله عليهم جميعًا ثم سلمى بنت عميس زوج حمزة رضوان الله عليه . وأمهن جميعًا هند بنت عوف بن الحارث الحميرية ، وأم الفضل بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب وأخت ميمونة أم المؤمنين تحمل أمجادًا عريقة فى تاريخ الإسلام فهى التى قتلت أكبر أعداء الله فى مكة . والذى نزل ذكره باسمه فى القرآن هى التى قتلت أبا لهب وهى التى أنجبت للعباس ستة رجال لم تلد امرأة مثلهم ولها يقول عبد الله بن يزيد الهلالى :

ما ولدت نجيبـــة مـــن فحـــل كستة مـــن بطـــن أم الفضـــل
أكرم بها مـــن كهلـــة وكهـــل عـــم النبى المصطفى ذى الفـــضل

وخاتم الرسل وخير الرسل

وهى التى تحمل لقب أم الخلائف وأولادها الفضل وعبد الله ومعبد وعبيد الله وقثم وعبد الرحمن وحيث إن خـــلفاء بنى العباس جميعًا هم من نسل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فهى أمهم جميعًا أو جدتهم بتعبير أدق .

لقد مضى بنو هلال بن عامر ومضى معهم الحديث عن بنى عامر بن صعصعة أعظم بطون العرب وأقواها ومن أثر الوفادات التى مرت معنا شهدنا بنى عامر عند الردة على الحياد وبعضهم جاهد مع المجاهدين فى سبيل الله وعصوا عامر بن الطفيل حين دعاهم للغدر بجند محمد ﷺ ورفضوا إخفار ذمة عمه أبى البراء ، ورفضوا الانسياق وراء علقمة بن علاثة يوم ارتد عن الإسلام ، وحين نبحث عن أسباب هذه المواقف العظيمة نجد وراءها شخصيات عظيمة أخذت من رحيق النبوة فانتعشت به وربت به جماهير بنى عامر وحجزتهم عن الردة وحربها الضروس ضد الإسلام .

ثانيًا

بنو غطفان

١ ـ وفد بنى فزارة.

٢ ـ وفد أشجع .

٣ ـ وفد مرة .

٤ ـ وفد عبس .

غطفان وشجرتها

فغطفان هو ابن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار .

وبنو عبد الله بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار .

وبنو أشجع بن ريث بن غطفان بن سعيد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار .

وبنو أنمار بن بغيض بن ريث بن غطـفان بن سعــد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار .

وبنو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعــد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار .

وبنو فزارة بن ذبيان بن بغيض بــن ريــث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر .

وبنو ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان ابن مضر .

وبنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر .

أما بنو عمومتهم فهم :

باهلة : وهم بنو مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر .

وبنو محارب بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر .

وبنو سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر .

وبنو عمومتهم :

بنو مازن وبنو سليم ابنى منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر .

بنو غطفان

ولا يذكر بنو غطفان إلا ويذكر سيدهم الأحمق المطاع عيينة بن حصن وسبق أن تحدثنا تفصيلاً عن شخصيته من خلال مواقفه فى الفتح والطائف وحنين وأنه كان مدخولاً فى إسلامه وإنما أسلم نفاقًا كما اعترف عندما أوثق ودخل المدينة بعد ردته (فعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : أخبرنى من نظر إلى عيينة بن حصن مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ينخسه غلمان المدينة بالجريد يقولون : أى عدو الله : أكفرت بعد إيمانك فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط .

فتجاوز عنه أبو بكر وحقن دمه) (١) .

ولكن عيينة بن حصن لم ينه زعامات فروع غطفان الكبرى عبس وذبيان وأشجع ومرة . ولهذا جاءت هذه البطون كلها وافدة إلى رسول الله ﷺ فى العام التاسع للهجرة نتحدث عنها بالتفصيل .

١ ـ وفد بنى فزارة

وهم قوم عيينة بن حصن الأدنون فهو عيينة بن حصن الفزارى ومن أجل ذلك كان فى الوفد أخوه خارجة بن حصن وابن أخيه الحر بن قيس بن حصن .

(روى ابن سعد والبيهقى عن أبى وجرة يزيد بن عبد السعدى رضي الله عنه قال : لما رجع رسول الله ﷺ من تبوك وكانت سنة تسع قدم عليه وفد بنى فزارة بضعة عشر رجلاً فيهم خارجة بن حصن والحر بن قيس بن حصن وهو أصغرهم وهم مسنتون على ركاب عجاف فجاؤوا مقرين بالإسلام فنزلوا دار رملة بنت الحدث وسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم فقال أحدهم :

يا رسول الله،أسننت بلادنا (٢) وهلكت مواشينا وأجدب جنابنا،وغرث عيالنا (٣) فادع لنا ربك يغيثنا ، واشفع لنا إلى ربك،وليشفع لنا ربك إليك ، فقال رسول الله ﷺ :

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٢ / ٢٦٠ .

(٢) أسننت بلادنا : أجدبت .

(٣) غرث عيالنا : جاعوا .

«سبحان الله، ويلك هذا أنا أشفع إلى ربى عز وجل، فمن ذا الذى يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا هو العلى العظيم ، وسع كرسيه السموات والأرض فهى تئط [1] من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الجديد » .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليضحك من شففكم [2] وأزلكم [3] وقرب غياثكم » ، فقال الأعرابى: يا رسول الله، ويضحك ربنا عز وجل ؟ فقال : «نعم» فقال الأعرابى لن نعدمك من رب يضحك خيرًا ، فضحك رسول الله ﷺ من قوله .

وصعد المنبر فتكلم بكلمات ، وكان لا يرفع يديه فى شىء من الدعاء إلا فى الاستسقاء [4] فرفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه وكان مما حُفظ من دعائه :

«اللهم اسق بلادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحى بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا هنيئًا مريئًا ، طبقًا [5] واسعًا عاجلاً غير آجل ، نافعًا غير ضار ، اللهم اسقنا رحمة ولا تسقنا عذابًا ولاهدمًا ولاغرقًا ولا محقًا اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء » .

فقام أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصارى رضى الله تعالى عنه فقال : يا رسول الله ، التمر فى المربد [6] . فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اسقنا» فعاد أبو لبابة لقوله ، وعاد رسول الله ﷺ لدعائه ، فعاد أبو لبابة أيضًا فقال: التمر فى المربد يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عُريانا يسد ثعلب [7] مربده بإزاره » .

قالو ا: ولا والله لا نرى السماء من سحاب ولا قزعة [8]، وما بيننا وبين سلع [9] من بيت ولا دار فطلعت من وراء سلع سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت

---

(1) تئط : تئن تعبًا فتحركت .

(2) شففكم : أقصى الضيق .

(3) الأزل : الضيق .

(4) قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم (٦ / ١٩) » هذا الحديث يوهم ظاهره أنه لم يرفع يديه ﷺ إلا فى الاستسقاء وليس الأمر كذلك فقد ثبت رفع يديه ﷺ فى الدعاء فى مواطن فى غير الاستسقاء ، وهى أكثر من أن تحصر وقد جمعت منها نحواً من ثلاثين حديثًا فى الصحيحين أو أحدهما وذكرتها فى آخر صفة الصلاة من شرح المهذب ، » ويُتأول هذا الحديث على أنه لم يرفع الرفع البليغ بحيث يرى بياض إبطيه إلا فى الاستسقاء أو المراد لم أره رفع ، وقد رآه غيره رفع فيقدم المثبتون فى مواضع كثيرة وهم جماعات على واحد لم يحضر ذلك ، ولابد من تأويله لما ذكرناه والله أعلم » .

(5) طبقًا : مستوعبًا .

(6) المربد : هو الموضع الذى يجعل فيه التمر ليجفف .

(7) ثعلب : مخرج ماء المطر من جرين التمر .

(8) القزعة : القطعة الرقيقة من السحاب .

(9) سلع : جبل بالمدينة .

ثم أمطرت قال : فلا والله ما رأينا الشمس سبتًا [1] وقام أبو لبابة عُريانًا يسد ثعلب مربده بإزاره لئلا يخرج التمر منه فجاء ذلك الرجل أو غيره فقال :

يا رسول الله ، هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فصعد رسول الله ﷺ المنبر فدعا ورفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام [2] والظراب [3] ومنابت الشجر وبطون الأودية » فانجابت [4] السحابة عن المدينة انجياب الثوب) [5] .

نشهد من خلال لقاء هذا الوفد مع رسول الله ﷺ نفسية الأعراب . وتفكيرهم وهم يقدمون ليعلنوا إسلامهم بين يدى رسول الله ﷺ ، وابن البادية حياته كلها مرتبطة بالسماء والمطر فهو يحيا بحياة أرضه ويموت بموتها ، وكثيراً من الحروب التى وقعت بين القبائل العربية كان سببها الصراع على الكلأ والمرعى ، ومحاولة كل قبيلة أن تعتدى على مرابع غيرها ومياههم ، وعيينة بن حصن فى مرحلة من المراحل وصل إلى المدينة منتجعًا للكلأ وأقدم على هدنة مع رسول الله ﷺ ، ليسمح له النبى برعاية إبله فى أرض المدينة ، وجاء الوصف لهم فى هذا الحديث أنهم على ركاب عجاف أى هذيلة من الجوع ، وقد قطعت هذه البيد أملاً بأن تجد مخرجًا من محنتها عند رسول الله ﷺ .

ولفقه النبى ﷺ بهذه النفسية العربية كان أول ما تحدث معهم رسول الله ﷺ عن بلادهم وبذلك لامس معاناتهم ملامسة مباشرة بعد دخولهم في الإسلام وإعلانهم الدخول فيه ، وواضح أن إسلامهم مرتبط بمصلحتهم ، وأن هذا الإسلام سيحول جدبهم ومحنتهم إلى نماء وخصب ، ولهذا كان الجواب الجاهز لأحدهم أو سيدهم ولعله خارجة بن حصن أخا عيينة :

أستت بلادنا وهلكت مواشينا وأجدب جنابنا وغرث عيالنا ، فادع لنا عند ربك يغيثنا ، والظاهر من كلامهم أنهم لم يفقهوا هذا الدين الذى دخلوا فيه ولم يتحرر مفهوم التوحيد فى ذهنهم ذلك التحرر الصحيح ، ولا تزال الوثنية متغلغلة فى أعماقهم يظهر ذلك جليًا من قولهم : (. . . فاشفع لنا إلى ربك وليشفع لنا ربك إليك) .

---

(١) سبتًا : أى أراد أسبوعًا من السبت إلى السبت ، وقيل : السبت القطعة من الزمان .

(٢) الأكمة : تل من الحجارة فى مكان واحد .

(٣) الظراب : الروابى الصغيرة .

(٤) انجابت : انقطعت .

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

فتصورهم عن الله عز وجل أنه إنسان آخر أقوى من محمد ، يتصارعان معًا على السلطة وهم يريدون لكل واحد منهما أن يشفع عند الآخر وهم قد استسلموا للشريكين معًا كما هو الحال فى شركائهم الذين يشفعون بهم عند الله ، والله كذلك يحتاج لهم فيراعيهم ويخافهم وكان لابد من علاج هذه الوثنية برفق لتتضح زيوفها على يد سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ولقد أعطى القرآن هذه القضية حيزًا ضخمًا كبيرًا وهو يعالج هذا الخلل فى نفوس العرب جميعًا وهم يشرعون لشركائهم ولله ما يشاؤون .

﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ [الأنعام] .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾ [النحل] .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾ [الأنعام] .

قال عليه الصلاة والسلام وهو يصحح هذه الانحراف الرهيب عن مفهوم الألوهية عندهم :

« سبحان الله ويلك هذا أنا أشفع عند ربى عز وجل فمن ذا الذى يشفع ربنا إليه ؟ » .

وهم إذن يفاجؤون بنبى يدعى العبودية الكاملة لله ،ولا يزعم له سلطانًا مما يعطون للآلهة أو تعطى الطواغيت لنفسها عندهم قال:« لا إله إلا هو العلى العظيم، وسع كرسيه السموات والأرض ، فهى تئط من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الجديد» .

فقد نزهه سبحانه بوحدانيته وعلوه وعظمته وأن السموات والأرض تئن من عظمة الله عز وجل وتنهدُ وليقرب هذا الصوت إليهم ،شبهه بأطيط الرحل الجديد .

ثم عاد بهم عليه الصلاة والسلام ليبين لهم صفات الله العلى فهو أقرب إلى عبده من حبل الوريد وهو عز وجل يضحك من اضطرارهم وصدق لجوئهم عند هذا الاضطرار .

ويسمع الغطفانيون كلامًا لأول مرة فى حياتهم عن الرب سبحانه فالآلهة التى

يعرفون ؛ غاضبة متجهمة يقدمون لها القرابين ولا ترضى ولا تسمع ولا تبصر فيقولون حسب ما تدركه عقولهم ويضحك ربنا عز وجل ؟ فقال : « نعم » فقال الأعرابى : لن نعدمك من رب يضحك خيراً ، فضحك رسول الله ﷺ من قوله .

وها هو عبد الله ورسوله بأعلى مقامات العبودية يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه يدعو ربه عز وجل أن يغيث بهائمه وبلاده وعباده ؛ هذه الدعوات الخاشعات المتبتلات ما انتهت حتى استجاب رب العزة جل جلاله فأرسل السحابة من خلف سَلْع وما فى السماء قزعة سحاب وذلك حتى يرى هؤلاء القوم المعجزة بأعظم أبعادها ويعلموا مالرسول الله ﷺ من حظوة عند ربه ومقام أثير له .

إن هؤلاء الأعراب ليمثلون الحس الغليظ الذى لا يؤمن إلا بالمحسوس ويشهدون بأم أعينهم المعجزة حتى ليطالب أبا لبابة ﷺ حبيبه ورسوله أن يكون الغيث على الأقل آجلاً غير عاجل حتى يتمكن من جمع التمر الموجود فى المربد ، وأبو لبابة يعلم كيف يستجيب تعالى لرسوله ﷺ ويلح على رسوله أن يكون الغيث آجلاً فى الدعاء ثلاثًا ، ويكون الجواب النبوى العظيم عاجلاً غير آجل حتى يقوم أبو لبابة عريانًا يسد ثعلب مربده بإزاره ولم ينته الدعاء إلا والغمام يملأ الأفق ، والمطر ينزل غيثًا مغيثًا غدقًا مطبقًا مجلجلاً ، وقد ورد الحديث بتمامه دون ذكر وفد فزارة فى البخارى ومسلم إنما ذكر الأعرابى فقط . ويقول الحافظ ابن حجر : والظاهر أن السائل هو خارجة المذكور (ابن حصن) لكونه كبير الوفد ولذلك سمى من بينهم والله أعلم) (١) .

واستمر المطر أسبوعًا من السبت إلى السبت وفى رواية ستًا حتى جاء الأعرابى ثانية يلح على رسول الله ﷺ وهو قائم يخطب فقال :

يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يمسكها .

فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والظراب والأودية ومنابت الشجر » ، قال : فانقطعت وخرجنا نمشى فى الشمس كانت هذه المعجزة الربانية التى ادخرها الله تعالى لنبيه من الوضوح والجلاء والعظمة ما يكفى لحرق كل ذرة شك فى قلوب هؤلاء الفزاريين فى رسالة النبى ﷺ .

ومع ذلك فعندما وقعت الردة شارك فيها عيينة بن حصن وشارك فيها أخاه خارجة ابن حصن تاركين دينهم وتابعين قبيلتهم كما حدَّد ذلك عيينة بقوله :

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ٢ / ٥٠٥ .

(لما مات رسول الله ﷺ قام عيينة بن حصن فى غطفان فقال : ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بنى أسد وإنى لمجدد الحلف الذى كان بيننا فى القديم ومتابع طليحة . والله لأن نتبع نبيًا من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبيًا من قريش وقد مات محمد وبقى طليحة فطابقوه على رأيه ففعل وفعلوا) (١) .

لكنه عندما اشتد القتال عليه من المسلمين ويسأل طليحة كل مرة : (هل جاءك جبريل بعد قال : نعم . قال : فماذا قال لك ؟ قال : قال لى : إن لك رحًا كرحاه وحديثاً لا تنساه ، قال : يقول عيينة : أظن أنه قد علم أن سيكون حديثًا لا تنساه ، يا بنى فزارة هكذا فانصرفوا فهذا والله كذاب) (٢) .

لقد أيقن بكذبه بعدما فات الأوان وبعد ما رأى أن الهزيمة ستحيق به وتبيده مع أهله ، أما قبل فلا تزال المصلحة هى ديدنه وهدفه وأخوه خارجة الذى رأى هذه المعجزة بعينه وكان على رأس وفد فزارة وشهد رسول الله ﷺ يعلمه الإسلام ، هو نفسه ينضم لبنى فزارة .

(وكان نوفل بن معاوية الديلى بعثه رسول الله ﷺ فلقيه خارجة بن حصن بالشَّرَبَّة فأخذ ما فى يديه ، فردّه على بنى فزارة . فرجع نوفل إلى أبى بكر بالمدينة قبل قدوم أسامة على أبى بكر) فأول حرب كانت فى الردة بعد وفاة النبى ﷺ حرب العنسى وكانت حرب العنسى باليمن ثم حرب خارجة بن حصن ومنظور بن سيار فى غطفان والمسلمون غارُّون فانحاز أبو بكر إلى أجمة فاستتر بها، ثم هزم الله المشركين) (٣) .

لكن الحر بن قيس بن حصن ابن أخى خارجة وعيينة كان من الجيل الذى تفتح قلبه لهذا الدين وأصبح من حملة القرآن . وقد كان هو أصغر الوفد . وأصبح من خاصته أبى بكر وعمر رضي الله عنهما وهذه صورته عند عمر رضي الله عنه كما رواها البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبانًا فقال عيينة لابن أخيه : يابن أخى ، لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لى عليه قال : سأستأذن لك عليه . قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال :

---

(١) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ٢ / ٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ٢٥٨ . (٣) المصدر السابق ٣ / ٢٤٢ .

هي يا بن الخطاب ! فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى همَّ به فقال له الحر :

يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)** ﴾ [الاعراف] وإن هذا لمن الجاهلين . والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافًا عند كتاب الله) [١] .

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٦ / ٧٦ تفسير قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

٢ ـ وفد أشجع

شاركت غطفان مشاركة فعالة فى حرب رسول الله ﷺ فى الخندق مع الأحزاب الذين تآلبوا على الله ورسوله . وكان قادة غطفان الثلاثة من القيادات التى شاركت فى الحصار والحرب وهم عيينة بن حصن سيد بنى فزارة ، والحارث بن عوف المرى سيد بنى مرة ومسعود بن رُخيلة الأشجعى سيد بنى أشجع .

وما تذكر الخندق إلا ويذكر معها نُعيم بن مسعود الذى استطاع بدهائه توجيه رسول الله ﷺ أن يشق صفوف المشركين واليهود وفعل ما لا تفعله عشرة آلاف سيف فى الحرب .

(وذكر ابن إسحاق فى سبب رحيلهم أن نُعيم بن مسعود الأشجعى أتى النبى ﷺ مسلمًا ولم يعلم به قومه فقال له: خذّل عنا فمضى إلى بنى قريظة وكان نديمًا لهم فقال : قد عرفتم محبتى ، قالوا : نعم . فقال : إن قريشًا وغطفان ليست هذه بلادهم ، وإنهم إن رأوا فرصة انتهزوها وإلا رجعوا إلى بلادهم وتركوكم فى البلاء مع محمد ولا طاقة لكم به قالوا : فما ترى ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا رُهنًا منهم ، فتقبلوا رأيه فتوجه إلى قريش فقال لهم : إن اليهود ندموا على الغدر بمحمد فراسلوه فى الرجوع إليهم فراسلهم بأنا لا نرضى حتى تبعثوا إلى قريش فتأخذوا منهم رهنًا فتقتلوهم ثم جاء غطفان بنحو ذلك قال : فلما أصبح أبو سفيان بن حرب بعث عكرمة بن أبى جهل إلى بنى قريظة بأنا قد ضاق بنا المنزل ولم نجد مرعى ، فاخرجوا بنا حتى نناجز محمدًا فأجابوهم إن اليوم يوم السبت ولا نعمل فيه شيئًا ولا بد لنا من الرهن منكم لئلا تغدروا بنا فقالت قريش : هذا ما حذركم نعيم فراسلوهم ثانيًا : ألا نعطيكم رهنًا ، فإن شئتم أن تخرجوا فافعلوا فقالت قريظة : هذا ما أخبرنا نعيم) (١) .

وفى رواية صحيحة أن نُعيم بن مسعود كان موادعًا للفريقين المؤمنين والمشركين وأنه خذّع ونقل الحديث وأوقع الفرقة والفتنة فى صفوف المشركين دون إرادته (قال الزهرى فى حديثه عن ابن المسيب :

فبينا هم كذلك إذا جاءهم نُعيم بن مسعود الأشجعى ، وكان يأمنه الفريقان . كان

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٤٠٢ .

مواداعاً لهما فقال : إنى كنت عند عيينة وأبى سفيان إذ جاءهم رسول بنى قريظة : إن اثبتوا فإنا سنخالف المسلمين إلى بيضتهم فقال النبى ﷺ : « فلعلنا أمرناهم بذلك » وكان نُعيم رجلاً لا يكتم الحديث . . . فقام بكلمة النبى ﷺ فجاءه عمر فقال : يا رسول الله،إن كان هذا الأمر من الله فامضه ، وإن كان رأيًا منك فإن شأن قريش وبنى قريظة أهــون من أن يكون لأحد عليك فيه مقال . فقال النبى ﷺ « علىَّ الرجل ، ردوه » فردوه ، فقال : « انظر الذى ذكرنا لك فلا تذكره لأحد » فإنما أغراه ، فانطلق حتى أتى عيينة وأبا سفيان فقال : هل سمعتم من محمد يقول قولاً إلا كان حقًا ؟ قالا: لا . قال:فإنى لما ذكرت شأن قريظة . قال : « فلعلنا أمرناهم بذلك » قال أبو سفيان : سنعلم إن كان ذلك . فأرسل إلى بنى قريظة أنكم قد أمرتمونا أن نثبت وأنكم ستخالفون المسلمين إلى بيضتهم فأعطوا بذلك رهينة . فقالوا : إنا قد دخلت علينا ليلة السبت وإنا لا نقضى فى السبت شيئًا ، فقال أبو سفيان : إنكم فى مكر من بنى قريظة فارتحلوا وأرسل الله عليهم الريح » وقذف فى قلوبهم الرعب فأطفأت نيرانهم ، وقطعت أرسان خيولهم وانطلقوا منهزمين من غير قتال . قال فذلك حين يقول الله تعالى ﴿ **وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً** ﴿٢٥﴾ ﴾ (١) [الأحزاب : ٢٥] .

وانتهت بنو قريظة ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وأذل الله قريظة ﴿ **فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا** ﴿٢٦﴾ **وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً** ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب] .

وأحست أشجع بالخطر ، فهى أقرب غطفان إلى رسول الله ﷺ . وهم أقل غطفان عدداً فأجمعوا أمرهم على مهادنة النبى ﷺ) .

قال ابن سعد رحمه الله تعالى : قدمت أشجع على رسول الله ﷺ عام الخندق وهم مائة وعلى رأسهم مسعود بن رخيلة فنزلوا شعب سلع فخرج إليهم رسول الله ﷺ وأمر لهم بأحمال التمر ، فقالوا : يا محمد لا نعلم أحداً من أهلنا أقرب داراً منك ولا أقل عددا ، وقد ضقنا بحربك وحرب قومك فجئنا نوادعك ، فوادعهم ولم يكن لدى رسول الله ﷺ حرج فى الموادعة فالموادعة بداية الطريق لتقبل الإسلام ، والإصغاء إلى هذا الدين وإزالة الحواجز بينه وبين قلوب الناس (ويقال : بل قدمت أشجع بعدما فرغ رسول الله ﷺ من بنى قريظة ،وهم سبعمائة فوادعهم ثم أسلموا بعد ذلك) (٢) .

(١) المغازى النبوية للزهرى ٧٩ ، ٨٠ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٣٣ .

ولا تعارض بين الروايتين فعام الأحزاب يتحدث عن العام ، وبعد قريظة يحدد الشهر والفترة ؛ لأنهم فى غزوة الأحزاب هم مع قريش شركاء فى الحرب ورئيسهم مسعود جزء من قيادات غطفان ، وشاء الله تعالى لأشجع أن يكون فيها الكثير من المهاجرين لأنها اشتركت عام الفتح مع رسول الله ﷺ ، وكان نعيم بن مسعود ومعقل ابن سنان الأشجعى وعوف بن مالك هم الطليعة المسلمة من قومهم الذين مكثوا فى المدينة ودخلوا مدرسة النبوة يتلقون فيها الهدى والنور ومبادئ الإسلام ، وعندما كان تجهيز جيش الفتح فى رمضان (بعث رسول الله ﷺ إلى أشجع معقل بن سنان ، ونعيم بن مسعود) (١) .

وكانت رايتهم مع عوف بن مالك .

وها هو أثر دخول أشجع الحرب مع رسول الله ﷺ على نفس أبى سفيان فعندما حبسه العباس عند خطم الجبل ليرى خيول الله وجنود المسلمين ، ما غاظه أكثر شىء إلا قبيلتان ؛ هاتان القبيلتان هى بكر فى بعض فروعها وأشجع لأنهما كانتا حلفه وفى صفّه قال الواقدى عن شيوخه :

(ثم مرّت كنانة ، بنو ليث وضمرة وسعد بن بكر فى مائتين يحمل لواءهم أبو واقد الليثى فلما حاذوه كبروا ثلاثًا فقال من هؤلاء ؟ قال بنو بكر . قال :

نعم . أهل شؤم والله الذين غزانا محمد بسببهم أما والله ما شورت فيه ولا علمته ولقد كنت له كارهًا حيث بلغنى ولكنه أمر حمً . . .) .

والعباس يلاحق نفسية أبى سفيان لتذليلها للتعامل مع الإسلام ومع هذا الدين فيقول له : (قد خار الله لك فى غزو محمد ﷺ . .ودخلتم فى الإسلام كافة) .

ثم مرت أشجع وهم آخر من مر وهم ثلاثمائة معهم لواءان لواء يحمله معقل بن سنان ولواء مع نعيم بن مسعود ، فقال أبو سفيان:من هؤلاء ؟ قال :هؤلاء : أشجع ، فقال أبو سفيان : هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد ، فقال العباس : أدخل الله الإسلام فى قلوبهم فهذا من فضل الله عز وجل) (٢) .

ولعل معقل بن سنان رضي الله عنه هو الذى أتيح له أن يساهم فى الحركة الجهادية والعلمية وله روايات عن رسول الله ، وقتل شهيدا فى موقعة الحرة حيث قال فيه الشاعر :

(ألا تلكم الأنصار تبكى سراتها　　　وأشجع تبكى معقل بن سنان)(٣) .

---

(١) المغازى للواقدى ٢ / ٧٩٩ .　　(٢) المصدر السابق ٢ / ٨٢٠ .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣ / ٦ / ١٢٤ .

٣ ـ وفد مرة

هؤلاء القادة الثلاثة الذين مثلوا غطفان فى حربها للإسلام ، وشاركوا مشاركة فعلية فى حصار المسلمين يوم الخندق مع الأحزاب المحاربة للإسلام . هؤلاء القادة الثلاثة يتجهون ميممين صوب يثرب لإعلان إسلامهم على تفاوت فى مدى اندفاعهم لهذا الدين .

أما مسعود بن رخيلة فقد كان أسبق الجميع مع قومه أشجع ، وأما عيينة بن حصن فقد حضر فتح مكة وشهدنا مواقفه المشينة فى هذه المرحلة حيث أعلن بعد أسره وردته أنه لم يسلم قط فكان إسلامه بعد قدومه للصديق .

أما الحارث بن عوف فقد كان دائمًا معجبًا بشرف محمد ﷺ ونبله . وكان يدعو عيينة إلى إيقاف حربه ضد رسول الله ﷺ لكن دون جدوى . ويحمل الحارث بن عوف شرفًا كبيرًا فى الجاهلية أنه كان هو الذى أوقف مع هرم بن سنان نزيف الدم بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء .

يقول أبو عبيدة : أيام العرب الطوال ثلاثة : حرب ابنى قيلة الأوس والخزرج وحرب داحس والغبراء بين عبس وفزارة وحرب ابنى وائل بكر وتغلب ثم حمل الحاملان هرم بن سنان والحارث بن عوف ، فبعث الله النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقد بقى على الحارث بن عوف شىء من دمائهم فأهدره فى الإسلام) (١) .

وقد خلَّد زهير بن أبى سلمى ذكرى هذين الماجدين هرم بن سنان والحارث بن عوف فقال فيهما :

سعا ساعيا غيظ بن مرة بعدما ... تبدَّل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينًا لنعم السيدان وُجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسًا وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعًا ... بمالٍ ومعروف من القول نسلم

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلانى ١ / ١ / ٢٩٩ .

فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا معدٍّ هديتما ومن يستبح كنزًا من المجد يعظم[1]

وآن الأوان ليتحرك وفد بنى مرة إلى المدينة بإمرة الحارث بن عوف ليعلن إسلام قبيلته (روى ابن سعد رحمه الله تعالى عن أشياخ من بنى مرة قالوا :قدم وفد بنى مرة على رسول الله ﷺ حين رجع من تبوك سنة تسع وهم ثلاثة عشر رجلاً رأسهم الحارث ابن عوف فقالوا : يا رسول الله ، إنا قومك وعشيرتك ، ونحن قوم من لؤى بن غالب .

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : « أين تركت أهلك ؟ » قال : بسلاح [2] وما ولاها . قال : وكيف البلا ؟ قال : والله إنهم لمسنتون فادع الله لنا فقال رسول الله ﷺ : «اللهم اسقهم الغيث » .

فأقاموا أيامًا ثم أرادوا الانصراف إلى بلادهم فجاؤوا رسول الله ﷺ مودعين له، وأمر بلالا أن يجيزهم فأجازهم بعشر أواق فضة وفضل الحارث بن عوف فأعطاه اثنتى عشرة أوقية ورجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت ، فسألوا : متى مطرتم ؟ فإذا هو ذلك اليوم الذى دعا فيه رسول الله ﷺوأكرم رسول الله ﷺ سيد الوفد الحارث زيادة عن أعضاء الوفد ، ورأى الحارث أن هذه الفترة القصيرة لم تكن كافية لأن يتفقه القوم فى دين الله،وكان حريصاً على إيمان قومه فأراد أن يكون رفيقه أحد الصحابة الفقهاء ، وقال الزبير: حدثنى عمى مصعب أن الحارث بن عوف أتى النبى ﷺ فقال: ابعث معى من يدعو إلى دينك فأنا له جار فأرسل معه رجلاً من الأنصار فغدر به عشيرة الحارث فقتلوه فقال حسان :

يا حار [3] من يغدر بذمة جاره منكم فإن محمداً لم يغدر

الأبيات فجاء الحارث فاعتذر،وودى الأنصارى وقال : يا محمد إنى عائذ بك من لسان حسان)[4] .

والأبيات فى ديوان حسان بن ثابت :

---

(١) أيام العرب لجاد المولى وزملائه ٢٧٣ .
(٢) سلاح : موقع قريب من خيبر .
(٣) يا حار : مرخمة من يا حارث .
(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة للعسقلانى م١/ ٢/ ٢٩٩ .

يا حـــار من يغدر بذمة جـــاره | منكم فإن محمــــدًا لم يغـــدر
إن تغدروا فالغـدر منكم شيمــــة | والغدر ينبت فى أصول السخبـر (١)
وأمـــانة المـــرى حيث لقيتـــه | مثل الزجاجة صدعهـــا لم يجبر (٢)

وما ندرى إن كانت هذه وفادة سابقة على إسلامه أم عقب وفادته على رسول الله ﷺ والذى دفع لهذا الشك هو خطابه لرسول الله ﷺ بـ : يا محمد ، ولا يعقل أن يكون هذا الخطاب بعد إسلامه .

ونقدر أن الحارث بن عوف توفى فى هذه الفترة لأننا لم نعد نسمع عنه خبرًا فى حروب الردة ولا ذكرًا فيها ، ومثله لا يكون نكرة أن يكون قد ثبت على إسلامه أو ارتد لكن بقية الخبر عن بنى مرة وفادتهم :

« وقدم عليه وهو يتجهز لحجة الوداع قادم منهم فقال :

يا رسول الله ، رجعنا إلى بلادنا فوجدناها مصبوبة مطرًا فى ذلك اليوم الذى دعوت لنا فيه ثم قلدتنا (٣) أقلاد الزرع فى كل خمسة عشرة ليلة مطرة جودًا ولقد رأيت الإبل تأكل وهى بروك (٤) وإن غنمنا ما توارى (٥) من أبياتنا فترجع فتقيل فى أهلنا فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله هو الذى صنع ذلك » (٦) .

ولا شك أن الحارث بن عوف كان له دور فى توطيد الإسلام فى بنى مرة فلم تذكر كتب السير والتاريخ شيئًا من مشاركتهم فى الردة مع غطفان وعيينة بن حصن كما ثبتت أشجع على إسلامها كذلك ونلحظ حرص رسول الله ﷺ على إثبات الوحدانية عند وافد مرة قبيل حجة الوداع فيرون أن محمدًا هو الذى أمر السماء فأمطرت فكان قوله ﷺ : « الحمد لله هو الذى صنع ذلك » ليتحرر هذا العقل العربى من كل عبودية إلا عبودية الله ، وهو المتخم بالآلهة والشرك . وهو الذى قال فى مكة لرسول الله ﷺ : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝ ﴾ [ص] .

---

(١) السخبر : شجر يشبه الإذخر .
(٢) ديوان حسان بن ثابت ١ / ٨٣٧ .
(٣) قلدتنا السماء أقلادًا : طرقتنا لوقت معلوم .
(٤) بروك : جالسة .
(٥) ما توارى عن أبياتنا : تأكل بجوار البيوت لكثرة المرعى .
(٦) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٦٣٠ .

ولهذا كان أول ما افتتح به الصديق حديثه بعد وفاة رسول الله ﷺ فى خطبته الشهيرة التاريخية الخالدة :

من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت .

إن أصالة معدن الحارث بن عوف وصدق إيمانه هو الذى ثبت قومه على الإسلام ، ولم ينقضوا عليه فى الوقت الذى ارتدت فزارة وعبس وذبيان من غطفان وكانوا أول من نقض العهد ونكث البيعة وارتد مع المرتدين وهذا لا يمنع أن يكون بعض فروع من مرة قد شاركوا فى الردة وذلك لوفاة سيدهم وزعيمهم الحارث بن عوف قبل ذلك حيث برز زعيم آخر لهم قاد ذلك الطريق هـــو عـــوف بن فلان بن سنان ، وقد قتل فى حروب الردة .

٤ ـ وفد عبس

صحيح أن غطفان تجمع فى فروعها الكبرى عبس وذبيان وأشجع ومرة وفزارة لكن غدا لكل قبيلة من هذه القبائل كيان مستقل وأخذت شهرتها فى التاريخ العربى بعيداً عن أصلها الأول خاصة بعد حرب داحس والغبراء التى أنهكت القبيلتين عبس وذبيان واستمرت ما ينوف عن عشر سنين برز فيها أبطال كبار كانوا يصارعون الموت ، وتجاوزت شهرتهم الآفاق المحلية إلى الساحة العربية كلها فعمرو بن معد يكرب فارس اليمن الأول كان يخشى من حرين وعبدين فى الجزيرة العربية ، وأحد هذين العبدين عنترة بن شداد العبسى وعنترة هذا تجاوز عصره ليصبح خرافة الأمة العربية بصفته البطل الذى لا يقهر خاصة فى أذهان العامة ، وفى مرحلة ضياع الثقافة الإسلامية .

ولهذا نقف عند هذه الوفود لنشهد الزعامات التى برزت فيها وكيف تم التعامل النبوى الأعظم معها .

لقد كانت مكة فى العهد المكى مسرحًا للقاءات مكثفة بين رسول الله ﷺ وبين وفود القبائل الكبرى يدعوهم إلى الإسلام أو يدعوهم إلى نصرته .

وعبس إحدى هذه القبائل التى شرفت بهذه اللقاءات وتنكبت طريق الحق الذى ادخره الله تعالى للأنصار .

روى أبو نعيم عن عبد الله بن وابصة العبسى عن أبيه عن جده قال : جاءنا رسول الله ﷺ بمنى فدعانا فاستجبنا له . وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسى فقال لنا : أحلف بالله لو صدَّقنا هذ الرجل ، وحملناه حتى نحُلَّ به وسط رحالنا لكان الرأى فأحلف بالله ليظهرن أمره حتى يبلغ كل مبلغ فأبى القوم وانصرفوا فقال لهم ميسرة : ميلوا بنا إلى فدك فإن بها يهود نسألهم عن هذا الرجل فمالوا إلى يهود فأخرجوا سفرهم فوضعوه ثم درسوا ذكر رسول الله ﷺ النبى الأمى العربى يركب الحمار ، ويجترئ بالكسرة وليس بالطويل ولا بالقصير ولا بالجعد ولا بالسبط ، فى عينيه حمرة ، مشرب اللون .

قالوا : فإن كان هو الذى دعاكم فأجيبوه ، وادخلوا فى دينه فإنا نحسده ولا نتبعه ولنا منه فى مواطن بلاء عظيم . ولا يبقى أحد من العرب إلا اتبعه أو قتله .

فقال ميسرة : يا قوم إن هذا الأمر بيّن فأسلم ميسرة) [1] .

نجد هنا تشابهًا كثيرًا بين وفد عبس ووفد الأوس فى مكة فكلا الوفدين ابتداء رفضا الدخول فى دين الله .

كان وفد الأوس برئاسة أبى الحيسر أنس بن رافع وقد جاء يلتمس الحلف مع قريش على قومه من الخزرج فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام .

فقال إياس بن معاذ (أخو سعد بن معاذ) :أى قوم ،هذا والله خير مما جئتم له .

فأخذ أبو الحيسر حفنة من تراب البطحاء وضرب بها وجه إياس وقال : دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا .

فكأنما إياس بن معاذ الأشهلى هو ميسرة بن مسروق العبسى ويهود فدك الذين بشروا برسول الله ﷺ هم هم يهود المدينة الذين بشروا به وكانوا يقولون للعرب فى المدينة : أظل زمان نبى نتبعه نقتلكم به قتل عاد وإرم .

غير أن يهود فدك كانوا أصدق من يهود المدينة إذ اعترفوا بأنهم لن يتبعوا محمداً حسدًا أن كان من بنى إسماعيل ولهم منه مواقف وبلاء عظيم وأنه سينتصر عليهم وعلى العرب كافة ، وفى الوقت الذى وقفت عبس كتلة واحدة ضد الإسلام ، رابطة مصيرها بمصير غطفان انسل عشرة منهم استطاع ميسرة أن يقنعهم بالإسلام سرًا ، ومضوا إلى رسول الله ﷺ فأسلموا سرًا ولم يجرؤوا على إعلان إسلامهم فى قومهم . فمكثوا مع المهاجرين الأولين فى المدينة ، وشاركوا فى الجهاد فى سبيل الله فقد روى ابن سعد عن عروة بن أذينة الليثى قال : بلغ رسول الله ﷺ أن عيرًا لقريش أقبلت من الشام ، فبعث بنى عبس فى سرية ، وعقد لهم لواءً فقالوا : يا رسول الله ، كيف تُقسّم غنيمة إن أصبناها ونحن تسعة ؟ قال : « أنا عاشركم ») [2] .

وهذا يعنى أنهم كانوا فى المدينة قبل صلح الحديبية وإيقاف الحرب مع قريش .

ثم قاموا بمحاولة نشر الإسلام فى قومهم ومضوا يدعوون شباب عبس إلى الإسلام والهجرة .

(وقدم ثلاثة نفر من بنى عبس على رسول الله ﷺ فقالوا له : إنه قدم علينا

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٦٠٠ .

(٢) المصدر السابق ٦ / ٥٧٥ .

قراؤنا فأخبرونا أن لا إسلام لمن لا هجرة له ولنا أموال ومواشٍ هى معاشنا ، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا فقال رسول الله ﷺ : « اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئًا ولو كنتم بصمد وجازان ») [1] .

وهذا النص يشير أن وراءهم الكثير من المسلمين فى صفوف بنى عبس وجاء هؤلاء الثلاثة مستفسرين عن الأمر إن كان لابد من الهجرة فأعفاهم رسول الله ﷺ منها دون أن يهجروا أموالهم ومواشيهم وكلفهم أن يبقوا فى قومهم دعاة للإسلام حتى ينشروه فى صفوف بنى عبس .

أما تتمة النص فهى : (وسألهم عن خالد بن سنان فقالوا : لا عقب له . فقال : « نبى ضيَّعه قومه » ثم أنشأ يحدث أصحابه حديث خالد بن سنان .

وبخل الراوى علينا فلم ينقل لنا هذا الحديث المهم وبقى مجهولاً عنا أخبار هذا النبى الذى ضيعه قومه .

وليس بين يدينا نص يحدثنا عن وفد من عبس فى عام الوفود قدم على رسول الله ﷺ وفيه قيادات عبس إلا النص السابق الذى يحدثنا عن هؤلاء المهاجرين الأولين ؛ ومن أجل هذا وجدنا أن أول حروب الردة كانت بين المسلمين وبين عبس وذبيان حيث لم تبرز قياداتهم فى الإسلام ، ولم يغز الإسلام القبيلة ككيان عام لكن كان فى صفها الكثير من المسلمين الذين أعمر الإيمان قلوبهم .

لقد كانت غطفان بفروعها أجمع ما عدا أشجع لا تزال تحمل تغلغل الجاهلية فيها ؛ فقد كانت حربًا على الإسلام طيلة العهد النبوى واستسلمت استسلام المضطر المكره بعد فتح مكة ، وما أن توفى رسول الله ﷺ حتى عادت فأحيتها جذعة .

وتحركت نخوة الجاهلية فيها آملة أن تنقض على المدينة وتقضى على الإسلام ،لكن الامتداد الإسلامى فى الأمة المسلمة التى تركها رسول الله ﷺ وصاغها على عينه والجيوب الإسلامية التى كانت فى هذه القبائل ، استطاعت أن تهزم الجاهلية وقياداتها وترغم أنفها على العودة ثانية إلى الحظيرة الإسلامية ، وهذا من آثار هذه الوفود التى كان بعضها يتفتح صدره للإسلام فيمضى داعيًا إلى الله عز وجل فى قومه وبفضل المهاجرين الأولين من أبناء القبائل الذين كانوا روادًا للإسلام ودعاة إليه فى صفوفهم .

(١) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٥٧٥ .

لقد أفنت الحروب قيادات بنى عبس وأصبحوا تبعًا للقبائل الأخرى بعد أن كانوا أشد العرب بأسًا وطار صيتهم فى الحرب فى كل صقع .

(قالوا : وقال عبد الملك بن مروان لرجل من بنى عبس كيف بذذتم العرب ، وأنتم ألف رجل ؟ قال : لأنا كنا ألف حازم ، وأطعنا أحزمنا ، فكنا نتبع رأيه ، وكنا نصبر بعد صبر الناس ساعة) [1] .

والشخصية الوحيدة التى برزت فى العهد الإسلامى هى شخصية الشاعر الحطيئة الذى ارتد مع المرتدين ، وتاب مع التائبين .

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى ١٣ / ٢١٢ .

ثالثًا

بنو سُليم بن منصور بن عكرمة

١ ـ وفد سُليم .

٢ ـ رجالات سُليم .

بنو سُلَيم بن منصور بن عكرمة

لقد كانت بداية علاقتهم سيئة للغاية مع الإسلام فهم الذين استنصرهم عامر بن الطفيل ، وقتلوا شهداء بئر معونة وأهم فروع سُلَيم الذى ساهموا فى هذا الغدر هم رعل وذكوان وعصية والذى غدروا بشهداء الرجيع هم بنو لحيان من هذيل .

ففى الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : دعا النبى ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحًا يدعو فى صلاة الفجر على رَعل وذكوان ولحيان وعصية ويقول : « عُصية عصت الله ورسوله » .

هذه هى الصفحة الأولى الكالحة من تاريخ بنى سليم . صفحة تنضح بالغدر واللؤم والخسة .

١ ـ وفد سليم

وتطالعنا بالمقابل الصفحة المشرقة التى غيرت موقع بنى سليم .

(قالوا : وقدم على رسول الله ﷺ رجل من بنى سليم يقال له : قيس بن نسيبة فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابه ووعى ذلك كله ودعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأسلم ورجع إلى قومه بنى سُليم فقال :

قد سمعت برجمة الروم ، وهينمة فارس ، وأشعار العرب ، وكهانة الكاهن ، وكلام مقاول حمير فما يشبه كلام محمد شيئًا من كلامهم فأطيعونى وخذوا نصيبكم منه) .

لقد كانت جريمة بئر معونة فى السنة الثالثة للهجرة . ونقدر أن هذا الوافد الجديد إنما وفد مع بداية السنة السابعة .

حين أمن الناس بعضهم بعضًا بعد هدنة الحديبية وحيث كان رسول صدق ، حببهم فى الإسلام وشوّقهم إليه ورغبهم فيه .

فلما كان عام الفتح خرجت بنو سُليم إلى رسول الله ﷺ فلقوه بقُديد وهم تسعمائة ويقال : كانوا ألفا فيهم العباس بن مرداس السُليمى ، وأنس بن عياض بن رعل وراشد بن عبد ربه فأسلموا وقالوا : اجعلنا فى مقدمتك ففعل ذلك بهم فشهدوا معه

الفتح وحنينًا) .

وشهدناهم فى حنين من أول المنهزمة . حيث فرت الخيل أمام تعبئة هوازن . وجرح خالد رضي الله عنه الذى كان على رأس خيالة المسلمين . وكانت خيل المسلمين ألف فرس. منها تسعمائة لسُلَيم فقط وهم الفرسان الذين لم يكن يشق لهم غبار فى الجاهلية.

وقد سبق أن أفضنا الحديث عن العباس بن مرداس سيد سليم وفارسها وشاعرها لكننا هنا أمام خير سُليم الذى أثنى رسول الله ﷺ عليه وعلى وفادته التى كانت قبيل الفتح كذلك وكان راشد يسدن صنمًا لبنى سليم . فرأى يومًا ثعلبين يبولان عليه فقال :

أرب يبول الثعلبان برأسه　　لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ثم شدَّ عليه فكسره ثم أتى النبى ﷺ فقال له : ما اسمك ؟ قال : غاوى بن عبد العزى قال : أنت راشد بن عبد ربه . فأسلم وحسن إسلامه . وشهد الفتح مع النبى ﷺ وقال رسول الله ﷺ :

خير قرىً عربية خيبر ، وخيرُ بنى سُلَيم راشد .

وعق له على قومه .

وأعطاه رهاطًا وفيها عين يقال لها عين الرسول (١) .

كما يفخر تارخ بنى سليم بأول زعمائهم فى الإسلام . وهو الذى قاد سُلَيم كلها إليه ولا ندرى أيهما الأسبق . قيس بن نسيبة الذى سبق وتحدثنا عن وفادته أم قدر بن عمار . أم هما شخص واحد فكلا الروايتين من الواقدى .

(قال : أخبرنا هشام بن محمد قال : حدثنى رجل من سُلَيم من بنى الشريد قال : وفد رجل منا يقال له قدد بن عمار على النبى ﷺ بالمدينة فأسلم ، فعاهده على أن يأتيه بألف من قومه على الخيل وأنشد يقول :

شددت يمينى إذا أتيت محمدًا　　بخير يد شُدَّت بحجزه مئزر
وذاك امرؤ قاسمته نصف دينه　　وأعطيته ألف امرئ غير أعسر

ثم أتى إلى قومه فأخبرهم الخبر . فخرج من تسعمائة وخلَّف فى الحى مائة فأقبل بهم يريد النبى ﷺ فنزل به الموت . فأوصى إلى ثلاثة رهط من قومه ؛ إلى العباس بن

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٠٨ .

مرداس وأمَّره على ثلاثمائة وإلى جبار بن الحكم وأمَّره على ثلاثمائة وهو الفرَّار الشريدى وإلى الأخنس بن يزيد وأمَّره على ثلاثمائة وقال : ائتوا هذا الرجل حتى تقضوا العهد الذى فى عنقى ثم مات فمضوا حتى قدموا على النبى ﷺ فقال : « أين الرجل الحسن الوجه الطويل اللسان الصادق الإيمان ؟ » قالوا : يا رسول الله دعاه الله فأجابه . وأخبروه خبره . فقال : أين تكملة الألف الذين عاهدنى عليهم ؟ » قالوا : قد خلَّف مائة بالحى مخافة حرب كان بيننا وبين كنانة قال : « ابعثوا إليها فإنه لا يأتيكم فى عامكم هذا شىء تكرهونه فبعثوا إليها فأتته بالهدة وهى مائة عليها المُنَقع بن مالك بن أمية بن سليم فلما سمعوا (أى المسلمين) وئيد الخيل قالوا : يا رسول الله أُتينا . قال: « لا بل لكم لا عليكم هذه سُلَيْمُ بن منصور قد جاءت ، فشهدوا مع النبى ﷺ الفتح وحنينًا وللمنقع يقول العباس بن مرداس :

القائد المائة الذى أوفى بها   تسع المائين فتم ألف أقرع

هؤلاء الذين أوقعوا أكبر محنة بالمسلمين فى بئر معونة بعد أحد ، وقتلوا غرر الشباب الإسلامى هاهم اليوم يقدمون بألف فارس على رأس الجيش الإسلامى لمواجهة المشركين فى الأرض . فقد كفروا عن سيئاتهم بفداء ألف فارس ليكونوا طعمة الموت والشهادة فى سبيل الله .

إن الناس معادن فهذا المعدن العظيم النفيس الذى قال كلمة : وعاهد عهدًا وهو سيد قومه يعلن بعد إسلامه أن يأتيه بألف فارس هؤلاء الألف هم الذى كان يهدد بهم عامر بن الطفيل محمدًا ﷺ أن يغزوه بهم فإذا هم يغزون معه ﷺ إنه عرس إسلامى لا يكاد يعادله عرس . فما سبق منذ أن قامت الدعوة أن انضم إلى هذا الدين ألف فارس دفعة واحدة تنفيذًا لكلمة واحدة قالها سيد سُليم الذى وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « الرجل الحسن الوجه ـ الطويل اللسان ، الصادق الإيمان » .

وسُلَيم قريبة من المدينة . فلو عبَّأت هذه الكتائب لمواجهة الإسلام ورسول الإسلام ﷺ لاستنفذت الطاقات الإسلامية كلها فى مواجهتها ولكنه التوفيق الربانى والعظمة النبوية فى فن التعامل مع الرجال الذى أحس وفادته وشرح له معالم هذا الدين فغدا إنسانًا آخر .

ودليل أصالة هؤلاء الزعماء الثلاثة هو التشابه فى إيمانهم . فعباس بن مرداس يسمع وهو سادن ضمار إلى بنى سليم يسمع من جوفه :

قـــل للقبائل مـــن مـــعدٍ كلـــها	أودى ضمـــار وعـاش أهل المسجد
إن الـــذى ورث النـــبوة والهـــدى	بعد ابن مريـم من قريش مـــهتدى
أودى ضمـــار وكـــان يعـــيد مـرة	قبل الكتاب إلى النـــبى محـــمد

أما راشد بن عبد الله رضي الله عنه سادن الصنم الآخر لم يكن بحاجة إلى من يكلمه من داخل الصنم فيكفى أن يرى الثعلبين يبولان على رأس هذا الصنم حتى يكفر بهذا الإله الذى يرضى أن يدنس وينجس ببول الثعلب :

أرب يبول الثعلبان برأسه	لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وقيس بن نسيبة أو قدد بن عمار ليسا بحاجة لا لرؤية الثعلبين ولا لحديث ضمار بل لهما من عقلهما ولبهما العظيم ما يحدوهما أن يمضيا إلى منبع النور فى المدينة ويشرق قلباهما بالإسلام فيقودا قومهما إلى حوضه للذود عنه .

٢ ـ رجالات سليم

الحجاج بن علاط السُلَمى :

وندع كذلك الحديث عنه لابن الأثير الجزرى ، قال : حجاج بن علاط بن خالد بن .... بن .... بن مهبشة بن سليم بن منصور ، يكنى أبا كلاب ، وقيل أبا محمد سكن المدينة وهو معدود من أهلها وبنى بها مسجداً وداراً تعرف به . وهو والد نصر بن حجاج الذى نفاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سمع المرأة تنشد :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها	أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

وكان جميلاً .

أسلم الحجاج وحسن إسلامه وشهد مع النبى ﷺ خيبر ، وكان سبب إسلامه أنه خرج فى ركب من قومه إلى مكة فلما جنَّ عليه الليل وهو فى وادٍ وحشى مخوف . فقال له أصحابه قم يا أبا كلاب فخذ لنفسك ولأصحابك أمانًا فقام الحجاج بن علاط يطوف حولهم يكلؤهم ويقول :

أعيذ نفسى وأعيذُ صحبى	من كل جنى بهذا النقب

حتى أؤوب سالمِا وركبى

فسمع قائلاً يقول : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » فلما قدم مكة خبَّر بذلك فى نادى قريش فقالوا له : صبأت يا أبا كلاب هذا فيما يزعم محمد أنه نزل عليه فقال والله لقد سمعته وسمعه هؤلاء معى فسأل عن النبى ﷺ فقيل له : بالمدينة ، فأتاه فأسلم .

ولما افتتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجاج بن علاط : يا رسول الله ، إن لى بمكة مالاً وإن لى بها أهلاً وإنى أريد أن آتيهم فأنا فى حِلٍ إن أنا نلت منك أو قلت شيئًا ؟ (وفى رواية ابن إسحاق برواية يونس بن بكير) .

قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل المدينة قال : لما أسلم الحجاج بن علاط السُلَمى شهد خيبر مع رسول الله ﷺ فقال :

يا رسول الله ، إن لى بمكة مالاً على التجار ، ومالاً عند صاحبتى أم شيبة بنت أبى طلحة أخت بنى عبد الدار وأنا أتخوف إن علموا بإسلامى أن يذهبوا بمالى ، فأْذَنْ لى باللحوق به لعلى أتخلصه .

فقال رسول الله ﷺ : « قد فعلت » .

فقال : يا رسول الله إنه لابد لى من أن أقول .

فقال رسول الله ﷺ : « قل ، وأنت فى حل » .

فخرج الحجاج قال : فلما انتهيت إلى ثنية البيضاء إذا بها نفر من قريش يتجسسون الأخبار فلما رأونى قالوا : هذا الحجاج وعنده الخبر . قلت :

هزم الرجل أقبح هزيمة سمعتم بها ، وقتل أصحابه ،وأخذ محمد أسيراً وقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة ، فيقتلوه بين أظهرهم ممن كان أصاب من رجالهم . قال : فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا : قد جاءكم الخبر وهذا محمد ، إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم ، فيقتل بين أظهركم . قال ، قلت : أعينونى على جمع مالى بمكة وعلى غرمائى فإنى أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فلٍّ [١] محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ما هنالك .

فقاموا فجمعوا لى مالى كأحث [٢] جمع سمعت به . وجئت صاحبتى فقلت : مالى وقد كان لى عندها مال موضوع لعلى ألحق بخيبر ، فأصيب من فرض البيع قبل أن يسبقنى التجار .

(١) الفل : القوم المنهزمون .

(٢) كأحث : كأسرع .

قال : فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عنى ، أقبل حتى وقف بجنبى وأنا فى خيمة من خيام التجار ،قال : يا حجاج ، ما هذا الخبر الذى جئت به ؟ قلت : وهل عندك حفظ لما وضعت عندك ؟ قال : نعم قلت : فاستأخر عنى حتى ألقاك على خلاء فإنى فى جمع مالى كما ترى فانصرف عنى حتى أفرغ قال : حتى إذا فرغت من جمع كل شىء كان لى بمكة وأجمعت الخروج لقيت العباس فقلت له : احفظ علىّ حديثى يا أبا الفضل فإنى أخشى الطلب ثلاثًا ثم قل ما شئت قال : أفعل . قلت :

فإنى والله تركت ابن أخيك عرسًا على بنت ملكهم يعنى صفية بنت حيى ، ولقد افتتح خيبر،وانتثل (١) ما فيها وصارت له ولأصحابه قال : فما تقول يا حجاج ؟ قلت : أى والله فاكتم عنى . ولقد أسلمت وما جئت إلا لآخذ مالى فرقًا أن أُغلب عليه . فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك فهو والله على ما تحب .

قال : حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حُلّةً له ، وتخلّق (٢) وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة ، فطاف بها ، فلما رأوه قالوا : يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة ؛ قال :

كلا ، والله الذى حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر ، وتُرِكَ عروسًا على بنت ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه . قالوا : من جاءك بهذا الخبر ؟ قال : الذى جاءكم بما جاءكم به . ولقد دخل عليكم مسلمًا ، فأخذ ماله ، فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه ، قالوا : يا لعباد الله انفلت عدو الله . أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن .

قال : ولم ينشبوا (٣) أن جاءهم الخبر بذلك (٤) .

الشاعرة الكبرى : خنساء بنت عمرو :

لقد نسى التاريخ قيادات سُلَيم كلها ولم ينس الشاعرة العربية المسلمة وأجيالنا على مدار التاريخ قد لا تعرف شيئًا عن قيادات سُليم أما الخنساء فلا يكاد فتىً أو فتاة لا يسمع باسمها ويذكرها .

وها هى الخنساء ﵂ كما عرضتها كتب التراجم الموثوقة . وهذه ترجمتها نصًا من

(١) انتثل : استخرج .
(٢) تخلّق : تطيّب بالخلوق وهو ضرب من الطيب .
(٣) لم ينشبوا : لم يلبثوا غير قليل .
(٤) أسد الغابة لابن الأثير ١ / ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣ / ٦٧ ، ٢٦٨ .

أسد الغابة لابن الأثير رحمه الله .

خنساء بنت عمرو بن الشريد . . . بن بهيثة بن سليم السلمية الشاعرة . . . وقال هشام بن الكلبى : صخر ومعاوية وخنساء ـ واسمها تماضر بنو عمرو بن الشريد بن رباح . . . ابـن امرئ القيس بن سُلَيْم . ولها يقول دريد بن الصمة :

حيُّوا تماضر واربعوا صحبى

قدمت على رسول الله ﷺ مع قومها فأسلمت معهم . فذكروا أن رسول الله ﷺ كان يستنشدها ويعجبه شعرها . فكانت تنشده ويقول : « هيه يا خناس » .

قالوا : وكانت تقول فى أول أمرها البيتين والثلاثة حتى قُتل أخوها معاوية وهو شقيقها قتله هاشم وزيد المريان ، وقُتل صخر أخوها لأبيها ، وكان أحبهما إليها . وكان حليمًا جوادًا محببًا فى العشيرة ، طعنه أبو ثور الأسدى فمرض منها قريبًا من سنة ، ثم مات ، فلما مات أكثرت أخته من المراثى وأجادت . فمن قولها فى صخر أخيها :

أعـــينىَّ جــودا ولا تجـــمـــدا ... ألا تبكـــيان لصـــخر النـــــدى
ألا تبكـــيان الجـــرىء الجميـــل ... ألا تبكـــيان الفـــــتى السيـــدا
طويل العمــــاد عـــظيم الرمـــا ... د ســـاد عشيرتـــه أمـــــــــردا

ولها فيه :

أشم أبلج يأتـــــم الهـــداة بـــــه ... كأنه علـــــم فى رأســـــــه نـــــار
وإنَّ صخرًا لمـــــولانا وسيـــــــدنا ... وإن صـــــخرًا إذا نشتو لنـــــحار

أجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها . وذكر الزبير ابن بكار عن محمد بن الحسن المخزومى عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبى وجزة عن أبيه : أن الخنساء شهدت القادسية ومعها أربعة بنين فقالت لهم أول الليل :

يا بنى ،إنكم أسلمتم وهاجرتم مختارين وإنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ، ولاهجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم .

وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين . واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية . يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران] .

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين . فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب فد شمرت عن ساقها ، واضطرمت لظى على سياقها ، وحللت ناراً على أرواقها فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها ، تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة .

فخرج بنوها قابلين لنصحها ، وتقدموا فقاتلوا وهم يرتجزون ، وأبلوا بلاءً حسنًا ، واستشهدوا رحمهم الله .

فلما بلغها الخبر قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعطى الخنساء أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد منهم مائتى درهم حتى قُبض رضي الله عنه) (١) .

هذا المحول العجيب ، هذا الدين الذى جعلها تنشد الأشعار التى لا تبلى أبد الدهر على أخويها ، ويكاد يكون شعرها كله ـ شعر رثاء هى هى نفسها تتلقى نبأ استشهاد بنيها الأربعة فلا تزيد عن القول : (الحمد لله الذى شرفنى بشهادتهم . وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته) .

ومعلوم أن عاطفة الأمومة أكبر بكثير من عاطفة الأخوة . ولكنه الإسلام الذى أعاد بناء هذه النفوس وصياغتها من جديد . فلقد أدرك الإسلام شعراء كبار كبار أمثال لبيد والخنساء فشغلوا بكتاب الله عن الشعر وقال لبيد : شغلنى عنه سورتى البقرة وآل عمران. علمًا أن رسول الله ﷺ كان يستمع شعرها،ويستزيد قائلاً : هيه يا خناس، ويبدى إعجابه به مع أنه شعر جاهلى كله ومصاغ بمعان جاهلية .لكن القيم التى صورها هذا الشعر لا تزال من صميم الإسلام : قيم الكرامة والمروءة والنجدة والجود وبذل المعروف فما يضير أن تبقى من محاور الشعر فى الإسلام . لكنه القرآن المعجز الخالد .

سابق سُلَيم : عمرو بن عبسة :

يقول ابن الأثير عنه :

(أسلم قديمًا أول الإسلام كان يقال هو ربع الإسلام . وقد روى عن ابن الأثير عنه قصة إسلامه فقال :ألقى فى روعى أن عبادة الأوثان باطل. فسمعنى رجل وأنا

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٥ / ٤٤٣ .

أتكلم بذلك . فقال : يا عمرو بمكة رجل يقول كما تقول . قال : فأقبلت إلى مكة أسأل عنه . فأخبرت أنه مختفٍ لا أقدر عليه إلا بالليل يطوف بالبيت فنمت بين الكعبة وأستارها . فما علمت إلا بصوته يهلل الله فخرجت إليه . فقلت : ما أنت ؟ فقال :

« رسول الله » فقلت : وبم أرسلك ؟ قال :

« بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيء وتحقن الدماء وتوصل الأرحام » .

قلت : ومن معك على هذا ؟ قال : « حر وعبد » فقال : ابسط يدك أبايعك فبسط يده فبايعته على الإسلام ، فلقد رأيتنى وإنى لربع الإسلام .

لكن الذى نفاجأ فيه أنه لم يكن كأبى ذر الغفارى ﷺ أو الطفيل بن عمرو الدوسى حيث مضيا دعاة فى قومهما وجاءا بهم إلى الإسلام ، فإما أن أخباره انقطعت فلم تصلنا فى هذا المجال ، وإما أن طغاة بنى سليم كانوا من الشدة بحيث لم يجرؤ على إعلان إسلامه بين قومه .

فقد روى عنه ﷺ أنه قال للنبى ﷺ : أقيم معك يا رسول الله ؟ قال :

« لا ، ولكن الحق بقومك فإذا سمعت أنى خرجت فاتبعنى » .

قال : فلحقت بقومى . فمكثت دهراً طويلاً منتظراً خبره حتى أتت رفقة من يثرب فسألتهم عن الخبر قالوا : خرج محمد من مكة إلى المدينة فارتحلت حتى أتيته .

فقلت : أتعرفنى ؟ قال : « نعم . أنت الذى أتيتنا بمكة ».

وكان قدومه المدينة بعد مضى بدر وأحد والخندق ثم قدم المدينة فسكنها ونزل بعد ذلك بالشام) (١) .

ويمكن تفسير هذا الموقف من عمرو ﷺ أنه جاء ورسول الله ﷺ لم يكلف بالدعوة والتبليغ لهذا الدين . إذ أن حرارة العقيدة عنده دفعته إلى أن يغادر قومه بنى سليم ليلتقى مع شخص يقول مثل ما يقول وعرف عنه أنه رسول الله وعاد إلى ديار بنى سليم ينتظر ظهوره ولكن من المستبعد تمامًا أن يكون قد قدم بعد بدر وأحد والخندق . بينما النص عنده (قالوا : خرج محمد من مكة إلى المدينة .فارتحلت حتى أتيته وهذا يعنى أنه قدم بعد الهجرة مباشرة) .

---

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٤ / ١١٩ ـ ١٢١ .

معاوية بن الحكم السلمى :

وهذا أحد بنى سليم وقد أسلم قومه . قدم المدينة يرغب فى الاستزادة من العلم ، ويود أن يأخذ فيضًا من النور الإلهى المتنزل على رسول الله ﷺ يحدثنا عن رحلته هذه فيقول :

(بينا أنا أصلى مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت : يرحمك الله فرمانى القوم بأبصارهم فقلت : واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إلى ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم . فلما رأيتهم يصمتوننى . فسكت) .

وأدرك من الموقف العام أنه أجرم جرمًا كبيرًا لا يعرف أبعاده فهو أول مرة يصلى بالمدينة وأدرك أن هناك آدابًا قد أخل بها . وكانت الكارثة فكيف ستوقع عليه العقوبة . انصرف رسول الله ﷺ من صلاته . وفى نفسه من الخوف والهم والغم ما الله به عليم (فلما صلى رسول الله ﷺ :

فبأبى وامى ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه .

(فو الله ما كهرنى ولا ضربنى ولا شتمنى) .

فقد كان يتوقع الثلاثة معاً ، أو واحدة منها على الأقل ، ولم يكن شىء منها . إنما كان حديثًا عامًا يسمعه كل من فى المسجد فسيتفيد منه .

فقال : « إن هذه الصلاة لايصلح فيها شىء من كلام الناس . إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن » وأمام هذا الموقف النبوى الحكيم العظيم . وجدها فرصة سانحة أن يتجرأ ويسأل رسول الله ﷺ عن كل ما يجيش فى نفسه . فلا عبوس ولا سباب ولا شتيمة .

(قلت : يا رسول الله . إنى حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام وإن منا رجالاً يأتون الكهان قال : « فلا تأتهم » .

والجواب غنى عن التعليق بسداده وإحكامه . أما هو فيود أن يتحدث بكل شىء يخشى أن تفوته هذه المحادثة العظيمة .

قال : ومنا رجال يتطيرون .

ولم يكن الجواب هنا كلمة واحدة . بل كان علاجًا لواقع نفسى مضطرم . واجتثاثًا لعادة فى علاج عملى محكم .

فأسباب المرض : « قال ذاك شيء يجدونه في صدرهم » .

والعلاج : « فلا يصدنهم أو فلا يصدنكم » .

(قلت : ومنا رجال يخطون) .

وكان الجواب تأريخًا للعلم ووصفًا له . وجوابًا على سؤال معاوية ﷺ : « كان نبي من الأنبياء يخط ، فمن وافق خطه فذاك » .

ولعل الجو لم يكن مناسبًا للسؤال فجاءت الإجابات على صيغة بلاغات وأوامر شرعية طار بها لب معاوية ﷺ بعد أن كان يتصور أن يحمل أكبر موقف خزي له بين المسلمين حين يقرعه رسول الله ﷺ على فعلته النكراء وهي الحديث في الصلاة ومشاعره حين رفعت عنه هذه المعاناة (بأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده مثله والله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني) .

وصار عنده هوس لقاء النبي ﷺ والتلقي منه يحدثنا عن جلسة ثانية أخرى معه .

(قال : وكانت جارية ترعى غنمًا قبل أحد ، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون لكني صككتها صكة فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليّ » .

ولم يحدثنا رسول الله ﷺ ماذا قال له : إنما عظَّم ذلك الذنب عليه لأنه طريق الظلم وهو نبي الرحمة للعالمين . أفلا تنال فيوض هذه الرحمة تلك الفتاة العزلاء التي لاتملك لنفسها حولاً ولا طولاً هي وأمثالها من المستضعفين وأدخل رسول الله ﷺ صحابيه معاوية في أزمة كيف يخلص من هذا الظلم والظلم وقع في ساعة غضب كما يغضب بنو آدم . قلت : يا رسول الله أفلا أعتقها ؟) قال : « ائتني بها » فأتيته بها فقال لها : « أين الله ؟ » قالت : في السماء . قال : « من أنا ؟ » قالت : أنت رسول الله . قال : « اعتقها فإنها مؤمنة » .

ولم يعتقها وهي مؤمنة ويبقيها وهي كافرة ؟ إنها وقد تشربت الإيمان فلتمض حيث تشاء ولتخلص من الرق وقد ذاقت الحرية الحقيقية في دخول هذا الدين فلتذق الحرية الواقعية التطبيقية والخلاص من ظلم وأوحال الجاهلية . أما إن كانت كافرة فلو أعتقت فأين تتربى ؟ وأين تحصل على حريتها الأولى في دخولها في هذا الدين لابد لها من بيئة دينية تتربى فيها فبقاؤها عند معاوية أولى حتى يغزوها نـــور الله . فتضيء وتستضيء

وما أحلى هذه اللكزة التى جاءت لجاريتنا فوهبتها الحياة والحرية من جديد فالتربية النبوية مستمرة فى كل لحظة فى كل دقيقة وصلنا عنها ما حدثنا عن ذلك الجيل الخالد ولولا هذا الحديث الشيق لانتهى حديثنا عند وفد بنى سليم ، وقد أسلموا وغادروا المدينة .

وفود بني سعد بن بكر
وبني باهلة وبني محارب

وافد سعد بن بكر : ضمام بن ثعلبة

ومن ضمام سليم إلى ضمام سعد بن بكر الذى مثل عراقة الجاهلية وأصالة الأعرابية الخالصة ذات المعدن العظيم النفيس كذلك .

وهذه رواية البيهقى عن كريب مولى ابن عباس عن ابن عباس رضي الله عنهما وهى رواية ابن إسحاق كذلك :

وبعث بنو سعد بن بكر إلى رسول الله ﷺ رجلاً منهم يقال له ضمام بن ثعلبة وافدًا إلى رسول الله ﷺ فقدم عليه وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس فى أصحابه وكان ضمام رجلاً أشعر ذا غديرتين فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ فى أصحابه فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ قال فقال رسول الله ﷺ : « أنا ابن عبد المطلب » . قال : أمحمد ؟ قال : « نعم » . قال :

يا بن عبد المطلب إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجدّن فى نفسك. قال : « لا أجد فى نفسى فسل عما بدا لك » . قال :

أُنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولاً ؟ قال : « اللهم نعم » .

قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحـــده لا نشرك به شيئًا وأن نخلع هذه الأنداد التى كانت آباؤنا يعبدون معه ؟

قال : « اللهم نعم » .

قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من كائن بعدك آلله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس ؟ قال : « اللهم نعم » .

(ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة ؛ الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ينشده عند كل فريضة كما ينشده فى التى قبلها حتى إذا فرغ قال) :

فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدى هذه الفرائض

وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص .

ثم انصرف إلى بعيره راجعًا . فقال رسول الله ﷺ :

« إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة » .

قال : فأتى بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ماتكلم به أن قال : بئست اللات والعزى قالوا : مه يا ضمام . اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون . قال :

ويلكم إنهما والله لا تضران ولا تنفعان إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتابًا استنفذكم به مما كنتم فيه وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأن محمداً عبده ورسوله وقد جئتكم من عنده بما أمركم به . وما نهاكم عنه . قال : فو الله ما أمسى من ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلمًا) (١) .

لو تتبعنا النص كاملاً لما وجدنا رسول الله ﷺ قال : إلا « نعم » أو « اللهم نعم » فأى دعوة وأى تربية تفوق هذه التربية أن تتغير قبيلة كاملة « بنعم » و « اللهم نعم» . إنها إجابة على السؤال والاستحلاف بالله رب العالمين ولم يشأ رسول الله ﷺ وهو يرى هذا النموذج الفذ الغريب من الأعراب . أن يزيد عليه كلمة واحدة ، أو يغير من مخططه ومنهجه خطوة واحدة . فقد تركه على سجيته ينفذ ما خطط له كاملاً ثم يعود إلى بعيره فيطلقه من عقاله ويمضى إلى قومه . بـ نعم واللهم نعم . مضى إلى قومه يتحدى كل جاهليتهم وعنفوانهم ويعلن إسلامه بين ظهرانيهم بئست اللات والعزى ثم ينقلب داعيًا وهم يهددونه . اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون ، فلا يزيد على أن يضحك من عقولهم المتخلفة ـ بعد أن أمضى دهره جزءاً منهم وعقيدته عقيدتهم ـ والتى تؤمن بأن اللات والعزى تضران أو تنفعان .

أى مدرسة تربوية فى هذا الوجود تلقى مثيلاً لها تعدل هذه المدرسة أو تشبهها . لقد قطع ضمام الأشواط كلها وتجاوز السباسب والسهول وحده على ناقته فقط ليسمع نعم ، واللهم نعم . وعاد ليعلن التوحيد فى قومه ويحمل راية لا إله إلا الله . فى جملة من أبدع ما قالته العرب وهو يلخص هذا الدين الجديد ، وهذا الحدث الضخم بعيدًا عن تزويق الكلام والزيادات والحشو فيه :

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٥ / ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٩٨ ، ١٩٩ .

« إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتابًا استنقذكم مما كنتم فيه . وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. وإنى قد جئتكم بما أمركم به وما نهاكم عنه ».

ماذا تستطيع أن تحذف من هذه الخطاب الخالد ، وما الذى أنت بحاجة لإضافته ، الوحدانية ، الرسالة ، اليوم الآخر ، الشهادتان ، شرائع الإسلام كلها (ما أمركم به وما نهاكم عنه) .

وكيف لخص رسول الله ﷺ وفادة ضمام بقوله : « أفلح إن صدق » أو « إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة » .

لقد أخرج الحديث أئمة الحديث جميعًا فقد رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذى والنسائى من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت . والبخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن شريك بن عبد الله كلاهما عن أنس وأبو القاسم البغوى عن الزهرى والإمام أحمد وابن سعد وأبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وسنتتبع بعض الإضافات التى وردت فى الروايات الأخرى التى تلقى بعض الإضاءات على هذه الوفادة العظيمة قال أنس فى رواية ثابت : نهينا فى القرآن أن نسأل رسول الله ﷺ عن شىء كان يعجبنا أن نجد الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع .

فظهور ذو الغديرتين كوّن جواً من الفرح عند المسلمين . فهذا لن يوقفه شىء عن الهدير فى الأسئلة واتجهت الأنظار كلها إليه وأصغت الجوارح إليه تشهد ما يتصرف وتلتقط ما يقول .

وشهرة رسول الله ﷺ عند العرب بابن عبد المطلب . لشهرة عبد المطلب فى الآفاق ولوفاة والد الرسول ﷺ وهو فى بطن أمه فارتبط نسبه بنسب سيد مكة عبد المطلب بن هاشم .

(قال أنس فى رواية شريك : فقال : أيكم محمد ؟ وفى حديث ابن عباس : أيكم ابن عبد المطلب . والنبى متكئ بين ظهرانيهم فقلنا له : هذا الأبيض المتكئ .

فسيد الخلق مميز فى خلقه بين صحبه (الأبيض) وبعيد عن التكلف (المتكئ) ليس له مجلس مرتفع أو موقع كموقع كسرى وقيصر . فلا يعرف من بين أصحابه إلا بتعريف (وفى رواية . . . فقال: أيكم ابن عبد المطلب ؟ قالوا : (هذا الأمغر المرتفق) وهى بمعنى الأبيض المتكئ . وليست مهمة رسول رب العالمين أن يبث الرعب فى قلوب

البشر. ويبعث الرهبة فى النفوس كما هى مجالس الملوك، إنما مهمته أن يفتح مغاليق هذه القلوب ويتعامل بها فى أعظم الرفق والأناة والوعى والمراعاة حتى يتم فتح أقفالها.

وحين يقرر الأعرابى أمام الصحب الخلص: إنى سائلك فمشدد عليك وفى لفظ: فملغظ عليك فى المسألة فلا تجد علىَّ فى نفسك، هل يتحرك بعض الصحب من الحراس أو المرافقين الخاصين ليمنعه من مقابلته. وقد بدا جفاؤه وبدت غلظته ويكتفى بلقاء مدير مكتبه أو فرد فى ديوانه؟ فهل كل طارئ وكل قادم لابد أن يلقى سيد الخلق ورسول رب العالمين؟ وهل عنده الوقت لذلك؟ وهو رئيس دولة وقائد جيش وسيد أمة، والوفود الدبلوماسية من الزعماء العرب تفد كلها إليه، فهل له من الوقت وهل يناسب المقام أن يلتقى مع كل عابر ويتحدث مع كل زائر؟

لقد قطعت هذه التساؤلات كلها بالجلسة المفتوحة غير المحددة وبالإذن الخاص غير المقيد بشىء، فهو يعلن ﷺ أنه لن يَجِدَ عليه مهما غلظ وشدد، وأعطاه إيذان الجلسة المفتوحة: « فسل عما بدا لك »، وارتفعت الفرحة أكبر عند الصحب. فسيسمعون حواراً طويلاً عريضًا. هم يتهيبون مثله بين يدى حبيبهم المفدى بالروح والمهج (قال أنس فى رواية ثابت: فقال: يا محمد، أتانا رسولك فقال لنا إنك تزعم أن الله أرسلك).

وهذه إضافة مهمة، فهذا الوافد لم يأت هكذا بلا سبب، لقد كانت الرسل تمضى فى القبائل تدعو إلى الله.

وسمع من هذا الرسول المبعوث من محمد ﷺ أنه رسولُ رسولِ رب العالمين. ولم يجد حرجًا أن يقوله له: (فقال لنا: إنك تزعم أن الله أرسلك)، فهو زعم لم يبلغ الحقيقة بعد. وقد جاء ليتأكد من هذا الزعم. والخلفية عنده عن هذا الدين هو كل ما سمعه من رسولِ محمد ﷺ ولم يناقشه، لقد صمم أن يتحقق من الأمر بنفسه دون وساطة فامتطى بعيره ونزل المدينة وسأل عن ابن عبد المطلب فى المسجد وها هو الآن بين يديه: (فقال لنا إنك تزعم أن الله أرسلك) قال: « صدق ».

كلمة واحدة فقط وابتدأ الأعرابى أسئلة تكاد تكون امتحانًا لرسول رب العباد.

قال: من خلق السماء؟ قال: «الله». قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله». قال: فمن نصب الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: « الله ».

فلابد من تحديد خالق الكون، خالق السموات والأرض ابتداءً؛ لإزالة الالتباس بين الله خالق كل شىء وبين ما يعبد من دونه من آلهة ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ**

وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴾ [لقمان : ٢٥] أما هنا فالأعرابى يسأله . ومن كلمة « صدق » إلى كلمة « الله » بدون حاجة لزيادة أو نقصان (وفى رواية عن أنس قال : فبالذى خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال) وذلك بعد أن أخذ الجواب من رسول الله ﷺ عن خالقها ليغلظ عليه فى القسم فهو لا يسأله باللات والعزى ولا يسأله بالملائكة ولا بما يعبد من دون الله . إنه ينشده بالله إلهه ، وإله من قبله ، وإله من بعده ، خالق السماء وخالق الأرض ، وناصب الجبال . آلله بعثك إلينا رسولاً ؟ وكان الجواب النبوى العظيم : « اللهم نعم » .

(وفى رواية ثابت عن أنس : أسألك بربك ورب من قبلك ورب من بعدك . آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟) فالسؤال هنا ليس عن الرسالة للعرب فقط ؛ بل للناس كافة كما زعم رسوله ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم نعم » فقد تتعدد الأسئلة فى الروايات جميعًا ولكن الجواب واحد لا يتغير « نعم » و « اللهم نعم » .

وفى رواية ثابت عن أنس : (وزعم رسولك أن علينا زكاة فى أموالنا) قال : «صدق» ، وفى حديث أبى هريرة : (أنشدك الله ، آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا ؟ قال : « اللهم نعم ») .

وفى رواية ثابت (وزعم رسولك أن علينا صوم شهر فى سنتنا ،قال : «صدق» وفى رواية شريك وأنشدك الله آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟ وفى حديث أبى هريرة : من اثنى عشر شهراً فقال : « اللهم نعم » .

وفى رواية ثابت : وزعم رسولك أن علينا أن نحج البيت من استطاع إليه سبيلاً قال : « نعم » .

وفى حديث ابن عباس حتى إذا فرغ قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما تنهينى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص .

وفى رواية شريك : آمنت بما جئت به . وأنا رسول من ورائى من قومى . وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر . وفى حديث أبى هريرة وأما هذه الهناة فوالله إن كنا لنتنزه عنه فى الجاهلية ، والإضافة هنا أنه وافد قومه . وليس ممثلاً لنفسه . وبعد هذا التعظيم بالقسم الذى انتهى بنعم . أو ما زعم رسوله من شرائع الإسلام الذى انتهى بصدق . انتهت الوفادة كلها . بإعلان الدخول فى هذا الدين الجديد . وبدخول قومه فى الإسلام عندما دعاهم لذلك .

إننا فى مجتمعنا البائس هذا ندعو لسنوات صديقًا مقربًا منا وهو مسلم نشأ فى بيئة مسلمة، نصادقه ونكرمه وتعطيه الكتاب تلو الكتاب. والشريط تلو الشريط . وهو مسلم قد لبس عليه إبليس بعض هذه المفاهيم، ونرى أننا قد انتصرنا بقبوله الإسلام كاملاً منهج حياة واستعداده للدعوة إلى الله . ونجلس معه الجلسات الطوال نشرح ونفصِّل ونفند ويهز رأسه ويبتسم ويجامل، ويعود ليناقش من جديد، كيف بنا مع هذا المشرك الفارق فى أوحال الجاهلية والذى سلخ عمره كله فيها يتحول وقومه إلى دين جديد . ويدع دينه الذى كان يدين به من قبل . فقط بتعظيم القسم وبجواب « نعم » و « اللهم نعم » .

إنها وقفة طويلة أمام المعادن ، أمام القلوب ، أمام المفاتيح ، فهذه الظاهرة تقابلها ظاهرة ثلاثة عشر عامًا فى مكة . والقرآن يتنزل كل يوم ، والحوار قائم . والحجة مقنعة والردود مفحمة . ولا يستجيب من المجتمع كله أكثر من مائة ونيف وخمسين حصيلة هذه الأعوام . فكلتا الظاهرتين قائمتان فى المجتمع الجاهلى وما أحوجنا إلى أن نفقه أن الدعوة إلى الله ليست نصوصا تقرأ ولا أحكامًا تطلق ، ولا سبابًا مقذعًا يوجه . إنها فن وعبقرية وحكمة ودراية وحسن استغلال، ودورات تنصب كلها لتحقيق الثمرة المرجوة وليست ركامًا من الكتب والأشرطة والأنشطة والخطب والمحاضرات ، إنها لحظة حب وبسمة صدق وكلمة حق وحسن سلوك وحكمة إجابة وإغضاء عن أذى وتوطئة للأكناف وحسن استماع وكلمة ثناء وغضبة لله . وفيلم ناجح ، وقد تكون واحدة من هذا كله أغنى وأشد أثرًا من أى كلام . أما ترى « نعم » و « اللهم نعم » و « صدق » ماذا فعلت فى سيد قومه . وفى أمة أنقذتها من الظلمات إلى النور . هلموا إلى خزائن التربية فاغرفوا منها ما شئتم وتعلموا الموقف المناسب للشخص المناسب ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وفد باهلة (١)

روى ابن شاهين عن ابن إسحاق عن شيوخه ، وابن سعد عن شيوخه قالوا : (قدم مطرِّف بن الكاهن الباهلى على رسول الله ﷺ بعد الفتح وافدًا لقومه . فقال: يا رسول الله ، أسلمنا للإسلام وشهدنا دين الله فى سمواته وأنه لا إله غيره . وصدقناك وآمنا بكل ما قلت فاكتب لنا كتابًا . فكتب له :

« من محمد رسول الله لمطرِّف بن الكاهن ولمن سكن بيشة من باهلة ، إن من أحيا

(١) وباهلة : أم مالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان . وقد نسبوا إلى أمهم وهى من سعد العشيرة من مذحج .

أرضا مواتًا فيها مُراح (١) الأنعام فهى له .وعليه فى كلا ثلاثين من البقر فارض (٢) وفى كل أربعين من الغنم عتود (٣) وفى كل خمسين من الإبل مسنة (٤) . وليس للمصدِّق أن يصدقها إلا فى مراعيها وهم آمنون بأمان الله » ، فانصرف مطرِّف وهو يقول :

حلفت برب الراقصات (٥) عشية   على كل حرف من سديس (٦) وبازل (٧))(٨).

(قال ابن سعد : ثم قدم نهشل بن مالك الوائلى من باهلة على رسول الله ﷺ وافداً لقومه فأسلم) (٩) .

قالوا: وكتب رسول الله ﷺ لنهشل بن مالك الوائلى من باهلة : «باسمك اللهم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لنهشل بن مالك ومن معه من بنى وائل لمن أسلم وأقام الصلاة وآتى الزكاة وأطاع الله ورسوله ، وأعطى من المغنم خمس الله وسهم النبى ﷺ وأشهد على إسلامه وفارق المشركين فإنه آمن بأمان الله ، وبرىء إليه محمد ﷺ من الظلم كله، وأن لهم ألا يحشروا ولا يعشروا وعاملهم من أنفسهم . وكتب عثمان ابن عفان) (١٠) .



إننا حين نستعيد صورة المجتمع العربى الجاهلى ،أول ما يطالعنا فيه هو حروبه وغزواته ،وحين نطلع على أسباب هذه الحروب والغزوات نلاحظ أن أهم هذه الأسباب هو الاختلاف على الأرض والماء ومنابت الكلأ والمرعى ، والقبيلة الأقوى هى التى تسيطر على الماء والأراضى الخصبة وتحرم الأضعف من هذه الماء وهذه الأرض التى عاشت عليه أزمانًا طويلة ، وإنهاء الثارات الجاهلية والحروب الداخلية فيما بينها لا نبالغ إذا قلنا أنه أعظم إنجاز من إنجازات هذا الدين العظيم وإنجازات سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ، ولنزع فتيل الصراع والثأر من هذا الأمة كان لابد من تنظيم هذه الأراضى وتحديد ملكياتها وتسجيل سندات هذه الملكية بهذه الكتب التى يكتبها رسول الله ﷺ لزعماء العرب ، فيعرف كل زعيم قبيلة حدوده وقد تكون الملكية مشتركة للاستفادة من

(١) المراح : المأوى والماء .   (٢) فارض : المسنة من الإبل أو البقر .
(٣) عتود : من أولاد المعز الصغير إذا قوى وأتى عليه حول .
(٤) المسنة : من البقر والغنم ما دخل فى السنة الثانية .
(٥) الراقصات : الإبل ترقص فى سيرها . والرقصان ضرب من المشى .
(٦) سديس : ما دخل فى السنة الثامنة من الإبل .
(٧) البازل : ما دخل فى التاسعة .
(٨ ، ٩) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤٢٤ .
(١٠) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٨٤ .

المياه فتحدد هذه الاشتراكية تحديدًا واضحًا يلغى النزاع والصراع ، هذا الجانب الأول الذى نفقهه من خلال هذه الكتب لهذه الوفادات .

أما الجانب الثانى. فهو إحياء الأرض الموات ، فلقد كان كسل الأعراب يدفعهم إلى الاقتتال على الأراضى الحية الجاهزة أما الصحراوية منها فيدعوها ، فجاء الإسلام ليدفع هذا الجيل إلى إحياء الأرض الميتة والعمل على جلب الماء لها أو تسويرها وتحديدها، وإيجاد هذا الحافز بتمليكها لمن عمل بها وأعاد لها الحياة والمرعى والكلأ بأنها له لا ينازعه فيها أحد،هذا بناء آخر فى تحويل المجتمع الصحراوى المتسع إلى منابت الكلأ ، والمتنقل من مكان إلى مكان إلى مجتمع زراعى متحضر مستقر يعمل فى الأرض ويبذل جهده ليأخذ ثمرة جهده منها . وما يطالعنا فى هذه الوفادة كذلك هو هذا الإيمان العميق الذى يعلنه سيد باهلة .

يا رسول الله ، أسلمنا للإسلام ، وشهدنا دين الله فى سمواته وأنه لا إله غيره وصدقناك وآمنا بكل ما قلت ،فهذه الكلمات الموجزة البليغة تطبع القلب على اللسان .

وحرص رسول الله ﷺ على ربط هذه القلوب بالله جعل للمسلمين هذه الميزات .

«لمن أسلم وأقام الصلاة وآتى الزكاة وأطاع الله ورسوله وأعطى من المغنم خمس الله وسهم النبى ﷺ » ويتساءل المسلم عن المغنم من أين هو . ولا عجب فهو من الغزو العقيدى الذى يقوم على دعوة المشركين إلى الله وغزوهم فى سبيل الله إن أصروا على شركهم وحربهم للمسلمين ، ومن أجل هذا دعا الرسول ﷺ إلى المفاصلة بين المشركين والمسلمين فى نص الكتاب نفسه .

« . . . وأعطى من المغنم خمس الله وسهم النبى ﷺ وأشهد على إسلامه وفارق المشركين » ، فرسول الله ﷺ يريد أن يصل بهذا الدين إلى كل حى وكل بيت وكل زاوية فى جزيرة العرب ، ويريد كيانًا إسلاميًا متميزًا قويًا قادرًا على مواجهة المشركين . مستمد ولاءه من الله ورسوله ؛ ولهذا كانت الكتب تحمل صيغ التنظيمات العسكرية والسياسية إضافة إلى التنظيمات الاقتصادية فالأمان الذى يعطيه رسول الله ﷺ للمسلمين يعنى استعداده لنصرتهم ضد أعدائهم وتحالفه معهم فى أى خطر يدهمهم ، لكن هذا الأمان لا يعطى لظالم ، فليس الحلف على إطلاقه مهما فعل جند محمد ﷺ بخصومهم إنه حلف قائم على العدل « ورسول الله ﷺ برىء من الظلم » ، لا يقره ولا يعترف به ولو كان من صحابته وجنده وأقرب المقربين له .

وأخيرًا ، فهذه الكتب تحدد حق الله فى المال ؛ زكاة الأموال ، التى تؤخذ دون تعسف ودون تعنت ، فالمصدِّق يأخذ الوسط فى المرعى دون أن يحشرها جميعًا وينتقى

أحسنها ، إنه الأخذ بالعفو وعلى السجية والطبيعة ، وأروع ما فى هذه الوثائق بعد هذا هو تلك الحرية التى تنالها هذه الكيانات الإسلامية بأن يكون عاملهم من أنفسهم وهى رسالة تمتد عبر التاريخ وتعلن رفض الإسلام للظلم وتضع الحكم بين الشعب لا مفروضًا عليه من الخارج ،والشعب يختار حكامه ولا يفرضون فرضًا عليه .

فقد نظمت التربية النبوية الخالدة هذا المجتمع العربى فى عقيدته وأخلاقياته واقتصاده وسياسته وقوته العسكرية ، وحولته إلى ولاية تتبع النظام الإسلامى بعد أن كان فصيلاً جاهليًا يقوم على الغزو والسلب والنهب .

بنو محارب بن خصفة بن قيس عيلان

روى ابن سعد رحمه الله تعالى عن أبى وجرة السعدى قال : قدم وفد محارب سنة عشر فى حجة الوداع وهم عشرة نفر ؛ منهم سواء بن الحارث وابنه خزيمة بن سواء فأنزلوا فى دار رملة بنت الحارث ، وكان بلال يأتيهم بغداء وعشاء إلى أن جلسوا مع رسول الله ﷺ يومًا من الظهر إلى العصر فأسلموا وقالوا : نحن على من وراءنا .

ولم يكن أحد فى تلك المواسم التى كان رسول الله ﷺ يعرض منه فيها على القبائل يدعوهم إلى الله لينصروه أفظ ولا أغلظ على رسول الله ﷺ منهم .

هم هم أنفسهم فى حالة القوة والاستعلاء يرون رجلاً أعزل يدعوهم إلى الله عز وجل وعشيرته تطارده ، فتأخذهم العزة بالإثم فيشتمونه أقبح الشتيمة ، ويسبونه أقبح السباب فهو اللؤم الذى اتصف به الأعراب كما وصفهم رب العزة جل جلاله .

﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾

[التوبة : ٩٧]

وهم بهذه الفظاظة والغلاظة يبلغ بأحدهم الرد الوقح ؛ وهو سبع بن الحارث أن يقول له : جملى أحب إلىّ من ربك [١] ، وكلهم على نفس واحد يتسابقون فى إيذاء الرسول ﷺ .

هؤلاء هم أنفسهم بعد عشر سنين . وقد ضرب الإسلام بجرانه فى الأرض وكاد يكتسحهم ويمضى ليبتلعهم جاؤوا يتلافون الأمر ويفدون آخر الناس إلى المدينة . حتى لا

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٣٢٠ .

يفوتهم الركب .

والنفس البشرية بلا هدىً من الله ﴿ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف] أو هى وحش كاسر مفترس فماذا فعل رسول الله ﷺ بهذه النماذج حين وفدت إلى المدينة ؟ كما يقول النص: (أنزلهم فى دار رملة بنت الحارث وكان بلال يأتيهم بغداء وعشاء) .

فحق الضيافة قائم لهم ولا يسألون عن سبب قدومهم ويتركون ليشهدوا بأم أعينهم هذا المجتمع الإسلامى المتكامل ؛ فى خلقه وفى معاملاته وفى سلوكه ، وبعد هذا يأتيهم رسول رب العالمين ليجلس معهم ، فيوطئ لهم كنفه ويقدم لهم الإسلام على طبق من نور ويفتت فيه هذه الأكباد الجاسية ، ويكسر تلك الأقفال المحكمة واحتاج هذا الوفد حتى يسلم إلى أن يجلس معه الرسول ﷺ من الظهر إلى العصر .

وفى الوفد ذلك الرجل الذى حاول ما استطاع أن يكون بعيداً عن ناظرى رسول الله ﷺ إنه بقية الوفد السابق والذى بقى وحده شاهداً على قومه .

(وكان فى الوفد رجل منهم فعرفه رسول الله ﷺ فأمده النظر . فلما رآه المحاربى يديم النظر إليه قال : كأنك يا رسول الله توّهمنى . قال : « لقد رأيتك ») .

رسول الله ﷺ بشر يحمل كل مشاعر البشر فقد انطبع ذلك اللقاء فى نفسه وانطبع أولئك الأشخاص فى قلبه ، لكن قلبه العظيم المطهر بالوحى يتسع للأرض والسماء ويتسع لكل فجاجات البشر وغلظتهم وحقدهم ودسهم ولؤمهم ومكرهم ويقضى عليها؛ لأنه أطهر من أن يمسه الحقد أو يدنسه البغض . . . أو الغضب لذاته الشريفة .

قال المحاربى : إى والله ،لقد رأيتنى وكلمتنى وكلمتك بأقبح الكلام ، ورددت عليك بأقبح الرد بعكاظ وأنت تطوف بين الناس فقال ﷺ : «نعم » فالصورة منطبعة فى قلبه منذ ذلك التاريخ ولقيه بعد عشر سنين فكأنما هو أمامه الساعة ، ترى هل آن الأوان بعد أن اعترف المحاربى بجريرته أن يقول له : ذكرتنى الطعن وكنت ناسيًا ويأمر بقتله على ذلك الأذى الإجرامى الحاقد ؟

(قال المحاربى : يا رسول الله ، ما كان من أصحابى أشد عليك يومئذ ولا أبعد عن الإسلام منى ، فأحمد الله الذى أبقانى حتى صدقت بك ، ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معى على دينهم) .

وكان الجواب النبوى الخالد : « إن هذه القلوب بيد الله عز وجل » .

هذا هو كل الثأر الذى ثأر به رسول الله ﷺ لنفسه أن كفه عن لوم نفسه وجلدها، فالقلوب بيد الله تعالى .

فقال : يا رسول الله ، استغفر لى من مراجعتى إياك . فقال ﷺ :

« إن الإسلام يجب ما كان قبله من الكفر » .

وقد جبّ الإسلام الذى آمن به هذا المحاربى كل صور الأذى تلك التى كانت قابعة فى حنايا ذلك القلب العظيم ، ومضت محارب التى حاربت الله ورسوله فى الأمس إلى محارب التى تحارب أعداء الله اليوم فغادرت المدينة بثلاثة كنوز :

الكنز الأول : دخولها فى دين الله عز وجل وهو تمام النعمة عليها .

الكنز الثانى : أجازها رسول الله ﷺ كما يجيز الوفود بالهدايا والإكرام .

الكنز الثالث : وضع ختمه الشريف ـ على رأس وفدها (ومسح رسول الله ﷺ وجه خزيمة بن سواء فكانت له غرة بيضاء . وأجازهم كما يجيز الوفد وانصرفوا إلى أهليهم).

إننا يوم نغادر هذا الوفد نكون قد غادرنا أهل رسول الله ﷺ وأقرب العرب إليه . ونكون قد غادرنا الحجاز وقسما كبيرًا من نجد والطائف . حيث دخلت مضر كلها فى الإسلام بفرعيها الكبيرين؛ إلياس بن مضر ، أبى رسول الله ﷺ وقيس بن مضر عمه ، لننتقل منها إلى العم الثانى لرسول الله ﷺ وهو الأبعد قليلاً . لننتقل إلى ربيعة أخى مضر ولدى نزار بن عدنان فهو ﷺ ابن هاشم . . . بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار فكان عمه الأول قيس بن مضر ، وعمه الأعلى ربيعة بن نزار وكلهم من آبائه ﷺ فهم ولد عدنان من ولد إسماعيل عليه الصلاة والسلام .

سابق محارب

روى البيهقى عن طارق بن عبد الله قال : إنى لقائم بسوق ذى المجاز إذا أقبل رجل عليه جبة له وهو يقول : « أيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » ورجل يتبعه يرميه بالحجارة يقول : أيها الناس ، إنه كذاب فلا تصدقوه ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هذا غلام من بنى هاشم يزعم أنه رسول الله . قال : فقلت : من ذا الذى يفعل به هذا ؟ قالوا : عمه عبد العزى .

فى مثل هذه الأجواء استعلت محارب على محمد ﷺ حيث يطارده عمه بالحجارة

ويعلن للعرب جيمعًا : إنه كذاب فلا تصدقوه وكانو أسوأ الناس ردًا على رسول الله .

لكن طارقًا هذا قاده الله إلى الإسلام فى البدايات الأولى رغم أنه شهد مشاهد التكذيب والإيذاء لرسول الله ﷺ من عمه .

فلما أسلم الناس وهاجروا خرجنا من الربذة نريد المدينة نمتار من تمرها . فلما دنونا من حيطانها ونخلها قلنا : لو نزلنا فلبسنا ثيابًا غير هذه . فإذا رجل فى طمرين [1] له فسلم وقال :

(من أين أقبل القوم ؟ قلنا : من الربذة . قال : « وأين تريدون ؟ » قلنا : نريد المدينة . قال : ما حاجتكم فيها ؟ قلنا : نمتار من تمرها . معنا ظعينة لنا ، ومعنا جمل أحمر مخطوم ،فقال :« أتبيعونى جملكم هذا ؟ » ، قالوا : نعم بكذا وكذا صاعًا من تمر . قال : فما استوفينا مما قلنا شيئًا حتى أخذ بخطام الجمل وانطلق به . فلما توارى عنا بحيطان المدينة ونخلها . قلنا : ما صنعنا ؟ !

والله ما بعنا جملنا ممن نعرف . ولا أخذنا له ثمنًا . . .) .

حتى هنا ليس فى الأمر شىء يستحق الإثارة . فبداية الحديث عن ضرب عم محمد ﷺ له بالحجارة وتكذيبه فى مجالس العرب : (لا تصدقوه فإنه كذاب) ثم الانتقال المفاجئ مع مرور السنين إلى قصد المدينة للتجارة . ولقائهم مع ذلك الرجل الذى اشترى الجمل الأحمر المخطوم ، بكذا صاع من التمر ثم ساق الجمل وتوارى فى حيطان المدينة . وغاب عنهم فأحسوا أنهم غُدروا وغرِّر بهم (ما بعنا جملنا ممن نعرف ولا أخذنا له ثمنًا) .

فالقصة اعتيادية تمامًا حتى هنا ، تبرز جهالة الأعراب وكيف يغرِّر بهم أهل المدن ، إنما جاءت الفراسة العظيمة من هذه الظعينة ؛من هذه المرأة التى سفَّهت شكوكهم بالرجل ، هذا الرجل الذى سحرها وأسرلبها بجماله الرائع (فقالت المرأة التى معنا :

(لا تلاوموا ، فلقد رأيت وجه رجل لا يغدر بكم . والله لقد رأيت رجلاً كأن وجهه شقة القمر) .

وبلغت ثقتها بنفسها أن قالت لهم : (أنا ضامنة لثمن جملكم) وعلى هذا فإن عليها أن تتغرم ثمن الجمل إذا لم يعد الرجل.لكن ثقتها به كانت أكبر من أن تحد بحد.

---

(١) الطمر : الثوب الخلق ، أو الكساء البالى من غير الصوف .

إذ أقبل رجل فقال : (أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكم . هذا تمركم فكلوا واشبعوا واكتالوا واستوفوا) .

لقد غلبت المرأة الرجال كلهم بفراستها وفقهها لمعادن الرجال ،فمن نظرة واحدة إليه أدركت أن هذا الوجه الذى هو البدر لا يمكن أن يغدر واستعدت لدفع ثمن الجمل كاملاً بناءً على هذه الفراسة . وكيف كان التعامل : « كلوا واشبعوا واكتالوا واستوفوا » .

فحق الضيافة أولاً للوفد من هذا التمر - الأكل والشبع - ثم كيل ثمن الجمل من صيعان التمر ،ثم الاستيفاء فى الكيل كما يحبون وعوضًا عن أن يعودوا إلى مضارب باديتهم وقد أوقرت ركابهم بالتمر وأكلوا وشبعوا . راعهم أن يكون رسول الله ﷺ هو الذى اشترى منهم فلم لا يدخلون المدينة يستمعون إلى ما بعثه الله به إلى الخلق .

(ثم دخلنا المدينة . فلما دخلنا المسجد فإذا هو قائم يخطب الناس على المنبر . فأدركنا من خطبته وهو يقول : « تصدَّقوا فإن الصدقة خير لكم . اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول ؛ أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، وأدناك أدناك » .

وما أسعدهم فى سماع هذه التعليمات التى تلقوها من فم رسول الله ﷺ الشريف عن فضل الصدقة ومفهوم اليد العليا واليد السفلى . والسؤال عن الأقرب فالأقرب من الأهل والعشيرة (وابدأ بمن تعول) وما هى إلا لحظات حتى توتر الجو وأصبحوا على وشك قتلهم والقضاء عليهم . فماذا فعلوا بأنفسهم ؟

فأقبل رجل فى نفر من يربوع . أو قام رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، إن لنا فى هؤلاء دمًا فى الجاهلية) وها هم يساقون إلى الذبح كالنعاج . حيث تسمرت عيونهم من الخوف والفزع بفم رسول الله ﷺ حيث تنفرج شفتاه عن الحكم بشنقهم أو ذبحهم وكان الجواب :

« لا تجنى أم على ولد ، لا تجنى أم على ولد ، لا تجنى أم على ولد » (١) وعوضًا عن إعلانَ قرار الذبح كان إعلان قرار البراءة ، فالإسلام يجب ما قبله ولا يجنى الآباء على الأبناء ، فالثأر ليس مع هؤلاء وثأر الجاهلية موضوع كله . وعاد وفد محارب بهذه القصص والعوالم العظيمة ليحدثوا بها قومهم ويحثوهم على الإسلام.

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٤٣ ، ٥٤٤ .

وفود ربيعة بن نزار

أولاً : وفود عبد القيس .

ثانيًا : بنو حنيفة .

ثالثًا : وفد بكر بن وائل .

رابعًا : وفد بنى شيبان .

خامسًا : بنو تغلب بن وائل .

سادسًا : بنو عنزة بن أسد بن ربيعة .

وفود ربيعة بن نزار

قال ابن حزم : وهذه بطون قبائل ربيعة بن نزار :

ثم هذه بطون عبد القيس بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار.

وهذه بطون بنى تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن . . . بن أسد بن ربيعة .

وهذه بطون قبائل بنى بكر بن وائل بن قاسط بن . . . بن أسد بن ربيعة .

وهذه بطون بنى حنيفة بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن . . . بن أسد بن ربيعة .

وهذه بطون بنى ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن مصعب بن على بن بكر بن وائل ابن . . . بن أسد بن ربيعة .

وهذه بطون بنى شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن . . . . بن أسد ابن ربيعة . . . .) .

ومن بطون ربيعة بنو يعمر بن مالك بن بهثة بن حرب بن وهب بن . . . بن ضبيعة ابن ربيعة . . .) (١) .



وهذا نقاش بين نسابة العرب أبى بكر الصديق رضي الله عنه وبين وفد من وفود شيبان بمكة ورفع ﷺ هو وأبو بكر رضى الله تعالى عـــنه إلى مجـــلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر فسلم ، فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من ربيعة . قال : وأى ربيعة ؟ من هامتها أو لها زمها ؟ قالوا : بل الهامة العظمى . قال : من أيِّها ؟ قالوا : من ذُهل الأكبر .

قال : فمنكم عوف الذى يقال له : لا حر بوادى عوف ؟ قالوا : لا .

قال : فمنكم جساس بن مرة حامى الزمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا .

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

قال : فمنكم بسطام بن قيس أبو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا .

قال : فمنكم الحوفزات قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟ قالوا : لا .

قال : فمنكم المزدلف صاحب العمامة المفردة ؟ قالوا : لا .

قال : فمنكم أخوال الملوك من كندة ؟ قالوا : لا .

قال : فمنكم أصحاب الملوك من لخم ؟ قالوا : لا .

قال أبو بكر : فلستم من ذُهَل الأكبر أنتم من لخم الأصغر) (١) .

وكأنما التاريخ العربى وأيام العرب مطبوعة كلها فى ذهن الصديق ﷺ ففرّق بذلك بين نسب ذهل الأكبر والأصغر .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٢ / ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

أولاً

بنو عبد القيس

١ـ منقذ بن حيان

لقد كان الجارود نصرانيًا يسمع بنبى أطل زمانه فدفع بعض القوم إلى يثرب وكان أقرب الناس إليه ابن أخته منقذ بن حيان أحد بنى غنم بن وديعة. واستغل الجارود السمعة التجارية لمنقذ وطلب منه أن يمضى إلى المدينة ليسأل عن نبى ظهر فى مكة . والكاهن يحدثه عنه قائلاً : (إن نبيًا يخرج بمكه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ،بين كتفيه علامة، يظهر على الأديان . فأتى مكة عام الهجرة) ثم شخص إلى يثرب بملاحف وغمرة من هجر بعد هجرة النبى ﷺ إليها ، فبينا منقذ قاعد إذ مر النبى ﷺ فنهض منقذ إليه)(١) .

لقد جاءت الفرصة المواتية يسأل ويتحدث ويتأكد ، فإذا بالمفاجأة تذهله .

(. . . فقال النبى ﷺ : « أمنقذ بن حيان ؟ كيف جميع هيئتك وقومك ؟» (٢) .

وأن يسأل الرجل عن قومه عمومًا وهيئتهم . فهذا أمر طبيعى لكن أن يعرف أسماءهم وأشخاصهم وسيادتهم ومواقعهم فى قومه فهذا ما لا يجد له تفسيرا إلا النبوة (ثم سأله عن أشرافهم رجل رجل يسميهم بأسمائهم فأسلم منقذ وتعلم سورة الفاتحة . واقرأ باسم ربك . ثم رحل قبل هجر) (٣) .

لقد كان زاده العظيم الذى حمله هو سورة الفاتحة وسورة اقرأ . وها هو يحمل رسالة النبى ﷺ إلى قومه (فكتب النبى ﷺ معه إلى جماعة عبد القيس كتابًا) (٤) .

لكن أنى تكون له الجرأة بمفاتحة قومه بذلك ولعله سارَّ خاله الجارود بالأمر ، وبقى أيامًا لا يدرى ما يفعل (فذهب به وكتمه أيامًا) وكثيرًا ما هم أن يحدث عمه المنذر بن عائذ بالأمر وهو أبو زوجته ،لكن الأقدار أوقعت الكتاب بيد المنذر الأشج . (ثم اطلعت عليه امرأته وهى بنت المنذر بن عائذ وكان منقذ رضي الله عنه يصلى ويقرأ . فنكرت امرأته ذلك . فذكرت لأبيها المنذر فقالت :

(أنكرت بعلى منذ قدم من يثرب أنه يغسل أطرافه ، ويستقبل الجهة ـ تعنى القبلة ـ فيحنى ظهره . ويضع جبينه مرة ذلك ديدنه منذ قدم) (٥) ومضى المنذر إلى المنقذ يسأله عن الأمر فقص عليه قصته . والمنقذ سيد عظيم كذلك من أسياد عبد القيس . وقرأ الكتاب وأعجب به . وقرر أن يكون هو الفدائى الأول .

(فوقع الإسلام فى قلبه . ثم ثار الأشج إلى قومه عصر ومحارب بكتاب رسول الله فوقع الإسلام فى قلوبهم . وأجمعوا على السير إلى رسول الله) (٦) .

(١ ـ ٦) شرح النووى على صحيح مسلم ١ / ١٨١ .

٢ـ وفد عبد القيس

وكان رسول الله ﷺ يود أن يلتقى مباشرة معه وفد معه مختار من عبد القيس بعد لقائه مع منقذ بن حيان رضي الله عنه .

روى أبو يعلى ، والطبرانى بسند جيد والبيهقى عن مزيدة بن مالك العصرى : وأبـو يعلى عن الأشج العبدى ، قال الأول : (بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ قال لهم : « سيطلع عليكم من هاهنا ركب هم خير أهل المشرق » .

فقام عمر رضي الله عنه فتوجه نحوهم ، فلقى ثلاثة عشر راكبًا . فقال : من القوم ؟ فقالوا : من بنى عبد القيس . قال : فما أقدمكم التجارة ؟ قالوا : لا . قال : أما إن النبى ﷺ قد ذكر كم آنفًا فقال خيراً) (١) .

لئن كان الأنصار هم خير أهل المغرب بعد قريش . وهم الذين أقاموا دولة الإسلام فى يثرب قبل قدوم رسول الله ﷺ . فقد كان عبد القيس هم خير أهل المشرق . حيث أقاموا دولة الإسلام فى هجر والبحرين . وكُلِّف أميرهم المنذر بن ساوى بأن يحكم بالإسلام فى قومه . ويأخذ الجزية ممثلاً لرسول الله ﷺ من مجوس ويهود هجر . وأن يقود الكتائب لحرب الكفار حوله من مضر وغيرهم . وكانت جُواثى أول عاصمة للإسلام بعد المدينة حيث أقميت بها أول جمعة بعدها .

ولسنا أمام وفد قادم ليناقش بالإسلام ويتردد فى قبوله . ويختبر رسول الله ﷺ ويتأكد من نبوته كما شهدنا مع الوافدين الأوائل . بل نحن مع وفد مسلم قادم للقاء حبيبه المصطفى ﷺ يتحرق شوقًا للقائه . ولذلك ما أن حظيت أعينهم بالمدينة المنورة ودلهم عمر رضي الله عنه على الحبيب المختار حتى ارتموا نحوه يقبلون يديه ورجليه . ولم يذكر هذا عن وفد من العرب غيرهم ، ثم مشوا معه ـ أى عمر ـ حتى أتوا النبى ﷺ . فقال عمر للقوم : (هذا صاحبكم الذى تريدون فرمى القوم بأنفسهم عن ركائبهم فمنهم من مشى ، ومنهم من هرول ، ومنهم من سعى حتى أتوا النبى ﷺ فابتدره القوم ولم يلبسوا إلا ثياب سفرهم فأخذوا بيده فقبلوها) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٦٠ .

وفى حديث الزارعى بن عامر العبدى عند البيهقى : فجعلنا نتبادر عن رواحلنا فنقبل يد رسول الله ﷺ ورحله) غير أن الأشج سيد بنى عبد القيس ولم يكن أقل من قومه شوقًا إلى الحبيب المصطفى ﷺ لكنه اعتبر حق النبى أعظم من أن يقابله فى ثياب سفره . ورسول الله ﷺ يرمقه من بعيد . وفى حديث الإمام أحمد (فأخرج ثوبين أبيضين من ثيابه فلبسهما ثم جاء يمشى حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ وقبلها).

وإذا كانت هذه الرواية قد ذكرت ثلاثة عشر راكبًا . فرواية ابن سعد تتحدث عن عشرين راكبًا ولعلهم لم يصلوا دفعة واحدة . أو ذكر رؤساءهم فقط . وذكرهم الآخر جميعًا .

فقد روى ابن سعد عن عروة بن الزبير رحمه الله تعالى قال : وحدثنى عبد الحميد ابن جعفر عن أبيه قالا : كتب رسول الله ﷺ إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلاً منهم . فقدم عليه عشرون رجلاً رأسهم عبد الله بن عوف الأشج وفيهم الجارود ومنقذ بن حيان وهو ابن أخت الأشج وكان قدومهم عام الفتح ، فقيل: يا رسول الله ، هؤلاء وفد عبد القيس . قال :

« مرحبًا بهم نِعْمَ القوم عبد القيس » قال : ونظر رسول الله ﷺ إلى الأفق صبيحة ليلة قدموا وقال :

« ليأتين ركب من المشركين لم يكرهوا على الإسلام قد أنضوا الركاب ، وأفنوا الزاد ، وبصاحبهم علامة ، اللهم اغفر لعبد القيس أتونِى لا يسألونى مالاً ، هم خير أهل المشرق » (١) .

رسول الله ﷺ لا يخفى فرحه بهذا الوفد العظيم . ويكثر من الثناء عليهم : مالم يثن على وفد قبلهم .

« ١ـ لم يكرهوا على الإسلام ٢ـ أنضوا الركاب ٣ـ أفنوا الزاد ٤ ـ بصاحبهم علامة . ٥ـ أتونى لا يسألونى مالاً » والذين يملكون هذه المواصفات بشهادة رسول رب العالمين . فاروا بأعظم ثلاث جوائز لقومهم .

١ـ « اللهم اغفر لعبد القيس » .

٢ـ مرحبًا بهم ، نعم القوم عبد القيس » .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣١٤ .

٣ـ « هم خير أهل المشرق » .

لكننا للجمع بين الروايات يمكن الحديث عن وفادتين لبنى عبد القيس :

الوفادة الأولى : قبل فتح مكة وكانوا ثلاثة عشر راكبًا ، ويؤيد هذا الرأى الحافظ ابن كثير .

الوفادة الثانية ، بعد فتح مكة وكانوا أربعين راكبًا معهم الجارود بن المعلى العبدى .

قال الحافظ ابن كثير : (. . . وبيننا وبينك هذا الحى من مضر ولا نصل إليك إلا فى شهر حرام . هذا الحديث دليل على تقدم إسلام عبد القيس على قبائل مضر الذين كانوا بينه وبين المدينة ، وكانت مساكن عبد القيس بالبحرين وما والاها من أطراف العراق . ولهذا قالوا كما فى رواية شعبة عن أبى جمرة فى العلم :

(وإنا نأتيك من شقة بعيدة) ودل على سبقهم للإسلام أيضًا ما رواه المقدسى فى الجمعة من طريق أبى جمرة عن ابن عباس ﷺ :(أن أول جمعة أقيمت بالمدينة بعد جمعة فى مسجد رسول الله ﷺ فى مسجد عبد القيس بجواثى من البحرين . وإنما جمّعوا بعد رجوع وفدهم إليهم. فدلَّ على أنهم سبقوا جميع القرى إلى الإسلام) (١) .

ولا شك أن هذه الوفادة الأولى قد كان فيها أشج عبد القيس .

يقول النووى رحمه الله : (لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبى ﷺ . وأقام الأشج عند رحالهم فجمعها وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه ، ثم أقبل إلى النبى ﷺ فقربه النبى ﷺ وأجلسه إلى جانبه . ثم قال لهم النبى ﷺ :

« تبايعون على أنفسكم وقومكم » فقال القوم : نعم . فقال الأشج :

يا رسول الله ، إنك لم تزاول الرجل عن شىء أشد عليه من دينه ، نبايعك على أنفسنا ونرسل من يدعوهم . فمن اتبعنا كان منا ومن أبى قاتلناه . قال : « صدقت إن فيك خصلتين ، يحبهما الله ؛ الحلم والأناة » (٢) .

قال القاضى عياض : (فالأناة تربصه حتى نظر فى مصالحه ولم يعجل ، والحلم هذا القول الذى قاله الدال على صحة عقله وجودة نظره للعواقب) ولا يخالف هذا ما جاء فى مسند أبى يعلى وغيره أنه لما قال له رسول الله ﷺ :« إن فيك خصلتين . . . » الحديث قال : يا رسول الله، كانا أم حدثا ؟ قال : «بل قديم » ،قال :قلت : الحمد لله

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٦٥ . (٢) شرح النووى على صحيح مسلم ١٨٩/١ .

الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله) (١) .

ولم يسد الأشج قومه لجمال وجهه ولنضارته . إذ فوجئ رسول الله بدمامة وجهه حيث كان حاضر البديهة فقال على التو والرسول ﷺ ينظر إليه :

(إنه لا يستسقى فى مسول الرجال. إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه قلبه ولسانه. فقال رسول الله ﷺ . « فيك خصلتان يحبهما الله ». فقال عبد الله. وما هما ؟ قال : «الحلم والأناة ». قال أشىء حدث أم جبلت عليه ؟ قال : «بل جبلت عليه ») (٢) .

فقد أدرك رسول الله ﷺ من بين الوفد ذلك الذى تخلف فى الرحل حتى لبس أحسن ثيابه . وأخرجهما من رحله ثوبين أبيضين ناصعين . وأدرك هذه الأناة منه . وجاء فقبّل يد رسول الله ﷺ وعندما سمع جوابه عن قومه . رأى أنه أمام حكيم وحليم من حكماء وحلماء العرب حين قال له :

يا رسول الله ، إنك لم تزاول الرجل عن شىء أشد عليه من دينه .

فليس من السهل المبايعة عن بنى عبد القيس وفيهم النصارى وفيهم المجوس منهم على دين صليب متعنت . وليس بالأمر السهل ـ إذن ـ أن يتخلى قومه عن دينهم . لكن هذا لا يعنى أن مهمة الوفد تنتهى بمسؤوليتهم الشخصية فتابع رضي الله عنه قوله :

(ونبايعك على أنفسنا . ونرسل من يدعوهم فمن اتبعنا كان منا ومن أبى قاتلناه).

وأعجب به رسول الله ﷺ أيما إعجاب فقال : « صدقت » .

فسيكون الأشج ـ إذن ـ حامل راية الجهاد فى سبيل الله . حتى تكون كلمة الله هى العليا .

وحيث إن الوفد لم يتمكن من القدوم إلى المدينة إلا فى شهر رجب فلا تزال أرض العرب حوله كفر كلها . كما قال الوفد رضي الله عنهم .

(يا رسول الله، إنا نأتيك من شقة بعيدة. وإن بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر . وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا فى شهر حرام . فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة . فأمرهم بأربع : ونهاهم عن أربع . قال : أمرهم بالإيمان بالله وحده وقال : «هل تدرون ما الإيمان بالله ؟قالوا : الله ورسوله أعلم، قال:« شهادة أن لا إله إلا الله

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم ١/ ١٨٩ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣١٤ .

وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان . وأن تؤدوا خمسًا من المغنم » . ونهاهم عن « الدباء [1] والحنتم [2] والمزفت [3] والنقير » قالوا : يا نبى الله،ما علمك بالنقير ؟ قال : « بلى جذع تنقرونه فتقدمون فيه من القطيعاء ـ أو قال : « من التمر أو تصبون فيه من الماء حتى إذا سكن غليانه شربتموه حتى إن أحدكم ليضرب ابن عمه بالسيف ») . وانتبه أحد الحاضرين كأنما لسعته حية فهل ضربة السيف واضحة عيانًا فى جسده .

قال : (وفى القوم رجل أصابته جراحة كذلك . قال :

وكنت أخبئها حياءً من رسول الله ﷺ) .

فقلت : ففيم نشرب يا رسول الله؟ قال : « فى أسقية الأُدْم التى يلاث على أفواهها ». قالوا :يا رسول الله، إن أرضنا كثيرة الجرذان . ولا تبقى بها أسقية الأدم . فقال نبى الله ﷺ:«وإن أكلتها الجرذان،وإن أكلتها الجرذان،وإن أكلتها الجرذان») [4] .

لقد جاء الوفد استجابة لدعوة الأشج رضي الله عنه الذى قاد هذا الوفد إلى المدينة . وتلقى التعليمات كاملة استعداداً لمواجهة العدو المحيط به . وكان الجارود ينتظر بفارغ الصبر عودة هذا الوفد . حيث لم يكن قد دخل فى الإسلام بعد . فلم يزل متشبثًا بنصرانيته التى تلقاها من الكهان . وبيت أمرًا جديداً . وهو أن يمضى بشخصه إلى رسول الله ﷺ ويتعرف عليه وعلى دينه . واختار صديقًا له من خارج قومه بعد أن سمع من ابن أخته الأشج خبر الوفد وخبر الدين . وخبر المبايعة .

---

(١) الدباء : يفرغون الدباء أو القرع ويشربون فيها .

(٢) الحنتم : جرار خضر مطلية .

(٣) المزفت: وعاء مطلى بالزفت .

(٤) صحيح مسلم شرح النووى ١ / ١٩٣ .

٣ـ الجارود بن المعلى ، وسلمة بن عياض

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : قدم الجارود العبدى على رسول الله ﷺ ومعه سلمة بن عياض الأسدى . وكان حليفًا له فى الجاهلية ،وذلك أن الجارود قال لسلمة :

إن خارجًا خرج بتهامة يزعم أنه نبى . فهل لك أن نخرج إليه ؟ فإن رأينا خيراً دخلنا فيه . فإن كان نبيًا فللسابق إليه فضله . وأنا أرجو أن يكون النبى الذى بشَّر به عيسى ابن مريم . وكان الجارود نصرانيًا قد قرأ الكتب .

ثم قال لسلمة : ليضمر كل واحد منا ثلاث مسائل يسأل عنها لا يخبر بها صاحبه : فلعمرى لئن أخبر بها إنه لنبى يوحى إليه . ففعلا . فلما قدما على رسول الله ﷺ ، قال له الجارود : بم بعثك ربك يا محمد ؟ قال : « بشهادة أن لا إله إلا الله وأنى عبد الله ورسوله . والبراءة من كل ند أو وثن يعبد من دون الله تعالى ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بحقها وصوم رمضان وحج البيت ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] » .

قال الجارود : إن كنت يا محمد نبيًا فأخبرنا عما أضمرنا عليه . فخفق رسول الله ﷺ كأنها سنة . ثم رفع رأسه وتحدَّر العرق عنه فقال :

« أما أنت يا جارود فإنك أضمرت على أن تسألنى عن دماء الجاهلية ، وعن حلف الجاهلية وعن المنيحة ألا وإن دم الجاهلية موضوع ، وحلفها مشدود . ولم يزدها الإسلام إلا شدة ، ولا حلف فى الإسلام ، ألا وإن الفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة فإنك تغدو برفد وتروح بمثله ، وأما أنت يا سلمة ، فإنك أضمرت على أن تسألنى عن عبادة الأصنام . وعن يوم السباسب ، وعن عقل الهجين فأما عبادة الأصنام فإن الله تعالى يقول : ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء] وأما يوم السباسب فقد أعقب الله تعالى منه ليلة القدر خير من ألف شهر . فاطلبوها فى العشر الأواخر من شهر رمضان ، فإنها ليلة بلجة سمحة لا ريح فيها تطلع الشمس وفى صبيحتها لا شعاع لها . وأما عقل الهجين فإن المؤمنين إخوة تتكافأ دماؤهم يجير أقصاهم على أدناهم أكرمهم عند الله أتقاهم » .

فقالا : نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبد الله ورسوله) (١).

بنو عبد القيس بن أكبر قبائل ربيعة وأكثرها امتداداً تقطن ما يسمى اليوم بالمنطقة الشرقية فى السعودية الإحساء والدمام . فقد ذكر الصالحى فى تعريفها :

(عبد القيس . . ابن أفصى . . بن دُعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار وكانوا ينزلون البحرين (الإحساء) : الخط (٢) والقطيف (٣) والسفار (٤) والظهران (٥) إلى الرملة(٦) ما بين هجر (٧) إلى حد أطراف الدهناء (٨) وكانت هذه المناطق تخضع لملك هو المنذر بن قيس العبدى ، وقد بعث رسول الله ﷺ له العلاء بن الحضرمى بعد توزيع غنائم حنين وعمرة الجعرانة فى العام الثامن للهجرة) (٩) .

وسنرى عند الحديث عنها بنى عبد القيس أنها خير قبائل ربيعة وليست أكبرهم فقط. لكن حديثنا هنا عن الرائد الجارود بن معلى العبدى . الذى تنصر ، وتعمق فى النصرانية وكان سيداً فى قومه . وكثيراً ما كان يسمع من الكاهن : إن نبيًا يخرج بمكة يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه علامة يظهر على الأديان ، وأتى مكة عام الهجرة باحثًا عن هذا النبى .

ونشهده فى جولته الثانية قد اختار حليفه سلمة بن عياض الأسدى ليترافقا إلى يثرب والمسافة شاسعة بين يثرب وهجر . وإذا كانت مكة تقصد من أجل الحج ويؤمها العرب من كل مكان . أما المدينة أو يثرب فلم تكن طِلبة الجارود لولا هذا الدافع العميق الذى يحثه ليرى هذا النبى ويتعرف عليه . ويتأكد من مواصفاته أنه هو النبى المنتظر الذى بشر به عيسى عليه الصلاة والسلام . وظاهر الأمر يوحى أن النصرانية فى جزيرة العرب كانت على المذهب الصحيح البعيد عن التحرف . فلا تزال نبوة محمد ﷺ والبشارة بها جلية فى أذهانهم . وكانت اليهود والنصارى يترقبون قدوم هذا النبى .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤٦٥ ، ٤٦٦ .
(٢) الخط : قرية على ساحل البحرين وهى لعبد القيس فيها الرماح الجياد .
(٣) القطيف : قرية لجذيمة عبد القيس بالبحرين .
(٤) سفار : بلد بالبحرين .
(٥) الظهران : قرية بالبحرين لبنى عامر بن عبد قيس .
(٦) الرملة : قرية لبنى عامر بن عبد القيس بالبحرين .
(٧) هجر : قصبة (عاصمة) بلاد البحرين بينها وبين سيرين سبعة أيام .
(٨) الدهناء : ديار بنى تميم وهى سبعة أجبل من الرمل ، وقال الهيثم بن عدى : الدهناء الوادى الذى فى بلاد بنى تميم ببادية البصرة .
(٩) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٥٧٠ .

فلذلك منذ أن سمع بصاحب مكة . لم يتمالك نفسه إلا ويشد الرحال نحوه . وحين عرف أنه هاجر إلى يثرب. قرر أن يتابع المسير إليه . ولم يهدأ له قرار حتى يتعرف عليه . ومن أجل هذا قال لصاحبه وحليفه سلمة بن عياض :

(إن خارجًا خرج بتهامة يزعم أنه نبى فهل لك إلى أن تخرج إليه) .

وحيث إن سلمة بن عياض لم يكن عنده هذه الاهتمامات . فلم تكن ليثير تطلعه أو ترفعه لقطع هذه المفاوز حتى يلتقى بهذا النبى . وكان لابد للجارود من إغراءات أكثر له ليمضى معه فتابع حديثه :

(. . فإن رأينا خيراً دخلنا فيه فإن كان نبيًا فللسابق إليه فضله . .) .

لكن سلمة يحسب إن لم يكن نبيًا فستضيع هذه المتاعب سدى . فرجح الجارود له نبوته ، وزين له الخروج قائلا له : (وأنا أرجو أن يكون النبى الذى بشر به عيسى ابن مريم) .

وسلمة يعرف صديقه الحميم ومدى صلته بالنصرانية وقراءته للكتب ، فعزما معًا على الرحيل .

أما كيف يكون اختبار النبوة . فقد هداه عقله إلى هذا الاختبار وعرضه على صديقه سلمة قائلاً له :

(ليضمر كل واحد منا ثلاث مسائل يسأله عنها . لا يخبر بها صاحبه) .

وهو زيادة فى الاحتياط ، وتوثق فى المسألة . فلا داعى لأن يخبر بعضهما عما أضمرا ، ليكن كل واحد منهما على حرية كاملة فى اختيار التصديق بهذا النبى أو تكذيبه. وتبقى سرًا لصاحبه بالذات لا يتحدثان لبعضهما فيها . ولا يبوحان لأحد فيها . وتبقى فى صدريهما لا تغادرهما لأحد .

(فلعمرى لئن أخبر بها إنه لنبى يوحى إليه) .

وليس بين يدينا تفصيلات عن لحظات اللقاء . إنما الذى عندنا . (فلما قدما على رسول الله ﷺ قال له الجارود : (بم بعثك ربك يا محمد ؟) .

وهنا تبدو عبقرية الجارود ﷺ . فهو قبل أن يدخل فى متاهات الكهانة يريد أن

يتعرف على طبيعة هذا الدين الذى يدعو إليه رسول الله ﷺ. والدخول فى ماهية الدعوة الإسلامية هو خلاف ما اتفق عليه الصاحبان . أو زيادة عما اتفقا عليه . فهما يتثبتان فى نبوته إن عرف ما أضمرا . لكن الجارود اللبيب العظيم. والمتعمق بالنصرانية ، يود أن يتعرف على الطروحات التى يطرحها النبى ﷺ على قومه هل هى من معدن النبوة أم من معدن السحر والشعوذ : والكهانة كما هو الحال عند كثير من كهان العرب : فللنبوة نورها وأهدافها واهتماماتها تختلف كثيراً عما يطلبه الكهنة والسحرة والمشعوذون .

قال : (بم بعثك ربك يا محمد ؟) قال : « بشهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى عبد الله ورسوله ، والبراءة من كل ند أو وثن يعبد من دون الله تعالى ، وإقام الصلاة لوقتها . وإيتاء الزكاة بحقها وصوم رمضان وحج البيت ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** (٤٦) ﴾ [فصلت] » .

لقد راع الجارود أن ما سمعه من محمد ﷺ هو ألصق إلى قلبه ونفسه من دين النصرانية التى يدين بها فمحمد رسول الله لكنه عبد الله مثله مثل العرب كافة والله الواحد لا ند له ولا وثن من بشر أو صنم أو شىء فهو رب كل شىء . إن هذه المعانى ألصق فى نفسه من معانى الأقانيم الثلاثة . وتأليه عيسى ، والحلول الربانى فى البشرى إلى آخر هذه الأمور التى لا تتفق مع طبيعته العربية الطلقة الخالصة من العقد .

وهناك التزامات من صلاة وصيام وزكاة وحج واضح له مغزاها وثمرتها .

ورسول الله سيد البشرية قد سمع بالجارود سيد بنى قيس ـ وترامت أنباؤه إليه . وكيف لا تصل إليه وهو الذى هزم بكر بن وائل وقومه .

(ولُقّب الجارود لأنه غزا بكر بن وائل فاستأصلهم فقال الشاعر :

فدسناهم بالخيل من كل جانب   كما جرد الجارود بكر بن وائل)

فهو زعيم عربى تناقلت الشعراء مناقبه ، وحرص رسول الله ﷺ عليه .

وكما روى الطبرانى عن أنس لما قدم الجارود وافداً على رسول الله ﷺ فرح به ، وقرَّبه . وأدناه) .

وكاد يعلن إسلامه لكن تذكر صاحبه سلمة وما أضمر كل منهما فى نفسه ، وهو حريص إلى أن ينضم سلمة معه إلى صفه فقال :

(إن كنت يا محمد نبيًا فأخبرنا عما أضمرنا عليه .

فخفق رسول الله ﷺ كأنها سنة . ثم رفع رأسه وتحدر العرق عنه فقال : « أما أنت يا جارود فإنك أضمرت أن تسألنى عن دماء الجاهلية . وعن حلف الجاهلية ، وعن المنيحة » وانتهى الجارود إلى الإسلام قبل أن ينطق به بل دخله قبل أن يصل إلى محمد ﷺ . فحرصه على السؤال عن دماء الجاهلية لكثرة ما أهرق من دماء وأزهق من نفوس فى حربه ضد بكر بن وائل .

وسؤاله عن الحلف ما هو مصيره بعد أن يفد على محمد رسول الله ﷺ ويلتزم به، ويصبح جندبًا عنده ، ما يفعل بأحلافه وحلفائه الذين تعاهد معهم وتعاقد على أن الدم الدم والهدم والهدم يحارب من حاربوا ويسالم من سالموا ماذا يفعل بهم. والمنيحة .

ونعود إلى سلمة . وقد رأى وجه حليفه الجارود يبرق من السرور . فقد أعلم الله تعالى نبيه ما أضمر الجارود ونظر رسول الله ﷺ لسلمة وقال : « أما أنت يا سلمة ، فإنك أضمرت أن تسألنى عن عبادة الأصنام ، وعن يوم السباسب .وعن عقل الهجين».

وانتقل الزعيمان من الامتحان إلى الجندية الكاملة أمام رسول رب العالمين .

ومضى عليه الصلاة والسلام يعلم الزعماء دينهم . فاتجة للجارود قائلاً :

« ألا وإن دم الجاهلية موضوع ، وحلفها مشدود ، ولم يزدها الإسلام إلا شدة ». ولا حلف فى الإسلام فثارات الجاهلية قد سقطت مع انتهاء الجاهلية . أما أحلافها فالإسلام دين الوفاء فلابد من الوفاء بميثاق التحالف غير أن الإسلام يقيم أمة جديدة وقيادة جديدة فلا أحلاف شخصية فى الإسلام إنما الأحلاف لقيادة الدولة الجديدة .

أما جواب المنيحة فكان أوسع من الحديث عنها للحديث عن الفضل ، للحديث عن الزيادة التى ينعم الله تعالى بها على عبده من مالٍ أو نعم أو شاء : « ألا وإن الفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة ») ، وما سميت المنيحة إلا لتمنح هذا الفضل من يستحقه صدقة أو هدية أو هبة .

« فإنها (أى المنيحة) تغدو برفد وتروح بمثله » فهى فى كل يوم يعطيها الله لبنًا لتعطيه لشاربيه والتفت عليه الصلاة والسلام إلى سلمة قائلاً :

فأما عبادة الأصنام فإن الله تعالى يقول : ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴿٩٨﴾ ﴾ [الانبياء] وأما يوم السباسب [1] (وهو يوم عالمى نصرانى)

---

(١) يوم السباسب : عيد عند النصارى يسمى عيد الشعانين . وفى وصف حسان للغساسنة النصارى (يحيون بالريحان يوم السباسب) .

فقد أعقب الله تعالى فيه ليلة خير من ألف شهر .

وهو انتقال من طقوس شكلية تزينية إلى عبادة خالصة متبتلة فى شهر رمضان أفضل من عمر الإنسان كله . أفضل من ثمانين سنة لكنها ليست عبادة للعباد . إنما هى عبادة الله الواحد فى العشر الأخير من رمضان من ظفر بها اعتقه الله من النار « فإنها ليلة بلجة سمحة لا ريح فيها تطلع الشمس وفى صبيحتها لا شعاع لها » .

والملاحظ أن أسئلة سلمة تعجيزية منوعة . وليست أسئلة لإنسان يحرص على الإسلام بمقدار حرصه على كشف صدق هذا النبى . وثالث أسئلة سلمة عقل الهجين[1]. وهو منطلق من الافتخار بالأنساب . فكيف يعامل الوضيع الهجين لو قتل . وكان الجواب الجاهلى بناءً نفسيًا لتفتيت الكيان الجاهلى القائم على الفخر بالأنساب . وإعادة الصياغة الإسلامية من جديد لهذا البناء .

« وأما العقل الهجين فإن المؤمنين إخوة تتكافأ دماؤهم يجير أقصاهم على أدناهم أكرمهم عند الله أتقاهم » ، فهو روح جديد انبث فى هذه الأمة جعل المعسكر كله إما معسكر إيمان أو كفر بغض النظر عن أنساب من يعيشون فيه ويتظللون بلوائه.

وعند ابن إسحاق عمَّن لا يتهم عن الحسن (أن الجارود لما انتهى إلى رسول الله ﷺ كله فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه ورغَّبه فيه . فقال : يا محمد، إنى كنت على دين . وإنى تارك دينى لدينك أفتضمن لى دينى ؟) .

وهو سؤال إنسان تغلغل الدين فى أعماقه يريد أن ينسلخ منه إلى دين آخر ولا يريد إلا ضمانة نبوية أنه لا يخسر دينه الأول .

هذه العقدة هى التى تحكم النصارى فى الأرض من ذلك الوقت إلى اليوم ، أنهم على دين والله تعالى قال لهم :

﴿ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ [المائدة : ٦٨] ولأجل ذلك كان إسلام الوثنى أسهل من إسلام اليهودى والنصرانى فقد أسلم أهل المدينة كلهم بناءً على تبشير اليهود بالنبى المنتظر . ولم يؤمن إلا عشرة من اليهود . فى كل كيانهم فى الحجاز ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة] . فلعنة الله على الكافرين » أما نحن هنا فأمام طراز عظيم من الرجال يفقه قيمة الرجال ، وعظمة النبى ﷺ . ولا يريد منه إلا كفالته على أنه لا يضحى بدين الله أمام دين الله . وكان الجواب النبوى العظيم .

---

(١) الهجين : هو الذى اختلط نسبه أو لا نسب له والعقل هنا الدية .

« نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه » فأسلم وأسلم أصحابه»[1].

بالعودة إلى رواية أبى عبيدة معمر بن المثنى . فليس فيها إلا صاحب واحد هو مبلغه سلمة :

(فقالا : نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنك عبد الله ورسوله).

ولم لا يشهدا . وقد شهدا وحى الله وهو يعلمه ما أضمرا ، وشهدا عظمة ما يدعو إليه من وحدانية لله دون أى ندٍ أو مثيل أو شريك . حتى رسول رب العالمين ، فهو عبد مصطفىً من عباد الله . يوحَى إليه بمبادئ هذا الدين .

إن الجارود بن معلى العبدى (بشر) هو صورة مماثلة لعدى بن حاتم الطائى . فكلاهما زعيمان فى قومهما يحملان تاريخًا عريقًا فى الجاهلية .تخليا عن نصرانيتهما لدين الله الجديد . وأسلما وجههما لله وحده دون أن تنعكس عقد الدين السابق عليهما. أو تشوه إيمانهما العظيم .

وها هو الجارود يشعر منذ اللحظة التى أعلن فيها إسلامه أن قومه كلهم فى عنقه . فقال : (يا رسول الله ، ادع لنا أن يجمع الله قومنا) .

وأدرك سيد البشرية أن أمام الجارود رسالة تشبه رسالته فى قريش . وكيف عانى منه ما عانى . فدعا له : « اللهم اجمع لهم ألفة قومهم ، وبارك فى برهم وبحرهم ».

وعاد الزعيم الجندى الجارود يسأل حبيبه المصطفى ﷺ كل شيء يخصه فى دينه ودنياه .

فقال : يا رسول الله ، أى المال أتخذ ببلادى ؟

وقبل أن يجيبه ﷺ سأله : « وما بلادك ؟ » .

قال: مأواها وعاء ، ونبتها شفاء ، وريحها صبا ، ونخليها غواد فى الأرض الواسعة المعطاء . ولا يناسبها إلا الإبل التى تجوب فيها حمولة وزادًا ، فقال : « عليك بالإبل فإنها حمولة . والحمل يكون عددًا . والناقة ذودًا » .

ولم يتمالك سلمة ﷺ أن سأله : يا رسول الله ،أى المال أتخذ ببلادى ؟ (بلاد بنى أسد) قال : وما بلادك ؟ قال :

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ١٦٩ .

(مأواها سياح . ونخلها صراح ، وتلاعها فياح) .

وأمام هذه البلاغة العربية من سلمة جاء جواب سيد البلغاء ﷺ :

« عليك بالغنم فإن ألبانها سجل ، وأصوافها أثاث ، وأولادها بركة . ولك الأكيلة والربا » (١) .

وقبل أن يغادر الزعيمان المدينة . قام كل واحد منهما بتسجيل هذه الزيارة فى سجل الخالدين حين عبرا عن مشاعرهما . وإسلامهما .

قال الجارود يتحدث شعراً شاعريًا عن إسلامه .

شهدت بأن الله حق وسامحت ... بنات فؤادى بالشهادة والنهض
فأبلغ رسول الله عنى رسالة ... بأنى حنيف حيث كنت من الأرض
وأنت أمين الله فى كل خلقه ... على الوحى من بين القضيضة والقض

وبعد أن أعلى للدنيا أنه حنفى مسلم . وأن أمين الله على الوحى فى الخلق هو محمد بن عبد الله الهاشمى فما هى مشاعره وهو العبدى من أقصى الأرض نحوه . وما آثار هذا اللقاء فى نفسه وكيف يعمل يدخل أمة فى الإسلام أمة بنى عبد القيس التى تملأ السهل والجبل :

فإن لم تكن دارى بيثرب فيكم ... فإنى لكم عند الإقامة والخفض
أصالح من صالحت من ذى عداوة ... وأبغض من أمسى على بغضكم بغضى
وأدنى الذى واليته وأحبه ... وإن كان فى فيه العلاقم من بغض

« من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان ».

وليس حبًا عاطفيًا فقط ، بل حب ممهور بالدم ، وإخلاص القلب والروح والحياة لله ورسوله :

أذب بسيفى عنكم وأحبكم ... إذا ما عدوكم فى الرفاق وفى النقض
وأجعل نفسى دون كل ملمة ... لكم جُنَّةٌ من دون عرضكم عرضى

لقد أعلن للدنيا أنه وهب نفسه لرسوله الله ﷺ أمين الله على وحيه فى خلقه

(١) الربا هنا بمعنى الزيادة .

وجعل من دونه عرضه وروحه ودمه وحياته .

فماذا قال شاعرنا سلمة :

رأيتك يا خيـــر البرية كلـــــها   نشرت كتابًا جاء بالحق معلمــــا
شرعت لنا فيه الهدى بعد جــورنا   عن الحق لما أصبح الأمر مظلمــا
فنورت بالقرآن ظلمـــات حـــندسٍ   وأطفأت نار الكــفر لما تضرمــــا
تعالى علو الله فــــوق سمـــائه   وكان مكان الله أعلـــى وأكـــرما

فقد كان سلمة رضي الله عنه مأخوذًا بلبه فى هذا الكتاب المعجز . وكان قلعة التوحيد قد بنيت فى كيانه بعد هدم الكيان السابق ، وما القرآن إلا النور الذى سرى فى أعماقه . وسينير الكون كله . وتعالى الله رب العالمين فوق كل شىء . والله أعلى وأجل وأكرم من كل مقدسات وعظائم هذا الوجود .

٤ـ ملك البحرين المنذر بن ساوى

ما أن انتهى من هوازن وفرغ من توزيع غنائمها بعد فتح مكة . حتى بعث العلاء ابن الحضرمى لهم .

(وبعث رسول الله ﷺ منصرفه من الجعرانة العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى وهو بالبحرين يدعوه إلى الإسلام ، وكتب إليه كتابًا) [١] .

وكما قدم مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة بعد أن نشر قادتها الإسلام فيها . كان قدوم العلاء رضي الله عنه إلى المنذر ملك البحرين . وجد العلاء نفسه بين أهله وإخوانه الذين اعتنقوا هذا الدين . ومضى مع المنذر بن ساوى . فقام المنذر رضي الله عنه ، قرأ كتاب رسول الله ﷺ على قومه . وقرّت عين العلاء بالتجاوب الشديد مع دين الله عز وجل . ولم يمضى حتى أخذ معه من المنذر كتابًا إلى رسول الله ﷺ هذا نصه :

(فكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وتصديقه . . وإنى قد قرأت كتابك على أهل هجر فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه . وبأرضى مجوس ويهود فأحدث إلى فى ذلك أمرك) . فكتب إليه رسول الله ﷺ : « إنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » . وكتب رسول الله ﷺ « نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » ، وكتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام . فإن أبوا أخذت منهم الجزية . وبألا تنكح نساؤهم . ولا تؤكل ذبائحهم) [٢] .

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٦٣ .

٥ـ الوفد الثانى

وأراد رسول الله ﷺ أن تقر عينه ويلتقى مع غرر قيادات عبد القيس . فقد مر على وفدهم ذاك سنوات طوال . وقد انضم إليهم الجارود بن معلى العبدى الذى كسر ظهر النصرانية فى قومه بعد دخوله بالإسلام . فأمر رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمى أن يحضر معه وافدًا منهم. فقد روى ابن سعد عن الواقدى بسنده قال : كتب رسول الله ﷺ إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلاً منهم . فقدم عليه عشرون رجلاً رأسهم عبد الله بن عوف الأشج . وفيهم الجارود ومنقذ بن حيان وهو ابن أخت الأشج [١] . وكان قدومهم عام الفتح . فقيل : يا رسول الله، هؤلاء وفد عبد القيس . قال : « مرحبًا بهم نعم القوم عبد القيس » . قال : ونظر رسول الله ﷺ إلى الأفق صبحة ليلة قدموا وقال : « ليأتين ركب من المشركين لم يكرهوا على الإسلام ، قد أنضوا الركاب وأفنوا الزاد بصاحبهم علامة اللهم اغفر لعبد القيس أتونى لا يسألونى مالاً هم خير أهل المشرق ») [٢] .

لقد كان أعظم ثناء على وفد قدم المدينة :

١ـ لم يكرهوا على الإسلام .

٢ـ أنضوا الركاب وأفنوا الزاد .

٣ـ بصاحبهم علامة .

٤ـ اللهم اغفر لعبد القيس .

٥ـ أتونى لا يسألونى مالا .

٦ـ هم خير أهل المشرق .

وكان شاعر الوفد الجارود بن معلى العبدى . وهو الذى قال لرسول الله ﷺ :

فإن لم تكن دارى بيثرب فيكم ... فإنى لكم عند الإقامة والخفض
وأدنى الذى والبيتة وأحبه ... وإن كان فى فيه العلاقم من يفضى
أذب بسيفى عنكمُ وأحبكم ... إذا ما عدوكم فى الرفاق وفى النقض
وأجعل نفسى دون كل ملمة ... لكم جنة من دون عرضكم عرضى

ولا تزال آثار هذه الأشعار ماثلة فى وجدان النبى ﷺ منذ أن أسلم الجارود.

---

(١) الصحيح أنه صهر الأشج على ابنته . لكن ابن اخت الجارود بن معلى العبدى .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣١٤ .

أما الآن، فكلمة الوفد قد آلت إليه. فقد روى سليمان بن على عن على بن عبد الله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن الجارود رضي الله عنه أنشد رسول الله حين قدم عليه فى قومه:

يـا نبـى الهـدى أتتك رجـال	قطعـت فدفـداً (١) وآلاً (٢) فـآلا
وطـوت نحوك الصحاصح (٣) طـراً	لا تخـال الكلال (٤) فيـه كـلالا
كـل دهنـاء يقصـر الطـرف عنها	أرقلتهـا (٥) قِلاصنـا (٦) إرقالا
وطوتهـا الجيـاد تجمـح فيهـا	بكمـاة كالنجـم تتـلالا
تبتـغى دفـع بـؤس يـوم عبوسٍ	أوجل (٧) القلـب ذكـره ثم هالا (٨)

فهؤلاء القوم قطعوا الصحارى المهلكة . وطووا البيد غير عابئين بما يعانون من كلال ومشقة وحين تجزع الإبل أن تقطع الدهناء (٩) . كانت قلاصهم الفتنة . تمضى بها عادية غير عابئة بحر الشمس ولهيب الصحراء . وطوتها الجياد تحاول كبح جماحها فترفض ؛ لأن الأبطال فوق رؤوسها يتهادون كالنجوم فى السماء . جاؤوا إليك يا رسول الله . راجين شفاعتك يوم الفزع الأكبر . حيث يعلنون إسلامهم بين يديك لدفع بؤس هذا اليوم العبوس .

وراع رسول الله ﷺ أن رأى الوفد متغيراً شاحب الوجه فقال :يا معشر عبد القيس ، ما لى أرى وجوهكم قد تغيرت ؟

قالوا : يا نبى الله ، نحن بأرض وخمة وكنا نتخذ من هذه الأنبذة ما يقطع فى بطونها . فلما نهيتنا عن تلك الظروف فذلك الذى ترى فى وجوهنا .

أى نهاهم عن الدباء والمزفت والنقير والحنتم .

وصحح رسول الله ﷺ فهمهم أن النهى ليس عن الأوعية إنما عما ينبذ فيها فقال :

« إن الظروف لا تحل ولا تحرم .ولكن كل مسكر حرام .وليس أن تشربوا فتسكروا

---

(١) الفدفد : هى الفلاة لا شىء فيها .   (٢) الآل : السراب فى الصحراء .
(٣) الصحاصح : جمع صحصاح وهو ما استوى من الأرض .
(٤) الكلال : التعب والإرهاق .
(٥) أرقلتها : الإرقال ، ضرب من العدو فوق الخبب .
(٦) القلاص : الفتى من الإبل .
(٧) أوجل : أخاف .   (٨) هاله : أفزعه .
(٩) الدهناء : موضع ببلاد بنى تميم على طريق المدينة .

حتى إذا ثملت العروق تفاخرتم فوثب الرجل على ابن عمه بالسيف فتركه أعرج». قال : (وهو يومئذ فى القوم الأعرج الذى أصابه ذلك) [1] . ثم أكد المعنى ثانية بقوله :

« كنت نهيتكم عن الأشربة فى ظروف الأدم فاشربوا فى كل دعاء غير ألا تشربوا مسكراً » [2] .

ومضى رسول الله ﷺ يباسط الوفد وأنزله فى دار رملة بنت الحارث . دار الضيافة النبوية . وتشجع الأشج قائلاً ثانية :

(يا رسول الله ، إن أرضنا ثقيلة وخمة . وإنا إن لم نشرب بهذه الأشربة هيجت ألواننا . وعظمت بطوننا فرخص لنا فى هذه ـ وأومأ فى كفيه ـ (يقبضهما إشارة إلى القليل منه) فقال :

« يا أشج ، إنى إن رخصت لك فى مثل هذه ـ وقال بكفيه هكذا ـ شربته فى مثل هذه ـ وفرج يديه وبسطهما ـ يعنى أعظم منها ـ حتى إذا ثمل أحدكن من شرابه قام إلى ابن عمه فهزر ساقه بالسيف) [3] .

(وأجرى عليهم ضيافة . وأقاموا عشرة أيام . وكان عبد الله الأشج يسائل رسول الله ﷺ عن الفقه والقرآن ، وأمر لهم بجوائز . وفضَّل عليهم عبد الله الأشج فأعطاه اثنتى عشرة أوقية ونشأ ، ومسح رسول الله ﷺ وجه منقذ بن حيان) [4] .

وبلغ من فرط سروره ﷺ بهم . أن فاتته الصلاة سنة الظهر ، فقضاها ﷺ فى بيت أم سلمة . كما روى البخارى عنها أن رسول الله ﷺ أخرّ الركعتين بعد الظهر بسبب انشغاله بوفد عبد القيس حتى صلاهما بعد الظهر فى بيتها وقال : شغلتنى ناس من عبد القيس عن الركعتين بعد الظهر) [5] .

أما المباسطة فكانت فى جلسة جميلة أخاذة راح رسول الله يحادثهم فيها عن أطيب التمر فى هجر أرض التمر : رواه لنا الحاكم عن أنس رضي الله عنه :

(روى الحاكم عن أنس رضي الله عنه أن وفد عبد القيس من أهل هجر قدموا على رسول الله ﷺ فبينما هم عنده إذا أقبل عليهم فقال : لكم تمرة تدعونها كذا ، وتمرة تدعونها كذا . حتى عدّ ألوان تمرهم جميعا . فقال له رجل من القوم .

(١) سبل الهدى والرشاد .
(٢) مسلم بشرح النووى ، الأشربة ١٣ / ١٦٧ .
(٣) مسند أحمد .
(٤) البخارى ١ / ٢٤٣ .
(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣١٥ .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله لو كنت ولدت فى هجر ما كنت بأعلم منك الساعة أشهد أنك رسول الله . . .) وكان لا بد من هذه المعجزة الربانية أن يشهدها القوم لتطمئن قلوبهم إلى نبوته ﷺ .

فقال : « إن أرضكم قد رفعت لى منذ قعدتم إلى فنظرت من أدناها إلى أقصاها . فخير تمركم البَرنى الذى يذهب بالداء ولا داء معه) » (١) .

وزادت المباسطة أكثر. فقال لرجل منهم: أطعمنا من بقية الذى بقى فى نوطك (٢). فقام وجاءه بالبرنى ،فقال رسول الله ﷺ : «هذا البرنى أمسى من خبر ثمراتكم ».

وكانت المعجزة الثانية التى رآها الوفد شفاء مريضهم :

فقد روى الإمام أحمد عن الزارع بن عامر أنه قال : يا رسول الله، إنى معى رجلاً خالاً لى مصابًا فادع الله تعالى له . فقال : « أين هو ؟ ائتنى به » . قال : فصنعت مثل ما صنع الأشج ، ألبسته ثوبيه وأتيته به . فأخذ طائفة من ردائه فرفعها حتى بان بياض إبطيه . ثم ضربت ظهره وقال : « اخرج عدو الله » . فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول . ثم أقعده بين يديه فدعا له فشجَّ وجهه . فلم يكن أحد بعد دعوة رسول الله ﷺ يفضل عليه) (٣) .

وكان رسول الله ﷺ يرعاهم بنفسه ، ويشرف على ضيافتهم والحفاوة بهم . ويا سعد من أكرمه الله أن يكون ضيف رسول الله ﷺ وموطن اهتمامه عشرة أيام .

هناك رواية تشير إلى أن الوفد كان أربعين راكبًا كما روى الدُّلابى وغيره من طريق أبى خيرة قال : كنت فى الوفد الذى أتوا رسول الله ﷺ من وفد عبد القيس وكنا أربعين راكبًا) (٤) .

فيكون الجمع بينه وبين الرواية الأخرى بأن الثلاثة عشر كانوا رؤوس الوفد وكان الباقون أتباعًا .

إنهم مثل وفد الأنصار الذين بايعوا عن قومهم فى يثرب . فكأن هؤلاء يمثلون الطلائع الإسلامية فى دولة الإسلام فى هجر . ومن أجل ذلك بُعث الحاكم العام لهجر

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٦٤ .

(٢) النوط : الجلة الصغيرة التى يكون فيها التمر .

(٣) رواه الإمام أحمد .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٦٧ .

بجوار ملكها المنذر بن ساوى . وبعث ولاة أخرون لبقية مناطق عبد القيس . كما نشهد ذلك - خلال الرسائل الموجهة للقيادات المحلية من عبد القيس والتى انتهت بالتبعية لدولة الإسلام فى المدينة .

٦ـ الرسائل النبوية لقيادات عبد القيس

لقد توجهت الأوامر النبوية للعلاء بن الحضرمى أحد السابقين الأولين من المهاجرين أن يمضى إلى هجر . فيقيم الحكم الإسلامى هناك : ومضى بأربعة كتب رسمية :

الأول إلى الهلال صاحب البحرين ، والثانى إلى أسيبخت بن عبد الله صاحب هجر ، والثالث إلى الأكبر بن عبد القيس ، والرابع للمنذر بن ساوى . تعلم القوم بقيام الحكم الإسلامى هناك .

أ ـ كتابه إلى الهلال :

قالوا : وكتب رسول الله ﷺ إلى الهلال صاحب البحرين :

« سلم أنت فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو لا شريك له . وأدعوك إلى الله وحده تؤمن بالله وتطيع وتدخل فى الجماعة فإنه خير لك . والسلام على من اتبع الهدى ») (١) .

ب ـ دعوة أسيبخت بن عبد الله صاحب هجر :

(وقالوا : وكتب رسول الله ﷺ إلى أسيبخت بن عبد الله صاحب هجر :

إنه قد جاءنى الأقرع بكتابك وشفاعتك لقومك ، وإنى قد شفعتك ، وصدَّقت رسولك الأقرع فى قومك . فأبشر فيما سألتنى وطلبتنى بالذى تحب . ولكنى نظرت أن أعلّمَه وتلقانى فى فإن تجئنا أكرِمْك .وإن تقعد أكرمك: أما بعد،فإنى لا أستهدى أحدًا . وإن تهدِ إلى أقبل هديتك . وقد حمد عمالى مكانك ، وأوصيك بأحسن الذى أنت عليه من الصلاة والزكاة وقرابة المؤمنين .وإنى قد سميت قومك بنى عبد الله ، فمرهم بالصلاة وبأحسن العمل وأبشر والسلام عليك وعلى قومك المؤمنين) (٢) .

والملاحظ أن الكتاب الأول إلى هلال : يبرز أن هلالاً لا يزال على شركه . ولهذا كان رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له. وحيث أنه لم يسلم بعد فختم الكتاب إليه بالسلام على من اتبع الهدى . بينما نجد الكتاب الثانى إلى أسيبخت

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٧٥ .

ينطلق من الإسلام . ويدعو هذا الحاكم المسلم إلى تنفيد أوامر الله عز وجل فى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] فهو مسؤول وقد تمت تولية رسول الله ﷺ له أن يفهم أحكام الإسلام فى قومه . وكان رسول الله ﷺ يدعوه لزيارة دولة الإسلام فى المدينة ويحضر دورة تدريبية فيها . لكن دون أن يأمره بذلك . واكتفى برسوله الأقرع ليبلغه تعليماته معه . وكانت روح الكتاب النبوى تفيض بالبشر والرضا عنه .

« فإن تجئنا نكرمك ، وإن تقعد نكرمك .

فإنى لا أستهدى أحداً وإن تهد إلى أقبل هديتك .

وقد حمد عمالى مكانك .

وإنى قد شفعتك وصدقت رسولك الأقرع فى قومك .

فأبشر فيما سألتنى وطلبتنى بالذى تحب » .

وعلى الدعاة إلى الله أن يتعلموا فن الدعوة وفن مخاطبة القيادات ودفن الدخول إلى القلوب من خلال هذه الرسالة .

جـ ـ الرسالة إلى أهل هجر :

وحرص رسول الله ﷺ على مخاطبة الشعب بعد خاطبه حكامه . فكان هذا نص كتابه إلى أهل هجر . بالروح نفسها التى خاطب بها ملكهم أسيبخت بن عبد الله .

قالوا : وكتب رسول الله ﷺ إلى أهل هجر :

« أما بعد ، فإنى أوصيكم بالله وبأنفسكم ألا تضلوا بعد إذ هُديتم ، ولا تغووا بعد إذ رشدتم . أما بعد فإنه قد جاءنى وفدكم فلم آت إليهم إلا ما سرَّهم . ولو أنى اجتهدت فيكم جهدى كله أخرجتكم من هجر فشفعْتُ غائبكم ، وأفضلت على شاهدكم . فاذكروا نعمة الله عليكم .

أما بعد ، فإنه قد أتانى الذى صنعتم . وإنه من يحسن منكم لا أحمل عليه ذنب المسىء . فإذا جاءكم أمرائى فأطيعوهم وانصروهم على أمر الله وفى سبيله . وإنه من يعمل منكم صالحة فلن تضل عند الله ولا عندى » .

د ـ أما أكبر هذه الكتب وأوفاها فكتابه ﷺ للأكبر بن عبد قيس :

قالوا : وكتب رسول الله ﷺ إلى عبد القيس :

(من محمد رسول الله إلى الأكبر بن عبد القيس أنهم آمنون بأمان الله وأمان رسوله على ما أحدثوا فى الجاهلية من القُحَم . وعليهم الوفاء بما عاهدوا ولهم ألا يحبسوا عن طريق الميرة .ولا يمنعوا صوب القطر . ولا تحرموا حريم الثمار عند بلوغه . والعلاء بن الحضرمى أمين رسول الله على برها وبحرها وحاضرها وسراياها . وما خرج منهم . وأهل البحرين خفراؤه من القيم ، وأعوانه على الظالم وأنصاره فى الملاحم عليهم بذلك عهد الله وميثاقه لا يبدلوا قولاً ولا يريدوا فرقة . ولهم على جند المسلمين الشركة فى الفىء والعدل فى الحكم والقصد فى السيرة . حكم لا تبديل فى الفريقين كليهما والله ورسوله يشهد عليهم)(١) .

والملاحظ أن هذا الكتاب من أهم الكتب والوثائق الرسمية الصادرة عن رسول الله ﷺ فهو أقرب إلى الدستور الإسلامى لدولة البحرين منه إلى كتاب عادى .

وأقدر ـ والله أعلم ـ أن القصد هنا من (الأكبر) بن عبد القيس هو عموم عبد القيس كلها ، فليس هناك رجل اسمه الأكبر . إنما القصد منه أساس القوم الذى تجمعهم كلهم فهو الأكبر فيهم وهذه الملاحظة يسندها الحديث بصيغة الجمع فى الكتاب لبنى عبد القيس . وليس بصيغة الفرد الحاكم .

وأول بنود هذا الميثاق :بعد تحديد الموجه له هو طوى صفحة الماضى الجاهلى كله . وإعلان العفو العام :

(. . أنهم آمنون بأمان الله ورسوله على ما أحدثوا فى الجاهلية من القُحم) .

والأمان صادر من الله ورسوله . والقُحم هى ما اقتحموا أو اقترفوا من ذنوب وخطايا قبل الإسلام .

وثانى بنود هذا الميثاق : هو المطالبة بتنفيذ الالتزامات التى عاهدوا عليها .

فبعد أن دخلوا فى الإسلام ترتب على هذا الدخول عهود ومواثيق عليهم الوفاء بها كاملة .

وثالث بنود هذه الميثاق : تحديد الحقوق التى لهم بعد مطالباتهم بالواجبات التى

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٧٦ .

عليهم : وهى ثلاثة :

أ ـ (ولهم ألا يحبسوا عن طريق الميرة) . ويعنى هذا حرية التجارة كاملة .

ب ـ (ولا يمنعوا صوب القطر) ويعنى هذا حرية التنقل والزراعة . وقصد الكلاء والمرعى لدوابهم .

جـ ـ (ولا يحرموا حريم الثمار عند بلوغه) ويعنى هذا حقهم فى منتجات أرضهم وغلاتها .

ورابع هذه البنود : تحديد نظام الحكم . والوالى الجديد الذى اختاره لهم رسول الله ﷺ : (والعلاء بن الحضرمى أمين رسول الله ﷺ على برها وبحرها وحاضرها وسراياها وما خرج منها) .

ومسؤولية العلاء رضي الله عنه مسؤولية اقتصادية عسكرية أكثر منها مسؤولية سياسية . لأن رئيس دولتهم المنذر بن ساوى العبدى منهم لا يزال هو الحاكم السياسى .لكن الحكم بشريعة الله يحتاج إلى فقيه متمرس . فاختار له رسول الله ﷺ أحد القادة الأوائل العلاء بن الحضرمى . واختاره مع ذلك أقرب نسبًا للقوم . فأصله من حضرموت اليمن وإن كان مقيمًا فى قريش ويؤكد هذا المعنى الرسائل الأخرى التى وجهها رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى . فهناك تحديد سلطات بين القائدين . وبين يدينا ثلاث رسائل بهذا المجال :

أ ـ الأولى : وهذا نصها : « أما بعد فإن رسلى قد حمدوك . وإنك ممن تصلح أصلح إليك وأثبك على عملك وتنصح لله ورسوله والسلام عليك » . وبعث بها مع العلاء بن الحضرمى .

ب ـ الثانية : وكتب رسول الله ﷺ إلى العلاء بن الحضرمى : « أما بعد ، فإنى قد بعثت إلى المنذر بن ساوى من يقبض منه ما اجتمع عنده من الجزية فعجله بها . وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور والسلام » . وكتب أبى والملاحظ من هذه الرسالة أن المنذر رضي الله عنه هو المسؤول عن جمع الجزية من المجوس واليهود بينما العلاء هو المسؤول عن جمع الصدقات من المسلمين. وكلا من الصدقات والجزية ترسلان إلى الخزينة المركزية العامة فى المدينة بعد إعطاء حق الفقراء من الأغنياء فى الزكاة .

والثالثة : (وكتب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى كتابًا آخر . « فإنى قد بعثت إليك قدامة بن مظعون وأبا هريرة . فادفع إليهما ما اجتمع عندك من جزية أرضك

والسلام ». وكتب أبى وكان الكتاب السابق للعلاء حتى لا يكون هناك تنازع للسلطات بين الأمير السياسى . والأمير التنفيذى .

وخامس هذه البنود : تحديد المسؤولية العسكرية للشعب من بنى عبد القيس . وذلك فى ثلاث مسؤوليات حاسمة :

أ ـ (وأهل البحرين خفراؤه من القيم ») فلا يجوز أن يقع أى اعتداء عليه . أو تمرد عليه والمسؤولية مباشرة للأمة .

ب ـ « وأعوانه على الظالم » فلا يكفى أن يكونوا حماته من الضيم ،بل لابد أن تمرد. ضد كل ظالم يود أن يخرج على شريعة الله . ويتحكم فى رقاب الأمة بغير حق .

جـ ـ « وأنصاره فى الملاحم » فالجهاد ماض بهم فى غزو المشركين . وتقديم الدم والروح فى سبيل الله بقيادته ﷺ . فهو القائد العسكرى المسؤول .

وسادس هذه البنود : أخذ العهد والميثاق على ثلاث أمور رئيسية : الأولى وهى التى سبق ذكرها من الجهاد :

أ ـ (. . وأنصاره فى الملاحم عليهم بذلك عهد الله وميثاقه) .

ب ـ « لا يبدلوا قولا » فلا حق لهم فى تغيير أو تعديل فى شريعة الله عز وجل أو عدول أو نكول عنها .

جـ ـ (ولا يريدوا فرقة) فتبقى كلمة الأمة واحدة . ولا حق لهم فى الخروج على الحاكم ما أقام فيهم شريعة الله .

وسابع هذه البنود : ما ترتب على الواجبات السابقة من حقوق مع الدولة المركزية فى المدينة .

وقد حددت كذلك بثلاث واجبات (ولهم على جند المسلمين) :

أ ـ الشركة فى الفىء . فما أفاء الله على رسوله من غير حرب . هو لهم فيه حق يسع فقيرهم ومسكينهم وضعيفهم .

ب ـ (والعدل فى الحكم) فالعلاء هو ممثل رسول الله ﷺ وممثل الدولة المركزية . ومصدر سلطته العدل فى الحكم . وتنزع هذه السلطة لو أخل بالعدل . ولو كان ممثل رسول الله ﷺ .

جـ ـ (والقصد فى السيرة) بحيث يكون القدوة المثلى فى خلقه وسلوكه وأهله وتعامله بين الناس .

وثامن هذه البنود : توقيع الدولتين المركزية والقطرية بممثليهما على هذا النظام اللامركزى فى الحكم (لا تبديل له بين الفريقين كليهما).

وتاسع هذه البنود : شهادة الشهود . وأعظم بهم من شهود (والله ورسوله يشهد عليهم) .

وعاشر هذه البنود : أنه صادر من رسول الله ﷺ إلى الأمة من بنى عبد القيس . فهو ميثاق بين شعب وحاكم هو رسول رب العالمين . ومن شاء أن يتعرف على أصول السياسة فى الأرض . فعليه بهذا الدستور .

ثانيًا

بنو حنيفة

بنو حنيفة

وهم بنو حنيفة بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل . . . بن أسد بن ربيعة بن نزار وهم أهل اليمامة ، وهم أصحاب نخل وزرع (١) .

كان أول لقاء معهم فى رحاب مكة المكرمة حين قصد رسول الله ﷺ القبائل ، وأتاها فى مضاربها . فماذا قالت كتب السيرة عن هذا اللقاء ؟

(قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض أصحابنا عن عبد الله بن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ أتى بنى حنيفة فى منازلهم . فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردًا منهم) (٢) .

وماذا كان الرد ؟

روى محمد بن عمر الأسلمى عن عامر بن سلمة الحنفى . وكان قد أسلم فى آخر عمر النبى ﷺ أنه قال : نسأل الله ألا يحرمنا الجنة . لقد رأيت رسول الله ﷺ جاءنا ثلاثة أعوام بعكاظ ومجنة وذى المجاز ، يدعونا إلى الله عز وجل ، وأن نمنع له ظهره حتى يبلغ رسالات ربه ويشرط لنا الجنة فما استجبنا له ولارددنا عليه ردًا جميلاً . فخشنًا عليه . وحلم عنا .

فهو وصف مباشر لشاهد عيان حضر اللقاءات الثلاثة . وشهد حكمة النبى ﷺ وشهد جفاء قومه من بنى حنيفة وخشونة ردهم وغلاظة طباعهم . ولا يتركنا هنا فى مكة إنما يمضى بنا إلى اليمامة فيقول : (قال عامر : فرجعت إلى هجر فى أول عام فقال لى هوذة بن على : هل كان فى موسمكم من خير ؟ قلت : رجل من قريش يطوف على القبائل يدعوهم إلى الله تعالى وحده وأن يمنعوا ظهره حتى يبلّغ رسالة ربه ولهم الجنة . فقال : هوذة من أى قريش هو ؟ قلت : هو من أوسطهم نسبًا من بنى عبد المطلب . قال هوذة : أهو محمد بن عبد المطلب ؟ قلت : هو هو . قال : أما إنه سيظهر على ما هاهنا فقلت : هنا قط من بين البلدان ، قال : وغير ما هاهنا . ثم

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٣٠٩/١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢ / ٥٠ .

وافيت السنة الثانية هجر فقال : ما فعل الرجل ؟ فقلت : والله رأيته على حاله فى العام الماضى . قال : ثم وافيت فى السنة الثالثة . وهى آخر ما رأيته . وإذا بأمره قد أُمِر ، وإذا ذكره كثر بين الناس) (١) .

وهوذة بن على هذا هو ملك اليمامة فلا عجب أن يسأل قومه عما رأوه . والظاهر أنه كان متعمقًا فى النصرانية . لأن بيع النصارى كانت قائمة فى قلب اليمامة . ويعرف رسول الله ﷺ كما يعرف نبيه . فلقد حدد نسبه واسمه ـ محمد بن عبد المطلب . ويعرف من الكتب التى بين يديه أنه قد آن أوان بعثه. وأن دينه سيظهر على الدين كله .

لقد سأله عامر : هنا قط من بين البلدان ؟ قال : وغير ما هاهنا .

والذى يؤكد صلة حنيفة وهوذة بالنصرانية ما رواه ابن سعد فى الطبقات حين أسلم وفد حنيفة (وأعطاهم رسول الله ﷺ إداوة فيها فضل طهور فقال : إذا قدمتم بلدكم فاكسروا بيعتكم وانضحوا مكانها بهذا الماء ، واتخذوا مكانها مسجداً ففعلوا . وصارت الإداوة عند الأقعس بن مسلمة وصار المؤذن طلق بن على . فأذَّن فسمعه راهب البيعة فقال : كلمة حق ، ودعوة حق ، وهرب فكان آخر العهد به) (٢) .

لقد كان هوذة بن على مثل قيصر ومثل المقوقس ومثل النجاشى . فقد كان أربعتهم نصارى ، وكلهم على علم برسول الله ﷺ ، وكلهم بعث لهم رسول الله ﷺ كتبًا يدعوهم فيها إلى الإسلام . فلم يستجب لله ورسوله إلا النجاشى . أما قيصر إمبراطور الروم ، والمقوقس ملك مصر ، وهوذة ملك اليمامة فقد استعملوا أسلوب الملاينة والملاطفة والإكرام دون أن يلزموا أنفسهم بهذا الدين خوفًا على مراكزهم وسلطانهم ونفوذهم ، لقد آثروا دنياهم على دينهم ، ويعلمون أنه الحق من ربهم ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** (٨٩) ﴾ [البقرة] ، مثلهم فى هذا مثل اليهود الذين كانوا يبشرون بالنبى ﷺ ويستفتحون به على الذين كفروا .

لقد كان هوذة بن على يتتبع الأخبار ويتسقطها ليعلم عما ينجلى الأمر . وقد أحاطت عبد القيس به ودخلت فى دين الله عز وجل . وبلغه أخبار هدنة الحديبية . واستسلام قريش يائسة من حربه فهادنته . ولا داعى لأن يتسقط الأخبار . فها هو سليط بن عمرو العامرى مبعوث خاص من محمد بن عبد الله إليه يطلب المثول عنده

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٥٩٥ ، ٥٩٦ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣١٧ .

ومعه كتاب من رسول الله ﷺ إليه .

(قالوا : وبعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو العامرى وهو أحد الستة إلى هوذة ابن على الحنفى يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتابًا . فقدم عليه وأنزله وحباه ، وقرأ كتاب النبى ﷺ . . .) (١) .

وهذا نص الخطاب النبوى لهوذة بن على صاحب اليمامة :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى هوذة بن على . سلام على من اتبع الهدى . وأعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر . فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك » (٢) .

لقد جمع الخطاب النبوى العظيم . كل ما يمكن أن تتحدث نفس هوذة به ، فالقضية عنده قضية غلبة وسلطان . فلا بد أن يعلم ابتداءً أن هذا الكتاب ليس من ملك ولا من سلطان مثله إنما هو من رسول رب العالمين ، ومن أجل هذا ابتدأ ببسم الله الرحمن الرحيم . وأرسل من محمد رسول الله وليس زعيم يثرب وقائد العرب وسيد البطحاء . لا بد أن يراجع نفسه أمام هذه البداية المنطلقة من الرحمة المهداة فهى بسم الله الرحمن الرحيم ، وهى من رسول الله الذى أنارت به الكائنات .

هذا أولاً . أما الأمر الثانى فى هذه الرسالة فهو السلام المقدم على الحرب . ولكنه السلام المرتبط باتباع هدى الله . أما من يريد أن يغتصب الألوهية على قومه ويحول بينهم وبين الهدى . فهذا لا سلام له . لقد كان هوذة أحد جبارى الأرضى الستة الذين بعثت لهم الكتب والرسل بعد الحديبية وهم كسرى فارس وقيصر الروم . ونجاشى الحبشة ومقوقس مصر والحارث بن أبى شمر الغسانى ، وهوذه بن على الحنفى واختلفت مواقف وإجابات كل منهم أما هو . وهو أقرب الناس إلى محمد ﷺ فيمكن عقد اتفاق بين الرجلين . يحكم العرب كلهم بلا استثناء لكن كلمة استوقفته طويلا فى خطاب النبى ﷺ وهى : « . . وسيبلغ دينى إلى منتهى الخف والحافر » فهو طموح لحكم الأرض كلها . وليس حكم العرب فقط . وحرص محمد ﷺ هو الانفراد فى السلطة كما فسرها لآخر جملة فى الرسالة: « أسلم تسلم . وأجعل لك ما تحت يديك».

تجاهل هوذة مضمون الرسالة . (وكتب إلى النبى ﷺ .

ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومى وخطيبهم .والعرب تهاب مكانى .

---

(١) الطبقات الكبرى ١ / ٢٦٢ .

(٢) الرحيق المختوم للمباركفورى ص٤٠٢ .

فاجعل لى بعض الأمر أتبعك .

وأجاز سليط بن عمرو بجائزة ، وكساه أثوابًا من نسج هجر . فقدم بذلك كله على النبى ﷺ) [1] .

وكان السيد الثانى فى بنى حنيفة ثُمامة بن أثال . وتقول بعض الروايات : إنه كتب إليهما معًا . كما فى السيرة لابن هشام :

(وبعث سليط بن عمرو أحد بنى عامر بن لؤى إلى ثُمامة بن أثال ، وهوذة بن على الحنفيين ملكى اليمامة) [2] .

ولعل الرد كان واحداً للزعيمين. وخلاصته هو تقاسم الحكم بين محمد رسول الله ﷺ . وبين زعيمى اليمامة (اجعل لى بعض الأمر أتبعك) .

وكان الجواب النبوى لمن يريدون أن يحولوا الإسلام إلى اقتسام نفوذ بين الطغاة لا إلى تحكيم شريعة الله .

(وقرأ كتابه وقال : «لو سألنى سيابة [3] من الأرض ما فعلت : باد وباد ملكه » .

فلما انصرف من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره أنه مات) [4] .

ثمامة بن أثال الزعيم الثانى :

أما ثمامة بن أثال ، فكان له شأن آخر . وإن كان الموقف من الرسالة النبوية واحداً للزعيمين .

ومضى ثمامة معتمراً إلى مكة . وساقته المقادير إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : فقد أخرج الإمام مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال :

بعث رسول الله ﷺ خيلاً قِبل نجد . فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثُمامة ابن أثال سيد أهل اليمامة . فربطوه بسارية من سوارى المسجد .

(وفى رواية السيرة لابن هشام : حتى أتوا به رسول الله ﷺ فقال : « أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفى ، أحسنوا إساره » . ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله . فقال: « اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه » . وأمر بلقحته أن يغدى عليه بها ويراح ، فجعل لا يقع من ثمامة موقعًا) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٦٢ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٩٣ .
(٣) سيابة : شبر من الأرض .
(٤) الطبقات الكبرى ١ / ٢٦٢ .

فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال : « ما عندك يا ثمامة ؟ » .

فقال : عندى يا محمد خير إن تقتل تقتل ذا دم . . وإن تنعم تنعم على شاكر . وإن كنت تريد المال فسل تُعطَ ما شئت . فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد . فقال : « ماذا عندك يا ثمامة ؟ » فقال عندى ما قلت لك . إن تنعم تنعم على شاكر . وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال فسل ما تعط منه ما شئت . فقال رسول الله ﷺ : « أطلقوا ثمامة » . فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

يا محمد ، والله ما كان على ظهر الأرض وجه أبغض إلىَّ من وجهك . فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى . والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك . فأصبح دينك أحب الدين كله إلى . والله ما كان من بلد أبغض إلىَّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلى . وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة . فماذا ترى ؟ فبشره رسول ﷺ . وأمره أن يعتمر .

(قال ابن هشام : فبلغنى أنه خرج معتمراً ، حتى إذا كان ببطن مكة لبى . فكان أول من دخل مكة ملبيًا . فأخذته قريش فقالوا : لقد اجترأت علينا . فلما قدموه ليضربوا عنقه . قال قائل منهم : دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليمامة لطعامكم . فخلوه . فقال الحنفى فى ذلك .

ومنا الذى لبى بمكة محرمًا   برغم أبى سفيان فى الأشهر الحرم) (١)

(فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوت ؟ قال : لا . ولكنى أسلمت مع رسول الله ﷺ . ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ) (٢) .

وعند ابن هشام :

(ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئًا . فكتبوا إلى محمد رسول الله ﷺ إنك تأمر بصلة الرحم . وإنك قد قطعت أرحامنا . وقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع . فكتب رسول الله ﷺ أن يخلى بينهم وبين الحمل) (٣) .

* * *

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ٢١٦ .

(٢) مسلم (ح ١٧٦٤) ص ٧٣٢ ،والبخارى (ح ٤٣٧٢).

(٣) السيرة النبوية ٢/ ٤/ ٢١٦ .

إنها قصة العظمة النبوية الخالصة فى التربية السياسية . لخصومه وأعدائه . فقد ساق الله تعالى هذا العدو الذى جاءه الكتاب من النبى ﷺ ، فلم يأبه به . ولعله اشترط المشاركة فى الحكم أو سب سبًا قبيحًا لا ندرى . لكن الذى ندريه أن محمداً عنده هو أبغض العدو ، وأكره الخلق . وانعكس هذا الكره والمقت على دين محمد ، وبلد محمد . فلم يكن أبغض إليه من دين محمد ، ومن بلد محمد . لأنه يراه الخصم الألد الخطر على سلطانه وحكمه . واختطفته الخيل . ولا تدرى من اختطفت إنما الذى عرف من هو هذا الأسير هو رسول الله ﷺ (فقال : « أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة ابن أثال » فهذا سيد اليمامة أسيرٌ لا يملك حولاً ولا طولاً ولا قوة فليقتله . وليرد به زعماء العرب جميعًا وترهب قلوبهم من الرعب . وهذا الاتجاه نحو الأسرى هو الذى وجه القرآن إليه من بعد بدر . ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)** ﴾ [الأنفال] فقد عاتبه ربه أنه لم يستعمل القوة والإثخان فى الأرض . قبل الفداء بالمال .

لكننا أمام عالم النبوة الفسيح الذى رأى سيد اليمامة أسيرًا بيديه . فكان همه الأعظم أن يدخل هذا الدين إلى قلبه منذ أول لحظة . لقد جنَّد المسلمين لا لضربه وإيذائه صباح مساء كما تفعل رجال المخابرات فى عصرنا اليوم . بل جندهم جميعًا لخدمة هذا المشرك الوثنى الكافر .

« أحسنوا إساره » هذا هو الاتجاه الذى أمر به رسول الله ﷺ .

وحتى يتعلم المسلمون فقه هذا الإحسان مضى أمامه عليه الصلاة والسلام ليُحضر من بيوته التسع ما عنده من طعام . احتفاء بهذا الضيف فقال : «اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه » .

هذا هو الإجراء الأول مع أسير اليمامة . وكان الإجراء الثانى :

أمر بلقحته أن يغُدى عليه بها ويراح . فهو يشرب لبن ناقته فى الصباح والمساء .

وابتدأت جلسة التحقيق النبوية الكبرى بعد أن تناول هنيئًا طعامه وشرابه . والذى نعلمه أن التحقيق يبدأ مع الأسرى فى أيامنا المعاصرة بحفلة تعذيب يومية . تقتل إنسانية الإنسان وتحوله إلى حيوان . أو جماد . فيبدأ التحقيق معه وقد انهار كيانه . ليعترف بالجريمة التى يريدون .

فماذا جرى فى التحقيق بين سيد ولد آدم ، وسيد اليمامة ابن أثال .

يبتدئ المحقق عندنا أحيانا بضربتين من نعله على وجه المجرم . ويطلب منه أحيانًا أن يأكل حذاءه . حتى يعرف ما هى قيمته أمام هذا الزعيم المتغطرس . وهذه خلاصة التحقيق كاملة منتزعة من وثائق المحاكمة .

(« ماذا عندك يا ثمامة ؟ » .

ـ عندى يا محمد خير . إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تُنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت) وفى الوثيقة الأخرى « أسلم يا ثمامة » .

ـ إيهًا يا محمد إن تقتل تقتل ذا دم وإن ترد الفداء فسل ما شئت .

انتهت المقابلة . وانتهى التحقيق . ولم تكن الخطوة اللاحقة أمام الإصرار على الكفر . أن يرسل له جيشًا جرارًا من الدعاة ليغسل دماغه من هذا الكفر المتشبث به بتلك المحاضرات الفخمة . ولم ينتقل به بعد مرحلة الإغراء والإغواء إلى مرحلة التعذيب والابتلاء . حيث لم تجد وسائل الإكرام معه فليذقه من الطعم الآخر ، طعم الإيذاء والإهانة ، وتمريغ الكرامة بالوحل حتى يعرف كيف ينتزع منه الأسرار عن العدو قبل القضاء عليه وقتله . واستمرت عملية الإكرام ، فهو ضيف المدينة كلها ، والأوامر النبوية لم تتغير مع أن الأسير لم يسلم . « اجمعوا ما عندكم من طعام ،فابعثوا به إليه» وأمر بلقحته أن يغُدى عليه بها ويراح ، رغم سلبية النتائج وعدم إسلام ثمامة .

والطريف أن ثمامة نهم جدًا فى أكله . جتى ليتعجب المسلمون منه ، فلا يوفِّر شيئًا يصل إليه . وراح المسلمون يتحاورون بينهم . ترُى أيسلم ثمامة ، أم سيبذل من المال ما يغنى به المسلمين جميعًا وما هم بأمس الحاجة إليه كما فعل المسلمون فى بدر مع أسراهم . وغالوا فى الفداء ومر يومان وأكثر ولا جديد فى الساحة . وعلى رواية ابن هشام . فمكث ما شاء الله أن يمكث ثم جاء موعد التحقيق الثانى (حتى كان بعد الغد فقال : « ما عندك يا ثمامة ؟ » قال : ما قلت لك :

وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن تقتل تقتل ذا دم . وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت) .

ولم يختلف التحقيق الثانى فى نتائجه عن التحقيق الأول . فهى خيارات ثلاثة يطرحها ثمامة بين يدى رسول رب العالمين ؛ إطلاق سراحه . وتحذيره من قتله . والفداء بالمال .

أما الإسلام فلا إعلان له ، ولا وعد به .

وجاء موعد التحقيق الثالث (حتى كان من الغد . . .) لقد كانت المهلة الأولى يومين . والمهلة الثانية يومًا واحدًا (حتى كان من الغد .فقال : «ماذا عندك يا ثمامة ». فقال :

عندى ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر . وإن تقتل تقتل ذا دم . وإن كنت تريد المال فسله تعط منه ما شئت) .

وثمامة كذلك يسبر غور سيد الحجاز . وروحه بيده . وكرامته بيده . وهو لا يملك حتى إعلان قومه عن حاله إنه لا يدرى مصيره لكنه لا يعطى على إطلاق السراح إلا الشكر .

واستمع رسول الله ﷺ إلى رنين معدن ثمامة . وإلى جوهره المكنون فى أعماقه . ولم يختر عليه الصلاة والسلام الثأر من عدو لدود ، وقتل طاغية حقود . ولم يختر المال الذى يحتاج له المسلمون حتى لقُوتِهم.وأخذ بالخيار الأول:إن تُنعم ، تنعم على شاكر . وقبل إطلاق سراحه دون قيد ولا شرط وأعلن للمسلمين قراره الحاسم بعد كل الإحسان فى المعاملة « أطلقوا ثُمامة » .

وعجب المسلمون لذلك . لا قتل ولا فداء إنما المن فقط . وأُطلِق إسار ثمامة . ولبس ثيابه ، وركب ناقته ، وودع المسلمين وانصرف .

ولا عجب . فقد يحتاج له رسول الله ﷺ ذات يوم . وثمامة وقد فَقه نفسه ؛ شهم كريم ليس بلئيم ولا زنيم كما ظهر من خلال مواقفه . فليضع رسول الله ﷺ فى اليمامة صديقًا بين أعداء الداء . رسول الله ﷺ يدرك الأبعاد الأعمق بعد أن غاص فى أعماق ثمامة . وفق معدنه .وفقه مفتاح شخصه . من خلال الخيارات الثلاثة .

وحسب المسلمون أن الأمر انتهى إلى هذا الحد.وأن ثمامة المشرك الوثنى النجدى . قد يفيدهم ذات يوم وفى نفوس بعضهم لو قتله لهدَّم ركنا كافرًا من أركان اليمامة . وفى نفوس بعضهم وماذا لو طلب الفداء . وهو يعرض بقوله:وإن كنت تريد المال فسله تُعط ما شئت . لكنهم يعودون فيستغفرون الله . فأمر رسول الله ﷺ أبرك من أمرهم.

وما هى إلا برهة وجيزة حتى راعهم ثمامة عائدًا إليهم ليعلن للدنيا عظمة التربية السياسية النبوية التى نسفت كيانه السابق ، وأعادت صياغته من جديد . ويعلن للدنيا فن التعامل مع الأعداء (فلما أطلقوه خرج حتى أتى البقيع . فتطهر فأحسن طهوره ثم

أقبل نبايع النبى ﷺ (فانطلق إلى نخل قريب من المسجد . فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : (أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . .) .

ولا عجب فلا يملك هذا الخلق الأعظم إلا النبى الأعظم ، وتابع حديثه يقول :

(يا محمد ، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلىَّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلىَّ .

يا محمد ، والله ما كان من دين أبغض إلىَّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين كله إلىَّ .

يا محمد ، والله ما كان من بلد أبغض إلىَّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلى) .

ولتشهد الدنيا ما يقول خصومه عنه من جراء عظمة تعامله معهم . وفن فقهه لنفوسهم . وحيث انتقل من سيد اليمامة المشرك إلى الجندى المسلم الذى يأتمر بأمر رسول الله ﷺ فقال :

وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة . فماذا ترى ؟

فبشَّره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر .

قبل أن يغادر المدينة إلى العمرة تنافس المسلمون فى متابعة الإحسان لأخيهم الحبيب المسلم الذى انضم إليهم . وإذا بثمامة لم يتغير معنويًا فقط . لقد تغير ماديًا وحسيًا فى عظمة البناء الجديد :

(فلما أمسى جاؤوه بما كانوا يأتونه من الطعام . فلم ينل منه إلا قليلا . وباللقحة فلم يصب من جلابها إلا يسيرا . فعجب المسلمون من ذلك . فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك :

« مم تعجبون ؟ . . ») .

ألم يدخل فى معمل التحويل والانصهار الكيميائى الأول ، ثم أعيد تركيبه من جديد باختلاط الإسلام فى حشاشة عظمه « مم تعجبون ؟ أمن رجل أكل أول النهار بمعى كافر. وأكل آخر النهار بمعى مسلم ؟!

إن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء . وإن المسلم يأكل فى معى واحد » .

إن السيد العظيم تأبى عليه رجولته أن يخفى هويته . فهو ماضٍ إلى عقر دار

المشركين فى مكة .

(حتى إذا كان ببطن مكة لبى . فأخذته قريش . فقالوا : لقد اجترأت علينا) .

إنها محنة جديدة ، وإسار جديد . فما هى خيارات ثمامة الآن ! هل يعود إلى خياراته الثلاثة وضرب عنقه أهون عليهم من الإبقاء عليه .

(فلما قدموه ليضربوا عنقه ، قال قائل منهم : دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليمامة لطعامكم فخلوه) لم يدعوه إلا من أجل حنطة اليمامة ، وإلا لقطعوا عنقه عن جسده.

عادوا بعدها ليحاوروه . علهم يصرفونه عن دينه ، خاصة . وقد أحسنوا إليه وأطلقوا إساره دون فداء كما فعل محمد بن عبد الله ﷺ .

(قالوا : أصبوت يا ثمام ؟

قال السيد العظيم : لا . ولكنى اتبعت خير الدين دين محمد) .

ولكن الأهول والأعظم إعلانه عن قراره القادم وهو بين يدى قريش . وإعلانه عن طعام اليمامة :

(لا والله لا تصل إليكم حبة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ) .

وغضبت قريش وزمجرت . فليعيدوه إلى الإسار . وليضربوا عنقه . هذا هو صوت الشارع القرشى أما عقلاؤهم وعلماؤهم . فحين سمعوا أن الأمر بإذن محمد . هدأ روعهم ـ ولو كان محمد عدوهم ـ فهم فى هدنة اليوم معه فلا خوف، لا خوف ، لا خوف .

ومضى ثمامة من مكة إلى اليمامة. وأعلم نبيه العظيم أن الميرة منقطعة عن مكة . ولا حبة بر واحدة حتى يأذن رسول الله ﷺ بذلك .

وانقطعت الميرة ، وهاج الناس فى مكة ، وجاعوا ، وراحوا يصبون جام غضبهم على زعمائهم . فاليمامة ريف الحجاز . وهى مصدر الطعام الرئيسى . وراحوا يتهددون هذه القيادات التى أبقت على ثمامة وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب .

ومضى أبو سفيان أمام الأزمة العنيفة يتشاور مع قيادات مكة حول الموقف المناسب فليس لهم قدرة على حرب اليمامة . لقد وصل تحدى أبى سفيان الأول من ذلك الشاعر الحنفى الذى افتخر بتلبية ثمامة رغم أنف المشركين يوم مضى معتمرًا بشعائر الإسلام

لا بشعائر الشرك : وكانت صيغة التحدى المعنوى :

ومنا الذى لبى بمكة محرمًا برغم أبى سفيان فى الأشهر الحرم

ثم كان التحدى المادى الأصعب . فى منع الميرة عن مكة .

وشاءت إرادة الله عز وجل أن تكشف لكل الأعداء من هو رسول الرحمة ، من هو رسول الهداية الربانية ، وأن تصل هذه المعانى إلى صبيان قريش الذين يتضاغون من الجوع ، وإلى نسائها وإلى جبابرتها ، هؤلاء العقلاء الحلماء الطغاة كتبوا إلى رسول الله ﷺ :

وإنك تأمر بصلة الرحم ، وإنك قد قطعت أرحامنا . وقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع .

وهل كل الجواب : موتوا بأجمعكم بالحصار الاقتصادى بعد الحرب العسكرية ، أو تدخلوا فى الإسلام ؟ أبدًا لم يكن ذلك . إنما كان بلسمًا شافيًا ، ورحمة مهداة حتى للمشركين رجالاً ونساءً وشيبًا ورُضَّعًا .

وهل كان عليه الصلاة والسلام إلا النور الذى يقتل الظلام فى النفوس . وكانت رسالة مهداة إلى ثمامة . تأمره أن ينهى الحصار ويرسل الميرة (وكتب إليه أن يخلى بينهم وبين الحمل) (١) لمن ؟ لقريش ! ورسالة إلى قلوب الألوف من قريش .

ها هو يُحْيِيكم من الفناء بالجوع . وأنتم تحاربونه . هل هذا جزاء إحسان محمد لكم ؟!

وحملت هذه الرسالة كشطًا لقناطير من الحقد المدفون فى قلوب قريش . لتبدأ فى الدفء من جديد والطبخ على نار هادئه ليحل بها الإيمان محل الشرك (وطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ) .

وفد حنيفة فى السنة العاشرة للهجرة :

بعد موت هوذة بن على زعيم حنيفة وملكها . وبعد إسلام ثمامة رضي الله عنه الذى بدأ جهاده فى قومه يدعوهم إلى الإسلام . ولا يلقى منهم إلا كما لقى رسول الله ﷺ من قومه .

(١) انظر : مسلم ح (١٧٦٤) والبخارى (ح ٤٣٧٢) ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ٢١٥ ، ٢١٦ .

وبعد فتح مكة . وبعد الانتصارات على هوازن وغزوة تبوك ، نزل بحنيفه ما نزل في العرب . حيث مضى الزعماء في القبائل كلها تعلن ولاءها للإسلام ولرسول الإسلام ﷺ .

اجتمعت قيادات بنى حنيفة ، وقررت أن تبعث وفدها إلى يثرب يعلن الإسلام أو الاستسلام لمحمد بن عبد الله . فلا طاقة لأحد به .

وسنعرض روايتى الصحيحين ، ورواية ابن إسحاق عن هذا الوفد .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم مسيلمة الكذاب على عهد النبى ﷺ المدينة فجعل يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته . فقدمها فى بشر كثير من قومه . فأقبل إليه النبى ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفى يد النبى ﷺ قطعة جريدة حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال :

« لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها . ولن أتعدى أمر الله فيك . ولئن أدبرت ليعقرنك الله . وإنى لأراك الذى أريت فيك ما أريت . وهذا ثابت يجيبك عنى ». ثم انصرف عنه .

فقال ابن عباس فسألت عن قول النبى ﷺ : « وإنى لأراك الذى أريت فيه ما أريت » فأخبرنى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال :

« بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فأهمنى شأنهما ، فأوحى إلىَّ فى المنام أن انفخهما . فنفختهما فطارا . فأولتهما كذابيْن يخرجان من بعدى ، فكان أحدهما العنسى صاحب صنعاء . والآخر مسيلمة صاحب اليمامة » (١) .

أما رواية ابن إسحاق ففيها اختلاف وإضافات عن هذه الرواية . وهذا نصها :

(وقدم على رسول الله ﷺ وفد بنى حنيفة فيهم مسيلمة بن حبيب الحنفى الكذاب فكان منزلهم فى دار بنت الحارث امرأة من الأنصار ثم من بنى النجار ، فحدثنى بعض علمائنا من أهل المدينة أن بنى حنيفة أتت به رسول الله ﷺ تستره بالثياب . ورسول الله ﷺ جالس فى أصحابه ، ومعه عسيب من سعف النخل ، فى رأسه خوصات . فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وهـم يسترونه بالثياب كلَّمه وسأله فقال له رسول الله ﷺ :

(١) البخارى ١٢ / ٤٢٣ (ح ٧٠٣٧) ، ومسلم ٣ / ٢٢٧ ، ٢٢٧٤ / ص ٩٣٤ .

« لو سألتنى هذا العسيب ما أعطيتكه »

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى شيخ من بنى حنيفة من أهل اليمامة أن حديثه كان على غير هذا. زعم أن وفد بنى حنيفة أتوا رسول الله ﷺ وخلفوا مسيلمة فى رحالهم. فلما أسلموا ذكروا مكانه . فقالوا : يا رسول الله إنا قد خلفنا صاحبًا لنا فى رحالنا وفى ركابنا يحفظها لنا . قال : فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم وقال : « أما إنه ليس بشركم مكانًا » ؛ أى : لحفظه ضيعة أصحابه وذاك الذى يريد رسول الله ﷺ .

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ . وجاؤوه بما أعطاه ، فلما انتهى إلى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وتكذب لهم ، وقال : إنى أشركت فى الأمر معه ، وقال لوفده الذين كانوا معه : ألم يقل لكم حين ذكرتمونى له . أما إنه ليس بشركم مكانا ماذاك إلا لما كان يعلم أنى قد أشركت فى الأمر معه ثم جعل يسجع لهم الأساجيع ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن (ولقد أنعم الله على الحبلى أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشى) وأحل لهم الخمر والزنا ووضع عنهم الصلاة ومع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ بأنه نبى . فأصفقت معه بنو حنيفة . فالله أعلم أى ذلك كان) [١] .

وتأتى رواية ابن سعد فى الطبقات لتكتمل صورة الوفد من خلال هذه الروايات :

(قالوا : قدم وفد بنى حنيفة على رسول الله ﷺ بضعة عشر رجلاً فيهم رحال بن عنفوة ، وسلمى بن حنظلة السحيمى ، وطلق بن على بن قيس ، وحُمران بن جابر من بنى شمر ، وعلى بن سنان ، والأقعس بن مسلمة وزيد بن عبد عمرو ، ومسيلمة ابن حبيب . وعلى الوفد سلمى بن حنظلة . فأنزلوا دار رملة بنت الحارث وأجريت عليهم ضيافة. فكانوا يؤتون بغداء وعشاء مرة خبزًا ولحمًا ، ومرة خبزًا ولبنا ، ومرة خبزًا وسمنًا ومرة تمرًا نثر لهم . فأتوا رسول الله ﷺ فى المسجد فسلموا عليه وشهدوا شهادة الحق ، وخلَّفوا مسيلمة فى رحالهم وأقاموا أيامًا يختلفون إلى رسول الله ﷺ وكان رحال بن عنفوة يتعلم القرآن من أبى بن كعب فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم أمر لهم رسول الله ﷺ بجوائزهم خمس أواق لكل رجل . فقالوا : يا رسول الله إننا خلفنا رجلاً لنا فى رحالنا يبصرها لنا ، وفى ركابنا يحفظها علينا فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به لأصحابه وقال : ليس بشركم مكانًا لحفظه ركابكم ورحالكم . فقيل ذلك لمسيلمة . فقال :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٧٠ ، ١٧١ .

عرف أن الأمر إلىَّ من بعده ، ورجعوا إلى اليمامة وأعطاهم رسول الله ﷺ إداوة من ماء فيها فضل طهور . فقال : إذا قدمتم بلدكم فاكسروا بيعتكم . وانضحوا مكانها بهذا الماء واتخذوا مكانها مسجداً . ففعلوا وصارت الإداوة عند الأقعس بن مسلمة . وصار المؤذن طلق بن على . فأذَّن فسمعه راهب البيعة فقال : كلمة حق ، ودعوة حق ! وهرب . فكان آخر العهد به .

وادعى مسيلمة ـ لعنه الله ـ النبوة، وشهد له الرحال بن عنفوة أن رسول الله ﷺ أشركه فى الأمر فافتتن به الناس) [1] .

* * *

لا بد من الوقوف قليلاً عند شخصية مسيلمة . فعندما ذكر سادة بنى حنيفة لم يكن أحدهم ، وهما هوذة بن على ، وثُمامة بن أثال . ولعل شخصية هوذة ومواقفها كانت هى القدوة المثلى لمسيلمة . وذلك فى استعمال الدهاء والمكر فى كل خطوة يخطوها مع قومه . ومع عدوه اللدود محمد بن عبد الله .

ومن أغرب الأخبار عن مسيلمة ماروته كتب السيرة من قول زعماء المشركين لرسول الله ﷺ حين تحاوروا معه :

(. . إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة اسمه الرحمن . وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا) [2] . وفى رواية : وإنا والله لن نؤمن بالرحمن أبدا .

قال ابن إسحاق : وأنزل عليه فى قولهم : إنا قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن . ولن نؤمن به أبدا ﴿**كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)**﴾ [الرعد] .

ويربط السهيلى فى الروض الأنف بين هذين القولين وبين مسيلمة فيقول: كان مسيلمة الكذاب بن حبيب الحنفى ، ثم أحد بنى الدول قد تسمى بالرحمن فى الجاهلية، وكان من المعمرين .

ذكر وثيمة بن موسى أن مسيلمة تسمى بالرحمن قبل أن يولد عبد الله أبو رسول الله ﷺ .

وإذا تركنا رواية وثيمة التى جعلت دعاء مسيلمة بأنه الرحمن قبل ولادة أبى رسول الله ﷺ فى المحتمل أنه ادعاها فى عهد النبى ﷺ وأن قريشا عنته حين ذكرت ذلك فهو باليمامة ولم يذكر عن غيره هذا الأمر .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٣١٦ ، ٣١٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/١/٢٣٧ .

وقد طلب هوذة بن على ملك اليمامة أن يكون شريكاً لرسول الله ﷺ فى سلطانه فكان الجواب : « لو سألنى سيابة من الأرض ما فعلت باد وباد ما فى يديه فلما انصرف من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره أنه مات .

وسرعان ما تسلق مسيلمة مكانه ، ووضع خطته فى متابعة خطى هوذة لكن بشكل غير مباشر وبتخطيط محكم يتفادى أخطاء هوذة قبله .

فعندما تحرك الوفد الكبير بضعة عشر رجلاً إلى المدينة كان فى هذا الوفد ولم يكن رئيسه كما ذكر ابن سعد إنما كان رئيسه سلمى بن حنظلة .

وروايات الصحيحين وابن إسحاق و ابن سعد تؤكد لقاءه برسول الله ﷺ وكيف . أنه جاء يتهادى بين الناس لتعظيم نفسه . وأنه طلب شركة رسول الله ﷺ فى النبوة والملك ، وأن رسول الله ﷺ طرده ، وحقّر أمره . كما فى الصحيحين : « لو سألتنى هذه القطعة (قطعة من جريد نخل) ما أعطيتكها ، ولن أتعدى أمر الله فيك .

ولئن أدبرت ليعقرنك الله . وإنى لأراك الذى أريت فيه ما أريت وهذا ثابت بن قيس يجيبك » .

وحيث لم يسبق لرسول الله ﷺ أمر من الله عز وجل بقتله . فهو على شركه . لم يؤمن بعد فيعاقب على طلب هذا . ورسول الله يرجح أنه المتنبئ الكذاب بعده لكنه لا يتألى على الله عز وجل فيه .

وانسحب مسيلمة من الساحة . وانخذل بعيداً عن المشاركة مع الوفد فى التلقى عن رسول الله ﷺ . وحين وُزِّعت جائزة الوفد ، بعثت له بصفته أحدهم . ونرجح أنه بايع رسول الله ﷺ على الإسلام لكى ينال الأمان بهذه البيعة . وترك الحديث فى أمره حتى عاد إلى اليمامة مع قومه واعتمد على تفسير خبيث لقول النبى ﷺ لقومه : « أما إنه ليس بشركم مكانًا لحفظه ركابكم ورحالكم . ليبنى عليها سهمه الأول فى الطعن فى هذا الدين فقال :

عرف أن لى الأمر من بعده .

واختلفت مستويات الوفد فلُبِّس على بعضهم ما قال وشهد له بالرسالة . حيث إنه لم ينكر رسالة النبى ﷺ . وراح يسجع بسجع الكهان موهما قومه أنه الموحى إليه .

ووقع ما تفرس فيه النبى ﷺ . فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة . . ادعى النبوة وجعل يسجع السجعات . وأحل لقومه الخمر والزنا وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبى وافتتن به قومه فتبعوه وأصفقوا معه حتى تفاقم أمره فكان يقال له رحمان

اليمامة لعظم قدره فيهم) [1] .

ويحدثنا أبو رجاء العطاردى عن عقيلة القوم الذين اتبعوا مسيلمة . والذين كانوا موغلين فى الأعرابية قائلاً :

لما بُعث النبى ﷺ فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب فلحقنا بالنار . وكنا نعبد الحجر فى الجاهلية فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه ألقينا ذلك وأخذناه . فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ، ثم طفنا به . .) .

وحتى يمكن مسيلمة الأمر لنفسه بعث برسولين إلى المدينة ومعها رسالة منه لرسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : وقد كان مسيلمة بن حبيب قد كتب إلى رسول الله ﷺ :

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ؛ سلام عليك ، أما بعد فإنى قد أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض . ولكن قريشًا قوم يعتدون .

فقدم عليه رسولان له بهذا الكتاب .

قال ابن إسحاق :فحدثنى شيخ من أشجع عن سلمة بن نعيم بن مسعود الأشجعى عن ابن نعيم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لهما حين قرأ كِتابه . « فما تقولان أنتما ؟».

قالا : نقول كما قال ، فقال :

« أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » . ثم كتب إلى مسيلمة :

«من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » . وذلك فى آخر سنة عشر [2] .

لقد كان أشد خبرين على رسول الله ﷺ . خبر الأسود العنسى متنبئ اليمن وصنعاء. وخبر متنبئ اليمامة . فهما مركزان مهمان من مراكز العواصم العربية الست . وذلك بعد أن دانت مكة والمدينة والطائف والبحرين لرسول الله ﷺ . بينما تزلزت صنعاء واليمامة بهذين الدجالين المتنبئين . وبادر رسول الله ﷺ ببعث رسله إلى اليمامة فى محاولة لتطويق هذه الفتنة . لقد كان الرسول الأول هو حبيب بن زيد ، ولد أم عمارة ،ندع وصف مالاقاه من مسيلمة الذى لم يرع فيه إلا ولا ذمة . ولم يرع أنه رسول لا يقتل .

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى ص٥٠٨ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام٢ / ٤ / ١٨٨ .

يقول ابن إسحاق : وابنها حبيب (أى أم عمارة) الذى أخذه مسيلمة الكذاب الحنفى صاحب اليمامة فجعل يقول له : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أنى رسول الله فيقول : لا أسمع . فجعل يقطعه عضواً عضواً حتى مات فى يده ، لا يزيده على ذلك إذا ذُكِر رسول الله ﷺ آمن به وصلى عليه وإذا ذكر له مسيلمة قال لا أسمع . فخرجت إلى اليمامة فباشرت الحرب بنفسها حتى قتل الله مسيلمة ورجعت وبها اثنا عشر جرحًا ما بين طعنة وضربة) (١) .

أما الرسول الثانى فكان الرحال بن عنفوة الذى كان عضواً فى وفد بنى حنيفة . وأقبل على القرآن يتعلمه من أبى بن كعب وعلى الفقه فى دين الله . ولعله ترك الوفد وبقى يتابع تلقيه من دين الله فى المدينة وحين أعلن مسيلمة تنبؤه ، ووصلت أنباؤه إلى المدينة كان الرحال بن عنفوة هو خير رسول إلى بنى حنيفة يعظ مسيلمة لعله يرعوى ويتوب عن ردته . وإن لم يتم ذلك فتخذيل الناس عنه . لكن الرحال كان يبيت شراً آخر فى ذاته . ولا بيد أن يكون جزءًا من الخطة بالاتفاق مع مسيلمة . وتختلف الروايات هل تم بعثه من رسول الله ﷺ أو من أبى بكر . وعلى الأرجح أنه بُعث من الخليفة الصديق .

فقد روى الطبرى عن أثال الحنفى بسنده عن سيف قال : (كان مسيلمة يصانع الناس ولا يبالى أن يطلع الناس منه على قبيح . وكان معه الرحال بن عنفوة . وكان قد هاجر إلى النبى ﷺ وقرأ القرآن . وفقه فى الدين فبعثه معلمًا لأهل اليمامة يشغب على مسيلمة ، وليشد من أزر المسلمين فكان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة . شهد له أنه سمع محمداً ﷺ يقول أنه قد أشرك معه . فصدقوه واستجابوا له ، وأمروه بمكاتبة النبى ﷺ فى ذلك . وإن هو لم يقبل أن يعينوه عليه . وكان الرحال بن عنفوه لا يقول شيئًا إلا تبعه مسيلمة) (٢) .

وفى رواية أخرى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : (كان أبو بكر بعث إلى الرحال فأوصاه بوصيته ، ثم بعثه إلى اليمامة وهو يرى أنه على الصدق .

قال أبو هريرة : جلست مع النبى ﷺ فى رهط منهم الرحال بن عنفوة فقال : « إن فيكم لرجلاً ضرسه فى النار أعظم من أحد . فهلك القوم وبقيت أنا والرحال فكنت متخوفًا حتى خرج الرحَّال مع مسيلمة فشهد له بالنبوة . فكانت فتنة الرَّحال أعظم من فتنة مسيلمة ») (٣) . وهكذا عظم شأن مسيلمة وتابعته بنو حنيفة فى معظمها على

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢ / ٨٣ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ١/ ٢ / ٢٧٩ .
(٣) المصدر السابق ١/ ٢ / ٢٧٨ وهو نص حديث .

الاعتراف بنبوته .

لقد كان رسول الله ﷺ يدرك أن نصر الله قادم . فمن خلال رؤياه التى تأتى كفلق الصبح . كما روى لنا ابن عباس رضي الله عنهما قال :

(سألت عن قول النبى ﷺ : إنى لأراك الذى أريت فيه ما أريت فأخبرنى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« بينا أنا نائم رأيت فى يدىّ سوارين من ذهب ، فأهمنى شأنهما ، فأوحى إلى فى المنام أن انفخهما فطارا . فأولتهما كذابين يخرجان من بعدى ؛ أحدهما العنسى صاحب صنعاء والآخر مسيلمة صاحب اليمامة » (١) .

وهذا أصح من حديث ابن إسحاق المتقدم) (٢) .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« بينا أنا نائم أُتيت بخزائن الأرض . فوضع فى كفى سواران من ذهب . فكبُروا علىّ فأوحِى إلى أن انفخهما . فنفختهما فذهبا ، فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء ، وصاحب اليمامة » (٣) .

وماذا عن ثمامة :

لقد كان ثمامة الداعية الحق لله عز وجل وبقى يمثل التيار الإسلامى الحق فى بنى حنيفة . ووراءه ما نزل بقومه الذين انجرفوا خلف مسيلمة . ولا عجب فعند مسيلمة حل الخمر والزنا وهو من أعظم هوى النفوس عندهم ويأتى قومه إليه يراودونه عن نفسه أن ينضم إليهم وتتجلى شخصية الرسول ﷺ أمام ناظريه وقد وهبه الحياة مرتين الأولى : حين عفا عنه من القتل . خصوصًا . وقد كان يريد قتله . وأحياه بالإسلام حيث لم يمت مشركًا كافرا فيجيب :

أهـم بتـرك الأمـر ثـم يردنـى ... إلـى القـول إنعـام النبـى محمـد

شكرت له فكى من الأسر بعدما ... رأيـت خيـالاً مـن حسـام مهنـد

لقد يئسوا منه وهو لم ييأس منهم . فهو يدعوهم إلى الله عز وجل .

قال ابن إسحاق : ارتد أهل اليمامة عن الإسلام غير ثمامة بن أثال ومن اتبعه من قومه فكان مقيمًا باليمامة ينهاهم عن اتباع مسيلمة وتصديقه ويقول :

---

(١) البخارى ١٢/٤٢٣ (ح ٧٠٣٧) ، ومسلم ٣ / ٢٢٧ ، ٢٢٧٤ / ص ٩٣٤ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤/ ١٧٠ ، ١٧١ .

(إياكم وأمرًا مظلمًا لا نور فيه)

إن نور الإيمان فى قلبه ليجلى الزمن أمامه ، ويجلى مستقبل قومه بهذا الخط الفاجر الغادر فيتابع قائلاً :

(وإنه لشقاء كتبه الله عز وجل على من أخذ به منكم . وبلاء على من لم يأخذ به منكم) .

وبعث إلى رسول الله ﷺ سرًا رسولا يسأله ماذا يفعل أمام طغيان قومه .

(فبعث رسول الله ﷺ فرات بن حيان إلى ثمامة بن أثال فى قتال مسيلمة وقتله) وراح يصل ليله بنهاره لعله يعبئ من قومه قوة قادرة على مواجهة مسيلمة . ويضع كل طاقاته فى تحذير قومه من الردة فيقول :

دعانا إلـى ترك الديانة والهدى　　　مسيلمة الكذاب إذ جاء يشجع
فيـــــا عجبا من معشر قد　　　له فى سبيل الغِى والغِى أشنع

فى أبيات كثيرة ذكرها ابن إسحاق فى الردة .

وفى البعد عن دارٍ وقد ضل أهلها　　　هدى واجتماع كل ذلك مهيع

ووصلت أنباء وفاة رسول الله ﷺ فازدادت جرأة الفجرة الكفرة . وتزعزع بعض من كان معه وهو ثابت كالطود مع القلة المؤمنة . غير أن إمكانات المواجهة والقتال لمسيلمة ليست متوفرة . ولا تكافؤ البتة بين الفريقين . لقد أصبحوا يمثلون فى قومهم صورة القلة المستضعفة فى مكة . والتى لا تملك إمكانيات الحرب والمواجهة . لكنها مصرة على التمايز عن المشركين . والانفصال عنهم فى معسكر مسلم . والأخبار تترامى إليه عن انتصارات جيش المسلمين على المرتدين حولهم . وأن الجيوش قادمة إليهم . فبعث هذا الأمل فى نفوسهم وأصبحوا يترقبون ساعة الخلاص والمواجهة .

ووصلت إليه آخر الأنباء عن طريق الاتصال السرى بينه وبين القيادات الإسلامية فهذا العلاء بن الحضرمى الذى قدم بمدد ليواجه ردة بنى عبد القيس مع المنذر بن النعمان ابن المنذر .

ورأى أنه قد آن الأوان لاتخاذ موقف حاسم .

(فلما عصوه ورأى أنهم قد أصفقوا على اتباع مسيلمة عزم على مفارقتهم .

ومر العلاء بن الحضرمى ومن معه على جانب اليمامة) .

لم تكن عينه تعرف النوم وهو يتتبع الأحداث. وارتدت روحه إليه حين رأى طلائع

الجيش الإسلامى تعسكر قريبًا من اليمامة . صحيح أنها ليست مكلفة بمواجهة قومه . لكن لابد من وصل الخيوط مع المسلمين والانضمام إلى معسكرهم .

(فلما بلغه ذلك قال لأصحابه من المسلمين :

إنى والله لا أرى أن أقيم مع هؤلاء مع ما قد أحدثوا . وإن الله تعالى لضاربهم ببلية لا يقومون منها ولا يقعدون) وأدركت الفئة المسلمة أن الهجرة إلى الله ورسوله قد أزفت . ولا يجوز البقاء بين ظهرانى المشركين وقد أحدثوا ما أحدثوا . وإلا سيصيبهم البلاء كما أصاب قومهم .وكان من فقهه ﷺ ما أعلنه عن الخطوات التنفيذية للهجرة. بعد أن وصل إليه الخبر عن مكان وجود الجيش الإسلامى .

(قال : وما نرى أن نتخلف عن هؤلاء وهم مسلمون . وقد عرفنا الذى يريدون).

إنهم يريدون الجهاد . وإنها الفرصة المواتية لجهاد الكفار بالسيف . مع جيش إسلامى عظيم . وها قد حانت ساعته . فينتقل من مستضعف مقهور مضطهد إلى مجاهد يعيشُ تحت ظُلَّة راية لا إله إلا الله فختم حديثه بقوله :

(وما نرى أن نتخلف عن هؤلاء وهم مسلمون وقد عرفنا الذى يريدون ، وقد مروا قريبًا ولا أرى إلا الخروج إليهم . فمن أراد الخروج منكم فليخرج) .

وحيث إنه أمير المسلمين هناك فهو المسؤول عن تنفيذ عملية الهجرة . لكنه لم يكرههم على ذلك .

(فخرج ممدًا للعلاء بن الحضرمى ومعه أصحابه من المسلمين . فكان ذلك قد فتّ فى أعضاد عدوهم (من مرتدة بنى عبد القيس) حين بلغهم مدد بنى حنيفة) (١) .

وأتيح لهذه الكوكبة المؤمنة أن تقاتل قومها مع الجيش المؤمن حتى أنزل الله نصره عليهم فيما بعد .

---

(١) كل هذه النصوص مأخوذة من : الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ١ /٢٠٣ ، والاستيعاب فى معرفة الأصحاب على هامش الإصابة ١ /٢٠٣ ـ ٢٠٧ .

ثالثًا

بنو بكر بن وائل

بنو بكر بن وائل

لقد كان اللقاء الأول بين بنى بكر بن وائل ورسول الله ﷺ فى منى حين كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب .

فقد روى أبو نعيم عن خالد بن سعيد عن أبيه عن جده أن بكر بن وائل قدم مكة فى الحج فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: إيتهم واعرض عليهم . فأتاهم فعرض عليهم . فقالوا : حتى يجىء شيخنا حارثة . فلما جاء قال :

إن بيننا وبين الفرس حربًا فإذا فرغنا ـ بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول :

حرب الفرس : ذى قار

فقد كانت نُذُرها وعلائِمُها ودوافعها واضحة لكل ذى عينين فمن الذى يتحدى كسرى بن هرمز ملك ملوكهم . هذا هانىء بن مسعود هو الذى يتحدى ملك الفرس ويرفض تسليمه أمانة النعمان بن المنذر التى أودعها عنده ، وجرى بينهما الحوار التالى :

(ثم أقبل حتى نزل فى ذى قار فى بنى شيبان سرًا فلقى هانئ بن مسعود الشيبانى، وكان سيدًا منيعًا فاستجار به فأجاره وقال له : قد لزمنى مناعتك ، وأنا مانعك مما أمنع منه نفسى وأهلى وولدى منه . . .) ثم أشار عليه بالوفود على كسرى فإما أن يقُتل وإما أن يعفو عنه . فكان أن قتل وبقيت أمانته عند هانئ فأرسل إليه كسرى إياس بن قبيصة الطائى ليسلمه إياها فقال :

إن يكن الأمر كما قيل . فأنا أحد رجلين ؛ إما رجل استودع أمانة فهو حقيق على أن يردها على من أودعه إياها . ولن يسلم الحر أمانة ، أو رجل مكذوب عليه ، فليس ينبغى أن تأخذه بقول عدوٍ حاسد . فلما منعها هانىء غضب كسرى . ثم أرسل إلى واليه إياس بن قبيصة واستشاره فى الغارة على بكر فقال له : ترسل حلبة من العجم فيها بعض القبائل التى تليه فيوقعون بهم وقعة الدهر ويأتونك بطلبتك. فقال له كسرى : أنت رجل من العرب وبكر بن وائل أخوالك فأنت تتعصب لهم ولا تألوهم نصحًا .

(ولما بلغ كسرى نزول بكر بن وائل ذى قار عقد للنعمان بن زرعة على تغلب والنمر وعقد لخالد بن يزيد البهرانى على قضاعة وإياد . وعقد لإياس بن قبيصة على

العرب ، ومعه كتيبتاه الشهباء والدوس فكانت العرب ثلاثة آلاف . وعقد للهامرز على ألف من الأساورة . وعقد لخنابزين على ألف) .

ووقفة واحدة عند الجيشين نرى أنها حرب ـ عربية عربية ـ أكثر منها عربية فارسية . وربيعة موزعة بين جيش كسرى وجيش بكر بن وائل . ومن أجل هذا حاول القادة العرب الموالون لكسرى إقناع بكر بن وائل أن تستسلم وتعطى لكسرى ما يريد فلا قبل لها به . ومثَّل هذه القناعة القائد العربى الأول على التغلب والنمر ـ فرعى ربيعة ـ حيث قال لهانئ بن مسعود سيد بكر بن وائل :

إنكم أخوالى وأحد طرفى ، وإن الرائد لا يكذب أهله . وقد أتاكم ما لا قبل لكم به من أحرار فارس وفرسان العرب . والكتيبتان الشهباء والدوس، وإن فى الشر خياراً ، ولأن يفتدى بعضكم بعضًا خيراً من أن تصطلموا . وانظروا هذه الحلقة فادفعوها (أى أمانة النعمان وتسليمها لكسرى) وادفعوا رهنًا من أبنائكم بما أحدث سفهاؤكم . فقال له القوم : ننظر فى أمرنا) .

وبكر بن وائل هى أصل ربيعة . فشيبان وتغلب والنمر كلهم وحنيفة كلهم من ربيعة نسبًا أو من بكر ولداً فراح هانئ بن قيس يستنجد ببكر ، وأهم فروعها شيبان وحنيفة . أما حنيفة فتخلفت كلها ولم يحضر منهم أحد . وأما شيبان فجاءت كلها . منضمة إلى بكر بن وائل . لأن بكراً أصلها . فشيبان هم بنو شيبان بن ثعلبة بن عكابة ابن صعب بن على بن بكر بن وائل . وتغلب بن وائل أخو بكر بن وائل . والنمر بن قاسط أعمامهم فبكر هو بكر بن وائل بن قاسط . ووائل أخو النمر بن قاسط .

والعرب ثلاثة آلاف والفرس ألفان وهم جيش كسرى .

وبعث هانئ بن قيس إلى من يليه من بكر (ثم بعثوا إلى من يليهم من بكر . وبرزوا ببطحاء ذى قار بين الجلهتين وأخذوا يرتقبون من يأتى من قبائل بكر لا ترفع جماعة إلا قالوا سيدنا فيها) وكان أهم المنضمين بنو عجل بن لجيم بن صعب بن على ابن بكر بن وائل . (... ثم رفعت لهم أخرى أكبر مما كان يجىء فقالوا لقد جاء سيدنا . وإذا رجل أصلع الشعر ، عظيم البطن ، مشرب حمرة ، هو حنظلة بن ثعلبة ابن سيار العجلى . فقالوا : يا أبا معدان قد طال انتظارنا . وقد كرهنا أن نقطع أمراً دونك . وهذا ابن اختك قد جاءنا (النعمان بن زرعة قائد تغلب والنمر) والرائد لا يكذب أهله ،هذا هانئ بن قبيصة يهم بركوب الفلاة ويقول لنا : لا طاقة لكم بجموع الملك) .

وهانئ بن قبيصة أحد سادات بنى شيبان الذين التقوا مع رسول الله ﷺ فى مكة.
وسنقف هنا مليًا . لنشهد هذا اللقاء مع شيبان فى مكة . بعد اللقاء الذى تم فيها مع بكر بن وائل . ورأينا بكر مندفعة للحرب . فاعتذرت بها . وهذه شيبان تبرز صفحتها أمامنا من هذا اللقاء . ونعود بعدها ثانية لذى قار .

رابعًا

بنو شيبان

وفد بنى شيبان

لابد قبل الحديث عن وفد بنى شيبان أن نعود إليهم قبل عشر سنين أو تزيد حين التقى وفدهم مع رسول الله ﷺ فى بطاح مكة وكاد أن يسلم .

فقد روى الحاكم والبيهقى وأبو نعيم وقاسم بن ثابت عن على رضي الله عنه قال :

(لما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب . . .

ثم انتهينا إلى مجلس عليه السكينة والوقار. فتقدم أبو بكر فسلَّم فقال: من القوم ؟ قالوا : من شيبان بن ثعلبة . فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال : بأبى أنت وأمى ، هؤلاء غرر الناس وليس بعد هؤلاء عز فى قومهم . وفيهم مفروق بن عمرو ، وهانئ بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك . وكان أقرب القوم إلى أبى بكر مفروق بن عمرو ، وكان قد غلبهم لسانًا وجمالاً وله غديرتان تسقطان على تريبته) .

ولننظر إلى هذا الحوار المباشر بين وزير رسول الله ﷺ وقادة شيبان .

(فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ فقال : إنا لنزيد عن الألف . ولن تغلب ألف عن قلة ، فقال أبو بكر : فيكف المنعة فيكم ؟ فقال مفروق :

إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى ، وأشد ما نكون لقاء حين نغضب . وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح . والنصر من عند الله ، يديلنا مرة ويديل علينا أخرى) .

وهذا هو بيت القصيد فى الحديث كله . فرسول الله ﷺ يبحث عن المنعة وعن الحماية فى حى من أحياء العرب ليبلغ رسالة ربه .

وأدرك مفروق بن عمرو أن هذا الحديث ذو صلة بما تناهى إلى أسماعهم عن محمد ﷺ وقومه ، فأردف كلامه قائلاً :

(لعلك أخو قريش ؟

فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله فها هو هذا .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك .

ثم التفت (أى الصديق) إلى رسول الله ﷺ فجلس ، وقام أبو بكر يظله) لقد انتهت مهمة أبى بكر رضي الله عنه ، وهيأ الجو لحديث سيد ولد آدم ، والتقى مع قبيلة من أمنع قبائل العرب .

(فقال ﷺ : « أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأنى رسول الله ، وأن تؤوونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به ، فإن قريشًا قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد ») .

فقد قدَّم رسول الله ﷺ الدين الذى يدعو إليه . والموقف الذى يريده من القوم . وأسباب تخلى قومه عنه وعن حمايته . بأوجز العبارة ، وأبلغ البيان .

لكن مفروق بن عمرو يريد جلاء أوضح بهذا الدين الجديد .

(قال له : وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش . فو الله ما سمعت كلامًا أحسن من هذا .

فتلا رسول الله ﷺ : ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)** ﴾ [الأنعام] .

قال مفروق :وإلام تدعو يا أخا قريش . فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه . فتلا رسول الله ﷺ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)** ﴾ [النحل] .

فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق،ومحاسن الأعمال ، ولقد أفِك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك . . .) .

ولو كان الأمر أمر مفروق وحده لحسن أمره وأعلن إسلامه على من يقودهم من قومه . ولكن له شركاء فى القيادة لا يستطيع أن يقطع أمرًا دونهم . فقد سحره كلام

محمد بن عبد الله قبل أن يتلو القرآن . وشهد أن القرآن كلام الله . ولو كان من كلام أهل الأرض لعرفه .

(وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام هانئ بن قبيصة فقال : وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا ، فقال هانئ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدَّقت قولك . وإنى أرى أن تَرْكَنا ديننا واتّبَاعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول وليس له آخر لزلة فى الرأى ، وقلة نظر فى العاقبة . وإن الزلة مع العجلة وإنا نكره أن نعقد على قومنا من وراءنا عقداً . ولكن نرجع ونرجع وننظر وننظر) .

ولم تكن شيبان هى المدخرة لنصر دين الله فى بداية الطريق . فقد كان الأوس والخزرج هم المدخرون عند الله عز وجل.

ولقد مضى إليهم رسول الله ﷺ مباشرة بعد مجلس بنى شيبان . ودخلوا فى دين الله. لكن الله تعالى ادخر شيبان للجولة الثانية مع الصديق أبى بكر مع المثنى بن حارثة الشيبانى الذى رشحه هانئ بن قبيصة لمتابعة الحديث .

(وكأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا. فقال المثنى - وأسلم بعد ذلك :

قد سمعت مقالتك يا أخا قريش والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة ؛ فى تركنا ديننا متابعتنا دينك وإنا إنما نزلنا بين صريين [1] أحدهما اليمامة . والآخر السماوة) .

فعاد المثنى يتحدث فى اختصاصه فهو صاحب الحرب ، وصاحب المنعة ،ولابد من الفصل فى هذا المجال (فقال له رسول الله ﷺ : « ما هذان الصريان ؟ » .

قال : أنهار كسرى ومياه العرب ، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول ، وما كان مما يلى مياه العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول .وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثًا ولا نؤوى محدثًا . وإنى أرى هذا الأمر الذى تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكرهه الملوك . فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى العرب فعلنا) .

لقد استعمل المثنى صلاحياته كاملة فهو صاحب حرب شيبان بن ثعلبة . فأما أمر الدين فليس له ، وقد أجَّل الحديث عنه للعام القادم ، أما أمر الحماية . فهو جاهز لها

(١) صريين : تثنية صير ، والصرى للماء إذا طال مكثه وتغير .

منذ الآن ،لكن تلك الحماية المحدودة التى لا تقترب من كسرى ولا تمسه . وقدّر المثنى ﷺ أن هذا الدين مما تكرهه الملوك . لقد كان حسه المرهف العظيم هو الذى أوحى له بذلك (فإن أحببت أن نؤويك وننصرك ما يلى العرب فعلنا) .

وأعجب الرسول ﷺ بهذا القائد العظيم المثنى . والذى كان صريحًا وصادقًا معه فى مجال اختصاصه فى عرض حمايته لا اتباع دينه . فقال عليه الصلاة والسلام :

(ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم الصدق ، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه) وبذلك أنهى رسول الله ﷺ موضوع الحماية الجزئية . فهو رسول رب العالمين ، ولا يود أن يفتح مواجهة مباشرة مع كسرى . ورسول الله ﷺ بما أوحى إليه ربه ، وبما يرى على الأفق القريب من بوادر الحرب الأولى بين العرب والفرس أنها إرهاصات لنبوته . فأحب أن يكسر حاجز الخوف الذى تملك شيبان من كسرى بن هرمز وجيشه . بقوله صلوات الله عليه :

« أرايتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم وأموالهم ، ويفرشكم نساءهم أتسبحون الله وتقدسونه ؟» فقال النعمان : اللهم فلك ذلك .

فتلا عليهم رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب] ثم نهض رسول الله ﷺ قابضًا على يدى أبى بكر . قال على : ثم التفت إلينا فقال : « يا أبا بكر ، آية أخلاق كانت للعرب فى الجاهلية ما أشرفها بها يتحاجزون فى الحياة الدنيا » ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج فما نهضنا حتى بايعوا النبى ﷺ) [١] .

لقد بشرهم رسول الله ﷺ بنصر قريب عاجل .

وها نحن نعود إلى أجواء ذى قار والتى بدت مضمخة بعبير النبوة . فهذا هانئ بن قبيصة أحد القادة الثلاثة فى بنى شيبان بن ثعلبة يمثل قومه فى تعبئة بنى بكر للمواجهة .

قالت بكر لزعيم بنى عجلة حنظلة بن ثعلبة :

يا أبا معدان ، قد طال انتظارنا . وقد كرهنا أن نقطع أمرًا دونك . وهذا ابن اختك قد جاءنا والرائد لا يكذب أهله . وهذا هانئ بن قبيصة [٢] يهم بركوب الفلاة

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢ / ٣ / ١٤١ ، ١٤٢ ، وسبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٥٩٧ ، ٥٩٨ .
(٢) قال فى العقد الفريد : ولم تر لهانئ سقطة قبلها .

ويقول لنا لا طاقة لكم بجموع الملك . قال حنظلة : فما الذى أجمع عليه رأيكم ، واتفق عليه ملؤكم ؟

قالوا : إن اللخى [1] أهون من الوهى [2] . وإن فى الشر خياراً . ولأن يفتدى بعضنا بعضًا خيراً من أن نصطلم [3] جميعًا . فقال حنظلة : قبَّح الله هذا رأيًا . لا تجر أحرار فارس ببطحاء ذى قار وأنا أسمع هذا الصوت ثم أمر بقُبته فضربت فى ذى قار . ثم نزل ونزل الناس فأطافوا به ثم قال :

لا أرى غير القتال . فإنا إن ركبنا الفلاة متنا عطشًا . وإن أعطينا بأيدينا تقتل مقاتلتنا وتُسبى ذرارينا . ثم قال لهانئ بن مسعود :

يا أبا أمامة ، إن ذمتكم ذمتُنا عامة . وإنه لن يوصل إليك حتى تفنى أرواحنا . فأخرج هذه الحلْقة [4] ففرقها بين قومك . فإن تظفر فتردُّ عليك . وإن تهلك فأهون مفقود .

فأمر بها هانئ فأخرجت وفرّقت فى القوم. ثم التفت حنظلة إلى النعمان [5] وقال :

لولا أنك رسول لما أبت إلى قومك سالمًا .

فرجع النعمان إلى قومه فأخبرهم بما ردَّ عليه القوم، فباتوا ليلتهم مستعدين للقتال ، وبكر يتأهبون للحرب فلما أصبحوا أقبلت الأعاجم نحوهم يسيرون على تعبية ومعهم الجنود والأفيال عليها الأساورة . . ولما تقارب الزحفان قام حنظلة بن ثعلبة فقال: إن النشاب الذى مع الأعاجم يفرقكم . فإذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقاء وابدؤوهم بالشدة . ثم قام إلى وضين [6] راحلة امرأته فقطعه . ثم تتبع الظعن [7] بقطع وضنهن .فسقطن على الأرض فقال : ليقاتل كل امرئ منكم عن حليلته . ثم ضرب قبة على نفسه فى ذى قار وآلى ألا يفر حتى تفر القبة . وقطع سبعمائة رجل من شيبان أيدى أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف . وقام هانئ بن مسعود فقال : يا قوم ، مهلك مقدور خير من نجاء معرور [8] . وإن الحذر لا ينفع القدر .

---

(1) اللخى : إعطاء المال . (2) الوهى : الهلال .

(3) نصطلم جميعًا : نهلك جميعًا .

(4) الحلقة : السلاح الذى استودعه النعمان عنده وهو ألف سيف .

(5) النعمان بن زرعة .

(6) الوضين : السير الذى يربط تحت بطن الدابة فإذا قطع مال الركاب .

(7) الظعن : النساء . (8) معرور : فيه عار .

وإن الصبر من أسباب الظفر ، والمنية ولا الدنية . واستقبال الموت خير من استدبارة والطعن فى الثغر أكرم من الطعن بالدبر . يا قوم جدوا فما فى الموت بد . فتح لو كان له رجال،أسمع صوتًا ولا أرى قومًا ويا آل بكر شدوا واستعدوا . وإلا تشدوا تُردوا.

ولا بد أن نقف مليًا أمام هذه الأمة الممزقة التى لا تهاب الموت حفاظًا على الشرف، وذودًا عن نسائها ، وحفاظًا على شرف القبيلة أن يدنس ،فهو العار الذى لا يغسل . قيم الشجاعة والموت فى سبيل هذه القيم هى التى يرثها الرسول ﷺ من الجاهلية الجهلاء . فلا يئدها ، ولا يدفنها إنما يعيد صياغتها فى سبيل الله . وسبيل الله يضمن شرف القبيلة . ويضمن الحفاظ على العرض . ويضمن الدفاع عن المستضعفين لكنه يرفض القتال للذكر ، ويرفض القتال للشهرة . ويرفض القتال للمغنم ، ويرفض القتال لظلم الآخرين ،ومعركة ذى قار معركة قيم ؛ يريد هانئ بن قيس زعيم بكر أن يحافظ على الأمانة التى عهد له بها النعمان ويريد كسرى أن تخول كل قادة العرب عبيدًا له .

لقد اشتعلت المعركة . ومما تحمل فى ثناياها عبير محمد ﷺ .

(فقد روى أبو نعيم عن خالد بن سعيد عن أبيه عن جده أن بكر بن وائل قدم مكة فى الحج فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : « ايتهم واعرض عليهم»، فأتاهم فعرض عليهم فقالوا : حتى يجىء شيخنا حارثة . فلما جاء قال: إن بيننا وبين الفرس حربًا فإذا فرغنا منهم عدنا فنظرنا بما تقول . فلما التقوا بذى قار هم والفرس قال لهم شيخهم : ما اسم الرجل الذى دعاكم إلى ما دعاكم إليه ؟ قالوا : محمد . قال فهو شعاركم فنصروا على الفرس) (١) .

لقد كان اسم محمد ﷺ هو كلمة سرهم وشعارهم حين خاضوها حربًا بلا هوادة مع الفرس وأتباعهم وأذنابهم من العرب .

ورسول الله ﷺ بشرهم بنصرهم على فارس فشيبان التى شهدنا وفدها تعِدُ محمدًا ﷺ إن انتصرت على فارس أن تسبح الله وتعبده وتهلله .

وفى رواية عند الحافظ ابن كثير أن هذه البشائر قد كانت لبكر بن وائل كذلك .

(فقد روى الحافظ أبو نعيم من طريق عبد الله بن الأجلح ويحيى بن سعيد كلاهما عن محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس عن العباس قال :

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٥٩٩ .

قال لى رسول الله ﷺ : « لا أرى عندك ولا عند أخيك منعة فهل أنت مخرجى غداً إلى السوق حتى نقر فى منازل قبائل الناس » ، وكانت مجمع العرب . فقلت : هذه كندة ولفها وهى أفضل من يجح البيت من اليمن ، وهذه منازل بكر بن وائل ، وهذه منازل عامر بن صعصعة ، فاختر لنفسك ؟ قال : فبدأ بكندة فأتاهم .

فانصرف من عندهم فأتى بكر بن وائل . فقال : « ممن القوم ؟ » ، قالوا : من بكر بن وائل . فقال : « من أى بكر بن وائل ؟ » .

قالوا : من بنى قيس بن ثعلبة . قال : كيف العدد ؟ قالوا : كثير مثل الثرى . قال : فكيف المنعة ؟ قالوا : لا منعة ، جاورنا فارس . فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم . قال : « فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم وتستنكحوا نساءهم ، وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا الله ثلاثًا وثلاثين وتحمدوه ثلاثًا وثلاثين وتكبروه ثلاثا وثلاثين ؟ » ، قالوا : من أنت ؟ قال : « أنا رسول الله ».

قال الكلبى : ثم انطلق فلما ولى عنهم وكان عمه أبو لهب يتبعه فيقول للناس : لا تقبلوا قوله. ثم مر أبو لهب فقالوا :هل تعرف الرجل ؟ قال : نعم ، هذا فى الذروة منا .فعن أى شأنه تسألون ؟ فأخبروه بما دعاهم إليه وقالوا:زعم أنه رسول الله . قال : ألا ، لا ترفعوا برأسه قولا فإنه مجنون يهذى بأم رأسه . قالوا : قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكر) (١) .

لقد كان الحديث على النصر والانتصار على فارس من العرب ضربًا من الجنون . ومع ذلك وجدوا أنفسهم مساقين للمواجهة ، قد قابل رسول الله ﷺ ثلاث فصائل منهم على اختلاف فى مواقفهم من الدعوة ، لكنه بث فى هذه الفصائل الثلاث روح الانتصار على فارس وقتل رجاله وسبى نسائهم . وإن كانت « ذى قار » نقطة البدء فيحرص الجاهليون العرب على أن يجعلوها نقطة البدء ونقطة الختام حين يحرصون مراعاة لإخوانهم النصارى على حذف تاريخ الإسلام من العرب . فلا يبقى لهم إلا ذى قار يفخروا بها والتى كان الفرس ألفين فيها إلى ثلاثة آلاف من العرب يدينون بالولاء لكسرى . ومضوا يحاربون أهلهم وقومهم . ليصيروا عبيدًا مثله.فكان فيهم أمثال هانئ ابن مسعود، وحنظلة بن ثعلبة ، ثم هانئ بن قبيصة . وبكر بن يزيد الذى كان قائد جيش شيبان بإزاء كتيبة الهامرز ،وحنظلة بن ثعلبة يقود بنى عجل بمواجهة خنابزين

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢ / ٣ / ١٣٨ .

وأفناء بكر فى القلب ، وعليهم هانئ بن مسعود .

(فخرج أسوار من الأعاجم فى أذنيه درتان من كتيبة الهامرز يتحدى الناس للبراز فنادى فى بنى شيبان فلم يبرز إليه أحد . حتى إذا دنا من بنى يشكر برز له يزيد بن حارثة . فشد عليه بالرمح فطعنه ، ودقّ صلبه وأخذ حليته وسلاحه ، وخرج الهامرز يدعو إلى البراز فخرج إليه الحوفزان (الحارث بن شريك) فقتله وفى ذلك الحين أرسلت إياد ـ وكانت فى جيوش كسرى ـ سرًا إلى بكر . وقال رسولهم : أى الأمرين أعجب إليكم ؟ أن نطير تحت ليلتنا فنذهب . أو نقيم فنفر حين تلاقون القوم ؟ قالوا : بل تقيمون : فإذا التقى الناس انهزمتم بهم .

وقال يزيد بن حِمار السكونى ـ وكان حليفًا لشيبان : أطيعونى واكمنوا لهم كمينًا . ففعلوا ، وجعلوا يزيد رأسهم . وكمنوا فى مكان يقال له الخبىء . واجتلدوا . وحملت ميسرة بكر وعليها حنظلة على ميمنة الجيش ، وحملت بكر وعليها يزيد بن مسهر على ميسرة الجيش . وخرج عليهم الكمين من الخبىء وعليها يزيد بن مسهر فشدوا على قلب الجيش . وولت إياد منهزمة . وانهزمت الفرس . وتبعتهم بكر . ولحق مرثد ابن الحارث النعمان بن زرعة فأهوى له طعنًا فسبقه النعمان بصدر فرسه فأفلته . ولكن أسود ابن بجير العجلى وضع يده فى يده . ثم جز ناصيته ، وخلّى سبيله ثم اتبعت بكر الفرس وأحلافهم من العرب يقتلونه بقية يومهم وليلتهم حتى أصبحوا من الغد . وقد شارفوا السواد ودخلوه فى طلب القوم) (١) .

(وفى ذلك اليوم يقول أعشى قيس مفتخرًا :

وجند كسرى غداة الحنو صبحــهم	منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا ململمــة شهـــباء يقدمـــها	للموت لا عاجــز فيـها ولا خَرِف
لما رأونا كشفنا عــن جــماجمـــنا	ليعلمـــوا أننا بكـــر فينصرفـــوا
قالوا : البقبة . والهندى يحصدهم	ولا بقـية إلا السيــف فانكشفــوا
لو أن كل معدٍ كان شاركنا	فى يوم ذى قار مـا أخطاهم الشرف
لما أتــونا كــأن الليـل يقدِمُهــم	مطبق الأرض تغشاها بهــم سدف
بطارق وبنـــو ملك مـــزاربة	من الأعاجم فى آذانها النطــف
لما أمالوا إلى النشاب أيديهـــــم	ملنا ببيض فظلَّ الهـــام يقتـــطف

(١) قصة حرب ذى قار باختصار من كتاب أيام العرب لمحمد أحمد جاد المولى وزملائه مقتطفات ص٢٨ ـ ٣٤ .

وخيل بكر فـما تنفـك تطـحنهم حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف) (١)

أما الذى نقل انتصارات بكر وشيبان فى غرب الجزيزة إلى حزب الله فى الأرض . قبيل الهجرة النبوية وفى مكة فهو رسول رب العالمين الذى جاءه الوحى بذلك ،فقال :

فلم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً حتى خرج على أصحابه فقال :

« احمدوا الله كثيراً ، فقد ظفرت اليوم أبناء ربيعة بأهل فارس ، قتلوا ملوكهم ، واستباحوا عسكرهم وبى نصروا » .

وجعل رسول الله ﷺ هذا النصر ليس نصراً لربيعة فقط ، بل هو نصر للعرب كلهم.

فقد سئل ﷺ عن ذى قار . فقال :

« ذاك يوم انتصف فيه العرب من العجم ، وبى نصروا »

فذى قار تنتهى إذن ملحمة مقدمة لملاحم الإسلام . جُعِلَ فيها نصر العرب على الفرس بمحمد ﷺ كما جُعل عام الفيل ، وقتل أبرهة وجيشه بالطير الأبابيل بمناسبة مقدم محمد ﷺ إلى الوجود . وفى العام الذى ولد فيه . كما ارتج إيوان كسرى وتصدع وسقطت شرفاته يوم ولادته عليه الصلاة والسلام .

فتاريخ العرب ومجده إنما انبعث من محمد عليه الصلاة والسلام :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف] .

ولنا أن نتحدث بعد هذا العرض . وبعد عشر سنين من هذه اللقاءات . وبعد أن دانت الجزيرة العربية للإسلام عن تحرك شيبان وبكر بن وائل ، وافدة إلى رسول الله ﷺ تعلن دخولها فى الإسلام :

أولاً : وفد بكر بن وائل :

(قالوا : وقدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ﷺ . فقال له رجل منهم : هل تعرف قس بن ساعدة ؟ فقال رسول الله ﷺ :

« ليس هو منكم . هذا رجل من إياد تحنف فى الجاهلية فوافى عكاظ والناس مجتمعون فيكلمهم بكلامهم الذى حفظ عنه » .

---

(١) من قصيدة الأعشى ، أيام العرب ص ٣٤ ، ٣٥ .

وكان فى الوفد بشر بن الخصاصية ، وعبد الله بن مرثد ، وحسان بن حوط .

وقال رجل من ولد حسان :

أنا ابن حسان بن حوطٍ وأبى رسول بكر كلها إلى النبى

قالوا : وقدم معهم عبد الله بن أسود . . . بن الحارث بن سدوس على رسول الله ﷺ وكان ينزل اليمامة . فباع ما كان له من مال باليمامة وهاجر . وقدم على رسول ﷺ بجراب من تمر ، فدعا له رسول الله ﷺ بالبركة) (١) .

* * *

ليس فى الحديث عن وفد بكر بن وائل شىء يذكر . والروايات عنه قليلة ، وكل ما ورد أنهم أرادوا أن ينتموا إلى قس بن ساعدة. والانتماء له معنى مهم. فقس مؤمن موحد بالله، حنيف مسلم. وهذا يعنى توافق العقيدة بين قس وبين الإسلام. وقس مؤمن باليوم الآخر يدعو إلى التقوى وإلى العمل الصالح ، ينبذ الشرك وأهله . لقد كان يمكن للوفد أن يفخر بذى قار ويتحدث عنها لرسول الله ﷺ لكنه آثر الحديث عن قس بن ساعدة الذى انتشر ذكره بين العرب. وكيف كان يوافى المواسم ويدعو إلى الله عز وجل، ويبشر بالنبى الخاتم، وقد أدركه رسول الله ﷺ وقال: «كأنى أنظر إليه فى سوق عكاظ على جمل أحمر أورق وهو يخطب الناس وهو يقول كلامًا ما أرانى أحفظه » (٢).

وأما الانتساب إلى قس بن ساعدة . فيرفضه رسول الله ﷺ لأن الانتساب أو الادعاء من مآثر الجاهلية . فنبههم رسول الله ﷺ لخطر ذلك بقوله :

« ليس هو منكم . هذا رجل من إياد . تحنف فى الجاهلية فوافى عكاظ والناس مجتمعون فيكلمهم بكلامه الذى حفظ عنه » .

والأمر الثانى فى قصة هذا الوفد هو أن قيادته آلت إلى حسان بن حوط . ومعه نفر كريم عن سادات بكر. ولقد كان حسان رضي الله عنه قائد قومه مع على رضي الله عنه يوم الجمل . قال عنه ابن الأثير : (حسان بن خوط الذهلى ثم البكرى كان شريفًا فى قومه ، وكان وافد بكر بن وائل إلى النبى ﷺ وله بنون جماعة . وشهد الجمل مع على ،وابنه بشر القائل :

أنا ابن حسان بن خوط وأبى رسول بكر كلها إلى النبى

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣١٥ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ /٢٥٢ ، والحديث ضعيف وحسن لغيره.

أخرجه أبو عمر ، قلت : قال بشر هذا الشعر يوم الجمل وكانت راية بكر مع أخيه الحارث بن حسان الذهلى ، فقتل الحارث فقيل فيه : أنعى الرئيس الحارث بن حسان . . .) [1].

وقتلت القبيلة كلها ذودا عن هذا اللواء .

ففى جمهرة أنساب العرب يحرر ابن حزم اسمه فيقول :

حسان بن محدوج بن بشر بن خوط بن سعنة . . . بن ذهل بن ثعلبة كان صاحب لواء على رضي الله عنه يوم الجمل ،فقتل فأخذه أخوه حذيفة بن محدوج فقتل فأخذه عمه الأسود بن بشر فقتل،فأخذه ابن عمهم عبد بن بشر بن حسان بن خوط فقتل فأخذه عمه الحارث بن حسان بن خوط فقتل فأخذه ابن عمهم زهير بن عمرو بن خوط . . .) [2].

ومعهم من بنى سدوس عبد الله بن أسود الذى باع ماله باليمامة . وقدم على رسول الله من ماله بجراب من تمر . فدعا له رسول الله ﷺ بالبركة .

وتشير الروايات إلى أنه هاجر مع فتية ثلاثة من قومه إلى المدينة . وجاء بقومه فى عام الوفود ، ففى أسد الغابة عن عبد الله بن الأسود قال :

(خرجنا إلى النبى ﷺ فى وفد بنى سدوس من القرية معنا تمر من. . . حتى قدمنا على رسول الله ﷺ فنثرنا التمر على نطع بين يديه . فقال : « أى تمر هذا ؟ »،فقلنا : الجذامى . فقال : «اللهم بارك فى الجذامى وفى حديقة خرج هذا منها »، وقال قتادة :

هاجر من ربيعة أربعة : بشير بن الخصاصية ،وعمرو بن ثعلبة ، وعبد الله بن الأسود ، وفرات بن حيان أخرجه الثلاثة) [3] .

ولا ننسى أن فرات بن حيان العجلى كان من أكبر أدلاء العرب فى الصحراء . وبقى على شركه.وكانت قريش تعتمده دليلاً لها بعد أن سد عليها رسول الله ﷺ طريق المدينة.(وكان هاديا فى الطريق،بعث رسول الله ﷺ سرية مع زيد بن حارثة ليعترضوا عير قريش وكان دليل قريش فرات بن حيان العجلى ، فأصابوا العير وأسروا فرات بن حيان،فأتوا به رسول الله ﷺ فلم يقتله.فمر بحليف له من الأنصار فقال : إنى سلم . فقال الأنصارى : يارسول الله إنه يقول : إنه مسلم فقال:«إن فيكم رجالاً نكلهم إلى

(1) أسد الغابة لابن الأثير ٢ / ٨ .
(2) جمهرة أنساب العرب ص٣١٦ .
(3) أسد الغابة ٣ / ١١٧ .

إيمانهم منهم فرات بن حيان » ، وأطلقه ، ولم يزل يغزو مع رسول الله ﷺ إلى أن توفى رسول الله ﷺ فانتقل إلى مكة فنزلها ولما أسلم حسن إسلامه ، وفقه فى الدين وكرم على النبى ﷺ حتى أنه أقطعه أرضًا فى اليمامة تغل أربعة آلاف . وسيَّرهُ رسول الله ﷺ إلى ثمامة بن أثال فى قتل مسيلمة وقتاله . . .) (١).

وفد شيبان

وهى أكبر وأشهر بطون بكر بن وائل .

ولقد كانت وفادة شيبان تحمل فى ثناياها قصة طريفة رافقت وافدها الحارث بن حسان رضي الله عنه وصاحبة هذه القصة قيلة بنت مخرمة . تحس وأنت تقرأ قصتها أنك أمام أديبة قاصة من أرفع الأديبات ؛ تصويراً وإثارة وعقدة ندع لها حديث إسلامها مع خصمها الحارث بن حسان .

(. . . وخرجتُ إلى أخت لى ناكح فى بنى شيبان أبتغى الصحابة إلى رسول الله ﷺ فبينما أنا عندها ليلة من الليالى تحسبنى نائمة إذ جاء زوجها من السامر فقال : .

وأبيك لقد وجدت لقيلة صاحب صدق ، فقالت أختى : من هو ؟ قال : حريث ابن حسان الشيبانى ، غاديًا وافد بكر بن وائل إلى رسول الله ﷺ ذا صباح .

فغدوت إلى جملى وقد سمعتُ ما قالا . فشددت عليه ، ثم نشدتُ عنه (٢) فوجدته غير بعيد .

فسألته الصحبة . فقال : نعم وكرامة ، وركابهم مناخة فخرجت معه صاحب صدق حتى قدمنا على رسول الله ﷺ) .

قيلة فى المدينة :

(حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو يصلى بالناس صلاة الغداة وقد أقيمت حين انشق الفجر ، والنجوم شابكة فى السماء ، والرجال لا تكاد تعارف مع ظلمة الليل فصففت مع الرجال . وكنت امرأة حديثة عهد بجاهلية . فقال لى الرجل الذى يلينى من الصف : امرأة أنت أم رجل ؟ فقلت : لا بل امرأة . فقال : إنك كدت تفتنينى

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٤ / ١٧٥ .

(٢) نشدت عنه : سألت عنه ، أى : سألت عن الحارث بن حسان وافد بكر وشيبان .

فصلى مع النساء وراءك . وإذا صف من نساء قد حدث عند الحجرات لم أكن رأيته حين دخلت) .

بحثها عن رسول الله ﷺ :

(فكنت فيهن حتى إذا طلعت الشمس دنوتُ فإذا رأيت رجلاً ذا رُواء وذا قشر طمح إليه بصرى لأرى رسول الله ﷺ فوق الناس ، حتى جاء رجل وقد ارتفعت الشمس فقال : السلام عليك يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » .

لحظة الرؤية العنيفة :

(أسمال مليبتين كانتا بزعفران فقد نفُضتا (وصف ثيابه) ومعه عسيب نخلة (قضيب) مقشور غير خوصتين من أعلاه ،وهو قاعد القرفصاء . فلما رأيت رسول الله ﷺ متخشعًا فى الجلسة أرعدت [1] من الفرق [2] . فقال جليسه : يا رسول الله أرعدت المسكينة . فقال رسول الله ﷺ ولم ينظر إلى وأنا عند ظهره :

« يا مسكينة عليك السكينة » . فلما قالها رسول الله ﷺ أذهب الله ما كان أدخل فى قلبى من الرعب) .

قيلة بين يدى رسول الله ﷺ :

وتقدم صاحبى أول رجل (الحارث بن حسان) فبايعه على الإسلام ؛ عليه وعلى قومه (بكر وشيبان) ثم قال : يا رسول الله ، اكتب بيننا وبين بنى تميم بالدهناء لا يجاوزها إلينا منهم إلا مسافر أو مجاور .

شجار عنيف لها مع الحريث :

فقال : يا غلام اكتب له بالدهناء . فلما رأيته أمر له بأن يكتب له بها شُخِص بِى وهى وطنى ودارى فقلت :

يا رسول الله ، إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك . إنما هذه الدهناء عندك مقيَّدُ الجمل ومرعى الغنم . ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك (وهى تميمية) .

أفشلت خطة صاحبها وحفظت حق قومها :

(فقال : رسول الله ﷺ :

---

(١) أرعدت : ارتجفت .

(٢) الفرق : الخوف .

« أمسك يا غلام صدقت المسكينة ، المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشجر ويتعاونان على الفتان » .

ثورة الحريث ضدها :

فلما رأى حريث أنه قد جعل دون كتابه ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال : كنت أنا وأنت كما قيل : حتفها تحمل ضأن بأظلافها .

امتصاص الثورة بذكائها :

فقلتُ : أما والله إن كنت لدليلاً فى الظلماء ، جواداً بذى الرحل عفيفا عن الرفيقة حتى قدمتُ على رسول الله ﷺ . ولكن لا تلمنى على حظى إذ سألت حظك.

شجار جديد :

فقال : وما حظك فى الدهناء لا أبا لك ؟ فقلت : مقَيَّد جملى تسأله لجمل امرأتك .

عودة إلى الوفاق :

فقال : لا جرم ، إنى أُشهد رسول الله ﷺ أنى لك أخ ما حييت . إذا أثنيت هذا علىَّ عنده . فقلتُ : إذ بدأتها فلن أضيعها .

ثناء رسول الله ﷺ عليها :

فقال رسول الله ﷺ :

« أيُلاَمُ ابنُ ذِه أن يفْصِلَ الخطَّةَ وينتصر من وراء الحجْرَةِ ؟ » .

قيلة تبكى بين يدى رسول الله ﷺ :

فبكيت ثم قلت : قد والله ولدته يا رسول الله حازمًا . فقاتل معك يوم الرَّبَذَة ، ثم ذهب يُحيُرنى من خيبر . فأصابته حماها وترك علىَّ النساء .

رسول الله ﷺ يهددها ويتوعدها :

فقال : « والذى نفس محمد بيده ، لو لم تكونى مسكينة لجررناك اليوم على وجهك . أو لجررت على وجهك ـ شك عبد الله ـ أيغلب أحيدكم أن يصاحب صويحبة فى الدنيا معروفا ، فإذا حال بينه وبينها من هو أولى به منه استرجع » ثم قال :

« رب أنسنِى ما أمضيت وأعنى على ما أبقيت . والذى نفس محمد بيده ، إن

أحيدكم ليبكى فيستعبر إليه صويحبه . فيا يا عباد الله لا تعذبوا إخوانكم » .

ختامه مسك :

وكتب لها فى قطعة من أديم أحمر لقيلة وللنسوة من بنات قيلة « الا يُظلمْن حقًا . ولا يكرهن على منكح . وكل مؤمن مسلم لهن نصير ، أحسِنّ ولا تُسئن) (١) .

وواضح أن تفصيلات كثيرة قد فاتتنا . إذ نجدها فى رواية الحارث بن حسان رضي الله عنه . وكثير من أعضاء الوفد لم تتناوله هذه الرواية . فقد طغى حديث قيلة على حديث الوفد كله . وقدَّم لنا نمطًا عظيمًا من أنماط تربية المرأة فى الإسلام ، وصيغة التعامل النبوى معها . حتى لتنجح فى إيقاف خطة كان الحارث يزمع تنفيذها ، واستطاعت المرأة اللبيبة أن تحفظ من قومها بنى تميم . وتدرك الدهناء ملكا عامًا لمقيد الجمل ومرعى الغنم . لكلا القبيلتين . واستطاعت أن تأخذ من رسول الله ﷺ خطابًا ألا تظلم وبناتها حقًا . ولا يكرهن على منكح حتى لا يتحكم فيهن ويجعل لهن حقًا على كل مسلم أن يكون لهم نصيراً إذا نزل بهم ظلم أو أذى .

وواضح عبقريتها رضي الله عنها فى ثنائها العظيم على الحارث بن حسان وحسن صحبته معها وعفته وشهامته ومروءته . مما حَدَا به أن يؤاخيها فى الله مقابل هذا الثناء بعد أن ثار عليها حين حالت بينه وبين الدهناء .

والبلاغة التى تروى بها الأحداث التى مرت بها تعطينا إضاءة عظيمة عن الإمكانات المذخورة فى المرأة والتى تبرز حين تسنح الفرصة لها . وها نحن نرى الحارث بن حسان يعترف بعبقريتها من خلال روايته لوفادته على رسول الله ﷺ .

(روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن الحارث بن حسان البكرى قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ . فمررت بالربذة فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها فقالت : يا عبد الله إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة فهل أنت مبلغى إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت بها المدينة فإذا المسجد غاص بأهله . وإذا راية سوداء تخفق ، وبلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ. فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا . قال : فجلست ، فدخل منزله فاستأذنت فدخلت عليه فأذن لى فدخلت فسلمتُ فقال: هل كان بينكم وبين تميم شىء ؟

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣١٨ ـ ٣٢٠ .

قلت:نعم . وكانت الدائرة عليهم ، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها فسألتنى أن أحملها إليك وها هى بالباب فأذن لها فأدخلها . فقلت : يا رسول الله ، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء. فحميت العجوز واستوفزت وقالت:

يا رسول الله ، أين يضطر مضطرك ؟ قلت: إن مثلى مثل ما قال الأول: معزى حملت حتفها. حملتُ هذه ولا أشعر أنها كانت خصمًا لى . وأعوذ بالله أن أكون كوافد عاد .

قالت هى : وما وافد عاد ؟ وهى أعلم بالحديث منه ، ولكنها تستطعمه . قلت :

إن عاداً قحطوا فبعثوا وافدًا لهم فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر ، وتغنيه جاريتان يقال لهما : الجرادتان . فلما مضى الشهر ، خرج إلى جبال مهرة فقال : اللهم إنك تعلم لم أجىء إلى مريض فأداويه . ولا إلى أسير فأفاديه . اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه . فمرت به سحابات سود . فنودى منها . اختر فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودى منها : خذها رمادا رمددًا . لا تبق من عاد أحدًا قال : فما بلغنى أنه أرسل عليهم من الريح إلا بقدر ما يجرى فى خاتمى هذا حتى هلكوا . قال أبو وائل : وكانت المرأة أو الرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا : لا يكن كوافد عاد) (١) .

غير أن رواية أخرى فى أسد الغابة ذكرها ابن الأثير تشير إلى رفعه البلاء عن قومه وهى :

(رواه عنبسة بن الأزهر الذهلى عن سماك بن حرب عن الحارث بن حسان البكرى قال :

لما كان بيننا وبين إخواننا من بنى تميم ما كان . وفدت إلى رسول الله ﷺ فوافيته وهو على المنبر وهو يقول : جهزوا جيشًا إلى بكر بن وائل . قال ، فقلت : يا رسول الله ، أعوذ بالله أن أكون كوافد عاد ، وذكر الحديث بطوله ، أخرجه الثلاثة) (٢) .

وواضح هنا أنه يتعوذ من أن يكون هو الوافد الذى جاء بغزو قومه حين سمع رسول الله يقول :« جهزوا جيشاً إلى بكر بن وائل » ولم يكن كوافد عاد فقد بايع عن قومه جميعاً على الإسلام ، وإن كانت أخته التميمية قد فوتت عليه أن تكون صحراء الدهناء وهى بين تميم وبكر بن وائل أن تكون ملكاً لقومه بكر ، حتى أننا نجد فى بعض

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٦ / ٤٨٥ ، وأسد الغابة ١ / ٣٢٤ ، والإمام أحمد .
(٢) أسد الغابة ١ / ٣٢٤ .

الروايات أن رسول الله ﷺ سأله عن المعركة بين بكر وبنى تميم ولمن كانت الدولة فيها . وهذا نصها : (... فلما وصلت دخلت المسجد وهو غاص بالناس فإذا راية سوداء تخفق قلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : هذا رسول الله ﷺ يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا وبلال متقلد السيف قائم بين يدى رسول الله ﷺ ، فقعدت فى المسجد فلما دخل رسول الله ﷺ أذن لى فدخلت ، فقال: « هل كان بينكم وبين تميم شيء ؟ » فقلت : نعم يا رسول الله . وكانت لنا الدائرة عليهم) وهذا يعنى أنه حال بين غزو رسول الله ﷺ لقومه نصرًا لبنى تميم الذين أعلنوا دخولهم فى الإسلام وصاروا حلفاء دولته) [1] .

بنو سعد بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة

ولا نجد فى كتب السير ذكرًا لهذا الوفد . لكننا نجد فى كتب التراجم ذكرًا له هو من أنصع صفحات بنى شيبان فى الإسلام وذلك من خلال المثنى بن حارثة رضي الله عنه . والذى شهدناه من قبل عضوًا فى وفد شيبان ، وقدمه مفروق بن عمرو أنه صاحب حربهم . ولندع الحديث لابن الأثير عن هذا البطل العظيم وعن وفده :

(المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل بن شيبان ...

وفد على النبى ﷺ سنة تسع مع وفد قومه ، وسيره أبو بكر الصديق رضي الله عنه فى صدر خلافته إلى العراق قبل مسير خالد بن الوليد ، وهو الذى أطمع أبا بكر والمسلمين فى الفرس وهوّن أمر الفرس عندهم. وكان شهمًا شجاعًا ميمون النقيبة ،حسن الرأى ، أبلى في قتال الفرس بلاءً لم يبلغه أحد ، ولما ولى عمر بن الخطاب الخلافة سير أبا عبيد ابن مسعود الثقفى والد المختار فى جيش إلى المثنى . فاستقبله المثنى . واجتمعوا . ولقوا الفرس بقس الناطف ، واقتتلوا فاستشهد أبو عبيد وجرح المثنى ، فمات من جراحته ... وكان كثير الإغارة على الفرس ، فكانت أخباره تأتى أبا بكر فقال : من هذا الذى تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه . فقال قيس بن عاصم :

أما إنه غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا قليل العدد ، ولا زليل الغارة ذلك المثنى بن حارثة الشيبانى ثم قدم بعد ذلك على أبى بكر فقال : ابعثنى على قومى أقاتل بهم أهل فارس ، وأكفيك أهل ناحيتى من العدو ففعل أبو بكر ، وأقام المثنى يغير

---

(١) أسد الغابة ١ / ٣٢٤ .

على السواء . ثم أرسل أخاه مسعود بن حارثة إلى أبي بكر فأمده بخالد بن الوليد. فهو الذى أطمع في الفرس ، ولما عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل أتى شيبان فلقى مفروق بن عمرو والمثنى بن حارثة فدعاهم . . .) [١] .

وكيف نمر على الوفود ولا نذكر هذا الوفد وفيه المثنى بن حارثة رضي الله عنه إنه حلقة الوصل بين الجاهلية والإسلام ، وحلقة الوصل بين ذى قار والقادسية . فهو صاحب حرب بنى شيبان كما قدمه مفروق بن عمرو،وهو الذى شارك فى حرب ذى قار فى عراقة الجاهلية . وعندما تنسم عبير الإسلام فى السنة التاسعة وكان من أعظم طاقات الجاهلية المذخورة زعامة وقيادة وسيادة مضى بما لديه من خبرة عسكرية يغير على الفرس. فقد أَصْغَرَ انتصار ذى قار أمر الفرس فى عينى المثنى بعد أن كان حملهم لا يقرب وكما قال : (إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثًا ولا نؤوى محدثًا . وإنى أرى هذا الأمر الذى تدعو إليه يا أخا قريش مما تكرهه الملوك) .

فهو الذى كان يهادن كسرى وينزل على عهده،ولا تجرؤ على مواجهته وهو صاحب حرب بنى شيبان ها هو بعد أن عمر الإسلام فى قلبه فيشحذ تلك الطاقات المذخورة ، ويبدأ بالإغارة على فارس ابتداءً قبل أن يكلفه النبى ﷺ أو خليفته فى ذلك . فيعجب الصديق به قائلاً : من هذا الذى تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ، ومثل أبى بكر ـ نسابة العرب ـ لا يغيب عنه أن المثنى هو شيبانى ، فقد التقى معه فى الوفد فى مكة قبل قيام دولة الإسلام وقال لرسول الله ﷺ : بأبى وأمى ، هؤلاء غرر الناس) لكن ما يجهله الصديق رضي الله عنه عن نسبه هو من أى شيبان هو .

وجاء التعريف به أمام الصديق من خصمه اللدود ، قيس بن عاصم ، سيد بنى تميم ، ومن أسماه رسول الله ﷺ سيد الوبر . فمن هو المثنى فى ذهن خصمه اللدود قيس بن عاصم ؟

تلك الخصومة التى كانت للجيرة الملاصقة بين شيبان وتميم والوقائع الكبيرة التى كانت بينهم . والمثنى هو صاحب حرب شيبان . فلا بد أن تجربة عميقة بين الرجلين حدث بقيس أن يشهد تلك الشهادة الرائعة :

(أما إنه غير خامل الذكر.ولا مجهول النسب،ولا قليل العدد ،ولا ذليل الغارة).

فهو بطل مغوار يشهد سيد الوبر قيس ببطولته وشجاعته وعظمته إلى عراقة نسبه

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٤ / ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

وكثرة قومه ولأجل هذا وافق الصديق ﷺ فيما بعد على تحقيق طموحات المثنى. ليضع طاقاته وطاقات قبيلته وقومه فى خدمة الإسلام حين قال للصديق :

(ابعثنى على قومى أقاتل بهم أهل فارس . وأكفيك أهل ناحيتى من العدو) .

ففعل أبو بكر .

وخاض المثنى غارات ـ ذى قار ـ مع الفرس . واتجه كسرى لينهى غارات المثنى ، وينهى الإسلام معه وحين عبأ له الجيش المناسب أدرك المثنى رضوان الله عليه أن أيام ذى قار قد ولت . وأنه ليس أمام معركة بين شيبان وفصائل من جيوش الفرس إنما جاء الصراع بين الإسلام . وأعظم إمبراطوريات الأرض عندئذ بعث أخاه مسعود بن حارثة للصديق يسأله المدد) وكان خالد بن الوليد ﷺ قد طهَّر الأرض العربية من الردة ، وصار العرب معبئين لمواجهة هذه الإمبراطورية .

(فأمده بخالد بن الوليد . . .) .

إن فقه هذه الشخصيات هو الذى يكشف لنا عظمة التربية النبوية التى استطاعت أن تنتزع أوحال الجاهلية من قلب أشد عتاتها . وتغسل تلك القلوب الجاسية الحاقدة بنور الإيمان . وتجلى معدن الذهب النفيس لأولئك الرجال الذين كان الرعب يملأ قلوبهم من لقاء فارس . فتأتيهم النبوءة النبوية الخالدة : « أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم وأموالهم ، ويفرشكم نساءهم ،أتسبحون الله وتقدسونه ؟ » فقال النعمان : اللهم فلك ذا .

بهذه الروح التى بثها فيهم خاضوا « ذى قار » . وهؤلاء الذين كانوا يرون كلامه هذيانًا وضربًا من الجنون كما قال أبو لهب : لا ترفعوا بكلامه رأسًا فإنه مجنون يهذى بأم رأسه . قالوا : قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكر لقد كان رسول الله ﷺ يربى خصومه وهم كفار بهذه الروح المعنوية التى يبثها فيهم . وحين اشتعلت شعلة الإسلام فى القلوب وفى نماذج ومن معادن من أمثال المثنى بن حارثة . وجدنا فعل هذه النار التى انطلقت به شعلة تحرق الكفر . وتضىء بالإسلام فى دجى الظلماء.

وامُثنَّـيَاه ولا مثنَّى لنا اليوم .

خامسًا

بنو تغلب بن وائل

بنو تغلب بن وائل

وهم إخوان بكر بن وائل .

روى ابن سعد عن يعقوب بن زيد بن طلحة قال : (قدم على رسول الله ﷺ وفد بنى تغلب ستة عشر رجلاً مسلمين ونصارى عليهم صُلُبُ الذهب . فنزلوا دار رملة بنت الحارث . فصالح رسول الله ﷺ النصارى على أن يقرهم على دينهم على ألا يصبغوا أولادهم فى النصرانية . وأجاز المسلمين منهم بجوائزهم) (١) .

وبقى بنو تغلب نشازاً من بين العرب يحافظون على نصرانيتهم إلا القليل منهم بينما دخلت العرب جميعًا فى الإسلام . وبقيت مشكلتهم حتى عهد عمر رضي الله عنه . وهم على الحدود المتاخمة للروم والمتاخمة للفرس .فكانوا عملاء للدولتين . فهم فى ذى قار كانوا بقيادة النعمان بن زرعة فى جيش كسرى يواجهون إخوانهم بكر بن وائل . وقتل قائدهم فى ذى قار . أما فى الفتوحات الإسلامية فكانوا كذلك تحت راية الروم رغم العهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ . لكن النخوة العربية دفعتهم للانضمام سراً إلى الجيش الإسلامى . ولم يقبل قائد الجيش منهم إلا إسلامهم فأسلم بعض قادتهم . وفعلوا كما فعلت إياد فى ذى قار . ثم جاءت وفودهم إلى عمر أمير المؤمنين .

(وأقبلت العيون من تغلب وإياد والنمر إلى عبد الله بن المعتم بالخبر . وسألوه للعرب السلم ، وأخبروه أنهم قد استجابوا له . فأرسل إليهم : إن كنتم صادقين بذلك فاشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله . وأقروا بما جاء به من عند الله . ثم أعلمونا رأيكم . فرجعوا إليهم بذلك ، فردوهم إليه بالإسلام وقال : إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا نهدنا إليهم من الأبواب التى تلينا لندخل عليهم منها فخذوا بالأبواب التى تلى دجلة وكبروا واقتلوا من قدرتم عليه . فانطلقوا حتى تواطئوهم على ذلك. ونهد عبد الله لما لديه والمسلمون لما لديهم فكبروا .وكبرت تغلب وإياد والنمر . وقد أخذوا بالأبواب . فحسب القوم أن المسلمين قد أتتهم من خلفهم . فدخلوا عليهم مما يلى دجلة ، فبادروا الأبواب التى عليها المسلمون . فأخذتهم السيوف سيوف المسلمين مستقبلتهم ، وسيوف الربعيين (ربيعة) الذين أسلموا ليليتئذٍ من خلفهم . فلم يفلت

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٤٧٤ .

من أهل الخندق إلا من أسلم من تغلب وإياد والنمر . . .) .

وكان فى وفود عبد الله بن المعتم عتبة بن الوعل . وذو القرط وابن ذى السنينة وابن الحجيرة وبشر (١) فعاقدوا عمر على بنى تغلب فعقد لهم على أن من أسلم منهم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم . ومن أبى فعليه الجزاء . وإنما الإجبار من العرب على من كان فى جزيرة العرب . فقالوا : إذن يهربون وينقطعون ويصيرون عجمًا فأمُر أجمل الصدقة . فقال : ليس إلا الجزاء . فقالوا : نجعل جزيتهم مثل صدقة المسلم فهو مجهودهم . ففعل على ألا ينصروا وليدًا ممن أسلم آباؤهم . فقالوا : لك ذلك . فهاجر التغلبيون ومن أطاعهم من النمريين والإياديين إلى سعد بالمدائن ،وخُطوا معه بعد بالكوفة . وأقام من أقام فى بلاده على ما أخذوا لهم على عمره مسلمهم وذميهم) (٢) .

هذا ونلاحظ أن النمر بن قاسط أخو وائل بن قاسط وإياد بن معد أخو ربيعة ونزار ابن معد لم يقدم من هذين الحيين وفود نتحدث عنها . ولم تذكر كتب السير والتراجم شيئًا من ذلك اللهم إلا ما ذكر عن صهيب بن سنان ﷺ ونسبه فى النمر بن قاسط . لكنه سُبى صغيرًا وتربى فى مكة . وكان من المهاجرين الأولين .

وروى أبو نعيم عن ابن عباس ﷺ أن قس بن ساعدة كان يخطب قومه فى سوق عكاظ فقال : سيعمكم حق من هذا الوجه ـ وأشار بيده إلى نحو مكة . قالوا له :

وما هذا الحق ؟

قال : (رجل أبلج أحور من ولد لؤى بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص . وعيش الأبد ونعيم لاينفد فإن دعاكم فأجيبوه . ولو علمت أنى أعيش إلى مبعثه لكنت أول من سعى إليه) (٣) .

* * *

لا شك أن مقالة قس وخطبته المشهورة هى صدىً لما كانت الأرض العربية تمتلئ به قبيل بعثة النبى ﷺ من أخبار الرهبان والأحبار والكهان . وقد وردت هذه الأمور فى نصوص صحيحة فى البخارى ومسلم وغيرهما ، وفى نصوص حسنة وضعيفة وموضوعة . والمفاهيم التى طرحها قس حكيم إياد وخطيبها. الفصاحة التى سيقت فيها .

(١) هؤلاء الخمسة هم القادة الذين أسلموا أثناء المعركة من تغلب وإياد والنمر .
(٢) تاريخ الطبرى ٢ / ٤٧٧ . (٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٢٥٤ .

لا غرابة أن تدعو من سمعها أن يتجشم المسير إلى مكة . أو المدينة بعد أن سمع بأخبار غلام قريش الذى يقول أنه يكلم من السماء . ولا نتصور أن تأتى الوفود من كل مكان فى الأرض العربية . ولا تأتى من قبيلة إياد ، والعجيب أن الصالحى الذى ساق خبر قُس فى الجزء الثانى . واستقصى الوفود فى الجزء السادس غاب عنه هذا الخبر .

لقد كان العالم كافة ، والعرب خاصة ينتظرون بعثة النبى المصطفى ﷺ . وما زيد ابن نفيل وورقة بن نوفل فى قلب مكة إلا جزء من هذه الظاهرة . وما حديث سلمان الفارسى ﷺ والمروى فى الصحيح إلا جزء من هذه الظاهرة . وما حديث الراهب بحيرا. وحديث أحبار اليهود فى المدينة إلا جزء من هذه الظاهرة .وما كلام وفد يثرب الأول لرسول الله ﷺ يوم دعاهم للإسلام إلا جزء من هذه الظاهرة . وهم الذين كانوا يقولون لعرب يثرب .

(إن نبيًا مبعوثًا الآن أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم) .

فلما كلمهم الرسول ﷺ قال بعضهم لبعض : (يا قوم ، تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه) .

وما قصة ابنى سعية من أحبار يهود . وإسلام عبد الله بن سلام ﷺ إلا جزء من هذه الظاهرة . لقد كانت أرض العرب كلها ظمأى إلى ذلك الغيث الذى يرويها فيمرعها. ولا يدرك هذه الحقيقة إلا الحكماء والعلماء وكانوا هم الإرهاصات الأولى للنبى الخاتم . ونكتفى عن هذا كله بقول الله عز وجل :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة] .

ولا عجب أن يستمع رسول الله ﷺ لهذه الإرهاصات ولا يدرى عنها شيئًا لأنه كان مصروفًا عن العلم البشرى. فيلتقى بقس بن ساعدة . ويبشر به ولا يدرى أنه المقصود . ويلتقى بزيد بن نفيل ويبشر به ولا يدرى أنه المقصود ، لأن الله تعالى عصم قلبه الشريف عن التطلع لذلك . **﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾** [الشورى : ٥٢] .

وفد إياد بن معد

لكن كتب الحديث تذكر بروايات متعددة مستفيضة حديثًا عن وفد إياد هذا نصه :

أن وفد إياد لما قدموا على النبى ﷺ ، وأسلموا سأله رسول الله ﷺ عن قس بن ساعدة فقالوا : يا رسول الله ، مات . قال :

« كأنى أنظر إليه فى سوق عكاظ على جمل أحمر أورق وهو يخطب الناس وهو يقول كلامًا ما أرانى أحفظه » . فقال بعض القوم: نحن نحفظه يا رسول الله ، فقال : هاتوا . فقال قائلهم :

إنه قال : أيها الناس اسمعوا وعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا . إنه من عاش مات ، ومن مات فات وكل ما هو آت آت . مطر ونبات وأرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات . جميع وأشتات . وآيات بعد آيات . إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج . ما لى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون . أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟ أقسم قسٌ قسمًا لا حانثًا فيه ولا آثما . إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه ،ونبيًا خاتمًا حان حينه،وأظلكم زمانه ، وأدرككم إبانه فطوبى لمن آمن به فهداه . وويل لمن خالفه وعصاه .

ثم قال:تبًا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية،يا معشر إياد،أين الآباء والأجداد وأين المريض والعُوَّاد ، وأين الفراعنة الشداد ؟ أين من بنى وشيد ؟ وزخرف ونَجدً ،وغرَّة المال والولد ،أين من بغى وطغى ،وجمع فأوعى وقال:أنا ربكم الأعلى ؟

ألم يكونوا أكثر منكم أولادًا وأطول منكم آجالا . طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم الدهر بتطاوله فتلك عظامهم بالية ، وبيوتهم خالية عمرتها ، الكلاب العاوية .

كلا بل هو الله الواحد المعبود ، ليس بوالد ولا مولود .

قال النبى ﷺ : « فأيكم يروى شعره ؟ » قال : فأنشده أبو بكر الصديق رضى الله عنه تعالى وقال :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها تمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلىَّ ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر(١)

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٢٥٣ ، وقال تعقيبًا عليه : هذا حاصل الطرق السابقة ، قال البيهقى بعد أن أورد بعضها : إذا ورد الحديث من أوجه ، وإن كان بعضها ضعيفًا دل على أن للحديث أصلاً . وقال الحافظ عماد الدين بن كثير : هذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة . وقال الحافظ فى الإصابة : طرقه كلها ضعيفة . وقال الشيخ رحمه الله تعالى : أمثل طرقه الأول فإن ابن أخى الزهرى ومن فوقه من رجال البخارى ومسلم . وعلى بن محمد المدائنى ثقة . وأحمد بن عبد قال ابن عدى ، صدوق له مناكير ـ فإذا ضم طريق خلف بن أعين إليه حكم بحسنه بلا توقف ٢ / ٢٥٤ .

سادسا

بنو عنزة بن أسد بن ربيعة

بنو عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار

فهم يلتقون مع بكر وتغلب فى أسد . فبنو تغلب هم : بنـو جديلة بن أسد ، وبنو بكر مثله وهؤلاء بنو عَنَزة بن أسد .

(عن سلمة بن سعد ﷺ أنه وفد على رسول الله ﷺ هو وجماعة من أهل بيته وولده فاستأذنوا على رسول الله ﷺ فدخلوا ، فقال: « من هؤلاء ؟ »، فقيل له : هذا وفد عَنَزَة . فقال :

« بخ بخ بخ بخ » . أربعًا « نعم الحى عنَزَة مبغى عليهم منصورون ، مرحبًا بقوم شعيب وأختان موسى . سل يا سلمة عن حاجتك ؟ »

قال : جئت أسألك عما افترضت على فى الإبل والغنم . فأخبره ، ثم جلس عنده قريبًا ثم استأذنه فى الانصراف . فما عدا أن قام لينصرف ، فقال له رسول الله ﷺ «اللهم ارزق عنَزَة لافوت ولا سرف فيه » .

وعن حنظلة بن نعيم ﷺ عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يذكر قومك عنَزَة ذات يوم . فقال أصحابه :وما عنَزَة ؟ فأشار بيده نحو المشرق فقال : « حى هنا مبغى عليهم منصورون».رواه أبو يعلى برجال ثقات والبزار والطبرانى والإمام أحمد إلا أنه قال عن الغضبان بن حنظلة : إن أباه وفد إلى عمر ولم يذكر حنظلة (١) .

* * *

إنهم فرع من فروع ربيعة يفدون إلى النبى ﷺ فيثنى عليهم الثناء كله . ويبخبخ أربع مرات عليهم لعظيم ما هم فيه . أما الذى هم فيه أنهم مبغى عليهم . ولكن الله ناصرهم على من بغى عليهم . وذلك قبل أن يسمع منهم شيئًا . ورسول الله ﷺ الذى يوحى إليه ـ ولا ينطق عن الهوى يبقى هذا النص فضلاً لعنزة أبد الدهر « بخ بخ بخ بخ ، نعم الحى عنزة ، مبغى عليهم منصورون » وراح رسول الله ﷺ يرحب بهم ويعرف بهم بأعظم تعريف .

« مرحبًا بقوم شعيب وأختان موسى » فشعيب عليه الصلاة والسلام عربى ،

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٩٣ .

وهؤلاء قومه . وموسى أحد أولى العزم الخمسة من الرسل وهؤلاء أختانه . وها هم اليوم يغدون أنصار النبى ﷺ بعد أن كانوا أنصار شعيب وموسى عليهما الصلاة والسلام. فهم أهل مدين وامتداداتها .

وعاد بعدها رسول الله ﷺ . ليركز الثناء الفردى بعد الثناء الجماعى فسأل سلمة ابن سعد سيد القوم : « سل يا سلمة عن حاجتك ؟ » قال : جئت لأسألك مما افترضت علىَّ فى الإبل والغنم . فهو لا يريد أن يسمع قيلاً عن قال ،إنما يريد أن يلتقى برسول رب العالمين . ويسأله عن حق الفقراء والمساكين فى مال الأغنياء وفاز سلمة رضي الله عنه بدعاء بعد جواب سؤاله. هذا الدعاء من رسول الله ﷺ بالسعة فى رزقه ورزق قومه بعد جوابه سؤاله: « اللهم ارزق عنزة لافوت فيه ولا سرف على هدى القرآن **﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾** [الإسراء] .

حرب البسوس

ولا بد لنا قبل أن نودع ربيعة ونرى ما من الله عليها فى الإسلام أن نعرج على أشأم حرب فى تاريخ العرب بين حيين من أحياء ربيعة هما بكر وتغلب . وحين نشهد جانبًا من هذه الحرب وأسبابها نعرف نعمة الله على هذه الأمة حيث قال فيها :

﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٣)﴾ [إبراهيم] .

أسباب الحرب : حمية الجاهلية :

(لما فضّ كليب بن ربيعة جموع اليمن فى خزازى وهزمهم ، اجتمعت عليه معد كلها . وجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجيبته وطاعته . وغبر بذلك حينًا من دهره . ثم دخله زهو شديد ، وبغى على قومه لما هو فيه من عزة وانقياد معد له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالاً له . ولا يحتبى أحد فى مجلسه غيره . ولم يكن بكرى ولا تغلبى يجير رجلاً أو بعيرًا أو يحمى حمىً إلا بأمره . وكان يجير على الدهر فلا تخفر ذمته ، وكان يقول :

وحش أرض كذا فى جوارى . وكان هو الذى ينزل القوم منازلهم ويرحلهم . ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره . وقد بلغ من عزته وبغيه أنه اتخذ جرو كلب . فكان إذا نزل منزلاً به كلأ قذف ذلك الجرو فيه فيعوى فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه . وكان يفعل ذلك بحياض الماء فيردها . فلا يردها أحد إلا بإذنه أو من آذن بحرب فضرب به المثل فى العز فقيل :

أعز من كليب وائل .

وكان يحمى الصيد فيقول: صيد ناحية كذا وكذا فى جوارى، فلا يصيد أحد منه شيئًا وتزوج كليب جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان، وكان لمرة عشر بنين جساس أصغرهم. وكانت بنو جشم وبنو شيبان تقيم فى دار واحدة إرادة الجماعة ومخافة الفرقة .

وحدث أن كليبًا دخل على امرأته جليلة يومًا فقال لها : هل تعلمين على الأرض أمنع منى ذمة ؟ فسكتت ثم أعاد عليها الثانية فسكتت ، ثم أعاد الثالثة فقالت : نعم أخى جساس وندمانه ابن عمه عمرو المزدلف بن أبى ربيعة بن ذهل بن شيبان .

فسكت كليب ومضت مدة وهى تغسل رأسه وتسرحه ذات يوم إذ قال لها : من أعز وائل ؟ قالت : أخواى جساس وهمام . فنزع رأسه من يدها وخرج .

وكان لجساس خالة اسمها البسوس بنت منقذ ، جاءت ونزلت على ابن اختها جساس . فكانت جارة ولها ناقة خوارة ومعها فصيل لها . فلما خرج كليب غاضبًا من قول زوجه جليلة رأى فصيل الناقة فرماه بقوسه فقتله ، فعلمت بنو مرة بذلك ، فأغمضوا على ما فيه وسكتوا . ثم لقى كليب ابن البسوس فقال له : ما فعل فصيل ناقتكم ؟ قال : قتلته وأخليت لنا لبن أمه . وأغمضت بنو مرة على هذا أيضًا .

ثم إن كليبا أعاد القول على امرأته فقال: من أعز وائل؟ فقالت: أخواى ، فاضمرها فى نفسه وأسرها وسكت. حتى مرت به إبل جساس وفيها ناقة البسوس. فأنكر الناقة ثم قال : ما هذه الناقة ؟ قالوا : لخالة جساس . قال أو بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير علىَّ بغير إذنى ؟ ارم ضرعها يا غلام . فأخذ القوس ورمى ضرع الناقة. فاختلط دمها بلبنها . وراحت الرعاة على جساس فأخبروه بالأمر . وولت الناقة ولها عجيج حتى بركت بفناء البسوس . فلما رأتها صاحت : واذُلاه ، فقال لها جساس : اسكتوا فلك بناقتك ناقة أعظم منها فأبت أن ترضى حتى صاروا إلى عشر . فلما كان الليل أنشأت تقول تخاطب سعدًا أخا جساس وترفع صوتها تُسْمِعُ جساسًا :

أيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل فإنى فى قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادى إليك فإننى محاذرة أن يغدروا ببنياتى
لعمرك لو أصبحت فى دار منقذ لما ضيم سعد وهو جار لأبياتى
ولكننى أصبحت فى دار معشر متى يعدو فيها الذئب يعدو على شاتى

فلما سمعها جساس : قال لها : اسكتى لا تراعِى . إنى سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة سأقتل غلالاً (فحل إبل كليب) .

ثم ظعن ابنا وائل . فمرت بكر على نهى (غدير ماء) يقال له : شبيث . فنفاهم عنه كليب وقال : لا يذوقون منه قطرة . ثم مروا على نِهى آخر ، يقال له : الأحص فنفاهم عنه وقال : لا يذوقون منه قطرة ثم مروا على بطن الجريب فمنعهم إياه . فمضوا حتى نزلوا الذنائب ، واتبعهم كليب ودحيه حتى نزلوا عليه فمرَّ عليه جساس ومعه ابن عمه عمرو بن الحارث بن ذهل ، وهو واقف على غدير الذنائب . فقال له : طردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشًا . فقال كليب : ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون . فقال له : هذا كفعلك بناقة خالتى . فقال له : أوذكرتها أما إنِى لو وجدتها فى غير إبل مرة لا ستحللت تلك الإبل بها ، أتراك مانعى أن أذب عن حماى . فعطف عليه جساس فرسه فطعنه برمح فأنفذ حضنيه (مادون الإبط إلى الكشح) فلَما تداءمه الموت . قال:يا جساس : اسقنى من الماء ؟ فقال : ما عقلت استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه. فالتفت إلى عمرو وقال:يا عمرو أغثنى بشربة ماء.فنزل إليه وأجهز عليه .

وأمال جساس يده بالفرس حتى انتهى إلى أهله يركضه . وقد بدت ركبتاه . ولما رأته أخته قالت لأبيها : إن « هذاَ الجَساس » أتى كاشفًا ركبتاه . فقال : والله ما خرجت ركبتاه إلا لأمر عظيم فلما جاء جساس قال له : ما وراءك يا بنى ؟ قال : ورائى أنى قد طعنت طعنة لتشغلن بها شيوخ وائل زمنًا . قال : وما هى ؟ لأمك الويل ! أقتلت كليبًا ؟ فقال : نعم . فقال له أبوه :

إذن نسلمك بجريرتك ، ونريق دمك فى صلاح العشيرة لبئس ما فعلت . فرقت جماعتك وأطلت حربها . وقتلت سيدها فى شارف من الإبل . والله لا تجتمع وائل بعدها ، ولا يقوم لها عماد فى العرب ،والله لوددت أنك وإخوتك كنتم متم قبل هذا . ما بى ألا أن تتشاءم بى أبناء وائل) (١) .

وصدق مرة . ووقعت الحرب من أجل ناقة . وقد مكثت أربعين سنة وقعت فيها

(١) أيام العرب لجاد المولى وزملائه ص١٤٣ ـ ١٤٥ .

هذه الأيام : يوم النهى (والنهى : ماء لبنى شيبان) لتغلب على بكر .

يوم الذنائب (الذنائب : موضع على طريق البصرة إلى مكة) لتغلب على بكر .

يوم واردات (وواردات : موضع من يسار طريق مكة إلى البصرة) لتغلب على بكر .

يوم القصبات (والقصبات : موضع فى ديار بكر وتغلب) لتغلب على بكر .

يوم عنيزة (موضع فى اليمامة) تكافآ .

يوم تحلاق اللمم (سمى بذلك لأن بنى بكر حلقوا فيه جميعًا رؤوسهم) لبكر على تغلب) [1] .

هؤلاء العرب بدون إسلام :

وأحيانا على بكر أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا

وحتى معركة ذى قار لم تكن بين العرب والفرس إنما كانت بين بكر وشيبان وحلفائها من جهة . وبين الفرس وحلفائهم من العرب وهم تغلب والنمر ، وقضاعة وإياد وهم ثلاثة آلاف من العرب وألفان من الفرس مقابل بكر وحلفائها . ولم تتحرك إلا نخوة إياد التى اتفقت سرًا مع بكر ضد الفرس .

أما الحروب الأخرى فكلها بين العرب يأكل القوى فيهم الضعيف . وشهدنا طغيان كليب واستبداده وحرصه على إذلال العرب لشخصه . وذلك عندما أعطته معد (ربيعة وقيس) أمرها فقادها لحرب عرب الجنوب يوم خزازى: « قال هشام بن السائب الكلبى : (لم تجتمع معد كلها إلا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب وهم عامر بن الظرب يوم البيداء حين تمذحجت مذحج وسارت إلى تهامة . وربيعة بن الحارث يوم السلان ، وكليب حين قاد جموع معد يوم خزازى) [2] .

وبهذا النصر أراد أن يجعل نفسه إلها للعرب من دون الله .

صفحة من الإسلام

هذه صفحة الجاهلية . فماذا عن صفحة الإسلام ؟

---

(1) أيام العرب لجاد المولى وزملائه ص١٤٢ .

(2) المصدر السابق هامش ص١٤٢ .

لقد شهدنا وفد تغلب بن وائل وكيف أصروا على نصرانيتهم ، هذا فيمن كان فى الأرض العربية أما من كان فى سلطان فارس أو سلطان الروم فأولئك بقوا فى ولائهم وقيادتهم لهذين السلطانين ، وكان التطور الحاسم فى تغلب يوم فتح تكريت التى كانت تحت النفوذ الرومانى ، فكتب سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه إلى عمر أمير المؤمنين أن أهل الموصل قد اجتمعوا إلى الأنطاق . أحد قادة الروم ، وإقباله حتى نزل بتكريت ، فكتب عمر أمير المؤمنين إلى سعد :

سرح إلى الأنطاق عبد الله بن المعتّم ، واستعمل على مقدمته ربعى بن الأفكل العنزى . وعلى ميمنته الحارث بن حسان الذُهلى وعلى ميسرته فرات بن حيان العِجلِى وعلى ساقته هانئ بن قيس . وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة . ففصل عبد الله بن المعتم فى خمسة آلاف من المدائن . فسار إلى تكريت أربعًا حتى نزل على الأنطاق ومعه الروم وإياد وتغلب والنَّمر ومعه الشهارجة وقد خندقوا بها ، لقد كان عمر رضي الله عنه يختار القيادات العظمى . ويقود المعركة من المدينة . والملاحظ أن كل القيادات هى من ربيعة ما عدا القائد العام عبد الله بن المعتم . والذى كان عمر يحرص أن يكون من صحابة رسول الله ﷺ . وعرفجة بن هرثمة على الخيل وهو من الصحابة كذلك . واختيار القيادات العليا من ربيعة لأنها أدرى بالأرض وبالعدو الذى تواجهه .

(وقد خندقوا بها . فحصرهم أربعين يومًا . فتزاحفوا بها أربعة وعشرين زحفًا . ووكل عبد الله بن المعتم بالعرب ليدعوهم إليه وإلى نصرته على الروم . فهم لا يخفون عليه شيئًا .

ولما رأت الروم أنهم لا يخرجون خرجة إلا كانت عليهم ويُهزمون فى كل ما زاحفوهم ، تركوا أمراءهم ، ونقلوا متاعهم إلى السفن . وأقبلت العيون (الجواسيس) من تغلب وإياد والنمر إلى عبد الله بن المعتم بالخبر . وسألوه للعرب السلم . وأخبروه أنهم قد استجابوا له . فأرسل إليهم : إن كنتم صادقين بذلك فاشهدوا أن لا إله إلا الله . وأن محمداً رسول الله وأقروا بما جاء من عند الله ثم أعلمونا رأيكم . فرجعوا إليهم بذلك . فردوهم إليه بالإسلام . . .) .

لم يكن هدف الفتوح نصر عربى على عربى أو عربى على رومى أو فارسى . إنما كان الهدف الأعلى هو الجهاد فى سبيل الله ، ونصرة هذا الدين ، وكما رأينا فالجيش الإسلامى ذو القيادة العربية قد حقق الانتصار المطلوب من خلال أربعة وعشرين زحفًا حطمت العدو ، وجعلته يفكر بالهرب . والعرب من تغلب وإياد والنمر تودُّ السلم لها . فطالبهم قائد الجيش الإسلامى بالإسلام لهذا السلم . واستجاب أكثرهم لهذه الدعوة

واستجابوا للإسلام .

(فردهم إليهم وقال : إذا سمعتم تكبيرنا ، فاعلموا أنا قد نهدنا إلى الأبواب التى تلينا لندخل عليهم منها فخذوا الأبواب التى تلى دجلة. وكبروا واقتلوا من قدرتم عليه ، فانطلقوا حتى تواطئوهم على ذلك . ونهد عبد الله والمسلمون لما يليهم فكبروا وكبَّرت تغلب وإياد والنمر . وقد أخذوا بالأبواب فحسب القوم أن المسلمين قد أتوهم من خلفهم فدخلوا عليهم مما يلى دجلة فبادروا الأبواب التى عليها المسلمون . فأخذتهم السيوف ،سيوف المسلمين مستقبلتهم وسيوف الربعيين الذين أسلموا ليلتئذٍ من خلفهم . فلم يسلم من أهل الخندق إلا من أسلم من تغلب وإياد والنمر) (١) .

موقعة الحصنين

انتهى فتح تكريت . وكان على ربيعة التى أسلم قسم كبير منها من إياد وتغلب والنمر أن تقود معركة الجهاد فى سبيل الله .

(وقد كان عهد عمر إلى سعد : إن هم هزموا (أى الروم) أن يأمر عبد الله بن المعتم بتسريح ابن الأفكل العنزى (وهو من ربيعة) إلى الحصنين فأخذ بالطريق وقال : اسبق الخبر. وسر ما دون القيل ،وأحى الليل .وسرَّح معه تغلب وإياد والنمر فقدَّمهم ، وعليهم عتبة بن الوعل أحد بنى جشم (من قوم كليب بن وائل) وذو القرط ، وأبو وداعة بن أبى كرب وابن ذى السنينة قتيل الكلاب وابن الحجير الإيادى وبشر بن أبى حوط متساندين) .

هؤلاء قادة ستة جدد من ربيعة وكانوا مع الروم فى تكريت ، هاهم اليوم طليعة الزحف نحو الحصنين ، وعلى رأسهم عتبة بن الوعل (ولما كانوا منها قريبًا قدَّموا عتبة ابن الوعل (التغلبى) فادعًى بالظفر والنفل والقفل (أى دعا الله بذلك) ثم ذو القرط،ثم ابن ذى السنينة ثم ابن الحجير ثم بشر ،ووقفوا بالأبواب . وقد أخذوا بها ، وأقبلت سرعان الخيل مع ربعى بن الأفكل حتى اقتحمت عليهم الحصنين . فكانت إياها، فنادوا بالإجابة إلى الصلح . فأقام من أجاب . وهرب من لم يستجب إلى أن أتاهم عبد الله بن المعتم.فلما نزل عليهم عبد الله دعا من لج وذهب ،ووفى لمن أقام . فتراجع الهراب ، واغتبط المقيم ، وصارت لهم المنعة والذمة . واقتسموا فى

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٤٧٤ ، ٤٧٥ .

تكريت على كل سهم ألف درهم ، للفارس ثلاثة آلاف وللرجل ألف وبعثوا بالأخماس مع فرات بن حيان. وبالفتح مع الحارث بن حسان وولى حرب الموصل ربعى بن الأفكل العنزى والخراج عرفجة بن هرثمة) [1] .

فكم الفرق بين حرب البسوس التى استمرت أربعين عامًا لتأليه فرد . أو قبيلة وبين فتح تكريت وفتح الحصنين . ليدخل الناس فى دين الله أفواجا . لقد كان هذا بعد ستة عشر عامًا فقط من وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وفد تغلب وإياد والنمر عند عمر أمير المؤمنين

سبق أن ذكرنا أن عبد الله بن المعتم رضي الله عنه بعث بالأخماس مع فرات بن حيان العجلى (من ربيعة) وبالفتح مع الحارث بن حسان . أما الحارث بن حسان فهو من ربيعة . لكنه من بكر بن وائل قوم جساس بن مرة . وهو الذى افتخر وقال :

أنا ابن حسان بن حوطٍ وأبى رسول بكرٍ كلها إلى النبى

والقادة الستة من تغلب وإيـاد والنمر . وفد منهم خمسة فقط إلى عمر أمير المؤمنين . أما السادس فهو ـ أخو حسان بن حوط بشر بن أبى حوط من بكر بن وائل . وهؤلاء مضوا فى الجهاد ولهم قدم راسخة فى الإسلام منذ بداية الفتوحات .

(وكان فى وفود عبد الله بن المعتم عتبة بن الوعل ، وذو القرط ، وابن ذى السنينة . وابن الحجير وبشر . فعاقدوا عمر على بنى تغلب فعقد لهم على أن من أسلم منهم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ومن أبى فعليه الجزاء . وإنما الإجبار من العرب على من كان فى جزيرة العرب) [2] .

فالطبرى يشير إلى أن الإسلام يقبل الجزية من العربى ما لم يكن مقيمًا فى جزيرة العرب انطلاقًا من حديث رسول الله ﷺ : « لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان » . وهؤلاء التغلبيون خارج جزيرة العرب ، فتقبل منه الجزية . لكن المشكلة أن بنى تغلب يعتبرون الجزية إهانة وذلاً وكان القادة الخمسة يدركون ذلك . فقالوا لأمير المؤمنين :

(إذًا يهربون وينقطعون فيصيرون عجمًا فأمْرٌ أجمل ؛ الصدقة . فقال : ليس إلا الجزاء فقالوا : تجعل جزيتهم مثل صدقة المسلم فهو مجهودهم ، ففعل على ألا ينصروا

(١) تاريخ الطبرى ٢ / ٤٧٤ ، ٤٧٥ .

(٢) المرجع السابق ٢ / ٤٧٧ .

وليدًا ممن أسلم آباؤهم . فقالوا : لك ذلك) [1] .

فقد رضى التغلبيون مضاعفة الجزية لتكون مثل صدقة المسلمين أنفة أن يختلفوا عنهم ورضى عمر رضي الله عنه بذلك . وانقسم التغلبيون قسمين :

قسم على رأسه هؤلاء القادة الخمسة ومن أسلم معهم من قومهم . وانضموا إلى الجيش الإسلامى وكانوا أهل الكوفة فيما بعد . وقسم آخر بقى فى أرضه تؤخذ منه الجزية المضاعفة إذا أصر على نصرانيته .

يقول الطبرى رحمه الله (فهاجر هؤلاء التغلبيون ومن أطاعهم من النمريين والإياديين إلى سعد بالمدائن وخطوا معه بعد الكوفة . وأقام من أقام فى بلاده على ما أخذوا لهم من عمر مسلمهم وذميهم) [2].

(١ ، ٢) تاريخ الطبرى ٢ / ٤٧٧ .

وفود قضاعة

١ـ وفد بني بهراء .

٢ـ وفد بلي .

٣ـ وفد سعد هذيم .

٤ـ وفد بني جرم .

٥ـ وفد بني عذرة .

٦ـ وفد سلامان بن سعد هذيم .

٧ـ وفد كلب بن وبرة.

٨ ـ وفد خشين .

بنو قضاعة

وهم الفرع الثالث من العرب ؛ فرع عدنان ، وفرع قحطان ، وفرع قضاعة .

ولاختلاف النسابين فى أصل قضاعة وهل هم فرع من عدنان أو قحطان صاروا يذكرون فرعًا مستقلاً ثالثًا عن الفرعين الكبيرين .

(قال قوم : هو قضاعة بن عدنان ، وقال قوم : هو قضاعة بن مالك بن حمْير . وقال قوم منهم الكلبى : هو قضاعة بن مالك بن عمر بن مرة بن زيد بن مالك بن حِمْير . والله أعلم .

فولد قضاعة الحافِى ، لم يعقب لقضاعة ولد غيره . فولدُ الحافى بن قضاعة عمران وعمرو وأسلم . وهؤلاء بنو عمرو بن الحافى بن قضاعة . فولد لعمرو بن الحافى . حيدان وبهراء وبلى) [1] .

١ـ وفد بنى بهراء

(روى محمد بن عمر عن كريمة بنت المقداد بن عمرو ﷺ قالت : سمعت أمى ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب تقول :

قدم وفد بهراء من اليمن على رسول الله ﷺ وكانوا ثلاثة عشر رجلاً . فأقبلوا يقودون رواحلهم حتى انتهوا إلى باب المقداد بن عمرو،ونحن فى منازلنا ببنى حديلة [2] فخرج إليهم المقداد فرحب وأنزلهم وقدم لهم جفنة من حيس . قالت ضباعة : كنا قد هيأناها قبل أن يحلوا لنجلس عليها فحملها المقداد وكان كريمًا على الطعام ، فأكلوا منها حتى نهلوا . وردَّت إلينا القصعة وفيها شىء فجمع فى قصعة صغيرة ثم بعثنا بها مع سدرة مولاتى إلى رسول الله ﷺ فوجدته فى بيت أم سلمة . فقال : « ضباعة أرسلت بهذا ؟ » قالت سدرة : نعم يا رسول الله . قال : « ضعى » . ثم قال : « ما فعل ضيف أبى معبد ؟ » [3] قلت : عندنا .

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم .

(٢) بنو حديلة : بطن من الأنصار .

(٣) أبو معبد : كنية المقداد بن الأسود .

فأصاب منها رسول الله ﷺ هو ومن معه فى البيت حتى نهلوا وأكلت معهم سدرة ثم قال : « اذهبى بما بقى إلى ضيفك » قالت سدرة :

فرجعت بالقصعة إلى مولاتى . قالت : فأكل منها الضيف ما أقاموا . فردَّدها عليهم وما تغِيض (١) حتى جعل الضيف يقولون :

يا أبا معبد ، إنك لتُنهلنا من أحب الطعام إلينا وما كنا نقدر على مثل هذا إلا فى الحين . وقد ذكر لنا أن بلادكم قليلة الطعام إنما هو العُلْق (٢) . أو نحوه ونحن عندكم فى الشبع . فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله ﷺ أنه أكل منها وردها وهذه بركة أصابعه ﷺ فجعل القوم يقولون : نشهد أنه رسول الله ، وازدادوا يقينًا ، وذلك الذى أراد ﷺ فأتوه ، فأسلموا ، وتعلموا الفرائض ، وأقاموا أيامًا ثم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فأتوه يودعونه فامر لهم بجوائز وانصرفوا إلى أهليهم .

* * *

الشخصية الأولى من بهراء هو المقداد بن عمرو ﷺ . وهو من السابقين الأولين من المهاجرين ومن الرعيل الأول الذى تربى على يدى رسول الله ﷺ فى مكة فى قلب المحنة . ولاقى كل صنوفها . وأول مأثرة من مآثره ﷺ أنه أول من أعلن الإسلام فى مكة أو من أول من أعلن ذلك (قال ابن مسعود : أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة منهم المقداد) .

لكن ما هو المقداد فى جاهليته ؟ وكيف وصل إلى مكة ؟

(هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة . . . بن أهون بن بهراء بن عمرو بن الحافى بن قضاعة البهراوى المعروف بالمقداد بن الأسود ، وهذا الأسود الذى ينسب إليه هو الأسود ابن عبد يغوث الزهرى وإنما نسب إليه لأن المقداد حالفه، فتبناه الأسود فنسب إليه ويقال له أيضًا : المقداد الكندى ، وإنما قيل له ذلك ؛ لأنه أصاب دمًا فى بهراء فهرب منهم إلى كندة فحالفهم ثم أصاب فيهم دمًا فهرب إلى مكة فخالف الأسود بن عبد يغوث) (٣) (٤) .

فماضيه فى الجاهلية ماض معرقٌ فى القتل حيث قتل قتيلين أحدهما فى قومه

(١) تغيض : تنقص . (٢) العلق : البلغة من الطعام .
(٣) والأسود بن عبد يغوث بن وهب هو ابن أخى آمنة أم النبى ﷺ ، وحيث إن الأسود تبناه فصارت خديجة بمثابة جدته . ومن هنا كان قربه من رسول الله ﷺ .
(٤) أسد الغابة لابن الأثير ٤ / ٤٠٩ .

والآخر فى حلفائه كندة ،فالشجاعة والجاهلية والتهور تجرى فى دمه . وعندما انضم إلى الإسلام وجد صعوبة كبيرة فى ضبط نفسه وكف يده عن القتل والقتال ، وأصبح إنسانًا جديدًا موحدًا لله جنديًا لرسول الله ﷺ ولهذا برزت شجاعته بأقوى ما يكون يوم أعلن إسلامه فى مكة فى بيئة حاقدة على الإسلام . فالأسود بن عبد يغوث كان من أول وكبار المستهزئين (قال البلاذرى : كان إذا رأى المسلمين قال : جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر . ويقول للنبى ﷺ : أما كلمت اليوم من السماء يا محمد وما أشبه هذا القول . . ويقال : إن جبريل ﷺ أومأ إلى رأسه فضربته الأكلة فامتخض رأسه قيحًا [١] وذلك مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر] .

وأمام الحرب العنيفة التى شنت عليه رضي الله عنه مضى مهاجرًا إلى الحبشة . ثم عاد إلى مكة قبيل هجرة المدينة فحبس عن الهجرة ، واستطاع بدهائه أن ينضم لجيش المشركين الذى يقوده عكرمة بن أبى جهل هو وعتبة بن غزوان على أساس أنهما خارجان لغزو محمد رسول ﷺ . وعندما التقى الجمعان . فرا وانضما إلى الجيش النبوى بقيادة عبيدة ابن الحارث رضي الله عنه .

أما فى بدر فقد كان بدرًا ساطعًا فيها وذلك حين استشار رسول الله ﷺ الناس فى مواجهة قريش (فقام أبو بكر فأحسن ، ثم قام عمر فأحسن .ثم قام المقداد بن عمرو : فقال :

يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك . والله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له رسول الله خيرًا ودعا له به) [٢] لقد انتهى كف اليد . وبدأ الجهاد الذى يعشقه المقداد . فقد كان أحد فارسين فى بدر هما كل سلاح الفرسان فيها وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وحتى نعرف عظمة المقداد رضي الله عنه نستمع إلى عمر بن الخطاب وهو يبعث مدده إلى عمـــرو بـــن العاص قائلاً له قبيل فتح مصر (فلما أبطأ عليه الفتح كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ويعلمه ذلك ، وأمده بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل . وكتب إليه عمر بن الخطاب : إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف ؛ الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو،وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد (أو خارجة بن حذافة).

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢ / ٦٠٥ .   (٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢ / ١٩٤ .

وقال عمر : اعلم أن معك اثنى عشر ألفًا ولا يغلب اثنا عشر ألف عن قلة) [١] .

وبلغ صيت المقداد أرض العرب كلها . وخاصة قومه بهراء في اليمن . وعندما قرروا أن يفدوا إلى النبى ﷺ فى العام التاسع للهجرة . كانوا يعرفون أن علمًا من أعلام أصحاب محمد ﷺ هو منهم ومن أجل هذا جاؤوا إليه بدون تردد فهو ابنهم وهو وسيطهم وشفيعهم ورسولهم إلى رسول الله ﷺ . وما أسعد المقداد بقومه بهراء من أقصى اليمن يأتون وافدين للانضمام إلى هذا الدين الجديد وأسعدتنا كريمة بنت المقداد رضي الله عنها أن نقلت لنا أنباء هذه الضيافة العجيبة . ولا ننسى إكرام المقداد بأن يكون زوجًا للهاشمية العظيمة ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب . وراحت الفتاة تنقل لنا جزئيات هذه الضيافة فى بيت أمها وأبيها .

(قدم وفد بهراء من اليمن على رسول الله ﷺ وكانوا ثلاثة عشر رجلاً . فأقبلوا يقودون رواحلهم حتى انتهوا إلى باب المقداد بن عمرو . ونحن فى منازلنا بنى حديلة . فخرج إليهم المقداد فرحب وأنزلهم وقدَّم لهم جفنة من حيس [٢]) قد شهدنا شجاعته. أما كرمه فلم نشهده إلا هنا حيث قدَّم طعامه وطعام أولاده لضيفه (وقدَّم لهم حفنة من حيس كنا قد هيأناها قبل أن يحلوا ، لنجلس عليها (فنأكلها) .

وأكل الضيف ونهل وشبع وارتوى . فليعد ببقايا هذا الحيس للأولاد الذين يتضاغون من الجوع وإذا لم يفعل ذلك . فلا أقل أن تفعل الأم هذا وتطعم أولادها الجياع تلك البقايا من الشراب فيسدون به رمقهم . لكن ضباعة رضي الله عنها تنتمى إلى عالم آخر ، وإلى أسرة أخرى تنتميان إلى أسرة النبوة التى تعيش البركة النبوية فى كل ذرة من أجسادهم . بعثت بالبقايا إلى رسول الله ﷺ .

(وردت إلينا القصعة وفيها شيء ، فجمع فى قصعة صغيرة ثم بعثنا بها مع سدرة مولاتِي إلى رسول الله ﷺ) وتتابع كريمة رضي الله عنها القصعة فهى مهيأة أن تدخل التاريخ . وبهذا الهدف بُعث بها إلى رسول الله ﷺ وكأنما القصعة فرحة أن يكون ما فيها شرابًا لرسول الله ﷺ وكان هذا الحوار القصير الهادئ . والابتسامة النبوية تملأ الجو عبيرًا وشذى وعطرًا .

(فوجدته فى بيت أم سلمة . فقال رسول الله ﷺ :

ـ ضباعة أرسلت بهذا ؟

---

(١) فتح مصر لابن عبد الحكم ص٦١ .

(٢) الحيس : الأقط (اللبن المجمد) بالتمر والسمن .

ـ سدرة : نعم يا رسول الله .

ـ قال : « ضعى » .

ـ ثم قال : « ما فعل ضيف أبى معبد ؟ » .

ـ قلت : عندنا) .

ووصلت رسالة ضباعة إلى ابن عمها وحبيبها رسول الله ﷺ فهى تريد عونًا لها على إطعام هؤلاء الضيوف الثلاثة عشر . وأرسلت الأمداد الكبرى إلى بيت ضباعة .

(فأصاب منها رسول الله ﷺ هو ومن معه فى البيت حتى نهلوا . وأكلت معهم سدرة ثم قال : « اذهبى بما بقى إلى ضيفكم » .

قالت سدرة : فرجعت بالقصعة إلى مولاتى) .

وتدخلت الملائكة . فكانوا هم الذين يملؤون القصعة بالحيس الطيب اللذيذ . وما أسعد قصعة المقداد أن تكون المعجزة النبوية الخالدة . وما أسعدها أن يقع الاختيار عليها لتكون بيدى الحبيب المصطفى ﷺ . إنه طعام مبارك . وإذا نزلت البركة فحيهلا بضيوف أهل الأرض (فأكل منها الضيوف ما أقاموا . فردَّدها عليهم وما تغيض) .

شيء عجيب حقًا . فماذا يشهد الضيوف عند مضيفهم المقداد . إنه الحيس ، إنها القصعة ، إنه الطعام يأكلون ويأكلون وينهلون فما ينتهى فى الصباح ولا فى المساء ولا فى اليوم الثانى ولا فى اليوم الثالث ولا الخامس . القصعة نفسها ، الحيس نفسه ، ولم يكن بد أن يعلنوا تعجبهم الذى أذهلهم .

(يا أبا معبد إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا . وما كنا نقدر على مثل هذا إلا فى الحين) .

هم فى اليمن السعيد المترع بالخيرات أعجز من أن يهيئوا مثل هذا الطعام اللذيذ الطيب المبارك كل يوم .

وأين هم . هم فى الحجاز بلد القوم الذين يعيشون على العلقة من الطعام ، والبلغة من العيش .

(وقد ذكر لنا أن بلادكم قليلة الطعام إنما هو العلَق أو نحوه . ونحن عندكم فى الشبع . ولم لا يكون أبو معبد النبى وقد فعل هذا كله بهذه القصعة من بقايا حيسهم

فى أول يوم . وهل يقدر على هذا إلا نبى متصل بالسماء . وصدق ما توقعوه . لكن النبى ـ القادمين للسلام عليه والإيمان به ـ هو الذى بارك لهم قصعتهم حين أكل ما تبقى من طعامهم . فأصبح ينمو بلا حساب ، ويؤكل فلا يغيض . وينهل فلا ينقص ، أليست معجزة شهدوها بأعينهم (فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله ﷺ أنه أكل منها وردها وهذه بركة أصابعه ﷺ) .

إنها دورة إيمانية لبضعة أيام هيأتهم للقاء رسول رب العالمين (فجعل القوم يقولون نشهد أنه رسول الله) . وازدادوا يقينا فسوف يمضون إلى أنحاء اليمن ، ويتحدثون بما شهدوا بأعينهم من معجزة القصعة وحيسها الذى هنئوا به كل هذه الأيام . وبعدها فى قلوب تغمرها السعادة واليقين والنور . ويتألق فيها الضياء كان لهم أن قابلوا رسول الله ﷺ وأسلموا واندفعوا يغرفون من معين النور (فأسلموا وتعلموا الفرائض وأقاموا أيامًا) ثم جاؤوا إلى أصعب لحظة ؛ إلى فراق حبيبهم المصطفى ﷺ بعد أن ولدوا من جديد وكانت هذه الأيام المباركة أسعد أيامهم . كأن لم يعرفوا الحياة قبلها (ثم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يودعونه . فأمر لهم بجوائز وانصرفوا إلى أهليهم) .

وحمدوا الله عز وجل أن أقر أعينهم قبل أن يموتوا برؤية النبى الخاتم . برؤية سيد ولد آدم ، بجائزة رسول رب العالمين التى سيورثونها إلى أولادهم وأحفادهم وأهلهم من بعد .

٢ ـ وفد بلِيّ

وقبل أن نتحدث عن وفد بلى . لا بد أن نشير إلى أن هذه القبيلة كان لها جالية كبيرة فى المدينة ودخل أبناؤها فى الإسلام وشاركوا فى فتوحاته . وتلقوا التربية النبوية المباشرة من مربى البشرية صلوات الله وسلامه عليه .وقد حفظ التاريخ لنا منهم ما لا يقل عن عشرة بدريين هم :

١ـ عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة . . . بن عامر بن أنيف

٢ـ المجذر بن زياد وهو الذى بارز فى بدرٍ وقال :

إمـــا جـــهلت أونسيت نسبى	فأثبت النسبة أنى مـــن بلــــى
الطاعنين برمـــاح اليزنــــى	والضاربين الكبش حـــتى ينحنى
بشر بيتم مـــن أبوه البخـــترى	أو بشرن بمثلها مـــنى بنـــى
أنا الذى يقال أصلـــى مـــن بلى	أطعن بالصعدة حـــتى تنثنى (١)

٣ ـ عبد الله بن زياد ، وهو أخو المجذر .

٤ ـ النعمان بن عمرو بن عبيد . . . بن هنى بن بلى وهو عقبى كذلك .

٥ ـ أبو بردة بن نيار . . . بن هنى بن بلى .

٦ ـ زيد بن أسلم بن عدى . . . بن هنى بن بلى .

٧ ـ ثابت بن أقرم بن عدى . . . بن هنى بن بلى .

٨ ـ معن بن عدى بن العجلان . . . بن هنى بن بلى .

٩ ـ عبد الله بن سلمة بن مالك . . . بن هنى بن بلى .

١٠ ـ سهل بن رافع بن خديج . . . بن فران بن بلى وهو الذى تصدق بالصاع فتكلم فيه المنافقون فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُم** ﴾(١) [التوبة : ٧٩] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٥ .

وبعد البدريين ممن جاهد مع رسول الله ﷺ منهم :

١١ ـ كعب بن عجرة . . . بن فران بن بلى صاحب رسول الله ﷺ .

١٢ ـ عبد الله بن أسلم بن بيجان . . . بن فران بن بلى ممن بايع تحت الشجرة .

١٣ ـ عبد الله بن أسلم بن زيد بن بيجان . . . بن فران بن بلى صاحب رسول الله ﷺ .

١٤ ـ طلحة بن البراء بن عمير . . . بن فران بن بلى له صحبة محمودة ونية خالصة فى الإسلام .

١٥ ـ عبدة بن المعتب بن الجد . . . بن هنى بن بلى شهد أحدًا .

١٦ - عبد الرحمن بن عديس أحد المحاصرين لعثمان ويقال : له صحبة) [١] .

فهذه هى الكوكبة الأولى من السابقين الأولين من الأنصار والذين جاهدوا قبل الفتح ومنهم العقبى والبدرى والحديبى والأحدى .

ونعود إلى وفد بلى الذى يحدثنا عنه مضيفهم رويفع بن ثابت البلوى .

وروى ابن سعد عن رويفع بن ثابت البلوى ﷺ قال :

قدم وفد من قومى فى شهر ربيع الأول سنة تسع فأنزلتهم فى منزلى ببنى حديلة . ثم خرجت بهم حتى أتينا رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه فى بيته فى الغداة فسلمت فقال : « رويفع » فقلت : لبيك ، قال :« من هؤلاء القوم ؟ » قلت : قومى، قال : « مرحباً بك وبقومك » قلت : يا رسول الله ، قدموا وافدين عليك مقرين بالإسلام وهم على من وراءهم من قومهم ، فقال رسول الله ﷺ :« من يرد الله به خيراً يهده للإسلام » قال .

فتقدم شيخ الوفد أبو الضبيب فقال : يا رسول الله ، إنا قدمنا عليك لنصدقك ونشهد أن ما جئت به هو الحق ونخلع ما كنا نعبد ويعبد آباؤنا فقال رسول الله ﷺ :

« الحمد لله الذى هداك للإسلام فكل من مات على غير الإسلام فهو فى النار » .

وقال له أبو الضبيب: يا رسول الله، إنى رجل لى رغبة فى الضيافة فهل لى فى ذلك أجر ؟ فقال رسول الله ﷺ: « نعم وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة » قال : يا رسول الله ما وقت الضيافة ؟

قال : « ثلاثة أيام فإذا زاد بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك » .

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٤٤٢ ، ٤٤٣ .

قال : يا رسول الله ، أرأيت الضالة من الغنم أجدها فى الفلاة من الأرض ؟

قال : « لك أو لأخيك أو للذئب » قال : فالبعير ؟ قال : « مالك وله ، دعه حتى يجده صاحبه » .

قال رويفع : وسألوا عن أشياء من أمر دينهم فأجابهم ثم رجعت بهم إلى منزلى:

فإذا رسول الله ﷺ يأتى بحمل تمر يقول استعن بهذا التمر .

قال : فكانوا يأكلون منه ومن غيره ، فأقاموا ثلاثاً ثم جاؤوا رسول الله ﷺ يودعونه فأمر لهم بجوائز كما كان يجيز من قبلهم ثم رجعوا إلى بلادهم) (١) .

* * *

لابد أن نذكر ثانية أن بلى قد خاضت حروباً ضد الإسلام تحت راية الروم وذلك فى مؤتة وفى ذات السلاسل ، وفى سرية أسامة بن زيد رضي الله عنه وذلك لموقعها فى شمالى الجزيرة ومجاورتها للروم هناك ، ففى مؤتة :

(ثم مضوا إلى معان من أرض الشام ،فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى مائة ألف منهم ، عليه رجل من بلى ثم أحد إراشه يقال له : مالك بن رافلة .

إذن فقائد العرب كلها فى المعركة ضد المسلمين هو مالك بن زافلة الإراشى البلوى فهو الشخص الثانى فى جيش الكفر يقابل جعفر بن أبى طالب فى الجيش الإسلامى المكون من ثلاثة آلاف مقاتل .

ومن أجل ذلك كان مقتله حاسماً فى تقرير مصير المعركة التى قادها خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد استشهاد القادة الثلاثة وكان البطل الذى قتله من قضاعة كذلك وهو قطبة بن قتادة العذرى الذى كان على ميمنة المسلمين .

وقد كان قطبة بن قتادة الغدرى الذى كان على ميمنة المسلمين قد حمل على مالك ابن زافلة فقتله فقال قطبة بن قتادة :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٤٣٠ .

طعنــــــت ابن زافلـــة بن الإرا　　ش برمـــح مضى فيه ثـــم انحطم
ضربت على جـــــيدة ضـــربة　　فمال كـــما مـــــال غصن السلـــم
وسقـــنا نساء بــــــنى عمــــــه　　غداة رقوقين ســـــوق النعـــم) [١]

هؤلاء بلى فى مؤتة .

أما فى غزوة ذات السلاسل . فكانت محاولة تألفهم من عمرو بن العاص ﷺ لأن أمه من بلى . ومع ذلك فقد شاركوا فى حرب المسلمين بصفتهم جزء من قضاعة .

(وسار حتى وطئ بلاد قضاعة ، فدوخها حتى أتى أقصى بلادهم . ولقى فى آخر ذلك جمعًا فحمل عليهم المسلمون فهربوا فى البلاد وتفرقوا) [٢] .

لكن محاولة تفريق كلمة قضاعة ضد الإسلام كانت هدفًا رئيسيًا من الغزوة . فقد كانت الأوامر النبوية (وأمره أن يستعين بمن مرَّ به من بلى وعذرة وبلقين) [٣] .

وكانت سرية أسامة بن زيد ﷺ إلى الحرقان وإلى موقع مقتل أبيه زيد ليثأر له . ونفذ المهمة وأوطأ المواقع التى خاض أبوه فيها الحرب . وفيها من كل قبائل الشمال وقضاعة .

أما الآن فالوفد قادم ليعلن إسلامه ، ودخوله فى دين الله ، ولهذا كان فرح رويفع فيه فرحًا عظيمًا ولم يتمالك أن يمضى بالوفد كله ليلقى رسول الله ﷺ فى بيته . وكانت المحاورة المعمورة بالسعادة والرضا .

ـ « رويفع » .

ـ لبيك .

ـ « من هؤلاء القوم ؟ » .

ـ قومى .

ـ « مرحبًا بك وبقومك » .

ـ يا رسول الله ، قدموا وافدين عليك مقرين فى الإسلام ، هم على من وراءهم من قومهم .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٩ .

(٢ ، ٣) الرحيق المختوم للمباركفورى ص٤٤٢ .

ـ « من يرد الله به خيرًا يهده للإسلام » .

فليس وفدًا يمثل نفسه إنما يمثل بلى كلها . وانسحب رويفع وتقدم سيد بلى رئيس الوفد ليعلن لرسول الله ﷺ ما أعلنه رويفع بن ثابت (فتقدم شيخ الوفد أبو الضبيب فقال :

يا رسول الله ، إنا قدمنا عليك لنصدقك ونشهد أن ما جئت به هو الحق) .

وأبو الضبيب يدرك أن الدخول فى الإسلام هو الانخلاع الكامل من عقائد الجاهلية ومن أجل هذا أعلنها بين يدى رسول الله ﷺ فتابع :

« . . . ونخلع ما كنا نعبد ويعبد آباؤنا » .

فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذى هداكم للإسلام . . . » ولابد من الإشارة إلى الإيمان باليوم الآخر : فقال صلوات الله عليه « . . . فكل من مات على غير الإسلام فهو فى النار » ورأى القائد الأعظم ﷺ أن سيد القوم قد فَقِه دين الله . وخاصة من نزولهم بين قومهم فى المدينة .وكلهم من الرعيل الإسلامى الأول الذين فقهوهم معالم هذا الدين .

لكن أبا الضبيب يود أن يتعرف ما الذى يتعارض مع سيادته على قومه مع الإسلام حتى يتخلى عنه ولذلك كان لديه أسئلة محددة تتناول بيئة البادية وحياتها القاسية .

وتتجلى التساؤلات والإجابات فى حوار رائع بين سيد البشرية وسيد بلى :

يا رسول الله ، إنى رجل لى رغبة فى الضيافة فهل لى فى ذلك أجر ؟

« نعم . وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة » .

ـ يا رسول الله ، ما وقت الضيافة ؟

ـ « ثلاثة أيام ،فما بعد ذلك فصدقة ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك ».

(وهى رسالة إلى كل الأجيال وكل الضيوف وما أعظم هذا الأدب ، وأحوج الأمة إلى أن تتأدب به .

ثلاثة أيام وبعد ذلك فصدقة . وكم أحرج الضيوف أصحاب المنازل حين هجروا هذا الأدب النبوى العظيم) .

ـ يا رسول الله ، أرأيت الضالة من الغنم أجدها فى الفلاة من الأرض ؟

ـ « هى لك أو لأخيك أو للذئب » .

ـ فالبعير ؟

ـ « مالك وله ، دعه حتى يجده صاحبه » .

وفاتنا بقية الأسئلة التى شارك الوفد فيها . لنتعلم ونتأدب ونتربى عليها . فلم يحدثنا رويفع بها (وسألوا عن أشياء من أمر دينهم فأجابهم) .

وانتهت المقابلة الرسمية مع رئيس الدولة . ومع النبى الخاتم . وعاد القوم إلى بيت مضيفهم رويفع .

وبينا هم يتحدثون عن سعادتهم الغامرة بتلك المقابلة . كان رسول الله ﷺ الذى يعيش هموم أصحابه ، ويدرك تكاليف الضيافة الكبرى التى يتكلفها رافع لضيفه .

(ثم رجعت بهم إلى منزلى فإذا رسول الله ﷺ (هو بشخصه لا مع أحد رسله) يأتى بحمل تمر يقول : « استعن بهذا التمر ») .

ولئن كانت قصعة بهراء من الحيس ضرورية ليرى القوم المعجزة الحسية فعظمة التربية النبوية لبلى فى حمل التمر الذى يجىء به سيد الخلق لجنديه العظيم رويفع . وكلاهما ـ القصعة والحمل ـ مشاركة من دولة الإسلام وقائدها عليه الصلاة والسلام فى حمل أعباء الضيافة مع المؤمنين اللذين حملا مسؤولية ضيافة وفد قومهما إلى الإسلام . وثم التطبيق العملى للتعليمات . فكانت الضيافة ثلاثة أيام .

وكانت الجوائز النبوية تنتظرهم فردًا فردًا ليمضوا بها إلى قومهم موفورى الأحمال بالإيمان والجوائز وأحلام السعادة .

٣ ـ وفد سعد هذيم

(روى محمد بن عمر الأسلمي عن ابن النعمان عن أبيه قال : قدمت على رسول الله ﷺ وافدًا فى نفر من قومى . وقد أوطأ رسول الله البلاد غلبة وأذاخ العرب . والناس صنفان إما داخل فى الإسلام راغب فيه . وإما خائف من السيف فنزلنا ناحية من المدينة . ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا إلى بابه . فنجد رسول الله ﷺ يصلى على جنازة فى المسجد فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس فى صلاتهم، ودخلنا حتى نلقى رسول الله ﷺ ونبايعه . ثم انصرف ﷺ فنظر إلينا فدعا بنا فقال : « ممن أنتم ؟» قلنا : من بنى سعد هذيم . فقال : « أمسلـمون أنتـم ؟ » قلنا : نعم قال : « فهلا صليتم على أخيكم ؟ » قلنا :

يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك فقال ﷺ : أينما أسلمتم فأنتم مسلمون » .

قال : فأسلمنا وبايعنا رسول الله ﷺ بأيدينا على الإسلام، ثم انصرفنا إلى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا . فبعث رسول الله ﷺ فى طلبنا فأتى بنا إليه فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام . فقلنا يا رسول الله إنه أصغرنا وإنه خادمنا . فقال : « أصغر القوم خادمهم بارك الله عليه » فكان والله خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول الله ﷺ ثم أمَّرَه رسول الله ﷺ علينا فكان يؤمنا ولما أردنا الانصراف أمر بلالا فأجازنا بأواقى من فضة لكل رجل منا فرجعنا إلى قومنا فرزقهم الله عز وجل الإسلام) (١).

* * *

ناقل الحديث شاهد عيان فهو عضو الوفد مع قومه . وينقل لنا مع هذا القدوم صورة الجزيرة العربية وقبائلها التى غدت بين راغب فى الإسلام وساع إلى الدخول فيه. وبين خائف يخاف أن تأتيه كتائب الإسلام . تدعوه إليه . ولم يعد الإسلام نكرة فى أى موقع من مواقع الجزيرة . وأصبح حديث محمد رسول الله ﷺ يطوف فى آفاق الجزيرة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ومن أقصى المشرق إلى أقصى المغرب .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٢٤ .

ويتحرك الوفد نحو المدينة . وقلبه يخفق شوقًا للحظات اللقاء . فيسأل عن المسجد فيُدلُ عليه (ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا إلى بابه فنجد رسول الله ﷺ يصلى على جنازة فى المسجد). وعلى غير العهد فى الوفود . فليس فى المدينة سعدى واحد من قومهم ينزلون عليه . كما فعل إخوانهم من بهراء وبلى . وكيف كانوا وسطاء لوفود عشائرهم بلقاء رسول الله ﷺ .

ومن أجل هذا اختاروا ناحية من المدينة نزلوا فيها ، حيث لا بيت يؤويهم ، ولا رجل يستقبلهم .

المسلمون يصلون وهم خلف رسول الله ﷺ ينتظرون انتهاء الصلاة .

(ولم ندخل مع الناس فى صلاتهم . وقلنا حتى نلقى رسول الله ﷺ ونبايعه) .

فالبيعة على الإسلام هى مع شخص رسول الله ﷺ . ومن أجل هذا لم يسارعوا إلى الصلاة وانتظروا انفضاض الناس ليعلنوا بيعتهم لرسول الله ﷺ على هذا الدين الذى جاء به من عند الله (ثم انصرف ﷺ فنظر إلينا فدعا بنا . فقال : « ممن أنتم ؟» قلنا: من بنى سعد بن هذيم فقال : « أمسلمون أنتم ؟ » . قلنا نعم . قال : « فهلا صليتم على أخيكم ؟ » قلنا : يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك . فقال ﷺ : « أينما أسلمتم فأنتم مسلمون » .

هنا يفترق هذا الدين عن اليهودية والنصرانية المحرفة . فرجل الدين عندهم هو المحور ولا دخول لهذا الدين إلا من خلاله يعطى ويمنع والبابا يمثل الله فى أرضه . والاعتراف للقس يدخل الجنة . والخلاف معه يدخل الناس فى غضب الله فلا يدخلون الملكوت الأعلى ، فهو رجل الدين ، ومن خلاله يدلف الناس إليه . أما عظمة هذا الدين التوحيدى الخالص فى هذا الوجود أن الإسلام يتم بالشهادتين حتى لو لم يلق المسلم عالمًا . أو حتى مصطفى الله تعالى ورسوله الذى أرسله لخلقه . هؤلاء الناس الذين اعتادوا على ربط مصيرهم وحياتهم بشيخ قبيلتهم . وربطوا دينهم بقريش التى تملك اللباس الطاهر للطواف حول البيت . ورسول الله ﷺ يعلن للدنيا كلها أن الإسلام لا يرتبط بشخصه . لأن الإسلام عقيدة فى القلب ولفظ فى اللسان يدخل فيه المسلم بإعلانه هذا الدخول « أينما أسلمتم فأنتم مسلمون » وليس لذاته الشريفة حتى فى حياته شرط دخول الإسلام ، إنما هى بين الله تعالى وعبده دون واسطة .

ونرى من جهة ثانية هذا الربط العجيب فى أخوة العقيدة . فالميت لا يعرفون من

أى قبيلة هو . ولا أخوة عند العرب إلا أخوة القبيلة . فالولاء لها والبراء من أعدائها . أما هنا فلو أسلم فى أقصى الأرض مسلم يصبح المسلمون فى الأرض إخوانه أحياء وميتين . « فهلا صليتم على أخيكم » إنه شعور يغمر هذا الوفد الذى يرى نفسه غريبًا عن الدار غريبًا عن القوم ، غريبًا عن المسلمين . فإذا هذه الغربة تنهار فى لحظة وإذا هذه الألوف المؤلفة من المسلمين إخوانٌ لهذا الوفد حتى الميت الذى لم يلقوه فى حياته. ولم يعرفوا نسبه فهو أخوهم فى الله . هذا هو البناء العجيب الذى يتم فى لحظات . وتزول الغربة والفوارق بين المسلمين فى كلمات . الجميع إخوة . لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح : « هلا صليتم على أخيكم » حتى قبل أن يبايعوا رسول الله ﷺ . فقد انعقدت آصرة الأخوة منذ النطق بالشهادتين ويا عجبا من عصرنا النكد . يقيم المسلم فى دولة مسلمة مجاورة لدولته ثلاثين عامًا . ثم يقال له . أنت أجنبى ، وأنت غريب وأنت طارئ على البلد . وهذا الوفد يعقد رسول الله ﷺ آصرة أخوته على إخوانه قبل وصولهم إلى المدينة وقبل بيعتهم له على الإسلام. الأخوة مع الأحياء والميتين : « هلا صليتم على أخيكم ؟» .

قال : (فأسلمنا وبايعنا رسول الله ﷺ بأيدينا على الإسلام . ثم انصرفنا إلى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا فبعث رسول الله ﷺ فى طلبنا فأتى بنا إليه . فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام . فقلنا : يا رسول الله ، إنه أصغرنا وإنه خادمنا) .

هذا هو المفهوم الجاهلى للإنسان . فالصغير لا يؤبه له ، ولا وزن له . ومهمته الخدمة . والإسلام أكبر منه أما المفهوم الإسلامى فيختلف مع المفهوم الجاهلى للإنسان من الجذور . فالصغير صاحب عقيدة ، وصاحب مسؤولية . وله دوره الذى يضطلع فيه قد يفوق دور الكبار .

إنه الإسلام ، وإنه دين المستقبل (فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام) .

فقال : « . . . أصغر القوم خادمهم ، بارك الله عليه » .

لكن الخادم لصغر سنة لا يعنى أنه مُهمل لا يعبأ به . بل يحتفى به رسول الله ﷺ ويبايعه بيده على الإسلام فماذا كان ؟

(قال : فكان والله خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول الله ﷺ) .

فهذا هو سن التلقى العلمى ، والذاكرة أحد ما تكون ذكاء وحفظا . وإذا بهذا الخادم الصغير يكبر فى الوفد ويكبر حتى يغدو هو السفير بينهم ودين رب العالمين ،

لا يتقدمون عليه) .

(ثم أمَّرَه رسول الله ﷺ علينا . فكان يؤمنا) .

ولهذه البسطة من العلم التى أعطاها الله تعالى له . صار أهلاً ليس للإمامة فى الصلاة فقط بل للإمامة فى القبيلة (فأمره رسول الله ﷺ علينا) .

وبقى هو خادمهم لأنه صغيرهم . وصاروا جنودًا عنده لأنه أميرهم .

وهذا الصغير النظيف من كل أوضار الجاهلية . وكل قاذوراتها ، هو المؤهل ليكون أمينًا على قومه ، وسيدًا لهم .وبه أنيطت مسؤولية سعد هذيم . وصار هو المسؤول أمام رسول الله ﷺ عن قومه وهو الداعية القائد الذى لم يكن ليؤبه به لولا هذا الدين .

أو لم يكن رسول الله ﷺ ذلك الفتى الصغير . وأصغر القوم يوم خلفَّهُ قومه فى رحالهم حين دعاهم بحيرا إلى الطعام . وما كانت الوليمة إلا من أجله . بعد أن خلَفوه فى رحالهم . وهذا هو الأمير الصغير الذى لم يكن يحلم ويطمح بأكثر من أن يضع يده بيد رسول الله ﷺ ويصافحه مبايعًا إياه على الإسلام وإذا به يبايعه رسول الله ﷺ على الإسلام ، ثم على الإمامة فى الصلاة ، ثم على إمارة قومه .

٤ـ وفد بنى جَرْم

وهم بنو عم سعد هذيم .

فبنو جرْم بن ريان بن حلوان بن عمران بن الحافى بن قضاعة .

وبنو سعد هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافِى بن قضاعة .

واخترنا الحديث عنهم قبل بنى عذرة لتشابه القيادات الجديدة فى القبيلتين . والذى يروى لنا قصة وفد جرم ابتداء هو الطفل عمرو بن سلمة :

(روى البخارى وابن سعد وابن منده عن عمرو بن سلمة ﷺ قال :

كنا بحضرة ماء ممر الناس عليه . وكنا نسألهم ما هذا الأمر ! فيقولون : رجل يزعم أنه نبى وأن الله أرسله ، وأن الله أوحى إليه كذا وكذا . فجعلت لا أسمع شيئًا إلا حفظته كأنما يغرى فى صدرى بغراء حتى جمعت فيه قرآنا كثيراً .

قال :وكانت العرب تلوَّم [١] بإسلامها الفتح . يقولون انظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق وهو نبى فلما جاءتنا وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم . فانطلق أبى بإسلام حِواتنا [٢] ذلك . وأقام مع رسول الله ﷺ ما شاء الله له أن يقيم . ثم أقبل . فلما دنا منا تلقيناه . فلما رأيناه قال : جئتكم والله من عند رسول الله حقا . ثم قال : إنه يأمركم بكذا وكذا وينهاكم عن كذا وكذا ، وأن تصلوا صلاة كذا فى حين كذا وصلاة كذا فى حين كذا . وإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا . قال :

فنظر أهل حواتنا فما وجدوا أحدًا أكثر قرآنا منى الذى كنت أحفظه من الركبان . فدعونِى فعلمونى الركوع والسجود ، وقدمونى بين أيديهم . فكنت أصلى بهم وأنا ابن ست سنين . قال : وكان علىَّ بردة كنت إذا سجدت تقلصت عنى . فقالت امرأة من الحى:ألا تقطعون عنا است قارئكم ؟ قال : فكسونى قميصًا من معقد [٣] البحرين . قال : فما فرحت بشىء أشد من فرحى بذلك القميص) [٤] وفى رواية (فما شهدت

---

(١) تَلَوَّم : تنتظر .

(٢) الحواء : بيوت مجتمعة من الناس على ماء والجمع أحوية .

(٣) المعقد : ضرب من برود هجر .

(٤) البخارى وسبل الهدى والرشاد ٦ / ٤٧٣ .

مجمعًا من جرم إلا وأنا إمامهم إلى يومى هذا .

قال مسعر أحد رواته : وكان يصلى على جنائزهم ، ويؤمهم فى مسجدهم حتى مضى لسبيله) (١) .



عمرو بن سلمة كان ابن البادية ، نفسه متسعة اتساع الصحراء ، لا تعرف الحدود ولا القيود . ما إن يلمح غباراً من بعيد يثار حتى يشتد مع رفاقه لينظر من الركبان ، يدفعه حب الاستطلاع لأن يسمع كل شىء ويرى كل شىء . وكان مما لفت انتباهه . فأصاخ إليه سمعه كلام يسحر لبه ، ويأسر فؤاده وسرعان ما ينطبع على قلبه . وكأنه نبت معه . واستقر فى أعماقه ، ويسمع الركبان يقولون : إنه القرآن .

وإن هذا القرآن كلام الله . ومن عند الله فيزداد به تعلقًا وله انجذابا .

إنه ابن السادسة من العمر ، وكلما سمع بركب قادم يمضى سراعًا ليسمع هذا القرآن ، وكم تردد على ذهنه اسم محمد بن عبد الله القرشى ، وهو الذى ينزل القرآن على قلبه . رأى ذات يوم مضارب قومه تموج بأحداث جسام حين تناقلوا أن محمد بن عبد الله قد فتح مكة. ودانت مكة بالإسلام ، أحس فى صدره فرحًا لا يدرى مصدره . فهو يحفظ من هذا القرآن الذى نزل على محمد عليه الصلاة والسلام . إنه لن ينسى أبدًا ذلك اليوم الذى اختارت فيه عشيرته أباه سلمة ليكون رسولها إلى المدينة ليتعرف على هذا الدين الجديد .

محمد بن عبد الله ؟ لقد ملأ قلبه حب رسول الله ﷺ ولم يره بعد . وكلما خلد إلى نفسه راح يقرأ هذا الكلام العجيب عن ظهر قلب . لله ما أروعه وأحلاه وأين غاب عقل قومه عنه ؟

وكانت المفاجأة المنتظرة . لقد حضر أبوه من يثرب مدينة محمد ﷺ وما هى إلا لحظات حتى امتلأ البيت بأبناء القبيلة . هذا يصيح من هنا ، وذاك يسأل من هناك ، وثالث يستفسر . وساد لغط كبير . ماذا رأيت ؟ ماذا عن محمد ؟ هل هو نبى حقًا ؟ وراح سلمة يتكلم ، وأصاخ الجميع كأنما على رؤوسهم الطير : (قال سلمة بصوت جهورى تتردد أصداؤه فى الفضاء الرهيب :

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٤٧٣ .

جئت من عند النبى حقا . فقال : صلوا صلاة كذا فى حين كذا وصلوا صلاة كذا فى حين كذا . فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا) .

وأثلجت صدور الجميع . وظهر الارتياح على الوجوه . والبسمة على الشفاه (جئتكم من عند النبى حقا) إذن لا بد من التنفيذ ، لا بد من الصلاة وبدأ اللغط من جديد :

من الذى يحفظ القرآن ؟ صلتنا منقطعة بمدينة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ، وحار القوم على حين يرتفع ـ من أقصى المجلس ، ومن وراء الرحل ـ صوت ندى لطفل ندى ينادى : أنا أحفظ القرآن .

وراحت بسمات الاستخفاف والعجب تبدو من جديد . خاصة عند من سمع بضع آيات من القرآن . وفى نوع من الثناء والتوجيه والتشجيع قالوا له : أسمعنا ما تحفظ من القرآن .

وراح عمرو بن سَلِمة ابن السادسة ، يتلو آيات القرآن بسعادة غامرة ، ونشوة ظافرة، آه ما أحلى هذا الكلام !

وانتهى الصخب والضجيج . وران على الجميع الصمت .

وصوت عمرو يملأ الرحب ، نديًا شجيًا . مترعًا بالخشوع والحنان ، وأطرق الجميع واجمين .

وقالوا جميعًا بصوت واحد : إمامنا عمرو بن سلمة .

(فنظروا فلم يروا أكثر قرآنا منى لما كنت أتلقى من الركبان : فقدمونى بين أيديهم).

وسارعوا يتوضؤون يعلم بعضهم بعضا . ثم ينتظمون صفوفًا متتابعة .

ويتقدم عمرو بن سَلمة ابن السادسة من العمر ، أمامهم جميعًا . بثوبه المهترئ القصيرة الذى يحازى ركبتيه أو بعدها بقليل .

يا الله ، ابن السادسة ، يؤم القبيلة كاملة .

وتناهى الأمر إلى نسوة الحى . ورحن يقلن فى احتجاج ظاهر ، ما الرجال أولى منا بمحمد ﷺ وبدأن يثرن الجو . ويتعلمن الصلاة والوضوء . ولابد لهنَّ من إمام .

تقدم يا عمرو فصلّ إمامًا بالنساء .

وكالعصفور المغرد على البان ، تقدم الطفل الحبيب بثوبه الممزق القصير ، وراح يصلى بالنساء وامتلأت القبيلة بالغبطة والحبور . لقد صاروا مسلمين حقا . إنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. الصوت جميل ، والخشوع مهيب . إلا منظرًا نشازًا استلفت انتباه نسوة العشيرة . ولم ينتبه له رجالها .ورحن يتحدثن به همسًا . ولما لم يكن بد من إذاعة الخبر ارتفع صوت امرأة من الحيِ .

(ألا تغطون عنا است قارئكم ؟).

حقًا . لِمَ لم يعر القوم انتباهًا لإمامهم .

كان عمرو بن سلمة طفلنا الوديع يتوق إلى اللحظة التى يؤذن فيها المؤذن للصلاة . لقد غدت فرحة عمره ولذة وجوده . ها هو يجلس فى ركن البيت يستعيد ما يحفظه من القرآن .

وسمع لغطًا بين أبيه وكبار قومه يتحدثون عنه .

وكانت المفاجأة الحلوة الثانية :

إنهم يتحدثون عن شراء ثوب جديد ، قميص سابغ جميل ، يا الله له هو ؟!

نعم ، لأنه إمام القوم . وزغرد الطفل اللعوب .

فاشتروا فقطعوا لى قميصًا . فما فرحت بشىء فرحتى بذلك القميص .

وامتد الزمن أكثر فأكثر . ويكبر طفلنا ، ويطر شارباه ، ثم يبلغ مبالغ الرجال ، وتحين الصلاة فينادونه ليكون إمامًا لهم فى الصلاة.واتصل بنو جرم بالقرآن أكثر وأكثر. لكن لم يبلغ أحد شأوه فيه .

لقد بقى إمام قومه طيلة حياته .

(فما شهدت جمعًا من جَرم إلا كنتُ إمامهم إلى يومى هذا) .

ولدينا رواية أخرى تشير إلى أنه كان فى الوفد الذى مضى إلى رسول الله ﷺ ولعلها تكون وفادة ثانية أخذوه معهم فيها لصغر سنه . وللتأكد من صحة إمامته لهم :

فعن مسعر بن حبيب الجرمى قال : حدثنى عمرو بن سلمة .

(أنهم وفدوا على رسول الله ﷺ . فلما أرادوا أن ينصرفوا قالوا : يا رسول الله

من يؤمنا ؟ قال : أكثركم قرآنا ـ أو أخذًا للقرآن . قال : فلم يكن فى أحد من القوم جمع ما جمعت قال : فقدمونى وأنا غلام وعلىَّ شملة .

قال فما شهدت مجمعًا من جرم إلا كنت إمامهم . وكنت أصلى على جنائزهم إلى يومى هذا) [1] .

وها نحن نرى ذينك الإمامين الصبيين فى بنى سعد بن هذيم فى بنى جرْم . يرفعهم القرآن ليكونا سادة لقومهم . وتراجعت كل القيم الأخرى التى تكون بها السيادة فى الجاهلية . وقد قلد رسول الله ﷺ أحدهما الإمارة مع الإمامة .

ويرفع الله بهذا القرآن أناسًا ويضع آخرين .

وفد آخر لبنى جرم

روى ابن سعد قال : أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الجرمى عن أبيه قال : وفد على رسول الله ﷺ رجلان منا يقال لأحدهما الأصقع بن شريح ... بن حلوان والآخر هوذة بن عمرو بن يزيد ... فأسلما . وكتب رسول الله ﷺ لهما كتابًا قال : فأنشدنى بعض الجرميين شعرًا ، قاله عامر بن عصمة بن شريح ، يعنى الأصقع :

وكان أبو شـريح الخير عمـى ... فتى الفتيان حمـال الغرامـة
عميد الحـى من جَرْمٍ إذا مـا ... ذوو الآكـال سامـونا ظلامـة
وسابق قـومـه لما دعاهـم ... إلى الإسلام أحمد مـن تهامـة
فـلباه وكـان له ظـهيرًا ... فرقَّله على حيِّيى قدامـة) [2]

وهذان الوافدان هما اللذان مثلا قيادة بنى جرم وزعامتها . كما يذكر عامر بن عصمة بن شريح فالأصقع هو حمال غرامة قومه . وهو عميد الحى من جرم . وهو كهف الناس إذا سامهم الناس ظلمًا لجؤوا إليه . وهو سابق قومه إلى الإسلام . وأبقى له رسول الله ﷺ سيادة قومه ،وغدا سيدًا فى الإسلام بعد أن كان سيدًا فى الجاهلية . وأصبح زعيمًا على حيىى قدامة بن جرم بن ريان . وحيث إن أبا عمرو ؛ سلمة هو الوافد الأول وهو الذى جاء قومه بالإسلام . وصار ابنه إمام الحى فى صلاتهم بينما

(1) أسد الغابة لابن الأثير ٤ / ١١٠ وقال : أخرجه الثلاثة .
(2) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

بقيت القيادة فى الأصقع بن شربح .

وكان جيران بنى جرم بنو عقيد ، ولعلهم الذين عناهم شاعرنا عامر بقوله ذوو الآكال الذين يسمونهم ظلمًا وحين احتد الخلاف بين الحيين جرم وعقيل حول العقيق احتكموا لرسول الله ﷺ . فالحارث بن رفاعة بن قدامة هو الذى خاصمهم إلى النبى ﷺ وهو القائل فى ذلك :

وإنى أخو جَرْمٍ كما قد علمتـــم إذا جمعت عند النبى المجـــامع
فإن أنتمُ لم تقـــنعوا بقضـــائه فإنى بما قـال النبى لقانـــع) (١)

لقد صار للمسلمين دولة يقودها النبى ﷺ . وتحتكم العرب إليه . وتقنع بما يحكم.

---

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٤٥١ .

٥ ـ وفد بنى عذرة

هؤلاء دخلوا التاريخ العربى بالحب العفيف الذى ينسب لهم . فإذا ما أريد الحب النظيف العفيف البعيد عن الخنا أن يوصف قيل عنه : الحب العذرى . ومن هذا النسق قول البوصيرى :

يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة   منى إليك ولو أنصفت لم تلُمِ

ولعل هذا الحب تجسد نموذجًا حيًا عند جميل بن عبد الله بن معمر مع بثينة . مثل نماذج أخرى فى هذه القبيلة الذين أمعنوا فى غزلهم العذرى المفعم بالطهارة حتى أن رجلا منهم سئل ممن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، ويروى أيضًا أن أحدهم سأل عروة بن حزام الذى اقترن اسمه باسم عفراء . وكان عروة من بنى عذرة سُئل : أصحيح ما يروى عنكم أنكم من أرق الناس ؟ فأجاب : (نعم والله لقد تركت ثلاثين شابًا جاء الموت وما لهم داء إلا الحب) . وهذا نموذج من شعر جميل فى بثينة :

الا أيها الحب المبرح هل ترى   أخا كلف يغرى بحب كما أغرى
هى البدر حسنًا والنساء كواكب   وشتان بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسنًا على الناس مثلما   على ألف شهر فضلت ليلة القدر
أيبكى حمام الأيك من فقد إلفه   وأصبر؟ ما لى عن بثينة من صبر
يقولون مسحور يجن بذكرها   وأقسم ما بى من جنون ولاسحر
لقد شغفت نفسى بثين بذكركم   كما شغف المخمور يابثين بالخمر
ولو سألت منى حياتى بذلتها   وجُدت بها إن كان ذلك من أمر
مضى لى زمان لو أخير بينه   وبين حياتى خالدًا آخر الدهر
لقلت ذرونى ساعة وبثينة   على غفلة الواشين ثم اقطعوا عمرى
مفلجة الأنياب لو أن ريقها   يداوى به الموتى لقاموا من القبر
إذا ما نظمت الشعر فى غير ذكرها   أبى ـ وأبيها ـ أن يطاوعنى شعرى) (١)

---

(١) ديوان جميل بثينة .

ودخلوا التاريخ ثانية بنصرهم قصى بن كلاب باعث مجد قريش . وحين وفدوا إلى رسول الله ﷺ . ذكروه بذلك النصر الذى تم لجده قصى .

قال محمد بن عمر وابن سعد ـ رحمهما الله تعالى : (قدم على رسول الله ﷺ فى صفر سنة تسع وفد بنى عُذرة . اثنا عشر رجلاً فيهم جمرة بن النعمان العذرى ، وسليم وسعد ابنا مالك ومالك بن أبى رباح . فنزلوا دار رملة بنت الحارث النجارية ثم جاؤوا إلى النبى ﷺ. فسلموا بسلام أهل الجاهلية فقال رسول الله ﷺ « من القوم ؟ » فقال متكلمه :

من لا ننكر نحن بنو عذرة إخوة قصى لأمه ، نحن الذين عضدوا قصيًا . وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر ولنا قرابات أرحام . فقال رسول لله ﷺ : «مرحبًا بكم وأهلاً ») (١) .

أما قصة نصر قصى فقد ساقها لنا ابن إسحاق بقوله : (كان ربيعة بن حرام من عذرة بن سعد بن زيد قد قدم مكة بعد هُلْك كلاب.فتزوج فاطمة بنت سعد بن سيل . وزهرة يومئذ رجل وقصى فطيم . فاحتملها إلى بلاده . فحملت قصيًا معها . وأقام زهرة . فولدت لربيعة رزاحًا . فلما بلغ قصى وصار رجلاً أتى مكة . (والسبب فى رجوعه إلى مكة هو أنه لما كان غلامًا كان يدعى لربيعة ، ولا يعرف له أبًا إلا إياه . فتسابٍّ هو ورجل من قضاعه فعيره بالدعوة وقال له : لست منا وإنما أنت فينا ملصق . فدخل على أمه . وقد وجم لذلك . قالت له :

يا بنى،صدق ،لست منهم ولكن رهطك خير من رهطه وآباؤك أشرف من آبائه . وإنما أنت قرشى وأخوك وبنو عمك فى مكة . وهم جيران بيت الله الحرام . فدخل فى سيارة حتى أتى مكة فأقام بها) .

ثم إن قصى بن كلاب رأى أنه أولى بمكة وبالكعبة من خزاعة وبكر ، وأن قريشًا قرعة إسماعيل من إبراهيم وصريح ولده ، فكلم رجالاً من قريش وبنى كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة فأجابوه فلما أجابه قومه إلى ما دعاهم إليه كتب إلى أخيه رزاح بن ربيعة يدعوه إلى نصرته ، فخرج رزاح بن ربيعة ومعه إخوته حُنٌ بن ربيعة ومحمود بن ربيعة وجلهمة بن ربيعة وهم لغير فاطمة فيمن تبعهم من قضاعة من

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٥٨٦ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٣١ .

حاج العرب . فلما كان ذلك العام انحازت خزاعة وبنو بكر عن قصى . فلما انحازوا عنه باداهم واجمع لحربهم . وثبت معه أخوه رزاح بن ربيعة بمن معه من قومه من قضاعة. وخرجت له خزاعة بنو بكر ، فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً بالأبطح حتى كثرت القتلى بين الفريقين جميعًا . ثم إنهم تداعوا إلى الصلح وإلى أن يحكموا بينهم رجلاً من العرب. فحكموا يعمر بن عوف . فقضى بينهم بأن قصيًا أولى بالكعبة ، وأمر مكة من خزاعة . وأن كل دم أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر موضوع (مهدر) يشدخه تحت قدميه وأن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدية مؤداة . وأن يخلى بين قصى وبين الكعبة وبين مكة . فسمى يعمر بن عوف يومئذ الشداخ . فلما فرغ قصى من حربه انصرف أخوه رزاح بن ربيعة إلى بلادة بمن معه من قومه . ومما قاله رزاح فى إجابته قصياً :

لما أتى من قصى رسولاً ... فقال الرسول أجيبوا الخليلا
نهضنا إليه نقود الجياد ... ونطرح عنا الملوك الثقيلا
فلما انتهينا إلى مكة ... أبحنا الرجال قبيلاً قبيلا
قتلنا خزاعة فى دارها ... وبكراً قتلنا وجيلاً فجيلا
نفيناهم من بلاد المليك ... كما لا يحلون أرضًا سهولا
فأصبح سبيهم فى الحديد ... ومن كل حى شفينا الغليلا) (١)

وها هى عذرة اليوم تأتى بعد لتسلم وتنصر رسول الله ﷺ وحين ذكرت عذرة ذلك المجد القديم رحب به رسول الله ﷺ حيث يخدم هذا الدين لتكون الأواصر أوثق ، والعلاقة آكد .

ولا بد أن توظف هذه العلاقات وهذه الأواصر لخدمة الإسلام .

قال لهم عليه الصلاة والسلام: «ما أعرفنى بكم ،فما يمنعكم من تحية الإسلام ؟» ، قالوا : كنا على ما كان عليه آباؤنا . فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولقومنا ، وقالوا : إلام تدعو ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له . وأن تشهدوا أنى رسول الله إلى الناس جميعًا ».

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ١٤٥ ، ط . الريان .

فقال متكلمهم : فما وراء ذلك من الفرائض ؟

فقال رسول الله ﷺ : « أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن تشهدوا الصلوات تحسنُ طهورهن ، وتصليهن إلى مواقيتهن فإنه أفضل العمل » ثم ذكر لهم سائر الفرائض من الصيام والزكاة والحج . فقال المتكلم :

الله أكبر ، نشهد أن لا إله إلا الله،وأنك رسول الله ، قد أجبناك إلى ما دعوت إليه . ونحن أعوانك وأنصارك) .

لقد كان نصر رزاح لقصى على حق قريش بمكة . لكن مكة آنذاك تعج بالأصنام .

ولا يريد رسول الله ﷺ أن يكون عقبه وقومه من بنى عذرة فى نصرهم هذا امتداداً لنصر جدهم رزاح . إنما هو الدخول فى دين الله وملائكته ورسله الذى يجعل أول قضاياه القضاء على الشرك :« أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له » فـ (لا إله إلا الله . محمد رسول الله) هى الهوية الجديدة لهذه الأمة بها تتكون ، وبها تصاغ ، ومن خلالها تبنى . وأدرك الناطق باسم الوفد أن هذه الرسالة الإلهية لابد أن يرافقها أوامر من رب العزة لعباده وخلقه .ولهذا سأل رسول الله ﷺ:فما وراء ذلك من الفرائض ؟. وأجابه رسول الله ﷺ عن الفرائض التى افترضها الله على عباده ، وعلى رأسها الصلوات الخمس وحين انجلت حقيقة الإسلام لسيد بنى عذرة .قال (الله أكبر . نشهد أن لا إله إلا الله . وأنك رسول الله . قد أجبناك إلى ما دعوت إليه . ونحن أعوانك وأنصارك) .

وأدرك سيد الوفد وسيد بنى عذرة خطورة إعلان هذا الموقف . فهو إعلان الحرب على الشرك والمشركين فى أرضه شمال الجزيرة حيث النفوذ والسلطة والسطوة لهرقل . ومن أجل هذا . لا بد أن يتعرف على أى تكاليف جديدة ومسؤوليات جديدة وتجاه الروم وإمبراطورهم قيصر .

قال متكلمهم :

يا رسول الله ، إن متجرنا الشام وبه هرقل . فهل أوحِى إليك فى أمره شىء ؟ فقال « أبشروا فإن الشام ستفتح عليكم ويهرب هرقل إلى ممتنع بلاده » .

أما الكاهنة عندهم فلها من القداسة . عند العرب ما للقداسة للنبى عند المسلمين .

وهى كاهنة قريش خاصة والعرب كافة . وإليها يرجع العرب فى جميع شؤونهم التى تهمهم .

قالوا : يا رسول الله ، إن فينا امرأة كاهنة قريش ، والعرب يتحاكمون إليها ، فنسألها عن أمور فقال ﷺ : « لا تسألوها عن شىء » .

فقال متكلمهم : الله أكبر .

والتكبير هنا مرتبط بالتنفيذ الفورى . فالله أكبر من الكاهنة . ورسول الله ﷺ أكبر من الكاهنة فلم تسأل عن شىء بعد اليوم .

وبقى الأمر الأخير الذى يسألون عنه (فسأله عن الذبح الذى كانوا يذبحون فى الجاهلية لأصنامهم فنهاهم رسول الله ﷺ عنها وقال : « لا ذبيحة لغير الله . ولا ذبيحة عليكم فى سنتكم إلا واحدة » قال : وما هى ؟ . قال :« الأضحية ضحية العاشر من ذى الحجة تذبح شاة عنك وعن أهلك » فالتوجه لله والعبادة لله وحده . الذبح لله وحده ، والطاعة لله وحده ، والشعائر كلها لله وحده لا شريك له .

(سألوا النبى ﷺ عن أشياء من أمر دينهم فأجابهم فيها . وأقاموا أيامًا ثم انصرفوا إلى أهليهم وأمر لهم بجوائز كما يجيز الوفد . وكسا أحدهم بردا) .

إن دار رملة بنت الحارث هى دار الضيافة. وهى مقر الإقامة الليلية للنوم والطعام والراحة. وعلى الوفد أى وفد قادم أن يشارك فى دورة أسبوعية تقريبًا،يتعلم بها كل أمور دينه. ويتفرغ للطاعة والدراسة والتلقى من رسول الله ﷺ . إنها دورة مكثفة مجانية فى الجامعة الإلهية فى مسجد النبى ﷺ إضافة إلى بعض الدروس فى السكن الخاص. والإجازة نوعان إجازة سنوية بإعطاء صلاحيات هذا الوفد ليكون هو الذى ينقل الإسلام إلى قومه،وإجازة مادية .فتكاليف العودة إلى بلادهم يأخذها الجميع . ولعل بعضهم يعطى أكثر من تكاليف العودة. والإنفاق على الأهل حيث أعطى أحد أعضاء الوفد بردًا،علاوة على غيره .إنها دورة مكثفة نظرية وعملية يعيش فيها الوفد بين المسلمين،فيتعلم الصلاة والوضوء والطهارة والأخلاق نظريًا وعمليا .ويستمع إلى الوحى الربانى من سيد ولد آدم . ويتفرغ حيث يصل له طعامه ونومه وكساؤه ليعطى إجازة بعد ذلك فى تعليم غيره وكان جمرة بن عوف العذرى هو سيد الوفد حيث ثم توزيع أراضٍ له لأنه مقصد الضيوف من كل حدب (وأن رسول الله ﷺ أتاه ومسح صدره ودعا فيه

بالبركة. وأقطعه رمية سوطه وحضر فرسه من وادى القرى) [1] .

وفادة زَمِل بن عمرو العذرى

وهذه وفادة خاصة جاءته الأوامر من داخل الأصنام بانبثاق النور ، وتأمره أن يتوجه إلى منبع النور فقد (وفد زمل بن عمرو العذرى على النبى ﷺ فأخبره بما سمع من صنمهم . فقال : ذاك مؤمن من الجن ، فأسلم وعقد له رسول الله ﷺ لواءً على قومه . وأنشأ يقول حين وفد على النبى ﷺ :

إليك رسول الله أعملت نصها [2] ... أكلفها حزنًا [3] وقوزًا [4] من الرمل
لأنصر خير الناس نصرًا مؤزرًا ... وأعقد حبلاً من حبالك فى حبلى
وأشهد أن الله لا شىء غيره ... أدين له ما أثقلت قدمى نعلى

وهذا سيد جديد من بنى عذرة يعلن للعرب جميعًا ربط حباله بحبال رسول الله ﷺ ويشهد القوم أن الله وحده لا شريك له . كيف لا ، والصوت الصارخ من الصنم دعاه لذلك . وحين عقد له الرسول ﷺ اللواء ، فهذا يعنى تسليمه قيادة الجيش العذرى فى أى معركة إسلامية قادمة .

---

(١) أسد الغابة ١ / ٢٩٤ .
(٢) نص الناقة : استخراج أقصى ما عندها من السير .
(٣) الحزن : الصعب .
(٤) القوز : المرتفع من الأرض .

٦ـ وفد سلامان بن سعد هذيم بن الحافى بن قضاعة

وإن كان وفد عذرة قد جاء فى العام التاسع . فقد تأخر وفد سلامان إلى العام العاشر يحدثنا عنه حبيب بن عمرو السلامانى بقوله :

(قدمنا وفد سلامان على رسول الله ﷺ ونحن سبعة . فصادفنا رسول الله ﷺ خارجا من المسجد إلى جنازة دعى إليها. فقلنا : السلام عليك يا رسول الله . فقال : «وعليكم ، من أنتم ؟ » ، قالوا :نحن من سلامان قدمنا إليك لنبايعك على الإسلام . ونحن على من وراءنا من قومنا . . .) .

وصدرت الأوامر لهم بالانضمام مباشرة إلى الدورة المكثفة الخاصة المجانية .

(فالتفت إلى ثوبان غلامه فقال : أنزل هؤلاء الوفد حيث ينزل الوفد . فلما صلى الظهر جلس بين المنبر وبيته فتقدمنا إليه فسألناه عن أمر الصلاة وشرائع الإسلام . . وعن الرقى ـ وأسلمنا وأعطى كل رجل منا خمس أواق . ورجعنا إلى بلادنا وذلك فى شوال سنة عشر) (١) .

ولكننا لم نتعرف على واحـــدٍ من هـــؤلاء السبعة إلا عـــلى حبيب رضي الله عنه راوى الحديث. والذى بايع النبى ﷺ وأعلمنا عن ذلك اللقاء الخاص بين المنبر والبيت ، بينهم وبين رسول الله ﷺ حيث كانت جلسة مفتوحة للسؤال عن الصلاة وشرائع الإسلام . والرقى من السحر والعين وغيره . وهنيئًا لمن رزق تلك الجلسة الخاصة .

---

(١) الطبقات ١ / ٣٣٢ .

٧ـ وفد كلب بن وبرة

نشير ابتداءً إلى أن حب رسول الله ﷺ ومولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه ينتهى نسبه إلى كلب . بعد أن كان اسمه زيد بن محمد يوم تبناه رسول الله ﷺ.

وفضل زيد رضي الله عنه أشهر من أن يوصف . وهو الصحابى الوحيد الذى ذكر اسمه فى كتاب الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] وهو ثالث من أسلم بعد أبى بكر وخديجة رضى الله عنهم أجمعين .

أما نسبه فهو زيد بن حـارثة بن شراحـيل . . . بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة .

والصحابى الآخر المشهور هو دحية بن خليفة الكلبى رضي الله عنه . وقد كان جبريل عليه الصلاة والسلام إذا تمثل بصورة بشر تمثل فى صورته . وهو رسول رسول الله ﷺ إلى قيصر .

وهو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة . . . بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة .

وكلب من أكبر قبائل العرب تأتى بعد القبائل العظام مباشرة . فقد تكون سابع قبيلة فى عددها بعد تميم وعامر بن صعصعة وبكر بن وائل والأزد وحمير ومذحج . وقد ورد ذكرها فى حديث رسول الله ﷺ فيما يوحى بضخامة عددها « إن الله تعالى ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب » .

ونشير ثانية إلى علاقة الإسلام بقبيلة كلب . قبل قدوم وفدها من خلال سرية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى دومة الجندل :

(. . . قد كان رسول الله ﷺ أمره أن يسير من الليل إلى دومة الجندل وكان رجاله معسكرين بالجرف وكانوا سبعمائة ، فقال عبد الرحمن :

أحب يا رسول الله أن يكون آخر عهدى بك وعلىَّ ثياب سفرى . فأقعده بين يديه ثم نقض عمامته بيده ثم عممه بعمامة من كرابيس سوداء ، فأرخى بين كتفيه منها أربع

أصابع أو نحو ذلك ثم قال : « هكذا يابن عوف فاعتم فإنه أحسن وأعرف » .

ثم أمر بلالاً أن يدفع إليه اللواء فدفعه إليه . فحمد الله تعالى ، وصلى على نفسه وقال « خذه يابن عوف،اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله . لا تغلوا ولا تغدروا ولا تنكثوا .ولا تمثلوا،ولا تقتلوا وليداً فهذا عهد الله وسنة نبيكم فيكم » .

فأخذ عبد الرحمن بن عوف اللواء ، وخرج حتى لحق بأصحابه . فسار حتى قدم دومة الجندل . فلما حلَّ بها دعاهم إلى الإسلام . فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام . وقد كانوا أبوا أول ما قدم ألا يعطوا إلا السيف .فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبى . وكان نصرانيًا . وكان رئيسهم . وأسلم معه ناس كثير من قومه . وأقام من أقام منهم على إعطاء الجزية . فكتب عبد الرحمن إلى رسول الله ﷺ يخبره بذلك .

وأنه أراد أن يتزوج فيهم . وبعث الكتاب مع رافع بن مكيث الجهنى . فكتب إليه رسول الله ﷺ أن يتزوج بنت الأصبغ تُماضِر . فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها . ثم أقبل بها وهى أم سلمة بن عبد الرحمن) (١) .



اختيار رسول الله ﷺ لدومة الجندل فى هذا الوقت المبكر من الدعوة . وقبل صلح الحديبية وهى التى تبعد المسافات الطويلة الموغلة فى الصحراء فى قلب الجزيزة العربية . له دلالات قوية . من أهمها حرص رسول الله ﷺ على حماية شمال الجزيزة من الغزو الرومانى . وقبيلة كلب القوية الكبيرة نصرانية لها دولتها فى دومة الجندل ومهماز التحرك لقيصر لو أراد الحركة ضد المسلمين فى المدينة فهى أقرب مواقع النفوذ الرومانى إليها . وهى قلعة حصينة من قلاعهم هناك . هذا فى الوقت الذى كان رسول الله ﷺ يفرغ كل طاقاته العسكرية لمواجهة قريش . والمغامرة فى هذا العدد الضئيل (سبعمائة) قد تبتلعه كل هذه الصحراء الموحشة . فنحن نقطع هذه المسافات بالسيارات وقلوبنا تجب لهذا الامتداد الصحراوى الموحش . فالمغامرة فيهم يمكن أن تكون كذلك لولا الثقة المبصرة بالقائد الفذ واختار رسول الله ﷺ جنديه عبد الرحمن بن عوف أحد المصطفين الكبار عنده . لم يعرف له تاريخ حربى ضخم . لكنه شخصية دعوية أولى

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ١٤٩ ، ١٥٠ .

تمثل الطبقة العليا من الدعاة . المعروفة بالعشرة المبشرين . وهو الذى اختاره عمر ﷺ لفراسته فى الأشخاص حين وضع الخلافة فى عنق الستة الكبار فى الأمة ، اختاره عمر ﷺ ليكون حكمًا عليهم جميعًا حين الاختلاف . وحين تساوِى الأصوات فهو المرجح للجانب الشرعى بين الفريقين .

وما ذلك إلا لثقته بعبقريته السياسية . وحيث إن المهمة دعوية فكان هو الشخص المؤهل لذلك . وكل الذى أبرز من تاريخ هذه السرية هو هذا الجانب (فلما حلَّ بها دعاهم إلى الإسلام . فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام . وقد كانوا أبوا أول ما قدم ألا يعطوا إلا السيف) .

لكن الداعية العظيم لا ييأس . وإذن لِمَ اختاره رسول الله ﷺ إذا كان مثل الآخرين لقد ركز دعوته على سيد القوم الأصبغ الكلبى . ولم تكن لتغرب شمس اليوم الثالث إلا وغرب معها الأصبغ الكلبى المشرك ليشرق نور الإسلام فى قلبه . ويكون رمز قيام دولة إسلامية مصغرة تحكم بشريعة الله . وتأخذ الذمة من النصارى فيها فكانت أول حكم إسلامى فى الأرض بعد دولة المدينة [1] وأسلم معه ناس كثير من قومه . وأقام من أقام منهم على إعطاء الجزية .

الجولة الثانية : أكيدر دومة الجندل :

ليس بين يدينا تفصيل عن تطور الأوضاع السياسية بعد وفاة الأصبغ ﷺ . لكن الملاحظ أن حكم الإسلام غاب بوفاته واصطلحت كلب على أن يحكمها فى دومة الجندل أكيدر بن عبد الملك الكندى ، فكندة ملوك العرب ، ولا عجب أن يكون أحد أبنائها ملكًا على قبيلة من القبائل . ولأن أكيدر نصرانى . فقد عاد بأهل دومة الجندل إلى حكم النصرانية وغدت هى الظاهرة على القبيلة .

وحين وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك فى العام الثامن للهجرة كان لابد من استعادة هذا الموقع الإسلامى الهام واسترداده .

(روى البيهقى عن ابن إسحاق ، وعن عروة بن الزبير . ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا :

---

(١) سبق أن استعرضنا السرية تفصيلا فى الجزء الثالث من السلسلة .

لما توجَّه رسول الله ﷺ قادمًا إلى المدينة من تبوك بعث خالد بن الوليد فى أربعمائة وعشرين فارسًا فى رجب سنة تسع إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل . وكان أكيدر من كندة ، وكان نصرانيًا فقال خالد :كيف لى به وسط بلاد كلب . وإنما أنا فى أناس يسيرين ؟

فقال رسول الله ﷺ: « إنك ستجده ليلاً يصيد البقر فتأخذه فيفتح الله لك دومة . فإن ظفرت به فلا تقتله وائت به إلىَّ فإن أبى فاقتله ») (١) .

إنها مهمة حربية قتالية . لا يقوم بها إلا بطل مغوار مثل خالد بن الوليد الذى حمل لقب سيف الله من دون الجيش كله . ومع ذلك فقد تهيب خالد رضي الله عنه هذه المهمة بهذا العدد القليل الذى يملكه (كيف لى به فى وسط بلاد كلب ؟).

وكان جواب النبى القائد ﷺ : « إنك ستجده ليلاً يصيد البقر ».

إنها استطلاعات قام بها جبريل عليه الصلاة والسلام ونقلها من رب العزة إلى نبيه.

وحين يأذن الله بقدره تتغير كل المسلمات . فبقر الوحش الذى يفر فى الصحراء . فيلحق بها أكيدر شهرًا يطاردها بالخيل . ها هى تحك بقرونها أكيدر ليأخذها . وتقوم بخطة الخديعة الماكرة نيابة عن الجيش الإسلامى فتورط أكيدر وأخاه وراءها وحدهما فى الصحراء لتضعهما بين يدى خالد . لقد كانت كتيبة الخديعة اليوم من بقر الوحش لا من الرجال وبقيت تفر أمام أكيدر موهمة إياه الهزيمة . وهو يلحق بها لخالد . أما الكتيبة الثانية كتيبة الخيل الإسلامى . فقد أصدر خالد رضي الله عنه أوامره لهذا الخيل أن تمتنع عن الصهيل نهائيًا أثناء تنفيذ بقر الوحش مهمة الخديعة . واستجابت الخيل للأوامر (فلما فصلوا من الحصن وخيل خالد تنظر إليهم لا يصول منها فرس ولا يجول) . وكأنما الخيل هى المكلفة فى القبض عليه فساعة فصل أخذته الخيل) وماذا كانت نتيجة كتائب البقر والخيل والمهمات الربانية التى أوكلت إليهما

(فاستأسر أكيدر وامتنع أخوه حسان فقتل) .

ومضى خالد رضي الله عنه بأسيره أكيدر إلى تبوك . بعد أن فتح دومة الجندل للإسلام . فقد ودعت أكيدر المشرك . واستقبلت أكيدر المسلم الذى مضى إلى المدينة مع الجيش

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٣٣٧ .

الإسلامى فعقد اتفاقه معه وعاد إلى دومة .

عن أكيدر :

(روى محمد بن عمر عن جابر ﷺ . قال : رأيت أكيدر حين قدم به خالد وعليه صليب من ذهب وعليه الديباج ظاهراً . فلما رأى النبى ﷺ سجد له . فأومأ رسول الله ﷺ مرتين بيده « لا ، لا » . وأهدى لرسول الله ﷺ هدية فيها كسوة ، قال ابن الأثير : وبغلة وصالحه على الجزية . . . وبلغت جزيتهم ثلاثمائة دينار وحقن دمه ودم أخيه وخلى سبيلهما . وكتب رسول الله ﷺ كتابًا فيه أمانهم ، وما صالحهم عليه . ولم يكن فى يده ﷺ يومئذ خاتم فختمه بظفره) .

غير أن رواية الواقدى تتناقص مع رواية ابن الأثير فابن الأثير يؤكد بقاء أكيدر على نصرانيته وأنه صالح النبى ﷺ على الجزية بينما يشير نص الواقدى على إسلام أكيدر وتصديقه لرسول الله ﷺ وأخذه البيعة :

نص المعاهدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم،هذا كتاب من محمد رسول الله لاكيدر حين أجاب إلى الإسلام ، وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله فى الجندل وأكنافها (١) أن لنا الضاحية (٢) من الضحل (٣) والبور (٤) من المعامى (٥) . وأغفال الأرض (٦) والحلقة (٧) والسلاح والحافر (٨) والحصن . ولكم الضامنة (٩) من النخل والمعين (١٠) من المعمور بعد الخمس .ولا تعدل سارحتكم (١١) ، ولا تعد فاردتكم (١٢) . ولا يحظر عليكم النبات (١٣) تقيمون الصلاة لوقتها . وتؤتون الزكاة بحقها . عليكم بذلك عهد

---

(١) الاكناف : جمع كنف الجانب والناحية .
(٢) الضاحية : البارز من الأرض .
(٣) الضحل : القليل من الماء وقيل : الماء القريب من المكان .
(٤) البوْر : الأرض التى لم تحرث .
(٥) المعامى : المجهول من الأرض .
(٦) أغفال الأرض : الأرض التى ليس فيها أثر لأحد .
(٧) الحلْقة : السلاح .
(٨) الحافر : الخيل وما له حافر من الدواب .
(٩) الضامنة : ما كان داخلاً فى العمارة من النخيل .
(١٠) المعين : الماء الذى ينبع من العين .
(١١) لا تعدل سارحتكم : لا تصرف ماشيتكم عن مرعاها.
(١٢) ولا تعد فاردتكم : لا تعد مع غيرها من أجل الصدقة والفاردة المفردة .
(١٣) لا يحظر عليكم النبات : لا تُمنعون من الزرع والمرعى .

الله والميثاق . ولكم بذلك الصدق والوفاء » .

شهد الله تبارك وتعالى بذلك ومن حضر من المسلمين) [١] .

والملاحظ من نص الكتاب أن للمسلمين الأراضى المهملة والمتروكة . والتى لم تحرث بعد وهى الأرض الموات بينما يكون لأهل دومة . الأرض المزروعة . والماء المعين الذى يسقى الحرث والنسل والأرض وتبقى مواشيكم فى مراعيها ومن أجل الزكاة فلا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين متجمع . وتبقى الحدود التى ترعى فيها الأنعام كما هى دون تعديل . وهذا كله مرهون بالدخول فى دين الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . فتسلم الأموال والأنعام والأراضى كلها . وفيها حق الله الزكاة . واعتبر السلاح وآلته ملكًا للمسلمين لأنه أخذ بالعهد كما اصطلح خالد ﷺ معه عندما فتح دومة (قال : خالد : فإنى أصالحك . فقال أكيدر : إن شئت حكمتنى وإن شئت حكمتك . فقال خالد : بل نقبل منك ما أعطيت فصالحه على ألفى بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح . على أن ينطلق به إلى رسول الله ﷺ وبأخيه فيحكم فيه حكمه) وكان ذلك الحكم .

وقد تناقضت الروايات التاريخية فى أكيدر بن عبد الملك . فابن الأثير كما رأينا يذكر أن رسول الله ﷺ صالحة على الجزية . وقال عنه فى أسد الغابة : (قلت : أما سرية خالد فصحيح . وإنما أهدى لرسول الله ﷺ وصالحه ولم يسلم . وهذا لا اختلاف فيه بين أهل السير . ومن قال : إنه أسلم فقد أخطأ خطأ ظاهرًا . وكان أكيدر نصرانيًا . ولما صالحه النبى ﷺ عاد إلى حصنه وبقى فيه . ثم إن خالدًا أسره لما حصر دُومة أيام أبى بكر فقتله مشركًا نصرانيًا) [٢] .

وتناقض ابن الأثير مع نفسه . فبعد أن يذكر أن لا خلاف بين أهل السير على بقائه على نصرانيته يعود فينقل رأى البلاذرى فى أمره فيؤكد إسلامه وردته. حيث يتابع قوله :

(فقتله مشركًا نصرانيًا . وقد ذكر البلاذرى أن أكيدر لما قدم على النبى ﷺ مع خالد . وعاد إلى دومة . فلما مات النبى ﷺ ارتد ومنع ما قبله . فلما سار خالد من العراق إلى الشام قتله ، وعلى هذا القول فلا ينبغى أن يذكر مع الصحابة) [٣] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٣٤٠ .

(٢ ، ٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ١ / ١١٣ ، ١١٤ .

ولئن اختلفت الأقوال فى إسلامه . فلم تختلف فى قتله مرتدًا أو مشركًا نصرانيًا فلا يذكر فى عداد الصحابة وهذا يفسر تناقضًا آخر سنعرض له عند الحديث عن وفد كلب .

الجولة الثالثة : وفد كلب :

روى ابن سعد فى الطبقات بسنده قال : قال عبد عمرو بن جبلة بن وائل بن الجُلاح الكلبى : شخصت أنا وعاصم رجل من بنى قاش من بنى عامر حتى أتينا النبى ﷺ . فعرض علينا الإسلام ، فأسلمنا وقال :

« أنا النبى الأمى الصادق الزكى ، والويل كل الويل لمن كذبنى وتولى عنى وقاتلنى والخير كل الخير لمن آوانى ونصرنى ، وآمن بى ، وصدَّق قولى وجاهد معى » قالا : فنحن نؤمن بك ونصدّق قولك فأسلمنا وأنشأ عبد عمرو يقول :

أجبت رسول الله إذ جاء بالهدى ... وأصبحت بعد الحمد بالله أوجرا [1]
وودَّعتُ لذات القداح وقد أرى ... بها سدكًا عمرى ، وللهو أصورا
وآمنت بالله العلى مكانه ... وأصبحت للأوثان ما عشت منكرا)

والملاحظ أن هذا الوفد لم يأت ممثلاً لقبيلة كلب إنما هو حماس شخصى لهذين الرجلين للإسلام . والملاحظ كذلك الرسالة العنيفة التى بعثها رسول الله ﷺ معهما لكلب إن كانت تعد للمواجهة « فالويل كل الويل لمن كذبنى وتولى عنى وقاتلنى» .

بينما نجد الرواية الثانية عن وافدين آخرين . كأنما هما يمثلان وفدًا رسميًا لهذه القبيلة ، فقد روى محمد بن سعد بسنده قال : وفد حارثة بن قطن ـ بن عليم الكلبى وحمل بن سعدانة . . . بن كعب بن عليم الكلبى إلى رسول الله ﷺ فأسلما ، فعقد لحمل بن سعدانة لواءً فشهد بذلك اللواء صفين مع معاوية وكتب لحارثة بن قطن كتابًا فيه :

« هذا كتاب من محمد رسول الله لأهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب مع حارثة بن قطن . لنا الضاحية من البعل ولكم الضامنة من النخل على الجارية العشر وعلى الغائرة نصف العشر . لا تجمع سارحتكم ، ولا تعدل فاردتكم . تقيمون الصلاة

(١) أوجرا : الأجر .

لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها ، لا يحظر عليكم النبات ، ولا يؤخذ منكم عشر البتات . لكم بذلك العهد والميثاق ، ولنا عليكم النصح والوفاء ، وذمة الله وذمة رسوله شهد الله ومن حضر من المسلمين » .

يشير هذا الوفد ـ على الأقل إلى أن رسول الله ﷺ قد قلَّده القيادة فى كلب . فحمل بن سعدانة عقد له رسول الله ﷺ اللواء . وهو أمير الجيش المسلم من كلب . وقلّد القيادة السياسية لحارثة بن قطن الذى أوكل إليه تطبيق الإسلام فى قومه .

والملاحظ كذلك أن نصّ الكتاب شبيه جدًا بكتاب أكيدر . فإما أن أكيدر قد ارتد قبل موت النبى ﷺ فعزله الرسول عليه الصلاة والسلام . وقلّد حارثة مكانه . وإما أن أكيدر نكث عهده مع رسول الله ﷺ فكان لا بد من تقليد القيادة لحارثة فى المواصفات المذكورة نفسها حول الأرض والزكاة . والنخل والماء مع تفصيل أدق فى أنصبة الزكاة على الأرض والأنعام .

ونخلص إلى أن كلب رغم كل المحاولات المبكرة لنشر الإسلام فيها . بقيت قلقة . متأثرة بمواقف زعمائها ولم تبرز شخصية قوية تقود كلب كلها إلى الإسلام إلا ما كان من الأصبغ الذى أسلم باختياره وتزوج عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ابنته . فأخذ الجزية من غير المسلمين . وحكم البلد بالإسلام . ومع هذا فعندنا غموض عن تفصيلات حكمه . وكيف كانت نهايته .

ولهذا كان من السهل أن تتجاوب القبيلة ثانية مع موجات الردة التى ماجت بعد وفاة الرسول ﷺ .

٨ ـ وفد خشين

وهى القبيلة الأخيرة من قضاعة التى ذكر لها وفادة على رسول الله ﷺ . وكانت الوفادة على مرحلتين :

الوفادة الأولى : وهى وفادة فردية .

(فعن محجن بن وهب قال : قدم أبو ثعلبة الخشنى على رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى خيبر فأسلم وخرج معه فشهد خيبر) (١) .

الوفادة الثانية :وهى التى كانت عام الوفود ليس بين يدينا تفصيلات عنهم إلا ما ذكر ابن سعد (فشهد خيبر ، ثم قدم بعد ذلك سبعة نفر من خشين.فنزلوا على أبى ثعلبة . فأسلموا وبايعوا ورجعوا إلى قومهم) (٢) .

وابن الأثير يدخل أبا ثعلبة رضي الله عنه فى عداد أهل بيعة الرضوان .

قال : (. . غلبت عليه كنيته . وكان ممن بايع تحت الشجرة . وهو منسوب إلى بنى خشين . ولم يختلفوا فى صحبته ولا فى نسبته إلى بنى خشين .

ويعطينا ابن الأثير تفصيلات قليلة عن الإسلام فى خشين من خلال حديثه عن أبى ثعلبة فيقول : (بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان . ضرب له رسول الله ﷺ بسهم يوم خيبر ، وأرسله رسول الله ﷺ إلى قومه فأسلموا وأسلم أخوه عمرو بن جرهم على عهد رسول الله ﷺ) (٣) .

(١ ـ ٣) أسد الغابة لابن الأثير ١ / ١٥٥ .

ثانياً

(القحطانيون)

القسم الأول

بنو سبأ الذين تشاءموا :

لخم وجذام وعاملة

وغسان

سبأ أبو عرب الجنوب

نفتتح الحديث عن عرب الجنوب الذين دخلوا التاريخ من سبأ ولقد خلدهم القرآن بقوله عز وجل :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [سبأ] (١) .

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله : كان سبأ ملوك اليمن وأهلها . وكانت التبابعة منهم، وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم . وبعث الله تعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته . فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ، ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد أيدى سبأ شذر مذر . . .

قال الإمام أحمد رحمه الله . . . عن عبد الرحمن بن وعلة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ، أرجل أم أرض أم امرأة ؟ قال ﷺ : « بل هو رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير . وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان » ورواه عبد عن الحسن بن موسى عن ابن لهيعة به وهذا إسناد حسن ولم يخرجوه ورواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى كتاب (القصد والأمم بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم . . . ورواه الترمذى فى جامعه عن أبى كريب . . . ثم قال : هذا حديث حسن غريب) . . . ومعنى قوله ﷺ : « ولد له عشرة من العرب » أى

كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن لا أنهم ولدوا من صلبه) (١) .

وسنعتمد الحديث النبوى المذكور أساساً فى ترتيب الوفود القادمة على رسول الله ﷺ من عرب اليمن .

---

(١) تفسير ابن كثير . مقتطفات ٣ / ٥٣٠ ـ ٥٣٢ .

أولاً : لخم

١ ـ وفد الداريين .

٢ ـ حاطب بن أبى بلتعة .

٣ ـ بنو عدس بن أريش .

٤ ـ بنو نصر بن ربيعة .

أولاً : لخم

الملاحظ أن عرب الجنوب الذين أقاموا فى الشام قد خضعوا خضوعاً كبيراً للفرس أو الروم . ولذلك كانت وفودهم قليلة أو فردية أو نادرة . واستجابتهم للإسلام قليلة. وقد تأخرت استجاباتهم ودخولهم فى الإسلام . حيث لم يدخلوا فعلاً فى الإسلام ككيان كامل إلا بعد الفتوحات الإسلامية فى الشام على عهد عمر وأبى بكر رضي الله عنهما . وليس بين يدينا من وفد ينتسب إلى لخم إلا وفد تميم الدارى رضي الله عنه .

١ ـ وفد الداريين

(قالوا : قدم وفد الداريين على رسول الله ﷺ منصرفه من تبوك وهم عشرة نفر منهم تميم ونعيم ابنا أوس بن خارجة بن سواد بن جذيمة بن دارع بن عدى بن الدار بن هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم ، ويزيد بن قيس بن خارجة والفاكه بن النعمان ، وأبو هند والطيب ابنا ذر ـ وهو عبد الله بن رزين ، وهانئ بن حبيب وعزيز ومرة ابنا مالك ابن سواد بن جذيمة فأسلموا . وسمى رسول الله ﷺ الطيب عبد الله وسمى عزيزاً عبد الرحمن . وأهدى هانئ بن حبيب لرسول الله ﷺ افراساً وقباءً مخوصاً بالذهب . فقبل الأفراس والقباء وأعطاه العباس بن عبد المطلب . فقال : ما أصنع به ؟ قال : انتزع الذهب فتحليه نساءك أو تستنفقه ثم تبيع الديباج فتأخذ ثمنه . فباعه العباس من رجل من يهود بثمانية آلاف درهم .

وقال تميم : لنا جيرة من الروم لهم قريتان يقال لأحدهما : حبرى ، والأخرى بيت عينون فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لى . قال : فهما لك . فلما قام أبو بكر أعطاه ذلك وكتب له به كتاباً) (١) .

وهذا نص الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لنعيم أخى تميم كما أورده ابن سعد:

(قالوا : وكتب رسول الله ﷺ لنُعيم بن أوس أخى تميم الدارى أن له حبرى وعينون بالشام قريتها كلها سهلها وجبلها وماءها وحرثها وأنباطها وبقرها ، ولعقبه (٢) من

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٠٨ .

(٢) عقبه : ذريته .

بعده ، لا يحاقه (١) فيها أحد وكتب عليٍ) (٢) .

وعلى هذا العرض فيعتبر وفد الداريين أول الوفود قدوماً إلى المدينة كما ذُكر (منصرفه من تبوك) ولا عجب فقد تناهت أنباء رسول الله ﷺ إليهم بعد غزوة تبوك وتناهت أنباء أهل إيلة ومفنا . وقد جاؤوا وودعوا رسول الله ﷺ . لكن تميماً سيد وفد الداريين لم يأت فقط موادعاً وبقى على دينه ونصرانيته لكنه جاء مسلماً مؤمناً . معلناً دخوله فى دين الله . فما هو السر وراء ذلك ووراء سرعته فى الإجابة ؟

السر فى ذلك رحلته البحرية التى حدَّث عنها رسول الله ﷺ والمسلمين .

فقد أخرج مسلم عن عامر بن شراحيل الشعبى أنه :

سأل فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس وكانت من المهاجرات الأول فقال : حدثينى حديثاً سمعتيه من رسول الله ﷺ . لا تسنديه إلى أحد غيره فقالت: لئن شئت لأفعلن . فقال لها : أجل حدثينى فقالت :

نكحت ابن المغيرة ، وهو من خيار شباب قريش يومئذ . فأصيب فى أول الجهاد مع رسول الله ﷺ فلما تأيمت خطبنى عبد الرحمن بن عوف فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ . وخطبنى رسول الله ﷺ على مولاه أسامة بن زيد . . .

فلما انقضت عدتى سمعت نداء المنادى ، منادى رسول الله ﷺ ينادى : الصلاة جامعة ، فخرجت إلى المسجد ، فصليت مع رسول الله . فكنت فى صف النساء التى تلى ظهور القوم . فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك فقال : « ليلزم كل إنسان مصلاه » . ثم قال : « أتدرون لم جمعتكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال :

إنى والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة . ولكن جمعتكم لأن تميماً الدارى كان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع فأسلم وحدثنى حديثاً وافق الذى كنت أحدثكم عن المسيح الدجال .

حدثنى أنه ركب فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام ، فلعب بهم الموج شهراً فى البحر . ثم أرفؤوا إلى جزيرة فى البحر حتى مغرب الشمس . فجلسوا

---

(١) لا يحاقه : لا يدعى له حقا .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٦٧ .

فى أقرُب السفينة فدخلوا الجزيرة . فلقيتهم دابة أهلبُ كثير الشعر لا يدرون ما قُبُلُهُ من دُبِرِه من كثرة الشعر . فقالوا : ويلك ، ما أنت ؟ فقالت : أنا الجساسة . قالوا : وما الجساسة ؟ قالت : أيها القوم ، انطلقوا إلى هذا الرجل فى الدير . فإنه إلى خبركم بالأشواق . قال : لما سمّت لنا رجلاً فرِقنا منها أن تكون شيطانه : قال : فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً ، وأشده وثاقاً مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد قلنا : ويلك ! ما أنت ؟ قال : قد قدرتم على خبرى . فأخبرونى ما أنتم . قالوا : نحن أناس من العرب ركبنا فى سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم . فلعب بنا الموج شهراً ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه فجلسنا فى أقربها . فدخلنا الجزيرة . . .

فقال : أخبرونى عن نخل بيسان . قلنا : عن أى شأنها تستخبر ؟ قال : أسألكم عن نخلها . هل يثمر ؟ قلنا له : نعم . قال : أما إنه يوشك ألا تثمر . قال : أخبرونى عن بحيرة الطبرية . قلنا: عن أى شأنها تستخبر ؟ قال : هل فيها ماء ؟ قالوا : هى كثيرة الماء . قال : أما إن ماءها يوشك أن يذهب . قال : أخبرونى عن عين زغر قالوا: عن أى شأنها تستخبر ؟ قال : هل فى العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين ! قلنا له : نعم ، هى كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها، قال : أخبرونى عن نبى الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب . قال : أقاتله العرب ؟ قلنا : نعم . قال: كيف صنع بهم . فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه . قال لهم : قد كان ذلك ؟ قلنا : نعم ، قال : أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه . وإنى مخبركم عنيِ .

إنى أنا المسيح وإنى أوشك أن يؤذن لىِ فىِ الخروج . فأخرج فأسير فى الأرض ، فلا أدع قرية إلا هبطتها فى أربعين ليلة ، غير مكة وطيبة فهما محرمتان على كلتاهما كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحداً منهما . استقبلنى مَلَكُ بيده السيف صلتًا يصدنى عنها وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها قالت . قال رسول الله ﷺ : وطعن بمخصرته فى المنبر « هذه طيبه هذه طيبة هذه طيبة » يعنى المدينة . « الا هل كنت حدثتكم فى ذلك ؟ » فقال الناس : نعم ، « فإنه أعجبنى حديث تميم أنه وافق الذى كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ألا إنه فى بحر الشام أو بحر اليمن . لا ، بل من قبل المشرق ما هو . من قبل المشرق ـ ما هو من قبل المشرق . ما هو ، وأوما بيده إلى المشرق . قالت : فحفظت هذا من رسول الله ﷺ) (١) .

---

(١) صحيح مسلم (ح٢٩٤٢) ص ١٨١ .

فتميم ﷺ إنما اتجه إلى المدينة مع رفاقه التسعة بعد أن رأى ما لم يره أحد ، رأى الجساسة ورأى المسيح الدجال رأى عين . ورآه يتحدث عن بعثة رسول الله ﷺ . ومع أن تميم لم يكن قد دخل فى حظيرة الإسلام . لكن الجيش الإسلامى قد بلغ مشارف تبوك ، وانتصر الإسلام على قريش . ووقّعت الهدنة معه . وأنهى كيان . اليهود فى خيبر وصار سيد الجزيرة بلا منازع . ولهذا قال له نعيم :

فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه .

واختص الحديث بمن يليه . فلا يزال عرب الشام فى الشمال كلهم ضده . وغزوة مؤتة التى تمت بين المسلمين والروم كان فى جيش الروم قرابة مائة ألف من العرب .

(وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى مائة ألف منهم ، عليهم رجل من بلى ثم أحد إراشة يقال له : مالك بن زافلة) (١) . وهؤلاء بجوار مائة ألف من الروم .

ومع ذلك انتصر المسلمون فى مؤته وقتل قائد الجيش العربى وقال قاتله :

(طعنت ابن زافلة بن الأراش برمح مضى فيه ثم انحـــطم
ضربت على جـــيده ضربـــة فمال كما مال غصن السلـــم
وسقنا نســاء بنـــى عمـــه غداة رقوقين سوق النعم) (٢)

وتميم الدارى ﷺ يعيش فى الأجواء المعبأة ضد رسول الله ﷺ . ولخم قومه كانوا من المشاركين فى غزوة مؤتة . لكن ما شاهده فى البحر مع من معه هو الذى قلب تفكيره كله . وجعل الإيمان يأرز إلى قلبه فيمسح كل أقذار الشرك منه .

ولا شك أن رسول الله ﷺ اغتبط بقدوم هذا الوفد . المكون من عشرة نفر . ورأى اندفاعهم إلى الإسلام كبيراً . واستمع إلى حديث تميم الدارى ﷺ فى رحلته فاستدعى المسلمين فى الحال . كما تذكر فاطمة بنت قيس ﷺ . حتى فاطمة مضت مهرولة لتجيب نداء : الصلاة جامعة ـ فى غير وقت الصلاة . وكانت أول النسوة الوافدات حيث كانت فى الصف الأول منهن . وقلبها وقلب المؤمنين جميعاً يخفق لهذا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ١٤ .
(٢) المصدر السابق ٤ / ١٩ .

النداء المفاجئ . وتقاطر الناس سريعاً ملبين هذا النداء . وعادة ما يكون عند الأزمات أو المواجهات مع العدو . وقضى رسول الله ﷺ صلاته والمسلمون كذلك . ولا ندرى إن كانت صلاة مفروضة أو نافلة دخول المسجد . لكن الذى ندريه أن رسول الله ﷺ صعد إلى المنبر ، ولم يكتف أن يقف بين ظهرانيهم فى مصلاه ليحدثهم فى الخبر الجديد وزالت الغمة عنهم حين جلس رسول الله ﷺ على المنبر وهو يضحك ، يالها من أمة تنبض كلها بقلب قائدها وحبيبها محمد ﷺ ، وضحكته تجعلهم أسعد الخلقُ . ولم يكتف صلوات الله وسلامه عليه بالإعلان عن طبيعة الدعوة من خلال ضحكة فقط وهو جالس على المنبر ، فجلوسه يَقْضى على وضع التأهب والخوف والمفاجأة . ويريح أعصاب المسلمين جميعاً حين يرافقه الضحك .

لكنه تحول بهم إلى حال أخرى من التشوق والرغبة الجارفة إذ لم ينقل الخبر إليهم مباشرة . وبعد أن أصدر أوامره قبيل صعوده للمنبر : ليلزم كل إنسان مصلاه . ولو دخلت فى أعماق كل واحد من هذا الجيل السعيد . لوجدت فيه مرجلاً يغلى من الأهبة والشوق والجندية والحب لرسول الله ﷺ . وزاد أوار هذا المرجل ، واتقاد هذا المشعل بهذا السؤال المفاجئ : « أتدرون لم جمعتكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . وتحولوا جميعاً بعدها إلى أذن صاغية وعين محدقة وقلب خافق . فقال :

« إنى والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة . ولكن جمعتكم لأن تميماً الدارى كان نصرانياً فجاء وحدثنى حديثاً وافق الذى كنت أحدثكم عن مسيح الدجال » .

صدق رسول الله ﷺ : فقد حدث أمته عن حديث الدجال حتى صاروا كأنما يرونه رأى عين كما يقول الصحابى الجليل النواس بن سمعان : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفّض فيه ورفّع حتى ظنناه فى طائفة النخل . فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال : « ما شأنكم ؟ » قلنا : يا رسول الله ، ذكرت الدجال غداة فخفّضت فيه ورفّعت حتى ظنناه فى طائفة النخل . فقال : « غير الدجال أخوفنى عليكم . إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم . وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم » .

هذا هو الجو الذى عاش به المسلمون عن المسيح الدجال . ففى الزمان قد يخرج ورسول الله ﷺ فيهم . وفى المكان كأنه فى طائفة النخل . وترك رسول الله ﷺ

الزمان والمكان رغم حرصه على التأهب النفسى له . وانصب حديثه على المواصفات له لدرء كل احتمالات الفتنة فيه حيث حدّد مكان خروجه ومدة استقراره فى الأرض . وشكله . ولبثه فى الأرض ، وفتنته فيها .

« والله خليفتى على كل مسلم . إنه شاب قطط ، عينه طافية . كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن . فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف . إنه خارج خلة بين الشام والعراق . فعاث يميناً وعاث شمالاً ياعباد الله فاثبتوا ». قلنا : يا رسول الله ، ما لبثه فى الأرض ؟ قال : « أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ويوم كجمعة . وسائر أيامه كأيامكم » . قلنا : يا رسول الله . فذلك اليوم الذى كسنة . أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال : « لا ، أقدروا له قدره » . قلنا : يا رسول الله ، وما إسراعه فى الأرض ؟ قال : « كالغيث استدبرته الريح فيأتى القوم فيدعوهم ، فيؤمنون به ويستجيبون له . فيأمر السماء فتمطر . والأرض فتنبت . فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرًا ، وأسبغه ضروعا ، وأمدَّة خواصر . ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله . فينصرف عنهم. فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شىء من أموالهم . ويمر بالخربة . فيقول لها أخرجى كنوزك . فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل . ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه، يضحك . فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقىَّ دمشق بين مهرودتين . واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ . فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسِه إلا مات . ونَفَسُه ينتهى حيث ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لدٍّ فيقتله . . . » (١) .

هذا واحد من الأحاديث التى حدث بها رسول الله ﷺ صحبه عن المسيح الدجال. وكل هذا من علم الغيب الذى أعطاه الله تعالى لنبيه عن المسيح الدجال . أما تميم الدارى فقد جاء هنا شاهداً من عالم الشهادة جاء وقد رأى الدجال. وتحدث معه . وسأله عن رسول الله ﷺ . وأكد له أن اتباعه هو الخير وأن العرب : (فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه) فقال لهم : قد كان ذلك ؟ قلنا : نعم . قال : أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه) ويتحدث تميم الدارى رضي الله عنه عن رحلته تلك دون أن يعرف شيئاً عما عند رسول الله ﷺ عن الدجال ، وهل ذكره لصحابته أم لا . ولذلك كان فى

(١) صحيح مسلم (ح ٢٩٣٧) ص ١١٧٧ .

وضع نفسى لا يدرى شيئاً عن سبب الدعوة للصلاة جامعة . ولا لإلحاحه ﷺ على الناس جميعاً ألا يغادروا مصلاهم (ليلزم كل إنسان مصلاه) ولا يدرى - صعود رسول الله ﷺ على المنبر ، ولا ضحكه . ولم يدر أن حديثه الذى حدَّث به رسول الله ﷺ هو محور هذا البلاغ ، وهذه الخطبة وكم انفرجت أساريره ، وكم غمرته السعادة. وكم استمتع بنشوة الحديث . وهو يرى رسول الله ﷺ يحدث المسلمين عن رحلته البحرية - وما رأى فيها . وعمره فى الإسلام لحظات . يحدث المسلمين من المهاجرين والأنصار والسابقين فيهم عن هذا النصرانى الذى جاء الآن فأسلم وبايع . وكم ترتفع معنوياته . ويستعيد ثقته بنفسه وهو يرى رسول الله ﷺ سيد البشرية ، سيد ولد آدم يدعو المسلمين كل المسلمين ؛ رجالهم ونساءهم ليقص عليهم قصة رحلته البحرية .

وهو لا يدرك أبعادها ، ولا يدرك أخطارها ، ولا يدرك أن رسول الله ﷺ سبق أن حدَّث المسلمين عن الدجال الذى رآه بعينه ، وتحدث معه وعن خروجه ، ولبثه فى الأرض ، وأن الأرض كلها مسرح له إلا مكة والمدينة . وأن جيش الملائكة هو الذى يقوم بحراستها عن المؤمنين . ويرابطون على أنقابها حتى لا يدخل من أى مدخل فيها وإلا سيكون مصيره الموت .

وفى حديث النواس بن سمعان السابق ما ذكره الدجال لتميم عن بحيرة الطبرية ويوشك ألا يكون فيها ماء . فهو يعلم نهايته ومصرعه . ويعلم أن قوم يأجوج ومأجوج هم من حزبه سوف يتابعون رسالته من بعده . ويأتون على بحيرة طبرية (فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها . ويمر أواخرهم فيقول : لقد كان بهذه مرة ماءً . وفى حديث أبى سعيد الخدرى الذى رواه عن رسول الله ﷺ . ما ذكره الدجال لتميم الدارى عن عجزه عن دخول مكة والمدينة (ويأتى وهو محرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة . فينتهى إلى بعض السباخ التى تلى المدينة) (١) .

ولا عجب أن يضرب رسول الله ﷺ بمخصرته فى المنبر . حين ذكر حسرة الدجال على عدم دخول المدينة ويقول : « هذه طيبة ، هذه طيبة ، هذه طيبة . . . ألا هل كنت حدثتكم فى ذلك » .

وأدرك تميم رضي الله عنه أنه مبعوث العناية الإلهية حيث ساقه الله تعالى إلى تلك الجزيرة مع إخوانه الذين معه ليتحرك إلى المدينة قـائلاً . آمـنوا بمحمد . فأنا قد رأيت بعينى

---

(١) مسلم (ح ٢٩٣٨) ص ١١٧٨ .

ما حدثكم عنه ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) ﴾ [يس] (١) .

وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه يطابق حديث تميم الدارى فى حرمة البلدين مكة والمدينة عليه .

قال رسول الله ﷺ : « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة . وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافِّين تحرسها . فينزل بالسبخة . فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج إليه منها كل كافر ومنافق » (١) .

ورضى رسول الله ﷺ كل الرضا أن يجمع المسلمين كافة ليحدثهم حديث تميم الدارى رضي الله عنه .

فكان هذا لتميم أكبر وسام يأخذه من نبيه ﷺ ، فهو يصدقه أمام جميع المسلمين ، وينقل قصته لجميع المسلمين .

ونعود بعد ذلك لبقية أعضاء الوفد الدارى فقد أجرى رسول الله ﷺ تغييراً على أسمائهم فسمى الطيب عبد الله . وسمى عزيزاً عبد الرحمن . وقدَّم هانئ بن حبيب لرسول الله ﷺ أفراساً وقباءً مخوصاً بالذهب . فقبل الأفراس والقباء وأعطاه العباس ابن عبد المطلب . فقال : ما أصنع به ؟ قال: « انتزع الذهب فتحليه نساءك أو تستنفقه . ثم تبيع الديباج فتأخذ ثمنه » . فباعه العباس من رجل من يهود بثمانية آلاف درهم .

إنها الحكمة العظمى التى يربى بها رسول الله ﷺ جنده . وها هو يربى هذا الوفد الجديد على الإسلام لقد كان بالإمكان أن يتجهَّم رسول الله ﷺ للقباء الحريرى المذهب ويرفض الهدية ويكسر نفس هانئ بن حبيب لهديته الحرام من الذهب والحرير إلى رسول الله ﷺ ، لكن المربى الأعظم لم يكسر خاطر هانئ وتقبل منه هديته ثم أهدى القباء إلى العباس بن عبد المطلب .

رسول الله ﷺ يهدى القباء من الديباج والحرير المطرز بالذهب إلى عمه ، وهو الذى يقول عن الذهب والحرير : « هذان حرام على ذكور أمتى حلال لإناثها » . ومع هذا يهدى هذا القباء لعمه بعد أن قبله من هانئ بن حبيب هل هذا يعنى السماح للعباس خاصة بصفته من الحاشية النبوية ، ومن أقرب المقربين لرسول الله ﷺ بهذه المخالفة ؟

---

(١) مسلم (ح ٢٩٤٣) .

أبداً فلقد كان أول رباً أسقط يوم الحج الاكبر ربا العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ . وهذا ماحدا بالعباس رضي الله عنه أن يسأل : ما أفعل به ؟

وفعلاً ما يفعل به وهو حرير وذهب ، ومحرم عليه لباسه .

واكتملت التربية النبوية العظيمة بأن دلّ عمه العباس عما يفعل فيه :

« أما الذهب فتنزعه وتحليه نساءك » . فالذهب حلال لإناث المسلمين ، وأما الديباج . فيمكن بيعه . وليس بين المسلمين من يلبسه ويشتريه . فليُبع لليهودى الذى يجده فرصة عمره . ويدفع به ثمانية آلاف درهم ويستفيد العباس رضي الله عنه من ثمنه . تُحل القضية دون إهانة أحد ، ودون إهدار شىء . ودون ارتكاب محرم ، إننا ندعو كل دعاة الخير فى المجتمع . ودعاة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يفقهوا هذا التصرف العظيم ويتعاملوا بمثل هذه الحكمة . حين يرون حراماً فى المجتمع . وكيف يتعاملون معه .

ثم كان الدرس الثانى مع هذا الوفد هو هبة القريتين لنعيم بن أوس الدارى أخى تميم رضي الله عنه .ويعنينا ابتداء هذه الثقة العظيمة بانتشار هذا الدين حتى يملأ الأرض . فنعيم يطلب القريتين وهى تحت ملك الروم . وهو واثق أن الإسلام سيغزو فلسطين ويصل إلى أعماقها فى الوقت الذى لم يكن من المسلمين أحد فيها إلا هذا الوفد . ورسول الله ﷺ ، يتابع إكرامه لهذا الوفد ؛ يتقبل هداياه ، ويصدّق حديث سيده أمام جميع المسلمين ويعرفهم بأخيهم الجديد ، ويأمر علياً رضي الله عنه أن يكتب هذا الكتاب لنعيم بن أوس :

قال تميم : لنا جيرة من الروم لهم قريتان يقال لأحدهما حبرى والأخرى بيت عينون . فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لى . قال : فهما لك . فلما قام أبو بكر أعطاه ذلك وكتب له كتاباً .

وكتب رسول الله ﷺ لنعيم بن أوس أخى تميم الدارى : أن له حبرى وعينون بالشام قريتها كلها ؛ سهلها وجبلها وماءها وحرثها وأنباطها وبقرها ، ولعقبه من بعده لا يحاقه فيه أحد . ولا يلج عليهم بظلم . ومن ظلمهم وأخذ منهم شيئاً فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وكتب على (١) .

فقد تم فتح فلسطين فى عهد الصديق رضي الله عنه وجدد العطاء النبوى للداريين وكتب

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٦٧ .

لهم كتاباً هذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من أبى بكر أمين رسول الله ﷺ الذى استُخلف فى الأرض بعده كتبه للداريين ألا يفسد عليهم سيدُهم وليدَهم من قرية حبرون وعينون . فمن كان يسمع ويطيع الله فلا يفسد منهما شيئا . وليقم عمود الناس عليهما وليمنعهما من المفسدين) (١) .

وكان الإكرام الأخير لهذا الوفد أن أوصى لهم بمائة وسق من تمر خيبر . وذلك لأن وضعهم اختلف عن وضع بقية الوفود . فقد أقاموا فى المدينة حتى وفاة رسول الله ﷺ يتعلمون العلم ويقرؤون القرآن ، وينهلون من هدى المصطفى ﷺ ، ويتربون فى حضن الإسلام العظيم . ولابد لهم من نفقة تصرف عليهم ليتفرغوا لهذا الهدى والعلم ثم يكونوا رسلاً إلى قومهم وطلائع الإسلام العظيم فى الشام فكان هذا الراتب السنوى (مائة وسق من تمر خيبر) .

---

(١) مجموعة الوثائق لحميد الله (ص ٤٣ ـ ٤٧) .

٢ ـ من بنى راشدة بن أذب بن جذيلة بن لخم

حاطب بن أبى بلتعة ﷺ . وهو من الرعيل الأول من المسلمين شهد بدراً والحديبية . وجميع المواقع مع رسول الله ﷺ .

فهو حاطب بن أبى بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمى حليف بنى أسد بن عبد العزى .

ونعرض لأهم مواقفه ﷺ :

أ ـ شهد بدراً وأبلى فيها بلاء حسناً .

ب ـ كان ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فى أحد . وقتل أعدى أعداء الله عتبة بن أبى وقاص الذى رمى رسول الله ﷺ بالحجر فكسر رباعيته (وتبع حاطب بن أبى بلتعة عتبة بن أبى وقاص ـ الذى كسر الرباعية الشريفة . فضربه بالسيف حتى طرح راسه ، ثم أخذ فرسه وسيفه) (١) .

جـ ـ وكان واحداً من أشهر الرماة فى الجيش الإسلامى (وكان الرماة من أصحاب النبى ﷺ المذكور منهم سعد بن أبى وقاص ، والسائب بن عثمان بن مطعون ، والمقداد ابن عمرو وزيد بن حارثة ، وحاطب بن أبى بلتعة . . .) .

د ـ وكان من أوائل المبايعين بيعة الرضوان . وزار أهله فى مكة حيث كانوا جميعاً فيها (وكان المسلمون الذين دخلوا على أهليهم عشرة من المهاجرين كرز بن جابر الفهرى وهشام بن العاص بن وائل وحاطب بن أبى بلتعة . . .) .

هـ ـ وكانت زلته الكبرى يوم فتح مكة حين بعثِ إلى قريش خطاباً يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم .

(فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليهما . فأتيا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن بلتعة إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ . فدعى رسول الله ﷺ حاطباً فقال : ما هذا يا حاطب ؟ قال : لا تعجل علىّ يا رسول الله .

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى ص ٣٠٤ .

والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، وما ارتددت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرءاً ملصقاً فى قريش ، لست من أنفسهم ، ولى فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لى فيهم قرابة يحمونهم وكان من معك لهم قرابات يحمونهم . فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى .

فقال عمر بن الخطاب : دعنى يا رسول الله أضرب عنقه . فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق . فقال رسول الله ﷺ : « إنه قد شهد بدراً . وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال :

اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فذرفت عينا عمر وقال : (الله ورسوله أعلم)(١) .

و ـ لقد كان حاطب ؓ موطن ثقة رسول الله ﷺ . وكان أحد الرسلِ الذين اختارهم رسول الله ﷺ لحمل هذه الرسائل إلى ملوك الأرض .

(وكتب النبى ﷺ إلى جريج بن متى الملقب بالمقوقس ملك مصر والإسكندرية : «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم أهل القبط ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** (٦٤) ﴾ [آل عمران] .

واختار لحمل الكتاب حاطب بن أبى بلتعة ، فلما دخل حاطب على المقوقس قال له :

إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك .

فقال المقوقس : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه

فقال حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فَقْدَ ما سواه ، إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش،وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ،

---

(١) البخارى (ح ٤٨٩٠) ص ٩٦٢ ، والرحيق المختوم ص ٤٤٨ .

ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، فكل نبى أدرك قوماً فهم أمته . فالحق عليهم أن يطيعوه . وأنت ممن أدركه هذا النبى . ولسنا ننهاك عن دين المسيح . ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس : إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى ، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب . ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر ، وأخذ كتاب النبى ﷺ . فجعله فى حقٍ من عاج ، وختم عليه ، ودفعه إلى جارية له . ثم دعا كاتبًا يكتب له كتاباً بالعربية . فكتب إلى رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك أما بعد . فقد قرأت كتابك . وفهمت ما ذكرت فيه. وما تدعو إليه . وقد علمت أن نبياً سيبقى . وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك . وبعثت إليك بجاريتين .لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة . وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك) ولم يزد على هذا ولم يسلم . والجاريتان مارية وسيرين ، والبغلة دلدل بقيت إلى زمن معاوية واتخذ النبى ﷺ مارية سرية له وهى التى ولدت إبراهيم . وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الانصارى) (١) .

---

(١) الرحيق المختوم ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦ .

٣ ـ بنو حدس بن أُريش بن إراش بن جذيلة بن لخم

وهذا فرع ثانٍ من فروع لخم لم نجد لهم فى الوفود والسيرة ذكراً إلا فى كتاب ذكره ابن سعد فى الطبقات هذا نصه :

(قالوا : وكتب رسول الله ﷺ لمن أسلم من حَدَس من لخم وأقام الصلاة وآتى الزكاة وأعطى حظ الله وحظ رسوله وفارق المشركين . فإنه آمن بذمة الله وذمة رسوله محمد ومن رجع عن دينه فإن ذمة الله وذمة محمد منهم بريئة . ومن شهد له مسلم بإسلامه فإنه آمن بذمة محمد وذمة المسلمين وكتب عبد الله بن زيد) (١) .

فهم وإن لم يذكر وفدهم . لكن الظاهر أن الإسلام دخل إليهم . وتحول إلى صراع مع المشركين من قومهم . وكان المسلمون ماضين فى فتح الأرض . فأخذوا هذا الأمان من النبى ﷺ وحثهم إلى أن تكون حَدَس الإسلامية حين ربط الأمان بمن ـ فارق المشركين ـ . واعتبر هذا التجمع الإسلامى له حق الشهادة بإسلام من شاء لينال الأمان نفسه (ومن شهد له مسلم بإسلامه فإنه آمن بذمة محمد وأنه من المسلمين . ومقابل ذلك فالذى ارتد عن دينه لا يشفع له إسلامه السابق (ومن رجع عن دينه فإن ذمة الله وذمة محمد رسوله منه بريئة) كما أنه لم يشتهر منهم أى صحابى يذكر اسمه فيمن وفد على النبى صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٦٧ .

٤ ـ بنو نصر بن ربيعة ... بن لخم

وهم ملوك العرب فى الحيرة . يقول عنهم ابن حزم .

(ومنهم : بنو نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن مسعود بن مالك بن عمم بن نمارة بن لخم . رهط آل المنذر ملوك الحيرة . كان آخرهم النعمان بن المنذر بن عمرو بن المنذر بن الأسود بن النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة) (١) .

وقد طبقت شهرتهم الآفاق ، وقصدهم الشعراء من كل مكان ، وكان بلاط الحيرة يعج بقصاد فضلهم وكرمهم ، وخاضوا حروباً ضد إخوانهم الغساسنة فى الشام لصالح الفرس ، وكان الفرس يسطون سلطانهم عليهم وهم ينفذون رأس الحربة لهم . إلى أن تمرد النعمان بن المنذر عليهم ، فكانت نهايته ونهاية دولته . وسبب حرب ذى قار ، وقد قتله كسرى . وولى مكانه إياس بن قبيصة الطائى . وكان عزهم قد ذهب حين انتصر الإسلام فى المدينة ومجدهم قد أفل . وفتحت الحيرة على يد خالد بن الوليد ﵁ . ولم يذكر التاريخ منهم إلا هند بنت النعمان التى غدت عمياء مقعدة فجاء المغيرة بن شعبة يطلبها للزواج منها . يحدثنا الشعبى عن هذا اللقاء الطريف بينهما والمغيرة والى الكوفة (ركب المغيرة بن شعبة إلى هند بنت النعمان بن المنذر ، وهى بدير هند متنصرة عمياء بنت تسعين سنة فقالت له : من أنت ؟ قال : أنا المغيرة بن شعبة .

قالت له : أنت عامل هذه المدرة ؟ (تعنى الكوفة) . قال : نعم .

قالت : فما حاجتك ؟ قال : جئتك خاطبًا إليك نفسك .

قالت : أما والله لو كنت جئت تبغى جمالاً أو حسباً أو ديناً لزوجناك . ولكنك أردت أن تجلس فى موسم من مواسم العرب فتقول : تزوجت بنت النعمان بن المنذر وهذا والصليب أمر لا يكون أبدا . أو لا يكفيك فخراً أن تكون فى ملك النعمان وبلاده تديرها كما تريد ؟ . وبكت) .

وحين رأى أن الطريق مسدود من الزواج منها راح يستفيد من خبرتها .

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٢٢ .

(قال لها : أى العرب كان أحب إلى أبيك ؟ قالت : ربيعة .

قال : فأين كان يجعل قيساً ؟ قالت : ما كان يستعتبهم من طاعة .

قال : فأين كان يجعل ثقيفاً ؟ قالت :

رويدك لا تعجل : بينا أنا ذات يوم جالسة فى خدر لى إلى جنب أبى إذ دخل عليه رجلان أحدهما من هوازن ، والآخر من بنى مازن كل واحد يقول : إن ثقيفًا منا . فأنشأ أبى يقول :

إن ثقيفاً لم يكن هوازنا ... ولم يناسب عامراً أو مازنا

إلا قريباً فانشر المحاسنا) (١)

فسُرَّ المغيرة لهذا النسب الذى يعرفه النعمان بن المنذر ملك العرب فى الجاهلية . وخرج وهو يقول شعراً ينطق به قلبه قبل لسانه فرحاً بذلك .

(فخرج المغيرة وهو يقول :

أدركت ما منيت نفسى خالياً ... لله درك يا ابنة النعمان

إنى لحلفك بالصليب مصدقاً ... والصلب أصدق حلفة الرهبان

ولقد رددت على المغيرة ذهنه ... إن الملوك بطيئة الإذعان

يا هند حسبك قد صدقت فامسكِى ... والصدق خير مقالة الإنسان) (٢)

وعاد يحمد الله عز وجل على عزة الإسلام . وكيف صار العرب المسلمون هم ورثة الأرض بعد أن كانوا ينقربون إلى الفرس كى يرضوا عنهم . ويتزلفون إليهم ليبقوهم فى أرضهم . فإذا بنت النعمان اليوم تعترف بعزة هذا الدين الغالب ، وأن الأرض لله يورثها عباده الصالحين) .

وسنلاحظ فيما يلى رؤيا ذلك الصحابى الذى رأى النعمان بن المنذر فى نومه (قال: يا رسول الله ،ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان ومسكتان . قال :

« ذلك ملك العرب عاد إلى أحسن زيه وبهجته » (٣) .

---

(١) المغيرة بن شعبة الوالى المجاهد د . منير الغضبان ص ٢٨٨ .

(٢) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ١٦ / ٨٥ ، ٨٦ ، ٧٨ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٦٥٢ .

ثانيًا : وفود جذام

١ ـ رفاعة بن زيد .

٢ ـ فروة بن عامر الجذامى .

ثانيا : وفد جذام

لخم : هو مالك بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب ابن زيد بن كهلان بن سبأ .

وجذام : هو عمرو بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن يزيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ .

١ ـ رفاعة بن زيد

روى ابن سعد عن رجاله والطبرانى عن عمير بن معبد الجذامى عن أبيه قال : وفد رفاعة بن زيد بن عمير بن معبد الجذامى ، ثم أحد بنى الضبيب على رسول الله ﷺ فى الهدنة قبل خيبر ـ وأهدى له عبداً وأسلم فكتب رسول الله ﷺ كتاباً :

« هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد ، إنى بعثته إلى قومه عامة ، ومن دخل فيهم يدعوهم إلى رسوله فمن آمن » ـ وفى لفظ : « فمن أقبل منهم ففى حزب الله وحزب رسوله . ومن أدبر فله أمان شهرين » . فلما قدم على قوله أجابوه وأسلموا » (١) .

لقد كان رفاعة رضي الله عنه سباقاً فى مبادرته هذه حين وفد على رسول الله ﷺ وهو سيد بنى الضبيب من جذام . ولا شك أن هذه الوفادة من مغنى حساً مرهفاً عالياً وإرهاصاً صادقاً بأن المستقبل فى الجزيرة للإسلام ، والنصر لمحمد ﷺ . ولم يتحرك أحد قبله . من الشام فهو سيد الوافدين .

لقد كان وفد المزنيين رضي الله عنهم من أكبر وأول والوفود التى نزلت المدينة . وكانت وفادتهم فى رجب سنة خمس من الهجرة . وهذا رفاعة رضي الله عنه فى ذى الحجة سنة ست أى بعد سنة ونيف . من وفد مزينة .

ومع أن جذام فى أرض الشام وأقاصى جزيرة العرب . فقبل رفاعة رضي الله عنه أن يكون تابعاً لرسول الله ﷺ . وداعية إلى الله تعالى فى قومه . وأول العاملين لإقامة الإسلام

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤٧١ .

فى قومه . واعتبره هو نواة فرع حزب الله فى قومه (فمن آمن ـ أو من أقبل منهم ـ ففى حزب الله وحزب رسوله) ومن أدبر فلا استقرار له فى هذه الدولة وعليه أن يبحث عن أرضٍ وقبيلة غير بنى الضبيب يقيم فيها وله أمان شهرين ريثما يجد ضالته ، ولأن قومه قد أسلموا له بسيادته وزعامته فلم يدبر منهم أحد . وأجابوه وأسلموا . وقام للإسلام دولة صغيرة مبكرة فى الشمال هى دولة بنى الضبيب من جذام وعلى رأسها رفاعة بن زيد الجذامى .

تطورات خطيرة :

فى طرف آخر من بنى جذام وفرع آخر منهم كان هناك صدام وحرب بين المسلمين وبينهم كما حدثنا ابن اسحاق رحمه الله قال :

(لم يلبث أن قدم دحية بن خليفة الكلبى من عند قيصر صاحب الروم حين بعثه رسول الله ﷺ إليه وقد أجازه وكساه فلقيه الهنيد بن عوص وابنه عوص بن الهنيد ـ وقال ابن سعد : الهنيد بن عارض،وعارض بن الهنيد الضلعيان ـ والضُّلَيع بطن جذام ـ فأصابا كل شىء مع دحية ولم يتركوا عليه إلا سمل ثوب .

فبلغ ذلك قوماً من بنى الضبيب رهط رفاعة بن زيد ممن كان أسلم وأجاب. فنفروا إلى الهنيد وابنه فاقتتلوا ، واستنقذوا الدحية متاعه . وقدم دحية على رسول الله ﷺ . فأخبره خبره واستسقاه دم (1) الهنيد وابنه . فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى خمسمائة رجل وردَّ معه دحية . فكان زيد يسير الليل ويكمن النهار ، ومعه دليل له من بنى عذرة . . . وأقبل الدليل العذرى بزيد بن حارثة وأصحابه حتى هجم بهم مع الصبح على الهنيد وابنه ومن كان فى محلتهم فأغاروا عليهم وقتلوا فيهم فأوجعوا وقتلوا الهنيد وابنه . . وأغار ما على ماشيتهم ونسائهم . فأصابوا من النعم ألف بعير ومن الشاء خمسة آلاف شاة ومن السبى مائة من النساء والصبيان .

فلما سمع بنو الضبيب بما صنع زيد بن حارثة ركبوا فيمن ركب فلما وقفوا على زيد بن حارثة

قال حسان بن ملة : إنا قوم مسلمون . فقال زيد بن حارثة : فاقرأ بأم الكتاب . فقرأها حسان . فقال زيد : نادوا فى الجيش أن يهبطوا إلى ورائهم . الذى جاؤوا منه

(1) استسقاه دمه : طلب منه الإذن فى قتله .

فأمسوا فى ناديهم) .

إنها المفاجأة الأولى فى الحدث . فالمعركة ليست محصورة مع الهنيد وابنه . فهناك بطون منهم (غطفان [1] كلها ووائل ومن كان من سلامان وسعد بن هذيم) قد نزلوا فى المحلة التى ينزل فيها الهنيد وابنه . وهم قد دخلوا فى الإسلام وتُلى عليهم كتاب رسول الله ﷺ . ولم يدبروا أو يعلنوا مخالفة لسيدهم رفاعة بن زيد ، ولم يكن زيد يعرف أنهم غيروا منزلهم الذى كانوا فيه ، وأنهم نزلوا حرة الرجلاء وهى المنطقة التى يوجد فيها الهنيد وابنه ، فكان الهجوم على الهنيد وابنه ومن كان فى محلتهم .

والإشارة الثانية لاختلاط الأمر . هى أن المسلمين قد انتصروا لدحية واستنقذوا متاعه . استجابة لكتاب رسول الله ﷺ ، وهم قريبون من الهنيد وابنه . وتشير رواية ابن هشام إلى تفصيل أوضح فبنو الضبيب هم الذين نصروا دحية ﷺ تنفيذاً لكتاب رسول الله ﷺ ، وبعضهم كان مقيماً بجوار رفاعة . وبعضهم أو سائرهم بوادى مدان من ناحية الحرة ، (وأقبل جيش زيد بن حارثة من ناحية الأولاج فأغار بالماقص من قبل الحرة فجمعوا ما وجدوا من مال أو ناس وقتلوا الهنيد وابنه ورجلين من بنى الأجنف ، ورجلاً من بنى الضبيب) .

فتناهت الأخبار إلى بنى الضبيب عن مقتل بعض أفرادهم . فمضى زعماء بنى الضبيب من فيفاء مدان موقعهم الأصلى . إلى مكان وجود الجيش فى الحرة . وكادت المعركة تقع . فتدخل زيد ﷺ . وتأكد من إسلام هذا الوفد . وأعلن : (نادوا فى الجيش أن الله حرَّم علينا ثغرة القوم التى جاؤوا منها إلامن ختر[2]) وبذلك بغيت مواقع الضبيب هذه مأمونة . (وكان بين الأسرى أخت حسان بن مِلَّة . رئيس الوفد وهى زوج أبى وبر بن عدى) فى الأسارى (فقال له زيد: خذها ،وأخذت بحقويه. فقالت أم القرز الضلعية : أتنطلقون ببناتكم وتذرون أمهاتكم . فقال أحد بنى الضبيب: إنها بنو الضبيب وسحر ألسنتهم سائر اليوم فسمعها بعض الجيش . فأخبر بها زيد بن حارثة) .

وخشى زيد ﷺ من تفاقم الأمر . والغموض يلف الأمر كله . فلا يدرى من المسلم من غيره . وخشى من كلمة الرجل هذه أن تكون خدعة من بنى الضبيب . فاكتفى بإصدار أمرين اثنين حتى يتم التحقيق فى الأمر وإزالة ملابساته .

---

(١) وهذه غير قبيلة غطفان الكبيرة الشهورة .

(٢) ختر : غدر .

١ ـ (فأمر بأخت حسان . ففكت يداها من حقويه وقال لها :

اجلسى مع بنات عمك حتى يحكم الله فيكن حكمه) .

٢ ـ (ورجعوا ـ أى الوفد ـ ونهى الجيش أن يهبطوا إلى واديهم الذى جاؤوا منه) . فزيد صاحب عقيدة من جهة ، وقائد جيش من جهة ثانية لا يريد أن يفرط بالنصر الذى حققه. ولا يريد أن يتجاوز أمان رسول الله ﷺ من جهة ثانية ، فما تبين له حسم فيه، ومنع الناس من هبوط وادى الوفد الذى رأسه حسان بن ملَّة ، حيث ثبت إسلام قومه، وأبقى أمر الأسرى معلقاً حتى يحكم الله فيهن حكمه .

سيد جذام عند رسول الله ﷺ :

(فرجعوا ـ حسان ومن معه ـ فأمسوا فى أهليهم . . فلما شربوا عتمتهم [١] ركبوا إلى رفاعة بن زيد وكان ممن ركب إلى رفاعة بن زيد تلك الليلة أبو زيد بن عمرو . . . وأنيف بن مِلَّة . وحسان بن مِلَّة . حتى صبَّحوا رفاعة بن زيد بكراع رية [٢] بظهر الحرة على بئر هناك من حرَّة ليلى . فقال له حسَّان بن مِلَّة :

إنك لجالس تحلبُ المِعزى ونساء جزام أسارى قد غرَّها كتابك الذى جئت به . فدعا رفاعة بن زيد بجمل لِه . فجعل يشدَّ رحله وهو يقول :

هل أنت حى أو تنادى حياً ؟

ثم غدا وهم معه بأمية بن ضفارة أخى الخصيبى المقتول ، مبكرين من ظهر الحرة فساروا إلى جوف المدينة ثلاث ليالٍ . فلما دخلوا المدينة وانتهوا إلى المسجد نظر إليهم رجل من الناس فقال : لا تنيخوا إبلكم . فتُقطع أيديهن . فنزلوا عنهن وهن قيام . فلما دخلوا على رسول الله ﷺ ورآهم الاح [٣] إليهم بيده أن تعالوا من وراء الناس . فلما استفتح رفاعة بن زيد المنطق . قام رجل من الناس فقال :

يا رسول الله ، إن هؤلاء قوم سحرة . فرددها مرتين . فقال رفاعة بن زيد :

رحم الله من لم يحذنا [٤] فى يومه هذا إلا خيرا .

---

(١) شربوا عتمتهم : شربوا لبنهم الذين انتظروه إلى ذلك الوقت .

(٢) منطقة فيها عين كثيرة الماء .

(٣) الاح : أشار .

(٤) لم يحذنا : لم يعطنا .

ثم دفع رفاعة بن زيد كتابه إلى رسول الله ﷺ الذى كان كتبه له فقال : دونك يا رسول الله قديماً كتابُه ، حديثاً غدرُه . فقال رسول الله ﷺ :

« اقرأه يا غلام وأعلن » .

فلما قرأ كتابه استخبره . فأخبروهم الخبر) (١) .

إنها أزمة ضخمة ، ومحنة كبرى استفحلت بين المسلمين وبين بنى جذام وهم الذين جاؤوا وأسلموا طواعية لله ورسوله . وزيد ﷺ لم يتحرك إلا بأمر رسول الله ﷺ . ومثل هذه الحادثة كفيلة أن تشعل الحرب على مستوى جذام كلها وحلفائها فى الشمال . وأن تجعلهم يرتدون عن هذا الدين وهذا هو الأمر أخطر فى القضية .

ومع أن رفاعة ﷺ قد غدا جندياً فى دين الله . لكنه يخشى أن يصبح سبَّة فى قومه إذا أصبح نساؤهم سبايا ورجالهم ما بين قتلى وأسرى . وسيان عند العرب واحد أو ألف فقد خفرت الذمة ووقع الثأر.ورسول الله ﷺ يدرك طبيعة هذا المجتمع، وطبيعة هؤلاء الأعراب . ويدرك العادات المتأصلة فى قومه . وغيرهم . فالأوس والخزرج أنصار الله قبل أن يشرق قلبهم بنور الإيمان كانت الحرب بينهم مائة سنة لا تنقطع . وهم من أرومة واحدة . وتتجدد الحرب عنهم لأتفه من هذا بكثير . لقتل سيد عندهم أو إخفار ذمة أو إثارة عصبية . فمن هؤلاء العرب بدون هذا الدين ! إلا قطعان هائجة . يقتل القوى فيها الضعيف ، ويقطع فيها الضعيف دون الشريف .

لقد كانت جرأة رفاعة غير مقبولة من بين يدى رسول الله ﷺ وهو يسمُ المسلمين بالغدر لكن غضبه وسرعة تأثره حدت به إلى هذا القول . غير أن حصافته وبلاغته جعله يوجه الغدر للكتاب لا لسيده ولا عجب فقد اشتهروا بين العرب بالسحرة .

(دونك يا رسول الله قديماً كتابه ، حديثاً عذره) . ولم يغضب رسول الله ﷺ لجرأة رفاعة . وهو الذى يسع الوجود حِلمهُ صلوات الله عليه إنما اتجه إلى استكناه الخبر والتعرف على حقيقته . وسمع من شهود العيان ما جرى .

رسول الله ﷺ ينهى التوتر القائم :

وأطلق رسول الله ﷺ حكمه فى معالجة من أعظم ما نحتاجه لنفقهه فى التعامل مع النفوس .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٩٨ ، ١٩٩ .

(فقال رسول الله ﷺ : « وكيف أصنع بالقتلى ؟ » ثلاث مرات .

فقال رفاعة : أنت يا رسول الله أعلم لانحرِّم عليك حلالاً . ولا نحلل لك حراماً.

فقال أبو زيد بن عمرو : أطلق لنا يا رسول الله من كان حياً ، ومن قتل فهو تحت قدمي هذه .

فقال له رسول الله ﷺ : « صدق أبو زيد . اركب معهم يا على » .

فقال له على رضي الله عنه : إن زيداً لن يطيعنى .

قال : « خذ سيفى هذا » فأعطاه سيفه فقال على : ليس لى يا رسول الله راحلة أركبها فحملوه على بعير لثعلبة بن عمرو يقال له مكحال .

فخرجوا فإذا رسول لزيد بن حارثة على ناقة من إبل أبى وبرة يقال لها : الشمر . فأنزلوه عنها فقال : يا على ما شأنى ؟ . فقال : ما لهم عرفوه فأخذوه .

ثم ساروا فلقوا الجيش بفيفاء الفحلتين . فقال على :

إن رسول الله يأمرك أن ترد على هؤلاء القوم ما كان بيدك من أسير أو سبى أو مال

فقال زيد : علامة من رسول الله ﷺ ؟

فقال على : هذا سيفه .

فعرفه زيد وصاح فى الناس فاجتمعوا فقال :

من كان معه شىء أو مال فليرده فهذا رسول رسول الله ﷺ .

فرد على الناس كافة كل ما كان أخذ لهم حتى كانوا ينزعون المرأة من تحت فخذ الرجل .

وروى محمد بن عمر رحمه الله عن محجن الديلى رضي الله عنه قال :(كنت فى تلك السرية فصار لكل رجل سبعة أبعدة أو سبعون شاة وصار له من السبى المرأة والمرأتان حتى ردَّ رسول الله ﷺ ذلك كله إلى أهله) .

قال فى زاد المعاد : (وهذه السرية كانت بعد الحديبية ولا شك) (١) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ١٤٢ .

لقد كان على ﷺ هو الممثل الشخصى لرسول الله ﷺ . وعندما كانت أزمة بنى جذيمة بعد فتح مكة اختير على ﷺ لاحتواء المحنة الكبرى هناك :

وقال رسول الله ﷺ : رأيت كأنى لقمت لقمة من حيس فالتذذت طعمها . فاعترض فى حلقى منها شىء حين ابتلعتها . فأدخل علىٌّ يده فنزعها فقال أبو بكر الصديق :

يا رسول الله ، سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب ويكون فى بعضها اعتراض . فتبعث علياً فتسهله (. . . فخرج على حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من أموال حتى إنه ليدى ميلغة الكلب . . .) (١) .

ولأن القتلى كثيرون فى بنى جذيمة . وقد قتلت خطأ . كان لابد من الدية . أما الهدف هنا فهو إطلاق الأسارى . وإعادة الأموال . ولا شىء أعسر على الإنسان بعد أن يظفر بقتال ، ويأخذ حقه من الغنيمة أو السبى أن ينتزع منه ذلك ، لكنها أوامر الرسول ﷺ . ولم تترك لاختيارهم كما هو الحال فى غنائم هوازن .

من خلال شفاعة أو رجاء يوافق من يوافق ويعارض من يعارض ؛ لأن الحق هناك قائم ، والقوم كانوا كفاراً عندما أسروا . أما هنا ، فالقوم مسلمون ، ويدخلون فى أمان النبى ﷺ . فلابد من تصحيح الخطأ . وإعادة اعتبار رفاعة بن زيد الجذامى ﷺ فى قومه وقبيلته . وإيضاح أن ما تم هو خطأ عابر يصحح . وأن زعامة رفاعة لم تمس وعهده لم يخفر .

وهذا ما حدا بأبى جعال أن يتحدث عن هذا الفداء الذى تم بمساعى هذه القيادات :

وعاذلةٍ ولـــم تعـــذل بطـــب ... ولولا نحـــن حُشَّ بها السعـــير
تدافـــع فى الأسارى بابنتيـــها ... ولا يرجى لهـــا عـــتقٌ يســـير
ولو وكـلت إلى عـــوص وأوسٍ ... لحار بها عن العتق الأمـــــور

لكن تدخل القائد العظيم رفاعة وصحبه الذين قطعوا الفيافى لنصرة أسراهم هو الذى أنقذ الموقف .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣ / ٥٧ .

وردنا ماء يثرب عن حفاظ | لربع إنه قرب ضرير (١)
لكل مجرب كالسيد نهد | على أقتاد ناجية صبور
فدى لأبى سليمى كل جيش | بيثرب إذ تناطحت النحور

وعادت جذام إلى حضن الإسلام وقد شفيت جراحاتها . وعاد الأسرى إلى أهليهم والسبايا إلى رجالهن مكرمات محترمات . ولولا الحكمة النبوية لأمكن أن تودى حروب جذام مع الإسلام بالخطر على الكيان الإسلامى كله .

كما حفظت هيبة الإسلام نفسه حين قتل الهنيد وابنه . حتى لا يتجرأ متجرأ على الوجود الإسلامى فى الجزيرة .

---

(١) قرب ضرير : نزل له الضرن .

٢ ـ فروة بن عمرو الجذامى

لقد كان رفاعة بن زيد رضي الله عنه سيد جذام فى الوبر والبادية . ولم يكن لأحد سلطان عليه . أما فروة بن عمرو الجذامى . فقد كان والياً لقيصر على معان من أرض الشام . ووصلت إليه معالم الإسلام دون أن ندرى كيف تم ذلك . فكل ما تذكره كتب السيرة عنه :

قال ابن إسحاق :

(وبعث فروةُ بن عمرو بن النافرة الجذامى ثم النفاثى إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء . وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب . وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام) .

وأى شيء يدعوه إلى إعلان إسلامه ودخوله فى دين الله . فالمنصب الذى يتبختر فيه : يحقق له أعلى مستويات الزعامة ، فمعان وما حولها ولاية ضخمة من ولايات الشام . وهو بحماية الروم أعظم إمبراطوريات الأرض ، ولا يحتاج المال ، وهو يرفل فى عز وجاه ومجد قصر عنه الكثيرون من أمثاله ، لكن ما يفعل إذا خالط الإيمان حشاشة قلبه واختلط بدمه وعظمه ، إنه يسخر سلطانه وجاهه لله تعالى . ويعلن على الدنيا إسلامه . ويبعث برسوله إلى رسول الله ﷺ ، ويعلن انضمامه له .

وهل تغفر الملوك مثل هذا التحول ؟

(فلما بلغ الروم ذلك من أمر إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم) .

وهو يعلم أن رسول الله ﷺ لا سلطان له على قيصر . ليشفع له . وأنه ليس بحالة تحالف معه فينقذه ، يعلم ذلك كله ، وعندما أقدم على إعلان إسلامه يعلم أن هذا يعرضه للخطر والموت . ولا بأس عنده بذلك . إنه لم يستشر رسول الله ﷺ . ونَقدر أن لو استشار رسول الله ﷺ لطلب منه أن يكتم على إسلامه حتى يغدو فى ضمان قاعدة إسلامية تستطيع حمايته .

وها هو يتحدث عن معاناته فى أسره وقد حضر خيال زوجه سليمى إليه :

طرقت سليمى موهنا (١) أصحابى — والروم بين البـاب والقـروان (٢)
صدَّ الخيال وسـاءه ماقـد رأى — وهمت أن أغفـى(٣) وقـد أبكانى
لا تدخلن العين بعدى إثمـداً (٤) — سلمـى ولا تـذين للإتيـان

ومن خطاب زوجه إلى خطاب سيده رسول الله ﷺ الذى كان يقال له ابن أبى كبشة :

ولقد علمتَ أبـا كبيشة أنـنى — وسط الأعـزة لايحصى (٥) لسانى
فلئن هلكت لتفقـدنَّ أخاكـم — ولئن بقـيت لتعرفُنَّ مكـانى
ولقد جمعت أجل ما جمع الفتى — من جودة وشجاعـة وبيـانِ

وكيف يبقى وهو قد أعلن ولاءه لمحمد ﷺ عدوهم . كما أنه لا يمكن أن يبيع دينه بدنياه مهما غلا ثمنها . ومهما ارتفع المنصب فماله عند ربه مزخور أكبر من متاع الدنيا كلها . وهو زعيم فى قومه . فهل يُذل قومه بِرِدَّتِه ؟ (فلما أجمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له : عفرا بفلسطين قال :

ألا هل أتى سلمى بأن حليلها (٦) — على ماء عفرا فوق إحدى الرواحل (٧)
على ناقة لم يضرب الفحل أمهـا — مشذبـة (٨) أطرافـها بالمناجـل

إنه يصف الخشبة التى صلب عليها وقد شُذِّبت أطرافها بالمناجل وأعدت للصلب.

هذه رسالته إلى زوجه سلمى . أما رسالته إلى سيده وقائده محمد ﷺ فكانت : كما زعم الزهرى (أنهم لما قدموه ليقتلوه قال :

بلِّغ سـراة المسلمين بأننـى — سَلْم لـربى أعظمى ومقامـى

ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء يرحمه الله) (٩) .

فهى شهادة الوحدانية يعلنها قبل موته . وأنه اختار الصلب والقتل والشهادة على

---

(١) الموهن بعد ساعة من الليل .
(٢) القروان : هو حويض من خشب تسقى فيه الدواب .
(٣) أغفى : أنام نوما خفيفا .
(٤) الإثمد : ضرب من الكحل .
(٥) لا يحصى : لايقُطع .
(٦) الحليل : الزوج .
(٧) الرواحل : هى فى الأصل الإبل . ويريد بإحدى الرواحل الخشبة التى صلبوه عليها وسيعود إلى ذكرها فى البيت الثانى .
(٨) المشذبة : التى ذبلت أغصانها .
(٩) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٨١ ، ١٨٢ .

الكفر . وحدد لنا سيرة خبيب بن عدى رضي الله عنه :

وقد خبرونى الكفر والموت دونه ... وقد هملت عيناى من غير مجزعى
فوالله ما أرجو إذا مت مسلماً ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
فلست بمبد للعدو تخشعاً ... ولا جزعاً إنى إلى الله مرجعى

وهذه بعض تفاصيل تلقى إضاءة على شخص فروة رضي الله عنه فى الطبقات لابن سعد:
عن زامل بن عمرو الجذامى قال :

كان فروة بن عمرو الجذامى عاملاً للروم على عمَّان من أرض البلقاء أو على معان. فأسلم وكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه. وبعث به مع رجل من قومه يقال له : مسعود بن سعد . وبعث إليه ببغلة بيضاء وفرس وحمار وأثواب لين وقباء سندس مخوص بالذهب فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« من محمد رسول الله إلى فروة بن عمرو . أما بعد . فقد قدم علينا رسولك ، وبلَّغ ما أرسلت به وخبَّر عما قبلكُم وأتانا بإسلامك ، وأن الله هداك بهداه إن أصلحت وأطعت الله ورسوله وأقمت الصلاة وآتيت الزكاة » وأمر بلالاً فأعطى رسوله مسعود بن سعد اثنتى عشرة أوقية ونشا .

قال : وبلغ ملك الروم إسلام فروة فدعاه فقال له :

ارجع عن دينك نملكك .

قال : لا أفارق دين محمد . وإنك تعلم أن عيسى قد بشَّر به ولكنك تضن بملكك.

فحبسه ثم أخرجه فقتله وصلبه) (١) .

لقد ضن قيصر بملكه فدعا عليه رسول الله ﷺ أن باد وباد ملكه . أما فروة رضي الله عنه فقد خلع ملكه تحت قدمه ورفض الفرصة الأخيرة : إما الصلب والإسلام وإما الكفر والملك فاختار الصلب على الملك . ووجه طعنته إلى قيصر أنه يعرف أن محمداً حق وأنه هو الذى بَشَّر به عيسى عليه الصلاة والسلام . ولكن الملك غلاب (٢) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٨١ .
(٢) السيرة النبوية ٢ / ٣ / ٤٠ .

ثالثا : وفد غسان

١ ـ الحارث بن أبى شمر الغسانى .

٢ ـ شرحبيل بن عمرو الغسانى .

٣ ـ جبلة بن الأيهم الغسانى .

٤ ـ وفد غسان .

ثالثاً : وفد غسان

هؤلاء الذين تشاءموا من أولاد سبأ لخم ، وجذام وعاملة ، وغسان . فماذا عن غسان لقد أقام الغسانيون ملكاً فى الشام امتد إلى البادية الشامية وبصرى . لكنه ممهور برعاية الروم . فأتيح لهم أن يرفلوا بثوب العز تحت رعاية التاج الرومانى . وصاروا مقصد الشعراء الكبار أمثال حسان بن ثابت الذى يرى فيهم أهله بنى عمه ، ويفخر بالملوك منهم فخره بنفسه . فى مقابلة المناذرة اللخميين فى العراق . أما نسبهم من سبأ فهو :

فغسان هم (بنو الحارث وجفنة ومالك وكعب) بن عمرو بن مزيقياء بن عامر بن ماء السماء بن حارثة بن الغطريف ابن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد .

فهم إذن فرع من فروع الأزد .

والأزد هو : أدد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

وقبل أن نتحدث عن وفدهم لابد من الإشارة إلى أنهم كانوا من الملوك الذين اختار رسول الله ﷺ مراسلتهم مع ملوك الأرض بعد الحديبية .

١ ـ الحارث بن أبى شمر الغسانى

قالوا :(وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدى وهو أحد الستة إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتاباً .

قال شجاع : فأتيت إليه وهو بغوطة دمشق وهو مشغول بتهيئة الأنزال والألطاف لقيصر وهو جاء من حمص إلى إيلياء. فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة ،فقلت لحاجبه : إنى رسول الله ﷺ إليه ، قال : لا تصل إليه حتى يخرج يوم وكذا وكذا . . .) .

لقد كان الحارث بن أبى شمر ملكاً عند العرب ، وخادماً مطيعاً ذلولاً عند قيصر خصوصاً وقد قدم حاجاً على رجليه من حمص إلى إيلياء شكراً لربه على انتصاره على الفرس، واسترداد الصليب الأكبر منهم الذى بقى عدة سنوات لدى سابور ذى الأكتاف.

لقد كان الفرس والروم هم الذين يتحكمون فى الدنيا . وكان العرب والمسلمون

على هامش التاريخ ، ولا مانع من أن نستعرض تلك المراهقة بين الصديق رضي الله عنه وأبى ابن خلف فى العهد المكى .

(روى الامام أحمد والترمزى وحسَّنه عن عكرمة عن ابن عباس : أن فارسًا والروم اقتتلوا فى أدنى الأرض - وأدنى الأرض يومئذ أذرعات بها - التقوا فهزمت الروم فبلغ ذلك النبى ﷺ وأصحابه وهو بمكة فشق ذلك عليهم، وكان النبى ﷺ يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح الكفار بمكة وشمتوا فلقوا أصحاب النبى ﷺ فقالوا: إنكم أهل كتاب وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب . وإنكم إذا قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② ﴾ [الروم] فلما نزلت هذه الآيات قال المشركون لأبى بكر : ألا ترى إلى ما يقول صاحبك ، يزعم أن الروم تغلب فارس ، فقال : صدق صاحبى . وفى رواية : فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار . فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ولا يقر الله عينكم فوالله ليظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك . نبينا فقام إليه أبى ابن خلف . فقال: كذبت. فقال أبو بكر : أنت أكذب يا عدو الله قال : أناحبك (١) عشر قلائص(٢) منى وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمتُ وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين ، ثم جاء أبو بكر إلى النبى ﷺ فأخبره . فقال : « ما هكذا ذكرت ، إنما البضع مابين الثلاث إلى التسع فزايده فى الخطر(٣) ومادّه فى الأجل . فخرج أبو بكر فلقى أبياً . فقال : لعلك ندمت ؟ قال : لا . قال : تعال أزيدك فى الخطر وأمادك فى الأجل فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين . قال : فعلت وذلك قبل تحريم الرهان - فلما خشى أبى بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه ولزمه وقال : إنى أخاف أن تخرج من مكة فأقم كفيلاً فكفله ابنه عبد الله . فلما أراد أبى أن يخرج إلى أحد (٤) أتاه عبد الله بن أبى بكر وقال له : لا والله لا أدعك تخرج حتى تعطينى كفيلاً فأعطاه كفيلاً ، وخرج إلى أحد ثم رجع إلى مكة وبه جراحة جرحه النبى ﷺ حين بارزه يوم أحد فمات منها بمكة ، وظهرت الروم على فارس ، فغلب أبو بكر أبياً وأخذ الخطر من ورثته فجاء يحمله إلى رسول الله ﷺ . فقال له رسول الله ﷺ : « هذا سحت فتصدق به ») (٥) .

---

(١) أناحبك : أراهنك .

(٢) القلائص : مفرده قلوص وهى الناقة الشابة .

(٣) الخطر : قيمة الرهان .

(٤) نعتقد أن فى متن الحديث خطأ حول خروج أبى إلى أحد ، فالروايات الأخرى تذكر أن انتصار الروم على فارس كان فى بدر . ومن جهة ثانية فلم يبارز رسول الله ﷺ أبياً فى أحد إنما رماه بسهم فى عنقه . ومات على الطريق وليس فى مكة . وتستقيم الرواية لو كانت عند خروجه إلى بدر .

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٢/ ٥٦١ ، ٥٦٢ .

كل هذا الاهتمام بأمر الروم والفرس فى مكة . وأخذ هذا العنف والملاحقة . وقيصر الروم وكسرى فارس لا علم لهم بما يجرى فيها ولا يعنيهم ذلك من قليل أو كثير . أما الأمر بعد الحديبية فقد اختلف كلياً . حضر زعيم مكة أبو سفيان بن حرب بين يدى قيصر الذى وصله كتاب رسول الله ﷺ وسمع بأذنه مقالة إمبراطور الروم عن خصمه محمد بن عبد الله :

(... فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميّ هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج . ولم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت الأرض بين قدميه . ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه . فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده ، وكثر اللغط . وأمر بنا فأخرجنا قال . فقلت لأصحابه حين أخرجنا : لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبى كبشة ، إنه ليخافه ملوك بنى الأصفر . فمازلتُ موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علىّ الإسلام) (١) .

من ذلك الرهان الذى شهدناه من المنسيين فى التاريخ إلى زلزلة التاريخ بوصول كتاب رسول الله ﷺ إلى قيصر وكما فى صحيح مسلم : (وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكراً لما أبلاه الله) فى هذه الظروف وصل خطاب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى الذى كان يتيه فى مجده ويرفل فى عزه وهو يحكم الشام . وهو أحد أمراء قيصر .

يحدثنا شجاع بن وهب الأسدى رضي الله عنه عن ذلك بقوله :

فأتيت إليه وهو بغوطة دمشق . وهو مشغول بتهيئة الأنزال والألطاف لقيصر وهو جاء من حمص إلى إيلياء . فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبه : إنى رسول رسول الله ﷺ إليه . فقال : لا تصل إليه حتى يخرج فى يوم كذا وكذا) .

وأنى له أن يلقى رسول امرئ من الحجاز . وهو مشغول بآيات الولاء لملك الدنيا قيصر . إنه ينظر إلى أهل الحجاز كلهم على أنهم خدمه وعبيده . فالأوس والخروج فى المدينة . كان شاعرهم حسان بن ثابت يفخر بأنه وفد عليه ويدبج القصائد العظام فى مديحه والثناء عليه مقابل ما يجيزه من مال . وحاجب الحارث لايجرؤ أن يذكر له أمر رسول محمد بن عبد الله . وهو مشغول بسيده قيصر . وتنقلاته . وتهيئة الهدايا المناسبة لمقامه .

---

(١) صحيح مسلم (ح ٧٤ / ١٧٧٣) ، والبخارى (ح ٧) وغيرها .
(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٦٠ ، ٢٦١ .
(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ٦٩ .

وعندما جلس بعد يومين أو ثلاثة على كرسى العرش يستعرض جنده والتاج على مفرقه . ويتلقى مدائح الشعراء والبلغاء فيه ، كان من جملة ماورد إليه خطاب رسول الله ﷺ إليه .

يحدثنا شجاع رضي الله عنه عن ذلك ويقول :

(وخرج الحارث يوماً فجلس ووضع التاج على رأسه . فأذن لى عليه . فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ) .

أما نص الخطاب فهو : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر . سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق . وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له . يبقى لك ملكك ») (١) .

(فقرأه ثم رمى به وقال : من ينتزع منى ملكى ؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته) .

لقد فقد الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك الشام وعاملها لقيصر صوابه . وكاد يتميز من الغيظ . من هو هذا الأعرابى فى المدينة يأتى لينازعه ملكه . ويدعوه إلى الدخول فى دينه ، ويقدَّم اسمه عليه . ولابد أن يعلم العرب جميعاً . من هو فى جاهه وسلطانه وطيلسانه. ولئن طمعت العرب فى موقعه فسوف يؤدبها جميعاً ولو غزا اليمن إنه يعلنها حرباً شعواء على محمد بن عبد الله ودولته فى يثرب فهؤلاء قومه وأقاربه لا بد أن يؤدبوا حين أسلموا وتابعوا محمداً وخرجوا على ولائه والانصياع له . ومع ذلك فهو يحس بالخطر المحدق . ولا بد من تجهيز جيش جرار لغزو المدينة . وإنهاء الوجود الإسلامى فيها . وأصدر أوامره :

(علىَّ بالناس فلم يزل يفرض حتى قام . وأمر بالخيول تنقل . ثم قال : أخبر صاحبك ما ترى) . فالفرسان جاهزون . والخيل توضع لها نعالها للنفير . والجيوش تتحرك . وكان حريصاً على ذلك ليرى رسول رسول محمد . قوته وسلطانه قائلاً له : أخبر صاحبك ما ترى) .

لكن عرض العضلات هذه . واستنفار القوات هذا هو أمر ظاهرى فهو أقل من أن يتخذ قراراً بالحرب دون إذن سيده قيصر . وهو مع ذلك ما كان يشك لحظة واحدة فى

(١) زاد المعاد ٣ / ٦٣ .

موافقة قيصر على تأديب صاحب يثرب . وفوجئ بالجواب الصاعد الذى يمنعه عن تجيش الجيوش لقتال محمد ، وكتب إليه :

(فكتب إليه قيصر ألا تسير إليه ، وانه عنه ووافنى بإيلياء) .

لقد جاءت توجيهات قيصر إمبراطور الروم معاكسة لقناعاته بل أشارت إليه أن يحسن معاملته . فماذا يفعل بعد أن أعد الجيش . وأرى قوته لشجاع رسول محمد بن عبد الله . إنه عبد مطيع لاحول له ولا قوة . (قال : فدعانى ، وأمر لى بمائة مثقال ذهب) وصلنى مُرّى وأمرلى بنفقة وكسوة .

فما قصة مرى هذه .

إنها قصة قلب خالط الإيمان بشاشته . فهو سكرتير الحارث بن أبى شمر الغسانى . لكنه على دين النصرانية ولئن كانا نصرانيين . لكن الحارث الملك قد شغله ملكه عن دينه أما مرى فكان متعمقًا فى دين الله . وأكرمنا شجاع ﷺ بالحديث عن مرىً هذا حتى أجبناه وكأنما هو أخ حميم لنا .وهو من التابعين . فقد فاته رؤية رسول الله ﷺ. يقول شجاع :

(وجعل حاجبه وكان روميًا اسمه مرُى يسألنى عن رسول الله ﷺ . فكنت أحدثه عن صفة رسول الله ﷺ . وما يدعو إليه . فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول :

« إنى قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبى ﷺ ـ بعينه فأنا أومن به وأصدقه وأخاف من الحارث أن يقتلنى . وكان يكرمنى ويحسن ضيافتى) .

وكيف لا يكرمه وهو رسول رسول الله ﷺ الحبيب إلى قلبه الذى يعرفه كما يعرف ابنه . وكما يعرف ابنته . وما يسمعه من شجاع عن وصف رسول الله ﷺ يطابق تماماً ما يقرأه فى الإنجيل عنه . ولم يتردد فقد تأكد له أنه هو النبى المنتظر . فأعلن إسلامه سراً على يدى شجاع ﷺ . ولم يعرف كيف يكرمه ويجيزه حيث سيمضى إلى نبيه الحبيب .

(ووصلنى مرى،وأمر بى بنفقة وكسوة.غير نفقة الأمير الحارث وكسوته . وقال:

أقرئ رسول الله ﷺ منى السلام . وأقرأته من مرى السلام وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ : « صدق » .

ومات الحارث عام الفتح) (١) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٦٠ ، ٢٦١ .

إن قلب مُرى هذا ليلتقى مع قلب الأمة الحبشية التى كانت تتردد على أم حبيبة ﵂ فى الحبشة موفدة من النجاشى إليها فعن أم حبيبة قالت : ما شعرت وأنا بأرض الحبشة إلا برسول النجاشى - جارية يقال لها : أبرهة - كانت تقوم على ثيابه ودهنه . فاستأذنت علىَّ فأذنت لها فقالت : إن الملك يقول لك : إن رسول الله ﷺ كتب إلىَّ أن أزوجكه . فقلت : بشرك الله بالخير . وقالت : يقول لك الملك : وكلى من يزوجك ؟ قالت : فأرسلت إلى خالد بن سعيد فوكلته . . . وأعطيت أبرهة سوارين من فضة وخدمتين من فضة كانتا على خواتيم من فضة فى كل أصابع رجلى سروراً بما بشرتنى به . . . فلما وصل إلىَّ المال - أربعمائة دينار دفعها النجاشى - أرسلت إلى أبرهة التى بشرتنى لها : إنى كنت أعطيتك ما أعطيتك يومئذا ولا مال بيدى . فهذه خمسون مثقالاً فخذيها فاستعينى بها . فأبت . فأخرجت حقاً كان فيه كل ما أعطيتها فردته علىَّ وقالت : عزم علىَّ الملك الا ازرؤك شيئاً ، وأنا التى أقوم على ثيابه ودهنه . وقد اتبعت دين محمد ﷺ . وأسلمت لله وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر . . فحاجتى إليك أن تقرئى رسول الله ﷺ منى السلام وتعلميه أنى قد اتبعت دينه . . . فلطفت بى وكانت هى التى جهزتنى . فكانت كلما دخلت على تقول : لا تنسى حاجتى إليك ، فلما قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخِطبة ، وما فعلت بى أبرهة وأقرأته منها السلام،فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « وعليها السلام ورحمة الله وبركاته ») (١) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ٦٩ .

٢ ـ شرحبيل بن عمرو الغسانى

وهو أمير آخر من غسان على البلقاء لهرقل ملك الروم .

حدثنا الواقدى قال : (حدثنى ربيعة بن عثمان عن عمر بن الحكم قال : بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدى ثم أحد بنى لهبْ إلى ملك بصرى بكتاب . فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فقال : أين تريد ؟ قال : الشام ؟ قال : لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم ، أنا رسول رسول الله ، فأمر به فأوثق رباطًا ثم قدَّمه فضرب عنقه صبرًا . ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره . فبلغ رسول الله ﷺ الخبر فى فاشتد عليه . وندب الناس وأخبرهم الحارث ومن قتله . فأسرع الناس فخرجوا وعسكروا بالجرف . ولم يبين رسول الله ﷺ الأمر فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر . . . ومضى المسلمون من المدينة فسمع العدو بمسيرهم عليهم قبل أن يصلوا أو ينتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير . فلما فصل المسلمون من المدينة سمع العدو بمسيرهم فجمعوا الجموع . . . وخاف شرحبيل بن عمرو فتحصن . وبعث أخاً له يقال له : وبر بن عمرو . فسار المسلمون حتى نزلوا أرض معان من أرض الشام . فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام وبكر فى مائة ألف عليهم رجل من بلى يقال له : مالك . . .) (١) .

وليس بين يدينا شىء عن مصير شرحبيل بعد ذلك . وكل التفاصيل تتحدث عن غزوة مؤتة دون أن تشير إلى أنه شارك فيها أم لا . وهو الذى كان سبب المعركة . والذى نعرفه عنه كذلك أنه كان والياً لقيصر على البلقاء . والبلقاء فى الأردن قبل بصرى الشام فى سورية .

(وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدى بكتابه إلى عظيم بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى . وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام قبل قيصر . فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه . . . فجهز جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل . . . وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هناك إلى

---

(١) المغازى للواقدى ، مقتطفات ـ غزوة مؤتة ١ / ٧٥٥ ، ٧٥٦ .

الإسلام فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم وقاتلوهم) (١) .

ظاهرة لا تكاد توجد إلا فى القيادة النبوية . فرسول الله ﷺ يزج بأضخم قواته ؛ ثلاثة آلاف مقاتل إلى تخوم الروم ثأراً لفرد واحد قُتل وهو فى طريقه بين المدينة وبصرى. فلا بد أن يعلم العدو أن دولة الإسلام لا تقبل الاعتداء عليها ، وقتل رسول من رسلها هو اعتداء عليها يقابله حرب كؤود . وبلغ خوف الروم أن يحشدوا منهم ومن العرب عملاءهم مائتى ألف مقاتل لمواجهة الجيش الإسلامى القادم .

هؤلاء المائتى ألف لم يزيلوا الذعر والخوف من شرحبيل بن عمرو الغسانى القاتل. وبعث أخاه مع جيش معه للمواجهة . ولم يجرؤ هو على ذلك . ولا ننسى أن جيش الحديبية قبل أقل من عام كان ألفاً وخمسمائة مقاتل . ولأول مرة فى تاريخ الحرب النبوية يختار رسول الله ﷺ للجيش ثلاثة قادة .

(أمير الجيش زيد ين حارثة فإن قتل فجعفر بن أبى طالب فإن قتل فعبد الله بن رواحة فإن قتل فليصطلح المسلمون على أمير عليهم) .

ويعنى هذا الاختيار أن رسول الله ﷺ يقدر تمامًا خطورة الموقف . وإلا فلم يعين القادة الثلاثة على رأس الجيش لأول مرة فى تاريخ الحروب النبوية . ويؤكد هذا المعنى ما قاله ذلك اليهودى الذى سمع بهذا الاختيار (فقال النعمان بن مهض : يا أبا القاسم إن كنت نبياً فسميت من سميت قليلاً أو كثيراً أصيبوا جميعًا لأن أنبياء بنى إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم ، ثم قالوا : إن أصيب فلان ففلان ، فلو سمى مائة أصيبوا جميعًا ، ثم إن اليهودى جعل يقول لزيد بن حارثة : اعهد فإنك لا ترجع إلى محمد إن كان نبيًا قال زيد : فأشهد أنه نبى صادق بار) وكانت سرية مؤتة الخالدة. ولم ندر عن شرحبيل بن عمرو شيئاً بعد ذلك . فقد غطت أخبار مؤتة على أخباره . وهزت المعركة أركان هرقل إمبراطور الروم. وطوت الغساسنة فى ملف النسيان .

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

٣ ـ جبلة بن الأيهم الغسانى

من المرجح أن الحارث بن أبى شمر الغسانى الذى توفى فى عام الفتح لم يدخل الإسلام . ونزل تحت أمر هرقل . بعدم فتح حرب مع رسول الله ﷺ . ولكن الحرب وقعت من أجل شرحبيل بن عمرو الغسانى وقتله رسول الله ﷺ . إنما الجديد الآن هو أن الروم قد ولوا جبلة بن الأيهم الغسانى الشام بعد وفاة الحارث . ويتابع رسول الله ﷺ أخبار الساحة السياسية ساعة بعد ساعة وكانت سرعة المبادرة النبوية مذهلة . فسرعان ما بعث رسول الله ﷺ برسوله إلى جبلة يدعوه إلى الإسلام .

(قالوا : وكتب رسول الله ﷺ إلى جبلة بن الأيهم ملك غسان يدعوه إلى الإسلام فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله ﷺ ، وأهدى إليه هدية . ولم يزل مسلماً حتى كان فى زمن عمر بن الخطاب . فبينما هو فى سوق دمشق إذ وطئ رجلاً من مزينة . فوثب المزنى فلطمه فأُخذِ وانطلق به إلى أبى عبيدة بن الجراح . فقالوا : هذا لطم جبلة . قال : فليلطمه . قالوا : وما يقتل ؟ قال : لا . قالوا : فما تقطع يده؟ قال . لا ، إنما أمر الله تعالى بالقود . قال جبلة : أوترون أنى جاعل وجهى نداً لوجه جدى جاء من عمق ، بئس الدين هذا . ثم ارتد نصرانيا وترحل بقومه) (١) حتى دخل أرض الروم .

لسنا بصدد متابعة تطورات جبلة بمقدار ما نحن أمام المبادرة النبوية التى ضمنت الحدود الشمالية آمنة بإسلام جبلة بن الأيهم . ولا يمكن بعد اليوم أن تجرى تحركات عسكرية فى المنطقة إلا ويعلم بها رسول الله ﷺ لقد قتل فروة بن عمرو الجذامى رضي الله عنه . فكان وجود جبلة عوضاً عنه فى هذا الموقع . وبقيت الحدود آمنة إلى أن كانت غزوة تبوك التى أشير إلى أن من أسبابها أن الروم تنعل لغزو المدينة .

لقد كانت غسان والروم اسمين لمسمى واحد ، وكانت غسان تشكل خطراً على الحدود الشمالية الإسلامية ولعل حديث عمر رضي الله عنه فى حديث طلاق رسول الله ﷺ لنسائه يوضح ذلك ،يقول عمر رضي الله عنه :

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٦٥ .

كان لى جار من الأنصار . وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتينى بخبر الوحى وغيره وآتيه بمثل ذلك . قال : وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا . فنزل صاحبى يوماً ثم أتى عشاء فضرب علىَّ بابى ثم نادانى فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم . فقلت :

وما ذاك ؟ أجاءت غسان ؟

قال : لا . بل أعظم من ذلك وأطول ، طلَّق رسول الله ﷺ نساءه . . .) (١) .

ترى :هل كانت هذه المرحلة القلقة قبل إسلام غسان أو بعده لا تدرى لكن الذى نعرفه أن رسول الله ﷺ اجتنب حرباً مع الغساسنة بإسلام جبلة .

وحيث إن إسلامه كان ظاهرياً فقبله رسول الله ﷺ ، ولم ينقب عن القلوب فلو كان استسلاماً ظاهرياً فهو خطوة سياسية . أوقفت الهجمات المعادية التى تود أن تغزو المدينة ولا شك أن هذا الأمر قبل تبوك . لأن تبوكاً ـ كما ذكر ـ تحسباً من هجمات الروم فى الشمال .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٣٨٨ / تفسير سورة الطلاق .

٤ ـ وفد غسان

ووفد غسان الذى قدم مع الوافدين فى العام التاسع للهجرة هو وفد أفراد . وليس وفداً رسمياً له سلطة على القبيلة فى اتخاذ الموقف المناسب كما ذكره ابن القيم فى زاد المعاد .

(وقدم وفد غسان على النبى ﷺ فى شهر رمضان سنة عشر وهم ثلاثة نفر فأسلموا وقالوا : لا ندرى أيتبعنا قومنا أم لا . وهم يحبون بقاء ملكهم وقرب قيصر . فأجازهم رسول الله ﷺ بجوائز وانصرفوا راجعين . فقدموا على قومهم فلم يستجيبوا لهم وكتموا إسلامهم . حتى مات منهم رجلان على الإسلام ، وأدرك الثالث منهم عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عام اليرموك فلقى أبا عبيد : فأخبره بإسلامه وكان يكرمه) [١] .

وهذا الوفد يؤكد أن غسان بصفتها قبيلة من القبائل العربية الكبرى لم تدخل فى الإسلام . ولو أسلم جبلة بن الأيهم أحد قادتها . فلم تكن غسان خلفه منضمة لهذا الدين الجديد . وبقيت على نصرانيتها أو وثنيتها لتبقى اللحْمَةُ والتحالف مع هرقل إمبراطور الروم . وأن هؤلاء الثلاثة ـ الذين جاؤوا أو بايعوا رسول الله ﷺ ـ لم يتمكنوا من أن ينشروا الإسلام فى صفوف غسان . إنما بقى إيمانهم شخصياً فردياً وبقيت غسان تخوض الحروب بجوار الروم . كما تشير بعض المصادر [٢] إلى أن جبلة بن الأيهم نفسه كان من قادة جيش الروم فى اليرموك . وحاول ثنى المسلمين عن المواجهة مع الروم وعرض شروط الصلح مع العرب ؛ لكنه فشل فى ذلك .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى / ٦ / ٦٠٠ .

(٢) حروب المسلمين فى الشام ١ / ١٠٠ .

عاملة

ولم نستطع أن نجد من عاملة . الفرع الرابع الذى مضى إلى الشام من أولاد سبأ لا شخصاً ولا فرعاً منها انضم إلى الإسلام أو وفد إلى رسول الله ﷺ إنما كانت تذكر دائماً مع القبائل التى واجهت المسلمين فى اليرموك وفى مؤتة وفى بقية المعارك التى وقعت على أرض الشام .

ونكون بهذا قد انتهينا من القسم الأول من عرب قحطان الذين أقاموا فى الشام . وشهدنا علاقتهم مع الإسلام أفراداً وجماعات وقبائل .

القسم الثانى

الذين تيامنوا من نسل سبأ كندة

والأشعريون والأزد

ومذحج وحمير

وأنمار

أولاً

كنـــدة

١ ـ ولد معاوية بن كندة :

أ ـ وفود كندة مع الأشعث بن قيس .

ب ـ الملوك الأربعة .

جـ ـ امرؤ القيس بن عابس .

د ـ حجر بن عدى .

٢ ـ ولد أشرس بن كندة :

هـ ـ وفد تجُيب .

و ـ الغلام المؤمن .

ز ـ معاوية بن حديج السكونى الكندى .

٣ ـ الفرع الثانى : وفود خولان .

نعود إلى حديث رسول الله ﷺ فى رواية الترمذى :

عن فروة بن مسيك الغطيفى رضي الله عنه قال ، قال رجل : يا رسول الله أخبرنى عن سبأ ما هو ؟ أرض أم امرأة ؟ قال ﷺ :

« ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد له عشرة من الولد. فتيامن ستة وتشاءم أربعة فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين تيامنوا فكندة والأشعريون والأزد ومذحج وحمير وأنمار » فقال رجل : ما أنمار ؟ قال ﷺ :

« الذين منهم خثعم وبجيلة » (١) .

كندة

ولَد كِندة بن عفير : معاوية بن كندة ، وأشرس . أمهما رملة بنت أسد بن ربيعة ابن نزار .

١ ـ ولد معاوية بن كندة

وكندة فى النسب هى مع لخم وجذام وعاملة .

لخم : هو مالك بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب ابن زيد بن كهلان بن سبأ .

جذام : هو عمرو بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب ابن زيد بن كهلان بن سبأ .

عاملة : هو الحارث بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ .

وهؤلاء الثلاثة من الذين مضوا إلى الشام ورابعهم ابن أخيهم عفير بن عدى بن الحارث .

كندة : هو ثور بن عفير بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ .

أما أين ينتهى نسب الأشعث من كندة فهو :

الأشعث بن قيس بن معدى كرب بن معاوية بن جبلة بن عدى بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث الأصغر بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن ثور بن معاوية

(١) أخرجه الترمذى ، وقال :« حديث حسن غريب » .

ابن ثور بن عفير . وثور بن عفير هو كِندة .

أ ـ وفود كندة مع الأشعث بن قيس

قال ابن إسحاق : وقدم على رسول الله ﷺ الأشعث بن قيس فى وفد كندة فحدثنى الزهرى بن شهاب أنه (أى الاشعث) قدم على رسول الله ﷺ فى ثمانين راكبا من كندة . فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده . وقد رجَّلوا جُممهم وتكحلوا ، وعليهم جبب الحبرة وقد كففوها بالحرير فلما دخلوا على رسول الله ﷺ . قال : «ألم تسلموا ؟ » قالوا : بلى ؛ قال :«فما بال هذا الحرير فى أعناقكم ؟» قال : فشقوه منها فألقوه) (١) .

لقد كان قدوم وفد كندة يعنى أن أعز وفد من العرب قدم على رسول الله ﷺ . فكندة هم ملوك العرب . وقد دانت لهم بذلك .

(وكان الحارث (٢) بن عمرو ملكاً على الحيرة . ثم تفاسدت القبائل من نزار فأتاه أشرافهم فقالوا : إنا فى دينك . ونخاف أن نتفانى فيما يحدث بيننا فوجِّه معنا بنيك ينزلون فينا . فيكفون بعضنا عن بعض ففرّق ولده فى قبائل العرب . فملّك ابنه حُجراً على أسد وغطفان ، وملَّك ابنه شرحبيل على بكر بأسرها وبنى حنظلة بن مالك ، والرباب ، وملك ابنه معد يكرب على بنى تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بنى دارم والصنائع . وملَّك ابنه عبد الله على عبد القيس . وملَّك ابنه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٧٧ .
انظر : أيام العرب لجاد المولى بك وإخوانه ص ١١٢ .

(٢) الحارث بن عمرو اعظم ملوك كندة . حكم الحيرة على عهد الملك قباذ ملك الفرس . وعلا صيته زمناً ولكنه لم يلبث أن ولى ملك الفرس كسرى أنوشروان . فولى على الحيرة المنذر بن ماء السماء . فهرب الحارث وتبعه المنذر فى عرب الحيرة ، ولكنه نجا وأقام بأرض كلب حتى مات سنة ٥٤١ م . وأخذ المنذر ثمانية وأربعين نفساً من بنى آكل المرار ؛ قومه وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث . وأمر بضرب رقابهم فى ديار بنى مرينا وفى ذلك يقول امرؤ القيس :

ملوك من بنى حُجر بن عمرو ... يساقون العشية يقُتلونا
فلو فى يوم معركة أصيبوا ... ولكن فى ديار بنى مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل ... ولكن فى الدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم ... وتنتزع الحواجب والعيونا

سلمة على قيس وكان لحُجر (ولد الحارث) على بنى أسد أتاوة فى كل سنة مؤقتة ، وغبر [1] على ذلك دهراً ثم أرسل جابيه الذى كان يجبيه فمنعوه ذلك ، وحُجر يومئذ بتهامة ، وضربوا رسله ، وضرَّجوهم ضرجاً شديداً قبيحاً . فبلغ حُجراً . فسار إليهم بجند من ربيعة ، وجُند من جند أخيه من قيس وكنانة . فأتاهم وأخذ سراتهم . وجعل يقتلهم بالعصا وأباح الأموال ، وصيرّهم إلى تهامة ، وآلى بالله ألا يساكنوهم فى بلد أبداً . وحبس جماعة من أشرافهم . ثم سارت إليه بنو أسد ثلاثاً . ودخلوا إليه يستعطفونه وفيهم عبيد بن الأبرص فقام وقال ، أيها الملك ؛ اسمع مقالتى :

يا عين فابكى ما بنى أسد فهم أهل الندامـــة

أهل القباب الحمر والنَعمَ المؤبَّل والمدامـــة

وذوى الجياد الجرد والأسل المثقَّفة المقامـــة

جل أبيت اللعن جلاً إن فيما قلت آمـــة

فى كل واد عانٍ بين يثرب فالقصور إلى اليمامة

تطريب عانٍ أو صياح محرّقٍ أو صوت هامة

ومنعتهم نجداً فقد حلُّوا على وجل تهامـــة

برمت بنو أسد كما برمت ببيضتها الحمامـــة

جعلت لها عودين من قشم وآخر من ثمامـــة

إما تركت تركت عفواً أو قتلت فلا ملامـــة

أنت المليك عليهمُ وهم العبيد إلى القيامـــة

ذلَّو لسوطك مثلما ذلَّ الأشيقر ذو الخزامـــة

فرقَّ لهم حجر حين سمع قوله . وأرسل من يردهم .

---

(١) غبر : لبث .

وهكذا كان العرب إذن ينظرون إلى كندة الذين حكموا عرب الشمال جميعاً تقريباً إضافة إلى مُلْك الحيرة .

إما تركت تركت عفواً أو قتلت فلا ملامة

أنت المليك عليهمُ وهم العبيدُ إلى القيامة

ذلّوا لسوطك مثلما ذلَّ الأشيقر ذو الخزامة

ومع أن الحارث عزل عن الحيرة بعد ذلك . لكن بقى العرب يدينون لهم بالزعامة والملك . ويفخرون بالانتساب إليهم يؤكد ذلك الأشعث بن قيس إلى رسول الله ﷺ :

(ثم قال الأشعث بن قيس : يا رسول الله . نحن بنو آكل المرار. وأنت ابن آكل المُرار فضحك رسول الله ﷺ ثم قال :

« ناسب بهذا النسب ربيعة بن الحارث والعباس بن عبد المطلب (١) ،لا ، نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفى من أبينا » .

« وفى المسند من حديث حماد بن سلمة ـ عن الأشعث بن قيس قال :

قدمنا على رسول الله ﷺ وفدُ كندة ولا يرون إلا أنى أفضلهم . قلت : يا رسول الله ، ألستم منا ؟ قال : « لا ، نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفى من أبينا» فكان الأشعث بن قيس يقول :

لا أوتى برجل نفى رجلاً من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد) (٢) .

فقد أراد الأشعث بن قيس أن يربط بين كندة وقريش فى النسب العريق لبنى آكل المرار . فهم حفدة الملوك . وبذلك يغدو له شرف جديد إضافة إلى شرفه فى قومه . وهو اتحاد نسبه مع النبى ﷺ . فى وقت غدا رسول الله ﷺ سيد الجزيرة بلا منازع.

وسنقف عند المشاهد الثلاثة التى ذُكرت لنا فى الوفادة الكندية :

١ ـ وفد ملكى : فلم يسبق أن قدم المدينة مثل هذا الوفد أبدا . عدداً ، ولباساً . وشارة وعزاً . أما العدو ما بين ستين إلى ثمانين راكباً .

---

(١) قال الزهرى وابن اسحاق : كانا تاجرين « العباس وربيعة » وكانا إذا سارا فى أرض العرب فسئلا : من أنتما ؟ قالا : نحن بنو آكل المرار يتعززان بذلك فى العرب ، ويدفعان به عن نفسيهما لأن بنى آكل المرار من كندة كانوا ملوكاً .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٧٧ ،وسبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٦١٩ .

وأما اللباس فلباس الملوك : لبسوا جباب الحبرات مكثفة بالحرير .

وأما الشارة . فقد رجلوا (١) جممهم (٢) واكتحلوا .

وأما العز فأى عزٍ وفخر يفوق انتسابهم لبنى آكل المرار من كندة .

ولا شك أن هذه المظاهر تأخذ بألباب الناس وتسحرهم . من خلال مظاهر الثراء العريض والترف الفاحش الذى ظهر به ملوك العرب وقد وفدوا على المدينة .

نحن مع سيد البشرية وإمام المربين فى الوجود . كيف يواجه هذا الموقف . وكيف يتعامل مع هذه النفسية لسادة العرب وملوكهم . وعلى رأسهم الأشعث بن قيس سيدهم وأفضلهم ، والذى انتهت اليه زعامتهم وهو الذى أعلن ذلك كما فى حديث الأشعث رضي الله عنه الذى رواه أحمد فى مسنده :

(قدمنا على رسول الله ﷺ فى وفد كندة ولا يرون إلا أنى أفضلهم . . .) هذه النفوس الأنفة . الممتلئة بالفخر والخيلاء المتعالية على الناس بجاهها وتاريخها وواقعها . كيف تكون المعالجة النفسية لهم . . وما أروعه من درس تلقوه لحظة وصولهم مسجد الرسول ﷺ وخلاصة هذا الدرس أن الإسلام هو أعظم ما فى الوجود . وأن هذه المظاهر الجوفاء كلها تسقط عند حكم الله وشريعته .

(فلما دخلوا قال رسول الله ﷺ : « أو لم تسلموا ؟ » قالوا : بلى .

قال : « فما هذا الحرير فى أعناقكم ؟ » .

إنه درس هز كياناتهم من جذورها . وزلزل نفسياتهم من جذورها .

الإسلام : هو الانقياد والامتثال لله تعالى فى كل ما أمر وفى كل ما نهى عنه وزجر .

فكيف يجتمع الإسلام مع هذا الحرير الذى يبرق فيخطف الأبصار لهذا الوفد المسلم . وهو مبعث زهوهم .ومبعث تيههم وفخارهم . فإن جاؤوا مسلمين فلا لقاء بين هذا اللباس وهذا الإسلام .

---

(١) رجَّلوا : سرْحوا ومشطوا .

(٢) جممهم : جمع جُمَّة وهى مجتمع شعر الناصية الذى يصل إلى المنكبين .

إنها مدرسة تربوية خالدة غيرت تركيب الوفد النفسى كله . دون أن تمضى القضية فى إطار المؤلفة قلوبهم ، وعدم جرح مشاعرهم ، والتعامل معهم بصفتهم ملوك العرب والأخذ بالتدرج فى معالجة هذه النفوس فهذا كله موقعه الآن . وهذا هو اختيار هذا الوفد . هل جاء مسلماً أم جاء متحدياً مفاخراً كما شهدنا من قبل فى وفد تميم .

لقد رسم رسول الله ﷺ صورة لأهل اليمن . حين بشر المسلمين بقدوم وفودهم عليه قبل أن تنزل الوفود المدينة :

(فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ يقول :

« جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة وأضعف قلوباً . الإيمان يمان ، والحكمة يمانية . السكينة فى أهل الغنم . والفخر والخيلاء فى الفدادين أهل الوبر قِبلَ مطلع الشمس»(١).

فهل هذا الوفد المتغطرس يحمل هذه المواصفات على غير ظاهره واعتداده وفخاره؟

نعم يحمل هذه المواصفات .

(فشقوه ونزعوه وألقوه) .

لم يناقشوا ولم يغضبوا ولم يزمجروا ولم يعلن الأشعث المواجهة . إنما قاموا فشقوا ثيابهم الملكية ونزعوا شارات الملك ، منها الحرير الذى كففوا حبراتهم به .

وكان هذا هو الدرس الأول .

٢ ـ ثم قال الأشعث بن قيس : يا رسول الله ، نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار فضحك رسول الله ﷺ .

وكان هذا الدرس التربوى الثانى . فقد آنس الوفد بضحكه ﷺ . بعد أن استجابوا لأمر الله تعالى ورسوله . ونزعوا الحرير وألقوه وخرقوا ثيابهم .

وجاء الدرس التربوى الثالث لسيد الوفد الأشعث بن قيس .

---

(١) صحيح مسلم (ح ٨٩ ـ ٥٢) وهو عند البخارى (ح ٤٣٨٩) ، هذا وقد أغفيت إغفاة وأنا أكتب الحديث وأفكر فيه فرأيت كأنى أشعلت مصباحًا كهربائيًا مع رواية الحديث .

« ناسب بهذا النسب ربيعة بن الحارث والعباس بن عبد المطلب » .

فقد عرف رسول الله ﷺ من أين جاء هذا الالتباس . إنه قد جاء من انتساب العباس عمه وربيعة بن الحارث ابن عمه لبنى آكل المرار ليسوقا تجارتهما فى اليمن . ولتحقيق مصلحتهما المادية هناك . فقد أتبع رسول الله ﷺ ضحكه للأشعث بأن يقوم فيسأل عن ذلك العباس وربيعة اللذين كانا يتشرفان فى رأيهما فى الانتساب إلى ملوك كندة أما اليوم . وكان هذا هو الدرس الرابع الأهم « لا ، نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو (١) أمنا ولا ننتفى من أبينا » .

فقد أعلن ﷺ فى عالم الأنساب أن النضر بن كنانة هو قريش . ومن دوحته تتشعب قريش . وأعلن أنهم لا يتبعون وينتسبون إلى أمهاتهم .

(وقد كان من جدات الرسول ﷺ من هى من ذلك القبيل . منهن دعد بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث الكندى المذكور . وهى أم كلاب بن مرة . وقيل : بل جدة كلاب أم أمه هند . وقد ذكر ابن اسحاق هنداً هذه وذكر أنها ولدت كلاباً (عن السهيلى) (٢) .

ولا ننتفى من أبينا كما انتفى العباس وربيعة . إنما ننتسب لقريش الذى هو النضر ابن كنانة .

ولا يزيدنا الانتساب إلى آكل المرار الحارث شرفاً ندعيه . ولاعلو كعبٍ نتسنمه . ولا مجداً نرتقى إليه . وبذلك هدَّم ﷺ هذه العادة الذميمة فى هذا المجتمع الجاهلى .

وعلى ضوئها أعلن الأشعث رضي الله عنه ، واستجابة مع الدرس التربوى الذى تلقاه :

« لا أوتى برجل نفى رجلاً من قريش من النضر بن كنانه إلاجلدته الحد » .

بذلك أعلن سيادته على قومه بهذا الكلام فهو الحاكم الذى يجلد المخطئ أو المذنب.

ولعل رواية الإمام أحمد رضي الله عنه تشى بنفسية الاستعلاء عند الأشعث حين سأل

---

(١) نقفو : نتبع .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٧٧ هامش .

رسول الله ﷺ : « ألستم منا ؟ » قال : لا . ففى الرواية السابقة التساوى بين قريش وكندة . يا رسول الله . نحن بنو آكل المرار ، وأنتم بنو آكل المرار . أما فى الثانية . فيعنى علو نسبهم على قريش . حتى انتسبت قريش اليهم . وكان لابد لهذا الشموخ أن ينكسر . ويعلم أن نسب قريش هو أشرف نسب عند العرب فهم ضئضئ اسماعيل ، وذرية إبراهيم. وهم أشرف العرب بلا منازع .

٣ ـ وتباسط الحديث بين رسول الله ﷺ وبين الأشعث وينقل لنا الأشعث هذه المباسطة .

وبعد هذه الدروس التربوية العظمى لوفد ملوك العرب من كندة . وسيدهم الأشعث بن قيس سادات أهل اليمن يحسن أن نعرض لشخص الأشعث بن قيس الذى كان لابد له من هذه الدروس . ولابد من تحطيم استعلائه . من سلسلة حياته التى لم تستقر إلا بعد حرب معه من أعنف الحروب :

(. . لما أسلم خطب أم فروة أخت أبى بكر الصديق فأجيب إلى ذلك ، وعاد إلى اليمن . . . وكان الأشعث ممن ارتد بعد النبى ﷺ فسيَّر أبو بكر الجنود إلى اليمن فأخذو الأشعث أسيراً فأحضر بين يديه . فقال له : استبقنى لحربك وزوجنى بأختك فأطلقه أبو بكر وزوجه أخته وهى أم محمد بن الأشعث . ولما تزوجها اخترط سيفه ودخل سوق الإبل ، فجعل لا يرى جملاً ولا ناقة إلا عرقبه . وصاح الناس كفر الأشعث. وقال :

والله ما كفرت . ولكن زوجنى هذا الرجل أخته ، ولو كنا ببلادنا لكانت وليمة غير هذه . يا أهل المدينة انحروا وكلوا ، ويا أصحاب الإبل ، تعالوا خذوا أثمانها ، فما رؤى وليمة مثلها .

وشهد الأشعث اليرموك بالشام ففقئت عينه . ثم سار إلى العراق فشهد القادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند ، وسكن الكوفة ، وابتنى بها داراً ، وشهد صفين مع على وكان ممن ألزم علياً بالتحكيم . وشهد الحكمين بدومة الجندل وكان عثمان رضي الله عنه قد استعمله على أذربيجان وكان الحسن بن على تزوج ابنته . . وروى عن النبى ﷺ أحاديث وروى عنه قيس بن أبى حازم وأبو وائل وغيرهما . وشهدا جنازة وفيها جرير ابن عبد الله البجلى فقدَّم الأشعث جريراً وقال :

إن هذا لم يرتد عن الإسلام وإنى ارتددت . . .وقال أبو نعيم توفى بعد على

بأربعين ليلة ، وصلى عليه الحسن بن على) (١) .

لقد كان قدوم وفد كندة فى السنة العاشرة للهجرة وكان من آخر الوفود إذ أن معظمها قدم فى السنة التاسعة كما ذكر ابن الأثير فى أسد الغابة . وذكر ابن سعد أن وفداً من حضرموت رافق وفد كندة . (قالوا : وقدم وفد حضرموت مع وفد كندة على رسول الله ﷺ وهم بنو وليعة ملوك حضرموت جَمْد ومخْوس ومشْرَحُ وأبضعة فأسلموا) .

ب ـ الملوك الأربعة

صحيح أن هؤلاء ملوك حضرموت . لكنهم فى النسب ينتهون إلى كندة وهم والأشعث بن قيس من بطن واحد من كندة هو معاوية بن كندة .

يقول ابن حزم فى كتابه الأنساب :

(ومن بنى حجر القرد بن الحارث الولادة الملوك الأربعة مخوس ومشرح ، وجمْد وأبضعة وأختهم العمردة بنو معد يكرب بن وليعة بن شرحبيل بن معاوية بن حُجر القرد، وفدوا إلى رسول الله ﷺ ثم ارتدوا فقتلوا جميعاً) (٢) .

والطريف ما ذكره ابن سعد عن أحدهم وهو مخْوس بن عدى مارواه الصالحى عنه قال :

وروى ابن سعد عن أبى عبيدة من ولد عمار بن ياسر قال :

(وروى الامام أحمد وابن ماجه والحارث والباروردى وابن سعد والطبرانى وأبو نعيم عن الأشعث بن قيس رضي الله عنه قال: قدمت على رسول الله ﷺ فى وفد كندة ، فقال لى النبى ﷺ :

« هل لك من ولد ؟»

قلت : غلام ولد مخرجى إليك من ابنة فلان . ولوددت أن يشبع القوم .

فقال : « لا تقولن ذا فإن فيهم قرة عين وأجراً إذا قبضوا » ثم قال :

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٢٨ .

« إنهم لمجبنة مبخلة »

لقد انطلقت هذه الكلمات من فم رسول الله ﷺ إلى الدنيا كلها وليست فقط إلى الأشعث والوفد الذى معه . وقدمت ـ علم نفس الولد ـ فى هذه الكلمات الموجزات :

١ ـ هم قرة العين .

٢ ـ فيهم أجر إذا قبضوا .

٣ ـ هم مجبنة .

٤ ـ هم مبخلة .

فهو وصف للنفس البشرية الطليقة وهى تتعامل مع الولد .

قرة العين . فلا تسكن النفس إلا بهم . ولا يعرف مدى تغلغل حب الولد فى القلب وقرة العين به أحد مثل ما يعرفه من فقد الولد . وفى عصرنا الحاضر نلقى من لا ولد له . يدفع ثروته كلها ويضحى بضعفها ويستدين ليرزق ولداً من صلبه . ونرى ما تكلفه فى عصرنا ولادات أطفال الأنابيب من أموال طائلة فى تجربة وثانية وثالثة. من أجل أن ينتهى ذلك الحرمان النفسى وتقر العين بالوليد الجديد .

ومع كل الألم لفراقهم لو فقدوا « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب . وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون » كما تعلمنا من درس إمام البشرية يوم فقد وليده إبراهيم الذى درج حتى ليناديه جبريل عليه الصلاة والسلام بأبى إبراهيم . فهذه العواطف من ألم الفقدان يقابلها الأجر عند قبضهم من رب العالمين . والأجر على غصص القلب لفراقهم .

وهم مجبنة . فكم حالوا دون آلاف الخلق عن التضحية وزرعوا الجبن فى القلب للحفاظ عليهم حتى لا يفقدهم وكم حالوا عند جماهير الناس عن تقديم التضحية والتقدم للموت حين يذكر أن أولاده سيكونون أيتامًا من بعده .

وهم مبخلة . فكلما فكر أن يتصدق . تذكر أولاده فبخل . وتوقف عن العطاء من أجل ألا يدعهم عالة يتكففون الناس .

إنهم قرة العين . ولكنهم يحطمون دعوات الرجال لو استجاب المرء لعواطفه معهم ووضعوا فى الرجل أسوأ الأخلاق فيه: الجبن والبخل. ومع هذا فهم ـ كما فى الرواية الأخرى :

« ما فعلت ابنة عمك ؟ » وهو نفوذ إلى قلب الأشعث فيما أطلع الله تعالى نبيه من الغيب على ابنة عم الاشعث وأنها زوج له وكيف قال متعالياً. نفست بغلام والله لوددت أنَّ لى سبية . فجاء الجواب الفطرى البشرى :

« إنهم لمجبنة مبخلة . وإنهم لقرة العين وثمرة الفؤاد » (١) وصدق رسول الله . حادى البشرية . وطبيبها وأعلم علماء نفسها فى الوجود .

وفد مخوس بن معد يكرب بن وليعة فيمن معه على النبى ﷺ ، ثم خرجوا من عنده . فأصابت مخوس اللقوة (٢) فرجع منهم نفر فقالوا :

يا رسول الله ، سيِّد العرب أصابته اللقوة فادللنا على دوائه . فقال رسول الله ﷺ: « خذوا مخيطاً فاحموه فى النار . ثم اقلبوا شفر عينه ففيها شفاؤه وإليها مصيره . فالله أعلم ما قلتم حين خرجتم من عندى » فصنعوا به فبرأ .

فالملاحظ أن رسول الله ﷺ شكك بإيمانهم بعد أن أصابت اللقوة سيدهم

« . . . فالله أعلم ما قلتم حين خرجتم من عندى » .

والملاحظ أن رسول الله ﷺ دلهم على شفائه بالنار وبشَّره بها من جهة ثانية والظاهر أن الله تعالى أعلمه بمصير هؤلاء الملوك الأربعة . وذلك من خلال قول رسول الله ﷺ عنه « . . . ففيها شفاؤه وإليها مصيره » .

ولم نشهد أن رسول الله ﷺ أثنى على هذا الوفد أو على قياداته إلا ما نقله لنا الأشعث من محادثة بينه وبين رسول الله ﷺ عن النسب وعن الولد . وحيث كان رسول الله يجيز الوفد فقد أجازهم كما أجاز غيرهم .

(فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم أجازهم بعشر أواق عشر أواق . وأعطى الأشعث اثنتى عشرة أوقية) (٣)

جـ ـ امرؤ القيس بن عابس

ولئن ذكر هؤلاء الملوك الأربعة . فلا بد من ذكر قريبهم امرئ القيس بن عابس الذى ثبت على الإسلام وكان دين الله عنده أغلى من حياته .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٦١٩ ، ٦٢٠ .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤٨٨ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٢٨ .

(وكان لحجر آكل المرار ، وللحارث الولادة أخ ثالث اسمه امرؤ القيس بن عمرو، وكان من ولده الرجل الصالح امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرؤ القيس المذكور له صحبة ، وثبت على الإسلام أيام الردة . وكان شديداً على من ارتد ، وبدر إلى عمه ، فقتله، فلما رأى السيف .قال له:أتقتل عمك ؟ فقال : أنت عمى .والله ربى) (١) .

فإذن نحن أمام نماذج ثلاثة :

النموذج الأول : ولد حجر آكل المرار . وعلى رأسهم الأشعث بن قيس الذى أسلم ثم ارتد ثم تاب وكان من وجهاء المسلمين .

النموذج الثانى : ولد أخيه الحارث الولادة وعلى رأسهم الملوك الأربعة الذين أسلموا وارتدوا وقتلوا جميعاً .

النموذج الثالث : ولد أخيه امرئ القيس . . وثلاثتهم أولاد عمرو ـ الذى ثبت على الإسلام . وقتل عمه فى سبيل الله .

د ـ حجر بن عدى

وهو أقرب ما يكون نسباً إلى الأشعث بن قيس .

فالأشعث هو ابن قيس بن معد يكرب بن معاوية بن جبلة بن عدى بن ربيعة. . .بن الحارث آكل المرار . . . بن كندة .

وحجر هو ابن عدى بن جبلة بن عدى بن ربيعة . . . بن الحارث آكل المرار . . . ابن كندة .

ويحسن أن نذكر ترجمته كما وردت عند ابن الأثير فى أسد الغابة . فهو من سادات الصحابة .

وهو حجرين بن عدى . . . . بن معاوية بن كندة الكندى وهــو المعروف بحجر الخير. . .وفد على النبى ﷺ هو وأخوه هانئ وشهد القادسية وكان من فضلاء الصحابة. وكان على كندة بصِفين وعلى الميسرة يوم النهروان. وشهد الجمل أيضاً مع على. وكان من أعيان أصحابه . ولما ولى زياد العراق وأظهر من الغلظة وسوء السيرة ما أظهر. خلعه حجر ولم يخلع معاوية ، وتابعــه جمــاعة من شيعة على ؓ وحصبه يوماً فى

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٤٢٩ .

تأخير الصلاة هو وأصحابه . فكتب فيه زياد إلى معاوية . فأمره أن يبعث به وبأصحابه إليه فبعث بهم مع وائل بن حجر الحضرمى ، ومعه جماعة ، فلما أشرف على مرج عذراء قال : إنى لأول المسلمين كبَّر فِى نواحيها . فأنزل هو وأصحابه عذراء وهى قرية عند دمشق . فأمر معاوية بقتلهم . فشفع أصحابه فى بعضهم فشفعهم ، ثم قتل حجر وستة معه وأطلق ستة . ولما أرادوا قتله صلى ركعتين ثم قال :

لولا أن تظنوا بى غير الذى بى لأطلتهما . وقال :

لا تنزعوا عنى حديداً . ولا تغسلوا عنى دماءً فإنى لاقٍ معاوية على الجادة . ولما بلغ فعل زياد بحجر إلى عائشة رضي الله عنها بعثت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية تقول : الله الله فى حجر وأصحابه فوجده عبد الرحمن قد قُتل . فقال لمعاوية : أين عذب عنك حلم أبى سفيان فى حجر وأصحابه؟ ألا حبستهم فى السجون وعرضتهم للطاعون ؟ قال : حين غاب عنى مثلك من قومى .

قال : والله لا تَعَدَّ لك العرب حلماً بعدها ولارأياً . قتلت قوماً بُعثِ بهم أسارى من المسلمين ؟ قال : فما أصنع كتب إلى زياد فيهم يشدد أمرهم . ويذكر أنهم سيفتقون فتقاً لا يرقع .

ولما قدم معاوية المدينة دخل على عائشة رضي الله عنها فكان أول ما قالت له فى قتل حجر فى كلام طويل فقال معاوية : دعينى وحجراً حتى نلتقى عند ربنا .

قال نافع : كان ابن عمر فى السوق فنعى إليه حجر فأطلق حبوته وقام وقد غلبه النحيب . وسئل محمد بن سيرين عن الركعتين عند القتل . فقال . صلاهما خبيب وحجر وهما فاضلان . وكان الحسن البصرى يعظم قتل حجر وأصحابه . ولما بلغ الربيع بن زياد ـ وكان عاملاً لمعاوية على خراسان ـ قتل حجر دعا الله عز وجل وقال :

اللهم إن كان للربيع عندك خير فاقبضه إليك وعجلَ فلم يبرح من مجلسه حتى مات . وكان حجر فى ألفين وخمسمائة من العطاء وكان قتله سنة احدى وخمسين . وقبره مشهور بعذراء وكان مجاب الدعوة أخرجه أبو عمر وأبو موسى) (١) .

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ١ / ٢٨٦ .

٢ ـ ولد أشرس بن كندة

(ولد أشرس بن كندة ؛ السكون والسكاسك .

فمن بطون السكون ، بنو عَدِى . وبنو سعد ابنى أشرس بن شبيب بن السكون : أمهما تُجيب بنت ثوبان بن سليم بن رهاء من مذحج ، نسبوا إليها) (١) .

هـ ـ وفد تُجيب

ولم يكن هذا الوفد من حيث الأبهة والفخامة والترف على مستوى وفد كندة مع الأشعث بن قيس كما أنه لم يكن كذلك من حيث العدد . فإذا كان الوفد مع الأشعث سبعين راكبًا ، فوفد تجيب لا يتجاوز ثلاثة عشر راكباً . لكنه من حيث الفضل ، والقابلية للهدى يفوق وفد الأشعث . نستعرضه كما ورد الحديث عنه فى سبل الهدى الرشاد للصالحى :

(قدم وفد تُجيب على رسول الله ﷺ وهم ثلاثة عشر رجلاً وساقوا معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عز وجل . فسُرَّ رسولُ الله ﷺ بهم وأكرم منازلهم وقالوا :

يا رسول الله ، سُقنا إليك حقَّ الله فى أموالنا .

فقال ﷺ : « ردوها فاقسموها على فقرائكم » .

قالوا : يا رسول الله ، ما قدمنا عليك إلا بما فضل من فقرائنا .

فقال أبو بكر : يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحى من تجيب ، فقال ﷺ :

« إن الهدى بيد الله عز وجل فمن أراد به خيراً شرح صدره للإسلام » .

وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها . وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن. فازداد رسول الله ﷺ فيهم رغبة . وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم) (٢) .

---

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٤٣٦ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤٣٤ .

والظاهر أن هذا الوفد قد تأخر قليلاً فسمع بالإسلام وبفرائضه والزكاة التى افترضها الله على عباده فلم ينفروا نفر الحُمُر التى فرت من قسورة تضن بمالها بما تحويه من طينة الشربين ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝ ﴾ [الليل] .

وكثيرون توقفوا عن الدخول فى الإسلام خوفاً ورعباً على أموالهم . ولمعرفته تعالى بخلقه قال : ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۝ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ۝ ﴾ [محمد] .

وما من نبى جاء إلى قومه إلا وقال لهم منذ البداية : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء : ١٠٩]

أما هؤلاء فقد جاؤوا طواعية بأموالهم قبل أن يعلنوا إسلامهم. وهذا ما حدا بالصديق ﷺ أن يقول ما قدم علينا وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحى من تُجيب.

وأدرك المسلمون جميعاً عناصر الخير فى هذا الحى من العرب ، وأحسن رسول الله ﷺ استقبالهم . وسُرَّ بهم . وأكرم منزلهم .

ونلاحظ كيف اختلف الاستقبال بين الوفدين الكنديين .مع أهمية الأول وضخامته وأبهته وفخامته . فقد جاؤوا بأموالهم لكن حُلِيًا وملابس يتباهون بها على العرب أنهم أبناء الملوك فكان استقبالهم بالصد مباشرة . وأمرهم أن ينزعوا الحرير من أقبيتهم فى أعنف درس يتلقونه منذ لحظة وصولهم . فلا بد أن يعلموا أن الأمر ليس أمر ملك وليس لقاءً بين ملكين هما الأشعث بن قيس الكندى . ومحمد بن عبد الله الهاشمى القرشى . بل جاؤوا بنفسية استعلاء أكبر أن رسول الله ﷺ فرع منهم ، وسرعان ما كسر رسول الله ﷺ هذا الاستعلاء الثانى وقال :

نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفى من أبينا.

إن رسول الله ﷺ يتعامل مع معادن الرجال ، ولا بد من كسر الران الذى يطمس هذا المعدن ، فالأشعث ﷺ احتمل حتى يكشف ذلك الران عنه جولتين كبيرتين .

وحروب كبيرة حتى استسلم وشهد أن الله حق . ثم انصاع بكليته بعد ذلك إلى الإسلام. وقدم العظيم العظيم من الجهاد والبلاء يكفر به عن حروب هذا الدين التى شارك فيها .

أما الوفد الثانى هنا . فقد جاء مستسلماً لله عز وجل. متجرداً من الأبهة والفخامة . وقد ساق كرائم أمواله ليؤديها إلى رسول الله ﷺ . ودليل أصالة معدنه ونبل محتده أنه لم يقل لرسول الله ﷺ : سقنا إليك كرائم أموالنا . لنعطيكها للفقراء . بل كانوا أعمق من هذا وأفقه فقالوا :

يا رسول الله ، سقنا إليك حق الله فى أموالنا .

وأراد رسول الله ﷺ فى مدرسته التربوية . رغم فقههم العظيم أن يعلمهم أن الله تعالى غنى عن أموال عباده ، والله الغنى وهم الفقراء ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر] .

فقال لهم : ردوها فاقسموها على فقرائكم .

فكان جوابهم جواب الفقيه المتأدب الملتزم بأمر الله ورسوله :

قالوا : يا رسول الله ، ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا .

ونبحث عن هذه المعانى كلها مع الوفد الأول فنفتقدها . ومن أجل هذا رغم اتفاق البيئة. واتفاق المنبت فقد كان كل وفد فى صف فى الجامعة النبوية يختلف عن الآخر . فقد أكد رسول الله ﷺ لهذا الوفد العظيم أنه ممن أراد الله به الخير فقال :

« إن الهدى بيد الله عز وجل ،فمن أراد الله به خيراً شرح صدره للإسلام » وهذه مرحلة جامعية عليا تقرب من مرحلة السابقين الأولين من الأنصار ـ أبناء أعمامهم ـ والذين كانوا أول من شرح الله صدره للإسلام فى الوجود بعد السابقين الأولين من المهاجرين. وأنزل الله تعالى فيهم :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] فقد وُقى الفريقان . وفد تجيب ووفد الأنصار شح أنفسهما .

بينما كان رسول الله ﷺ يتحدث عن الولد المجبنة والمبخلة مع سيد كندة . وعن

الشح الذى لم يُقَه الإنسان من أجل ولده . وهذا لا ينفى الكرم العربى الأصيل والذى شهدناه عند الأشعث ﷺ يوم خرج إلى السوق يبقر بطون الجمال ليقدمها وليمة لزواجه من أخت الصديق ، والدليل الثانى على إرادة الخير بوفد تجيب . هو انشراح صدرهم للإسلام . كما قال عليه الصلاة والسلام (وسألوا رسول الله ﷺ أشياء . فكتب لهم بها . وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن) فازداد رسول الله ﷺ بهم رغبة .

* * *

(فأقاموا أياماً ولم يطيلوا اللبث . فقيل : ما يعجلكم ؟ قالوا :

نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ﷺ . وكلامنا إياه وما ردَّ علينا ثم جاؤوا رسول الله ﷺ يودعونه ، فأمر بلالاً فأجازهم بأرفع مما كان يجيز به الوفود وقال : « هل بقى منكم أحد ؟ » قالوا : غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سناً ، قال : « أرسلوه إلينا » . فلما رجعوا إلى رحالهم قالوا ، للغلام :

انطلق إلى رسول الله ﷺ ، فاقض حاجتك منه . فإنا قد قضينا حوائجنا منه وودعناه . فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله ﷺ فقال :

يا رسول الله ، إنى غلام من بنى أبذى من الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حوائجهم . فاقضى حاجتى يا رسول الله . قال : « وما حاجتك ؟ » . قال :

يا رسول الله ، إن حاجتى ليست كحاجة أصحابى . وإن كانوا قد قدموا راغبين فى الإسلام وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم . وإنى والله ما أعملنى من بلادى إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لى ويرحمنى وأن يجعل غناى فى قلبى . فقال ﷺ :

« اللهم اغفر له ، وارحمه ، واجعل غناه فى قلبه » ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه فانطلقوا راجعين إلى أهليهم . ثم وافوا رسول الله ﷺ بمنى سنة عشر . فقالوا : نحن بنو أبذى . فسألهم رسول الله ﷺ عن الغلام فقالوا :

يا رسول الله ، والله مارأينا مثله قط ولا حُدِّثنا بأقنع منه بما رزقه الله . لو أن الناس اقتسموا . الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها . فقال رسول الله ﷺ :

« الحمد لله إنى لأرجو أن يموت جميعاً » .

فقال رجل منهم : أو ليس الرجل يموت جميعاً ؟

فقال ﷺ : « تشعَّبُ أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيا ، فلعل أجله يدركه فى بعض تلك الأودية فلا يبالى الله عز وجل فى أيِّها هلك » .

قالوا : فعاش ذلك الرجل فينا على أفضل حال وأزهده فى الدنيا ، وأقنعه بما رزقه الله . فلما توفى رسول الله ﷺ ، ورجع من رجع عن الإسلام قام فى قومه ، فذَكَّرهم الله والإسلام . فلم يرجع منهم أحد . وجعل أبو بكر رضي الله عنه يذكره ، ويسأل عنه حتى بلغه حاله وما قام به . فكتب إلى زياد بن لبيد يوصيه به خيرا) (١) .



نتابع حديثنا عن وفد تُجيب من خلال اهتمام رسول الله ﷺ به . ومن خلال عجلة الوفد فى العودة إلى قومهم فى اليمن ، والأصل أن يكونوا أكثر لُبثاً فى المدينة ؛ لأنهم يدركون مدى الخير العظيم الذى يجنونه من بقائهم فى المدرسة التربوية التى ينهلون منها نظرياً وعملياً . ومن أجل هذا سئلوا :(ما يعجلكم ؟) . فكان الجواب :

نرجع إلى قومنا . فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ﷺ وكلامنا إياه ، وما ردَّ علينا . فهناك وراءهم قلوب ظمأى إلى النور ، ينتظر على أحر من الجمر . أخبار لقاء رسول رب العالمين ، يعدون الأيام والليالى ينتظرون أوبتهم ليسمعوا منهم الأحداث العظيمة السعيدة التى أهلتهم للالتقاء بسيد الخلق مباشرة ودون واسطة .

إنهم ليسوا أنانيين لا يفكرون إلا بذواتهم وأنفسهم . هم يؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة . فبالرغم من جوعهم الشديد إلى الاستزادة من النور الربانى المتدفق على لسان نبيهم عليه الصلاة والسلام . ولكنهم يؤثرون نقل هذا النور ، وإيصال هذا الهدى إلى قومهم الذين ينتظرونهم ، وليس الذى جعلهم يفدون إلى النبى ﷺ أنهم أفضل من الماكثين المنتظرين هناك .

ولكنها المصلحة المتبادلة . فكما آثر المنتظرون فى اليمن وفدهم باللقاء المباشر مع رسول الله ﷺ فلا أقل من الإيثار عند الوفد ، بعجلة العودة . ليصلوا تيار النور الذى حملوه بمنبع النور الذى تلقوا منه . وعرف رسول الله ﷺ هذا الخُلُق . فلم يدفعهم

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤٣٤ ، ٤٣٥ عن الطبقات لابن سعد ـ وعيون الأثر . والزرقانى على المواهب .

لإطالة المكث إنما حثهم على التطبيق العملى للإسلام دون أن يحرمهم من وداعه الأخير، وإجازتهم المالية التى فاقت إجازة بقية الوفود .

و ـ الغلام المؤمن

وفى فقه عظيم لنفسية هذا الوفد . لم يستبعد رسول الله ﷺ أن يكون من خلَّف على الركب . قد حرم من لقاء رسول الله ﷺ خاصة وأحداث السن هم الذين يوكل لهم ذلك . ألم يوكل لرسول الله ﷺ أن يرعى تجارة قومه حين دعاهم بحيرا، لأنه كان أحدثهم سناً وهو المقصود فى الدعوة ؟

ولهذا سألهم رسول الله ﷺ وهم يودعونه : « هل بقى منكم أحد ؟ » .

والعرب لا تقيم كبير وزن للغلمان الصغار . إنما يهتمون بالقادة والسادة الكبار . فقالوا : غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سناً . قال : « أرسلوه إلينا » .

ويدرك سيد الخلق أن هؤلاء الغلمان الذين لم تغزهم مقدسات الجاهلية وظلماتها بعد هم أحق الناس بتلقى هذا الدين ، وأقدر الناس على نقله . وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا . . . ومن أجل هذا طلب رسول الله ﷺ الغلام شخصياً للقاء معه ولم يكتف بإرسال السلام له . ولم يعتذر بأشغاله الأخرى عن لقائه . إنه هو الهدف . فهل يدرك الدعاة هذا المعنى النبوى الدقيق الذى حدا برسول الله ﷺ أن يحرص على لقاء هذا الغلام ، متفتح الذهن ، صافى السريرة . أقرب ما يكون إلى الفطرة السوية التى فطر الله الناس عليها ، وهو المؤهل لقيادة قومه فيما بعد .

ورأى الوفد أنهم قد منوا على هذا الغلام بانتظارهم إياه وهم على جناح سفر وساووه فيهم . قائلين له : انطلق إلى رسول الله فاقض حاجتك . فإنا قد قضينا حوائجنا .

إن الدعاة كثيراً ما يتبرمون حين يطلب منهم لقاء مع الأشبال ، والفتيان وهم يريدون الجامعيين الكبار . وأصحاب التأثير فى بيئتهم . والمهندسين والأطباء والصيادلة والمدرسين . ولا وقت عندهم للأولاد . وتخبرهم أن أرسول الله ﷺ . هو الذى طلب اللقاء مع الغلام ، وحدَّد . له اللقاء مباشرة واستقبله فى لقاءٍ خاص معه .

ومن هذا الغلام ؟ إنه خير قومه جميعاً فقد اشترك معهم فى حب الإسلام والرغبة فيه ، وقطع الفيافى والقفار للقاء سيد ولد آدم . وأن يبهج قلبه وناظريه برؤيته ،

وسلام على الدنيا بعد ذلك لكنه كان أعلى منهم كعباً وأعظم هدفاً وأعمق نظرة .

قال : يا رسول الله إنى غلام من بنى أبذى من الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حوائجهم ما فاقض حاجتى يا رسول الله ؟ قال : « وما حاجتك ؟ » قال :

يا رسول الله إن حاجتى ليست كحاجة أصحابى .

وينظر رسول الله ﷺ بهذا الغلام الوضىء العبقرى الذى يتفجر نوراً وذكاء وحكمة.

ماذا يطلب الشباب ؟

سعة فى الرزق وزوجة فاتنة تملأ عليهم حياتهم ، ورغداً فى العيش . ترى بهذا اختلف هذا الغلام المقدم على درجات الدنيا عن قومه ؟ !

لنستمع إلى طلباته المعجزة .

(يا رسول الله ، إن حاجتى ليست كحاجة أصحابى ، وإن كانوا قد قدموا راغبين فى الإسلام وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم) .

فهو لا يشكك فى صدقهم ، وعظمة إيمانهم ، لكن له شأن آخر الذى جعله يصر على مشاركة الوفد فى لقاء رسول الله ﷺ . وهو يعلم مشاق رحلةماينوف عن ألف ميل حتى يصل من جنوب اليمن إلى شمال الحجاز ، إلى المدينة المنورة . هذا الشأن أكبر بكثير من التلقى النظرى للإسلام هو يريد أن يُصنع على يدى رسول الله ﷺ ، ويصاغ بتوجيهه الخاص إليه . ويقسم على ذلك أن هذا هو الذى أقدمه :

(وإنى والله ما أعملنى من بلادى إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لى ويرحمنى وأن يجعل غناى فى قلبى) . لقد خاض هذه المشاق كلها والأهوال كلها . كى يدعو له رسول الله ﷺ بالمغفرة والرحمة . بالنسبة للآخرة وأن يكون غناه فى قلبه بالنسبة لدنياه. فهو يريد لقلبه أن يكون معصوماً عن لذة الحياة الدنيا وبهرجها ومتاعها وزينتها يريد أعظم الغنى فى القلب لا فى اليد .

ولم يتردد إمام المربين وسيد الخلق لحظة واحدة . فى تلبية رغبة هذا الغلام العظيم. فقال .

« اللهم اغفر له وارحمه ، واجعل غناه فى قلبه » . وانضم الغلام إلى الوفد ، ومضى فى مجاهل البيد . أما فى قلب رسول الله ﷺ . فقد حُفِر وحده وأخذ موقعاً

خاصاً لا ينسى فى فؤاده .

ومن أجل هذا وبعد عام ونيف . وحين شارك وفد تُجيب فى الحج ، والتقوا بمنى مع رسول الله ﷺ . وتذكرهم . لكن الذى اعتبره رصيده وكنزه إلى المستقبل . وأمله فى اليمن هو ذلك الغلام الذى زرعه ﷺ بيده . وهو الذى دعا له بشخصه .

فسألهم رسول الله ﷺ عن الغلام فقالوا :

(يا رسول الله ، والله ما رأينا مثل قط ، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله ، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها)

وهذا هو الذى يريده . ﷺ لجنديه الداعية . أن يتجه فى كلية لله وحده بحيث لا يزحم قلبه قطرة من قطرات الدنيا تشغله عن ربه . لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها .

أيها الدعاة إلى الله ، هل عندكم مثل هذا الكنز ؟ وإن لم تملكوه . فهل لكم أن تربوا نماذج بهذا الاتجاه مفطورة قلوبهم عن الدنيا تعيشها ولا تتلوث فيها .

إنه الأمل العذب لرسول الله ﷺ . فهو يريد له أن يحيا ويموت على ذلك . لقد أقر عينه أن الغلام على العهد ، وها هو يدعو الله له أن يحفظه فيما بقى لقد أقرت عينه ﷺ باستجابة دعوته . وهذه دعوة أخرى ترسل له مع الوفد :

« الحمد لله إنى لأرجو أن يموت جميعا » .

صحيح أنها دعوة خاصة للأمل العذب المنشود . والبرعم الذى سقاه رسول الله ﷺ بيده لكنه تشذيب كذلك لهذه الشجيرات التى أمامه . من هذا الوفد العظيم الذى التقى به قبل عام نيف فى المدينة . فقال رجل منهم : أو ليس يموت الرجل جميعاً ؟

وكان الجواب صورة بلاغية خالدة تقابل تلك الصورة المثلى . وتكاد تكون صورتنا اليوم إلا من رحم الله . ومن أجل هذا فالمسافة شاسعة بيننا وبين أهدافنا وكلام رسول الله ﷺ توصيف لأدوائنا وأمراضنا وبلايانا .

(« تشَعبٌ أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيا . فلعل أجله يدركه فى بعض تلك الأودية . فلا يبالى الله عز وجل فى أيِّها هلك » .

صورتان متناقضتان فى قمة التناقض .

الذى يدعو الله تعالى له أن يموت جميعا . فلا تدخل الدنيا قلبه . وهو يعيش فى حمأتها وملذاتها فلا تلهبه نارها ، إنما هو على سنة أبيه إبراهيم : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

والذى مضى فى أودية الدنيا . وقد تشعبت أهواؤه مع كل وادٍ ، وتشعبت همومه مع كل شعب فلا يكاد يكون له عرق مع الآخر . إنما يريد الدنيا كلها أن يحوزها .

الأول : لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها . فهو يموت جميعاً كما عاش جميعاً .

والثانى : لو اقتسم الناس الدنيا . واستطاع أن يشارك مع كل فرد من هؤلاء الناس حظهم لما قصر وهذا لا يبالى الله تعالى به فى أى واد هلك .

وبين الصورتين العليا والدنيا صور وصور . فهل لنا أن نمضى على الأقل باتجاه الصورة المثلى . ونحاول أن نلملم فتاتنا . ورفاتنا ونحييه من جديد نحو التوحيد . نحو الموت جميعاً عن الدنيا قلبًا . والتعايش معها واقعًا .

وماذا قدَّم هذا النموذج للدعوة الإسلامية ؟

قدَّم أن كان هو صمام الأمان لقومه حيث بقى موحِّد القلب . واستطاع بهذه القوة العظمى الكامنة فى داخله أن يترك قومه جميعاً على منهجه . فيحذرهم بطش الله وسطوته لو تخلوا عن الإسلام . وبعزم لايلين وبهمة قعساء تطاول النجم . بقى يذكر قومه بالله وسط بحر الشرك وظلماته وبحر الردة التى خنقت اليمن . بقى هو وحده وقومه على الحق والهدى والنور .

(فلما توفى رسول الله ﷺ ، ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام) استطاع وهو الغلام اليافع أن يقنع قيادات قومه وشعراءهم أن يثبتوا على دين الله .

(قام فى قومه . فذكَّرهم بالله والإسلام فلم يرجع منهم أحد) .

وإذا كان هو الشجرة التى غرسها رسول الله ﷺ بيده فلا غرو أن يتابع رواءها خليفته من بعده ، وأن يكون موضع اهتمام الصديق خليفة رسول الله ﷺ .

(وجعل أبو بكر رضي الله عنه يذكره ويسأل عنه حتى بلغه حاله وما قام به) .

فهو الفرس النبوى الأوحد هناك . وهو الذى اختصه رسول الله ﷺ بالدعاء والثناء فكان على المستوى المطلوب . وكان موقع رعاية دولة الإسلام كلها بشخص

زياد بن لبيد والى اليمن هناك .لهذا الذى دعا له رسول الله ﷺ أن « يغفر له ، ويرحمه، ويجعل غناه فى قلبه وأن يموت جميعاً »

إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ز ـ معاوية بن خديج السكونى الكندى

(.. يعد فى أهل مصر .. وحديثه عنهم .

قيل : هو الذى قتل محمد بن أبى بكر بأمر عمرو بن العاص .. غزا إفريقية ثلاث مرات . فأصيبت عينه فى إحداها .

... وروى عبد الرحمن بن شماسة المهرى قال :

دخلنا على عائشة فسألتنا :كيف كان أميركم فى غزاتكم (تعنى معاوية بن خديج)

فقالوا : ما نقمنا عليه شيئاً وأثنوا عليه خيراً قالوا :

إن هلك بعيرٌ أخلف بعيراً ، وإن هلك فرس أخلف فرساً ، وإن أبق (١) خادم أخلف خادماً .

فقالت : استغفر الله إن كنتُ لأبغضه من أنه قتل أخى . وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« اللهم من رفق بأمتى فارفق به ، ومن شقَّ عليهم فاشقق عليه » (٢) .

وتوفى معاوية قبل ابن عمر بيسير) (٣) .

---

(١) أبق : هرب .

(٢) رواه الإمام أحمد .

(٣) أسد الغابة لابن الأثير ٤ / ٣٨٤ .

٣ ـ الفرع الثانى : خولان

فكندة : هو ثور بن عفير بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد .

أما خولان : فهو فكل بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد .

فكلاهما ولد الحارث بن مرة بن أدد . لكن كندة ولد عدى بن الحارث . وخولان ولد مالك بن الحارث وكما يقول ابن حزم رحمه الله .

(وقعت خولان بمصر والشام فخملت أنسابهم) (١) ولكن هذا لا يمنع من الحديث عن وفدهم إلى رسول الله ﷺ .

(قالوا :

قدم وفد خولان وهم عشرة نفر فى شعبان سنة عشر فقالوا :

يا رسول الله ، نحن مؤمنون بالله ، ومصدّقون برسوله . ونحن على من وراءنا من قومنا . وقد ضربنا إليك أباط الإبل . وركبنا حُزون الأرض وسهولها ، والمنة لله ولرسوله علينا وقدمنا زائرين لك) .

واستقبلهم رسول الله ﷺ . وظاهر الأمر أنهم مقبلون على هذا الدين راغبون فيه ومع أنهم أبناء عم الملوك ، فلم يتصرفوا تصرف وفد كندة ، إنما كانوا أقرب إلى وفد تُجيب منهم إلى وفد الأشعث بن قيس. فهم يسارعون فيعترفون بالفضل ـ لله تعالى «والمنة لله ورسوله » فقابل رسول الله ﷺ التحية بتحية أفضل وقال لهم :

« أما ما ذكرتم من مسيركم إلىّ فإن لكم بكل خطوة خطاها بعيراً أحدكم حسنة . وأما قولكم : زائرين لك . فإنه من زارنى بالمدينة كان فى جوارى يوم القيامة » .

والمؤمن الصادق وهو يسمع هذا الأجر تصغر فى عينيه الدنيا حتى لا تساوى جناح بعوضة . فكم قد كسبوا من الأجر منذ أن تحركوا من اليمن حتى وصلوا المدينة ومع كل خطوة جمل حسنة ؟ وكم هو هذا الفوز العظيم يوم يكون الزوار فى الدنيا لرسول الله ﷺ هم جيرانه يوم القيامة ! ؟ (فقالوا : يا رسول الله : هذا السفر الذى لا توىَ

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤١٨ .

عليه » . أى لا أسف عليه .

فلم يضيعوا لحظة واحدة من هذه المشاق التى قطعوا فيها آلاف الكيلات قاصدين وجه الله تعالى . وبالرغم من أن الوضع النفسى عندهم هو مؤهل للغرور . (وركبنا حزون الأرض وسهولها) . سرعان ما كسر هذا الغرور .

فمن اهتدى فإنه يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل .

لكن الأجر الربانى جاهز مع كل خطواتهم السابقة واللاحقة . فاطمأنت نفسهم الطمأنينة العجيبة . أن هن السفر لا يؤسى على خطوة واحدة منه بعد ذلك .

ثم كانت الخطوة النفسية التى كانت بلسماً لجراحهم وآلامهم وتضحياتهم فمثل هذا لا يؤسى عليه .

ويود رسول الله ﷺ أن يغوص إلى أعماقهم . فهم عبدة الصنم ـ عم أنس ـ ترى لأى مدى له تأثير عليهم وعلى مشاعرهم : وهل خلصوا من هذه الوثيقة أم لا يزالون فى شرك منه ومن ألوهية فدسٌ لهم هذا السؤال :

(« ما فعل عم أنس » ـ وهو صنم خولان الذى كانوا يعبدونه .

فقالوا : بشرٌ وعزٌ الله ما جئت به . ولو قد رجعنا إليه لهدمناه . وبقيت منا بعد بقايا من شيخ كبير وعجوز كبير متمسكون به ولو قد قدمنا عليه هدمناه) .

إن القضية الأولى فى قضية الإسلام هى قضية التوحيد فلا يجتمع توحيد وشرك أبدا ولا إسلام مع الوثنية . واطمأن رسول الله ﷺ إلى تحرر عقولهم من هذه اللوثة . فكان جليًا عندهم أنه انتهى مع الإسلام وهو فى شرٍ وعارٍ . وكان الوعد الذى قدموه أن يهدموه إثر عودتهم إلى بلدهم ، ولم يكتف رسول الله ﷺ بهذا الغوص فى أعماقهم وهو أدرى بظلمات الجاهلية كيف تتمكن من النفوس وتسيطر عليها .

(فقال لهم ﷺ : « وما أعظم ما رأيتم من فتنة ؟ » .

قالوا : لقد رأيتنا وقد أسنتنا (١) حتى أكلنا الرُمةْ (٢) .

فجمعنا ما قدرنا عليه وابتعنا مائة ثور ونحرناها لعم أنس قرباناً فى غداة واحدة . وتركناها تردها السباع . ونحن أحوج إليها من السباع . فجاءنا الغيث من ساعتنا . ولقد

(١) أسنتنا : أصابنا الجدب والجفاف

(٢) الرمة : العظام البالية .

رأينا العشب يوارى الرجل فيقول قائلنا : أنعَمَ علينا عم أنس) .

كيف لمثل هذه القلوب وقد شهدت هذه الفتن . حتى لتذبح مائة ثور لصنمها . وهى تأكل الرمّة وكان بإمكان مائة ثور أن يطعموا القبيلة جميعاً . فلم يأكلوا منه شيئاً عبودية لهذا الصنم . وتركوها للسباع تأكلها وهم مفجوعون من الجوع . وتقع الفتنة الكبرى التى تزيغ لها قلوب الرجال . ينزل الغيث . ويعم الأرض، وينبت العشب حتى ليوارى الرجل . فأى شىء يقلع هذه العبودية عن هذه النفوس ؟

إنهم أدركوا أن هذه فتنة . وأن عم أنس لا يملك نفعاً ولا ضرا .

(وذكروا لرسول الله ﷺ ما كانوا يقسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم . وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له جزءاً لله بزعمهم . قالوا :

كنا نزرع الزرع فنجعل له وسطه . فنسميه له . ونسمى زرعاً آخر حَجَرَة لله . فإذا مالت الريح فالذى سمنياه لله جعلناه لعم أنس . وإذا مالت الريح فالذى سمنياه لعم أنس جعلناه لله) . إنها أخبار الشرك فى أقصى اليمن . لا يعرفها إلا من زارهم وعاش بينهم. وهم يرون أن هذا الأمر هو جديد على رسول الله ﷺ . وإذا بهم يفاجؤون . بأن الله تعالى قد أنزل على رسوله وصف هذا الشرك قبل قرابة عشرين عاماً فى سورة الأنعام .

(فذكر لهم رسول الله ﷺ أن الله عز وجل قد أنزل عليه فى ذلك :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ [الأنعام] .

وسماعهم لهذه الآية الكريمة لاشك قد اقشعرت له جلودهم . فالله تعالى فى كتابه الكريم يصف شركهم بأعظم بيان يبهت منه الإنس والجن .

وتابعوا حديثهم عن الفتنة فيه فقالوا :

(وكنا نتحاكم إليه فنكلّمُ . فقال رسول الله ﷺ : « تلك الشياطين تكلمكم » .

والآن ما هو موقفهم من هذا الصنم الرهيب . وبعد كل ما ذكروا من فتنة ومن كلامه . ومن حبهم وعبودتهم له ؟ (قالوا : إنا أصبحنا يا رسول الله وقلوبنا تعرف أنه كان لا يضر ولا ينفع . ولا يدرى من عبده ممن لم يعبده .

فقال رسول الله ﷺ :

« الحمد لله الذى هداكم وأكرمكم بمحمد » وسألوا رسول الله ﷺ عن أشياء من أمر دينهم . فجعل يخبرهم بها . وأمر من يعلمهم القرآن والسنن .

إنهم نبت جديد من أعماق الجزيرة جاؤوا كما قالوا ـ ركبنا حزون الأرض وسهولها . وقد تبرؤوا من صنمهم ، واستسلموا لله موحدين ، وها هم يتلقون القرآن والسنن من علية أصحاب محمد ﷺ . وابتداءً وبدون أسئلة عاد رسول الله ﷺ يذكرهم بمعالى الأخلاق وكرائمها :

(وأمرهم بالوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة وحسن الجوار ، وألا يظلموا أحداً . وقال لهم رسول الله ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة ») .

هذا هو البناء العقدى الإيمانى لهم . لكن البناء المادى التكريمى لابد منه كذلك فوعثاء السفر . ومخاطر الطريق . ومهالك القدوم . لابد أن تمسح.

(فأنزلهم رسول الله ﷺ فى دار رملة بنت الحارث . وأمر بضيافة فأجريت عليهم ثم جاؤوا بعد أيام يودعونه . فأمر لهم بجوائز باثنتى عشرة أوقية ونشا) .

لقد عوملوا كما يعامل الملوك . وكانت لهم دورة مكثفة فى الإسلام ومبادئه وفى تعلم القرآن .

وقد تفرغوا لهذه الدورة . يصل طعامهم إليهم . وليس عليهم شىء إلا التلقى والتعلم والتفقه فى دين الله . وعاشوا فى البيئة المسلمة وفى أعلى المعاهد الإيمانية فى الأرض . فرأوا كل عملاق من عمالقة هذه الأمة . فى كونه القدوة فى كل شىء لهذا الوفد الضيف .

ولم يروا إلا وفاء وصدقاً . وكانت أحلى أيام عمرهم . هذه الأيام الخالدة فى مدرسة محمد ﷺ وهو يديرها بشخصه ﷺ ، ويتعهدهم بنفسه الشريف ، ويخدمهم وهو سيد ولد آدم ، يربى هذه النفوس الجاسية ، والقلوب المقفلة فيفتح مغاليقها ، ويكسر أقفالها ،إنها دورة مكونة من عشرة أشخاص . من عشيرة واحدة . وعقلية واحدة وفهم واحد .

(ورجعوا إلى قومهم . فلم يحلوا عقدة حتى هدموا عم أنس ، وحرموا ما حرّم عليهم رسول الله ﷺ وأحلوا ما أحل لهم) (١) .

لقد تعلموا فى الجامعة الإسلامية فى المدينة التطبيق الفعلى للإسلام وليس المبادئ النظرية فقط فكانوا يحضرون الصلوات الخمس مع المسلمين فى المسجد . ويؤمهم رسول الله ﷺ . ويلقى اهتماماً خاصاً . فهم ليسوا تلامذة فى جامعة فحسب . إنهم رسلُ إلى قومهم وقبلتهم وعشيرتهم فهناك المئات والألوف ممن ينتظرون قدومهم. ومن أجل هذا كانت أول خطوة فى بناء دولة الإسلام فى خولان ،وقبل أن يحلوا ركائبهم . هى هدم هذا الصنم . ليقتلعوا به أى قدسية بقيت له فى قلوب العجائز المشركين . وراحوا يتلون القرآن على قومهم كما تعلموه من فم رسول الله ﷺ . ويعلنون ولاءهم لله ورسوله فيحلوا ما أحلَّ الله ويحرموا ما حرَّم الله . وصدقوا الله ما وعدوه . وما بدلوا تبديلاً .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ، وكل ما بين الأقواس هى فقرات من قصة الوفد / ٦ / ٥٠٤ ، ٥٠٥ .

ثانياً

الأشعريون

١ ـ الرائد الأول : أبو موسى الأشعرى .

٢ ـ خيار أهل الأرض.

٣ ـ أبو عامر الأشعرى فى حنين .

٤ ـ وأخيراً عن الأشعريين .

الأشعريون

الأشعر : هو نبت بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ.

لقد كانت لخم وجذام وعاملة وكندة أولاد أخيه مرة بن أدد . فالأشعريون بنو عمهم. وليس لدى الأشعريين تشعبات كثيرة . ومن أجل هذا سنستعرضهم كلاً واحداً غير منفصل ، من خلال أهم شخصياتهم .

لقد كان أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه هو الرائد الأول لهم . وكلهم فى صحيفته . فلنستعرض معاً قصته .

١ ـ الرائد الأول

(تشير كتب التراجم إلى نسبه ابتداء فتقول هو :

عبد الله بن قيس بن سليم ... بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر بن أزد بن يشجب ...... بن سبأ ،ذكر الواقدى أن أبا موسى قدم مكة فحالف أبا أحيحة سعيد ابن العاص . وكان قدومه مع إخوته فى جماعة من الأشعريين . ثم أسلم وهاجر إلى الحبشة .

وقال طائفة من العلماء بالنسب والسير أن أبا موسى لما قدم مكة وحالف سعيد بن العاص (وأسلم) انصرف إلى بلاد قومه ولم يهاجر إلى أرض الحبشة) (١) .

وهذا هو المنطقى لأن أبا أحيحة حليفه من أعدى العدو للإسلام.ولن يستطيع أن يعيش فى أجواء الحقد والكراهية التى تكنها قريش للإسلام .

وكما وجَه رسول الله ﷺ أوامره إلى أبى ذر الغفارى أن يمضى إلى قومه غفار يدعوهم إلى الله عز وجل . فإذا سمع بأن محمداً قد ظهر انضم إليه مع من أسلم من قومه .

وكما وجَّه رسول الله ﷺ أوامره إلى الطفيل بن عمرو الدوسى أن يمضى إلى قوم دوس يدعوهم إلى الله عز وجل. فإذا سمع بأن محمداً ظهر، انضم إليه مع من أسلم

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٣ / ٢٤٥ .

من قومه .

وجَّه رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعرى أن يمضى إلى قومه فى اليمن يدعوهم إلى الإسلام . فإذا سمع أن محمداً ﷺ قد ظهر . انضم إليه مع من أسلم من قومه فالمدرسة التربوية واحدة . تريد أن تنشئ مراكز إسلامية فى كل أرض يمكن أن تنضم إلى دولة الإسلام حين تقوم . أو تكون ردءاً للمسلمين لو نزل بهم نازلة .

وأمضى أبو موسى رضي الله عنه المرحلة المكية كاملة فى قومه فى زبيد فى اليمن يدعوهم إلى الله عز وجل ، ووصلت الأخبار له أن محمداً ﷺ قد ظهر على قومه . وأن بدراً قد جرَّعت قريش العلقم . رأى أنه قد آن الأوان للانضمام إلى الدين الجديد .

العزم على الهجرة :

يحدثنا أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه فيما رواه مسلم عنه كيف قرر مع المسلمين الذين معه أن يسافروا من اليمن إلى المدينة . بعد أن سمعوا بهجرته إليها .

عن أبى موسى قال : بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه . أنا وأخوان لى أنا أصغرهما . أحدهما أبو بردة . والآخر أبو رُهم ـ إما قال: بضعاً وإما قال : ثلاثة وخمسين رجلاً من قومى . فركبنا سفينة . فألقتنا إلى النجاشى فى الحبشة فوافقنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده) .

لقد غيرت الريح مجرى السفينة ، وتاهت فى البحر . فإذا هى فى الحبشة عوضاً من أن تكون فى جدة أو ينبع البحر قريباً من المدينة . وما الذى يقيمهم بالحبشة وهم قاصدون المدينة . لكن راعهم أن جعفر بن أبى طالب ابن عم رسول الله ﷺ وخيرة أصحاب رسول الله هناك وهؤلاء جميعاً هم الأصدقاء القدامى لأبى موسى رضي الله عنه . وكان العناق الحار ، واللقاء العظيم على الله عز وجل . وعرف جعفر رضي الله عنه ما يكابد الأشعريون من شوق للقاء رسول الله ﷺ وصحبه فى المدينة . لكنه أدرك ألا دور له ذات أهمية الآن فى المدينة .

(فوافقنا جعفر بن أبى طالب عنده فقال جعفر :

إن رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا . وأمرنا بالإقامة . فأقيموا معنا . فأقمنا معه) .

وجاءت الأوامر لجعفر رضي الله عنه ومن معه أن يتجهوا إلى المدينة بعد صلح الحديبية .

والأشعريون مع المسلمين يتعلمون ويتفقهون منهم ، ويزدادون هدىً فى كل يوم .

وكانت الفرحة الغامرة بتوجه جعفر وأصحابه إلى المدينة . وتوجه الأشعريون بسفينتهم كذلك إلى مدينة النور :

(فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر . فأسهم لنا ـ أوقال أعطانا منها ـ وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لمن شهد معه إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم . فكان ناس من الناس يقولون لنا ـ يعنى لأصحاب السفينة : نحن سبقناكم بالهجرة) (١) .

(١) صحيح مسلم ح ٢٥٠٥ / ص ١٠١٤ ، وصحيح البخارى (ح ٣١٣٦) وغيره .

٢ ـ خيار أهل الأرض

لقد اختلفت الوفود . وتقويمها عند رسول الله ﷺ . لكن الأشعريين لم يكونوا من الوفود بعد تبوك . إنما كانوا من الوفود فى المرحلة الأولى . وعاشوا غربة الإسلام ومحنته . فكان الوصف الأول لهم هو فى تمييزهم عن المهاجرين والأنصار فى رقة قلوبهم .

فقد روى ابن سعد والبيهقى وأحمد عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوباً » ، فقدم الأشعريون فيهم أبو موسى الأشعرى، فلما دنوا من المدينة جعلوا يرتجزون يقولون :

(غداً نلقى الأحبه　　　محمداً وحزبه) (١)

وتجرّعوا الصبر ، فلم يلقوا رسول الله ﷺ فى المدينة . فقد كان غازياً اليهود فى خيبر ، وهل تحملهم قلوبهم أن يمكثوا ينتظرونه ، أبدا ، إنهم خلال ساعة سوف يتابعون سفرهم يلحقون بالمسلمين هناك على بعد مائتى كيلو متر من المدينة ، هم ورفاقهم أصحاب جعفر .

(فقد روى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً . الإيمان يمان والحكمة يمانية السكينة فى أهل الغنم ، والفخر والخيلاء فى الفدادين (٢) من أهل الوبر » (٣) .

لقد كان الجيش الإسلامى فى خيبر بانتظار الوافدين الجدد والقادمين من أرض اليمن وقد سمعوا ثناءً للرسول ﷺ لم يسمعوه من قبل إلا على أهل اليمن بأربعة أوسمة :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤١٥ .

(٢) الفدادون : الذين تعلوا أصواتهم فى حروثهم ومواشيهم وقيل : هم المكثرون من أهل الإبل . وقيل: هم الجمالون والحمارون والبقارون . وأهل الوبر : هم أهل البادية .

(٣) المصدر السابق ٦ / ٤١٦ .

أ ـ أرق أفئدة .

ب ـ ألين قلوباً .

جـ ـ الإيمان يمان .

د ـ الحكمة يمانية .

والقادمون الوافدون لا يدرون بهذه الأوسمة . إنما هم مشغولون لرقة أفئدتهم بلقاء الأحبة .

غداً نلقى الأحبة   محمداً وحزبه

لكن الوسام الأعظم الذى لا وسام فوقه يرصع صدورهم وقلوبهم إضافة إلى النياشين الأربعة السابقة . أنهم خيار أهل الأرض .

فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فقال :

« أتاكم أهل اليمن كأنهم السحاب ، وهم خيار من فى الأرض » ، فقال رجل من الأنصار : إلا نحن يا رسول الله ؟ فسكت ثم قال : إلا نحن يا رسول الله ؟ فقال : «إلا أنتم وكلمة ضعيفة » .

رواه فى زاد المعاد عن يزيد بن هارون . . . عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه. قال : ولما لقوا رسول الله ﷺ أسلموا وبايعوا ، فقال رسول الله ﷺ :

« الأشعريون فى الناس كصرة فيها مسك » (١) .

إنهم لم يحضروا بدراً ولا أحداً ولا الخندق ، ولا بايعوا بيعة الرضوان ، ولا شاركوا فى فتح خيبر ومع ذلك فهم من خيار أهل الأرض عاشوا بين اليمن والحبشة ، واتقدت قلوبهم بالإسلام وتفاعلوا مع هذا الدين ولم يروا رسول الله ﷺ بعد ، إنهم يعيشون مهاجرين مع جعفر وأصحابه ، فغدوا أمثال أهل بدر وأهل بيعة الرضوان . وأمثال جعفر بن أبى طالب وأصحابه الذين قال عنهم رسول الله ﷺ :

(« ليس بأحق بى منكم (أى عمر رضي الله عنه) ، له ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » قالت : (أى أسماء بنت عميس زوج جعفر) .

فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونى أرسالاً يسألونى عن هذا الحديث .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤١٦ .

ما من الدنيا شىء هم به أفرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ .

قال أبو بردة : فقالت أسماء . فلقد رأيت أبا موسى ، وإنه ليستعيد هذا الحديث منى) (١) .

لقد التقى فى خيبر خيار أهل الأرض الذين بايعوا فى الحديبية بيعة الرضوان والدوسيون وعلى رأسهم الطفيل بن عمرو ، والأشعريون وعلى رأسهم أبو موسى الأشعرى ، ومهاجروا الحبشة وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب ، واعتبر رسول الله ﷺ هذه الوفود الثلاثة مثل أهل الحديبية ، وقسم لهم من فىء خيبر كما قسم لأهل خيبر . فلقد كان كل فريق من هؤلاء جبل نور فى موقعه . وفرح رسول الله ﷺ بالتقائه خيار أهل الأرض من كل فج وخاصة أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوبًا يحملون معهم الإيمان والحكمة ، وهل فى الوجود أعظم من هذه الكنوز ، « الإيمان يمان والحكمة يمانية » لقد قال رسول الله ﷺ وهو عند حفصة رضي الله عنها :

(«لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها » قالت : بلى يا رسول الله . فانتهرها ، فقالت حفصة : ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا** ﴾ [مريم : ٧١] فقال النبى ﷺ . « وقد قال الله عز وجل : ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)** ﴾ [مريم] (٢) .

لقد كانت خيبر خاصة لأهل بيعة الرضوان فقد قال الله تعالى لهم : ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠)** ﴾ [الفتح] .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قسم للأشعريين كما قسم لأهل خيبر :

« وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم » (٣) . وبلغ فرحه ﷺ بأهل السفينة وعلى رأسهم جعفر رضي الله عنه

---

(١) صحيح مسلم (ح ٢٥٠٣) ص ١٠١٤ .
(٢) صحيح مسلم (ح ٢٤٩٦) .
(٣) صحيح مسلم (٢٥٠٥) .

أن قال : « والله ما أدرى بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » (١) .

فقد كانت أوبة جعفر وأصحابه عرساً جديداً للمسلمين فى المدينة وخيبر .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣ / ٤ .

٣ـ أبو عامر وأبو موسى الأشعرى فى حنين وبعدها

عن أبى بردة الأشعرى عن أبيه أبى موسى ﷺ قال : (لما فرغ النبى ﷺ من حنين بعث أبا عامر (وهو عم أبى موسى ﷺ) على جيش إلى أوطاس . فلقى دريد ابن الصمة ، فقتل دريد وهزم الله أصحابه . فقال أبو موسى : وبعثنى مع أبى عامر . قال : فرمى أبو عامر فى ركبته . رماه رجل من بنى جشم بسهم فأثبته فى ركبته . فانتهيت إليه فقلت : يا عم من رماك ؟ . فأشار أبو عامر إلى أبى موسى فقال : إن ذاك قاتلى تراه ذلك الذى رمانى) (١) .

ولعلنا نشهد أبا عامر وهو يبارز المشركين كما نقل ابن هشام قال : وحدثنى من أثق به من أهل العلم بالشعر وحديثه :

أن أبا عامر الأشعرى لقى يوم أوطاس عشرة إخـوة من المشركين فحمل عليه أحدهم . فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقتله أبو عامر ، ثم حمل عليه آخر ، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه فقتله أبو عامر ، ثم جعلوا يحملون عليه رجلاً رجلاً ويحمل أبو عامر وهو يقول ذلك حتى قتل تسعة . وبقى العاشر فحمل على أبى عامر ، وحمل عليه أبو عامر وهو يقول : اللهم اشهد عليه . فقال الرجل : اللهم لاتشهد علىَّ فكف عنه أبو عامر فأفلت ثم أسلم بعد فحسن إسلامه ، فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال : «هذا شريد أبى عامر » .

ورمى أبا عامر أخوان العلاء وأوفى ابنا الحارث من بنى جشم بن معاوية . فأصاب أحدهما قلبه . والآخر ركبته . فقتلاه ، وولى الناسَ أبو موسى الأشعرى فحمل عليهما فقتلهما . فقال رجل من بنى جشم بن معاوية يرثيهما :

إن الرزيـــة فتك العـــلاء ... وأوفى جمـــيعاً ولـــم يُسندا
همـــا الـــقاتلان أبا عامـــرٍ ... وقد كـــان داهيـــة أربـــدا
هما تركاه لـــدى معـــركٍ ... كـــأن علـــى عطفـــه مجسدًا

---

(١) صحيح مسلم (ح ٢٤٩٨) .

فلـــم تر فـــى الناس مثليهما أقل عثارا وأرمـــى يـــدا) (١)

ونعود ثانية إلى حديث أبى موسى رضي الله عنه فى صحيح مسلم بعد أن شهدنا بطولة أبى عامر عند ابن هشام .

(فقال : إن ذاك قاتلى ، تراه ذلك الذى رمانى . قال أبو موسى . فقصدت إليه فاعتمدته ولحقته فلما رآنى ولَّى عنى ذاهبا فاتبعته ، وجعلت أقول له : ألا تستحى ، ألست عربياً ؟ ألا تثبت ؟ فكفَّ فالتقيت أنا وهو ، واختلفت أنا وهو ضربتين . فضربتهُ بالسيف فقتلتهُ . ثم رجعت إلى أبى عامر فقلت : إن الله قد قتل صاحب . قال : فانزع هذا السهم . فنزعته فنزا منه الماء . فقال : يابن أخى ، انطلق إلى رسول الله ﷺ فأقرئه منى السلام وقل له : يقول لك أبو عامرٍ : استغفر لى .

قال : واستعملنى أبو عامر على الناس ومكث يسيراً ثم إنه مات . فلما رجعت إلى النبى ﷺ دخلت عليه وهو فى بيت على سرير مرمَّل (٢) ، وعليه فراش ، وقد أثر رمال السرير بظهر رسول الله ﷺ وجنبيه .فأخبرته بخبرنا وخبر أبى عامر . وقلت له : قل له يستغفر لى .

فدعا رسول الله ﷺ بماء . فتوضأ منه ثم رفع يديه ثم قال :

« اللهم اغفر لعبيد أبى عامر » ـ حتى رأيت بياض إبطيه . ثم قال :

« اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك ، أو من الناس » .

فقلت : ولى يا رسول الله فاستغفر . فقال النبى ﷺ :

« اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريما » .

قال أبو بردة (ولد أبى موسى) إحداهما لأبى عامر ، والأخرى لأبى موسى)(٣).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ٧٨ .

(٢) مرمَّل : مختلط بالرمل .

(٣) صحيح البخارى (ح ٢٨٨٤) وغيره ، ومسلم (ح ٢٤٩٨) .

٤ ـ وأخيراً عن الأشعريين

لقد كانت هذه قيادات الأشعريين أبو عامر الأشعرى ، وابن أخيه أبو موسى الأشعرى ، وأبو بردة وأبو رُهم ، وقد شهدنا أبا موسى ﷺ داعية كبيرًا قاد قومه إلى الإسلام ، وشهدناه مقاتلاً عنيداً يثأر لعمه أبى عامر ،ونشهده لحنًا شجياً فى كتاب الله ، وسمعه رسول الله ﷺ سراً وهو يتلو كتاب الله وقال عنه : « لقد أوتى مزماراً من مزامير داود » .

ولم يكن هذا شأنه وحده . فهو شأن الأشعريين جميعاً فى عذوبة صوتهم وحبهم لكتاب الله وانشغالهم به وأنسهم به . فأصبحت العلامة المميزة لهم علاقتهم مع هذا الكتاب المنزل . كما شهد لهم بذلك رسول الله ﷺ حين قال :

« إنى لأعرف أصوات رُفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار . ومنهم حكيم إذا لقى الخيل ، أو قال العدو ـ قال لهم : إن أصحابى يأمرونكم أن تنظروهم»(١) .

« فهم منى وأنا منهم » .

وتأتى الشهادة الثانية الكبرى لهم فى الإيثار والحب فيما بينهم فهم على منهج إخوانهم من الأنصار .

فعن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو أو قلّ طعام عيالهم فى المدينة . جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية . فهم منى وأنا منهم»(٢).

وما نريد أن نضيف جديداً عنهم بعد تزكية رسول الله ﷺ لهم . فقد اعتبرهم ابتداءً ممثلين لأهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوباً ، وذكر هذا الرمز بحمله الإيمان

---

(١) البخارى (ح ٤٢٢٣) ، مسلم (ح ٢٤٩٩) .
(٢) البخارى (ح ٢٤٨٦) ، ومسلم (ح ٢٥٠٠) .

والحكمة:الإيمان يمان والحكمة يمانية . واختارهم بين المسلمين ليكونوا هم أهل القرآن فى الليل ، ولإيثارهم وحبهم بعضهم بعضاً فى الجهاد ضربهم مثلاً وقدوة . وقال : «فهم منى وأنا منهم ». واختصهم بأنهم خيار أهل الأرض بعد المهاجرين والأنصار . فرضى الله عن الأشعريين أينما حلوا ، وأينما رحلوا . . وجعل نصيبهم جميعاً فى عليين .

ثالثاً
مذحج

١ ـ عنس بن مذحج :

أ ـ عمار بن ياسر . ب ـ ربيعة بن رواء .

٢ ـ يحابر بن مذحج :

أ ـ فروة بن مسيك . ب ـ صفوان بن عسال .

٣ ـ جعفى بن سعد العشيرة بن مذحج :

أ ـ سلمة بن يزيد . ب ـ أبو سبرة بن مالك .

جـ ـ بنو أبى خولى .

٤ ـ أنس الله بن سعد العشيرة بن مذحج : ذباب بن الحارث .

٥ ـ زبيد بن صعب بن سعد العشيرة :

أ ـ محمية بن جزء . ب ـ عمرو بن معد يكرب .

٦ ـ بنو رهاء بن منبه بن حرب ... بن جلد بن مذحج

أ ـ عمرو بن سبيع . ب ـ وفد الرهاويين .

٧ ـ وفد صداء بن يزيد بن حرب ... بن جلد بن مذحج .. أخو صداء زياد بن الحارث .

٨ ـ بنو الحارث بن كعب ... بن علة بن جلد بن مذحج .

٩ ـ بنو النخع بن عامر ... بن علة بن جلد .

أ ـ الوفد الأول : أرطاة وجهيش .

ب ـ وفد النخع .

نسب مذحج

لقد كان ولد أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ ثلاثة :

أولهم : مرة بن أدد . وتناسل منه : لخم وجذام وعاملة وكِندة وخولان .

وثانيهم : نبت بن أدد . وكان منه الأشعريون .

وثالثهم : مالك بن أدد . وهو مذحج .

فتلتقى هذه القبائل الكبرى عند أدد . وتوزعت عند أولاده مرة ونبت ومالك .

فمذحج إذن هو : مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ .

١ ـ عنس بن مذحج

لقد شرفت مذحج وعنس واليمن . بياسر وسمية وعمار بن ياسر ﷺ . ولأن عمار وياسر ﷺ من عنس . نورد أهم مناقبه ﷺ فى صدد الحديث عن قبيلته :

أبوه ياسر : هو ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة . . . بن حارثة بن عامر الأكبر يام ابن عنس بن مالك (مذحج) .

قدومه مكة : كان سبب قدوم ياسر مكة أنه قدم هو وأخوان له يقال لهما الحارث ومالك فى طلب أخ رابع لهما . فرجع الحارث ومالك إلى اليمن . وأقام ياسر بمكة فحالف أبا حذيفة بن المغيرة وتزوج أمة له يقال : لها سمية : فولدت له عماراً . فأعتقه أبو حذيفة . فمن هاهنا صار عمار مولى لبنى مخزوم ، وعن ابن إسحاق رحمه الله قال: إن سمية أم عمار عذّبها هذا الحى من بنى المغيرة . . . بن مخزوم على الإسلام وهى تأبى غيره حتى قتلوها . وكان رسول الله ﷺ مر بعمار وأمه وأبيه يعذبون فى الأبطح فى رمضاء مكة فيقول : « صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة » .

أ ـ عمار بن ياسر

(روى عن على بن أحمد بن متُّويه فى قوله عز وجل : ﴿ **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾ [النحل : ١٠٦] نزلت فى عمار بن ياسر أخذه المشركون فعذبوه فلم يتركوه حتى

سب النبى ﷺ وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه فلما أتى رسول الله ﷺ قال : ما وراءك. قال : شر يا رسول الله ، ما تُرِكتُ حتى نِلتُ منك وذكرت آلهتهم بخير . قال : «كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئناً بالايمان قال : « فإن عادوا لك فعد لهم » .

إسلامه : (قال عمار : لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ورسول الله ﷺ فيها . فقلت : ما تريد ؟ قال : وما تريد أنت ؟ قال : أردت أن أدخل على محمد وأسمع كلامه . فقال : وأنا أريد ذلك . فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلام فأسلمنا .) وكان إسلامه بعد بضعة وثلاثين رجلاً . وعن وبرة بن همام قال : سمعت عمار بن ياسر يقول : رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر. وقال مجاهد : أول من أظهر إسلامه سبعة رسول الله وأبو بكر وبلال وخباب وصهيب وعمار وأمه سمية . واختلف فى هجرته إلى الحبشة اختلافًا شديداً .

جهاده : هاجر إلى المدينة وشهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان مع رسول الله ﷺ .

فضله : عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر واهتدوا بهدى عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد » .

وروى الامام أحمد عن خالد بن الوليد ؓ قال : كان بينى وبين عمار كلام . فأغلظت له فى القول فانطلق عمار يشكونى إلى رسول الله ﷺ . فجاء خالد وهو يشكوه إلى النبى ﷺ فجعل يغلظ له ولا يزيده إلا غلظة،والنبى ﷺ ساكت لا يتكلم . فبكى عمار وقال : يا رسول الله ألا تراه ؟ فرفع رسول الله ﷺ رأسه وقال : « من عادى عماراً عاداه الله ، ومن أبغض عماراً أبغضه الله » قال خالد : فخرجت فما كان شىء أحب إلىَّ من رضا عمار . فلقيته فرضى .

وعن هانئ بن هانئ عن على ؓ قال: جاء عمار يستأذن على النبى ﷺ فقال : « ائذنوا له ، مرحباً بالطيب المطيب » .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :

« ماخير عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما » .

وروى الترمذى وغيره عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « أبشر عمار ، تقتلك الفئة الباغية » .

ومن مناقبه : أنه أول من بنى مسجداً فى الإسلام . وشهد عمار قتال مسيلمة ، فروى نافع عن ابن عمر قال : رأيت عمار بن ياسر يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف يصيح :يا معشر المسلمين،أمن الجنة تفرون إلىَّ إلىَّ : أنا عمار بن ياسر ، هلموا إلى ، وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت فهى تذبذب وهو يقاتل أشد القتال .

واستعمله عمر بن الخطاب على الكوفة وكتب إليهم : أما بعد ، فإنى بعثت إليكم عمار أميراً ، وعبد الله بن مسعود وزيراً ومعلماً وهما من نجباء أصحاب محمد . ثم إنه بعد ذلك صحب علياً رضي الله عنه وشهد الجمل وصفين فأبلى فيهما بلاءً حسناً ، قال أبو عبد الرحمن السلمى : شهدنا صفين مع على فرأيت عمار بن ياسر لايأخذ فى ناحية ولا واد من أودية صفين إلا رأيت أصحاب رسول الله ﷺ يتبعونه كأنه علمٌ لهم . قال : وسمعته يومئذ يقول لهاشم بن عتبة : يا هاشم ، تفرمن الجنة ، الجنة تحت البارقة . اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه . والله لوضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمت أنا على حق وأنهم على الباطل .

استشهاده : وقال ابو الحجزى . قال عمار بن ياسر يوم صفين . ائتونى بشربة . فأتى بشربة لبن فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن». وشربها ثم قاتل حتى قتل وكان عمره يومئذ أربعا وتسعين سنة ، وقيل : ثلاث وتسعون. . . ولما قُتل عمار قال : ادفنونى فى ثيابى فإنى مخاصم (١) .

ب ـ ربيعة بن رواء العنسيِ

ولم تحمل لنا الوفود قدوم وفد كامل من عنس . إنما تحدثت عن رجل مؤمن صادق الإيمان تحرك من بلاده استجابة لله ورسوله . وهذه قصته كما رواها ابن سعد عن رجل من عنس مجهول كذلك قال :

(كان منا رجل وفد على النبى ﷺ فأتاه وهو يتعشى . فدعاه إلى العشاء فجلس فلما تعشى أقبل عليه النبى ﷺ فقال :

« أتشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ؟ » قال :

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير الجزرى ، مقتطفات ٤ / ٤٥ ـ ٤٧ .

قال : « أراغباً جئت أم راهباً ؟ » .

فقال : أما الرغبة ، فوالله ما فى يديك مال . وأما الرهبة فوالله إنى لببلدٍ ما تبلغه جيوشك ولكنى خُوفت فخفت ـ وقيل لى آمن بالله فآمنت) .

فأقبل رسول الله ﷺ على القوم فقال : « رب خطيب من عنس » .

فمكث يختلف إلى رسول الله ﷺ . ثم جاءه يودعه فقال له رسول الله ﷺ : «اخرج » ـ وبتَّهُ (١) وقال :

« إن أحسست شيئاً فوائل (٢) إلى أدنى قرية. .

فخرج ـ فوعك فى بعض الطريق ، فواءل أدنى قرية. فمات رحمه الله واسمه ربيعة) (٣) .

إنه خوِّف بالله فخاف ودعى إلى الإيمان فأجاب . ولم يدفعه أحد إلى المضى إلى المدينة للقاء رسول الله ﷺ إلا ازديادة طمأنينته لهذا الإيمان بحيث يلقى رسول الله الذى آمن به ، وكان ذلك اللقاء الفريد ، فوجد رسول الله ﷺ يتعشى . فتعشى معه . وأدرك رسول الله ﷺ أن هذا الفرد الذى يقطع هذه الفيافى والقفار . من قومه عنس إلى المدينة بغير رفقة أحد ، ليس رجلاً عادياً ، وأحب ﷺ أن يحررِّ نفسيته من كل حظ من حظوظ الدنيا ، فوجده على العهد لم يأت رغبة إليه فى ماله . فليس من الزعماء الذين يقصدون بالثناء فيوزعون الأموال الطائلة . ليصبحوا حديث الشعراء . وتنتقل شهرتهم فى كل فج ، ولم يأت رهبة . فما يخطر ببال أى عنسى أن محمداً ﷺ سوف تصل جيوشه إلى قبيلته . ودخل دورة إيمانية خاصة به ليس معه أحد ، وانضم إلى الحظيرة الإسلامية . وأثنى رسول الله ﷺ عليه بقوله : « رب خطيب من عنس » لكن رسول الله ﷺ عرف أنه ليس ممن سيكون له دور فاعل جماعى فاستحثه عندما ودعه أن يقصد أقرب قرية على طريقه ، ونفذ أمر رسول الله ﷺ . وكان فيها أجله . بينما بقيت ساحة قبيلة عنس خالية مفتوحة للمتنبئ الكذاب الأسود العنسى الذى قاد مجازر وحروباً ضد المسلمين حتى ذبحه الله على أيديهم بعد ذلك .

---

(١) بته : أعطاه .

(٢) وائل : الجأ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٩٥ .

٢ ـ يحابر بن مذحج (مراد)

يحابر هو مراد فهو : مراد بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد ابن كهلان بن سبأ وأشهر أعلام مراد اثنان ، هما :

أ ـ فروة بن مسيك المرادى

نسبه : فروة بن مسيك (أو مسيكة) بن الحارث بن سلمة بن الحارث . . . بن ناجية بن مراد .

ونعيد إلى الذاكرة أن فروة هذا رضي الله عنه هو الذى سأل رسول الله ﷺ عن سبأ رجل أو امرأة . فأخبره عنه وهو الذى نعتمده فى حديثنا عن اليمن وأهله أبناء سبأ الذين قال عنهم رسول الله ﷺ أنهم تيامنوا .

ونعود معه ابتداء إلى لحظة وفوده على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

قال ابن إسحاق ومحمد بن عمر رحمهما الله تعالى : (قدم فروة بن مسيك رضي الله عنه وافداً على رسول الله ﷺ مفارقًا لملوك كندة ومتابعاً للنبى ﷺ وقال فى ذلك :

لما رأيت ملوك كِندة أعــرضت ... كالرجل خان الرجل عِرق نسائها
قرَّبت راحـلتى أؤم محـــمداً ... أرجو فواضلـــها وحسن ثنائـــها

ثم خرج حتى أتى المدينة . وكان رجلاً له شرف . فأنزله سعد بن عبادة عليه ثم غدا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد فسلَّم عليه ثم قال :

يا رسول الله ، أنا لمن ورائى من قومى ، قال : « أين نزلت » قال : على سعد ابن عبادة .

وكان يحضر مجلس رسول الله ﷺ كلما جلس ويتعلم القرآن وفرائض الإسلام وشرائعه .

إنه سيد من سادات قومه وزعيم مراد كلها ، دعا إخوانه من ملوك كندة للوفود على رسول الله ﷺ . ليشكلوا موقفاً إسلامياً واحدًا . فرفضوا ذلك . فصمم على أن

يمضى من مراد إلى يثرب ويفد على رسول الله ﷺ .

فلولا أصالة معدنه ، وطيب محتده ونقاء فطرته لما فعل ذلك ، وهو فى موقع القيادة من قومه فلا يحتاج إلى شرف جديد ، ولا إلى زعامة جديدة ، ولاينازعه فى زعامة قومه أحد .

غير أن الهزيمة التى منيت بها مراد مع همدان كانت تعتصر قلبه اعتصاراً وذلك فى معركة الروم .

ولن ينسى مرارة هذه الهزيمة إلا بنقلة جديدة من هذا العالم المتلوث بالدماء بين الأهل .

ولأن زعامته مشهود لها ، فسرعان ما تعرف عليه سيد الخزرج سعد بن عبادة . وأنزله ضيفاً عنده وبجمع بينهما النسب ، القريب بين الأنصار ومذحج .

وجاء فى اليوم الثانى مع سعد بن عبادة رضي الله عنه ـ شريفًا نزل على شريف ، وعيون المسلمين معلقة بهذا الوافد الجديد ، رسول الله ﷺ يمعن النظر به ، هل هو مثل وافد عنس لا يملك إلا نفسه ؟ أم هو سيد من ورائه قومه ، وعند سماع اسمه عرف أنه سيد مراد وعرف ما أصاب مراد يوم الروم ، وتركه على سجيته فى اليوم الأول ، حيث جاء وسلم على النبى ﷺ وأعلن إسلامه وقال : يا رسول الله ، أنا لمن ورائى من قومى .

والأصل أن يكون الوفد فى دار الضيافة ، فى دار رملة بنت الحارث رضي الله عنها فنفى أن يكون قد نزل فى الدار إنه بضيافة سعد بن عباده . ولكن سيد ولد آدم يريد أن يكون فى دار الضيافة على رسول الله ﷺ ليكرم نزله ، وفى الوقت ذاته لايريد أن يحرم سعد من ضيافته .

قال : أين نزلت يا فروة ؟

قال : على سعد بن عبادة .

والسؤال نفسه يشى باهتمام رسول الله ﷺ به ، وحيث إنه عند سعد فهو فى بيت الجود والكرم ، البيت العريق بالمجد والسؤدد .

(وكان يحضر مجلس النبى ﷺ كلما جلس ويتعلم القرآن وفرائض الإسلام وشرائعه) .

فمن يرد الله به خيراً يشرح صدره للإسلام .

وشرح الله صدر فروة للإسلام .

واجتمع فى صدر سيد مراد عاملان أخذا عليه كل مجمع قلبه ؛ هزيمة قومه ، واعتناق الإسلام .

وراح رسول الله ﷺ يجول فى أعماق هذا القلب .

« وكان بين مراد وهمدان قبيل الإسلام وقعة أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا حتى أثخنوهم فى يوم يقال له : يوم الردم . وكان الذى قاد همدان إلى مراد ، الأجدع ابن مالك فى ذلك اليوم فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قاله له رسول الله ﷺ :

« يا فروة ، هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم ؟ »

قال : يا رسول الله ، من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الردم لا يسوؤه ذلك ؟

فقال رسول الله ﷺ : « أما إن ذاك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيرا » .

لقد أدرك رسول الله ﷺ من النظرة الفاحصة له فى أجواء مذحج أن هذه الهزيمة هى التى فتحت قلب مراد للإسلام . متميزة عن كل قبائل مذحج ، ودعت فروة بن مسيك إلى أن يمضى إلى يثرب يعوِّض بالإسلام محنته ، ويغير تركيب الصراع الدموى فى قومه . فإذا كانت النكبة التى حلت بمراد هى التى دفعتها إلى الإسلام فليخفف سيد مراد من حزنه فما أكرمه الله تعالى به وبقومه من الصلة بنور النبوة يخفف من وقع هذه النكبة عليه .

وفروة رضي الله عنه أثبت تماسكاً عظيماً عقب الوقعة . وأطلق قصيدته الكبرى ردًا على آثار موقعة الردّم إذ يقول :

مررن على لِفاتَ وهن خوص ... ينازعن الأعنة ينتحينا
فإن نَغْلِبْ فغلابون قِدمًا ... وإن نُغْلَبْ فغير مغلبينا
وما إن طبنا جبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا
كذاك الدهر دولته سجال ... تكر صروفه حينا فحينا

إنه يتحدث عن خيله وقد مرت على لفات موقع بين مكة والمدينة . تود أن تكر غير عابئة بالموت .

فإن انتصرنا فهذه سجيتنا منذ القدم ننتصر على أعدائنا . وإن ننهزم فى معركة فنحن الفائزون فى غيرها والحرب سجال . يوم لك ويوم عليك . وهذه صروف الدهر حينا نصرا وحينا هزيمة .

فبينـــنا ما نُسَرُّ به ونـرضـــى ولـــو لُبسَت غضـــارته سنيـــنا
إذا انقلبت به كَرَّاتُ دهــــرِ فألفيت الأولى غُبطـوا طحيـــنا

فلا سرور يدوم ولا حزن يدوم . ومحنة واحدة تمسح كل نعيم الدنيا القائم .

وإذا كان الملوك لا يخلدون فنحن مثلهم لا نخلد كذلك . ولو خلدوا لما وصل الملك إلينا بل يصل إلى غيرنا :

فلو خلد الملـــوك إذاً خلـــدنا ولو بقى الكـــرام إذاً بقيـــنا
فأفنى ذلكم سروات قومــــى كما أفنى القرون الأوَّليـــنا (١)

لقد طامن من كبريائه . واستسلم لقدر الله . واختار الآخرة على الدنيا فجاءته الدنيا والآخرة . لقد كان رسول الله ﷺ يتعامل مع القيادات العربية بحذر .

ولا يعطيها السيادة على قومها ما لم يطمئن إلى إسلامها الحقيقى .

وكثيراً ما أعطى القيادة للشباب الناشئين الذين لا تحكمهم عقدة الزعامة ومحور الذاتية ، بل تحكمهم عظمة الإسلام والحرص على تطبيقه والعبودية لله لا للذات .

وكان فروة رضي الله عنه من القادة القلائل جداً الذين فازوا بثقة النبى ﷺ بعد تلك الدورة الشخصية التى حضرها بإشراف رسول الله ﷺ . وقَبل أن يتتلمذ على رسول الله . فتلقى القرآن وشرائع الإسلام منه . وصار مؤهلاً تأهيلا كاملاً للقيادة الإسلامية .

(فاستعمله رسول الله ﷺ على مُرادَ وزبيد ومَذحج كلها ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة . فكان معه فى بلاده حتى تُوفى رسول الله ﷺ) .

لقد فارق ملوك كندة كلها من أجل الإسلام . وأشرق قلبه بنوره . فعاد مكللاً بالمجد . وملكاً على مذحج كلها بما فيها من مراد وزبيد وغيرها . ومثَّل نموذج القائد

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى . وفود فروة بن مسيك ٦ / ٦٠٢ - ٦٠٣ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٧٥ ، ١٧٦ .

الذى يسلم فيحسن إسلامه ويتطهر قلبه من أدران ذاته . ويتحول عبداً لله بعد أن كان عبداً لأهوائه ونزواته وأمجاده وزعامته .

ب ـ صفوان بن عسال المرادى

قدم على رسول الله ﷺ دون أن ندرى متى قدم . أما نسبه فهو : (صفوان بن عسَّال من بنى الربض بن زاهر بن عامر بن عوثبان بن مراد) (١) .

لكنه قديم الإسلام قال لنا :

(أتيت النبى ﷺ وهو متكئ فى المسجد على برد له أحمر فقلت :

يا رسول الله ، إنى جئت أطلب العلم . قال « مرحباً بطالب العلم . إن طالب العلم لتحفه الملائكة بأجنحتها » . أخرجه الثلاثة) (٢) .

فإذا كان هذا قدومه الأول فهذا يعنى أنه قدم فى العهد المدنى حين كان للمسلمين دولة ومسجد هو مركز هذه الدولة . كما أنه شارك فى الحركة الجهادية (فقد غزا مع النبى ﷺ ثنتى عشرة غزوة) تعلم فيها أفانين القتال،ومنازلة الأبطال ومقارعة الخصوم . لكن هذا لم يشغله عن طلب العلم.ومضى فأقام فى الكوفة بعد وفاة رسول الله ﷺ . وصار مقصداً لطلاب العلم ينهلون منه من كل مكان بعد أن تربى فى المدرسة النبوية . وصار من أساتذتها فيما بعد ، بين يدينا نص حديث ظفرنا به عن زر بن حبيش قال :

(أتيت صفوان بن عسال المرادى . فقال : ما جاء بك ؟

قلت : ابتغاء العلم . قال : بلغنى أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يفعل ، قال ، قلت : إنه حاك ـ أوحكَّ ـ فى صدرى شىء عن المسح فى الخفين . فهل حفظت من رسول الله ﷺ منه شيئاً ؟

قال : نعم. إذا كنا فى سفر أو مسافرين أمرنا الا نخلع خفافنا ثلاثاً إلا من جنابة . ولكن من غائط وبول ونوم .

فقلت : هل حفظت من رسول الله ﷺ شيئاً فى الهوى ؟

قال : نعم ، كنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره . فناداه رجل كان آخر

(١ ، ٢) أسد الغابة لابن الأثير ٢ / ٣٤ .

القوم بصوت جهْوَرِيِ أعرابى جِلفٍ جاف . فقال : يا محمد ، يا محمد .

فقال له القوم : مه ، إنك نهيت عن هذا .

فأجابه رسول الله نحواً من صوته : هاؤم .

قال : الرجل يحب القوم ولما يلحقْ بهم ؟

قال : فقال رسول الله ﷺ : « المرء مع من أحب » .

قال : فما برح يحدثنى . حتى حدثنى أن الله عز وجل جعل بالمغرب باباً عرضه مسيرة سبعين عاماً للتوبة لا يغلق مالم تطلع الشمس من مغربها . وذلك قول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴾ [الانعام : ١٥٨]) (١) .

هذا وقد بخلت علينا كتب التراجم فى معرفة تاريخ وفادته وتاريخ إسلامه . لكن كتب الحديث . لا تخلو من أحاديثه .

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤ / ٢٤٠ .

٣ ـ جعفى بن سعد العشيرة بن مذحج

لقد كان سعد العشيرة بن مذحج أخو مراد وعنس أباً لعشائر كبرى تناسلت منه وكان *أولها جعفى بن سعد العشيرة . عُرف منها .*

أ ـ سلمة بن يزيد

(فهو سلمة بن يزيد بن مشجعة بن المجمع بن مالك بن كعب بن سعد بن عوف ابن حريم بن جعفى وفد إلى النبى ﷺ ، روى عنه علقمة بن قيس ، وروى داود ابن أبى هند عن الشعبى عن علقمة عن سلمة بن يزيد الجعفى قال :

انطلقت أنا وأخى إلى النبى ﷺ فقلنا :

يا رسول الله ، أمُنا مليكة كانت تصل الرحم ، وتقرى الصيف ، وتفعل وتفعل هلكت فى الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً ؟ قال: لا . قلنا: إنها وأدت أختا لنا فى الجاهلية فقال : «الوائدة والموؤودة فى النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام . فيعفو الله عنها » .

ورواه إبراهيم عن علقمة والأسود عن عبد الله : أخبرنا الخطيب عبد الله بن أحمد الطوسى بإسناده إلى أبى داود الطيالسى بسنده عن سلمة بن يزيد قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الواقعة] من الثّيب وغير الثيّب . أخرجه الثلاثة . اختلف أصحاب الشعبى وأصحاب سماك فى اسمه فقيل :سلمة بن يزيد ، وقيل: يزيد بن سلمة) (١) .

(وكتب رسول الله ﷺ لعنس بن سلمة (وهو أخو سلمة بن يزيد لأمه مليكة) كتابًا نسخته :

« كتاب من محمد رسول الله لقيس بن سلمة بن شراحيل أنى استعملتك على

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٢ / ٣٤٢ .

مُرَّان ومواليها وحريِّم ومواليها والكُلاب ومواليها . من أقام الصلاة وآتى الزكاة وصدَّق ماله وصفاه »

قال الكلاب :أود وزبيد وجزء بن سعد العشيرة ، وزيد الله بن سعد ، وعائذ الله ابن سعد وبنو صلاة من بنى الحارث بن كعب) (١) .

ب ـ أبو سبرة بن مالك

روى ابن سعد بسنده قال : وفد أبو سبرة ـ وهو يزيد بن مالك بن عبد الله بن الذؤيب بن سلمة بن عمرو بن ذهل بن مران بن جعفى ـ على النبى ﷺ ومعه ابناه سبرة وعزيز ، فقال رسول الله ﷺ لعزيز : « ما اسمك ؟ » قال : عزيز ، قال : « لا عزيز إلا الله ، أنت عبد الرحمن » ، فأسلموا وقال له أبو سبرة : يا رسول الله ، إن بظهر كفى سلعة قد منعتنى من خطام راحلتى .

فدعا له رسول الله ﷺ بقدح فجعل يضرب به على السلعة ويمسحها . فذهبت فدعا له رسول الله ﷺ ولابنيه وقال له :

يا رسول الله ، أقطعنى وادى قومى باليمن ـ وكان يقال له : قردات ـ ففعل . وعبد الرحمن هو أبو خيثمة (٢) بن عبد الرحمن) (٣) .

جـ ـ بنو أبى خولى

وهم ثلاثة أخوة كانوا حلفاء بنى عدى وكانوا من السابقين الأولين . وكانوا من أهل بدر . فهم لم يفدوا على رسول الله ﷺ من اليمن ، إنما انضموا إلى دين الله وهم بمكة مع الرعيل الأول لأن إقامتهم بمكة كانت بسبب تحالفهم مع الخطاب ـ أبى

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٢٥ . وقد ذكر ابن سعد عن قيس بن سلمة وسلمة بن يزيد ابنى مليكة أخباراً لا تصح وفى متنها نكارة وسندها واه جداً فهى عن هشام بن السائب بن الكلبى عن أبيه . ومن النكارة فى متنها أن رسول الله ﷺ قال عن أمه آمنة : « أنها فى النار » ، ومنها أن هذين الصحابيين ارتدا ولعنهما رسول الله ﷺ . مع أن الحديث عنهما فى كتب التراجم وفى كتب الأحاديث تناقض ذلك ، وتذكرهما صحابيين ، لهما قدمهما فى الإسلام ، وقد رُوى عنهما بعض الأحاديث .

(٢) فقيه مشهور من التابعين .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

عمر ﷺ - يقول ابن حزم فى جمهرته .

(وخولى وهلال وعبد الله بنو أبى خولى بن عمر بن زهير بن خيثمة . . . بن حريم بن جعفى شهدوا بدراً مع رسول الله ﷺ) (١) .

وقال الطبرى : (شهد خولى بن أبى خولى بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. ومات فى خلافة عمر ، ولخولى هذا حديث واحد وهو أن رسول الله ﷺ قال له - وذكر له تغير الزمان - قال : « عليك بالشام » . قال : أخرجه الثلاثة) (٢) .

وقد شرفت جُعفى بهؤلاء البدريين الثلاثة الذين هم من خيرة أهل الأرض . كما شرفت عنس واليمن كلها بعمار بن ياسر ﷺ وأبيه ياسر . وكان خولى وأخوه قد هاجرا مع عمر ﷺ من مكة إلى المدينة .

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤١٠ .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٢ / ١٢٧ . ذكر ابن إسحاق مع خولى بن خولى مالك بن خولى وكلاهما من المهاجرين ومن البدريين ، لكن ابن هشام يعيد نسبهما إلى بكر بن وائل ، أما الواقدى والكلبى وابن حزم فيعيدون نسبهما إلى جعفى ، وهذا هو الذى صححه ابن الأثير فى أسد الغابة فقال : (هو خولى بن أبى خولى العجلى،وهكذا نسبه ابن هشام ونسبه إلى عجل بن لخيم ، ويقال : الجعفى قاله ابن إسحاق وغيره ، وهو الصواب) .

٤ ـ أنس الله بن سعد العشيرة بن مذحج

وقد عُرِف منهم الصحابى العظيم ذباب بن الحارث .

فهو : ذباب بن الحارث بن عمرو بن معاوية . . . بن بلال بن أنس الله بن سعد العشيرة ذكره ابن شاهين فى الصحابة . وينقل لنا عبد الرحمن بن أبى سبرة ﷺ وهو الذى تحدثنا عنه آنفاً أنه ورد مع أبيه أبى سبرة . وكان اسمه عزيزاً فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن ، يحدثنا عن قصة ذباب بن الحارث . مع صنم سعد العشيرة الفرَّاض فيقول :

(كان لسعد العشيرة صنم يقال له : فراض يعظمونه ، وكـان سادنه رجل من أنس الله بن سعد العشيرة يقال له ابن رقيبة . . . فحدثنى ذباب بن الحارث رجل من أنس الله أن لابن رقيبة رئياً من الجن يخبره بما يكون . فأتاه ذات يوم فأخبره بشىء . فنظر إلىَّ فقال :

يا ذباب ، يا ذباب ، اسمع العجب العجاب . بعث محمد بالكتاب . يدعو بمكة فلا يجاب .

فقلت له : ما هذا ؟ . قال : لا أدرى كذا قيل لِي .

فلم يكن إلا قليل حتى سمعت بمخرج رسول الله ﷺ . فأسلمت . وثرت إلى الصنم فكسرته . ثم أتيت النبى ﷺ) (١) .

وقال ذباب فى ذلك :

(تَبِعْتُ رسول الله إذ جاء بالهدى ... وخلَّفْتُ فرَّاضًا بـدار هـوان
شددت عليه شـدة فتركتـه ... كأن لم يكن ، والدهر ذو حدثان
ولمـا رأيت الله أظـهر دينـه ... أجبت رسول الله حين دعـانى
فأصبحت للإسلام ما عشت ناصراً ... وألقيت فيه كلكلى (٢) وجرانى (٣)

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٢ / ١٣٦ .
(٢) الكلكل : الصدر أو ما بين الترقوتين .
(٣) الجران : باطن العنق .

فمن مبلغ سعـــد العشيرة أننـــى   شَربْت الذى يبقى بآخر فانـى) (١)

فذُباب ﷺ يأخذ كل شيء مأخذ الجد . فإذا كانت الجن تبشر بمحمد ﷺ . ويرى صدق بشارتهم فيما تناقله الناس عن محمد بن عبد الله المكى الذى أخرجه قومه (يدعو بمكة فلا يجاب) ويعرض عليه الإسلام والإيمان بالله الواحد، ونبذ ما تعبدون من دونه، وأقدس مقدسات سعد العشيرة هو فرّاض ، هذا الصنم الذى يعبد من دون الله . وتوقد الإسلام فى قلبه قبل أن يلقى رسول الله ﷺ ، ولم ينتظر حتى يلقاه فيسأله عن الصنم . إنما كانت نصاعة التوحيد فى قلبه تقضى أن يحطّمَ فراض ؛ لتبقى العبودية لله وحده . وواجه قبيلته كلها . وكان على خطى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الانبياء] وكاد صنمهم وحطمة . ليثبت صدق إيمانه بهذا الدين ، ومضى إلى رسول الله ﷺ . وانضم إلى ركب التوحيد فى الأرض انضماماً علنيًا متحدياً فيه قافلة الشرك . وأطلق شعره فرحًا بهذا الانضمام ، وأعلن مسؤوليته عن تحطيمه فراض . وأنه جعله جذاذاً لا حراك فيه كأن لم يكن . وأعلن استجابته لدعوة الهدى . وأنه غدا فى حياته كلها ومماته هبة لهذا الدين : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾ [الأنعام] وإذا كانت سعد العشيرة قد آذاها هذا الانضمام فلتعلم أن ذباباً شرى الباقى بالفانى ووضع دمه على كفه فى سبيل الله .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥١٤ .

٥ ـ زُبيد بن صعب بن سعد العشيرة

وَلَدُ صعب بن سعد العشيرة أود ، ومنبِّه وهو زُبيد .

وعندنا علمان كبيران من زُبيد أحدهما من المهاجرين الأولين وهو محمية بن جزء وثانيهما الفارس الشاعر العظيم وبطل اليمن عمرو بن معد يكرب الزبيدى .

أ ـ محمية بن جزء

يذكر ابن الأثير نسبه فيقول : هو محمية بن جزء بن عبد يغوث . . . بن عمرو بن زُبيد الأصفر الزبيدى . كان فى مكة قبل أن يشرق نور الإسلام فيها ، وكان حليفاً لبنى سهم ،وما أن بزغ الفجر الإسلامى حتى كان من أوائل من سارع وانضم إلى هذا الدين مع شباب بنى سهم.مع أن بنى سهم كانوا من أعدى العدو للإسلام،وخوفًا من الفتنة. وهرباً بدين الله انضم إلى مهاجرة الحبشة حيث الحاكم الذى لا يظلم عنده أحد.

قال ابن إسحاق وهو يذكر مهاجرة الحبشة :

(وقيس بن حذافة بن قيس بن عدى . . وأبو قيس بن الحارث بن قيس بن عدى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى والحارث بن الحارث بن قيس بن عدى ومعمر بن الحارث بن قيس بن عدى وبشر بن الحارث بن قيس بن عدى وسعيد بن الحارث بن قيس بن عدى ، والسائب بن الحارث بن قيس بن عدى .

فجميع هؤلاء ولد قيس بن عدى السهمى . . . ومحمية بن جزء حليف لهم من بنى زبيد) (١) .أمضى مع مهاجرة الحبشة شطر عمره . وعاد مع قائده جعفر بن أبى طالب بعد الحديبية .

وحين يعدد ابن إسحاق أصحاب السفينة العائدين مع جعفر ﷺ يذكر محمية بينهم (ومن بنى سهم بن عمرو بن حصيص محمية بن جزء حليف منهم كان رسول الله ﷺ جعله على خمس المسلمين) (٢) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٦٠ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ٤ / ٥ .

(وكان قديم الإسلام وهو من مهاجرة الحبشة . وتأخر عوده منها . وأول مشاهده المريسيع واستعمله النبى ﷺ على الأخماس) (١) .

وقدَّمه على ابنى عمه عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث ، والفضل بن العباس . كما يروى لنا عبد المطلب رضي الله عنه قال :

(اجتمع ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ،والعباس بن عبد المطلب وأنا مع أبى . والفضل مع أبيه فقال أحدهما لصاحبه: ما يمنعنا أن نبعث هذين إلى النبى ﷺ ليستأمنهما على هذه الأعمال من الصدقات . . . وذكر الحديث . فقال النبى ﷺ : « ادع لى محمية بن جزء ـ وكان على الصدقات ـ فأمره أن يُصدِّق عنهما مهور نسائهما . أخرجه الثلاثة) (٢) .

وأكرمه رسول الله ﷺ فزوج ابنته لابن عمه الفضل بن عباس (زوَّج رسول الله ﷺ ابنة محمية من الفضل بن عباس فولدت له أم كلثوم بنت الفضل ، تزوجها أبو موسى الأشعرى .

والحارث بن جزء أخو محمية بن جزء . وابنه عبد الله بن الحارث لهما صحبة . وعبد الله بن الحارث هذا آخر من مات من الصحابة فى مصر) (٣) . ومن إكرام رسول الله ﷺ له (أن النبى استوهب أبا قتادة جارية وضيئة فوهبها لمحمية بن جزء) .

ب ـ عمرو بن معد يكرب

كان عمرو فارس العرب مشهوراً بالشجاعة . وكان شاعراً محسناً ، ومما يستجاد من شعره :

أعاذلَ عُدتي يزنـيِ (٤) ورمـحيِ ... وكل مُقلَّصٍ سَلِس القيادِ
أعَاذلَ إنمـا أفـنى شبابـيِ ... إجابتى الصريخ إلى المنـادى
مع الأبطال حـتى سلَّ جسميِ ... وأقْرَحَ عاتقى ثقلُ النجـادِ (٥)
ويبقى بعد حلم القـوم حلـميِ ... ويَفْنَى قـبل زاد القـوم زادىِ

(١ ، ٢) أسد الغابة لابن الأثير ٤ / ٣٣٤ ، وهو عند مسلم (١٠٧٢) .
(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤١٢ .
(٤) يزنى : أى برمح يزنى ، نسبة إلى ذى يزن ، وفى رواية : بدنى وهو الدرع ، ولعلها الصواب .
(٥) ثقل النجاد : حمائل السيف .

تَمَنَّى أن يلاقينى قُبَيْسٌ ... وددت وأينما منى ودادى
فمن ذا عاذرى من ذى سِفَاه ... يرودُ بنفسه شر المراد
أريد حِبَاءَهُ ويريد قتلى ... عَذِيرَكَ من خليلك من مُراد (١)

وكان فارس اليمن بلا منازع .

(وقال عمرو لقيس بن مكشوح المرادى حين انتهى إليهم أمر رسول الله ﷺ : يا قيس ، إنك سيد قومك . وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له : محمد قد خرج بالحجاز يقول إنه نبى . فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه . فإن كان نبيًا كما يقول فإنه لن يخفى عليك وإذا لقيناه اتبعناه . وإن كان غير ذلك علمنا عِلمَه ، فأبى عليه قيس ذلك وسفَّه رأيه فركب عمرو بن معد يكرب حتى قدم على رسول الله ﷺ . فأسلم ، وصدقه وآمن به فلما بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد عمرًا وتحطَّم عليه وقال : خالفنى وترك رأيى .

فقال عمرو بن معد يكرب فى ذلك :

أمرتك يوم ذى صنعاء ... أمرًا باديًا رُشَدُهُ
أمرتك باتقاء الله ... والمعروف تتعدُه
خرجت من المنى مثل ... الحميرِ غرَّه وتده
تمنانى على فرس ... عليه جالس أسدُه
علىَّ مفاضة (٢) كالنهى (٣) ... أخلص ماءه جددُه (٤)

هذا ما يتمناه قيس بن مكشوح أن يلقى فارس العرب عمرو بن معد يكرب على فرسه ، وعليه درعه . فما هى نتيجة اللقاء ؟ يجيب عليها عمرو بقوله :

فلو لاقيتنى للقيت ... ليثاً فوقه لبده (٥)
تُلاقى شنبتا (٦) شثن (٧) ... البراثن (٨) ناشزًا كتدُه

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٩١ .
(٢) المفاضة : الدرع الواسعة . (٣) النهى : غدير الماء .
(٤) الجدد : الأرض الصلبة .
(٥) اللبد : جمع لبدة وهو : ما على كتفى الأسد من الشعر .
(٦) الشنبت : الذى يمسك بقرنه ولا يتركه .
(٧) شثن : الغليظ الأصابع .
(٨) البراثن : للسباع بمنزله الأصابع للإنسان .

يسامـــــــــــــي القـــــــرن إن قرْنُ تيمـــمه فيعتضـــــده (١)
فيأخـــــذه فيرفعــــــــه فيخفضـــــــه فيقتصـــــدهُ (٢)
فيدمغـــه (٣) فيحطـــمه (٤) فيخضَمـــــه (٥) فـــــيزدرده (٦)
ظلـــــوم الشِّرْكِ فيمـــــا أحرزت أنيابـــــه ويـــــدهُ (٧)

لكننا نرى مع فروسية عمــرو وزعامته وشجاعته لا يـوليه رسول الله ﷺ إمارة قومه. إنما يترك فروة بن مسيك المرادى أميراً على مذحج كلها .ولا أقل من أن يكون عمرو بن معد يكرب على زبيد قومه وعشيرته .

ومع كل هذا الشعر ، ومع مواجهة قيس بن مكشوح ، وتسفيه رأيه ، والتخلى عنه . والمضى قدماً إلى المدينة ودخوله فى الإسلام بقوة وحزم ، وتهديد قيس بن مكشوح بقتله . وابتلاعه كما يبتلع الأسد فريسته . مع هذا كله أبقى رسول الله ﷺ فروة بن مسيك أميراً عليه وعلى قومه .

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى : فأقام عمرو بن معد يكرب فى قومه من بنى زبيد وعليهم فروة بن مسيك فلما توفى رسول الله ﷺ ارتد عمرو وقال حين ارتد :

وجدنا ملك فــروة شــــر مــــلكٍ حماراً ساف (٨) منخره بثـــفر (٩)
وكـــــنت إذا رأيت أبا عمــــيرٍ ترى الحُولاء (١٠) من خبث وغدر

فعمرو لم يخلص من عبوديته لذاته مثل ما خلص فروة . ومن أجل هذا سرعان ما ارتد عن الإسلام وخاض بقومه حروباً ضد المسلمين حتى أُخذ أسيراً . ومضى به إلى أبى بكر فأعلن إسلامه من جديد . وخاض حرب القادسية مع المسلمين وأبلى بلاءً حسناً.

---

(١) يعتضده : يأخذه تحت عضده فيصرعه .
(٢) يقتصده : يقتله .
(٣) فيدمغه : يصيب دماغه .
(٤) يحطمُه : يكسره .
(٥) يخضمه : يأكله .
(٦) يزدرده : يبتلعه .
(٧) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٧٦ .
(٨) ساف : شم .
(٩) الثفر : من البهائم بمنزلة الرحم من الإنسان .
(١٠) الحُوَلاء (بضم الحاء وفتح الواو) جلدة ماؤها أخضر تخرج مع الولد . يشبه المهجو بما فيه من خبث غدر بهذه الحولاء .

كما أن قيس بن مكشوح المرادى عاد ثانية فأسلم وحسن إسلامه .

لقد مثل الثلاثى الكبير . عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وقيس بن مكشوح المرادى، وطليحة بن خويلد الأسدى أعظم صور التوبة الصادقة والخلوص للإسلام بعد الردة . واستفاد المسلمون من شجاعتهم ونكايتهم بالحرب واستشهدوا فيها . من دون أن يستلموا قيادة عسكرية حيث رفض عمر رضي الله عنه أن يولى قيادة لمرتد عن الإسلام مهما حسن إسلامه .

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال :

(والله لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة .

ولقد اتهمنا ثلاثة نفر ، فما رأينا كالذى هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم ؛ طليحة ابن خويلد الأسدى وعمرو بن معد يكرب ، وقيس بن المكشوح) .

أما وصف أهل القادسية فكان : (والله إن الجيش لذو أمانة ، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت : وايم الله على فضل أهل بدر لقد تتبعت من أقوام منهم هنات فيما أحرزوا ما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم) .

جـ - وفد زُبيْد

لقد حكمت زُبيد من فروة بن مسيك،وتولى صدقاتها خالد بن سعيد بن العاص :

(ولما كانت السنة التى توفى فيها رسول الله ﷺ رأت زبيد قبائل اليمن تقدم على رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام ،مصدقين برسول الله ﷺ، يرجع راجعهم إلى بلادهم وهم على ما هم عليه .

وكان رسول الله ﷺ استعمل على صدقاتهم خالد بن سعيد بن العاص . وأرسله مع فروة بن مسيك . . .) .

وانتظرت زُبيد أن يوجَّه منها وفد للمدينة مثل بقية الوفود يلتقى برسول الله ﷺ، ويقبس من هداه . ولكن دون جدوى . فالوفود غادية رائحة وهم مكوث فى قومهم . فكان لابد من مبادرة تخرجهم من هذا النأى الذى هم فيه وصارحوا أميرهم بذلك قائلين :

(والله لقد دخلنا فيما دخل فيه الناس ، وصدَّقنا بمحمد ﷺ ، وخلّينا بينك وبين

صدقات أموالنا . وكنا لك عوناً على من خالفك من قومنا .

قال خالد : قد فعلتم .

قالوا : فأوفد منا نفراً يقدمون على رسول الله ﷺ ويخبرونه بإسلامنا ويقبسونا منه خيراً .

فقال خالد : ما أحسن ما عدتم إليه وأنا أجيبكم) .

لقد كان خالد ينتظر طلبتهم أن يفدوا إلى رسول الله ﷺ . وكانت زُبيد تنتظر أن يرُسل خالد منها وفداً إلى المدينة . ومع هذا الانتظار القلبى ساء ظن الفريقين . يقول خالد رضي الله عنه :

(ولم يمنعنى أن أقول لكم هذا إلا أنى رأيت وفود العرب تمر بكم فلا يهيجنكم ذلك على الخروج فساءنى ذلك منكم حتى ساء ظنى فيكم . وكنتم على ما كنتم عليه من حداثة عهدكم بالشرك فحسبت أن يكون الإسلام راسخاً فى قلوبكم) (١) .

وانقشعت الظنون . وقدمت زُبيد إلى رسول الله ﷺ . وقبست من مشكاة النبوة مثل ما قبست بقية قبائل العرب .

ولعل هذا الوفد قد تحرك بعد وفادة عمرو بن معد يكرب الأولى إلى المدينة .

لكن رواية الطبقات تشير إلى أن هذا الوفد قد قدم مع عمرو بن معد يكرب كما فى رواية عن الواقدى .

تقول الرواية :

(أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى عبد الله بن عمرو بن زهير عن محمد بن عمارة . . . قال :

قدم عمرو بن معد يكرب الزبيدى فى عشرة نفر من زبيد بالمدينة فقال :

من سيد أهل هذه البحرة من بنى عمرو بن عامر ؟

فقيل له : سعد بن عبادة .

فأقبل يقود راحلته حتى أناخ ببابه فخرج إليه سعد فرحب به وأمر برحله فحط

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٢٠ .

وأكرمه وحباه . ثم راح به إلى رسول الله ﷺ فأسلم هو ومن معه وأقام أياماً ثم أجازه رسول الله ﷺ بجائزة وانصرف إلى بلاده وأقام مع قومه على الإسلام .

فلما توفى رسول الله ﷺ ارتد ، ثم رجع إلى الإسلام وأبلى يوم القادسية وغيرها) (١) .

وهذا مشهد من مشاهد بلائه ﵁ :

(... عن الشعبى قال : قال عمرو بن معد يكرب : إنى حامل على الفيل ومن حوله ـ لفيل بإزائهم ـ فلا تدعونى أكثر من جزر جزور فإن تأخرتم عنى فقدتم أبا ثور ، فأنى لكم مثل أبى ثور ! فإن أدركتمونى وجدتمونى وفى يدى السيف فحمل فما انثنى حتى ضرب فيهم وستره الغبار فقال أصحابه : ما تنتظرون ؟ ! ما أنتم بخلقاء أن تدركوه وإن فقدتموه فقد المسلمون فارسهم .

فحملوا حملة فأفرج المشركون عنه بعدما صرعوه وطعنوه ، وإن سيفه لفى يده يضاربهم . وقد طُعِن فرسه فلما رأى أصحابه ، وانفرج أهل فارس ، أخذ برجل فرس رجل من أهل فارس ،فحركه الفارسى فاضطرب الفرس فالتفت الفارسى إلى عمرو فهمَّ به وأبصره المسلمون فغشوه فنزل عنه الفارسى ، وحاصر إلى أصحابه . فقال عمرو : أمكنونى من لجامه ، فأمكنوه فركبه (٢) .

وعن قيس بن حازم قال : مرَّ بنا عمرو بن معد يكرب وهو يحضض الناس بين الصفين وهو يقول :

إن الرجل من هذه الأعاجم إذا ألقى مزراقه فهو تيس فبينما هو كذلك يحرضنا إذ خرج إليه رجل من الأعاجم فوقف بين الصفين فرمى نشابة فما أخطأت سبة قوسه وهو متنكبها .

فالتفت إليه فحمل عليه فاعتنقه ثم أخذ بمنطقته فاحتمله فوضعه بين يديه . فجاء به حتى إذا دنا منا كسر عنقه . ثم وضع سيفه على حلقه فذبحه ثم ألقاه ثم قال : هكذا فاصنعوا بهم .

فقلنا : يا أبا ثور .من يستطيع أن يصنع كما تصنع) (٣) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٢٨ .
(٢) تاريخ الطبرى ٢ / ٤١٩ .
(٣) المصدر السابق ٢ / ٤١١ .

ولهذا كان موطن ثقة سعد فى الحرب مع زميله قيس بن مكشوح وطلحة بن خويلد فكانوا هم أبداً طلائع القوم إلى العدو . وكثيراً ما كان يخشى من تهورهم وإشعالهم الحرب مع العدو قبل الإذن قائلاً لعمرو : قال سعد : (يا عمرو : الخير والسلامة أحب إلى من مصاب مائة بقتل ألف تعمد إلى حلبة فارس فتصادمهم بمائة) .

٦ ـ بنو رهاء بن منبه بن حرب بن علة بن جلد بن مذحج

لقد رأينا لمذحج أولاداً أربعة مراد بن مذحج وعنس بن مذحج وسعد العشيرة بن مذحج ورابعهم جلدْ بن مذحج وولده بنو رهاء .

أ ـ الوفد الأول : عمرو بن سبيع

قال : (أخبرنا هشام بن محمد الكلبى قال : حدثنى عمرو بن هزان بن سعيد الرهاوى عن أبيه قال :

وفد منا رجل يقال له : عمرو بن سبيع إلى النبى ﷺ فعقد له رسول الله ﷺ لواءً فقاتل بذلك اللواء يوم صفين مع معاوية) .

وليس بين أيدينا عنه إلا عواطفه الجياشة وهو يجوب الفيافى على ناقته . ويصعد الجبال ويقطع الوهاد وهو يحلم بلحظة لقائه مع حبيبه المصطفى ﷺ .

(فقال فى إتيانه النبى ﷺ :

إليك رسول الله أعملت نصها (١)   تجوب الفيافى سملقاً (٢) بعد سملق
على ذات ألواح أكلفها السرى   تخب برحلى مرة ثم تعنِقُ (٣)
فما لك عندى راحة أو تلجلجى (٤)   بباب النبى الهاشمى الموفق
عتقت إذاً من رحلة بعد رحلة   وقطع دياميم (٥) وهم مؤرق

فقد أجهد ناقته ، وكلفها السرى تجوب فيافى الأرض بين إسراع وسير .ولن تذوق الراحة حتى تنيخ بباب النبى الهاشمى عندها ترتاحين من متابعة الرحلة وقطع الصحارى والهم المؤرق لتحقيق هذا الهدف .

---

(١) النص : التحريك حتى يستخرج أقصى سير الناقة .
(٢) السملق : الأرض المستوية الجرداء .
(٣) أعنق : إذا سارع وأسرع .
(٤) تلجلجى : أن تبرك فلا تنهض .
(٥) الديمومة : الصحراء البعيدة الأرجاء يدوم السير فيها .

ب ـ وفد الرهاويين

روى الطبرانى برجال ثقات عن قتادة الرهاوى ﷺ قال : لما عقد لى رسول الله ﷺ على قومى أخذت بيده فودعته فقال رسول الله ﷺ :

« جعل الله التقوى زادك ، وغفر لك ذنبك ، ووجهك للخير حيثما تكون » .

فهذا ما علمناه من نص الحديث أن رسول الله ﷺ جعل ولاية القوم ورئاستهم لقتادة بن عياش الرهاوى . ولا نملك عنه أية معلومات أكثر من ذلك . أما معلومات الوفد فقد ذكرها ابن سعد فقال : (أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى أسامة بن زيد عن زيد بن طلحة التيمى قال : قدم خمسة عشر رجلاً من الرهاويين وهم حى من مذحج على رسول الله ﷺ سنة عشر . فأتاهم رسول الله ﷺ فتحدث عندهم طويلاً. وأهدوا لرسول الله ﷺ هدايا منها فرس يقال له : المرواح . وأمر به فشورً [1] بين يديه فأعجبه فأسلموا وتعلموا القرآن والفرائض . وأجازهم كما يجيز الوفد أرفعهم اثنتى عشرة أوقية ونَشًا وأخفضهم خمس أواق ثم رجعوا إلى بلادهم . ثم قدم منهم نفر فحجوا مع رسول الله ﷺ من المدينة وأقاموا حتى توفى رسول الله ﷺ . فأوصى لهم بجادٍّ مائة وسق بخيبر فى الكتيبة جارية عليهم ـ وكتب لهم كتاباً . فباعوا ذلك فى زمان معاوية) [2] .

---

(١) يقال : شار الدابة يشورها إذا عرضها لتباع .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

٧ ـ وفد صداء بن يزيد بن حرب بن علة بن جلد بن مذحج

أما حديث صداء فممتع لوضوحه وجلائه . حيث نعيش من خلاله فى مدرسة النبوة كأنا نراه رأى عين .

لقد أراد رسول الله ﷺ أن يغزو اليمن ، كى تنقاد إلى الإسلام ، فاختار قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى رضي الله عنه لذلك . وقيس هو ابن زعيم الخزرج سعد بن عبادة وهو سيد عظيم مثل أبيه وينتهى فى الأرومة إلى أهل اليمن ، وقد رأينا كيف أن فروة بن مسيك المرادى سيد مراد اختار الضيافة عند سعد بن عبادة رضي الله عنه . وكان هذا الأمر بعد عمرة الجعرانة . فإذا كان الحجاز قد دان لرسول الله ﷺ بعد هزيمة هوازن . فلابد من توجيه الطاقات نحو اليمن

قال ابن سعد رحمه الله : (لما انصرف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ثمان بعث قيس بن سعد بن عبادة إلى ناحية اليمن وأمره أن يطأ صُداء . فعسكر بناحية قناة فى أربعمائة من المسلمين) (١) . وشاء قدر الله عز وجل أن يتحرك زياد بن الحارث الصدائى فى الوقت الذى أمر رسول الله ﷺ بإرسال الجيش إلى قومه . حتى نتعلم أصول الدعوة . وكيف تحل السياسة محل الحرب . وتحقق من الأهداف ما يعجز السيف عن حله .

روى البغوى والبيهقى وابن عساكر وحسنه عن زياد بن الحارث الصدائى رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فبايعته على الإسلام . فأخبرت أنه قد بعث جيشاً إلى قومى)(٢).

إنه فرد واحد . ماذا يستطيع أن يفعل . وقد مضى الجيش . ولن تحل القضية إلا مع رسول الله ﷺ . فإما هلاك قومه . وإما نجاتهم وقد جاء هو باسمهم جميعاً فهل تفسد همته .

ويمضى الجيش ، وتقع الحرب . وتغيظ من بعدها صداء على الإسلام وعلى رسول

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢ / ٩١ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٣٢ .

الله ﷺ . ويكون هلاكها وبوارها إلى النار .

لابد أن يشحذ ذهنه . ويشغل فكره لإنقاذ الموقف . فالأمر لا يحتمل التأجيل ولا التسويف لحظة واحدة قال زياد بن الحارث :

(فقلت : يا رسول الله قد جئتك وافداً على من ورائى من قومى . فاردد الجيش وأنا لك بإسلام قومى وطاعتهم) .

إنه يعلن بين يدى رسول الله ﷺ مسؤوليته الكاملة عن صداء . وما جاء إلا لمبايعة النبى ﷺ بهذا الدين باسمه وباسم قومه جميعاً .

إنه الإسلام ماذا يريد من الناس ؟ هل يريد أن يحقق أمجاداً تتحكم فى الأرض ! أم يريد قلوباً تنعم بدفء الإسلام وحلاوة العقيدة ؟ لا شك أنه يريد الثانية . ولهذا ما كان لجيش أن يغزو حتى ينذر القوم قبل الغزو يدعوهم إلى الإسلام .

لكن الجيش قد عسكر فى قناة وهو ماضٍ لتوه إلى صداء .

وقبل رسول الله ﷺ أن يعيد جيشاً عن وجهته أمام تعهد فرد واحد من القوم . فقال له دون تردد ولا تلجلج : « اذهب فردهم » .

فقلت : يا رسول الله ، إن راحلتى قد كلَّت .

فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فردَّهم من صدر قناة .

وكيف لا تكلُّ راحلته . وقد أعمل نصها من اليمن إلى المدينة كما قال أخوه عمرو ابن سبيع :

إليك رسول الله أعملت نصها ... تجوب الفيافى سملقاً بعد سملق
على ذات ألواح أكلفها السرى ... تخب برحلى مرة ثم تعبق
فما لك عندى راحة أو تلجلجى ... بباب النبى الهاشمى الموفق

وقد أناخت ببابه . ولقى حبيبه المصطفى ﷺ ، وبايعه على الإسلام . فأنى لها الآن بعد مسيرة أكثر من شهر أن تخب وتعنق حتى تبلغ الجيش فى قناة ؟ لابد من ناقة ذلول مرتاحة . تقوم بالمهمة . وحرص رسول الله ﷺ على تحقيق الهدف من دون أن يدع لأخى صداء أن يبحث فى الأمر . فقد غدت سلامة صداء تهمه كما تهم أخا صداء. ولو كانت نفوس الجيش سوف تتألم ووجوههم سوف تتمعر أن حيل بينهم وبين الجهاد فى سبيل الله .

وماذا بعد عودة الجيش ؟

ماذا يفعل أخو صداء لتنفيذ تعهده بقومه وإسلامهم .

قال زياد : وكتب إلى قومى كتاباً فقدم وفدهم بإسلامهم .

(وعند ابن سعد. فقدم بعد ذلك على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً منهم).

وعند زعيم الخزرج سعد بن عبادة ينيخوا رواحلهم كما أناخها من قبل سيد مراد فروة بن مسيك . (فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله ، دعهم ينزلوا على. فنزلوا عليه ، فحباهم وأكرمهم وكساهم ثم راح بهم إلى رسول الله ﷺ فأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ على من وراءهم من قومهم) .

إنه سعد بن عبادة والد قيس بن سعد قائد الجيش العائد الذى كان مكلفاً بغزو صداء . وهذا زياد ﷺ ميمون النقيبة الشاب القائد ينقذ قومه من الحرب ، ويتعهد بإسلامهم أمام رسول الله ﷺ ،ويوقف جيشه عن الزحف ، ويحضر الوفد الصدائى . خمسة عشر رجلاً ـ من كبار صداء ، إنها شجرة نسب واحدة تجمعهم مع الأنصار . وما أسعد سعد بن عبادة الذى تتحدث الركبان بكرمه وجوده أن يكون أهله من صداء ضيوفاً عليه. وهم من وجوه أهل اليمن .

يقول ابن الأثير عن جود سعد : (وكان سيداً جواداً وكان هو صاحب راية الأنصار فى المشاهد كلها ، وكان وجيهاً فى الأنصار وذا رياسة وسيادة . وكان يحمل إلى النبى ﷺ كل يوم جفنة مملوءة ثريداً ولحمًا تدور معه حيث دار ، ويقال : لم يكن فى الأوس ولا فى الخروج أربعة مطعمون يتوالون من بيت واحد إلا قيس بن سعد بن عبادة ابن دليم وله ولأهله فى الجود أخبار حسنة) (١) .

زياد أمير قومه :

وأمام إسلام وفد صداء وفرحة المدينة به ، أدرك رسول الله ﷺ بثاقب نظره أن هذا الشاب زياد يملك كل مقومات القيادة والزعامة .

وقال زياد : فقال لى رسول الله ﷺ : « يا أخا صداء ، إنك لمطاع فى قومِك » ، قال قلت : بل هداهم الله للإسلام) .

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٢ / ٣٨٣ .

ومن خلال هذا الجواب رأى رسول الله ﷺ اختلاط الإسلام بأعماق فؤاد زياد فلم يثر ثناء رسول الله ﷺ غروره وتيهه . بل زاد من تواضعه وتطامنه . فقال لرسول الله ﷺ : « بل هداهم الله للإسلام » .

فلم يُثر الثناء النبوى عنجهيته وعجبه،والثناء ممن ؟ من سيد ولد آدم .إنما أثار كامن الإيمان فى نفسه وأعاد الفضل إلى الله عز وجل لا إلى ذاته وشخصه بأن الله هو الذى هداهم وليس زعامته لهم وطاعتهم له . وهذا هو الذى يريده المصطفى ﷺ من قادته . يريد القائد المسلم . وليس القائد فقط (فقال لى رسول الله ﷺ : « ألا أؤمرك عليهم ؟ » ، فقلت : بلى يا رسول الله .

فكتب لى كتاباً أمَّرنى فيه .

فقلت : يا رسول الله مرُ لى بشىء من صدقاتهم .

قال : « نعم » . فكتب لى كتاباً آخر .

مدرسة النبوة . واستقالة الأمير :

سمع رسول الله ﷺ لهذا الأمير أن يدخل مدرسة القيادة العليا للتدريب على المواصفات العليا للقائد . وأول مواصفات القائد هو الجندية التامة لله ولرسوله .

قال زياد (وكان ذلك فى بعض أسفاره . ونزل رسول الله ﷺ منزلاً . فأتاه أهل ذلك المنزل يشكون عاملهم ويقولون : أخذنا بكل شىء بيننا وبين قومه فى الجاهلية . فقال النبى ﷺ : « أفعل ذلك ؟ » ، قالوا : نعم ، فالتفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه وأنا فيهم فقال :

« لا خير فى الإمارة لرجل مؤمن ») .

وفزع زياد فزعاً كبيراً أليس هو الآن أمير قومه . فكيف إذن : لاخير فى الإمارة لرجل مؤمن (قال زياد : فدخل قوله فى قلبى . ثم أتاه آخر فقال : يا رسول الله أعطنى .

فقال رسول الله ﷺ : « من يسأل الناس عن غنى فصداع فى الرأس ، وداء فى البطن » .

فقال السائل : أعطنى من الصدقة . فقال رسول الله ﷺ :

« إن الله عز وجل لم يرض فيها بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك ؛ وإن كنت غنياً فإنما هى صداع فى الرأس وداء فى البطن » ، ويح أمير صداء ماذا يسمع . أليس معه كتاب بشىء من صدقات قومه ؟

ماذا يوجد فى مدرسة القيادة العليا من مفارقات . برفقة القائد الأعظم ﷺ (قال زياد : فدخل فى قلبى أنى سألته من الصدقات وإنى غنى) .

ثم إن رسول الله ﷺ اعتشى من أول الليل فلزمت غرزه وكنت قريباً منه فكان أصحابه ينقطعون عنه ويستأخرون عنه ، حتى إذا لم يبق معه أحد غيرى . فلما كان أذان الصبح أمرنى فأذنت . فجعلت أقول : أقيم الصلاة يا رسول الله ؟

فجعل رسول الله ﷺ ينظر ناحية المشرق إلى الفجر ويقول : « لا »،حتى إذا طلع الفجر . نزل رسول الله ﷺ فذهب لحاجته ثم انصرف إلىَّ وتلاحق أصحابه : « هل من ماء يا أخا صداء ؟ » .

فقلت : لا ، إلا شىء قليل لا يكفيك .

فقال رسول الله ﷺ : « اجعله فى إناء ثم ائتنى به » .

ففعلت . (وفى رواية) . . قلت : معى شىء فى إداوتى . فقال : « صبه » فصببته فى قعب فوضع كفه فى الماء ، فقال زياد :

فرأيت بين كل إصبعين من أصابعه عينًا تفور .

ثم قال لى رسول الله ﷺ :

« يا أخا صداء ، لولا أنى أستحيى من ربى عز وجل لسقينا واستقينا ، ناد فى أصحابى من له حاجة فى الماء ؟ » .

فناديت فيهم فأخذ من أراد منهم شيئاً .

ويكاد زياد لا يمسك عقله إنه يفرك عينيه هل هو فى حلم ؟ لا ، إنه ينظر ، وبين كل إصبعين من أصابعه عين تفور . يخشى أن يكون واهماً يحدج النظر ، نعم ، إنها عيون تفور من أصابعه .

وحتى يذهب الانبهار والشك عنه جاءه الصوت النبوى يلامس شغاف قلبه .

« يا أخا صداء لولا أن أستحيى من ربى لسقينا واستقينا » .

وزاد الأمر جلاء أكثر فأكثر : فقال له : « ناد فى أصحابى من له حاجة فى الماء» .

ونادى . وجاء الناس . وأخذوا حاجتهم من الماء .

إنه يعرف ذلك الماء الذى كان فى قعر القعب . والذى لم يكن يكفى لوضوء رسول الله ﷺ . فما بال الماء يفور بين أصابعه . ويأتى الناس فيأخذون حاجتهم من الماء .

إنه رسول الله حقا .

ولأمر ما كانت هذه المعجزة . مقررة لشخص زياد بالذات . فله على ما يبدو مهمة أعمق وأبعد من مهمة القيادة العليا . ولذلك اختصه رسول الله ﷺ بهذه المعجزة التى أعطاها الله له .

وهو يريد أن يمتحن هذه الشخصية الفذَّة ، المطاعة فى قولها كيف تتصرف ، وقد سمعت : « لاخير فى الإمارة لرجل مؤمن » . وكتاب الإمارة معه .

وسمعت « وإن كنت غنياً عنها فإنما هى صداع فى الرأس وداء فى البطن » وكتاب الصدقات له معه ، ورأت بين كل إصبعين من أصابعه عيناً تفور ، ولم يكن معه إلا شىء قليل لا يكفى لوضوء فرد .

هذه هى أسئلة الامتحان الكبرى الثلاثة . لسبر هذه الشخصية الفذّة . إضافة إلى تكليفه شخصياً بالآذان بين المسلمين .

(ثم قام رسول الله ﷺ إلى الصلاة . فأراد بلال أن يقيم . فقال له رسول الله ﷺ : « إن أخا صداء هذا أذَّن . ومن أذَّن فهو يقيم » .

قال الصدائى : فأقمت الصلاة . فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة . أتيته بالكتابين . . .) .

ها هو ﷺ يقدم إجابة أسئلة الامتحان الثلاثة .

(. . . أتيته بالكتابين فقلت : يا رسول الله أعفنى من هذين الكتابين .

فقال لى رسول الله ﷺ : « ما بدا لك ؟ » .

فقلت : سمعتك تقول : « لا خير فى الإمارة لرجل مؤمن » . وأنا مؤمن بالله تعالى ورسوله وسمعتك تقول للسائل : « من سأل الناس عن غنى فصداع فى الرأس

وداء فى البطن » .

وقد سألتك وأنا غنى .

فقال رسول الله ﷺ : « هو ذاك فإن شئت فاقبل ، وإن شئت فدع » .

فقلت : أدع) .

لقد نجح زياد رضوان الله عليه فى الامتحان الذى يعتبر أعسر الامتحانات فى تاريخ الإنسان ؛ امتحان التخلى عن السلطة بعد أن صارت فى يده والتخلى عن المال بعد أن صار فى يده . وسلَّم الكتابين لرسول الله ﷺ .

لكن ما هى المهمة التى يعد رسول الله ﷺ زياداً لها هى فى سلم الوظيفة النبوية أعظم من الإمرة ؟ إنها الدعوة .

لكن هل تبقى صداء بدون أمير ؟

إن زياداً لو لم يوكل له اختيار أمير صداء ، قد لا يُعفى من المسؤولية . وإن زياداً هو الذى يضع الأمير وهو الذى يعزله . وذلك بعد أن نجح فى أعسر امتحانات الإنسان المسلم . امتحان التخلى عن السلطة . لكلمة عارضة سمعها من رسول الله ﷺ : «لاخير فى الإمارة لرجل مؤمن » ، فى الوقت الذى ترك رسول الله ﷺ له الخيار فى الاستمرار أو الاستعفاء وهو الذى ولاه عليه الصلاة والسلام .

(فقال لى رسول الله ﷺ : « فدلنى على رجل أؤمره عليكم » فدللته على رجل من الوفد الذين قدموا عليه فأمره عليهم) .

إن هذا الرجل الذى اختاره زياد رضي الله عنه يملك من الكفاءة القيادية . ما يملكه زياد . لكن المسؤولية التى سيضطلع بها زياد هى أضخم من مسؤولية الإمرة . هى أن يتفرغ للدعوة إلى الله فى قومه صداء يعلمهم الإسلام والسنن والفرائض .

وما رآه زياد رضي الله عنه من قصة الماء . دفعته إلى أن يفكر بالحل المصيرى لقبيلته . فمهمة السياسى الحقيقية أن يتحسس مشاكل أمته ، ويعمل على حلها ، ويعطيها الأولوية المناسبة . وشابنا زياد رضي الله عنه يعلم أن المشكلة الكبرى لقومه صداء هى مشكلة اقتصادية بحتة . تقود صداء لحرب مع كل جيرانها . هذه هى المشكلة كما عرض أبعادها زياد على رسول الله ﷺ .

(ثم قلنا : يا رسول الله إن لنا بئراً إذا كان الشتاء كفانا ماؤها ، واجتمعنا عليها . وإذا كان الصيف قل ماؤها ، فتفرقنا على المياه حولها . وكل من حولنا لنا عدو . فادع الله لنا فى بئرنا أن يسعنا ماؤها فنجتمع عليه ولا نتفرق) .

وحل هذه المشكلة الخطيرة يذلل مصاعب الحكم أمام الأمير الجديد الذى اختاره زياد . هذا من جهة ومن جهة ثانية يجمع شمل صداء فلا تتفرق وتبقى كلمتها واحدة وطاقاتها متجمعة . وتوقف النزيف إلى خارج القبيلة . والتعايش أو الصراع مع الأعداء المجاورين .

ومن جهة ثالثة . فتكون المواجهة الحقيقة بين صداء ومن حولها . مواجهة عقيدة لا مواجهة تنازع على ماء . فتجعل الجهاد خالصاً لله عز وجل أمامها وهى تتحرك فى قلب القبائل المجاورة داعية إلى الله عز وجل . وما رآه زياد ﷺ من نبع الماء من بين أصابع رسول الله ﷺ دفعه إلى طلب الدعاء أو المعالجة ببركة النبى ﷺ لهذا الماء الذى يغور فى الصيف .

وتمت المعالجة .

(فدعا رسول الله ﷺ بسبع حصيات ففركهن بيده ودعا فيهن ثم قال : « اذهبوا بهذه الحصيات . فإذا أتيتم البئر . فألقوا واحدة واحدة واذكروا اسم الله تعالى »).

ليس حلاً نظرياً فقط . وكان يمكن أن يكون بدعوات نبوية لتفيض ماء تلك البئر . لكن الحل حل عملى بحت بالوسيلة المادية ، بالحصوات السبع . ثم الدعاء عليها ، وفركها باليد النبوية المباركة . ورافق ذلك (**كات لوج**) الاستعمال عند الوصول إلى البئر . بأن تلقى كل حصاة على حدة فى البئر ويذكر اسم الله تعالى عليها . وعندئذ تقوم بدورها فى جعل البئر ارتوازياً كأنما حفر على عمق مائة متر .

وتم استعمال الطريقة العلمية النبوية بالمواصفات الكاملة فماذا كانت النتيجة :

(وقال زياد الصدائى : ففعلنا ما قال ، فما استطعنا بعد ذلك أن ننظر إلى قعرها) (١) .

وانتهت الأزمة الاقتصادية والأزمة الوطنية ولم تعد صداء بحاجة إلى غزو للآبار المجاورة فى الصيف واستلم الأمير الجديد مهام منصبه . واستلم الداعية الجديد زياد

---

(١) وردت القصة كاملة فى سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٣٢ ، ٥٣٥ . وهى موزعة بين الأقواس .

ﷺ مهام منصبه ؛ مهام الدعوة والتعليم فى قومه . فكان هو وزير التعليم والتربية والثقافة والإرشاد فى قبيلته . وترك الإمرة للأمير الذى اختاره ، ووافق رسول الله ﷺ .

فماذا كانت ثمرة التربية .

كانت ثمرة لم نسمع مثيلاً لها فى قبيلة يمنية قط .

(وعند ابن سعد : ورجعوا ـ أى الخمسة عشر ـ إلى بلادهم ففشا فيهم الإسلام . فوافى النبى ﷺ مائة رجل منهم فى حجة الوداع) . هذا هو وفد صداء إلى الحج . فكم عدد جيش صداء وشبابها الإسلامى ؟ كل هذا لم يكن ليتم لولا تفرغ زياد ﷺ للدعوة إلى الله فى قومه وجيرانهم والعرب كافة . ورضى الله عن زياد وأرضاه .

٨ ـ بنو الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج

لا نزال بحاجة إلى أن نتعرف على خارطة مذحج ، ونفقه سر اهتمام النبى ﷺ مبكراً بصداء والحارث بن كعب خاصة من مذحج كلها ، وهذه هى الخارطة .

(ولد يزيد بن حرب بن علة صداء بطن ضخم ، ومنبه والحارث والغلى وسخان وهفان وشمران . تحالف هؤلاء الستة على ولد أخيهم صداء فسموا جَنْب . ومنهم كان معاوية بن عمرو بن معاوية . . . الذى تزوج بنت المهلهل بن ربيعة التغلبى بنجران ومهرها أدما . فقال فى ذلك أبوها :

أنكحها فقدها الأراقم فِي جنب وكان الحباء من أَدَمِ
لو بأبانين جاء يخطبها ضُرِّج ما أنف خاطب بدمِ

حالفت جَنْبُ وهم الستة المذكورون . . . بنى عمهم بنى سعد العشيرة بن مالك بن علة بن جلد بن مالك (وهو مذحج) .

وحالفت صداءَ إخوتُهم بنو الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مالك (وهو مذحج) (١) فإذا نحن أمام حلفين كبيرين .

الحِلْف الأول : يضم صداء والحارث بن كعب فقط .

والحِلْف الثانى : يضم منبه والحارث والغلى وسخان وهفان وشمران وبنو سعد العشيرة .

ومن هنا نفقه قول زياد الصدائى . وكل من حولنا لنا عدو .

ونفقه اهتمام رسول الله ﷺ بالحلف الأول صداء حيث همَّ بعد الجعرانة أن يبعث قيس بن سعد رضي الله عنه على رأس أربعمائة مقاتل إلى صداء فى اليمن .

ونفقه سر بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بنى الحارث بن كعب بنجران.

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤١٣ .

إسلام بنى الحارث بن كعب على يدى خالد ﷺ :

قال ابن إسحاق : (ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران . وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً . فإن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم .

فخرج خالد حتى قدم عليهم . فبعث الركبان يضربون فى كل وجه . ويدعون إلى الإسلام ويقولون : أيها الناس أسلموا تسلموا . فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه. فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ . وبذلك كان أمر رسول الله ﷺ إن هم أسلموا ولم يقاتلوا . . .) (١) .

خالد بن الوليد ﷺ خلق قائداً عسكرياً ، ولم يخلق داعية أو أميراً سياسياً . ولكن لابد من تدريبه على الدعوة فالطريق طويل أمامه . فهو سيف الله المعد لمواجهة كل أعداء الله فى الأرض من العرب والفرس والعجم . وأى قائد عسكرى فى الإسلام لابد أن يكون داعية إلى الله عز وجل ؛ لأنه مكلف قبل خوض المعركة بأن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثة أيام فإن استجابوا أغمد سيفه ، وأطلق علمه وفقهه . أما إذا أصروا على المواجهة . فمنطق القوة والحرب غير منطق السلم والدخول فى دين الله.

وهذه من التجارب العظيمة الناجحة التى خاضها ابن الوليد ﷺ . ولا شك أن سمعته الحربية قد سبقته . فمنذ غزوة أحد لمع نجمه فى أنه استطاع ولو لمرة واحدة أن يوقف نصر المسلمين فى أحد ويوقعهم فى محنة كبيرة .

لكن أبرز أمجاده كانت بعد إسلامه فى غزوة مؤتة حيث كانت العرب تتوقع فناء جيش محمد بلقائه مع قيصر ملك الروم الذى أعد مائتى ألف مقاتل لمواجهة أربعة آلاف من المسلمين . وقال عن تلك المعركة . (لقد كسرت فى يدى تسعة سيوف ولم يثبت فى يدى إلا صحيفة يمانية) .

فتحرك خالد بن الوليد ﷺ لجيشه وقد حددت مهمته أن يدعوهم ثلاثة أيام إلى الإسلام . فإن استجابوا ولبوا النداء قبل منهم ، وإن لم يفعلوا قاتلهم .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٨٢ .

(فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ، ويدعون إلى الإسلام ويقولون : أيها الناس أسلموا تسلموا . فأسلم الناس . ودخلوا فيما دعوا إليه) .

فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وبذلك كان أمره) .

لكن إلى متى يستمر فى ذلك فهو يود أن يمضى إلى أرض جديدة وحرب جديدة ، وقوم آخرين يسلمون أو يقاتلون . فبعث إلى رسول الله ﷺ بالكتاب التالى :

(بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمد النبى رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد ، يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنك بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب ، وأمرتنى إذا لقيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا أقمت فيهم وقبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإنى قدمت عليهم فدعوتهم ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله ﷺ ، وبعثت فيهم ركبانًا قالوا : يا بنى الحارث أسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، آمرهم بما أمرهم الله ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبى ﷺ حتى يكتب إلى رسول الله ﷺ ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته) (١).

لقد نجحت مهمة خالد رضي الله عنه أيما نجاح . وعليه أن يتحرك بصفته داعية لا قائداً حربيًا يتألف قلوب الناس،ويحببهم بالإسلام ،وكتب إلى رسول الله ﷺ بإنجاز المهمة كاملة . فجاءه الجواب النبوى التالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبى رسول الله إلى خالد بن الوليد . سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد . فإن كتابك جاءنى مع رسولك تخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم . وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله . وأن محمداً عبد الله ورسوله. وأن قد هداهم الله بهداه . فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وليقبل معك وفدهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

كم الفرق بين هذه الرسالة العظيمة . وبين موقف رسول الله ﷺ بعد بعثه خالد

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٨٢ .

إلى بنى جذيمة . وبعد أن استسلم الناس للإسلام . وكيف أسروا وقتلوا لظروف وملابسات . انتهت بأن يرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء قائلاً :

« اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » ثلاث مرات وعلى ملأ من المسلمين كافة. لقد كان أقسى درس تلقاه رضي الله عنه خلال السنة الأولى من إسلامه . ولأن القوة قدمت على الدعوة . وكان فشل المهمة الدعوية آنذاك ، وعدم التثبت من الأمر والأسر رغم الإسلام ، كل هذه الأمور حُفِرت فى أغوار خالد ، ولم ينس آثارها أبدا . فما أن جاءت هذه المهمة إلا ووجدناه قد تجاوز تلك المرحلة ، وبعث رسله يدعون إلى الإسلام ويبشرون به ، ويكتفون بإعلان الناس إسلامهم حتى ليمضى هو رضي الله عنه ويلتقى الناس فى رحالهم وبيوتهم ويدعو قادتهم وزعماءهم إلى الإسلام فيستجيبون إنه يريد أن يمحو آثار غزوة بنى جذيمة من نفسه بعد أن محاها على رضي الله عنه من نفوس بنى جذيمة وودَّى قتلاهم .

ومع هذه البراءة من خالد ، ومعالجة الآثار السلبية التى نتجت عن بعثة بنى جذيمة لم يمنع هذا من تكليف رسول الله ﷺ لجنديه العظيم خالد بقيادة الفرسان فى غزوة حنين ومتابعة مهماته القتالية ، ولم يمنع من تكليفه بالمهمة الفدائية الخارقة فى استئسار أكيدر بن عبد الملك فى قلب الصحراء العربية ومن داخل حصنه . ثم كانت هذة المهمة الدعوية .

إن تربية العظماء والقادة هى من أعظم المهمات النبوية التى قام بها رسول الله ﷺ حتى تتحول نفوسهم إلى الانصياع للإسلام . وإلى الله ورسوله بدل الانصياع إلى الهوى والقوة وشهوة السلطة ونشوة الانتصار .

وعود على بدء .

فما الذى حدا برسول الله ﷺ أن يقول أمام أخى صداء زياد رضي الله عنه كما مر معنا فى الصفات السابقة « أن لا خير فى الإمارة للمؤمن ؟ » لو وقفنا مليا لنأخذ الجواب . لكان هو ما نقله المسلمون عن حاكمهم الجديد الذى ولاه رسول الله ﷺ :

« أخذنا بكل شىء بيننا وبين قومه فى الجاهلية . فقال النبى ﷺ :« أفعل ذلك !» قالوا : نعم . قال :« لا خير فى الإمارة لرجل مؤمن » .

فليس من السهولة أن يسيطر الحاكم على نفسه حين يجد أن لا سلطان فوقه من أن يستجيب لنزعاته الدفينة وثأره القديم ، والتحيز لنفسه وقومه وأهله ؛ إنه امتحان صعب صعب . ولذلك كان مما اتُهم به خالد رضي الله عنه فى بعثة بنى جذيمة أنه ثار لعمه الذى قُتل

فى بنى جذيمة ،وأنه دعا بدعوى الجاهلية فى الإسلام . وكان هذا الاتهام غير صحيح . لكن بلا شعور كان له أثر على نفسه ولا شك . وتعامل بريبة مع إسلام بنى جذيمة وأسرهم جميعاً احتياطاً ألا يكونوا يريدون الغدر فيه .

مع وفد بنى الحارث بن كعب :

(أمر رسول الله ﷺ خالداً أن يُقبل ويُقبْلَ معه وفدهم . فأقبل وأقبل معه قيس ابن الحصين ذى الغصة . ويزيد بن عبد المدان ـ ويزيد بن المحجل ـ وعبد الله بن قُراد الزيادى ـ وشداد بن عبد الله القنانى وعمرو بن عبد الله الصبابى .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ فرآهم قال :

« من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ » .

قيل : يا رسول الله ، هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب) .

واستعاد رسول الله ﷺ سِجلَّ بنى الحارث بن كعب ، ومواصفاتهم وتاريخهم فى ذهنه . وكانت طريقة التعامل معهم متناسبة فى هذه الخلفية .

(فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سلموا عليه وقالوا : نشهد أنك رسول الله وأن لا إله إلا الله . قال رسول الله ﷺ :

« وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » ، ثم قال :

« أنتم الذين إذا زُجروا استقدموا ؟ » .

فسكتوا ، فلم يراجعه منهم أحد .

ثم أعادها الثانية ، فلم يراجعه منهم أحد ، ثم أعادها الثالثة ، فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الرابعة . فقال يزيد بن عبد المدان : نعم يا رسول الله ، نحن الذين إذا زُجروا استقدموا . قالها أربع مرار) إنه تصرف غريب لايتناسب مع وفد مسلم يوجه رسول الله ﷺ سؤالا لهم . فلايجيبوه لأربع مرات . فهل هذه عملية عرض عضلات أم عملية استعلاء جاهلى من آثار جاهليتهم . يعذرون عليها أنهم حديثو عهد بالإسلام. لكن القادة لا يعذرون فى ذلك . ولأول مرة فى تاريخ الوفود العربية يبرز مثل هذا التصرف ، وطريقة الجواب كـذلك تحمل صيغة مبطنة للتحدى حيث أجاب يزيد بن عبد المدان . أربع إجـابات متـتالية : نعم يا رسول الله نحن الذين إذا زجـروا استقدموا .

ومع أن الرسول ﷺ يتعامل مع الوفود بغاية الرحمة واللين . خاصة وهى قادمة لإعلان إسلامها . نجد هنا صورة جديدة من الحزم ، تبث الرعب فى القلوب . ولم يكن يشابه هذا التنافس إلا ما كان من وفد تميم الذى جاء إلى رسول الله ﷺ . فناداه باسمه يا محمد ، يا محمد ، ثم طلبوا التنافس بالخطابة والشعر . وإن كان أولئك معذورون أنهم لم يسلموا بعد . لكن ما بال هؤلاء يقفون هذا الموقف الخشن الغليظ مع رسول رب العالمين ؟

لابد لمثل هؤلاء أن يتلقوا أول درس لهم فى مدرسة النبوة .

(فقال لهم رسول الله ﷺ :

« ولو أن خالداً لم يكتب إلىَّ أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم » .

فنحن أمام نُذُر إعلان حرب بين الفريقين .

ورفع يزيد بن عبد المدان الوتيرة أكثر فأكثر . فقال :

(أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً) .

ولم يبق إلا استلال السيوف لتكون الغلبة للأقوى .

(قال : « فمن حمدتم ؟ » قالوا : حمدنا الله الذى هدانا بك يا رسول الله) .

ويريد رسول الله ﷺ أن ينهى هذا الجو فأغضى عن ذلك الجفاء فى قوله : (ما حمدناك ولا حمدنا خالداً بعد الإقرار بالتوحيد والرسالة) .

وعاد ليثنى على الجانب الآخر من تاريخهم بسؤال جديد :

(« بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ » .

قالوا : لم نكن نغلب أحداً . قال : « بلى ، قد كنتم تغلبون من قاتلكم » .

قالوا : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحداً بظلم .

قال : « صدقتم » .

وأمَّرَ رسول الله ﷺ على بنى الحارث بن كعب قيس بن الحصين) .

لاشك أن هناك تفصيلات قد فاتتنا عن هذا الوفد وعن إجازته وعن إقامته وعن تربيته وإقامته فى جامعة النبوة وأسباب اختيار قيس ﷺ أميراً على الوفد من هؤلاء ، كل الذى نعرفه أن الوفد عاد - دون معرفتنا بتاريخ قدومه - إلا أن هذا كله قد وقع فى العام العاشر للهجرة أما عودتهم فكما يقول ابن إسحاق :

(فرجع وفد بنى الحارث إلى قومهم فى بقية من شوال أو فى صدر ذى القعدة فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفى رسول الله ﷺ) (١) .

ونتحدث تفصيلاً فيما بعد عن إرسال عمرو بن حزم إليهم ليفقههم فى الإسلام مع صيغة الكتاب الذى بعثه معه . والذى يعتبر أول وثيقة تاريخية إسلامية مكتوبة .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٨٢ ، ١٨٣ .

٩ ـ بنو النخع بن عامر بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج

أ ـ الوفد الأول : أرطاة وجُهَيش

روى ابن سعد عن أشياخ من النخع قالوا : (بعثت النخع رجلين منهم إلى النبى ﷺ وافدين بإسلامهم : أرطاة بن شراحيل بن كعب من بنى حارثة بن سعد بن مالك ابن النَخَع ، والجهيش واسمه الأرقم من بنى بكر بن عوف بن النخع . فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ . فعرض عليهما الإسلام فقبلاه وبايعاه على قومهما . فأعجب رسول الله ﷺ شأنهما وحسن هيأتهما . فقال :

« هل خلفتما وراءكما من قومكما مثلكما ؟ » .

وقالا : يا رسول الله ، خلفنا وراءنا من قومنا سبعين رجلاً كلهم أفضل منا . وكلهم يقطع الأمر وينفذ الأشياء ما يشاركوننا فى الأمر إذا كان .

فدعا لهما رسول الله ﷺ ولقومهما بخير . وقال : « اللهم بارك فى النخع » .

وعقد لأرطاة لواء على قومه . فكان فى يده يوم الفتح ، وشهد به القادسية . فقتل يومئذ. فأخذه سيف بن الحارث فدخل به الكوفة . وعن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يدعو لهذا الحى من نخع أو قال : يثنى عليهم حتى تمنيت أنى رجل منهم . رواه الإمام أحمد برجال ثقات والبزار والطبرانى) (١) .

إنهما رجلان يمثلان قومهما أصدق تمثيل فى حسن تقبلهما الإسلام ، وحسن وفادتهما على رسول الله . وحسن منطقهما . ووفرة عقلهما . ولشديد إعجابه ﷺ بهما وسألهما « هل خلفتما وراءكما من قومكما مثلكما ؟ » .

وأحس رسول الله ﷺ منهما الصدق . وأن ثناءهما على قومهما هو صحيح لا مبالغة فيه فأشار إلى أنهما أدنى قومهما ، وأن فى قومهم سبعين رجلاً من القيادات تعقد الأمور وتصدرها وتبرم الأمور وتنقضها ودون أن يستشيروا أرطاة وشراحيل . ولحسن وفادتهما ـ وحسن ثنائهما على قومهما ، ودعا رسول الله ﷺ للنخع وأثنى عليهم بشهادة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حتى ليتمنى أن يكون نخعيًا لدلالة واضحة على

(١) سبل الهدى والرشد ـ للصالحى ٦ / ٦٥١ .

أصالة هذا الفرع ، وأصالة معدنه ونبل محتده ، ويدل على هذا الوفد الثاني الذى جاء فكان مائة ، ضعف الوفد الأول، إن صورة زياد بن الحارث الصدائى تتكرر من جديد . فقد كان وفد حجة الوداع ضعف وفادته مائة رجل . وهذان العظيمان أرطاة وشراحيل يبعثان بمائتى رجل وفداً جديداً إلى المدينة ولكن هذا الأمر لم يتم عرضاً كذلك . إنما تم من خلال جهود معاذ بن جبل ﷺ والذى نتناول الحديث عنه فيما بعد .

ب ـ الوفد الثانى : وفد النخع

قال محمد بن عمر الأسلميِ : كان آخر من قدم من الوفد على رسول الله ﷺ وفد النخع . وقدموا من اليمن للنصف من المحرم سنة إحدى عشرة وهم مائتا رجل . فنزلوا دار رملة بنت الحارث ثم جاؤوا رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام . وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل باليمن ،فكان فيهم زرارة بن عمرو . قال أخبرنا هشام بن محمد : هو زرارة بن قيس بن الحارث بن عدى . وكان نصرانياً وروى ابن شاهين من طريق أبى الحسن المدائنى عن شيوخه . ومن طريق ابن الكلبى قال : حدثنى رجل من جَرْم عن رجل منهم قال :

وفد رجل من النَخَع يقال له:زرارة بن عمرو على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى رأيت فى سفرى رؤيا هالتنى ، وفى رواية رأيت عجباً قال :«وما رأيت ؟».

قال : رأيت أتانا تركتها فى الحيِ كأنها ولدت جدْياً أسفع (١) أحوى (٢) .

فقال له رسول الله ﷺ : « هل لك من أمة تركتها مُصِرَّةً حملاً ؟ » .

قال : نعم ، تركت أمة لى أظنها قد حملت .

قال : « فإنها قد ولدت غلاماً وهو ابنك » .

فقال : يا رسول الله ، ما باله أسفع أحوى ؟

قال : « ادن منيِ » . فدنا منه .

فقال : « هل بك برص تكتمه ؟ » .

قال : والذى بعثك بالحق نبياً ما علم به أحد ، ولا اطَّلع عليه غيرك .

---

(١) أسفع : أسود مشرب بحمرة .
(٢) أحوى : تأكيد له .

قال : « فهو ذلك ») (١) .

وقبل أن نتابع رؤيا زرارة هذا الذى كان من أكبر وجهاء الوفد . نقف عند الرؤيا التى هالته فكيف تلد الأتان جدياً أسفع أحوى ؟ .

وسرعان ما فسرها رسول الله ﷺ له . فالأتان هى أمته ، والجدى هو ابنه ومن يدرى فى هذه الدنيا أن أمته حامل منه . إلا رب العالمين ؟

ومع تزلزل قلبه لهذا الغيب الذى يعلمه إلا الله . والذى أيقن به أنه أمام رسول رب العالمين جاءه ما أنساه الجواب الأول : ويكاد يكون كلامه اتهاماً لأمته .

قال : ما باله أسفع أحوى ؟ قال « ادن منىِ » فدنا منه : فقال : هل بك برص تكتمه ! فلم يملك إلا أن يقسم بالذى بعثه بالحق أن هذا البرص لا يعرفه فى الدنيا أحد غيره .

ومن أجل هذا جاء أسفع أحوى .

لقد كانت الرؤى والأحلام مصدراً من مصادر المعرفة الجاهلية . وكان كهان الجن هم الذين يفسرونها فيخبطون بها خبط عشواء أنهت المجتمع الجاهلى إلى عبادة الأصنام والأوثان من خلال شياطين الإنس والجن . فجاء هذا التفسير النبوى كفلق الصبح وأدرك زرارة ﷺ أنه أمام نبى يوحى له من السماء .

(قال . يا رسول الله،ورأيت النعمان بن المنذر وعليه قرطان ودمْلجان ومَسكتان).

قال : « ذاك ملك العرب عاد إلى أحسن زيه وبهجته ») .

لقد هلك النعمان بن المنذر وقُضى على ملكه . وخاض العرب من ربيعة حرباً لا هوادة فيها من أجل خزائنه التى أودعها هانئ بن مسعود . فأى معنى لرؤية النعمان على هذه الحالة بكامل زينته .

وكان الجواب مباشرة من سيد ولد آدم الذى كتب الله على يديه عز هذه الأمة ووحدة هذه الأمة ، فهذه وفود اليمن ،من أقصى اليمن من النخع تأتى مستسلمة لمحمد ﷺ . وصارت جزيرة العرب بقيادة رسول الله ﷺ أمة مسلمة واحدة لها كتاب واحد ، ونبى واحد ورسول واحد . وتؤمن برب واحد ، وتتهيأ لتقود الأرض إلى الإسلام .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٦٥٢ .

ألم يقل رسول الله ﷺ فى مكة عندما لم يكن أتباعه يتعدون المائة قبل قرابة خمسة عشر عاماً لوفد قريش عند عمه أبى طالب :

(« كلمة واحدة تعطونيها ، تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم » .

قال له أبو جهل : هاتها وأبيك ، وعشر كلمات .

قال ﷺ : « تقولون لا إله إلا الله وتنبذون ما تعبدون من دونه ») .

فشرط ملك العرب وخضوع العجم هذه الكلمة ، كلمة التوحيد التى تجعل الخلق كافة عبيداً لله . خاضعون لشرعه . وهاهم العرب اليوم قالوها بعد أن رفضوها عشرين عاماً. فجاء ملك العرب ووحدة العرب وكما قال عليه الصلاة والسلام لزرارة عن النعمان بصفته رمزاً من رموز الملك العربى ذات يوم .

قال : « ذلك ملك العرب عاد إلى أحسن زيه وبهجته » .

وإذا أردنا اليوم أن نخلص من وضع القبائل العربية الاثنين والعشرين ، والقبائل الإسلامية الثلاثة والخمسين بعد قرن من ضياع الخلافة الإسلامية ، ويعود عز العرب من جديد . وهو أن تجتمع هذه الأمة المبعثرة الممزقة على كلمة التوحيد .

(قال : يا رسول الله : ورأيت عجوزاً شمطاء خرجت من الأرض .

قال : « تلك بقية الدنيا » .

قال : ورأيت ناراً خرجت من الأرض فمالت بينى وبين ابن لى يقال له عمرو : ورأيتها تقول : لظى لظى ، بصير وأعمى ، أطعمونى آكلكم آكلكم أهلككم ومالكم .

فقال النبى ﷺ : « تلك فتنه فى آخر الزمان » .

قال : وما الفتنة يا رسول الله ؟

قال : يقتل الناس إمامهم ثم يشتجرون اشتجار أطباق الرأس . وخالف رسول الله ﷺ بين أصابعه يحسب المسىء أنه محسن ، ودم المؤمن عند المؤمن أحلى من شرب الماء. إن مات ابنك أدركت الفتنة ، وإن مت أنت أدركها ابنك .

فقال ، يا رسول الله ، ادع الله لى ألا أدركها .فقال رسول الله ﷺ : « اللهم لا يدركها » .

فمات وبقى ابنه . وكان ممن خلع عثمان رضي الله عنه) . وحق لهذه الرؤيا أن تهوله

وبتعجب منها إن فيها تاريخ أمة ، تاريخ عزها ، وتاريخ افتراقها وذلها من خلال رموز تبرز فيها . فإذا كان النعمان ، رمزاً لصورة ملك العرب . فإن النار التى تأكل الفتنة إنما تهتاج وتأكل الأخضر واليابس بعد مقتل عثمان أمير المؤمنين رضي الله عنه . (يقتل الناس إمامهم) فقد قتلوا عثمان ، وقتلوا على ، وهاجت الفتن ، وقضى على الخلافة الراشدة . وجاء الملك العضوض. حيث يقتتل الناس على الحكم والسلطة . وأول النار التى أسعرت الفتنة هى أولئك المنافقين الذين بيتوا الأمة ليلاً وذبحوا عثمان رضي الله عنه، قال عندها وبعدها على رضي الله عنه : أكلت يوم أكل الثور الأبيض يوم قام الخوارج الجدد يدعونه ليعترف بكفره ، ثم يتوب ويسلم بعدها ، وإلا فهم عليه ، ولم يدعوه حتى قتلوه.

إن مقتل الإمام ومقتل الخلافة ، يعنى أن تتفرق الأمة شيعًا وأحزابا .

لقد قتل اليوم ـ وفى آخر الزمان ـ الخلافة دعاة القومية الطورانية والقومية العربية وأرادوها خلافة عربية على يد الحسين بن على قائد الثورة العربية على الترك . فكانت خلافاً عربياً وتركياً وهندياً وإيرانياً . ثم خلافاً جزائرياً ومغربيًا وخليجيًا وعراقيا ، وقامت على أكتاف هذه الخلافات جميعاً دولة اليهود فى الأرض ، ولم يكف قرن واحد ليعيد لهذه الأمة وعيها . ويجمعها من جديد على النبى الواحد والكتاب الواحد والرسول الواحد لعبادة الرب الواحد .

لقد قدمت رؤيا زرارة رضي الله عنه لنا معالم العز ومعالم الذل .

أما معالم العز . بالدينونة لرب العالمين ـ والتبنى للإسلام شرعة ومنهاجاً فهو طريق عز هذه الأمة ، وأما معالم الذل : فقتل الإمام الواحد ـ والتفريق بين أبناء الأمة حتى لتحول الفتنة بين زرارة وابنه عمرو . وما لنا نبعد ، ورسول الله ﷺ يسأل وفد بنى الحارث بن كعب عن سر قوتهم وعزهم: قائلاً : « بم كنتم تغلبون أعداءكم ؟ » ،قالوا : نجتمع ولا نتفرق . ولا نبدأ أحداً بظلم .

إنها دعوة لشعوب هذه الأمة العربية والأمة المسلمة أن تجتمع ولا تتفرق . ولا تبدأ أحداً بظلم وأول الظلم الذى ترفعه عن شعوبها التى تذوق الويلات من حكامها فمن خلال حكمهم بقوة السيف بغير ما أنزل الله . وكلما برزت صحوة فى الأمة تكاد تقبل بالإسلام إلى سدة الحكم . سرعان ما يباشر الطغاة الفتك فيها قبل أن تصل . ولهذا يبقى الحكام متفرقين . ويعيشون فى الظلم من رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم . ونرفع

لهم كلمة رسول الله ﷺ يلتقون عليها فهى طريق عزهم ومجدهم وجاههم : « كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم . تقولون لا إله إلا الله ، وتنبذون ما تعبدون من دونه » فهل من مجيب ؟

رابعًا
الأزد

١ـ ولد مازن بن الأزد .

أ ـ الأنصار .　　ب ـ غسان .

جـ ـ وفد بارق .

د ـ عرفجة بن هرثمة البارقى .

هـ ـ أبو صفرة .

٢ ـ ولد نصر بن الأزد :

أ ـ وفد غامد .　ب ـ وفد ثمالة والمدان .

جـ ـ الطفيل بن عمرو الدوسى .

د ـ أبو هريرة الدوسى .

هـ ـ وفد أزد شنوءة .　　و ـ وفد جرش .

ز ـ وفد أزد عمان .

ح ـ سلمة بن عياذ الأزدى .

فروع الأزد

الأزد : هو أدد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

وقد ولد الغوث أدد ومن نسله كان الأزد . وولد عمراً ومن نسله كانت أنمار فأنمار والأزد بنو عمومة متقاربة .

ولد الأزد : مازن ، ونصر ، وعمرو ، وعبد الله ، والهنو ،وقداد، والأهبوب . وكان لمازن ونصر النسل الأكبر .

١ ـ ولد مازن بن الأزد

أ ـ الأنصار

الأوس والخزرج هم ولد ثعلبة العنقاء بن عمر ومزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد .

وقد حفل المنهج التربوى كله بالحديث عنهم فرعًا وأصلاً وشخصًا .

وبهم شرف العرب بعد رسول الله ﷺ والمهاجرين .

وهم الذين تشرفوا بثناء الله تعالى عليهم فى كتابه المنزل ، وهم قرة عين النبى ﷺ وكرشه وعيبته وأحب الناس إليه . فلا داعى لتكرار الحديث عنهم بعد ذلك .

ب ـ غسان

غسان : هم بنو الحارث وجفنة ومالك وكعب بن عمرو ومزيقياء بن عامر ماء السماء ابن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد .

وقد سبق الحديث عنهم فيمن تشاءم به وسكن الشام ، وأقاموا دولة الغساسنة فى الشام ولهم ملوكهم وأشرافهم . وقد تناولناهم تفصيلاً من قبل .

جـ ـ وفد بارق

بارق : وهو سعد بن عدى بن حارثة بن عمر مزيقياء بن عامر ماء السماء .

قال ابن سعد رحمه الله : (قدم وفد بارق على رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا وبايعوا وكتب لهم رسول الله ﷺ :

« هذا كتاب من محمد رسول الله لبارقٍ لا تجذ ثمارهم ولا ترعى بلادهم فى مربع ولا مصيف إلا بمسألة منهم . ومن مرَّ بهم من المسلمين فى عرك [1] أو جدب فله ضيافة ثلاثة أيام . وإذا أينعت ثمارهم فلابن السبيل اللقاط يوسع بطنه من غير أن يقتثم[2] . شهد أبو عبيدة بن الجراح وحذيفة بن اليمان وكتب أبى بن كعب) [3] .

وليس لدنيا تفصيلات يمكن الوقوف عندها فى هذا الوفد إلا الإشارة إلى أن تحديد الأراضى وتوزيعها على القبائل كان له الدور الأكبر فى الانتقال من مرحلة القبيلة إلى مرحلة الوطن والدولة . فلم تعد الأراض نهبة للأقوى ، ولم تعد الحياة اليومية تقوم على الغارات. وتراق الدماء، وتقوم الثارات من أجل ذلك ، ويأكل القوى الضعيف . بينما جاء الإسلام . وكل قبيلة تود أن تحصل على وثيقة وصك تمليك من رسول الله ﷺ حتى لا يجرؤ أحد أن يعتدى على مال وملك أحد .

ومع هذا التوزيع للملكية فى الأرض العربية . فلابد من تعاون أبان الأزمات . فكل عربى ـ يمر بأرضهم وقد جف ماؤه وأجدبت أرضه من حقه الضيافة ثلاثة أيام . كما أن من حق ابن السبل أن يأكل مما يلتقطه بيده شبع بطنه دون أن يكسر غصنًا ، أو يجتث شجرة .

وبتبع حق ملكية الأرض حق استثمارها ، ومنع الاعتداء عليها من أحد .

فلا تجذ ثمارهم ولا ترعى بلادهم .

وبذلك تبقى حقوقهم محفوظة بأمر شرعى . وصك نبوى . ويعرفون فى الوقت نفسه الحقوق والواجبات المترتبة على هذه الحقوق لأبناء السبيل . وللضيف .

د ـ عرفجة بن هرثمة البارقى

لقد كان قائدًا عند الصديق ﷺ .

(فبعث أبو بكر الصديق حذيفة بن محصن الغلفانى ـ وعرفجة البارقى من الأزد ؛ حذيفة إلى عمان . وعرفجة إلى مهرة . . . فظفروا بالمرتدين) [4] .(وكان أبو بكر قد

(١) عَرْك : تجريد الأرض من المرعى . (٢) يقتثم : يجتث ولا يبقى له أصلا .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤٢٢ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٥٢ .
(٤) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٩١ .

أمد به أيضًا جيفر بن الجلندىِ بعمان كما ارتد أهلها) (١) وكان قائدًا عند عمر رضي الله عنه .

وهو الذى أمر به عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان لما ولاه أرض البصرة . وكتب إليه : (إنى أمددتك بعرفجة بن هرثمة ، وهو ذو مجاهدة ومكايدة للعدو فإذا قدم عليك فاستشره) (٢) . وهو الذى شارك فى فتح الموصل .

وكتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر فى اجتماع أهل الموصل إلى الأنطاق فكتب إليه عمر : أن سرح إلى الأنطاق عبد الله بن المغنم العبسى وعلى مقدمته ربعى بن الأفكل العنزىِ وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة البارقى . وذكر الحديث فى فتح تكريت والموصل) (٣) .

لكن لعرفجة رضي الله عنه قصة نحن بحاجة لذكرها ، حيث لم يبرز فى قومه ـ بارق ـ إنما برز مع الأزد وبجيلة وقد توضحت قبيل حرب القادسية فى العراق .

فقد استجاب عمر رضي الله عنه لطلب جرير بن عبد الله سيد بجيلة . وجمع له شتات قبيلته الذى كان مبعثرًا فى قبائل العرب والتقى القوم عند أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فى المدينة. والسيدان العظيمان هناك عرفجة بن هرثمة . وجرير بن عبد الله البجلىِ .

(فاستعمل ـ أى عمر ـ عرفجة على من كان مقيمًا على جديلة من بجيلة . وجريراً على من كان من بنى عامر وغيرهما وقد كان أبو بكر ولاه قتال أهل عُمان فى نفر ، وأقفله حين غزا فى البحر . فولاه عمر عُظمة بجيلة (٤) وقال : اسمعوا لهذا . وقال للآخرين : اسمعوا لجرير . فقال جرير لبجيلة (عشيرته): تقرون هذا ؟ وقد أدخل عليه ما أدخل ، وقد كانت بجيلة غضبت على عرفجة فى امرأة منهم .

فاجتمعوا ـ أى بجيلة ـ فأتوا عمر فقالوا : اعفنا من عرفجة . فقال :

لا أعفيكم من أقدمكم هجرة وإسلامًا وأعظمكم بلاء وإحسانا . فقالوا : استعمل علينا رجلاً منا ولا تستعمل علينا نزيقًا فينا (٥) . فظن عمر أنهم ينفونه من نسبه . فقال: انظروا ما تقولون ! قالوا : نقول ما تسمع . فأرسل إلى عرفجة . فقال : إن القوم استعفونى منك . وزعموا أنك لست منهم .

فما عندك ؟ قال : صدقوا . وما يسرنى أنىِ منهم . أنا امرؤ من الأزد . ثم من

(١ ـ ٣) أسد الغابة لابن الأثير ٣ / ٤٠٠ ، ٤٠١ .

(٤) عُظم بجيلة : الأكثرية الساحقة منهم .

(٥) نزيقًا فينا : دخيلاً فينا وليس من عشيرتنا .

بارق . فى كهف لا يحصى عدده وحسب غير مؤتشب [1] . فقال عمر :

نعم الحى الأزد . يأخذون نصيبهم من الخير والشر . قال عرفجة :

إنه كان من شأنى أن الشر تفاقم فينا . ودارنا واحدة ، فأصبنا الدماء ، ووتر بعضنا بعضا [2] فأعتزلتهم لما خفتهم . فكنت فى هؤلاء أسودهم وأقودهم . فحفِظوا [3] على لأمر دار بينى وبين دهاقينهم . فحسدونى وكفرونى .

قال: لا يضرك ، فاعتزلهم إذا كرهوك .

واستعمل جريراً مكانه .

وعاد عرفجة رضي الله عنه إلى زعامة قومه الأزد وبارق بعد أن دخلوا جميعًا فى الإسلام. ووجههم عمر رضي الله عنه إلى العراق .

(قدم على عمر غزاة بنى كنانة والأزد فى سبعمائة جميعًا . فقال : أى الوجوه أحب إليكم ؟ قالوا : الشام أسلافنا ، أسلافنا (أى غسان) فقال : ذلك قد كفيتموه ، العراق العراق ذروا بلدة قد قلل الله شوكتها وعددها واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش ، لعل الله أن يرزقكم بقسطكم من ذلك . . .

فقال غالب بن عبد الله الليثى ، وعرفجة البارقى كل واحد منهما لقومه وقاما فيهم: يا عشيرتاه أجيبوا أمير المؤمنين إلى ما يرى . وأمضوا له ما يسكنكم . قالوا : إنا قد أطعناك . وأجبنا أمير المؤمنين إلى ما أراد .

فدعا لهم عمر بخير وقاله لهم . وأمَّر على بنى كِنانة غالب بن عبد الله الليثى وسرَّحه . وأمر على الأزد عرفجة بن هرثمة وعامتهم من بارق . وفرحوا برجوع عرفجة إليهم . فخرج هذا فى قومه ، وهذا فى قومه ،حتى قدموا على المثنى)[4] .

هـ ـ أبو صفرة

من ولد العتيك بن الأزد .

روى ابن مندة ، وابن عساكر والديلميِ عنه بمحمد بن غالب بن عبد الرحمن بن يزيد بن المهلب بن أبى صفرة قال : حدثنى أبى عن آبائه أن أبـا صفـرة قدم على

(١) حسب غير مؤتشب : حسب غير مجهول ولا مختلط .
(٢) وتر بعضنا بعضًا : أنقص وصارت الثارات بيننا .
(٣) حفظوا على : حقدوا على .
(٤) تاريخ الطبرى ٢ / ٣٧٠ ، ٣٧١ .

رسول الله ﷺ على أن يبايعه . وعليه حلة صفراء ، وله طول ومنظر وجمال وفصاحة لسان . فلما رآه أعجبه ما رأى من جماله فقال له : « من أنت ؟ » قال :

أنا قاطع بن سارق بن ظالم بن عمر بن شهاب بن مرة بن الهقام بن الجلند بن المستكبر الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا ، أنا ملك بن ملك .

فقال له النبى ﷺ :

« أنت أبو صُـفرة دع عنك سارقًا وظالمًا » .

فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك عبده ورسول حقًا حقًا يا رسول الله وإن لِي ثمانية عشر ذكراً ،وقد رُزقت بأُخْرة بنتًا سميتها صفرة . فقال رسول الله ﷺ : «فأنت أبو صُفرة » .

* * *

وليس فى هذا الوفد مايثير . إنما يلفت النظر هذا البناء النفسى الذى انهار عند أبى صفرة ﷺ . والبناء النفسيِ الذى أقيم مكانه.

لقد جاءَ يحمل نفسية الاستعلاء والاستكبار التى تكاد تطامن السماء فهو أولاً يأخذ باللب لجماله وقامته وطوله . ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون : ٤] (وقد أعجبه ما رأى من جماله).أما أين ينتسب فهو ينتسب إلى الظلم والقطيعة والمرارة والنار والاستكبار . إنه نسلهم جميعًا يمثل منطق القوة الذى لا منطق فوقه (ابن المستكبر) الذى يأخذ كل سفينة غصبا،إنها المباهاة بالظلم والصلف والاعتداء بالقوة والتسلط فهو ملك بن ملك . ويحق للملك أن يفعل ما يشاء برعيته . ومن جهة ثالثة . فهو ملك ببنيه . عنده ثمانية عشر ذكرًا يستطيع أن يخوض بهم حربًا وحدهم . فهو وخلفه وسلفه كأنما جاء شريكًا ينازل محمدًا ويقارعه بالسلطان والنفوذ . فكيف قابل رسول الله ﷺ هذا العجب والتيه والصلف والتكبر والغرور . عالجه بكلمة واحدة . صكت عقله وقلبه كما لو نفذت رصاصة إلى داخل هذا العقل وهذا القلب . فأصاب هذا البناء النفسى عنده فانهار جملة واحدة وصار ركامًا به وبسرعة فائقة أقيم محله هذا البناء النفسى الجديد .

« أنت أبو صفرة . دع عنك سارقًا وظالما » .

لقد كانت الرصاصة التى نفذت إلى قلبه هى كلمة صفرة . وأنه أبو صفرة . ومن أدرى محمدًا بامر مولودته التى قد لا تتجاوز الأشهر . ثم من أدراه بأن اسمها صفرة .

إنه قد يصارع فى كل شيء فى القوة والنسب والمال والبنين . لكن أنى له أن يصارع ويصاول بالنبوة . فهذه القضية لا يعرفها إلا نبى موحى إليه من رب العالمين . فلهذا ترك سارقًا ظالمًا وترك نسبه وترك ولده . وهتف من أعماق قلبه : أشهد أن لا إله إلا الله . وأشهد أنك عبده ورسوله حقًا حقًا يا رسول الله .

فهذا التتمة توحى بمدى تغلغل الإيمان فى قلبه (حقا حقا يا رسول الله) . تعنى استسلامه الكامل لله رب العالمين الذى أعطى نبيه وصفيه ورسوله هذه المعلومات الخاصة به .

إن لى ثمانية عشر ذكرًا وقد رزقت بأخرة بنتًا سميتها صُفرة .

وحتى يلوى عنان نفسه نهائيا إلى التواضع والبعد عن الاعتزاز بغير الله ، عن الاعتزاز بأولاده الثمانية عشر ذكرًا ويكتفى بأن يكنى باسم هذه البنية الصغيرة صفرة . فيكون أبا صفرة .

وقبل باختيار رسول الله ﷺ له . قبول هذه الكنية الجديدة بالطفلة الصغيرة فماذا أعطاه الله بذلك ؟ لقد أعطاه من أولاده الثمانية عشر هؤلاء . من ولده المهلب نسلاً مضى قرونًا يصنع التاريخ الإسلامى ، ويقود الحرب ضد الخوارج فى العهد الأموى والعهد العباسى ويكفى أن نعلم أن ولده المهلب بن أبى صفرة أبا هذه القبيلة كان له (نحو ثلاثمائة ولد . أعقب منهم تسعة عشر . وأعقابهم بالبصرة وبغيرها ـ فمن ولد يزيد بن المهلب ، المهلب ولى فلسطين ومن ولد عمرو بن يزيد بن المهلب كان بنو ثعلبة المتملكون على إحدى عدوتى فاس . ونصر بن حبيب بن يزيد بن المهلب ولى البصرة . وولد حاتم بن قبيصة روح وزيد كلاهما ولى أفريقية والسند وولى إبراهيم بن عبد الله السند ومكران . . .) (١) .

فنحن أمام عائلة سياسية محاربة اعترف لها الملوك بمكانتها فتكون إما والية أم مقتولة حين تثور على الخليفة وتحاول أن تستبد بالسلطة وخلدهم الشعر ، وكان منهم كذلك شعراء وفقهاء ومحدثون لقد انتقل هذا الملك من الجاهلية إلى الإسلام ،وامتد أكثر من قرن يمد الدولة الإسلامية بالقيادات والفاتحين .

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

٢ ـ من ولد ناصر بن الأزد

أ ـ وفد غامد

قال فى زاد المعاد : قال الواقدى رحمة الله تعالى:(وقدم وفد غامد سنة عشرٍ وهم عشرة فنزلوا بقيع الغرقد وهو يومئذ أثل (١) وطرفاء (٢) ثم انطلقوا إلى رسول الله ﷺ وخلفوا عند رحلهم غلاماً أحدثهم سناً فنام عنه،وأتى سارق فسرق عيبة لأحدهم فيها أثواب له . وانتهى القوم إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وأقروا له بالإسلام وكتب لهم كتاباً فيه شرائع من شرائع الإسلام وقال لهم:« من خلفتم فى رحالكم ؟» فقالوا : أحدثنا سنا يا رسول الله ، قال : « فإنه قد نام عن متاعكم حتى أتى آت أخذ عيبة أحدكم » فقال رجل من القوم:يا رسول الله،ما لأحد من القوم عيبة غيرى ؟فقال رسول الله ﷺ:« فقد أخذت وردت إلى موضعها » فخرج القوم سراعًا حتى أتوا رواحلهم فوجدوا صاحبهم فسألوه عما أخبرهم رسول الله ﷺ قال :

فزعت من نومى ففقدت العيبة فقمت فى طلبها فإذا رجل قد كان قاعداً فلما رآنى صار يعدو منى فانتهيت إلى حيث انتهى فإذا أثر مفر ، وإذا هو قد غيب العيبة ، فاستخرجتها ، فقالوا:نشهد أنه رسول الله فقد أخبرنا بأخذها وأنها قد ردت فرجعوا إلى النبى ﷺ فأخبروه وجاء الغلام الذى خلفوه فأسلم وأمر النبى ﷺ أبىَّ بن كعب ﷺ فعلمهم قرآناً وأجازهم رسول الله ﷺ كما كان يجيز الوفود وانصرفوا) .



كما رأينا فى الوفد السابق وفد أبى صفرة بشخصه ووفد غامد العشرة . فهؤلاء القوم قادمون ليلتقوا مع رجل يكلَّم من السماء ، مع بشر يوحى إليه من الله ، مع رسول موفد من رب العالمين إلى الناس كافة . فلابد أن يروا علامة ينقلونها إلى قومهم تدل على نبوته وصلته بالله ، وتميزه عن البشر العاديين . لقد كان الكهنة فى المجتمع العربى أعلى الناس منزلة فيه ؛ لأنهم يتحدثون عن الغيب ويعرفون أشياء لا يعرفها الناس. لكنهم لم يدَّعوا النبوة والنقل عن الله . إنما يتلقون عن الشياطين ما يسترقونه من السمع. ويبثونه للناس .فتصدق واحدة ، وتكذب أخرى وأخرى .

---

(١) الأثل : شجر وحداته أثلة .

(٢) الطرفاء : شجر وهى أربعة أصناف منها الأثل ومفردها : طرفة محركة ، وبها لقب طرفةُ بن العبد .

وكان المنهج النبوى فى التربية يقوم على تحرير العقول ابتداء من الخرافة وعبادة الأصنام والدعوة إلى التوحيد الخالص والإيمان بالله الواحد . وبعد أن تعلن هذه العقول هذا الإيمان تأتى المعجزة الحسية لتُطمئن القلب البشرى أكثر وأكثر .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ ﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

وأرى الله تعالى نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام معجزة إحياء الموتى بصورة حسية بعد أن آمن بها بقناعة قلبية وجدانية ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة] .

الإيمان لابد أن يباشر ابتداء قناعة فى العقل وقبولاً فى القلب ولأن المعجزة الحسية يأتى دورها مع وجود النبى ﷺ وحين لا يكون النبى المصطفى موجوداً فهل يتوقف الإيمان ؟ أبداً وهؤلاء الذين سماهم رسول الله ﷺ إخوانه لأنهم آمنوا به ولم يروه .

« وددت أنى رأيت إخواننا » قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال : « أنتم أصحابى وإخوانى الذين يأتون من بعدى الذين آمنوا بى ولم يرونى » [1].

وهذا وفد غامد، جاء مع الوفود سنة عشر وسلموا وأقروا له بالإسلام ، وكتب لهم كتاباً فيه شرائع من شرائع الإسلام وأكدوا أن إيمانهم ليس متوقفاً على معجزة حسية بالنبوة ، وتأتى المعجزة بعدها لتثبيت هذا الإيمان وترسيخه وازدياد اليقين الحسى فيه فقص عليهم قصة عيبة صاحبهم وسرقتها وعودتها إلى مكانها وهو جالس معهم لم يغادرهم ، ولم يخرج ليلقى أحداً يحدثه عما جرى تفصيلاً فيعودون إلى رحالهم ويحدثهم الغلام الذى تركوه عند أمتعتهم عن تفصيل الحادثة وعن العيبة كيف سرقت ، وكيف عدا وراء السابق، وكيف وقع فى حفرة كان قد خبأ فيها العيبة وكيف فرَّ تاركًا العيبة والغلام يطارده، قانعاً من الغنيمة بالإياب وفرح الوفد فرحاً عظيماً بتطابق الوصف النبوى مع الواقع العملى، وعادوا ليعلنوا فرحتهم أمام رسول الله ﷺ الذى صدق حديثه فى وصف الواقع الذى شهدوه حياً على الأرض لم ينسوا الغلام ودوره فى الإيمان ومضى معهم إلى رسول الله ﷺ وأسلم وحسن إسلامهم وتلقى القرآن من فم رسول الله ﷺ ثم أدخلهم دورة سريعة جامعة الإسلام، وأوكل أبى بن كعب رضي الله عنه بإدارة هذه الدورة العظيمة أعظم مقرئى القرآن فى المدينة ومع الزاد العلمى العظيم الذى عادوا فيه كان

(١) ابن ماجه (٤٣٠٦) .

لابد كذلك من الإكرام المادى لهم فأجازهم كما يجيز الوفد ، وأعادهم إلى أهلهم سالمين غانمين . يتحدثون بما رأوا وسمعوا وشاهدوا ليقودوا قومهم إلى القرآن وبالقرآن ، ويكونوا إحدى الموجات المجاهدة فى سبيل الله فيما بعد .

ب ـ وفد ثمالة والحدان : من ولد نصر بن الأزد

قالوا : قدم عبد الله بن عسل الثمالى . ومسلمة بن هاران الحدانى على رسول الله ﷺ فى رهط من قومهما بعد فتح مكة . فأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ على قومهم، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا بما فرض عليهم من الصدقة فى أموالهم كتبه ثابت بن قيس بن شماس ، وشهد فيه سعد بن عبادة ، ومحمد بن مسلمة [1] .

قالوا : وكتب رسول الله ﷺ لوفد ثمالة والحدان :

هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبادية الأسياف ، ونازلة الأجواف مما حازت صحار ليس عليهم فى النخل خراص ولا مكيال ، مطبق حتى يوضع فى الفداء . وعليهم فى كل عشرة أوساق وسق . وكاتب الصحيفة ثابت بن قيس بن شماس . شهد سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة [2] .

بينما ينفرد ابن حجر فى الإصابة ينقل شعرٍ لمسلمة بن هاران الحدانيِ .

وذكره الرشاطى ، ووفد على النبى ﷺ بعد الفتح ومدحه بشعر منه :

حلفت برب الراقصات إلى منـــــى ... طوالع من بين القصيمـــة والركـــب

بأن رسـول اللــه فيـــنا محـمـــــدًا ... له الرأس والقاموس من سلفى لعــب

أتانـا ببرهـــان مـــن اللـــه قابـــسٍ ... أضاء به الرحمن من ظلمـة الكــرب

أعــز به الأنصــار لمـــا تقاربـــــت ... صدور العوالى فى الحوادس والضرب

وكذلك أورد له المرزبانى هذه الأبيات[3] .

* * *

المسافة بين ثمالة والحدان بعيدة . لكن الوفد هو الذى جمع بينهما .

فثمالة : هو عوف بن أسلم بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٤٦٣ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٨٦ .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/ ٤١٩ .

نصر بن الأزد .

والحدان : هو ابن شمس بن عمر بن غالب بن عثمان بن نصر بن زاهر بن كعب ابن عبد الله بن مالك بن النصر بن الأزد

كما أن الذى جمع بين عبد الله الثمالىِ ومسلمة الحدانى هو تفتح قلبهما للإسلام منذ وقت مبكر . فقد كان فقد كل واحد منهما مع قومه بعد فتح مكة فى العام الثامن للهجرة :أىِ قبل عام الوفود بسنة وسنتين فقد امتدت الوفود طيلة العام التاسع والعام العاشر للهجرة .

ونُقلت لنا مشاعر مسلمة رضي الله عنه فى حبه العظيم لرسول الله ﷺ وهو يقسم برب الإبل المَسرعات إلى منى بأن محمداً ﷺ سليل ابن كعب بن لؤىِ وفخرهم هو حقًا رسول الله . ولا أدل من هذا الكتاب المنزل معه الذىِ يخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربه إلى صراط العزيز الحميد ، وهؤلاء الأنصار الأزديون أقرباء مسلمة هم الذين كانوا حومة الوعى عندما التمعت السيوف والرماح فكانوا هم حماة الأديار وقلعة الصمود كما قال سيدهم فى البراء بن معرور وهو يبايع رسول الله ﷺ بقوله : (يوم العقبة الكبرى) .

بايعنا يا رسول الله ، فإنا نحن أهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر .

وكما قال سعد بن معاذ رضي الله عنه باسم الأنصار فى بدر : فامضِ يا رسول الله ، لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد إنا لصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ عند اللقاء . فسر بنا على بركة الله لعل الله يريك منا ما تقر به عينك .

هؤلاء الأنصار الذين أثنى عليهم مسلمة بن مهران الحدان . مع وفد قومه بعد الفتح .

ولم يمض الوفدان حتى صدر الأمر النبوى بتحديد ملكيتى القبيلتين وحدودهما . وحرية الحركة الزراعية عندهما دون تدخل الدولة ما أدوا العشر مما سقته السماء ، فمن عشرة أوسق وسق واحد صدقة . وبارك الله لهم بمالهم بعد أداء حق الله فيه . ويبقى الصك الشرعى بيدهما إن دهمتهما قوات معادية من قبائل أخرى .

لم يكن وفد ثمالة والحدان هو الوفد الأول . فقد كان الرائد الأول للأزد حتى قبل انضمام الأنصار للإسلام هو الطفيل بن عمرو الدوسى رضي الله عنه منذ فجر العهد المكى لقد كان رائدًا وحيدًا ابتداءً ، ثم قاد قومه إلى الإسلام . وجاء بهم على أعقاب خيبر .

جـ ـ الطفيل بن عمرو الدوسى : من ولد نصر بن الأزد

هذا هو النسب البعيد . لكن النسب القريب هو انتماؤه لزهران فهو :

الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاصِ بن ثعلبة بن سُليم بن غُنم بن دوس .

ودوس هو ابن عدثان بن عبد الله بن زهران .

وزهران هو ابن كعب بن مالك بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك ابن نصر بن الأزد ، إنها إعادة ذكرى مجد هؤلاء القوم بهذا الصحابى العظيم الذى سبق أن تحدثنا عنه مع الرعيل الأول من المهاجرين ، وتحدثنا عنه مع وفد قومه عقب خيبر فى السنة السابعة للهجرة . وها نحن نعيد ذكره اليوم للمهمة الكبرى التى كلف بها فى هذا العام التاسع للهجرة عام الوفود .

(يلقب بذىِ النور أخبرنا أبو موسى كتابة ،أخبرنا . . . عن ابن إسحاق قال :

كان الطفيل بن عمرو يحدث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها . فمشى إليه رجال من قريش .

وكان الطفيل رجلاً شريفًا شاعرًا لبيبا . قالوا له :

يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذىِ بين أظهرنا قد أعضل بنا (١) . وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه . وبين الرجل وبين زوجته . وإنا نخشى عليك وعلى قومك ،ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنّه ولا تسمعن منه شيئا .

قال: فوالله مازالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه ، حتى حشوت فى أذنىِ حين غدوت إلى المسجد كرسفًا (٢) فرقًا من أن يبلغنى شىء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة .قال: فقلت منه قريبًا ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله . قال : فسمعت كلامًا حسنًا ، فلت فى نفسى : واثكل أبى ، والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى علىَّ الحسن من القبيح . فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذى يأتى به حسنًا قبلتُه . وإن كان قبيحًا تركته .

قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا ادخل بيته

---

(١) أعضل بنا : اشتد أمره .

(٢) الكرسف : القطن .

دخلت عليه فقلت :

يا محمد ، إن قومك قد قالوا لِي كذا وكذا للذِي قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى حشوت أذنيِ بكرسفة لئلا أسمع قولك . ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك فسمعته قولاً حسنا ما سمعت قولا قط أحسن منه فاعرض على أمرك .

قال: فعرض على رسول الله ﷺ الإسلام،وتلا علىَّ القرآن .فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه . قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق) .

الطفيل مع قومه :

وقلت : يا نبى الله إنى امرؤ مطاع فيِ قومى . وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام. فادع الله أن يجعل لى آية تكون لِي عونًا عليهم فيما أدعوهم إليه فقال: « اللهم اجعل له آية » قال: فخرجت إلى قومى ، حتى إذا كنت بثنية (١) تطلعنيِ على الحاضر ، وقع نور بين عينى مثل المصباح فقلت : اللهم فى غير وجهيِ . إنيِ أخشى أن يظنوا بى مثلة وقعت فى وجهيِ لفراقيِ دينهم .

فتحول . فوقع فى رأس سوطِى . فجعل الحاضر(٢) يتراءون ذلك النور فى سوطِى كالقنديل المعلق وأنا أهبط عليهم من الثنية حتى جئتهم فأصبحت فيهم .

فلما نزلت أتانيِ أبيِ . وكان شيخًا كبيراً . فقلت إليك عنى يا أبت . فلست منك ولست منى قال : ولم يا بنى ؟ قلت : أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ . قال : أيِ بنى ، فدينى دينك قلت : فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك . ثم تعال حتى أعلمك ماَ علمت . قال : فذهب فاغتسل ، وطهر ثيابه ، ثم جاء ثم أتتنى صاحبتى . فقلت : إليك عنيِ فلست منك ولست منيِ . قالت : لم ؟ بأبى أنت وأمى . قلت : قد فرق بينى وبينك الإسلام ، وتابعت دين محمد ﷺ . قالت : فدينى دينك . قلت : فاذهبيِ إلى حنا ذيِ الشرى ـ وكان ذو الشرى صنما لدوس . وكان الحمى حمىً حموه له . وبه وشل (٣) من ماء يهبط من جبل .

فقالت : بأبيِ أنت وأميِ ، أتخشى على الصبية من ذيِ الشرى شيئًا . قلت :لا . أنا ضامن لذلك . فذهبت واغتسلت . ثم جاءت فعرضت علَيها الإسلام فأسلَمَتْ .

ثم دعوت دوسًا إلى الإسلام فأبطؤوا علىَّ . ثم جئت رسول الله بمكة) .

الطفيل الداعية :

ثم دعوت دوسًا إلى الإسلام فأبطؤوا على . ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة فقلت

---

(١) الثنية : الفرجة بين جبلين .
(٢) الحاضر : القوم النازلون على ماء.
(٣) الوشل : الماء القليل .

له : يا نبى الله : إنه غلبنى على دوس الزنا ، فادع الله عليهم . فقال :

« اللهم اهد دوسًا ، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم » .

قال : فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ ومضى بدر وأحد والخندق . ثم قدمت رسول الله ﷺ بمن أسلم معيِ من قوميِ ورسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين .

الطفيل المجاهد :

(ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ حتى إذا فتح الله عليهم مكة . قلت يا رسول الله . ابعثنى إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حممة حتى أحرقه .

قال ابن إسحاق : فخرج إليه ، فجعل طفيل يوقد عليه النار ويقول له :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حشوت النار فى فؤادكما

قال : ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فكان معه معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله ﷺ . فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين . فسار معهم حتى فرغوا من طليحة ، من أرض نجد كلها . ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل) .

الطفيل الشهيد :

ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل . فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة . فقال لأصحابه : إنى قد رأيت رؤيا فاعبروها لى ؛ رأيت أن رأسيِ حلق ، وأنه خرج من فميِ طائر ، وأنه لقيتنى امرأة فأدخلتنى فى فرجها . وأرى ابنى يطلبنى حثيثا ثم رأيته حبس عنى . قالوا :خيرا . قال:أما أنا والله فقد أولتها . قالوا : ماذا ؟ قال :

أما حلق رأسيِ فوضعه ، وأما الطائر الذى خرج من فميِ ، فروحيِ ، وأما التى أدخلتنى فى فرجها فالأرض تحفر ليِ فأغيب فيها . وأما طلب ابنى إياى ثم حبسه عنى . فإنى أراه سيجتهد أن يصيبه ما أصابنى ، فقتل رحمه الله شهيداً باليمامة ـ وجرح ابنه جراحة شديدة .ثم استبل[١] منهما ، ثم قتل عام اليرموك شهيداً [٢] .

واكتفينا هنا بالتذكير بدوس وسيدها التى تم الحديث عنها فى التربية القيادية .

---

(١) استبل : شفى .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢ / ١٩ ـ ٢١ ، وأسد الغابة لابن الأثير ٣ / ٥٤ ـ ٥٥ ما عدا العناوين الجانبية فهى للمؤلف .

وبانضمام دوس إلى قيادة هذه الأمة وخيريتها الذين عوملوا معاملة أهل بيعة الرضوان . وأسهم لهم رسول الله ﷺ كما أسهم لأهل خيبر .

ولا يمكن تجاوز دوس دون الحديث عن رواية حديث رسول الله ﷺ. وسيد من سادات هذه الأمة وهو :

د ـ أبو هريرة الدوسى: عبد الرحمن بن صخر

أسلم عام خيبر وشهدها مع رسول الله ﷺ ثم لزمه وواظب عليه رغبة فى العلم فدعا له رسول الله ﷺ ـ كما روى أبو سعيد المقبرى عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أسمع منك أشياء فلا أحفظها . قال : « ابسط رداءك فبسطته ». «فحدَّث حديثًا كثيراً فما نسيت شيئًا . .» وحدثنا الترمذى . . . عن ابن عمر أنه قال لأبى هريرة :

(أنت كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثه (كما أخرج مسلم بسنده عن الأعرج) عن أبى هريرة قال :

(إنكم تقولون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ والله الموعد .

كنت رجلاً مسكينًا أخدم رسول الله ﷺ على ملء بطنى ،وكان المهاجرون يشغلهم الصفق فى الأسواق . وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم . وقال رسول الله ﷺ : « من يبسط ثوبه فلن ينسى شيئًا سمعه منى فبسطت ثوبى حتى قضى حديثه ثم ضممته إلىّ فما نسيت شيئًا سمعته بعد) .

قال البخارى : روى عن أبى هريرة أكثر من ثمانمائة رجل من صاحب وتابع .

واستعمله عـمر على البحرين ثم عـزله ـ ثم أراده على العمل . فامتنع وسكن المدينة. وبها كانت وفاته قال خليفة : توفِى أبو هريرة سنة سبع وخمسين وهو ابن ـ ثمان وسبعين سنة . قيل : مات بالعقيق وحمل إلى المدينة . وصلى عليه الوليد بن عتبة . وكان أميرًا عليها) (١) .

هـ ـ وفد أزد شنوءة

روى ابن سعد رحمه الله تعالى عن منير بن عبد الله الأزدى قال : قدم على رسول الله ﷺ صرد بن عبد الله الأزدى فى وفد من الأزد بضعة عشر رجلاً فنزلوا

(١) أسد الغابة لابن الأثير ، مقتطفات ٥/٣١٦ ، ٣١٧ .

على فروة بن عمرو فحباهم وأكرمهم ، وأقاموا عنده عشرة أيام فأسلموا وكان صُرَدُ أفضلهم فأمره رسول اللهﷺ على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد من يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن فخرج صُرَدُ يسير بأمر رسول الله ﷺ حتى نزل بجُرش - وهى يومئذ مدينة حصينة مغلقة بها قبائل من اليمن قد تحصنوا بها وقد ضوت إليهم خثعم فدخلوها معهم حتى سمعوا بمسير المسلمين إليهم، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا فحاصرهم شهراً أو قريباً منه، وكان يغير على مواشيهم فيأخذها ، ثم تنحى عنهم إلى جبل يقال له: شكر فظنوا أنه قد انهزم فخرجوا فى طلبه حتى أدركوه فصف صفوفه فحمل عليهم هو والمسلمون فوضعوا سيوفهم فيهم حيث شاؤوا. وأخذوا من خيلهم عشرين فرساً، فقاتلوهم عليها نهاراً طويلاً .



نحن الآن مع وفد ووافد جديد من الأزد الذين يطلق عليهم أزد شنوءة هو صرد ابن عبد الله الأزدى ممثلا الأزد كافة مع خمسة عشر رجلاً منهم ،وكما نزلت بعض الوفود على كبار الشخصيات الإسلامية أمثال سعد بن عبادة رضي الله عنه فينزل هذا الوفد على فروة ابن عمرو البياضى، وهو عقبى بدرى شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبقى الوفد عشرة أيام فى ضيافته، أما الدخول إلى الحرم النبوى الجامعى، فكان يستغرق النهار كله لاستماع القرآن والتفقه فى دين الله واللقاء مع رسول الله ﷺ، ونظر رسول الله ﷺ فى رئيس الوفد صرد بن عبد الله الأزدى وسبر معدنه فرآه مؤهلاً بمقومات القيادة التى لديه ويحسن إسلامه حيث كان تحت المراقبة والدراسة خلال هذه الأيام العشرة رآه رسول الله ﷺ أهلاً ليكون أحد أركانه فى الأزد (فأمره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، لأن الكافرين لن يرضوا إمرته ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، فرسول الله ﷺ يجعل فسحة كافية للتربية قبل المواجهة والجهاد وكان يحرص عليه الصلاة والسلام على إبعاد المواجهة قبل التمكن الإسلامى فى القلوب والنفوس حتى لا تأخذ المواجهة واجهة جهادية إسلامية وتكون فى واقعها صورة من صور أيام العرب فى الجاهلية .

نجد هنا منحى جديداً مختلفاً عما كان عليه مع بقية الوفود هو فى دعوة صرد بن عبد الله الأزدى وحزبه الإسلامى الذى انضم له إلى مواجهة المشركين من قومهم وغير قومهم بعد دعوتهم إلى الإسلام، وحين كان إمام البشرية ﷺ يفتح باب هذا الجهاد كان فى معظم الأحيان يجعل على رأسه أحد قادته الكبار الذين خاضوا كل دورات التدريب الإيمانية والعسكرية والقيادية وغالبا ما يكون المرشح لهذه المهمة واحداً من السابقين

الأولين من المهاجرين والأنصار .

نجد الصورة مختلفة هنا فهذه الأيام العشر كانت كافية لترفع صرد رضي الله عنه إلى القائد الإسلامى الأول فى جيش الأزد .

(وأمره أن يجاهد من يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن) .

وبعد(البروتوكولات الدبلوماسية الكاملة)من إجازة الوفد تحول هذا الوفد الدبلوماسى إلى جيش عسكرى ، ومضى بإمرة صُرَدَ إلى اليمن ليجاهد فى سبيل الله من كفر بالله .

ومضى صرد رضي الله عنه بجيشه الصغير ومن انضم إليه من أزد اليمن وغيرهم من أسلم واستسلم لله ليخوض أعنف معركة مواجهة ضد (جُرَشَ) الحصينة المتمتعة بحصونها وشركها فقد عرض صُرَد رضي الله عنه الإسلام عليهم فرفضوه وحالفوا خثعم من بنى عمهم أنمار وأسفرت المواجهة عن حرب كاملة .

صُرَد بن عبد الله القائد العسكرى :

وهنا تبرز عبقرية صرد العسكرية ،حيث كان موطن ثقة النبى ﷺ وأهلاً لهذه الثقة فهو يتعامل مع واقع صعب،وحصون قوية، لا يملك فيها إلا الحصار والصبر على مصاعبه فالمحاصرون يتألمون كذلك ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] فحاصرهم شهراً أو قريباً عنه .

لقد أتعبهم وأنهكهم لكنه لم يصل إلى الاستسلام والحصار وسيلة له وليست غاية بحد ذاتها . ومرور الزمن ليس لصالح الطرفين المحاصر والمحاصر فلابد من اللجوء إلى خطة جديدة لإنهاء المواجهة بعد أن استفاد من مدة الحصار فى الإغارة على مواشيهم ورجالهم ولا يأمن لهم سرب يخرج إلا صودر .

إن المقارنة مفيدة جداً هنا بين فارسين اختارهما رسول الله ﷺ لهذه المواجهة أولهما: مالك بن عوف ، قائد جيش هوازن والعدو الأول لرسول الله ﷺ والذى هزم فى المعركة هزيمة منكرة بعد تحقيق نصر مؤزر فتتبع رسول الله ﷺ أخباره .

وعرض جائزة كبرى له مائة ناقة مع أمواله كلها إن دخل فى الإسلام والعفو عن حربه السابقة واستجاب مالك رضي الله عنه لهذا العرض المغرى ،وبسبر شخصيته من رسول الله ﷺ خبير النفوس والقلوب وطبيبها سلمه مباشرة قيادة القوات المحاصرة لثقيف فقام بمهمته أحسن قيام واضطر ثقيفاً للاستسلام وبعثت وفدها لرسول الله ﷺ لتسلم بعد أن أعجزها مالك رضي الله عنه بالحروب الخاطفة ضدها حتى ليقول شاعرهم :

(هابت الأعــــداء جــانبنا ثم تـغزونا بنـــو سلمــــــة
وأتـــانا مـــالكٌ بهـــمُ ناقــضاً للعهـــد والحُرمـــة
وأتــونا فــى مـــنازلــنا ولقد كنا أولــى نقمـــة [1]

فقد كان تكليف رسول الله ﷺ لمالك بن عوف بقيادة جيش إسلامى عقب إسلامه مباشرة وبعد أن كان العدو الأول للإسلام والمسلمين .

(فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، ثُمالة وسلمة ، وفهم ، فكان يقاتل بهم ثقيفاً لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه ، حتى ضيق عليهم) [2] .

وها نحن نجد الصورة تتكرر مع صرد ؓ حيث استعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه وها هو يحاصر أهل جُرَش وخثعم فلا يدع لهم سرحاً إلا أغار عليه ثم قرر أن ينهى المعركة باستراتيجية جديدة .

ولئن أنهى مالك ؓ معركته وغاراته على ثقيف باضطرارهم إلى إرسال وفد سرى لإجراء المفاوضات مع رسول الله ﷺ وهم يعلمون أن مالكاً إنما يأتمر بأمره ، فقد أنهى صرد معركته باستراتيجية جديدة .

كانت الخطة الحربية عند صرد ؓ أن يتظاهر بالهزيمة ويستجر عدوه خارج حصونه للمواجهة السافرة بعيدة عن الحصون ونجح فى خطته .

(ثم تنحى عنهم إلى جبل يقال له : شكر ، فظنوا أنه قد هزم فخرجوا فى طلبه حتى أدركوه فصف صفوفه فحمل عليهم والمسلمون فوضعوا سيوفهم فيهم حيث شاؤوا وأخذوا من خيلهم عشرين فرساً فقاتلوهم عليها نهاراً طويلا) [3] .

* * *

و ـ وفد جرش عند رسول الله ﷺ

لئن كانت ثقيف،قد بعثت وفدها بعد الحصار ، فجرش قد أرسلت وفدها قبل الحصار الإسلامى ومهمة الوفد استطلاعية وليست مهمة استسلامية أو إسلامية ومن أجل هذا واجهت صرد ؓ فماذا عن وفد جُرش ؟

(وكان أهل جرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران

(١ ، ٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢ / ١٠٦ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/٣٩٩ ، ٤٠٠ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢ /٣/ ١٧٨ ، ١٧٩ .

فبينا هما عند رسول الله ﷺ بعد صلاة العصر إذ قال رسول الله ﷺ : « بأى بلاد الله شكر ؟ » .

فقام إليه الجرشيان فقالا : يا رسول الله ، ببلادنا جبل يقال له : كشر ، وكذلك يسميه أهل جرش . فقال : « إنه ليس بكشر ولكنه شكر » .

فقالا : فما شأنه يا رسول الله ؟

قال : « إن بدن الله لتنحر عنده الآن » .

قال : فجلس الرجلان إلى أبى بكر أو عثمان . فقال لهما :

ويحكما إن رسول الله ﷺ لينعى إليكما قومكما ، فقوما إلى رسول الله ﷺ فاسألاه أن يدعو الله إن يرفع عن قومكما فقاما إليه فسألاه فقال: «اللهم ارفع عنهم» .

ترى هل كانت هذه البرقية السرية المشفرة (الدعوية النبوية) قد وصلت إلى صرد ابن عبد الله ﷺ فأوقف الحرب بإلهام ربانى لا ندرى لكن أنباء صرد تغيب الآن وتبرز أنباء جيش جُرش الجريح وأنباء وفدهم الاستطلاعى .

هدأت جُرش بعد تلك المعركة العنيفة التى خاضتها ضد صرد بن عبد الله وخسرت خسارة مروعة وآبت تلصق جراحها بعد المعركة ليصل الرجلان المكلفان بالمهمة الاستطلاعية ويريا أخبار قومهما .

(فخرجا عند رسول الله ﷺ راجعين إلى قومهما ، فوجدا قومهما قد أصيبوا يوم أصابهم صرد بن عبد الله فى اليوم الذى قال فيه رسول الله ﷺ ما قال . وفى الساعة التى ذكر فيها ما ذكر .

قال ابن سعد : فقصا على قومهما القصة) .

وما أجمل المقارنة فى أحداث التاريخ .

فقد كانت هذه القصة التى حدثا بها قومهما كافية لاقتناعهم أنه نبى مرسل : فى حين لم يجد حصار صرد ولا حربه شيئًا فى دفعهم إلى الإسلام إلا حربًا نفسية فى كسر شوكتهم عن المجابهة ، واعتدادهم بقوتهم . فجاءت هذه القصة لتدخل الإيمان إلى هذه القلوب . فما الذى أدرى محمدًا بما جرى فى جرش وهو فى المدينة وهم فى حصونهم النائية القصية فى قلب اليمن إنه الله . فهو إذن رسول الله ويتحرك له الوفد الآن . ليس للاستطلاع . إنما للاستسلام لله عز وجل . (فقد سلموا تسليما) .

(فخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا) .

أما المقارنة فهى فى اليمن نفسها نستذكرها ، لنرى دور الوحى فى اقتلاع جذور الشرك من القلوب .

فقالوا : (وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة السهمى وهو أحد الستة إلى كسرى ، يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتابًا .

قال عبد الله : فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ ، فقرِئ عليه . ثم أخذه فمزَّقه فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : « اللهم مزق ملكه » .

وكتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن : أن ابعث من عندك رجلين جلدين إلى هذا الرجل الذى بالحجاز فليأتيانى بخبره . فبعث باذان قهرمانه ورجلاً آخر ، وكتب معهما كتابًا . فقدما المدينة فدفعا كتاب باذان إلى رسول الله ﷺ . فتبسم رسول الله ﷺ ودعاهما إلى الإسلام ـ وفرائصهما ترعد ـ وقال :

« ارجعا عنى يومكما هذا حتى تأتيانى الغد فأخبركما بما أريد » .

فجاءاه من الغد فقال لهما :

« أبلغا صاحبكما أن ربى قد قتل ربه كسرى فى هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها، « وهى الثلاثاء لعشر ليالٍ مضين من جمادى الأولى سنة سبع . وأن الله تعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله » .

فرجعا إلى باذان بذلك فأسلم هو والأنباء (الفرس) الذين باليمن) (١) .

وكان أول والٍ لرسول الله ﷺ فيها . حيث ذهب الجنديان ليعودا بمحمد مخفورا إليه فعادا بخبر مقتل كسرى . وخبر كتاب كسرى الابن . بترك محمد وشأنه ليكون نقطة الانطلاق الإسلامية الأولى فى اليمن .

وجاء وفد جُرَش الجريحة بقلوب مفعمة بالإيمان رغم أن جراحها لم تأتها إلا من أحد قادة النبى ﷺ ، صرد بن عبد الله .

وما هو البلسم الذى ألقاه رسول الله ﷺ على هذه الجراح الراعفة حتى غدت خيرًا من الأجزاء المعافاة . لقد أعطى عليه الصلاة والسلام وسامًا خالدًا لهذا الوفد

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

القادم بشكل خاص . فقال :

« مرحبًا بكم أحسن الناس وجوهًا ، وأصدقه لقاء ، وأطيبه كلامًا ، وأعظمه أمانة أنتم منىِ وأنا منكم » .

يا الله ، ما أروعه من وسام يواجهون به الدنيا كلها بهويتهم وميذاتهم التى حددها لهم رسول رب العالمين ، ومبعوث رب السموات والأرض،إنه وسام من خمس نجوم :

١ ـ « أحسن الناس وجوهًا » .

٢ ـ « أصدقه لقاء » .

٣ ـ « أطيبه كلامًا » .

٤ ـ « أعظمه أمانة » .

٥ ـ « أنتم منىِ وأنا منكم » .

وتوج هذه الأوسمة الخمسة أو الوسام الخالد ذا النجوم الخمسة بكتاب حدَّد فيه ملكية مدينة جُرش :

(وأحمى لهم حمىً حول قريتهم على أعلام معلومة للفرس والراحلة وللمثيرة بقرة الحرث فمن رعاه من الناس فماله سحت » . وجعل شعارهم مبروراً .

ترى هل كانت المعركة السابقة مثل معركة بعاث التىِ قضت على القيادات التى يمكن أن تعوق دخول الإسلام إلى جُرَش.تتغلغل العصبية والعبادة للذات لدى قياداتهم. فقضت على هذه النوعيات على يدى صرد ﷺ . وهيأت المجال للجيل الشاب الجديد كى ينضم كله إلى الإسلام دون تردد . ودون أن تطغى الإحن والثارات التى تشكُلت ضد صرد . فتحول بين القوم وبين الإسلام ، خاصة عندما رأوا المعجزة النبوية التى تحدثت عن معالم معركتهم كاملة ومعالم توقفها ومعالم كف يد القيادة النبوية عنها .

يمكن أن يكون ذلك . وكما قال رسول الله ﷺ لوافد مراد وسيدها وما أصابهم يوم الردم : « أما إن ذاك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيراً » .

يمكن أن يقال لوافدى جرش ووافدهم لما أصابهم مع ابن عمهم صرد ﷺ .

أما إن ذاك لم يزد قومهم فى الإسلام إلا خيراً .

ز ـ وفد أزد عمان

قال ابن سعد :

أسلم أهل عمان ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمى يعلمهم شرائع الإسلام ، ويصدق أموالهم . فخرج وفدهم إلى رسول الله ﷺ فيهم أسد بن بيرح الطاحيِ . فلقوا رسول الله ﷺ فسألوه أن يبعث معهم رجلاً يقيم أمرهم فقال مخربة العبدى واسمه مدرك بن خوط :

ابعثنى إليهم فإن علىَّ منة . أسرونى يوم جنوب فمنوا على . فوجهه معهم إلى عمان .

وقدم سلمة بن عباد الأزدى فى أناس من قومه . فسأل رسول الله ﷺ عما يعبُدُ ، وما يدعو إليه . فأخبره رسول الله ﷺ فقال : ادع الله لى أن يجمع كلمتنا وألفتنا . فدعا لهم وأسلم سلمة ومن معه) (١) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« نعم الوفد الأزد ، طيبة أفواههم ، برة أيمانهم ، نقية قلوبهم » رواه الإمام أحمد بسند حسن .

وعن طلحة بن داود قال : قال رسول الله ﷺ :

« نعم المرضعون أهل عمان » يعنى الأزد . رواه الطبرانى برجال ثقات .

وعن بشر بن عصمة الليثى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« الأزد منى وأنا منهم ، أغضب لهم إذا غضبوا (ويغضبون إذا غضبت) وأرضى لهم إذا رضوا (ويرضون إذا رضيت ») رواه الطبرانى .

وعن أبى لبيد قال : خرج رجل من أهل عمان يقال له بيرح بن أسد الطاحى مهاجرا إلى النبى ﷺ . فقدم المدينة ، فوجده قد توفى ،فبينا هو فى بعض طرق المدينة إذ لقيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فقال له :

كأنك لست من أهل هذا البلد ؟ فقال : أنا رجل من أهل عمان . فأتى به أبا بكر رضي الله عنه فقال : هذا من الأرض التى ذكرها رسول الله ﷺ ، رواه الإمام أحمد وأبو يعلى

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٥١ ، ٣٥٢ .

برجال الصحيح) (١) .

أهل عمان هنا هم أهل البحرين - أو أهل الإحساء اليوم - فالعلاء بن الحضرمى بعثه رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى لعبدى أمير البحرين أما ما يعرف بعمان اليوم ومن قبل فقد كان ملكهم الجلندى ثم ابناه عبد وجيفر . وهؤلاء قد بعث لهم رسول الله ﷺ عمرو بن العاص . وما زال بولدى الجلندى حتى أسلما . . . وهم أزد عمان ، ولا شك أن أزد عمان قد امتدوا إلى البحرين ، وعاشوا مع عبد القيس فيها - أو الإحساء اليوم - وكان لهم قيادتهم المستقلة ، ودعاهم العلاء - رضوان الله عليه - إلى الإسلام فأسلموا بصفتهم جوار للمنذر بن ساوى ، وبعث وفدهم إلى رسول الله ﷺ .

لم تكن مهمة الوفد أن يعلن إسلامه بين يدى رسول الله ﷺ بمقدار ما كانت مهمته أن يكون بينهم صحابى يعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم فى الدين كما هو الحال بالنسبة لإخوانهم عبد القيس ، ولا شك أن العلاء هو الذى استحثهم لذلك . فهو لا يقدر أن يعمل فى هذه الجهات المتعددة الأطراف الواسعة الأرجاء .

وبطبيعة الجوار بين عبد قيس والأزد تقع الحروب بينهم . ومن هذه الحروب يوم جنوب الذى كان مهمًا جدًا ، وتاريخًا يذكر بالنسبة لمخربة العبدى الذى كاد أن يقتل أو أسر ، فمن عليه الأزد وأطلقوا سراحه ، فمضى إلى بؤرة النور فى المدينة يسلم ويتفقه فى دين الله ، لم يجلس عشرة أيام فقط ، إنما أمضى أكثر من سنة فى المدينة متفرغًا للفقه والعبادة ، وبقى حب الأزد كامنًا فى قلبه لما منوا عليه بالحياة مرتين الأولى ،يوم أطلقوا سراحه وأعتقوه من القتل ، والثانية أن دفعوه بشكل غير مباشر ليحيى بالإسلام **﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾** [الأنعام : ١٢٢] والذى تياح له فقه عام فى أعلى جامعات الأرض التى تديرها ويعلّم فيها سيد أهل الأرض والسماء محمد صلوات الله عليه . . فما أن جاء هذا الوفد يطلب الفقيه والمعلم. حتى قال مخربة رضي الله عنه :

ابعثنى إليهم فإن لهم على منة . أسرونى يوم جنوب فمنوا على . فوجهه معهم إلى عمان .

وبعد أن أحيوه بالعتق من الأسر أحياهم بتعليمهم شرائع الإسلام وأحكام الدين .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

لقد كان مخربة زعيما من زعماء قومه فى الجاهلية (وكان شريفًا فى الجاهلية ، فارسًا جوادًا . وإنما سمى مخربة ؛لأن السلاح خربه فى الجاهلية ، أدرك الإسلام ووفد على النبى ﷺ فى وفد عبد القيس فسألهم النبى عن عمان . فأخبره مخربة أن له علمًا بذلك . فقال : أسلم أهل عُمان طوعًا) حكاه الرشاطى فى الأنساب ، وأبو الفرج فى الأغانى (١) .

أما قصة أسد بن بيرح الطاحى . وأنه كان مع الوفد . فيمكن الجمع بين هذا النص وبين النص الذى يذكر أنه قدم المدينة بعد وفاة النبى ﷺ ولم يره . بأن الوفادة الأولى كان عضوًا فى الوفد ، ثم عاد معه ، وقرر بعدها أن يأتى وحده ويستقر فى المدينة مهاجرًا متفقهًا فى دين الله . فوصل المدينة بعد الوفاة النبوية ، وهذا ما رجحه ابن الأثير بقوله :

(بيرح بن أسد الطاحى أدرك النبى ﷺ ولم يره ، قدم المدينة بعد وفاة النبى ﷺ بأيام . قاله ابن منده وأبو نعيم . وقال أبو عمر : وكان رأى النبى ﷺ يعنى قبل قدومه عليه (مهاجرًا) (٢).

(ومن قبائلهم أى قبائل الأزد : طاحبة بن سود ، وزياد ، وعلى ، وعبد الله وإياد ، بطون كلهم) (٣) .

ح ـ سلمة بن عياذ الأزدى

وهذا سلمة بن عياذ الأزدى يقدم مع وفد من قومه إلى المدينة معلنًا إسلامه ، من دون أن نعرف من أى فرع من فروع الأزد هو . مثل سلفه صرد بن عبد الله . وتضنّ علينا كتب التراجم بترجمة لهما تعرفنا بنسبهما ، وإلى أى دوحة من الأزد ينتهون . وإذا كان صُرَدُ ﷺ قد كلف بقيادة قومه وحمل لواء الجهاد ضد المشركين من قومه . فقد كان سلمة يمضى فى خط آخر . آذاه تفرق قومه والشقاق فيهم . فكان طلبه من رسول الله ﷺ :

ادع الله لى أن يجمع كلمتنا وألفتنا .

فدعا له رسول الله ﷺ . ولا شك أن هذه الدعوة ذات مغزى الآن . حيث غدا سلمة داعية الإسلام ومن معه . فهى دعوة من جانب آخر . أن يهدى الله المشركين من

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤٠٢ هامش . (٢) أسد الغابة لابن الأثير ١ / ٢ / ١٢ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٦ / ٤٠٣ هامش .

قومه إلى الإسلام وتجمع كلمتهم عليه ، وتكون ألفتهم حوله . مثل ألفة إخوانه من الأزد فى المدينة (الأنصار) . حيث عادوا إلى التجمع على كتاب الله . واعتصموا بحبله كما وجههم ربهم :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ [آل عمران] .

وما دعوة سلمة هذه إلا مثل دعوة أسعد بن زرارة رضي الله عنه فى العقبة الأولى . أن تجتمع كلمتهم على الإسلام ونبى الإسلام وقيادة المصطفى ﷺ .

(إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك) (١).

ولهذا كانت الدعوات دعا بها رسول الله ﷺ للأزد ، والأوصاف التى وصفهم بها كأنها صورة مكررة عن الدعوات التى وجهت إلى الأنصار (الأزديين) وقد ساقها الصالحى بسندها الصحيح لتشمل الأزد كلهم وليس الأنصار (الأزديون) وحدهم .

« نعم الوفد الأزد طيبة أفواههم ، برة أيمانهم ، نقية قلوبهم » .

ولا شك أن هذا الوسام العام ، أكبر من الوسام السابق بخمس نجوم ، ويضم الحديث الثانى للحديث الأول : « الأزد منى وأنا منهم أغضب لهم إذا غضبوا ويغضبون إذا غضبت ، وأرضى لهم إذا رضوا ويرضون إذا رضيت » .

يرتفع الوسام إلى تسع نجوم . متألقة فى الأرض كما تتألق نجوم السماء . والنجم العاشر الذى يربط بالنسب بينهم وبين رسول الله ﷺ :

(« نعم المرضعون أهل عمان » ويعنى الأزد) .

وتكاد تتشابك وتتشابه الأوصاف للأنصار والأزد . ووفد الأزد بحيث يجعل هؤلاء القوم قلعة من قلاع الإسلام فى بلادهم مثل قلعة الأنصار فى المدينة .

وتهيئة لهم ليكون لهم الدور الريادى فى مواجهة ردة أهل اليمن فيما بعد ، كما

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢ / ٥٣ ، ٥٤ .

كان دور أنصار الله ورسوله فى مواجهة ردة الجزيرة العربية .

ويدرك رسول الله ﷺ أهمية الأزد ، فيبعث بعمرو بن العاص إلى أزد عمان . وإلى ملكهم الجلندى وولديه جيفر وعباد (أو عبدة) .وفى الوقت الذى أسلم الملكان وأبوهما الجلندى خرج منهم زيد الأعور بن جيفر بن الجلندى الذى ارتد عن الإسلام ، فقوتل بالمؤمنين من قومه . مثلما برز المنافقون فى صف الأنصار وفضحهم القرآن .

إن الثناء العام على القوم لا يعنى إلا المؤمنين المخلصين منهم وهناك أوصاف تتناول المعدن وأوصاف تتناول السلوك وتناغم الإيمان مع المعدن النفيس . فتعطى هذا الإبداع العظيم وهذا الثناء من جهة أخرى هو المنهج النبوى للتربية فى التعامل مع القبائل وقياداتها . فحين يكون الثناء دافعًا إلى التنافس فى الخير والرغبة فى الآخرة . وزيادة النقى فى القلب نجد رسول الله ﷺ يذكره . فيستخلص أعظم ما عند الناس من خير ليوظفه فى خدمة هذا الدين . أما حين يثمر الثناء استعلاء أو استكبارًا أو غرورًا . فنرى رسول الله ﷺ يمتنع عنه أشد الامتناع .بل تُذكر المثالب التى تطامن هذا الاستعلاء وتكسر هذا الغرور حين يكون الثناء ذبحًا للمثنى عليه . ويكون قطعًا لعنقه يحرم الثناء عندئذ . . . أما عندما يزيد المهتدى هدىً . ويزيد تواضعًا وذلة لله ورسوله . فلا بد منه حينئذ .

إنها النفس البشرية والمعدن الإنسانى الذى نتعلم فقه التعامل معه من إمام البشرية ومربيها عليه الصلاة والسلام .

خامسًا
أنمار

١ـ الأراشى الذى باع أبا جهل إبله .

٢ ـ نسب أنمار وفروعه :

أ ـ جرير بن عبد الله ووفد بجيلة .

ب ـ وفد أحمس .

جـ وفد خثعم .

د ـ وفد همدان .

أنمــــار

لقد ورد فى نص الحديث النبوى أن سأل أحد الصحابة : يا رسول الله ، فما أنمار؟ « قال : « الذين منهم خثعم وبجيلة »[1] .

وأنمار هو : ابن أراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

وقبل أن ندلف إلى أنمار . ونتحدث عن وفودهم يحسن الوقوف عند أراش أبيه الذى ينسب إليه الأراشيون. ومن أول ما تطالعنا به السيرة النبوية فى العهد الملكى قصة:

١ ـ الإراشى الذى باع أبا جهل إبله

(قدم رجل من إراش بإبل له مكة ، فابتاعها منه أبو جهل ، فمطله بأثمانها . فأقبل الإراشى حتى وقف على نادٍ من قرشى ، ورسول الله ﷺ فى ناحية المسجد جالس. فقال : يا معشر قريش مَن رجل يؤدينى[2] على أبى الحكم بن هشام فإنى رجل غريب وابن سبيل وقد غلبنى على حقى ؟ فقال له أهل ذلك المجلس .

أترى ذلك الرجل الجالس ـ لرسول الله ﷺ ، وهم يهزؤون به لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة : اذهب إليه يؤديك عليه .

فأقبل الأراشى حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال :

يا عبد الله ، إن أبا الحكم بن هشام قد غلبنى على حق لى قِبَله . وأنا رجل غريب ابن سبيل وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤدينى عليه ، يأخذ لى حقىِ منه . فأشاروا لى إليك فخذ لى حقى منه ، يرحمك الله .

قال : « انطلق إليه » . وقام معه رسول الله .

فلما رأوه قام معه ، قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه فانظر ماذا يصنع ؟

قال : وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه . فقال : من هذا ؟

---

(١) من الحديث الذى رواه الترمذى عن فروة بن مسيك حين سئل رسول الله ﷺ : ما سبأ .

(٢) يؤدينى : يعيننى على أخذ حقى .

قال : « محمد ، فاخرج إلىَّ » .

فخرج إليه ، وما فى وجهه رائحة [1] . قد انتقع [2] لونه . فقال :

« أعط هذا الرجل حقه » .

قال ـ أى أبو جهل : نعم لا تبرح حتى أعطيه الذى له . فدخل ، فخرج إليه بحقه فدفعه إليه ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للإراشى : « الحق بشأنك » .

فأقبل الإراشى حتى وقف على ذلك المجلس فقال :

جزاه الله خيراً ، فقد والله أخذ لى حقى .

قال : وجاء الرجل الذى بعثوا معه فقالوا : ويحك ماذا رأيت ؟

قال : عجبًا من العجب .

والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه حتى خرج إليه وما معه رُوحُه . فقال له : «أعط هذا حقه ».

فقال : نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه . فدخل فخرج إليه بحقه ،فأعطاه إياه .

قال : ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا له :

ويلك ! مالك ؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط !

قول : ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب علىَّ بابى ، وسمعت صوته ، فملئت رعبًا . ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته[3] ولا أنيابه لفحل قط . والله لو أبيت لأكلنى) [4] .

وكانت هذه الحَجَرَةُ الأولى التى أُلقيت فى بحر أراش وراح الإراشى يحدث قومه عن الرجل الوضىء الذى أخذ له حقه من أبى الحكم بن هشام سيد البطحاء .

---

(١) ما فى وجهه رائحة : أى من الخوف .
(٢) انتقع لونه : تغير .
(٣) قصرته : أصل العنق .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢ / ٢٤ .

٢ـ نسب أنمار وفروعه

(ولَدَ أراش بن عمرو أنمار بن إراش ـ وقد قيل : إن أنمار هذا هو أنمار بن نزار بن معد بن عدنان والله أعلم ـ فوَلَدَ أنمارُ: أقيل ـ وفى الناس من يقول أفتل ـ وهو خثعم سمى خثعمًا بجمل كان له اسمه خثعم ، وأمه هند بنت مالك بن غافق بن الشاهد بن عك.

ووَلَدَ أنمارُ أيضًا : خزيمة ، دخل فى الأزد ، ووادعة بطن مع بنى عمرو بن يشكر، وعبقر ، والغوث ، وصهيبة ، وأسهل ، وسهل ، وطريف وسنية ، والحارث ، وجدعة : أمهم كلهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة . فإليها ينسب أولاد كل من ذكرنا . وكانوا كلهم متحالفين على ولد أخيهم خثعم .

وهؤلاء بنو بجيلة :

ولد عبقر بن أنمار مالك وهو قسر ، بطن ، وعلقمة .

فمن قسر بطون جمة منهم بنو عرينة بن نذير بن قسر بن عبقر وغيرهم .

ومنهم :

أ ـ جرير بن عبد الله :

(ابن جابر وهو الشليل بن مالك . . . بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر بن عبقر ابن أنمار صاحب رسول الله ﷺ وهو الذى جمع بجيلة بعد أن كانوا متفرقين فى أحياء العرب وبنوه عبد الله ، وعبيد الله ، والمنذر وإبراهيم ، وبشير ، ومنهم عبد الله بن أبى عوف . . . بن سعد بن نذير له صحبة . سماه النبى ﷺ عبد الله .

وكان اسمه عبد شمس . . . ومن ولد الغوث بن أنمار أحمس بن الغوث ، بطن لهم سوابق فى الإسلام ، نهض منهم مائة وخمسون فارسًا مع جرير بن عبد الله إلى حرق ذى الخلصة ، صنم كان لهم يعبدونه ، فبارك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها) (١).

وفد بجيلة وجرير بن عبد الله

(قال : أخبرنا محمد بن عمر الأسلمى قال : حدثنى عبد الحميد بن جعفر عن

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٣٨٨ .

أبيه فقال : قدم جرير بن عبد الله البجلى سنة عشر المدينة ، ومعه من قومه مائة وخمسون رجلاً فقال رسول الله ﷺ :

« يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن على وجهه مسحة ملك . فطلع جرير بن عبد الله على راحلته ومعه قومه فأسلموا وبايعوا .

قال جرير :فبسط رسول الله ﷺ فبايعنى وقال :

« على أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتنصح المسلم ، وتطيع الوالى وإن كان عبداً حبشيًا ».

فقال : نعم . فبايعه) (١) .

وروى الطبرانى والبيهقى وابن سعد عن جرير رضي الله عنه :

(بعث إلىَّ رسول الله ﷺ فأتيته . فقال : ما جاء بك ؟ قلت : جئت لأسلم . فألقى إلىَّ كساءه وقال :

« إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » .

فقال رسول الله ﷺ :

« أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله وتؤمن بالله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وتصلى الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة . وتصوم شهر رمضان ، وتنصح لكل مسلم ، وتطيع الوالى وإن كان عبداً حبشيًا ») (٢) .

روى الإمام أحمد والبيهقى والطبرانى برجال ثقات عنه قال :

لما دنوت من مدينة الرسول ﷺ أنخت راحلتى . وحللت عيبتى ، ولبست حلتى، ودخلت المسجد ، والنبى ﷺ يخطب فسلمت على رسول الله ﷺ . فرمانى الناس بالحدق .فقلت لجليسى : يا عبد الله ، هل ذكر رسول الله ﷺ عن أمرى شيئًا ؟

قال : نعم ، ذكرك بأحسن الذكر . فبينا هو يخطب إذ عرض لك فقال :

« إنه سيدخل عليكم من هذا الباب ـ أو قال من هذا الفج ـ من خير ذى يمن ، وإن على وجهه لمسحة ملك » فحمدت الله على ما أبلانى .

وروى البزار والطبرانى عن عبد الله بن حمزة والطبرانى عن البراء بن عازب رضي الله عنهما

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٤٧ . (٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤٧٥ .

قال : بينا أنا يومًا عند رسول الله ﷺ فى جماعة من أصحابه أكثرهم اليمن إذ قال رسول الله ﷺ : « سيطلع عليكم من هذه الثَّنية ـ وفى لفظ ـ من هذا الفج ـ خير ذى يمن على وجهه مسحة ملك » .

فما من القوم أحد إلا تمنى أن يكون من أهل بيته . إذ طلع عليه راكب . فانتهى إلى رسول الله ﷺ . فنزل عن راحلته . فأتى النبى ﷺ فأخذ بيده وبايعه . وقال : «من أنت ؟ » قال : جرير بن عبد الله البجلى .

فأجلسه إلى جنبه . ومسح بيده على رأسه ووجهه وصدره وبطنه حتى انحنى جرير حياء أن يدخل يده تحت إزاره . وهو يدعو له بالبركة ولذريته . ثم مسح رأسه وظهره وهو يدعو له ثم بسط له رداءه وقال له : « على هذا يا جرير فاقعد » .

فقعد معهم مليًا ثم قام وانصرف .

وروى الطبرانى برجال الصحيح عن جرير رضي الله عنه قال :

أتيت رسول الله ﷺ . فقلت : يا رسول الله أبايعك على الهجرة ؟ فبايعنى رسول الله ﷺ ، واشترط على : « والنصح لكل مسلم » ، فبايعته على هذا .

قال ابن سعد :

(وكان نزول جرير بن عبد الله على فروة بن عمرو البياضى) (١)

وجزم محمد بن عمر الأسلمى بأنه وفد على رسول الله ﷺ سنة عشر . وأنه بعثه إلى ذى الخلصة كان بعد ذلك . وأنه وافى مع رسول الله ﷺ حجة الوداع من عامه .



وعودة إلى معادن العرب .

فإن كان رسول الله ﷺ يختبر هذه المعادن من خلال اللقاءات معها ويتعامل مع النفوس بعد فقهها من خلال التعرف عليها ، والتحادث معها . فنحن الآن أمام صورة جديدة تختلف عن ذى قبل . نحن أمام حكم نبوى على سيد من سادات العرب صدر قبل لقائه . وقبل وصوله . وقد اشترك الوحى بالاحتفاء به . فتحديد ساعة الوصول للحديث عن جرير وتهيئة الأجواء لاستقباله له مدىً أعمق من فقه النفوس بالخبرة

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

والمشاهدة : إنما خبرتها بالإلهام الربانى وبالمقارنة العامة .

والتعرف على تاريخ هذا الزعيم .

ابتداء تشير بعض الروايات إلى أن رسول الله ﷺ هو الذى بعث إلى جرير ليحضر إليه مع قومه . كما فى الرواية :

(بعث إلىَّ رسول الله ﷺ فأتيته . فقال : ما جاء بك . قال : جئت لأسلم). إن الذاكرة لتعود إلى الخلف قرابة ربع قرن أو تزيد عندما قال رسول الله ﷺ :

« اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين ، عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام » .

وأمسك رسول الله ﷺ بخناق عمر قائلاً له : ما جاء بك يا بن الخطاب؟ . . . جئت لأسلم . كما قال جرير واختار الله تعالى أنفس المعادن التى خلقها ليكون بجوار نبيه محمد ﷺ ويكون الوزير الثانى له بعد الصديق رضوان الله عليه . وهذا جرير يعامل المعاملة نفسها فقبل وصوله المدينة . ومن على المنبر النبوى يعلن رسول الله ﷺ وصول خيرذى يمن . وهو زعيم من زعمائه عليه مسحة ملك . وتحرقت العين شوقًا إليه . ودخل رضي الله عنه مدخل الملوك .

وإن كانت النسوة قد قطعن أيديهن عندما رأين يوسف .

﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

ودخل جرير رضي الله عنه مدخل الملوك .فقد كان من جماله الآسر وطلعته المهيبة البهية . ما يخفى الطرف عنه . فعمر رضي الله عنه يقول عن جرير بن عبد الله البجلى :

جرير يوسف هذه الأمة .

وتبلغ الحفاوة بجرير رضي الله عنه مبلغها فى حسن الوفادة والاستقبال،وجرير لم يقصر فى اللباس الرسمى للدخول على سيد ولد آدم ﷺ يقول عن نفسه.بعد وصوله المدينة:

لما دنوت من المدينة أنخت راحلتى وأحللت عيبتى. ولبست حلتىِ ودخلت المسجد.

فمدينة الرسول ﷺ لا يدخلها إلا بأبهى حلة وأكمل منظر . وكان أول ما فعله بأدبه الجم أن ألقى السلام على رسول الله ﷺ .

وينظر بالعيون تلتهمه التهامًا . فيكاد يسحر عيون كل من فى المسجد . وعرف أن هذا ليس أمرًا عاديًا مألوفًا . فقد يدخل الداخل ولا ينتبه إليه أحد . فما لأهل المسجد

جميعًا يرمقونه بنظراتهم ؟

اختار واحدًا من المقربين إليه . وسأله هامسًا .

فقلت لجليسى : يا عبد الله ، هل ذكر رسول الله ﷺ عن أمرىٍ شيئًا ؟

قال : نعم ، ذكرك بأحسن الذكر . فبينا هو يخطب إذ عرض لك فقال :

« إنه سيدخل عليكم من هذا الباب ـ أو قال من هذا الفج ، من خير ذى يمن (أو خير ذى يمن) وإن على وجهه لمسحة ملك » .

إنه لم يدخل مدرسة النبوة بعد . وقدم لتوه . ولم يتلق أى توجيه . فما كان موقفه من هذا الثناء العظيم العطر ؟ وممن الثناء ؟ من سيد ولد آدم . وليس من شخص عادى استهواه مظهره الخارجى وأناقته وجماله . إن الثناء كان قبل وصوله ، وقبل رؤيته .

وما أسعد رسول الله ﷺ أن ينضم إلى ركب الإيمان سادات العرب وذؤبانهم وشجعاتهم وقادتهم. فهو سعيد بمقدمه، حفى برؤيته. ولكننا نقف عند تعليق جرير رضي الله عنه على هذا الثناء .

فأى زعيم غيره تأخذه العزة بالإثم . ويشمخ بأنفه . ويستكبر فى أعماقه . ويصغِر فى عينيه كل من حوله . ويقدم ليفاوض من موطن الزعامة المعترف عليه من الطرف الآخر . فهو خير ذى يمن ،وقد التقى مع خير الحجاز وسيد العرب فيها ، فلابد من تقاسم السلطة بين الزعيمين . كما حاولها من قبل عامر بن الطفيل ومسيلمة الكذاب والأسود العسنى، وأبو جهل وأضرابهم جميعًا .

ترى هل يلقى رسول الله ﷺ ثناءه على هذا السيد العربى بلا مقابل ـ وليزيد من شموخه وكبريائه وتعاليه ، ويصعب بعدها التفاهم معه .

معاذ الله ،فسيد ولد آدم إمام المربين فى الوجود يعلم أين يلقى ثناءه وأين يضعه ، إنه يلقيه أمام جبل شامخ لا يزيده الثناء إلا تواضعًا .

وكما قلنا فلم يدخل بعد بعد مدرسة النبوة لنعيد هذا الموقف العظيم لتأثير الإسلام. إنما هو من أصالة ونبل وعظمة هذا المعدن .

قال رضي الله عنه : فحمِدت الله على ما أبلانى .

فهو عبدٌ لله قبل أن يسلم . وليس إلهًا فى أعماقه يستعبد البشر ويستصغرهم كما

هو الحال فى الزعماء من أمثاله . فالله تعالى هو الذى أعطى ، وهو الذى أبلى ، وهو الذى تكرم . وله الحمد على ما أكرم وأنعم ، ومثل هذا المعدن لا يخاف من الثناء ، إذن عليه ، فلاحق رسول الله ﷺ الثناء العاطر الغابر بالثناء الحاضر :

« إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » .

وهذا كريم أهل اليمن . فأين تبلغ قمة إكرامه ﷺ .بأبى أنت وأمى يا حبيب الله بسط له رداءه . وقال له : « على هذا يا جرير فاقعد ») .

وأجلسه إلى جنبه .

والعيون كلها مسمرة برسول الله ﷺ والوافد الجديد الذى أجلسه رسول الله ﷺ بجنبه وعلى كسائه . وقال للأمة التى تستغرب هذا الاحتفاء .

« إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » .

وتبدأ المباحثات بين الطرفين ؟

فجرير ﷺ بنفاسة معدنه يستبق الزمن ، وها هو البراء بن عازب يصف لنا لحظات اللقاء الأولى كأنا هناك رأى عين .

فنزل عن راحلته . فأتى النبى ﷺ فأخذ بيده فبايعه. وقال:« من أنت ؟ » ،قال : جرير بن عبد الله البجلى .

إنها بدون ـ أنا ـ أمامها ـ أنا جرير . إنها بمثل العبودية السابقة : الحمد لله على ما أبلانى . وبالعبودية السابقة لله نفسها يبايع قبل أن تُطلب منه البيعة ، ويسلم قبل أن تعرض عليه مبادئ الإسلام . وكما يقول الشاعر :

سلم لربى أعظمى ولسانى

ولنقف عند البيعة .

كان يحلم بأعظم الأمجاد ، والأمجاد تترامى بين يديه فهو سيد أهل اليمن ، أما أعظم الأمجاد عنده ، فهو مجد الهجرة ، لكن أنى له ذلك ، وهو فى العام العاشر للهجرة ، وقد مضت الهجرة بأهلها ، وفاته هذا المجد . فماذا كانت شروط رسول الله ﷺ على خير ذى يمن كما نقلها لنا جرير ﷺ ؟ وقبل أن نوغل فى عرض الشروط ، نشير إلى سؤال رسول الله ﷺ لجرير :« من أنت ؟ » إنه يعرفه ، وهو الذى بعث له ، لكنه يريد أن يعرف الأمة كلها بيوسفها وسيدها الجديد . وانضمام عظماء اليمن إى هذا الدين .

وإذا فات جريراً البيعة على الهجرة . فلن تفوته البيعة على الجهاد ، والجهاد ماضٍ

إلى يوم القيامة .

لكن كان هناك شروط أخرى قبل البيعة على الجهاد :

١ ـ « أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله .

٢ ـ وأنى رسول الله .

٣ ـ وتؤمن بالله واليوم الآخر .

٤ ـ والقدر خيره وشره .

٥ ـ وتصلى الصلاة المكتوبة .

٦ ـ وتؤدى الزكاة المفروضة .

٧ ـ وتصوم شهر رمضان .

٨ ـ وتنصح لكل مسلم .

٩ ـ وتطيع الوالى وإن كان عبداً حبشيًا » .

فهى فقرات تسع منتقاة من أركان الإيمان وأركان الإسلام ، والركن الاجتماعى الذى يتجاهله اليوم كثير من المسلمين .

« وتنصح لكل مسلم».

فالمسلمون إخوة ، وانتهى عهد التميز بالجاه أو النسب أو الملك فعبد المسلمين وسيدهم سواء ، فالنصح لكل مسلم لتقضى على كل غبار كان قد علق به من أوضار الجاهلية .

والركن السياسى الذى يكاد يجهله عامة المسلمين : « وتطيع الوالى وإن كان عبداً حبشيًا » .

فإن كان الركن الاجتماعى يمكن أن يبتلع بصعوبة مع السادة . فالركن السياسى ، يمكن أن تشهر السيوف من أجله ، وتقام الثارات . وتجرجر الكتائب . فكيف يطيع الوالى ولو كان عبداً حبشيًا .

إنه الانصهار فى حزب الله . بعد زعامة القبيلة ، وعنجهية القبيلة . ووراءه مائة وخمسون من قومه . يمكن أن يعلقوا المفاوضات . ويعودوا لفتح جبهة الحرب من جديد . أمام طاعة العبد الحبشى الأسود . الذى لا يرضى من قبل مؤاكلته أو مجالسته. أو لم يشترط الأقرع بن حابس ، ألا يجالس العبيد والفقراء حتى يقبل أو لم يشترط الملأ من قريش ألا يجلسوا إلى رسول الله ﷺ ، ولا يستمعوا إلى وعظه حتى يطرد

العبدان والفقراء من مجلسه ، ويعقد جلسة خاصة مع الزعماء . فقال الله تعالى له .

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) ﴾ [الأنعام] .

والآن يشترط على سيد بجيلة أن يطيع الوالى ولو كان عبداً حبشيًا .

ولم يتردد السيد العظيم لحظة فى قبول هذا الشرط العسر أن يطيع الوالى ولو كان عبدًا حبشيًا ولم يسحب يده من المبايعة بل قبل بها جملة واحدة .

لقد قدَّم شيئًا عظيما للأمة فى مدرستها التربوية . فماذا استحق على عيون الناس .

ألا توضع القلادات والنياشين للعظماء فى حفل رسمى يحضره كبار الشخصيات ؟

وهذه هى القلادة العظمى والنيشان الأعظم الذى قَلَّد به رسول الله خير ذى يمن.

يقول البراء بن عازب ﷺ الذى ينقل وقائع الاحتفال :

أ ـ فأجلسه على جنبه .

ب ـ ومسح بيده على رأسه ووجهه ووصدره وبطنه .

ج ـ وهو يدعو له بالبركة ولذريته .

د ـ ثم مسح رأسه وظهره وهو يدعو له .

وهذه لقطة نفسية من أعــماق أعماق جرير الذى يعيش فى بحر من النور ويسبح فيه . فقد غمره النور النبوى من كل مكان . من فوقه ومن تحته ومن بين يديه ، ومن أمامه ومن خلفه .

يقول البراء ﷺ مذيع الاحتفال :

هـ ـ حتى انحنى جرير حياءً أن يدخل يده تحت إزاره ليباركه .

وكما أجلس يوسف الصديق ﷺ أبويه على العرش ، وسجدوا له تصديقًا لحلمه فى الصغر :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) ﴾

[يوسف]

يأتى نبى الله تعالى بيوسف هذه الأمة . ويجلسه بجواره .

وبسط له عرض ردائه ، وقال له : « على هذا يا جرير فاقعد » .

وفى عالمنا المعاصر يتنافس المكرمون على صورة تذكارية مع الرئيس أو الملك وجاءت هذه الصورة التذكارية التى نقلها لنا المذيع العظيم البراء بن عازب فى النص السابق ، وبسط .

* * *

الملاحظ أنا نرى الثناء منصبًا على جرير ﷺ بينما نرى الروايات تكتفى بإسلام وفد بجيلة مع جرير ﷺ دون أن يبرز لنا أى ثناء على الوفد الكبير الذى جاء معه . بينما نجد الثناء منصبًا على وفد أحمس بنى عم جرير وبجيلة دون أن يبلغ الثناء على سيد الوفد قيس بن عزرة الأحمسى شيئًا يذكر .

ولا شك أن جريراً ﷺ هو الذى أعطى لقومه هذا الذكر والفضل حتى ليبالغ أحد الشعراء بقوله :

لولا جرير هلكت بجيلة   نعم الفتى وبئست القبيلة

لقد كانت بجيلة متفرقة فى قبائل العرب إثر محنة مرت بها .

(وكانت بجيلة قد وقع لها حرب شديد مع كلب بن وبرة فى موضع يعرف بالفجار. فافترقت بجيلة يومئذ فى أحياء العرب) (١) .

وها هو عمرو ﷺ يصل إليه وفد بجيلة بعد موقعة الجسر . وهو أحوج ما يكون إلى الطاقات العربية فقال لهم .

(قد علمتم ما كان من المصيبة فى إخوانكم بالعراق . فسيروا إليهم . وأنا أخرج إليكم من كان منكم من قبائل العرب)(٢) .

وكان يتنازع سيادة بجيلة عرفجة بن هرثمة وجرير بن عبد الله البجلى .

لقد كان همُّ جرير عظيمًا فى إحياء قبيلته . وإعادة شعثها المتفرق . فجاء إلى الصديق ﷺ ،وهو يبعث البعوث إلى الشام والعراق .

فقدموا على أبى بكر . فذكر جرير حاجته . فقال : أعلى حالنا ؟

ووجهة نظر الصديق أن هذا الوقت والخطر يدهم المسلمين من كل مكان لا يصلح لجمع شمل قبيلة موزعة بين العرب .

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٣٨٠ .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ١ / ٢٧٩ .

(فلما ولى عمر دعاه بالبينة فأقامها . فكتب له عمر إلى عماله السعاة فى العرب كلهم :

من كان فيه أحد يُنسب إلى بجيلة فى الجاهلية ، وثبت عليه فى الإسلام يُعرف ذلك . فأخرجوه إلى جرير) .

ووعدهم جرير مكانًا بين العراق والمدينة . ولما أُعْطِى جرير حاجته فى استخراج بجيلة من الناس فجمعهم فأخرجوا له ، وأمرهم بالموعد ما بين مكة والمدينة والعراق ، فتتاموا فقال لجرير :

أخرج حتى تلحق بالمثنى . فقال : بل الشام . قال :

بل العراق فإن أهل الشام قد قووا على عدوهم .

فأبى حتى أكرهه [1] .

واستجاب جرير ﷺ مكرهًا للمسير ببجيلة إلى العراق بعد أن عاهد رسول الله ﷺ : « وأن أطيع الوالى ولو وكان عبدًا حبشيًا » فكيف إذا كان عمر بن الخطاب العدوى القرشى .

وأدرك عمر ﷺ أنه قد أكره جريرًا وبجيلة على ثغر العراق وهم يريدون الشام (فلما خرجوا له وأمرهم بالموعد عوَّضه لإكراهه واستصلاحًا له . فجعل له ربع خمس ما أفاء الله عليهم فى غزاتهم هذه له ولمن اجتمع إليه . ولمن أُخرج له إليه . وقال : اتخذونا طريقًا . فقدموا المدينة ثم فصلوا منها إلى العراق ممدين للمثنى) [2] .

لقد أدرك أمير المؤمنين أن الطاعة له شىء . والقناعة الداخلية شىء آخر . وأن يكون جرير ﷺ مع قبيلته التى أحياها من جرير. وأعاد شراذمها من كل قبائل العرب . أن يكون كارهًا لقتال فارس ليس بالأمر الذى يُغضّ النظر عنه . ولهذا جبر هذا الكسر بإعطاء أربعة أخماس الخمس لجرير كيف يتمكن من الإعادة الفعلية لبناء القبيلة الجديد . والإنفاق على أبنائها الذين يتجاوزون الآلاف ومن خلال لقاء مباشر مع عمر ﷺ ليوظف هذه الطاقة الجديدة فى خدمة الإسلام ، وفى حرب فارس . ونجح ﷺ أيما نجاح فى ذلك . فقد شاركت بجيلة فى القادسية أعظم مشاركة وكان جرير ﷺ من أعظم القادة المقاتلين فيها . (وكان معه ـ أى مع سعد ـ ألفان من بجيلة) [3] .

(١ ، ٢) أسد الغابة لابن الأثير ١ / ٣٦٩ .

(٣) تاريخ الطبرى ٢ / ١٤ .

(وجعل على مقدمة الناس هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ـ وعلى ميمنتهم جرير بن عبد الله البجلى ، وعلى ميسرتهم زهرة بن حوبة التميمى) (١) .

وقالوا (حمل الناس ليلة الهرير عافه ، ولم ينتظروا بالحملة سعداً . وكان أول من حمل القعقاع فقال : اللهم اغفرها له وانصره ، وقال : واتميماه سائر الليلة . ثم قال : أرى الأمر ما فيه هذا فإذا كبرت ثلاثًا فاحملوا . فكبر واحدة فحملت أسد . فقيل : قد حملت أسد . فقال : اللهم اغفر لهم وانصرهم ، واأسداه سائر الليلة ، ثم قيل : حملت النخع . فقال اللهم اغفر لهم وانصرهم ، وانخعاه سائر الليلة ، ثم قيل حملت بجيلة ، فقال : اللهم اغفر لهم وانصرهم : وابجيلتاه . ثم حملت الكنود ، فقيل حملت كندة ، فقال : واكندتاه ، ثم زحف الرؤساء بمن انتظر التكبيرة . فقامت حربهم على ساقٍ حتى الصباح . فذلك ليلة الهرير) (٢).

قالوا : (واجتلدوا تلك الليلة من أولها حتى الصباح لا ينطقون ، كلامهم الهرير ، فسميت ليلة الهرير) (٣). وعن أبى كعب الطائى قال : أصيب من الناس قبل ليلة الهرير ألفان وخمسمائة . وقتل ليلة الهرير ويوم القادسية ستة آلاف من المسلمين . فدفنوا فى الخندق بحيال مشرّق) (٤) .

(وعن اسماعيل بن أبى خالد مولى بجيلة ،عن قيس بن أبى حازم البجلى ، وكان ممن شهد القادسية مع المسلمين،قال:كان معنا يوم القادسية رجل من ثقيف،فلحق بالفرس مرتداً،فأخبرهم أن بأس الناس فى الجانب الذى به بجيلة،قال:وكنا ربع الناس. فوجهوا إلينا ستة عشر فيلاً ، وإلى سائر الناس فيلين وجعلوا يلقون تحت أرجل خيولنا الحديد ،ويرشقوننا بالنشاب . وقرنوا خيولهم بعضها إلى بعض لئلا يفروا . . . وقال جرير بن عبد الله البجلى:

أنـا جـريـر كنيـتى أبو عمرو ... قد نصـر الله وسعـد فى القصـر

فقال سعد يجيب جريراً :

ومـا أرجـو بجيلة غـير أنـى ... أؤمـل أجـرهم يـوم الحسـاب
فقـد لقيـت خيولهم خـيولاً ... وقـد وقـع الفوارس فى ضِـراب
وقـد دلفت بعرصتهـم فيولاً (٥) ... كأن زهاءهـا إبـل جـرابُ) (٦)

(١ ـ ٤) تاريخ الطبرى مقتطفات / ٤٢٤ ـ ٤٣١ .

(٥) جمع فيل .

(٦) تاريخ الطبرى ٢ / ١٤ .

ب ـ وفد أحمس

(وهم فى النسب بنو عم بجيلة .

فبجيلة ولد عبقر بن أنمار بن إراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد ابن أدد .

وأحمس ولد الغوث بن أنمار بن إراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن أدد .

ومن ولد الغوث بن أنمار : أحمس بن الغوث ، بطن لهم سوابق فى الإسلام ، نهض منهم مائة وخمسون فارسًا مع جرير بن عبد الله إلى حرق ذى الخلصة . صنم لهم كانوا يعبدونه . فبارك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها ، منهم بنو نقر ابن عمرو . . . بن أسلم بن أحمس بطن ، ومنهم طارق بن شهاب . . . بن النقر بن عمرو له صحبة ، وقيس بن أبى حازم الفقيه . واسم أبى حازم عوف بن عبد الحارث . . . ابن جشم بن النقر ولأبيه صحبة) (١) . وتتواتر الأخبار عن فضل أحمس وخيلها ورجالها .

(قال ابن سعد :

قدم قيس بن غربة الأحمسِى فى مائتين وخمسين رجلاً من أحمس . فقال لهم رسول الله ﷺ : «من أنتم ؟ » . فقالوا : نحن أحمَس الله ـ وكان يقال لهم ذلك فى الجاهلية . فقال لهم رسول الله ﷺ :

« وأنتم اليوم لله » .

وقال رسول الله ﷺ لبلال :

« أعط ركب بجيلة وابدأ بالأحمسيين » . ففعل .

وعن طارق بن شهاب رضي الله عنه قال : قدم وفد بجيلة على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ:

« اكتبوا البجليين وابدؤوا بالأحمسيين » .

فتخلف رجل من قبس . قال : حتى أنظر ما يقول لهم رسول الله ﷺ قال : فدعا لهم رسول الله ﷺ خمس مرات:

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٣٨٨ ، ٣٨٩

« اللهم جُدْ عليهم ، اللهم بارك فيهم » .

وفى رواية . قدم وفد أحمس ووفد قيس . فقالوا « ابدؤوا بالأحمسيين قبل القيسيين » .

ثم دعا لأحمس فقال :

« اللهم بارك فى أحمس وخيلها ورجالها » سبع مرات . رواه الإمام أحمد) (١).

والمرجح أن وفد بجيلة وأحمس قدموا معًا . ولا عجب فى ذلك . فقطع هذه الصحراء بآلاف الأميال ليس بالأمر السهل ، ومن المنطقِى أن يقدم الوفدان معًا . ومع كل التكريم الذى لقيه جرير ﷺ كما ذكرنا آنفًا . فقد لقى وفد أحمس تكريمًا مكافئًا . وقدَّمهم رسول الله ﷺ على وفد بجيلة وحرّك حوافز الخير فيهم منذ اللحظة الأولى فهم أحمس الله فى الجاهلية ، وهم لله فى الإسلام .

وكان لابد لهذا الثناء أن يثمر واقعًا حيا جهاديًا نشهده من خلال رواية ابن سعد التى جمعت بين القبيلتين على صعيد واحد .

(فقال رسول الله ﷺ لبلال: « أعط ركب بجيلة وابدأ بالأحمسيين ». ففعل . وكان نزول جرير بن عبد الله على فروة بن عمرو البياضىِ . وكان رسول الله ﷺ يسائله عما وراءه . فقال : يا رسول الله ، قد أظهر الله وأظهر فى مساجدهم وساحاتهم . وهدَّمَت القبائل أصنامها التى كانت تُعبد . . .) .

غير أن الصنم الأكبر عند خثعم وبجيلة لا يزال قائمًا محاطًا بالقوة والمنعة .

« قال ـ أى رسول الله : « فما فعل ذو الخَلَصَة ؟ » .

قال : هو على حاله قد بقى . والله مريح منه إن شاء الله) .

ويدرك جرير ﷺ أنه لا بد من معركة حاسمة مع خثعم حتى يُخَلصَ إلى ذى الخلصة ويهدم كما هدم الطفيل بن عمرو الدوسى ذا الكفين .

ولهذا كانت هناك مهمة رسمية كُلف بها جرير ـ ﷺ أنه يمضى مع خيل أحمس المباركة فيدرك بها عرش ذى الخَلَصة .

(فبعثه رسول الله ﷺ إلى هدم ذى الخَلصَة وعقد له لواءً . فقال : إنى لا أثبت على الخيل .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٣٩٨ .

فمسح رسول الله ﷺ بصدره وقال :

« اللهم اجعله هاديًا مهديًا » .

فخرج فى قومه وهم زهاء مائتين . فما أطال الغيبة حتى رجع .

فقال رسول الله ﷺ : « هدمته ؟ » .

قال : نعم والذى بعثك بالحق . وأخذت ما عليه ، وأحرقته بالنار . فتركته كما يسوء من يهوى هواه ، وما صدنا عنه أحد . قال :

فبرَّك رسول الله ﷺ يومئذ على خيل أحمس ورجالها) (١) .

لقد كان قائد الحملة فارسًا غير مشهور رغم زعامته فى قومه . وها هو يعترف بين يدى قائده ﷺ أنه لا يثبت على الخيل .

وماذا يستطيع أن يفعل الفارس الذى لا يثبت على فرسه . لم تأخذه العنجهية . فيعلن واقعه أمام قومه . فهو يعلم أنه بين يدى رسول رب العالمين . وهى فرصة سانحة بدعوة من رسول الله كى يتجاوز هذه الثغرة فى حياته . ألم يبارك رسول الله ﷺ فى كل أجزاء جسمه . فلم لا يطلب الدواء من سيد الخلق . إنى لا أثبت على الخيل :

ولم يكن الجواب له أن يتنحى ، ليحل محله أحد فرسان أحمس . فالقيادة ، والزعامة ليست فروسية فقط إنما هى شخصية متكاملة لها مقوماتها الكبرى . ورسول الله ﷺ يريد لهذا السيد ألا يفقد عنصراً من عناصر القيادة . وهو الثبات على الخيل فى مجتمع يعطى للفروسية الوزن الأكبر . ويريد له من جهة ثانية أن يقوم بتجربة عملية فى قيادة قومه ضمن المنظور الإسلامى بعد أن كان القائد فى المنظور الجاهلى فيضرب رسول الله ﷺ على صدره لا ليثبت على الخيل فقط . بل ليثبت على هذا الدين ويكون مشعل هدى ونور فى قومه ، فكانت الدعوة له .

« اللهم اجعله هاديًا مهديًا » .

طلب الثبات على الخيل . فجاءته دعوة الثبات على الهدى ولدين والحق . إضافة لتلك .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

وكانت دورة أركان عليا خاضها جرير رضي الله عنه . فى قيادة هؤلاء المائتين لهدم ذى الخلصة رمز الشرك الأكبر فى اليمن ، ولمواجهة عتاة الشرك وجهابذته كذلك .

لقد كان الجهاد فى سبيل الله هو دوره الأركان العليا على الجندية وعلى القيادة .

وفى وقت قصير نسبيًا . عاد إلى رسول الله ﷺ . نفذ المهمة كاملة ؛ هدّم «ذى الخلصة » ، وحرَّقه بالنار . وجعله عبرة لمن يعتبر ، ولم يجرؤ أحد على مواجهته.

ونقف هنا أمام معلم خالد من معالم التربية النبوية .

فلم يأت هنا ﷺ ليعطى الإنجاز كله للقائد العظيم . فهو الذى فتح ، وهو الذى هدم ، وهو الذى حقق النصر ، رغم ما رأينا كثرة احتفائه ﷺ بهذا القائد الشاب .

إنما تأتينا عظمة المعلم فى الالتفات إلى الجنود الصامتين والفرسان العظام الذين لم نعرف أسماءهم وبتوفيتهم حقهم فى هذا الإنجاز الضخم.

قال : فبرَّك رسول الله يومئذٍ على خيل أحمس ورجالها وليس عى خيل بجيلة ورجالها . وكما تقول رواية الإمام أحمد أنه برَّك عليهم سبع مرات على القبيلة وخيلها ورجالها وفرساتها . فهم خيل الله ، وأحمس الله . وجنود الله . حتى الخيل . شملتها رحمة الدعوة المهداة والدعوة له أن يكون هاديًا مهديًا بالبركة . ومضى جرير رضي الله عنه القائد الفذ الداعية الوسيم العظيم بتبريكاته ومضت أحمس وجنودها وخيلها ورجالها . بالتبريكات التى تجعلهم على ثغرة الجهاد العظيم للمستقبل القادم للإسلام .

جـ ـ وفد خثعم

لقد كانت طبيعة النزعات الجاهلية تقتضى أن تكون خثعم دائمًا فى مكان المواجهة لبجيلة . فقد تحالف أبناء بجيلة كلهم ضد بنى أخيهم خثعم . ومن أجل ذلك كانت قبيلة خثعم تلجأ إلى جوار القبائل الأخرى لتواجه طغيان فروع بجيلة بنى الأم الواحدة التى ينتسبون إليها . وشهدنا خثعم كيف نكبت حين انضمت إلى أهل جرش من صُرَد ابن عبد الله الأزدى الذى كلف برفع راية الجهاد أنى حلَّ وأنىَّ ارتحل . وشهدناها كيف نكبت . وقد انهار صنمها الذى تقدسه .وديس تحت الأقدام وحُرّق بالنار .

وفتحت عينيها على كوة من النور . فما تغنى هذه الألهة عنها فتيلا . ولتحاول كما عمل العرب كلهم أن تصل خيوطها بمحمد رسول الله .

قالوا : (وفد عثعث بن زَحْر ، وأنس بن مدرك فى رجال من خثعم إلى رسول الله ﷺ بعدما هدم جرير بن عبد الله ذا الخلصة ، وقتل من قتل من خثعم . فقالوا : آمنا بالله ورسوله ، وما جاء من عند الله ، فاكتب لنا كتابًا نتبع ما فيه . فكتب لهم كتابًا شهد فيه جرير بن عبد الله ومن حضر) (١) .

وكتب رسول الله ﷺ لخثعم :

(« هذا كتاب من رسول الله ﷺ من حاضر بيشة وباديتها أن كل دم أصبتموه فى الجاهلية فهو عنكم موضوع ، ومن أسلم منكم طوعًا أو كرهًا فى يده حرث من خبار أو عزاز تسقيه السماء أو يرويه اللثى،فزكا عِمارة من غير أزمة ولا حطمة فله نشره وأكله . وعليهم فى كل سيح العشر ، وفى كل غَزب نصف العشر ، شهد جرير بن عبد الله ومن حضر ») (٢) .

لقد كان من المهم جداً أن يشهد جرير الخصم الأول لخثعم والذى لم تجف دماء خثعم بعد على يديه على هذا الأمان الذى طوى صفحة الثأر الجاهلىِ بين خثعم وكل خصومها ، وعلى خصومها وعلى رأسهم بجيلة ، فقد آخى الإسلام بينهم ، وكل دم أصابوه فى الجاهلية موضوع ، وتم بهذه اقتلاع أكثر من نصف الجاهلية : أما النصف الآخر فليس على الماضى وثاراته : إنما على الحاضر والمستقبل . على الأرض الخصبة والمرعى الهنىء ، والماء الرغد . فهى للأقوى ، وغارات الجاهلية وغزواتها إنما تقوم على ذلك : (ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، وأن يأكل القوى فينا الضعيف) . أما الآن وفى ظل سماحة الإسلام وشرعته . فلا .

لقد تم تحديد الأراضى الزراعية وغير الزراعية لخثعم فى حاضرة بيشة وباديتها . وكل ما وضعت يدها عليه فهو لها ، فالأرض لمن يعمل لها ، ويأكل ويطعم . ويبيع ويشرى . ويحفظ حق الله فى العشر مما سقته السماء ، ونصف العشر فيمن كان له مؤنة وعمل . . . فالإسلام هو الذى حضّر العرب ، وهو الذى نقلهم من البداوة إلى الحضارة . وهذه النماذج التى نشهدها من الكتب النبوية إنما تنظم الجزيرة العربية قاطبة . وتحدد الملكيات فيها .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٤٨ .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٥٠٣ .

د ـ وفد همدان

مضت خثعم ومضى ولد أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك . ومضى الكلام فى جميع ولد نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

وهؤلاء ولد أخيه الخبار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ) (١) .

من أشهر ولد الخبار بن مالك والذين فيهم الجمهرة والعدد :

بنو همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ وقبل أن نتحدث عن وفدهم . نتحدث عن وفد رسول الله ﷺ إليهم .

وروى البيهقى بإسناد صحيح من حديث ابن اسحاق عن البراء أن النبى ﷺ بعث خالد بن الوليد ﷺ إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام . قال البراء .

فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد ، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه .ثم إن النبى ﷺ بعث على بن أبى طالب وأمره أن يعقب خالدًا ألاَ رجلاً ممن كان مع خالد أحب أن يُعقّب مع على فليعقب معه . قال البراء :

فكنت فيمن عقَّب مع علىٍ . فلما دنوت من القوم خرجوا إلينا . فصلى بنا على ثم صفنا صفًا واحدًا ، ثم تقدَّم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ . فأسلمت همدان جميعًا . فكتب على إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم . فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرَّ ساجدًا ثم رفع رأسه فقال :

« السلام على همدان ، السلام على همدان » .

وأصل الحديث فى صحيح البخارى (٢) .

* * *

لقد كان خالد ﷺ بطلاً لا يشق له غبار .وما من معركة خاضها مع عدوٍ له إلا انتصف منه . ولكن رسول الله يريد لجنديه خالد أن يكون داعية إلى الله . فأصدر أوامره له بالتوجه إلى همدان فى الوقت الذى أصدر أوامره لعمرو بن العاص ـ زميل خالد فى القيادة والإسلام ـ بالتوجه إلى عُمان ، وأثمرت رحلة عمرو وانتهت بإسلام

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ١ / ٣٩٢ .
(٢) البخارى (ح ٤٣٤٩) .

ملكى عمان عبد وجيفر ولدى الجلندى . لكن رحلة خالد تعثرت ولم تستمر يومًا أو يومين أو شهرًا أو شهرين . إنما استمرت ستة أشهر . والقوم على عنادهم ورفضهم الدعوة الإسلامية . والدخول فيها .

وقد استغرب رسول الله ﷺ هذا الموقف منهم ، فَرِقَّتهم وصدق شكيمتهم لا تتناسب مع هذا الموقف ، لقد سبق وتعرف رسول الله ﷺ على وافد منهم وهو فى مكة ،فى الوقت الذى كانت كل القبائل تقابل رسول الله ﷺ بالصد والتكذيب . حيث أسلم وأبدى استعداد قومه لحماية الرسول ﷺ ،وقتال العرب كافة كما فعلت الأنصار .

يحدثنا عن هذا اللقاء ابن سعد فيما رواه عن أشياخ فى أرحب من همدان قالوا :

قدم قيس بن مالك بن سعد بن لأى الأرحبى على رسول الله ﷺ وهو بمكة فقال: يا رسول الله ، جئت لأؤمن بك وأنصرك . فقال له :

« مرحبًا بك أتأخذونى بما فىَّ يا معشر همدان ؟ » .

قال : نعم بأبى أنت وأمى .

قال : « فاذهب إلى قومك ، فإن فعلوا فارجع أذهبُ معك » .

فخرج قيس إلى قومه فاغتسلوا فى جوف المجورة ، وتوجهوا إلى القبلة . ثم خرج بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ . فقال :

قد أسلم قومى وأمرونى أن آخذك .

فقال النبى ﷺ : « نعم وافد القوم قيس » وقال : « وفيت وفى الله بك » .

ومسح بناصيته وكتب عهده على قومه همدان ـ أحمورها [١] وغربها[٢] وخلطها[٣]ومواليها أن يسمعوا له ويطيعوا وأن لهم ذمة الله وذمة رسوله ما أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة [٤] والرواية الأخرى تختلف فى تفصيلاتها . لكنها أقرب إلى التصور فيما عرف عن همدان خلال العهد المدنى ، وفى العهد المكى لم تكن الزكاة قد فرضت بعد وهى مروية كذلك عن أشياخ من أرحب قالوا :

---

(١) أحمورها : قُدَمُ ، وآل ذى مران ، وآل ذى العوة وأذواء همدان .

(٢) غُربها : أرحب ، ونهم وشاكر ، ووادعة ، ويام ، ومرهبة ودلان وخارف وعُذر وحجور .

(٣) خلائطها : المنتمون إليهم من قبائل أخرى .

(٤) الطبقات الكبرى ١ / ٣٤٠ ، ٣٤١ .

عرض رسول الله ﷺ نفسه بالموسم على قبائل العرب فمرَّ به رجل من أرحب يقال له: عبد الله بن قيس بن أم غزال فقال : « هل عند قومك من منعة ؟ » . قال : نعم . فعرض عليه الإسلام فأسلم ثم إنه خاف أن يخفره قومه فوعده الحج من قابل ثم وجه الهمدانى يريد قومه ، فقتله رجل من زبيد يقال له : ذباب . ثم إن فتية من أرحب قتلوا ذبابًا الزبيدى بعبد الله بن قيس .

والرواية الثانية أرجح، لكنها مع ذلك تؤكد الرغبة الصادقة لهمدان بدين الله . فكيف يمر ستة أشهر. ولم يتزود بالإسلام واحد من همدان. وكان خطاب خالد رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يشير إلى تعثر مهمته. فجاء جيش آخر بقيادة جديدة. وكان القائد الجديد هو الفتى على بن أبى طالب . وحتى لا يحدث أى تحسس بين الجيشين . كانت التوجيهات بعودة خالد رضي الله عنه وجيشه إلا من أحب أن يبقى وينضم إلى الجيش الجديد وكان البراء بن عازب رضي الله عنه أحد الجنود المخضرمين فى الجيشين. وهو الذى قص علينا هذه الرواية .

لا ندرى سر التحول العجيب عند همدان من الصدود الكامل إلى الإقبال الكامل . ولعل من أهمها أن يكون رسول الله ﷺ قد بعث إليهم ابن عمه وأقرب الناس إليه وشعروا فى ذلك تكريمًا خاصًا لهم . فاقتربت نفوسهم وهفت إلى هذا الدين الجديد . وقد تكون تلاوة كتاب النبى ﷺ عليهم ذات وقع عظيم حدا بهم مع رسالة على أن يجيبوا لدعوة الله . ولعل صفَّ على رضي الله عنه لجيش المسلمين كان له وقع معنوى عليهم باستعداد المسلمين لحربهم مع أن عدد المسلمين قليل لا يرهب وقد تكون العوامل الثلاثة جميعًا قادت إلى هذه النتيجة السعيدة

إن خالدًا الذى كان يدير أعظم المعارك الحربية مع الروم والفرس والعرب فيما بعد، ويوقع بهم . وقف عاجزًا أمام إصرار همدان على عدم الاستجابة لدين الله عز وجل ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس] ولقد قال الله تعالى لنبيه ذلك فلا غرو أن يقال إلى خالد مثل هذا السؤال .

ولم تكتف همدان بإسلامها مع على رضي الله عنه : إنما سارعت إلى إرسال وفدها للمدينة المنورة .

ونمضى مع وفدها إلى هناك :

قدم وفد همدان مع رسول الله ﷺ بمقطعات الحبرات مكففة بالديباج . وفيهم حمزة بن مالك من ذى مشعار فقال رسول الله ﷺ :

« نعم الحِي همدان ما أسرعها إلى النصر ، وأصبرَها على الجهد ومنهم أبدال وأوتاد الإسلام » لقد فرح رسول الله ﷺ بإسلام همدان ـ وسجد شكراً لله رب العالمين مع إسلامهم ، وها هو يراهم عنده الآن . بقياداتهم وزعمائهم يبايعونه على الإسلام والجهاد .

وهذا وصف آخر لهم أورده ابن القيم فى زاد المعاد .

(وقدم عليه وفد همدان منهم مالك بن النمط،ومالك بن أيفع وضمام بن مالك ، وعمرو بن مالك . فلقوا رسول الله ﷺ . وعند منصرفه من تبوك وعليهم مقطعات الحبائر والعمائم العدنية برحال الميس [1] على الرواحل المهرية والأرحبية ، ومالك بن النمط يرتجز بين يدى رسول الله ﷺ ويقول :

إليــك جـاوزك ســـواد الريـف فـى هبـوات الصيـف والخريـف

مخطمــــــــات [2] بجــبال الليــف

وذكروا له كلامًا حسنًا فصيحًا . فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا أقطعهم فيه ما سألوه وأمّرَ عليهم مالك بن النمط واستعمله على من أسلم من قومه) [3].

أما الكلام الحسن الفصيح فقد أورده ابن اسحاق فى السيرة فقال :

يا رسول الله ، نصية [4] من همدان من كل حاضر وباد أتوك على قُلُص نواج متصلة بحبائل الإسلام لا تأخذهم فى الله لومة لائم من مخلاف خارف ويام وشاكر أهل السواد والقوْد [5] أجابوا دعوة الرسول . وفارقوا الآلهات الأنصاب .

وعهدهم لا ينقض عن سنة ماحل [6] ، ولا سوداء عنقفير [7]ما أقام لعلع [8] وما جرى اليعفور بصيلع [9] فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا فيه :

(١) الميس : شجر صلب تعمل من أكوار الإبل ورحالها .
(٢) مخطمات اى : جَعل لهم خُطم وهى الحبال التى تشد على رؤوس الإبل .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٦٥٨ .
(٤) نصية من همدان : أى رؤوسهم وأشرافهم .
(٥) السود هنا : الإبل . والقوْد : الخيل .
(٦) سنة ماحل : الماحل الذى يمشى بالنميمة . والشية : الوشاية .
(٧) سوداء عنقفير : العنقفير : الداهية الشديدة من إضافة الصفة إلى الموصوف .
(٨) لعلع : اسم جبل .
(٩) صيلع : موضع من اليمن كثير الوحش والظباء .

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من رسول الله ﷺ لمخلاف [1] خارف وأهل جناب الهضب [2] . وحقاف الرمل [3] ، مع وافدها ذى المشعار مالك بن نمط، ومن أسلم من قومه أن لهم فراعها [4] ووهاطها [5] وعزازها [6] ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون زلافها[7] . ويرعون عفاءها[8] . لنا من دفئهم [9] وصيرامهم [10] ما سلّموا بالميثاق والأمانة ، ولهم من الصدقة الثلب [11] ، والنّاب [12] ، والفصيل[13] ، والفارض [14]، والداجن [15]، والكبش الحورى[16]. وعليهم فيها الصالخ[17] والقارح[18] . لكم بذلك عهد الله وذمام رسوله . وشاهدكم المهاجرون والأنصار .

فقال فى ذلك مالك بن النمط :

ذكرت رسول الله فى فحمة الدجى[19] ... ونحن بأعلى رحرحان [20] وصلدَد [21]
وهنّ بنا خوص[22] طلائح [23] تغتلى [24] ... بركبانهــا فــى لاحــب [25] متمــدد
على كل فتلاء [26] الذراعين جسرة [27] ... تمر بنا مرّ الهجَفّ [28] الخَفيدد [29]
حلفت برب الراقصات [30] إلى منــى ... صوادر[31] بالركبان من هضب قردد [32]
بأن رســول الله فيــنا مصـــدق ... رسول أتى من عند ذى العرش مهتـدِ
فما حملت من ناقة فــوق رحلهــا ... أشد على أعدائهم مــن محمـــد
إذا مــا طــالب العرف [33] جـــاءه ... وأمضــى بحـــد المشرفى المهــند

(١) المخلاف : كالرستاق فى العراق .
(٢) جناب الهضب : الجناب اسم موضع والهضب . المكان المرتفع .
(٣) حقاف الرمل : من أسماء بلادهم .
(٤) الفراع : جمع فرعة وهو ما ارتفع من الأرض . (٥) الوحاط أو الوهاط :وهو ما اطمأن من الأرض.
(٦) عزازها : ما صلُب من الأرض واشتد وخشن . (٧) علافها : وهو ما تعتلفه الدواب من نبات الأرض .
(٨) العفاء : العافى وهو ما ليس لأحد فيه ملك .
(٩) الدفء : نتاج الإبل وما ينتفع به منها سمى دفئًا لانه يتخذ من أوبارها ما يستدفأ به .
(١٠) الصرام : النخل وأصله قطع الثمرة .
(١١) الثلبّ : من ذكور الإبل الذى هرم وتكسرت أسنانه . (١٢) الناب : المسنّةُ من إناثها .
(١٣) الفصيل : من أولاد الإبل ما فصل عن الرضاع . (١٤) الفارض : المسن من الإبل .
(١٥) الداجن : الشاة التى يعلفها الناس فى منازلهم .
(١٦) الكبش الحَوَرىُ : منسوب إلى الحور وهى جلود تتخذ من جلود الضأن .
(١٧) الصالخ : من البقر والغنم ما كمل وانتهى .
(١٨) القارح من الخيل : الذى دخل السنة الخامسة وجمعه قرح .
(١٩) الدجى : ظلمة الليل . (٢٠) رحرحان : جبل بقرب عكاظ .
(٢١) صلدد : موضع باليمن . (٢٢) خوص : جمع خوصاء أى غائرة الأعين .
(٢٣) قلائص : جمع قلوص وهى من النوق الشابة . (٢٤) تغتلى : تشتد فى سيرها .
(٢٥) اللاحب : الطريق الواضح . (٢٦) الفتل : تباعد ما بين المرفقين عن جنبى البعير .
(٢٧) الجسر : العظيم من الإبل . (٢٨) الهجف : الجافى الثقيل .
(٢٩) الخفيدد : الخفيف . (٣٠) الراقصات : الرقصان : ضرب من المشى .
(٣١) صوادر : رواجع . (٣٢) قردد : المكان الغليظ المرتفع من الأرض .
(٣٣) العرف : المعروف .

لقد عاهد مالك بن النمط ﷺ رسول الله ﷺ على الإسلام عهداً لا تنقضه وشاية واش ولا سعى نمام ما ثبتت الجبال وطارت الطيور ، وأعطى رسول الله ﷺ لمالك بن النمط وقومه كتاباً بحاجة إلى أن يترجم من لغة اليمن إلى لغة الشمال ، فقد حرص رسول الله ﷺ أن يستعمل لهجة همدان فى كتابه حتى كأنما نشأ وترعرع وعاش فيهم ، حدد رسول الله ﷺ فيه الأرض ؛ سهلها وجبلها وعرها ولينها ، عاليها وسافلها بأنها لمالك ما أقاموا على العهد ، واستقاموا على الدين ، لهم كل ما يحتاجونه من علف دوابهم ومرعى غنمهم وإبلهم ، وكل ما ليس له مالك فهو جل لهم يرعون فيه أنعامهم .

أما حق الدولة من أنعامهم فعليهم زكاة الإبل وزكاة النخل وزكاة الغنم حسب الأنصبة المعروفة ، ولهم من الزكاة أنواع محددة من أعمار الإبل والشياه والبقر أى الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والغنم والمعز .

وامتلأ مالك ﷺ رضاً وغمرته سعادة أن ربط زعامته برسول الله ﷺ .

وأصبح واليه فى همدان ، وسيد همدان بالموافقة من رسول رب العالمين لا يكاد يصدق نفسه بما منّ الله عليه من الإيمان ، وعزة هذا الدين ، فراح يصف رحلته الخالدة التى أوصلته إلى رسول الله ﷺ مثل ما وصف كعب بن زهير رحلة الهدى عنده. فرسول الله ﷺ حنين فى قلبه وهوى فى فؤاده من قبل رؤيته منذ أن تحرك الركب ، ومر برحرحان وصلدد ، حتى النوق تهفو لرؤية حبيبها المصطفى ﷺ ، تسرع بركبانها متلهفة لذلك اللقاء السعيد ، غير عائبة بخشونة أرض ، ولا ارتفاع جبل ولا ليونة رمل ، إنها بإيقاعها العظيم ، ومشيتها الراقصة قد وصلت إلى منى ، وكما يهفو الحجيج على إبلهم لمنى وعرفات والكعبة المعظمة كان شوق مالك وركبه وإبله وأهله أكبر من أن يوصف ، لقد تمت البيعة بالرسالة من قبل رؤية الرسول ﷺ ، فهو مصدق مبعوث من عند ذى العرش المجيد ، جاء بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وهل شرفت ناقة فى الوجود بحمل أشرف من سيد ولد آدم ؟

فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أعف وأوفى ذمة من محمد

لقد أدرك مالك ﷺ أنه ربط مصيره بمصير سيد الكونين والثقلين والملأ الأعلى ، وخير خلق الله ، فمن يباريه فى شجاعته ، ومن ذا يباريه فى وفائه ، ومن ذا يباريه فى نجدته وكرمه وجوده ومن ذا يدانيه فى خلقه وسماحته ، وهو المصطفى المختار المجتبى من خلقه ، وهو إمام الأنبياء وسيد الرسل الذين أخذ منهم الميثاق بالإيمان به وعزرته

ونصرته . وأخذ الميثاق من أممهم بالإيمان به .

لقد أدرك مالك رضي الله عنه عمق هذه المعانى ، وأنه ليس مقدم على حلف مع زعيم آخر ، وليست عهداً مع كسرى أو قيصر ، إنه عهد مع رسول رب العالمين المبعوث رحمة للعالمين .

وهكذا مضت همدان جنداً من جند الله على يد ابن عم رسول الله ، والذى بلغ من حبهم له وحبه لهم أن قال فيهم :

ولو كنت بوابًا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

رضى الله عن على وعن همدان ، وأرضاهم فى عليين .

سادسًا

حمير

نسب حمير

لقد كان الإخوة التسعة ولد سبأ من كهلان بن سبأ وهم الذين سبق واستعرضناهم جمعيًا ، أما الأخ العاشر أبو حمير فهو العرنجج .

(فولد يعرب : يشجب بن يعرب بن قحطان ، وفيهم الجمهرة والعدد ، وصيدان ، ووائل ، وكعب ، فولد يشجب سبأ وهو عامر ، وولد سبأ كهلان ، والعرنجج وهو حمير وفيهما العدد والجمهرة) (١) .

ومع أن حمير كانت له دولة كبرى فى اليمن فقد ذكروا بأنهم ممن تيامن من ولد سبأ ، وأمجادهم مذكورة فى التاريخ .

فها نحن مع رسول الله ﷺ بتبوك فى السنة التاسعة للهجرة ، وهو ماض مع جيشه إلى الشام نحضر هذا المشهد :

(فلما كان رسول الله ﷺ بوادِي المشقق سمع حاديًا فى جوف الليل فقال : «أسرعوا بنا نلحقه » ورسول الله ﷺ يقول :

« ممَّن الحادى منكم أو من غيركم ؟ » ، فقالوا : بلى من غيرنا ، قال : فأدركه رسول الله ﷺ : فإذا جماعة قال : « ممن القومِ ؟ » ، قالوا : من مضر ، قال رسول الله ﷺ : « وأنا من مضر » فانتسب حتى بلغ مُضَر .

قال القوم : نحن أول من حدا بالإبل . فقال النبى ﷺ : « وكيف ذلك ؟ » قالوا : بلي ، إن أهل الجاهلية كان يغير بعضهم على بعض ، فأغير على رجل ومعه غلام له فندت إبله ، فأمر غلامه أن يجمعها ، فقال : لا أستطيع ، فضرب يده بعصا ، فجعل الغلام يقول : وايداه ، وايداه ! وتجتمع الإبل ، فجعل سيده يقول : قل هكذا بالإبل ! وجعل النبى يضحك) .

لقد كانت حدود دولة الإسلام فى ذلك الوقت مضر ، والحجاز ، ولم تكن نجد واليمن قد ألقت بقبائلها فى المد الإسلامى . وكانت غزوة تبوك التى بلغ تعداد جنودها ثلاثين ألفًا معظمهم من قبائل مضر وقيس فى الحجاز،فماذا طرح رسول الله ﷺ للأفق البعيد ؟قال رسول الله ﷺ لبلال : « الا أبشركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . وهم يسيرون على رواحلهم فقال :

---

(١) المغازى للواقدى ٣ / ١٠١١ .

« إن الله أعطانى الكنزين فارس والروم » ، وأمدنى بالملوك ؛ ملوك حمير يجاهدون فى سبيل الله ، ويأكلون فىء الله ») .

لقد كانت البشارة عظيمة جدًا ، وهى تعنى : أن اليمن كلها ستشرق بالإسلام ؛ لأن حمير فى أقصى جنوب اليمن ، وستنداح دولة الإسلام حتى تنهى فارس والروم من الأرض ؛ لتصبحا أرضًا إسلامية كان هذا أملا . ولم يكن بينه وبين الواقع إلا بضعة أشهر أو أقل .

وفد ملوك حمير

قال الإمام الهمدانى فى الأنساب:

(كتب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال بن غرب وأخيه نعيم ، وأمر رسوله أن يقرأ عليهم : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾ .

ووفد عليه إلى الحارس بن عبد كلال. فأسلم . فاعتنقه وقال قبل أن يدخل عليه : « ويدخل عليكم من هذا الفج رجل كريم الجد بن صبيح الخدين فكأنه . . . » .

قال الحافظ رحمه الله ، والذى تضافرت عليه الروايات أنه أرسل بإسلامه وأقام باليمن ، وروى ابن سعد رحمه الله عن رجل من حمير أدرك رسول الله ﷺ ووفد عليه فقال : قدم رسول الله ﷺ مالك بن مرارة الرهاوى رسول ملوك حمير بكتابهم وإسلامهم وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال وإلى النعمان ، قيل ذى يزن ومعافر وهمدان وذلك فى شهر رمضان سنة تسع .

وقال ابن إسحاق : مقدم رسول الله ﷺ من تبوك .

فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن ينزل ويكرمه ويضيِّفَهُ) .

لقد أدرك ملوك حمير أن محمدًا رسول الله حين رأوا أنه وصل تبوك بجيشه ، ودخل أرض الروم . وأسر أمير دومة الجندل . وبايعه عرب الشمال . فلم يكونوا أولى من عرب الجنوب ببيعته . وهم يتوارثون قصة سيف بن ذى يزن مع عبد المطلب جد محمد ﷺ .

(فأدناه ثم قال له : يا عبد المطلب ، إنى مفض إليك من سر علمى أمرًا ، لو غيرك يكون لم أبح به . . . إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة كانت له الإمامة . ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة . . . هذا حينه الذى يولد فيه أو قد ولد اسمه محمد ،

يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، قد ولدناه مرارا ، والله باعثه جهارا ، وجاعل له منا أنصارا يعز بهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس عن عرض ، ويستفتح بهم كرائم الأرض، يعبد الرحمن ويدحض الشيطان ، ويخمد النيران ، ويكسر الأوثان ، قوله فصل، وحكمه عدل . . . والبيت ذى الحجب ، والعلامات على النقب ، إنك لجده يا عبد المطلب غير كذب . فخر عبد المطلب ساجدًا . . . وقال : نعم أيها الملك ، إنه كان لى ابن وكنت به معجبًا وعليه رقيقًا ، وزوجته كريمة من كرائم قومى آمنة بنت وهب . . . فجاءت بغلام فسميته محمدا) [١] .

كما أن باذان قد أسلم وهو عامل كسرى على اليمن ، فأى معنى من بعدهم عن هذا الدين بعد هذه الآيات التى شهدوها .

وكان فرح رسول الله ﷺ عظيمًا بهم وبإسلامهم ، فقد تحققت البشارة مباشرة . بعد العودة من تبوك ، يبدو ذلك من الكتاب الهام الذى بعثه لهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وكتب إليهم رسول الله ﷺ :

« أما بعد ذلكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو» .

« أما بعد ، فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم ، فبلَّغ ما أرسلتم به ، وخبَّرَ عما قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين .

فإن الله تبارك وتعالى قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وأعطيتم من المغنم خمس الله وخمس نبيه وصفيه . وما كتب على المؤمنين من الصدقة .

١ ـ (من العقار عشر ما سقت العيون وسقت السماء) .

٢ ـ (وعلى ما سقى الغرب [٢] نصف العشر) .

٣ ـ (إن فى الإبل الأربعين ابنة لبون [٣] . وفى ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر ، وفى كل خمس من الإبل شاة ، وفى كل عشر من الإبل شاتين) .

٤ ـ (وفى كل أربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع [٤] جذع [٥] أو جذعة) .

---

(١) السيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبى مقتطفات ١ / ١٨٧ ، ١٨٨ .
(٢) الغرب : الدلو العظيمة .
(٣) ابنة لبون : من الإبل ما أتت عليه سنتان ودخل فى الثالثة .
(٤) التبيع : ولد البقرة أول سنة .
(٥) الجَذَعَ : من الإبل ما دخل فى السنة الخامسة ومن البقر والغنم ما دخل فى السنة الثانية .

٥ ـ (وفى كل أربعين من الغنم سائمة [(١)] وحدها شاة » ، وإنها فريضة الله التى فرض على المؤمنين فى الصدقة فمن زاد خيراً فهو خير له) .

٦ ـ (ومن أدى ذلك ، وأشهد على إسلامه وظاهر [(٢)] المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم) .

٧ ـ (ومن كان على يهودية أو نصرانية فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية على كل حالم ـ ذكر أو أنثى حر أو عبد ـ دينار وافٍ من قيمة المعافر أو عوضه ثيابًا . فمن أدى ذلك إلى رسول الله ﷺ فإن له ذمة الله وذمة رسوله) .

٨ ـ (ومن منعه كان عدواً لله ولرسوله) .

٩ ـ أما بعد ، فإن رسول الله ﷺ أرسل إلى زرعة ذى يزن أن إذا أتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيراً ؛ معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم وأبلغوها رسلى ، وأن أميرهم معاذ بن جبل ، فلا ينقلبن إلا راضيًا .

١٠ ـ (أما بعد ، فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنه عبده ورسوله ، ثم إن مالك بن مرارة الرهاوى قد حدثنى أنك أسلمت من أول حمير ، وقتلت المشركين ، فأبشر بخير ، وآمرك بحمير خيراً . ولا تخونوا ولا تخاذلوا ، فإن رسول الله ﷺ هو مولى غنيكم وفقيركم) .

١١ ـ (وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته ، إنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل) .

١٢ ـ (وإن مالكًا قد بلغ الخبر ، وحفظ الغيب ، وآمركم به خيرا) .

١٣ ـ (وإنى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى وأولى دينهم وأولى علمهم . وآمركم بهم خيرا فإنهم منظور إليهم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) [(٣)].

الكتاب هو دستور الدولة المسلمة التى قامت فى اليمن فى ظل ملوك حمير الذين كانوا ملوكها فى الجاهلية ، والأصل فى الدستور أن ينص على الكليات العامة . وقد

---

(١) السائمة : التى ترعى وحدها .

(٢) ظاهر : عاون .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤ / ١٧٩ ، ١٨٠ ، وسبل الهدى والرشاد ٦ / ٤٩٠ ـ ٢٩٢ .

خاص فى الجزئيات هنا لأنها ميزان الالتزام بالإسلام ، وشرعته ، وهى أنصبة الزكاة على الزروع والثمار والدواب ، والجزية على غير المسلمين ، وتحديد هوية المسلم وغيره فى ظل الدولة الإسلامية التى قامت فى اليمن بجوار دولة الإسلام فى الحجاز ، وحيث إنهم ملوك عريقون فى الملك فلا داعى لعزلهم ما استقاموا ونفذوا شريعة الله . وقد أرسل رسول الله ﷺ إليهم مجلس الشورى يشرف على تصرفاتهم ويقبض صدقاتهم ويدفعها إلى رسول الله ﷺ إن لم يكن عندهم فقراء تدفع إليهم .

لقد حددت هذه الوثيقة المواطنة للمسلمين ولليهود والنصارى كل على دينه . وعلى كل التزاماته ، فالزكاة على المسلمين ـ والزكاة عبادة ـ والجزية على اليهود والنصارى ، لكن الذين يرفضون هذه وتلك فليس لهم هذه المواطنة ، وهم أعداء الله ورسوله ، كما حدد الخطاب معاذ بن جبل رضي الله عنه رئيس مجلس الشورى الذى لا يجوز أن ينقلب إلا راضيا ، ويطالعنا فى مكان آخر كتاب عند ابن سعد هذا نصه .

(وكتب رسول الله ﷺ إلى الحارث وعمرو ونعيم بن عبد كلال من حمير .

« سِلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله ، وأن الله وحده لا شريك له ، بعث موسى بآياته، وخَلق عيسى بكلماته ، قالت اليهود : عزير ابن الله،وقالت النصارى : الله ثالث ثلاثة عيسى ابن الله ») ولعل هذا الكتاب هو لتوثيق الجانب الإيمانى العقيدى فى بيئة تعج باليهود والنصارى الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وادعوا أنهم مؤمنون موحدون .

كما رسم رسول الله ﷺ لرسوله عياش بن أبى ربيعة المخزومى وهو الذى يشرح بداية النص عند الصالحى وأن يقرأ عليهم ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① ﴾ [البينة] خطة العمل ، فقال لعياش :

« إن جئت أرضهم فلا تدخلن ليلاً حتى تصبح ، ثم تطهر فأحسن طهورك ، وصل ركعتين ، وسل الله النجاح والقبول ، واستعذ بالله ، وخذ كتابى بيمينك وادفعه بيمينك فى أيمانهم فإنهم قابلون ، واقرأ عليهم ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ ... ﴾ ، فإذا فرغت منها فقل : آمن محمد ،وأنا أول المؤمنين ، فلن تأتيك حجة إلا دحضت. ولا كتاب وزخرِف إلا ذهب نوره ، وهم قارئون عليك ، فإذا رطنوا فقل : ترجموا ، وقل :

حسبى الله﴿آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ⑮ ﴾ [الشورى]) (١) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٨٢ .

العجيب فى هذا الكتاب هذه التفصيلات الدقيقة للخطة التى وضعها رسول الله ﷺ لعياش رضي الله عنه . فهو يقدم على قوم عريقين فى النصرانية . ولهم عقائدهم المتشعبة ، وحججهم التى يمارون فيها بالباطل . وكانت الخطة من تسعة بنود :

١ ـ إذا جئت أرضهم فلا تدخلن ليلاً حتى تصبح .

٢ ـ ثم تطهر وأحسن طهورك .

٣ ـ وصل ركعتين .

٤ ـ وسل الله النجاح والقبول .

٥ ـ واستعذ بالله .

٦ ـ وخذ كتابى بيمينك .

٧ ـ وادفعه بيمينك فى أيمانهم . فإنهم قابلون .

٨ ـ واقرأ عليهم : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ ﴾ [البينة : ١]

٩ ـ فإذا فرغت منها فقل : آمن محمد وأنا أول المؤمنين .

ونلحظ أن هذه الفقرات التسع تنصب على التهيئة النفسية والجسدية لعياش فى مهمته هذه ؛ فلا يدخل ليلاً حتى لا يتهم أو يؤخذ كمغير عليهم ، والتهيئة للدعاء الصادق لا بد أن يسبقه الطهارة وإحسانها والوضوء ، وصلاة ركعتين .

وهذه سنته فى قضاء الحاجات ، فصلاة الاستخارة ، وصلاة الحاجة ، وصلاة الفريضة والسنة كلها تحتاج إلى الطهارة والوضوء ، والتوجه الصادق لله عز وجل ؛ كى يكتب التوفيق فى هذه المهمة ، فهو يريد أن يُدخل ملوكًا فى دين الله وهم فى عزهم وتيجانهم وحكمهم .

ويأتى سؤال الله بالنجاح والقبول مرتبطًا بمقدماته مبنيًا على حيثياته . فالدعاء على طهارة غير الدعاء بدونها ، والدعاء بوضوء جديد أحرى بالقبول منه بالوضوء السابق ، وصلاة ركعتين بين يدى الدعاء يعنى سجود الأَعْظُم والقلب للرب ، والاستعاذة بالله من شر شياطين الإنس والجن .

كل هذه أمور قلبية نفسية جسدية ، لكن هناك عالم الأسباب الذى وضعت خطته إضافة إلى عالم الرجاء المتعلق برب الأرباب أن يكتب التوفيق والنجاح والفلاح .

إنه درس لكل مسلم فى الأرض ، يتعامل فيه المؤمن مع الأعداء الفكريين وغيرهم.

أما عالم الأسباب فقد وُضعت خطته النبوية كما يلى :

١ ـ الكتاب النبوى الذى يسلمه عياش رضي الله عنه للملوك .

٢ ـ وكما هو الحال فى الأعراف الدبلوماسية ، وتقديم أوراق الاعتماد لدى رؤساء الدول ، واتباع البروتوكولات المطلوبة ؛ أخذ الكتاب باليمين وتسليمه لهم باليمين وهم قابلون ، ولا يجوز الإخلال بأية جزئية من هذه الجزئيات .

٣ ـ بعد تقديم الكتاب النبوى يتلى قول الله عز وجل : ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ ...** ﴾ .

وتلاوة هذه السورة تعنى استلام الرسالة من رسول رب العالمين الذى بشر به عيسى عليه الصلاة والسلام ، وتلقى آخر رسالة ربانية ، فالبينة هو رسول الله ﷺ ومعه الصحف المطهرة التى يتلوها عن ربه ، وفى هذه الرسالة تصحيح لكل التحريفات السابقة . وإلغاء لها .

﴿ **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)** ﴾ [البينة] .

فهو الدين القيوم على الأديان الأخرى والمقوم لها ، والمصحح لتحريفات أهل الهوى من الأحبار والرهبان .

إن تلاوة سورة البينة إضافة إلى نص الكتاب النبوى إضافة إلى الجملة النصبة التى حفظها رسول الله ﷺ لسفيره عياش .

٤ ـ فإذا فرغت منها فقل : آمن محمد وأنا أول المؤمنين .

فالرسول المصطفى آمن بما أنزل إليه من ربه ، وهو أول المؤمنين فى أرض اليمن .

هذه العمليات الثلاثة كفيلة بتحقيق الهدف الرئيسى لهذا التخطيط كله .

« فلن تأتيك حجة إلا دحضت ، ولا كتاب زخرف إلا ذهب نوره » .

لابد أن يمحو الله الباطل بكلماته ،ويحق الحق ففى هذه السورة: فهم ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)** ﴾ [التوبة] . فيذهب الزخرف ويضيع أمام وهج نور الحق الذى يبدد ويحرق أباطيل الكفار ودجلهم .

٥ ـ ثم تأتى الكلمة الخامسة التى تجمع ولا تفرق ، وتؤلف القلوب ، وتقرب النفوس .

وعليك أن يتسع صدرك لحججهم ولو كانت غثاءً ، وتسمع لأباطيلهم ، فالحوار هو أساس الهدى لا السوط . وحين يرطنون وتحس بأنهم يريدون أن يغطوا الحق بالباطل، فقل لهم : ترجموا خمسة بخمسة ، وبعد أن تستمع لما تلوا ، وما سيأتوا من حجَة ، وما قدموا من برهان تجيب لهم بأدب جم بقول الله عز وجل والذى مثل الجدال بالتى هى أحسن (١) .

فقل :

أ ـ حسبى الله .

ب ـ أمنت بما أنزل الله من كتاب .

ج ـ وأمرت لأعدل بينكم .

د ـ الله ربنا وربكم .

هـ ـ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم .

و ـ لا حجة بيننا وبينكم .

ز ـ الله يجمع بيننا وإليه المصير .

هذه هى الخطة الخماسية للدعوة إلى الإسلام والتى رسمها رسول الله ﷺ لسفيره الداعية عياش ؛ الكتاب النبوى أعراف التسليم ، تلاوة سورة البينة ، قول : آمن محمد وأنا أول المؤمنين ، الاستماع للحجج ، ختام ذلك بعناصر الجدال بالتى هى أحسن وهى سبعة قطع وردت كلها فى قول الله عز وجل :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت] .

وقوله عز وجل : ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ [الشورى] .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٤٨٢ .

لقد كانت الخطة ذات مراحل ثلاثة .

وحيث تنتهى المرحلة الأولى والثانية تبدأ المرحلة الثالثة . فكل واحدة تسلم للتى تليها ، أما خلاصة المرحلة الثالثة :

١ ـ « فإذا أسلموا فسلهم قُضُبُهم الثلاثة التى إذا حضروا بها سجدوا ، وهى من الأثل .

أ ـ قضيبٌ ملمع ببياض وصفرة .

ب ـ وقضيب ذو عُجَر كأنه خبزران .

جـ ـ والأسود البهيم كأنه من ساسم » .

٢ ـ ثم أخرجها فحرقها بسوقهم .

والمرحلة الثالثة هى الدليل العملى على صدق إسلامهم،فلو رفضوا تسليم القضب لبقوا على شركهم ووثنيتهم . والعجيب وصف رسول الله ﷺ لهذه القضب كأنه هو الذى صنعها من شدة معرفته بها وبألوانها ،فهو العلم اللدنى الذى أعطاه الله تعالى له .

وكان عياش خير سفير وخير تلميذ فى مدرسة النبوة . حيث نفذ التعليمات بحذافيرها ، والخطة بمراحلها ، وكانت كلها كما قال عليه الصلاة ووالسلام .

يقول عياش :

(فخرجت أفعل ما أمرنى به رسول الله ﷺ حتى إذا دخلت إذا الناس قد لبسوا زينتهم قال : فمررت لأنظر إليهم حتى انتهيت إلى ستور عظام على أبواب دور ثلاثة ، فكشفت الستر ، ودخلت الباب الأوسط فانتهيت إلى قوم فى قاعة الدار ، فقلت : أنا رسول رسول الله وفعلت ما أمرنى ، وكان كما قال ﷺ) (١) .

بقى أن نعلم أن عياش بن أبى ربيعة المخزومى ؓ هو أخو أبى جهل لأمه ، وهو الذى حبسه أبو جهل بمكة وفتن عن دينه . ثم فر بدينه إلى رسول الله ، وكان من السابقين الأولين ، ونستعيد بهذه الخطة ؛ خطة المرحلة المكية وهجرة الحبشة ، وبطلها جعفر بن أبى طالب ؓ والذى انتهى بإسلام النجاشى .

فالمواقف مع النصرانية فيها شد وجذب ، وتحتاج إلى ثقافة معينة وكفاءة معينة . يختار لها رسول الله ﷺ الخبرات والطاقات المناسبة .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٨٣ .

بعد العشرة من أولاد سبأ

١ ـ وفد نجران .

٢ ـ وفد حضرموت

١ ـ وفد نجران

انتهى الحديث عن سبأ وولده ، ونتحدث الآن عن ولده الذين بقوا فى مواطنهم وأهمهم نجران .

واليمانية كلها راجعة إلى قحطان ، ولا يصح ما بعد قحطان ، فولد قحطان لأى ، وجابر ، والمتلمس ، والعاصى ، وغاشم ، والمنغشمر ، وغاضب ، ومعزز ، ومنيع والقطامى،ولم يعقب منهم أحد وظالم ونباته دخل بنوه فى الرحبة من حمير والحارث.

فولدُ الحارث هذا يقال لهم : الأقيون وهم رهط حنظلة بن صفوان بنى الرس . والرس ما بين نجران إلى اليمن ، ومن حضرموت إلى اليمامة .

ويعرُب :

فولدُ يعرب : يشجب بن يعرب بن قحطان وفيهم الجمهرة والعدد . وصيدان ، وجناده ووائل كعب ، فولدُ يشجبَ سبأ وهو عامر ، وولد سبأ كهلان ، والعرنجج وهو حمير وفيهما العدد والجمهرة ، وزيدان وعبد الله والمولود ويشجب ورهم وشداد فولدُ زيدان نجران فبه سميت نجران ، وأما عبد الله والنعمان والمولود ويشجب ورهم وشداد وربيعة فبنوهم هم السبئيون ليس لهم نسب يذكر دون سبأ .

لقد انفصلت نجران عن سبأ بقبيل مستقل بينما بقى بقية أولاد سبأ ينتمون إليه)(١).

فحديثنا إذن عن نجران بن زيدان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وحتى نعرف عدد وجمهرة نجران نذكر الرواية التالية :

أمر الأسقف بالناقوس فضرب به ، ورفعت النيران ؛ السرج فى الصوامع ، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا نهاراً ، فإن فزعوا بالليل ضربوا بالناقوس ؛ ورفعوا النيران فى الصوامع ، فاجتمع حين ضرب بالناقوس ورُفعِت السرج أهل الوادى أعلاه وأسفله ، وطول الوادى مسيرة يوم للراكب السريع ـ وفيه ثلاث وسبعون قرية وعشرون ومائة ألف مقاتل .

فقرأ عليهم الأسقف كتاب رسول الله ﷺ ، وسألهم عن الرأى فيه . فاجتمع رأى

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

أهل الرأى منهم على أن يبعثوا شوحبيل بن وداعة الهمدانى ، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحى وجبار بن فيض الحارثى فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ .

ومن خلال مطالعة وفد نجران يترجح أنه كان لهما وفادتان :

الوفادة الأولى : كانت فى السنة الأولى من الهجرة ، والوفادة الثانية كانت فى عام الوفود .

وقد أشار ابن إسحاق فى السيرة النبوية إلى الوفادة الأولى . وهى الرواية التى سنأخذ بها لخلوها مع التناقضات . وإن كانت بعض الأمور تتداخل بين الروايات ، نحاول الفصل بينها ما استطعنا ونعرض الرواية الأولى دون تحليل ؛ لأنه سبق وتحدثنا عنها تفصيلا فى أجزاء سابقة .

ولا تشير الرواية الأولى إلى وصول كتاب من رسول الله ﷺ إلى أسقف نجران ، وهذا متناسب مع طبيعة المرحلة ، فكتب النبى ﷺ ، ودعوة الناس إلى الإسلام إنما ابتدأت بعد منصرف رسول الله ﷺ من الحديبية .

قال ابن إسحاق :

وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكبًا ، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم . فى الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم .

العاقب : أمير القوم وذو رأيهم ، وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح ، والسيد ثمالهم ، وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم .

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ، ودرس كتبهم حتى حسن علمه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرّفوه وولوه وأخدموه ، وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فيهم .

فلما رجعوا إلى رسول الله ﷺ من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له موجهًا إلى رسول الله وإلى جنبه أخ له ، يقال له : كوز بن علقمة . فعثرت بغلة أبى حارثة ، فقال كوز : تعس الأبعد ـ يعنى رسول الله ﷺ ـ فقال له أبو حارثة: بل،أنت تعست

فقال : ولم يا أخى ؟ قال : والله إنه للنبى الذى كنا ننتظر . فقال له كوز : ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم ؛ شرفونا ومولونا وأكرمونا ، وقد أبوا إلا خلافه ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى .

فأضمر عليها أخوه كوز بن علقمة ، حتى أسلم بعد ذلك ، فهو كان يحدث عنه هذا الحديث فيما بلغنى .

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال :

لما قدموا على رسول الله ﷺ فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات جُبب وأردية ، فى جمال رجال بنى الحارث بن كعب ، قال : يقول بعض من رآهم من أصحاب النبى ﷺ يومئذ : ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم ، وقد حانت صلاتهم ، فقاموا فى مسجد رسول الله ﷺ يصلون ، فقال رسول الله : « دعوهم ».

فصلوا إلى المشرق .

قال ابن إسحاق :

فكانت تسمية الأربعة عشرة الذين يؤول إليهم أمرهم العاقب وهو عبد المسيح والسيد وهو الأيهم وأبو حارثة بن علقمة أخو بنى بكر بن وائل ،وأوس ، والحارث ، وزيد ، وقيس ، ويزيد ، ونبيه ، وخويلد وعمرو ، وخالد ، ويُحنَّسُ ، فى ستين راكبًا ، فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة . والعاقب عبد المسيح ، والأيهم السيد ، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف فى أمرهم يقولون : هو الله ، ويقولون : هو ولد الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة ، وكذلك قول النصرانية فهم يحتجون فى قولهم : (هو الله) بأنه كان يحيى الموتى ويبرئ الأسقام ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفح فيه فيكون طائرًا ، وذلك كله بأمر الله تبارك وتعالى ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ [مريم : ٢١] .

ويحتجون فى قولهم : « إنه ابن الله » بأنهم يقولون : لم يكن له أب يعلم وقد تكلم فى المهد ، وهذا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله .

ويحتجون فى قولهم : « إنه ثالث ثلاثة » بقول الله : فعلنا وأمرنا ، وحلقنا ، وقضينا فيقولون : لو كان واحدًا ما قال إلا فعلتُ وأمرت ، وخلقتُ ، ولكنه هو وعيسى ومريم .

ففى كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن .

فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله ﷺ « أسلما » قالا : قد أسلمنا قال : « إنكما لم تُسلما فأسلما » ، قالا : بلى قد أسلمنا قبلك ، قال :

« كذبتما ، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدًا ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير »

قالا : فمن أبوه يا محمد ؟

فصمت عنهما رسول الله ﷺ فلم يجبهما .

فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم ، واختلاف أمرهم كله . صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها .

فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله عنه ، والفصل فى القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه ، ودعاهم إلى ذلك ، فقالوا له : يا أبا القاسم ، دعنا ننظر فى أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه .

ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأيهم فقالوا : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟

فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدًا لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم فوادعوا الرجل ، ثم انصرفوا إلى بلادكم .

فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نلاعنك ، وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضا .

قال محمد بن جعفر : فقال رسول الله ﷺ : ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين ، قال : فكان عمر بن الخطاب يقول : ما أحببت الإمارة قط حبى إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجرًا فلما صلى بنا رسول الله ﷺ ، ثم نظر عن يمينه وعن يساره، فجعلت أتطاول له ليرانى فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح ، فدعاه ، فقال : « اخرج معهم ، فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه » . قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة) (١) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢ / ١٦٢ - ١٦٤ ، ١٧٠ .

الوفد الثانى لنجران

ونأخذه مباشرة من دلائل النبوة للبيهقى حيث يزول التناقض بين الروايتين .

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، وأبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل ، قالا : حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا يونس بن بكير عن سلمة بن عبد يشوع عن أبيه عن جده قال يونس ـ وكان نصرانيًا فأسلم :

إن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن تنزل عليه « طس» سليمان (١) .

« بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد النبى رسول الله ﷺ إلى أسقف نجران، وأهل نجران : إن أسلمتم فإنى أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

أما بعد : فإنى أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد . فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام » (٢) .

فلما أتى الأسقف الكتاب وقرأه فظع به ، وذعره ذعرًا شديدًا ، فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له : شرحبيل بن وداعة ، كان من أهل همدان ، ولم يكن أحد يُدْعى إذا نزلت معضلة قبله ، لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب ، فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شرحبيل فقرأه ، فقال الأسقف : يا أبا مريم ، ما رأيك ؟

فقال شرحبيل :

قد علمت ما وعد الله إبراهيم فى ذرية إسماعيل من النبوة ، فما يؤمن أن يكون

---

(١) « طس » الآية الأولى من سورة النمل ، وقد عقّب ابن القيم فى زاد المعاد فقال :

وقد وقع فى هذه الرواية هذا وقال : قبل أن ينزل عليه ﴿طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ①﴾ [النمل]

وذلك غلط فى غلط . فإن هذه السورة مكية باتفاق . وكتابه إلى نجران بعد مرجعه من تبوك .

وصدق ابن القيم رحمه الله ، لكن هذا لا يطعن فى صحة الرواية لأن :

١ ـ هذا التعليل صادر من الراوى عبد يشوع وكان نصرانيًا فأسلم ، فهو يجهل متى نزلت آيات الكتاب وسوره ، وهو حديث عهد بالإسلام ، فظن أن عدول رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم فى أول الكتاب لعدم نزولها ، وهذا ظن خاطئ منه .

٢ ـ لم يكن رسول الله يفتتح كل كتبه ورسائله ببسم الله الرحمن الرحيم فكثير منها:أما بعد ، ومنها : السلام على من اتبع الهدى ، ومنها : باسمك اللهم ، ومنها : من محمد النبى .

٣ ـ لعل رسول الله ﷺ عدل إلى قوله بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب لتذكير الأسقف بالأنبياء الذين بشروا بمحمد ﷺ وأن رسالة الأنبياء واحدة هى الإسلام .

٤ ـ ولو تركنا تعليل عبد يشوع أو يسوع لكان الكتاب فى مضمونه سليمًا ومتناسبًا مع ما كان يعرضه النبى ﷺ على الملوك وقادة القبائل من الإسلام أو الجزية أو الحرب .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥ / ٣٨٣ .

هذا هو ذلك الرجل ، ليس لى فى النبوة رأى ، لو كان أمر من أمر الدنيا أشرت عليك فيه ، وجهدتُ لك .

فقال له الأسقف : تنح فاجلس ، فتنحى شرحبيل فجلس ناحية .

فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له : عبد الله بن شرحبيل ، وهو من ذى أصبح من حمير فأقرأه الكتاب ، وسأله عن الرأى فيه فقال له مثل قول شُرحبيل . فقال له الأسقف :

فاجلس ، فتحنى فجلس ناحية .

فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له : جبار بن فيض من بنى الحارث ابن كعب ، أحد بنى الحماس ، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأى فيه ، فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله ، فأمر الأسقف ، فتنحى ، فجلس ناحية .

فلما اجتمع الرأى منهم على تلك المقالة جميعًا .أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، ورفعت المسوح فى الصوامع ، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار وإذا كان فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس ، ورفعت النيران فى الصوامع ، فاجتمع حين ضرب الناقوس ورفعت المسوح أهل الوادى؛أعلاه وأسفله، وطول الوادى مسيرة يوم للراكب السريع ، وفيه ثلاث وسبعون قرية ،وعشرون ومائة ألف مقاتل ، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ، وسألهم عن الرأى فيه ، فاجتمع رأى أهل الوادى منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمدانى ، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحى ، وجبار بن فيض الحارثى ، فيأتونهم بخبر رسول الله ﷺ) (1) .

نحن الآن مع أضخم تجمع قبلى سكانى فى اليمن ،اختلطت فيه العقيدة بالقبيلة ، وتحمل نجران تاريخًا عريقًا مشرقًا للنصرانية ، فقد كانت موطن المحرقة المشهورة التى أقدم عليها اليهود فى ذبح النصارى والتى ورد ذكرها فى كتاب الله عز وجل .

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج] .

(استجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر . . فسار إليهم ذو نواس بجنده، فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك أو القتل،فاختاروا القتل ،فخد الأخدود فحرق بالنار وقتل بالسيف ، حتى قتل منهم قريبًا من عشرين ألفًا ، ففى ذى نواس

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٢ .

وجنده أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ ، قتل أصحاب الأخدود ، وأفلت منهم رجل من سبأ يقال له: دوس ذو ثعلبان على فرس له حتى أتى قيصر ملك الروم ، فاستنصره على ذى نواس وجنوده وأخبره بما بلغ منهم فقال له : بعدت بلادك منا ، ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين ، وهو أقرب إلى بلادك ، وكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره ، فقدم دوس على النجاشى بكتاب قيصر ، فبعث معه سبعين ألفًا من الحبشة وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له : أرياط ومعه من جنده أبرهة الأشرم ، فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثعلبان . وساروا إلى ذى نواس فى حمير ، ومن أطاعه من قبائل اليمن ، فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه . فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه ، وجه فرسه فى البحر فضربه فدخل به ، فخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى به إلى غمره فأدخله فيه ، وكان آخر العهد به ودخل أرياط اليمن فملكها) (١) .

وحيث إن نجران هى الموطن الأساسى للنصرانية فقد امتدت حتى انتشرت فى قرى اليمن كلها ، وكان ذلك العدد الذى ذُكِر ، ثلاث وسبعون قرية ، وكانت جميعه خاضعة خضوعًا تامًا للأسقف ، فالملك موطد الدعائم ،، والآلاف المؤلفة مجندة تحت إمرته وبمجرد ضرب الناقوس ونشر المسوح يعنى : استنفار الأرض كلها لتلبية دعوته ، وذكر هذا الرقم رهيب لم نسمع له مثيلاً من قبل فى جزيرة العرب مائة وعشرون ألفًا . وكلهم مقاتلون .

لقد ذكر هذا الرقم فى حجة الوداع ، والذى ذكره مؤرخ السيرة أنه قد خرج مع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع مائة وعشرون أو مائة وثلاثون ألفًا ، وفيهم الكثير من النساء وأما هؤلاء فمائة وعشرون ألف مقاتل ، والأصل ألا يهزه الكتاب ، ولا يهزه الإنذار فى الحرب وبينه وبين محمد آلاف الأميال .

لكن الأسقف على دين ، ودينه يقوم اليوم كله على انتظار النبى المرسل الذى أشارت به الكتب ، ومن حقه أن يفزع وترتعد فرائصه ، فالدعوة موجهة اليوم شخصيًا إليه فكيف يتجاهلها ؟

وفى الجولة الأولى قبل ثمان سنين تحمل العاقب والسيد النتيجة ، ورفضا الإسلام بمحمد ﷺ ، وهو يدرك معنى توجيه الكتاب له ، وهو يتحدث عن إبراهيم ويعقوب وإسحاق فيتذكر دعوة ابراهيم أن يبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم الكتاب والحكمة ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٢ .

فهو من ذرية إسماعيل ، فالأمر فى غاية الخطورة .

ولهذا لم يستدع العاقب ولا السيد ، إنما استدعى أولى العلم عنده ، وهم يسوسون قومهم بهذا وموزعون بين قبائل العرب ، فكان على رأسهم شرحبيل بن وداعة الهمدانى .

وكان جوابه ؛ جواب امرئ ملأ الإيمان عليه كيانه ، وملأ المركز عليه كيانه كذلك: (قد علمت ما وعد الله ابراهيم فى ذرية إسماعيل من النبوة ، فما يؤمن أن يكون هو ذلك الرجل ، ليس لى فى النبوة رأى ، لو كان أمر من أمور الدنيا أشرت عليك فيه وجهدت ذلك) .

لقد كان ملك اليمن راسخًا فيه الشورى ، كما رأينا فى قصة بلقيس ملكة سبأ ، وها هو يبعث إلى عبد الله بن شرحبيل ، على حدة بعيدًا عن شرحبيل ، فيقول له القول نفسه ، وكذلك الأمر بالنسبة لجبار بن فيض . وبعد أن أخذ الرأى من مجلس شوراه ، استدعى قومه جميعًا ففاضت بالوادى أعلاه وأسفله وكما قالت بلقيس : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل] تلا الأسقف كتاب محمد رسول الله له على الجيش . الذى قال عن مثله الملأ :

﴿ نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النمل]

ولم تأمر ﷺ بالاستعداد ، رغم القوة والبأس الشديد ، إنما أمرت أن ترسل وفدها بهدية إلى سليمان ليشهده الوفد على كثب ويتعرف على دعوته .

وهذا ما انتهى إليه أمر الأسقف ، فلم تغره هذه الآلاف المؤلفة من الجنود ، إنما اجتمع رأيهم على إرسال وفد من وجهاء اليمن ، على رأسه هؤلاء الثلاثة ، ويحمل الوفد فى ثناياه صورة التهديد المقنع الذى يلبس الدين بالدنيا .

(فاجتمع رأى أهل الوادى منهم على أن يبعثوا شرحبيل وعبد الله بن شرحبيل وجبار فيأتوهم بخير رسول الله ﷺ) . فهم لا يشكون أن رسولاً سيبعث ، إنما المهمة هى التعرف على أن محمدًا ﷺ هو ذاك الرسول أم غيره ؟ مثل مهمة وفد بلقيس ، فهل سليمان صاحب ملك ليقاوم أم نبيًا فيسالم ؟

ولا نرى هنا للسيد والعاقب ذكرًا فى هذا الوفد فهل توفيا أم صُرِفُ عنهم الأمر

لهؤلاء الثلاثة ؛ لأن العاقب والسيد رفضا الدخول فى دين الله ، ورفضا الملاعنة فى الوقت نفسه .

* * *

(ثم انطلقوا إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه .

فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم . ولبسوا حللاً لهم يجرونها من حبرة ، وخواتيم الذهب ، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ فسلموا عليه فلم يرد عليهم السلام ، وتصدوا لكلامه نهارًا طويلاً فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتم الذهب فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وكانا معرفة لهم ؛ كانا يجدعان القبائل إلى نجران فى الجاهلية فيشترون لهما من بزها وثمرها وذرتها ، فوجدوهما فى ناس من المهاجرين والأنصار فى مجلس فقالوا : يا عثمان ويا عبد الرحمن ، إن نبيكما كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيبين له ، فأتيناه فسلمنا عليه ، فلم يرد سلامنا،وتصدينا لكلامه نهارًا طويلاً فأعيانا أن يكلمنا فما الرأى منكما ؟ أنعود أم نرجع؟ فقالا لعلى بن أبى طالب وهو فى القوم : ما ترى يا أبا الحسن فى هؤلاء ، فقال على لعثمان وعبد الرحمن رضي الله عنهما :

أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودون إليه . ففعل وفد نجران ذلك ، وضعوا حللهم وخواتيمهم ، ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ فسلموا ، فرد سلامهم ثم قال : « والذى بعثنى بالحق لقد أتونى المرة الأولى وإن إبليس لمعهم » .

ثم ساءلهم وساءلوه ، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له :

ما تقول فى عيسى ابن مريم ؟ إنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى ، يسرنا إن كنت نبيًا أن نعلم ما تقول فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « ما عندى فيه شىء يومى هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقال فى غد » .

فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)** ﴾ [آل عمران] .

فأبوا أن يقروا بذلك ، فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد بعدما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين فى خميلةٍ له وفاطمة تمشى عند ظهره للملاعنة ، وله

يومئذ عدة نسوة ، فقال شرحبيل لصاحبه : يا عبد الله بن شرحبيل ويا جبار بن فيض قد علمتما أن الوادى إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأى ، وإنى والله أرى أمرًا مقبلاً ، إن كان هذا الرجل ملكًا مبعوثًا فكنا أول العرب طعن فى عينه ، ورد عليه أمره ، ولا يذهب لنا من صدره ولا من صدور قومه حتى يصيبونا بجائحة وإنا لأدنى العرب منهم جوارًا ، وإن كان هذا الرجل نبيًا مرسلاً فلاعناه فلا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظُفُرٌ إلا هلك ، فقال له صاحباه : فما الرأى يا أبا مريم ، فقد وضعتك الأمور على ذراع ، فهات رأيك ؟ فقال :

رأيى أن أحكمه ، فإنى أرى رجلاً لا يحكم شططًا أبدًا ، فقالا له : أنت وذاك ، فلقى شرحبيل رسول الله ﷺ فقال : إنى رأيت خيرًا من ملاعنتك ،فقال:« ما هو ؟ » فقال شرحبيل :

حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح ، فمهما حكمت فينا فهو جائز ، فقال رسول الله ﷺ:«لعل وراءك أحد يثرب عليك؟ »،فقال شرحبيل:سل صاحباى فسألهما فقالا له : ما ترد الوادى ولا تصدر إلا عن رأى شرحبيل ، فقال رسول الله ﷺ :

« كافرٌ (أم قال جاحِّد) موفق » .

فرجع رسول الله ﷺ يلاعنهم ، حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب : «بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كتب محمد النبى رسول الله ﷺ لنجران إذ كان عليهم حكمه فى كل ثمرة،وكل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق ، وأفضل عليهم ، وترك ذلك كله على ألفى حلة من حلل الأواقى فى كل رجب ألف حلة ، وفى كل صفر ألف حلة،ومع كل حلة أوقية من الفضة ، فما زادت عن الخراج أو نقصت من الأواقى فبالحساب. وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب.

وعلى نجران مؤنة رسلى ومتعتهم ما بين عشرين يومًا فدونه ، ولا تحبس رسلى فوق شهر ، وعليهم عارية ثلاثين درعًا وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيرًا إذا كان كيد ومعرة، وما هلك مما أعاروا رسلى من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسلى حتى يؤدوه إليهم .

ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى ﷺ على أنفسهم وملتهم وأرضيهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم ، وألا يغيروا ما كانوا عليه . ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغيروا أسقف عن أسقفية ولا راهب عن رهبانيته ولا واقها [1] من وقيهاه .وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وليس عليهم دية ولا دم

---

(١) الواقه : ولى العهد بلغتهم .

جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل فيهم حقًا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين بنجران ، ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر ، وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله عز وجل وذمة محمد رسول الله ﷺ أبدًا حتى يأتى الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ، شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف من بنى نصر والأقرع بن حابس الحنظلى والمغيرة وكتب » .

حتى إذا قبضوا كتابهم انصرفوا إلى نجران . . .) [1] .

* * *

نمضى مع الوفد إلى رسول الله ﷺ ، وعلى رأسه الحكماء الثلاثة شرحبيل وعبد الله بن شرحبيل وجبار بن فيض ، والظاهر أن هؤلاء لم يأخذوا موقعهم وثقة الناس فيهم من خلال تعمقهم فى الدين أو مركزهم فى اللاهوت ، إنما أخذوه عن حكمة وحصافة وحسن رأى ومن أجل ذلك حين وصلوا إلى المدينة أرادوا كما أراد وفد بلقيس : أن يبرزوا للناس بمظهرهم الخارجى فخلعوا ثياب سفرهم ولبسوا أجمل ما عندهم من حلل ، تجر ذيولها على الأرض تيها وكبرا ، وخواتيم الذهب فى أيديهم تبرق فتخطف الأبصار ،وتوقعوا أن هذا الأمر سوف يسيل أشداق العرب الحفاة الجفاة ، فيتسابقون إلى مرضاتهم .

كان سيد الخلق ﷺ قد أدرك مغزى هذه المظاهر الساحرة ، ولم يرض أن ينى خطوة واحد معهم بهذه النفسية المتعالية، فتواضعه ﷺ كما فى كتب النصارى واليهود . يركب الحمارة ويلبس الشملة ، ويجتزئ بالكسرة ، وتواضعه ﷺ أن يقف للعجوز والعبد والصبى فهو الموصوف فى كتبهم بذلك : أما على المتغطرسين المتكبرين فلا بد أن يكسر هذا التغطرس ، ويحطم هذا الكبرياء قبل أن يلتقى معهم . حتى جاؤوه يسلمون عليه ، فلا يرد عليهم السلام .

إنها الخطة نفسها التى كانت مع وفد كندة حين رفض مقابلتهم قبل نزع الحرير من جبابهم المكفوفة به خاصة وأنهم قادمون مسلمين .

أما هؤلاء . فكانت الحرب النفسية أكبر وأضخم .

ثم انطلقوا ، حتى أتوا رسول الله ﷺ فسلموا عليه . فلم يرد عليهم السلام ، وتصدوا لكلامه نهارًا طويلاً فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب .

---

(١) سبل الهدى والرشاد مقتطفات ٦٤٠ ـ ٦٥٠ .

وتاريخ الوفود جميعها بلا استثناء . لم يتخذ رسول الله ﷺ هذا الموقف : إنه موقف مع أضخم الوفود العربية التى تملك عشرين ومائة ألف مقاتل فكم هى أعدادها إذن ؟

لقد صدموا أولاً بهذا الموقف الذى عاد عليهم بالوبال ، وتحطمت نفوسهم غضبًا وأنفة . فما يفعلون ؟ هل يغضبون ويركبون رواحلهم ويمضون ليثأروا من محمد وقومه على هذه الإهانة القاتلة ؟

ولا شك أن هناك أصواتًا ارتفعت بذلك . لكن أين حكمة القادة الثلاثة ؟ وماذا يقولون لقومهم إذا عادوا إليهم ؟ غضبنا ولم نلتق مع محمد بن عبد الله ، واستعدوا للحرب والموت .

عاد هؤلاء الثلاثة فدرسوا الأمر بعيدًا عن العاطفة . فالحكمة السياسية لا يصلح معها الموقف العاطفى . هم يدركون أن الأرض حولهم كلها قد دانت لمحمد ﷺ . وأن العرب جميعها قد انصاعت له . فهل ينفردون هم بحربه ؟ وموقف الإهانة التى تجرعوها تحتمل هذا الرد . لكن هل هو الموقف الأفضل ؟ بالتأكيد لا . فالهدف الذى جاؤوا به هو الحوار والمصالحة . وليس المواجهة والحرب وإلا لم يكن من داع لقدوم الوفد بالمدينة . وهداهم رشدهم إلى اللجوء إلى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف فهم التجار الذين كانوا يعرفونهم ـ ويفدون إلى اليمن وكانا يجدعان العتائر إلى نجران فى الجاهلية فيشتروا لهما من بزها وثمرها وذرتها فنجران أرض الخيرات .

والعتيرة .

فمضوا إلى ذينك الصاحبين قائلين : إن نبيكما كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيبين له. فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا ، وتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعيانا أن يكلمنا فما الرأى منكما أنعود أم نرجع ، وكانت لحظة تستلفت النظر لحكماء نجران ، أن اتجه الصاحبان إلى فتى يسألاه عن الرأى. فقال على البديهة : أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ، ويلبسوا ثياب سفرهم ويعودوا إليه .

وأدرك وفد نجران أن هذه المظاهر ساقطة فى عينى محمد بن عبد الله . لكن سألا عن هذا الفتى الحكيم النجيب . وعرفا أنه من أحظى المقربين لمحمد بن عبد الله وابن عمه إنه على بن أبى طالب ، وحفظا له حل هذه المعضلة .

رسول الله ﷺ بأعظم فطرة على الوجود . قال حين رأى الوفد بهذا التكلف والأناقة والتختم بالذهب . نفر منهم بفطرته الصادقة قائلاً :

« والذى بعثنى بالحق لقد أتونى المرة الأولى وإن إبليس لمعهم » .

وذهب الوفد وعادوا بثياب سفرهم . فسلموا فرد سلامهم .

ثم ساءلهم وساءلوه . فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له :

ما تقول فى عيسى ابن مريم ؟ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يسرنا إن كنت نبيًا أن نعلم ما تقول فيه . فقال رسول الله ﷺ : ما عندى فيه شىء يومى هذا فأقيموا حتى أخبركما بما يقال فى عيسى ، لقد رأى رسول الله ﷺ أن القوم جاؤوا يحاجون بنصرانيتهم. ولم يأتوا ليسلموا . فحاججهم وحاورهم بالتى أحسن . وبلغت بهم اللجاجة حدًا لا يقبل.

فقال عليه الصلاة والسلام :

« ثبت بينى وبين أهل نجران حجاب . فلا أراهم ولا يرونى » من شدة ما كانوا يمارون رسول الله ﷺ . واستعاد رسول الله ذلك الحوار العقيم مع السيد والعاقب فى مستعمل الهجرة النبوية . وأن الضلال قد أخذهم مأخذًا سد عليهم منافذ الحق . وحجبوا عنه .

إننا مكلفون بالجدال بالتى هى أحسن مع أهل الكتاب . لكن الذين ظلموا منهم لا يجدى الحوار معهم شيئًا ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] وفرق بين القوم الذين يأتون تحدوهم الرغبة فى الحق . والحرص على الهدى . وبين الذين يأتون ليحاجون فى الله . ورسله بما ترسخ فى أعماقهم من ضلال . ولهذا طلب الحكماء الثلاثة من رسول الله ﷺ تقريبًا لوجهات النظر أن يسمعوا ، ما يقوله ﷺ فى عيسى لعله يريح قومهم إذا رجعوا إليهم . فهم يريدون أن يحققوا مكاسب إذا رجعوا إلى قومهم . وركزوا على قضية أبوة عيسى فاليهود يتهمون ، والنصارى يؤلهون . فما هو موقف المسلمين . وموقف محمد من هذه القضية .

وأجلهم رسول الله ﷺ لليوم الثانى . لعلهم يعودون إلى أنفسهم ويعلمون أنه الحق من ربهم فتخبت له قلوبهم . ويدع لهم فرصة المراجعة .

وجاءهم ﷺ فى اليوم الثانى بالآيات ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) ﴾ [آل عمران] .

ورفضوا تفسير كتاب الله أن الذى خلق آدم من غير أب ولا أم قادر على أن يخلق عيسى من غير أب . وإلا فالملاعنة للكاذب من الفريقين . فلابد من وضعهم على المحك .

وكان طلب التأجيل من اليوم إلى الغد من حكماء اليمن . فالأمر جد . والمماحكة شىء . واستنزال اللعنة على الكاذب من الله شىء آخر .

وهنا برزت عبقرية شرحبيل الحكيم اليمنى الأول الذى لايصدر الوادى إلا عن رأيه . فبعد تفكير عميق تداول فى الأمر مع صاحبيه قائلاً لهما :

إن كان هذا الرجل ملكًا (مبعوثًا) فكنا أول العرب طعنا فى عينه ، وردَّ عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور قومه حتى يصيبونا جائحة وإنا لأدنى العرب منهم جواراً .

فالقوم هم فى شك بين الملك والنبوة . ولو كانوا متعمقين فى كتاب النصرانية الأول لأدركوا أنه النبى المنتظر ، إنهم ليسوا السيد والعاقب .إنهم متدينون بالنصرانية . لكنهم لم يأخذوا موقعهم من عبادتهم وتدينهم إنما أخذوه من حكمتهم وعقلهم وحنكتهم وتجربتهم . فالذين تعمقوا فى كتبهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولا يشكون فيه . أما هؤلاء . فليس الأمر بهذا الوضوح عندهم. لكن شرحبيل يرفض الملاعنة حتى ولو بالملك . لأن هذا عداء مبطن لمحمد ﷺ سوف يحرك قلبه حقدًا عليهم وثأراً منهم

ولا ندرى إن كان شرحبيل يقول الحقيقة أم يوارى بها فما ذكر عن ذكائه وحكمته . وصدور حيزان عن رأيه لا يناسبه ألا يعرف محمدًا ملكًا أو نبيًا وقد أمضى معه قرابة اليومين . أو أنه أخفى قناعة عن صاحبيه لأنه لا يريد أن يسلم حتى لا يخسر موقعه ومركزه . فلجأ إلى الموارية . وهذا الأرجح عليه وعليهم . فالثلاثة قد يكونون مثل أبى جهل وأبى سفيان والأخنس بن شريق الذين راحوا يستمع كل واحد منهم سرًا لرسول الله ﷺ . ثم يلتقون بعد السماع . وأجاب أبو جهل صاحبه الأخنس عن رأيه بما سمع فقال :

ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ؛ أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن له أبدًا ولا نصدقه .

وأدرك شرحبيل أن هذا الوادى الذى يصدر عن رأيه قد يتركه ويخذله لو آمن بمحمد رسول الله ﷺ وإلا فما الذى يمنعه من المباهلة ، إنه يحس بأعماقه أن المباهلة مع رسول الله ﷺ استئصال له ولولده ولأهله وهذا ما قاله فى خبره الثانى .

وإن كان هذا نبيًا مرسلاً فلاعناه فلا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك ولم يناقش الصاحبان تخوف شرحبيل . فأعماقهم جميعًا مفتقة منبهرة .

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] .

إنما هم قوم خصمون يجادلون فى الحق بعدما تبين .

قال له صاحباه : فما الرأى يا أبا مريم فقد وضعتك الأمور على ذراع . فهات رأيك ؟

فقال :

رأيى أن أحكمه . فإنى أرى رجلاً لا يحكم شططًا أبدا .

فقال له : أنت وذاك .

إنه وصاحبيه يعيدون سيرة عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة . والنضر بن الحارث.

الذين تنتهب قلوبهم الزعامة . ولا يتمكنون من إخفاء انبهارهم بمحمد ﷺ ودعوته .

أما رسول الله ﷺ فقد جاء بأهل بيته الحسن والحسين وفاطمة وعلى يمثلون أهل بيته ليقوم بالملاعنة مع هؤلاء الحكماء .

فتلقى شرحبيل رسول الله ﷺ فقال :

إنى رأيت خيراً من ملاعنتك . فقال : ما هو ؟

قال شرحبيل : حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح ، فما حكمت فينا فهو جائز.

إننا نقف دائما أمام عظمة التعامل النبوى مع السادة والزعماء ، والإيمان لا يفرض فرضًا على أحد .

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس] .

وعرف رسول الله ﷺ أنهم ما عدلوا عن الملاعنة إلا لإيمانهم بأعماقهم بصدقه وإلا فما الذى يخيفهم منه . وقد أعلنوا ابتداء قبول هذا التحدى ، وسيمضى فى العرب عزًا ومنعة لهم أنهم باهلوا ولاعنوا ، ولم ينزل بهم شىء يذكر . لكن عدولهم عن الملاعنة يعنى تخوفه من نتائجها على ما فى التخلى عنها من إهانة لهم .

والذى يعرضه شرحبيل يضع نجران كلها تحت حكم محمد ﷺ ووجدوا هذا أخف

على قلوبهم أن يتجرعوه . من مرارة الاستئصال لو أقدموا على الملاعنة .

وتبرز بين ناظرينا عظمة التعامل وفقه النفوس أمام هذا الإصرار على الكفر ، والإصرار على رفض الملاعنة .

لكن الرأى الثالث ؛ الجزية التى أعلن شرحبيل قبول حكم محمد فيهم . ونزولهم على حكمه .

فأراد النبى ﷺ أن يستوثق مدى قدرته على التنفيذ ، ومـدى قدرته على تمثيل قومه .

فقال له : « لعل وراءك أحدًا يثرب عليك » .

فقال شرحبيل : سل صاحبَىَّ ؟ فسألهما فقالا :

ما ترد الوادى ولا تصدر إلا عن رأى شرحبيل .

فقال رسول الله ﷺ : « كافر (أو جاحد) موفق » .

إنها للكلمة التى قالها رسول الله ﷺ فى عتبة بن ربيعة :

« إن يكن عند القوم أحد فيه خير . فعند هذا (وأشار إلى عتبة) » .

وقال فيه يوم بدر : « وإن يطيعوا صاحب الجمل الأحمر يهتدوا » .

وهو الذى دعا إلى الرجوع عن الحرب فسفه رأيه . واستثير فأثير . وخرج على كبر سنه ليكون أول صرعى بدر . وكان هو أول من ناداه رسول الله ﷺ بعد أن صاروا من الهالكين :

« يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا . . . لقد وجدت ما وعدنى ربى حقًا ، فهل وجدتم ماوعد ربكم حقًا ؟ » .

ولخص رسول الله ﷺ الوفد كله بهاتين الكلمتين :

« جاحد ، لكنه موفق » فى سداد رأيه وحكمته وعبقريته .

وما لم يكن الإيمان من نجران . فليكن الاستسلام . والاختلاط كفيل بعدها أن يكسر جو الجمود بين الفريقين .

إنه يكفينا القناعة التى خرج بها قادة نجران : إنه لا يحكم شططا أبدًا .

ويكفى رسول الله ﷺ من قادتهم . نزولهم تحت حكمه . وتلخيص الموقف بهاتين الكلمتين .

« جاحد موفق » .

ورسول الله ﷺ الآن هو الذى ينتظر بهم إلى الغد .

وذكر رسول الله ﷺ الموقف الحسابى حين رفض السيد والعاقب الملاعنة .

حين قال العاقب لقومه وقد خلا بهم :

والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ولقد علمتم ما لاعن قومًا نبيًا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم . وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم . فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم .

فهم يعرفون النبى كما يعرفون أبناءهم . والموادعة خير من الملاعنة .

لكن إن قبلت الموادعة فى أول العهد بالهجرة . حيث لم يكن رسول الله ﷺ قد أمر بقتال أهل الكتاب أما اليوم . فهو الذى بعث بخطابه إلى الأسقف . إما الإيمان وإما الحرب وإما الجزية. واختار شرحبيل وصاحباه ما يحكم فيهم عليه الصلاة والسلام. وكان ذلك الحكم النبوى الخالد على الأبد الذى أعطانا معلمًا من معالم حكم هذا الدين بالأمم.

ولكن اكتفوا فى وفدهم الأول بأن يمضى معهم أبو عبيدة بن الجراح ليحل بعض خلافاتهم فى أموالهم . فهم اليوم تحت حكم الإسلام الذى يختاره رسول الله ﷺ .

(فرجع رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم .

بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا ما كتب محمد النبى ﷺ لنجران إذ كان عليهم حكمه :

١ ـ فى كل ثمرة . وكل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق وأفضل عليهم ـ أى زاد .

٢ ـ وترك ذلك كله على ألفى حلة من حلل الأواقى .

٣ ـ فى كل رجب ألف حلة وفى كل صفر ألف حلة .

٤ ـ ومع كل حلة أوقية من الفضة .

٥ ـ فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقى بالحساب .

٦ ـ وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب .

٧ ـ وعلى نجران مؤنة رسلى ومتعتهم على بين عشرين يومًا فدونه .

٨ ـ ولا تحبس رسلى فوق شهر .

٩ ـ وعليهم عارية ثلاثين درعًا وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيرًا : إذا كان كيد ومعرة .

١٠ ـ وما هلك مما أعاروا رسلى من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمين على رسلى حتى يؤدوه إليهم .

١١ ـ ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله .

١٢ ـ على أنفسهم وملتهم وأرضيهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم .

١٣ ـ وألا يغيروا مما كانوا عليه بغير حق من حقوقهم ولا ملتهم .

١٤ ـ ولا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ، ولا واقهًا من وقيهاه ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير .

١٥ ـ وليس عليهم دنية ولا دم جاهلية .

١٦ ـ ولا يحشرون ولا يعشرون .

١٧ ـ ولا يطأ أرضهم جيش .

١٨ ـ ومن سأل منهم حقًا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين بنجران .

١٩ ـ ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة .

٢٠ ـ ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر .

٢١ ـ وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله عز وجل وذمة محمد ﷺ أبدًا حتى يأتى الله بأمره .

٢٢ ـ ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم .

٢٣ ـ شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف ، والأقرع ابن حابس والمغيرة وكتب .

ولا بد لنا أن نوضح هذا النص وإيحاءاته :

١ ـ لقد كان الحكم استجابة لطلب شرحبيل الذى افتدى به الملاعنة ، وافتدى به المواجهة مع رسول الله ﷺ .

٢ ـ الأصل أن يكون الخراج على الأرض (كل ثمرة) والجزية عن الأموال

(صفراء وبيضاء) وعن الرقيق (سوداء ورقيق) .

٣ ـ ترك هذه كله مقابل ألفى حلة تدفع كل عام للمسلمين من حلل أهل اليمن المعروفة التى يصنعونها ويبيعونها . فقد اختير اللباس على الطعام والشراب والمال .

٤ ـ وحدد دفع هذه الحلل على دفعتين ، واحدة منهما فى رجب ، والأخرى فى صفر .

٥ ـ ومع كل حلة أوقية من الفضة .

٦ ـ فإذا زادت الأواقى من الفضة عن الخراج المقرر للأرض والجزية للنفس فينقص منها وإذا نقصت عنه فتزاد لتعار له .

إن الأمر ليس ضريبة لقوى على ضعيف . إنما الأمر حق لله مرتبط بالحق الذى على نفسه وعلى أرضه ومن أجل هذا يجب ألا يزيد عن النصاب المقرر .

٧ ـ أما السلاح وعروض التجارة فيؤخذ منهم بالحساب أى ثمنه وقيمته ولا يكلفون بشىء من ذلك وسلاحهم وهو ضرورى لهم، فلا يدخل فى الخراج أو الجزية .

٨ ـ وهذا يقتضى أن يفد من عند رسول الله ﷺ إليهم رسل ليجمعوا ما افترض عليهم ـ أى أهل نجران ، فلابد من استضافة هؤلاء الرسل عشرين يومًا . وما زاد فالنفقة على الرسل .

٩ ـ ولا يجوز تأخير الرسل . وتسليمهم حقهم بأكثر من شهر .

١٠ ـ ولو اضطر المسلمون إلى حرب أو جاءتهم جائحة . فلهم فى السلاح حق الاستعارة ليس إلا وليست الاستعارة مفتوحة إنما هى محددة بثلاثين درعًا وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيرًا . وهذه العارية مضمونة مؤداة إلى صاحبها بعد انتهاء الحرب أو المواجهة.

١١ ـ وأى شىء هلك من هذه العوارى فلا بد من تعويضه . ولا يتنازل عن فرس واحد أو بعير أو درع . فهو استعارة وليس ضريبة .

١٢ ـ وهؤلاء الرسل الذين يفدون لا يتدخلون بشىء من شؤونهم الداخلية . وهم بجوار الله وفى ذمة النبى ﷺ . أنفسهم وملتهم وأراضيهم وأموالهم . لا تمس بسوء من أحد .

١٣ ـ ويسرى هذا الحق على غائبهم . وعشيرتهم وكنائسهم . ولا يغير شىء مما هم عليه لا قليل ولا كثير .

١٤ ـ وظائفهم الدينية لا دخل لمحمد ﷺ ولا للمسلمين بها ، لا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا والٍ من ولايته .

١٥ ـ والأمان لكل ما تحت أيديهم من مال أو متاع أو أى شىء آخر .

١٦ ـ ولا يحاسبون عن الماضى ، ولا يطالبون بثأرٍ أو دم أو مال .

١٧ ـ ولا يؤخذ منهم زكاة ولا يعشرون ولا يحشرون .

١٨ ـ ولا يطأ أرضهم جيش. فلا يجوز الدخول عليهم فى قوة عسكرية . ولا يجوز حربهم .

١٩ ـ ومهمة الحاكم المسلم إن طلب منه أن يحكم فيهم أن يحكم بينهم بالعدل والنصف لا يقر بظلم ولا يعفى ظالمًا عن مسؤوليته .

٢٠ ـ الشىء المحرم عليهم والذى منعوا منه هو الربا . والذى يأكل الربا . فلا أمان له على مال ولا ولد ولا أرض ، ولا ذمة له .

٢١ ـ ولا يجوز أن يؤخذ ولد بجريرة أبيه أو رجل بجاره أو قريب بقريبه فلا تزر وازرة وزر أخرى .

٢٢ ـ والله تعالى هو المجير لهم .ورسول الله ﷺ هو المسؤول عن التنفيذ .وذمته هى الكفيلة بذلك .

٢٣ ـ وهذا الضمان مرهون بثلاثة أمور :

حتى يأتى الله بأمره . وذلك أن تجدَّ أمورٌ فيما بعد تقتضى تغيير هذا العقد .

وما دام النصح والحرص على التنفيذ هو الذى يسود . وليس الغل ولا الغدر ، وما زال الاصلاح هو السائد . فبما عليهم وعدم الخروج على بنود هذا الاتفاق .

٢٤ ـ والعدل أساس الملك . فلا يجوز أن يقع عليهم ظلم حاكم أو مُنفذ .

٢٥ ـ ولخطورة هذا العقد وأهميته لقد شهد سادة العرب وقادة القبائل عليه الذين يعرفونهم :

أبو سفيان بن حرب سيد قريش .

وغيلان بن عمرو سيد بنى ثقيف .

ومالك بن عوف سيد هوازن وبنى النضر منهم .

والأقرع بن حابس سيد بنى تميم .

فهذه مضر كلها ممثلة فى هذه الرموز الكبرى .

وشهد المغيرة بن شعبة الثقفى ،كتب نص الكتاب .

نحن أمام دستور كامل يحدد الحقوق والواجبات لنجران . والحاكم الذى بعثه رسول الله ﷺ .

لا دخل له فى أى شأن من شؤونهم الداخلية . ومفيد بتطبيق فقرات هذا الدستور. بضبط الأمور ويصرفها بالعدل والقسطاس والحكمة . فخمس وعشرون مادة. كافية لاستيعاب النظام الإسلامى الحاكم فى نجران . وهى صيغة من صيغ التعامل الدولية للمسلمين مع مواطنيهم غير المسلمين أو كياناتهم المستقلة . والحكم الذاتى هو الذى يسودها .

وهذه قوانين الدول الحديثة التى قامت بالانتداب على الدول الأخرى تصغر وتتصاءل أمام هذا الدستور فى تحقيق الحق والعدل والقسطاس بين الناس .

ولنمض مع حكيم نجران وأخويه . ونشهد نجران وتقبلها لهذا العقد الجديد :

(حتى إذا قبضوا) كتابهم انصرفوا إلى نجران . فتلقاهم الأسقف ووجوه نجران على مسيرة ليلة من نجران . ومع الأسقف أخ له من أمه وهو ابن عمه من النسب يقال له : بشر بن معاوية وكنيته أبو علقمة. فدفع الوفد كتاب رسول الله ﷺ إلى الأسقف . فبينما هو يقرؤه وأبو علقمة معه وهما يسيران إذ كبت ببشر ناقته ، فتعّس بشر غير أنه لا يكنى عن رسول الله ﷺ . فقال له الأسقف عند ذلك :

قد والله تعست نبيًا مرسلاً . فقال له بشر : لا جرم والله لا أحل عقداً حتى آتى رسول الله ﷺ . فصرف وجه ناقته نحو المدينة ، وثنى الأسقف ناقته عليه فقال له :

افهم عنى : إنى إنما قلت هذا ليبلغ عنى العرب مخافة أن يروا أنا أخذنا حقه أو رضينا نصرته أو بخعنا لهذا الرجل بما لم تبخع به العرب. ونحن أعزهم وأجمعهم داراً . فقال له بشر :

لا والله لا أقبل ما خرج من رأسك أبدا . فضرب بشر ناقته وهو مُولى للأسقف ظهره وهو يقول :

إليك تعدو قلقًا وضينها   معترضًا فى بطنها جنينها

مخالفًا دين النصارى دينها

حتى أتى النبى ﷺ. فأسلم ولم يزل مع النبى ﷺ حتى استشهد أبو علقمة بعد ذلك .

ودخل وفد نجران فأتى الراهب ليث بن أبى شمر الزبيدى وهو فى رأس صومعة فقال له : إن نبيًا بعث بتهامة وإنه كتب إلى الأسقف فأجمع رأى أهل الوادى على أن يسير إليه شرحبيل بن وداعة وعبد الله بن شرحبيل وجبار بن فيض فتأتونهم بخبره . فساروا حتى أتوا النبى ﷺ فدعاهم إلى الملاعنة . فكرهوا ملاعنته وحكَّمه شرحبيل . فحكم عليهم حكمًا وكتب لهم به كتابًا . ثم أقبل الوفد بالكتاب حتى دُفعوا إلى الأسقف . فبينا الأسقف يقرؤه وبشر معه إذ كبت ببشر ناقته فتعَّس فشهد الأسقف أنه نبى مرسل . فانصرف أبو علقمة وهو يريد الإسلام ، فقال الراهب : أنزلونى وإلا رميت نفسى من هذه الصومعة . فأنزلوه . فانطلق الراهب بهدية إلى رسول الله ﷺ منها هذه البرد الذى يلبسه الخلفاء ، والقعب والعصا وأقام الراهب بعد ذلك سنين يسمع كيف ينزل الوحى والسنن والفرائض والحدود . وأبى الله للراهب الإسلام فلم يسلم . واستأذن رسول الله ﷺ فى الرجوع إلى قومه فأذن له وقال ﷺ : « لك حاجتك يا راهب إذ أبيت الإسلام » . فقال له الراهب : إن لى حاجة ومعاذ الله إن شاء الله . فقال له رسول الله ﷺ: « إن حاجتك واجبة يا راهب . فاطلبها إذا كان أحب إليك ». فرجع إلى قومه ، فلم يعد حتى قُبض رسول الله ﷺ .

وإن الأسقف أبا الحارث أتى رسول الله ﷺ ومعه السيد والعاقب ووجوه قومه.

وأقاموا يسمعون ما ينزل الله عز وجل عليه . فكتب للأسقف ولأساقفة نجران : «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبى ﷺ للأسقف أبى الحارث وكل أساقفة نجران وكهنتهم ورهبانهم وبيعهم وأهل بيعهم ورقيقهم وملتهم ومتواطئهم ، وعلى كل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير جوار الله ورسوله ، لا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهنته ـ ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا مما كانوا عليه على ذلك جوار الله ورسوله أبدًا ما نصحوا الله وأصلحوا عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين » وكتب المغيرة بن شعبة .

فلما قبض الأسقف الكتاب ، انصرف إلى قومه ومن معه ، فأذن لهم فانصرفوا حتى قُبض النبى ﷺ (١) .

* * *

لقد قبل الحاكم الأعلى بنجران الأسقف الحكم الذى حكمه رسول الله ﷺ على نجران . ووافقه نوابه الثلاثة . رغم أنه يعنى خضوع نجران للحكم الإسلامى ،وحكم رسول ﷺ بطيب خاطر . لكن أخا الأسقف من أمه بشر بن معاوية رفض النتيجة ومضى مسلمًا إلى المدينة .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٥ / ٣٩١ .

إنه يعيد لنا قصة عبد الله بن سلام رضي الله عنه بأسلوب آخر . فعبد الله بن سلام طبق ما فى التوراة تطبيقًا حرفيًا . فوجده ينطبق على رسول الله ﷺ . ولم يتردد لحظة واحدة فى الدخول فى دين الله . أما بشر هذا فلم يكن فى فقه عبد الله بن سلام رضي الله عنه . لكن كان مثله فى أصالة معدنه وطيب محتده ونقاء فطرته .

إنه فى قلب الاستقبالات الكبرى للوفد الذى رفض الإسلام بنبوة محمد وقبل حكمه .

تكون لديه قناعة أنه مع ملك حاكم عادل . وليس مع نبى . وإلا فلمَ لم يسلم الوفد ويدعوا قومهم إلى الإسلام كما فعل العرب فى كل مكان ؟ ولعله آذاه هذا الحكم . وتحركت به النعرة الوطنية حين قال :تعس محمد بن عبد الله . وذلك حين كبت به ناقته . وهو يمشى بجوار أخيه الأسقف ولشد ما أذهله وصعقه قول أخيه :

لقد تعّست والله نبيًا مرسلاً .

فاعلم أهل اليمن بدينها . الأسقف الأعلى يقول له : لقد تعًست نبيًا . فلم يقبل تكذيبه . ولم يتناقض مع نفسه فيما بينه وبين أخيه . وفيما بينه وبين الناس . إنه يقسم بالله على نبوته وعلى رسالته . ثم يعود فيقبل أمام الناس أنه ملك وليس نبيًا مرسلا .

وواجه بشر قسم أخيه الأسقف بقسم آخر قائلا له :

لا جرم والله لا أحل عنها عقدًا حتى آتيه . فضرب وجه ناقته نحو المدينة ، هذه هى الفطرة السليمة الصادقة على سجيتها التى ترفض الازدواجية والتناقض ، والخالية من كل عقد وإرث الجاهلية والنصرانية . حين يتبلج لها الحق تصيخ إليه دون تردد كما شهدنا عمر يوم أسلم ، وسعد بن معاذ يوم أسلم ، والطفيل بن عمرو الدوسى يوم أسلم وعبد الله بن سلام يوم أسلم ، إنها نماذج متشابهة فى طيب المحتد ، وأصالة العنصر ، وثمانة المعدن وسلامة الفطرة .

وأحس الأسقف بسقطته الكبرى التى خرجت رغمًا عنه أو بإرادته لكن لم يكن يخطر بباله أن تمس أعماق أخيه بشر حاول الأسقف بكل تخطيط الشيطان له أن يثنى بشرًا عن المضى إلى محمد وسوف يفضحه عنده . حاول أن يوقف خرقًا كبيرًا فى حكمه و تخطيطه . فقال له :

(إنما قلت هذا ليبلغ عنى العرب مخافة أن يروا أنا أخذنا حقه أو رضينا نصرته أو بخعنا هذا الرجل بما لم تبخع به العرب ، ونحن أعزهم وأجمعهم دارًا . ....

إنه يريد أن يتلافى هذا الخرق . ويقنع أخاه أنه إنما قال ذلك سياسة لا ديانة

وتقية لا قناعة . لأن العرب سوف يتهمونهم بالجبن كيف قبلوا حكم محمد وهم أعزهم وأجمعهم دارا . وكيف سلموه قياد أنفسهم ودولتهم ليكون هو الحاكم فيها . فهو يريد أن تنقل عنه الكلمة ليصل إلى مسامع العرب أنهم ما فعلوا ذلك إلا مع نبى مرسل ، ولم يكونوا ليقبلوا الدنية على دينهم لو كان ملِكًا متوجا .

ولكن هيهات . فقد رأى بشر أخاه كيف تخرج الكلمة من أعماقه شاهدًا على أعماقه . فلم يلتفت إلى هراء أخيه وقال :

لا والله ما أقبل ما خرج من رأسك أبدا .

فهذا كلام الرأس والعقل والشيطان . وليس كلام القلب والفطرة والرحمن . هذا كلام اللجاجة والمحاجة واللدو فى الخصومة الذى يزين فى الرأس . وليس كلام القلب النقى الصافى والفطرة النقية الصادقة إنما مثل ذلك هذا الجواب العظيم لبشر .

لا والله لا أقبل ما خرج من رأسك أبدا .

فضرب بشر ناقته وهو مول للأسقف ظهره وهو يقول :

إليك تعدو قلقًا وضينها (١) معترضًا فى بطنها جنينها

مخالفًا دين النصارى دينها

آه . ما أروع هذا القلب المؤمن الذى يقفز بين يدينا . ويبرز كأننا نراه . وذلك من خلال هذا الشعر الحى المتوثب توثب تلك الناقة إنها لن تخشى . إنها تعدو ، تخشى أن يفوتها لقاء حبيبها المصطفى . بدنو أجلها ، إن الناقة مؤمنة . وتعرف الهدف الذى تمضى إليه . إنها ماضية إلى يثرب . تعدو ، فرحة ، سعيدة . ملك عليها الفرح كيانها كلها . فهى تعدو. ووضينها الذى يربط تحت بطنها ليثبت راكبها عليه . قلق يصعد ويهبط . إن الوضين كذلك يعدو معها قلقًا لا يكاد يتمالك ، بل يكاد ينقطع . لكن لا يضيره ما ألم به . فهو سعيد بهذه الرحلة فى قلب الوهاد والجبال والأودية السحيقة . ومن الذى يعرف طريق نجران . وما فيه من مصاعب ومفاوز ومهالك . أما ناقتنا . فلا تعبأ بهذا كله . إنها تعدو لأعظم من ذلك ، إنها حامل (مقترضًا فى بطنها جنينها) لقد أجرت حوارًا مع هذا الجنين هل تمضى هادئةِ للحفاظ عليه وعلى سلامته.

أم تتابع عدوها على أمل ضعيف بحياته وحياتها،وتلقى حبيبها المصطفى فى يثرب. فصرخ الجنين فى أمه . امضى يا أماه . اعدى فإنك على الحق .

---

(١) الوضين : بطان منسوج بعضه على بعض يشد به الرحل على البعير كالحزام للسرج .

لقد اتفقت الناقة والوضين والجنين على السرعة على العدو . فهل يوافق بشر على ذلك .

آه . ما أسعد هذا البشر . وما أجمل هذا الاسم . إنه بشر الخير والسعادة والهناء ويجمع بين هؤلاء الأربعة بشر وناقته ووضينها وجنينها يجمع بينهم الإسلام .

(مخالفًا دين النصارى دينها)

أليس عجيبًا ما يفعل الإسلام بهذه النفوس ، وبهذه الإبل ، وبهذا الجنين . وبهذا الوضين كله يحن إلى ذلك اللقاء ليس مضى ساعة ، ولا غدو يوم . مئات الأميال ، والليل قاصم ، والوحوش معترضة والبرد قارص ، والموت قابع والجبل شاهق ، والوادى رهيب . والخطر جاثم . هذا كله لا يهم . المهم أن يلتقى الحبيب بالحبيب . ويصل بشر النور الذى شع منذ لحظة إسلامه أمام أخيه الأسقف . لقد أسلم . وغزا الإسلام قلبه . وأدار لأخيه وللنصرانية ظهره . ومضى يستقتل الإسلام . فقدم لنا هذه اللوحَة الرائعة الخالدة . الأبدة .

(إليك تعدو قلقًا وضينها   معترضًا فى بطنها جنينها

مخالفًا من النصارى دينها)

حتى أتى النبى ﷺ فأسلم ولم يزل معه حتى استشهد بعد ذلك .

فإلى المستوى الثانى الوسط .

إنه الراهب ليث بن أبى شمر الزبيدى . تصله الأخبار كاملة . مع مفارقة بشر لأخيه الأسقف فيقفز قلبه وراء بشر ويريد أن يرمى نفسه من الصومعة . إن لم ينزلوه .

أنزلونى وإلا رميت نفسى من هذه الصومعة .

فأنزلوه . فانطلق الراهب بهدية إلى رسول الله ﷺ .

وهيهات هيهات . فالفرق كبيير كبير بين النازعين والدافعين .

قلب بشر الذى آمن . وعرف مركز النور الذى وصل إليه من يثرب إلى نجران . فمضى على هدى ذلك النور فى الليل البهيم حتى وصل .

وقلب ليث الذى مضى بلا نور وبلا إيمان . إنما يحدوه الشوق أن يتعرف ويتأكد من نبوة محمد ﷺ . مضى . وهو يعيد نفسه وذاته .مقررًا الإيمان إن تأكد من نبوته. ومعه كل كتبه وعلمه وثقافته ونصرانيته . مثقلا بهذا كله . وبين الذى يمضى وناقته وجنينها ووضينها مثقلين بالإيمان الذى يجعلهم يمضون يسابقون الريح .

ذاك شوق الحبيب إلى الحبيب .

وهذا شوق المريب المستريب إلى محمد الزعيم بالرسالة .

هل يستويان مثلاً . أبدا.

هل يستوى الأعمى والبصير .

لقد مضى بشر بصيراً منذ لحظة انطلاقه متبعًا معالم النور الذى كان يضىء له الطريق حتى وصل .

بينما مضى ليث بلا نور إلا بصيص أمل أن يكون هذا النبى المنتظر . سرعان ما يخفت الأمل . فيضيع النور ، أو يبرق الأمل فيعدو وراءه .

ووصل إلى المدينة والتقى برسول رب العالمين ، وقدم له الهدية ، والبرد والعصا ، والتى أصبحت تمثل الخلافة الإسلامية على مدار التاريخ ينقلها خليفة عن خليفة حتى غدت فى متحف التاريخ فى استانبول لآخر خليفة . إنها هدية ليث بن أبى شمر الزبيدى لكن ما هى أخبار ليث ؟

أقام الراهب بعد ذلك سنين (١) يسمع كيف ينزل الوحى والسنن والفرائض والحدود.

وأبى الله للراهب الإسلام فلم يسلم .

إنه أعجب بمحمد. ولكنه لم يؤمن . وعاد إلى قومه. ورسول الله ﷺ يعجب له . لقد جاء من صومعته . يحدوه الحق ويرى الإسلام والوحى يتنزل كل يوم على رسول الله ﷺ . ولم يفتح قلبه للنور .

﴿ فإنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ [القصص : ٥٦] .

لكنه حب الصديق للصديق ، حب الإنسان العادى للعظيم القائد إنه محب له ، معجب به . لكن ما يفعل بالثالوث المقدس . بالأب والابن وروح القدس . هلى يتخلى عن هذا كله . لقد عاش محمد على هامش قلبه . وها هو يستأذنه بالعودة . ويشكر له رسول الله ﷺ وده . وهديته ، ويعرض عليه الحاجة التى يريد حتى يلبيها. ويأتى اللفظ النبوى مصوراً لعتب رسول الله ﷺ على هذا الراهب ، ولعجبه من بقائه

(١) نعتقد أن تعبير سنين مبالغة لفظية . يقصد به طول المكث . وذلك لأن وفد نجران قد وصل فى السنة التاسعة للهجرة . وتوفى رسول الله ﷺ فى بداية السنة الحادية عشرة . والمقصود به أشهر عديدة . وليس السنين بنصها اللفظى .

على دينه ومن حفظه حرمة هذا الدين بعد أن قال الله تعالى له :

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس] .

التعبير النبوى المصور هو : (لك حاجتك يا راهب إذ أبيت الإسلام)

فرجع إلى قومه فلم يعد حتى قبض رسول الله ﷺ .

أما المستوى الثالث . المستوى الأخفض والأدنى . فهو مستوى مجلس الأساقفة أبى الحارث والسيد والعاقب ، القيادة الدينية لنجران . والذين جاؤوا إلى المدينة وفادة ثالثة فهم يريدون أن يجددوا العهد ويؤكدوا العقد السابق . وهذا هو اللقاء الثانى للسيد والعاقب مع رسول الله ﷺ . واللقاء الأول لأبى الحارث . إنه قدوم سياسى بحت لا علاقة له بالإيمان ولقاء مجاملة لتثبت الحكم النبوى فى نجران لعظمة ما به من عدل . وكما قال شرحبيل .

رأيى أن أحكمه فإنى أرى رجلاً لا يحكم شططا أبدا .

وكان الحكم العدل . حيث ثبت هذا الحكم دعائم مجلس الأساقفة .

لا يغير أسقف من أسقفيته . ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . فبقى النظام الدينى بقياداته وهيكليته دون أن يمس، ودون أن يكون أى صلاحية لدى حاكم مسلم أن يمسه وبقى النظام السياسى والاقتصادى على ما هو عليه .

لا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم مما كانوا عليه وجوار الله ورسوله على كل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير جوار الله ورسوله .

إنما الشىء الوحيد المحظور هو استكمال الربا . فالربا حرام فى النصرانية وحرام فى الإسلام . ولو ثبت استعماله لتصدع الدستور كله .

ولو ثبت تآمر وغش مع أعداء الإسلام لتصدع الدستور كله أما إذا نصحوا وأصلحوا . فلن يمس هذا الدستور .

وأكبر دعائمه :

﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [البقرة] .

نتمنى أن يكون هذا الدستور قائمًا اليوم عند شعوبنا كلها . بحيث لا ينقض حق . ولا يظلم فرد . ولا يقبل ظلم ولا يضطهد إنسان ، ولا يمس دين ولا شعيرة .

فأين دساتير اليوم ، وأين الأحكام العرفية التى تحكم العالم الإسلامى ، وأين دساتير الغرب التى تؤله الإنسان ، وتجعله بديلاً عن الله فى التشريع والحكم .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ [آل عمران] .

٢ ـ وفد حضرموت

نسبة حضرموت :

ويقال : إن حضرموت هو ابن يقطن أخى قحطان والله أعلم .

(منهم وائل بن حجر له صحبة . وهو وائل بن حجر بن سعيد بن مسروق بن وائل . . . بن أعجب بن مالك بن لأى بن قحطان ، وابنه علقمة بن وائل وعبد الجبار ابن علقمة بن وائل .

ونذكر الآن بنى خلدون الإشبيليين ، فيقال : إنهم من ولد عبد الجبار بن علقمة ابن وائل المذكور قبل) .(وهم أسلاف عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ الفيلسوف المشهور) .

قدوم وائل بن حُجر إلى رسول الله .

روى البخارى رحمه الله فى التاريخ ، والبزار والطبرانى والبيهقى عن وائل بن حُجر رضي الله عنه قال :

بلغنا ظهور رسول الله ﷺ ، ،وأنا فى بلد عظيم ورفاهة عظيمة ، فرفضت ذلك ورغبت إلى الله عز وجل ، وإلى رسول الله ﷺ ، فلما قدمت عليه أخبرنى أصحابه أنه بشر بمقدمى عليهم قبل أن أقدم بثلاث ليالٍ .

قال الطبرانى : فلما قدمت على رسول الله ﷺ ، سلمت عليه فردً على وبسط لى رادءه وأجلسنى عليه . ثم صعد منبره ، وأقعدنى معه ، ورفع يديه وحمد الله تعالى . وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ واجتمع الناس إليه فقال لهم :

« يا أيها الناس هذا وائل بن حجر قد أتاكم من أرض بعيدة من حضرموت طائعًا غير مكره . راغبًا فى الله وفى رسول وفى دين نبيه ، بقية أبناء الملوك » .

فقلت : يا رسول الله ، ما هو إلا أن بلغنا ظهورك ، ونحن فى ملك عظيم وطاعة . وأتيتك راغبًا فى دين الله . فقال : « صدقت » .

وعن وائل بن حجر قال :

جئت رسول الله ﷺ فقال : « هذا وائل بن حُجر ، جاء حبًا لله ورسوله » .

وبسط يده ، وأجلسه وضمه إليه ، وأصعده المنبر ، وخطب الناس فقال : «ارفقوا به فإنه حديث عهد بالملك » ، فقلت : إن أهلى غلبونى على الذى لى . فقال : « أنا أعطيك وأعطيك صعفه » .

وروى الطبرانى ، وأبو نعيم أن رسول الله أصعده على المنبر ، ودعا له ومسح رأسه وقال : « اللهم بارك فى وائل وولده وولد ولده) . ونودى : الصلاة جامعة ليجتمع الناس سروراً وبمقدم وائل بن حجر إلى رسول الله . وأمر رسول الله ﷺ معاوية بن أبى سفيان أن ينزله منزلاً فى الحرة . فمشى معه ووائل راكب . فقال له معاوية ، أردفنى خلفك ! وشكا إليه حر الرمضاء ، فقال : لست من أرداف الملوك . قال : فألق إلىَّ نعلك . قال : لا . إنى لم أكن لألبسهما وقد لبستهما . قال : إن الرمضاء قد أحرقت قدمى . قال : امشى فى ظل ناقتى . كفاك به شرفًا . فلما أراد الشخوص إلى بلاده كتب له رسول الله ﷺ كتابًا (١) .

(وكتب رسول الله ﷺ لوائل بن حجر لما أراد الشخوص إلى بلاده قال :

يا رسول الله ، ، اكتب لى إلى قومى كتابًا . فقال رسول الله ﷺ :

« أكتب له يا معاوية إلى الأقيال العباهلة ليقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، الصدقة على التيعة السائمة لصاحبها التيمة لا خلاط ولا وراط ولا شغار ولا جلب ولا جنب ولا شناق وعليهم العون لسرايا المسلمين ، وعلى كل عشرة ما تحمل العِراب من أجبأ فقد أربى » .

وقال وائل : يا رسول الله ، ، اكتب لى بأرضى التى كانت فى الجاهلية .

وشهد له أقيال حمير وأقيال حضرموت فكتب له :

« هذا كتاب من محمد النبى لوائل بن حجر قيْل حضرموت . وذلك أنك أسلمتَ، وجعلتُ لك ما فى يديك من الأرضين والحصون ، وأنه يؤخذ منك من كل عشرةَ واحد . ينظر فى ذلك ذوا عدل . وجعلت لك ألا تظلم فيها ما قام الدين والنبى والمؤمنون عليه أنصار » .

قالوا: وكان الأشعث بن قيس وغيره من كندة نازعوا وائل بن حجر فى واد بحضرموت فادعوه عند رسول الله ﷺ . فكتب به رسول الله ﷺ لوائل بن حجر) (٢).

* * *

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦ / ٦٦٥ ، ٦٦٦ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٢٨٧ .

إن الصورة المطابقة تمامًا فى تعامل رسول الله ﷺ . مع وائل بن حجر هى صورة تعامله مع جرير بن عبد الله البجلى رضي الله عنه. ويظهر التطابق بينهما فى الصور الآتية .

١ ـ بشر رسول الله ﷺ بقدومهما قبل وصولهما . مثنيًا عليهما ثناءً طيبًا . فكانت بشارة النبى ﷺ بجرير .

إنه سيدخل عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن . وإن على وجهه لمسحة ملك وكانت بشارته بوائل .

يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة من حضرموت طائعًا راغبًا فى الله عز وجل وفى رسوله ، بقية أبناء الملوك .

٢ ـ وكلا السيدين زعيم وملك فى قومه فجرير على وجهه مسحة ملك) ووائل (بقية أبناء الملوك) .

٣ ـ وكلاهما أجلسه رسول الله ﷺ إلى جنبه وبسط له رداءه فأجلسه عليه .

فجرير (ثم بسط له عرض ردائه وقال له : « على هذا يا جرير فاقعد ») .

ووائل (فلما قدمت عليه سلمت عليه فرد على السلام ، وبسط لى رداءه وأجلسنى عليه) .

٤ ـ وكلاهما برَّك رسول الله عليهما ، ودعا لهما :

جرير (فأجلسه إلى جنبه ومسح بيده على رأسه ووجهه وصدره وبطنه . حتى انحنى جرير حياء أن يدخل يده تحت إزاره ، وهو يدعو له بالبركه ولذريته . ثم مسح رأسه وصدره وهو يدعو له ، وائل (ودعا له ومسح رأسه وقال : « اللهم بارك فى وائل وولده وولد ولده ») .

٥ ـ وكلاهما قدم راغبًا فى الله ورسوله ، طائعًا مختارًا وهو فى عزة وملك ورفاهية عظيمة ، جرير أتيت رسول الله ﷺ . فقلت : يا رسول الله ، أبايعك على الهجرة . فبايعنى رسول الله ﷺ واشترط على النصح لكل مسلم فبايعته على هذا .

وفى رواية : (لما بعث النبى ﷺ أتيته . فقال لى : « ما جاء بك ؟ » قلت : جئت لأسلم ، وائل فقلت : يا رسول الله ، ما هو إلا أن بلغنا ظهورك ونحن فى ملك عظيم وطاعة . وأتيتك راغبًا فى دين الله عز وجل . قال : « صدقت ») .

٦ ـ وكلاهما من أعرق أهل اليمن نسبًا . فجرير أزدى بجلى . ووائل حضرمى .

٧ ـ وكلاهما وفد فى السنة العاشرة للهجرة أو التاسعة على خلاف فى الروايات .

٨ ـ وزاد من حفاوة وائل عن جرير ﷺ أن أجلس وائل معه على منبره . ونودى بالصلاة جامعة ، واجتمع الناس فرحًا بمقدمه .

٩ ـ وزاد من حفاوة جرير عن وائل ﷺ أن مسح بيده على رأسه ووجهه وصدره وبطنه حتى انحنى جرير حياءً أن يدخل يده تحت إزاره وهو يدعو له بالبركة ولذريته .

أما نماذج الافتراق بين الشخصيتين العظيمتين،مع اتحاد معدنهما وعظمة محتدهما ، وأصالة عنصرهما :

١ ـ جاء جرير ﷺ وهو يحمل رسالة الجهاد فى سبيل الله ويرنو إلى أن يقضى على معالم الوثنية كلها من قومه،ولهذا أرسل رسول الله ﷺ إلى ذى الخلصة ليهدمه ، وهدمه ومن أجل هذا جاء بالوفد الكبير الذى معه . فهو يحمل على أكتافه همًّ قومه وإسلامهم .

٢ ـ بينما نلقى وائل ﷺ وهو يحمل رغبته العظيمة فى إسلامه جاء شاكيًا لرسول الله ﷺ قومه الذين ظلموه . وتعهد رسول الله ﷺ أن يزيل هذا الظلم عنه بقوله : « أنا أعطيه وأعطيك ضعفه » .

٣ ـ وفى الوقت الذى يُحمل رسول الله المسؤولية جريرًا عقب قدومه ويدعو له: « اللهم ثبته على الخيل واجعله هاديًا مهديًا » .

وينفذ المهمة قائلاً فأتيناه فأسرناه وحرقناه وقتلنا من وجدنا عنده .

في الوقت نفسه كان رسول الله ﷺ يدعو المسلمين إلى أن يرفقوا بوائل ويتجاوزوا عن هناته قائلاً (فخطب بهم قائلاً : « ارفقوا به فإنه حديث عهد بالملك » .

وعلى ضوء هذا التوجيه النبوى نفقه قصته مع معاوية ﷺ فكانت إجاباته إجابة ملك لسوقة .

فقال له معاوية : أردفنى خلفك ـ وشكا إليه حر الرمضاء ، فقال : لست من أرداف الملوك قال : فألق إلىَّ نعليك .قال : إنى لم أكن لألبسهما وقد لبستهما . قال إن الرمضاء قد أحرقت قدمى . قال : امش فى ظل ناقتى كفاك بها شرفا) .

وقد نفذ معاوية رضي الله عنه أمر رسول الله ﷺ وأنزله المنزل المناسب لمقامه وجاء معاوية يشكو إلى رسول الله ﷺ . استعلاء وائل عليه واستهانته به قال معاوية : فأتيت النبى ﷺ ،فأنبأته بقوله فقال :

« إن فيه لعبيَّة من عبيَّة الجاهلية » (١) .

فلا تزال آثارها فيه . ومن أجل ذلك ،أراد رسول الله ﷺ أن يُعلم وائل مقام معاوية عند رسول الله عندما قال وائل : يا رسول الله اكتب إلى قومى كتابًا .

فكان معاوية هو المختار للكتابة قائلاً له :

« اكتب له يا معاوية إلى الأقيال العباهلة » .

وأدرك وائل أنه تجاوز قدر هذا الفتى القرشى . وما نشك أنه علم أنه ابن أبى سفيان سيد قريش . ومعاوية نفسه الذى كتب الكتاب الثانى لوائل حين قال له :

يا رسول الله ، اكتب لى بأرضى التى كانت فى الجاهلية .

ومر الزمن وبقى وائل بن حجر على العهد . وتغيرت فيهم الجاهلية . وصار القدم فى الإسلام هو ميزان الرجال ، ومن أجل هذا كانت الخلافة فى الخلفاء الأربعة . وقدم وائل من حضرموت وانضم إلى الزعامات الإسلامية المجاهدة والتى جعلت الكوفة موطن تجمعها .

وشهد مع علىٍّ صفين ، وكان على راية حضرموت يومئذ .

وعاش إلى أيام معاوية ووفد عليه ، فأجلسه معه على السرير ، وذكره الحديث .

قال وائل : فوددت أنى كنت حملته بين يدى (٢) .

وحيث لم يكن عند معاوية رضي الله عنه من عُبية الجاهلية شىء . خاصة . وقد كان قائد قومه فى جيش على . وهذه مناسبة لإرغامه وإهانته . ولكن معاوية العظيم الحليم تناسى ذلك كله . وأجلسه بجواره على سريره كما يجلس الملوك . اقتداء برسول الله ﷺ الذى أجلسه على ردائه . وأقعده ، بجواره وأصعده منبره ،وأجلسه معه عليه .

وكان الخطابان النبويان اللذان سلمهما رسول الله لوائل أحدهما لقومه وثانيهما بأرضه ينصان على مقادير الزكاة . وحق الله فى الأرض وغيرها ، وكان وائل الجندى

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ٣٥١ .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٥ / ٨١ .

الأمين كما كان جرير رضي الله عنه الجندى الأمين . وصار ملوك اليمن جنوداً فى مدرسة محمد ﷺ وأقر الله تعالى عين نبيه بهم .

ولم يخفق فقط قلب الملك وقيل حضرموت وائل بن حجر لرسول الله ﷺ . بل خفق قلب امرأة من حضرموت . لا تملك سعة وائل ولا زعامته لكنها تملك قلبًا كقلبه يحدثنا عنها عمرو بن مهاجر الكندى قال : كانت امرأة من حضرموت . ثم من تنعه يقال لها : تهناة بنت كليب ، صنعت لرسول الله ﷺ كسوة ثم دعت ابنها كليباً بن أسد ابن كليب فقالت :

انطلق بهذه الكسوة إلى النبى ﷺ .

فأتاه بها وأسلم فدعا له .

وقال كليب حين أتى النبى ﷺ :

من وشز برِ هوت تهوى بى عذافرة ... إليك يا خير من يحفى وينتقل
تجوب بى صفصفًا غبراً مناهله ... تزداد عفواً إذا ما كلت الإبل
شهرين أعملها نصًا على وجلٍ ... أرجو بذاك ثواب الله يا رجل
أنت النبى الذى كنا نخبره ... وبشرتنا بك التوراة والرسل

وبقيت هذه المأثرة الخالدة . مسح رسول الله ﷺ لرأس كليب فخرًا يتناوله الجيل بعد الجيل .

فقال رجل من ولد يعرّض بناس من قومه :

لقد مسح الرسول أبا أبينا ... ولم يمسح وجوه بنى بحير
شبابهم وشيبهم سواءٌ ... فهم فى اللؤم أسنان الحمير

الرائد الأول : العلاء بن الحضرمى

ولا يمكن أن ننسى الرائد الحضرمى الأول . من السابقين الأولين من المهاجرين نعرضه كما ورد فى أسد الغابة لابن الأثير .

والعلاء بن الحضرمى . واسم الحضرمى عبد الله ـ بن عباد . . . بن الصدف . . . ابن ضمار بن مالك . . ولا يختلفوا أنه من حضرموت ، حليف حرب بن أمية . ولاه

رسول الله ﷺ ، البحرين وتوفى النبى ﷺ وهو عليها . فأقره أبو بكر خلافته كلها. ثم أقره عمر وتوفى فى خلافة عمر سنة أربع عشرة . وقيل : توفى سنة إحدى وعشرين واليًا على البحرين واستعمل عمر بعده أبا هريرة . وهذا العلاء هو أخو عامر ابن الحضرمى الذى قتل يوم بدر كافرًا ، وأخوهما عمرو بن الحضرمى أول قتيل من المشركين قتله مسلم ، قتل يوم نخلة ، وأمهم الصعبة بنت الحضرمى . وتزوجها وطلقها،فخلف عليهما عبد الله بن عثمان التيمى فولدت له طلحة بن عبيد الله التيمى . قال هذا جميعها ابن الكلبى ويقال إن العلاء كان مجاب الدعوة ، وأنه خاض البحر بكلمات قالها ودعا بها ولما قاتل أهل الردة بالبحرين كان له فى قتالهم أثر كبير . . . وذلك مشهور عنه . وكان له أخ يقال له ميمون بن الحضرمى وهو صاحب البئر التى بأعلى مكة المعروفة ببئر ميمون ، وحفرها فى الجاهلية .

أخبرنا إبراهيم بن محمد وغيره بإسنادهم إلى العلاء بن الحضرمى ،يعنى مرفوعًا قال :

« يمكث المهاجر بعد قضاء نسكه بمكة ثلاثًا » . . . رواه إسماعيل بن محمد . . . أخرجه الثلاثة) (١)



وهكذا ننتهى من الوفود التى وفدت على رسول الله ﷺ من أنحاء جزيرة العرب شمالها وجنوبها وشرقها وغربها ورأينا العظمة النبوية فى فن التعامل مع القيادات العربية فى أرض العرب على كل مستوياتها من ملوك وأشراف وسادة ونوابغ وشعراء،لننتقل بعدها فى الجزء الثانى من التربية السياسية نتحدث فيها عن إقامة دولة العرب قاطبة . وعن تربية هذه الأمة لتكون حاملة مشعل الحضارة فى الأرض ودارثة حضارة الفرس والروم وتتقدم لهذا العالم بهذا الدين الجديد.حيث لم يمض رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا وقد أتم تربية الأمة على هذا الدين الذى اكتمل وتمت به النعمة على الأمة : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مكة المكرمة

غرة ربيع الأول / ١٤٢٢هـ

د . منير محمد الغضبان

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٤ / ٨٠٧ .

بسم الله

أشكر الله على نعمة الإيمان والعقل أتممت قراءة هذا الكتاب

يوم السبت ١٠/جماد الثاني/١٤٤٨ للهجرة المصطفى [illegible] عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين

[illegible] ٧

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

رقـــم الإيـــداع : ١٧٨٨٥ / ٢٠٠٢م

I.S.B.N : 977 - 15-0404 -5

هذا الكتاب

★ لقد بقى العرب ما ينوف عن ألف عام - قبل البعثة - وهم يتصارعون فيما بينهم ،وعجزوا أن يؤسسوا دولة يتجاوزون فيها عالم القبيلة ،ولا يخضعون إلا لقيمها فى الثأر وسفك الدماء حيث يرون فى ذلك أمجادهم وآثارهم !!

★ وما إن ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية ،وصدع النبى ﷺ بالحق فى أهلها حتى دانت الجزيرة كلها لهذا الدين وللنبى القائد ﷺ ،ولأول مرة فى تاريخ العرب كلهم يصبحون أمة واحدة على رأسها قائد واحد وهو رسول رب العالمين .

★ والمؤلف - جزاه الله خيرا - إنما أراد أن يبين فى هذا الكتاب كيف استطاع سيد الخلق محمد ﷺ أن يسوس هذه الأمة سياسة نرى فيها عظمة المصطفى ﷺ فى فن سياسة الأمم وترويض القادة والعظماء ،مما كان له أعظم الأثر فى تكوين جيل تربى على يد النبى ﷺ تربية سياسية استطاع بها أن يسوس الدنيا ويخضع الناس لله رب العالمين - بكل ثقة ورضا - تحت راية لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

★ كما لم يفت المؤلف أن يختم الكتاب بخطوط ومعالم فى التربية السياسية لتكون زادا ونبراسا لكل قائد يريد أن يأخذ القدوة والأسوة من النبى محمد ﷺ .

★ ودار الوفاء يسرها أن تقدم هذا الكتاب لقرائها الكرام راجية أن يعم به النفع والله من وراء القصد .

الناشر



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة : شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب : ٢٣٠

ت : ٢٢٥٦٢٢ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس : ٢٢٦٠٩٧٤ / ٠٥٠

المكتبة : أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠

E-Mail: DAR ELWAFA@HOTMAIL.COM